تفسير السمرقندي

المسمى

(بحر العلوم)

تأليف

نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي

من علماء القرن الرابع الهجري

تحقيق

الدكتور محمود مطرجي

الجزء الأول

نسخة جديدة منقحة ومصححة ومشكولة الأحاديث والآيات
ومحققة على أصل مخطوط

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

تفسير السمرقندي

المسمى

بحر العلوم

Marfat.com

تفسير السمرقندي

المسمى

بحر العلوم

تأليف

نصر الدين محمد بن أحمد أبو الليث

السمرقندي

من علماء القرن الرابع الهجري

حققه وقدم له وعلق عليه

الدكتور محمود مطرجي

الجزء الأول

نسخة محققة على مخطوطات ومشكولة الآيات والأحاديث

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

Marfat.com

جميع حقوق إعادة الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م

دار الفكر
حارة حريك - شارع عبد النور - برقياً: فكسي - ص.ب ١١/٧٠٦١
تلفون: ٨٣٨٣٠٥/٨٣٨٢٠٢/٨٣٨١٣٦ فاكس ٠٠٩٦١١٨٣٧٨٩٨
دولي: ٠٠٩٦١١٨٦٠٩٦٢
بيروت
لبنان

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى التفسير

١ ـ خاطب الله سبحانه وتعالى خلقه بما يفهمونه، وأرسل كلَّ رسولٍ بلسان قومه، وأنزل كتابه على نعتهم. وأخبر سبحانه وتعالى: أنه أنزل القرآن الكريم بلسانٍ عربي فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١) وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(٢).

وقال الطبري: «نزل القرآن بألسن بعض العرب دون ألسن جديعها، وأن قراءة المسلمين اليوم ومصاحفهم التي بين أظهرهم ببعض الألسن التي نزل بها القرآن دون البعض»(٣).

وقال السيوطي في الإتقان: «إن التفسير من فروض الكفايات، وأجلّ العلوم الثلاثة الشرعية. وقال الأصبهاني: التفسير أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان لوجه الحاجة إليه، وشرف الموضوع»(٤).

أمّا وجه الحاجة إلى التفسير، فتظهر في أن القرآن نزل بلسان عربي، في زمن أفصح العرب. فكانوا يعلمون كثيراً من مفرداته ومدلولاتها، وتراكيبه ومعانيه، وأسباب نزول الآيات، وظواهره، وأحكامه. وإذا أشكل على المسلمين الأوائل بعض دقائق باطنة ومعانيه، فكانوا يلجأون إلى النبي ﷺ يسألونه فيجيبهم ويشرح ويفسر ما غمض وأشكل عليهم مع فصاحتهم وثاقب نظرهم. وفي سورة الأنعام مثال ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾(٥) وقد شقّ على الناس معنى الظلم هل هو المألوف في لغتهم؟ قال السمرقندي: قال ابن مسعود: «فقالوا: يا رسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟ ففسّر لهم رسول الله ﷺ الظلم بالشرك، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٦). ومنها تفسيره لعائشة رضي الله عنها معنى الحساب اليسير، ولعدي بن حاتم الخيط الأبيض والخيط الأسود.

والمسلمون بعد عصر الصدر الأول وإلى اليوم، هم بحاجة إلى ما كان يحتاج إليه أهل

(١) سورة يوسف، الآية: ٢.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ ـ ١٩٥.
(٣) تفسير الطبري: ١/ ٣٢ ـ طبعة دار الفكر، بيروت.
(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٢/ ١٧٥. المكتبة الثقافية. بيروت.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٦) سورة لقمان، الآية: ١٣.

Marfat.com

الصدر الأول وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة كما يقول السيوطي، ولأن النصّ الديني لم يصل إلينا المراد منه بالسماع، ولا إمكان للوصول إليه، بخلاف الأشعار والأمثال ونحوها، فإنّ الإنسان يفهم المراد فيها إذا استمع إلى صاحبها، أمّا القرآن فتفسيره على جهة القطع لا يعلم إلا بسماع من رسول الله ﷺ، وذلك متعذّر في عصره إلا في آيات قلائل، لذا كان العلم بالمراد يستنبط بإمارات ودلائل، وقد تكون الحكمة في ذلك: أن الله سبحانه أراد أن يتفكر عباده المؤمنون في آيات كتابه، فلم يأمر نبيه ﷺ بالتنصيص على المراد بجميع آياته.

أمّا شرف التفسير، فقد حدّده عز وجل في قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(١) وقال ابن عباس: الحكمة هي المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

ثمّ إنّ شرف الصناعة قد ترتبط بموضوعها، كالصياغة التي هي أشرف من الدباغة، أو بشرف غرضها كالطب أشرف من الكناسة، أو بشدة الحاجة إليها كالفقه الذي ينتظم به صلاح أحوال الدين والدنيا، بخلاف الطب الذي يحتاجه المرضى دون غيرهم. أمّا صناعة التفسير فقد حازت جميع مراتب الشرف، لأن موضوعه هو كلام الله سبحانه وتعالى، وغرضه هو الوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى، والحاجة إليه ترتبط بأنّ كلّ كمال ديني ودينوي مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى. فما هو التفسير والتأويل؟

٢ ـ التفسير لغة:

لغة: هو الكشف والبيان، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(٢) أي بياناً وتفصيلاً.

قال صاحب الإتقان: هو تفعيل من الفسر، وهو البيان والكشف(٣)، وهو قول ابن فارس والجوهري وابن منظور: الفسر هو البيان، والتفسير هو الكشف.

أي هو مصدر لفسّر وفسَر بتشديد السين وتخفيفها. وفسّرت الكتاب، أفسّره تفسيراً، وفسرته أفسره تفسيراً.

ويقال: هو مقلوب من السفر، تقول: أسفر الصبح، إذا أضاء وكشف، وعليه يكون التفسير إضاءةً للنصّ وتوضيحاً لمعانيه، وكشفاً لمضمونه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.
(٣) الإتقان: ٢/ ١٧٣.

Marfat.com

وفي أساس البلاغة: مأخوذ من التَّفسرة، مثل: جرَّب تجربة، وكرَّم تكرمة، وفسَّر تفسرة والتفسرة: اسم لما يعرف به الطبيب المرض، وهو قول السيوطي. أي ما يستدل به الطبيب على علة المريض، وذلك بأن يكشف بالنظر عن العلة، والمفسّر هو الذي يكشف بالأدلة والقرائن عن المعنى.

٣ ـ التفسير اصطلاحاً

حدَّده ابن حيان في البحر المحيط: «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك»(١).

وشرح السيوطي هذا التعريف في الاتقان(٢) فقال: «هو معنى يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن»: هو علم القراءة، لأن المعنى يختلف باختلاف القراءة. ومثلٌ من قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾(٣) قال السمرقندي: ففي قراءة حمزة وعاصم والكسائي في رواية أبي بكر ﴿يطهرن﴾ بتشديد الطاء والهاء والنصب بمعنى: حتى يغتسلن بالماء. وقرأ الباقون ﴿حتى يطهرن﴾ بالتخفيف بمعنى ينقطع الدم عنهنّ.

وقوله: «مدلولاتها»: أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا متن علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم.

وقوله: «وأحكامها الافرادية والتركيبية»: وهذا يشمل علم التصريف والبيان والبديع.

وقوله: «ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب» يشمل ما دلالته بالحقيقة وما دلالته بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً يصدّ عنه الحمل عليه صادٌ، فيحمل على غيره، وهو المجاز.

وقوله: «وتتمات لذلك» هو مثل معرفة الناسخ والمنسوخ، وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما أبهم في القرآن ونحو ذلك.

يشير التعريف المتقدّم إلى الآلة التي يحتاجها المفسر كي يلج إلى النصّ، وهي: علوم اللغة، والنحو، والبلاغة، والتصريف. ولكلّ علم من هذه العلوم قواعده وتعريفاته. إلا أن الآلة وسيلة وليست غاية. هي وسيلة تهدف إلى الكشف عن النصّ، وليست تحديداً أو تعريفاً للتفسير.

وحدّده الزركشي بقوله: «التفسير علم يُفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه

(١) البحر المحيط: ١/ ١٣. طبعة دار الفكر ـ بيروت.
(٢) الإتقان: ٢/ ١٧٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

Marfat.com

محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ومعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ». وهو تعريف أشمل من السابق.

وحدّده السيوطي فقال: «هو علم نزول الآيات وشؤونها الخاصة، وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثمّ ترتيب مكيّها ومدنيّها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها، وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسّرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها».

تشير التعريفات المتقدّمة إلى العلوم التي يجب أن يتخذها المفسّر للكشف والإيضاح عن المعنى. أي تهدف هذه العلوم إلى بيان المقصود من النصّ، لا العلوم بذاتها، وهذا يتوافق مع التفسير اللغوي، إذ هدف الإثنين هو الكشف والتوضيح.

٤ ـ التأويل لغة:

هو المرجع والمصير والمردّ. وقيل: التدبير والتقدير والتفسير. وقال ابن فارس: هو انتهاء الشيء ومصيره وعاقبته. وفي أساس البلاغة: هو الردّ، يقال: أَوَّلَ الكلام إلى أهله، أي ردّه عليهم.

وفي القاموس المحيط: أوّل الكلام وتأوّله تأويلاً، دبّره وقدّره وفسّره.

واتفقوا أن أصل التأويل من الأوْل، وهو الرجوع. وآل الشيء يؤول، إذا رجع وصار إليه. والمؤوّل هو الذي يرجع بالكلام أو الآية إلى ما تحتمله منَ المعاني. والتأويل: الرجوع، فكأنه صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني.

وقيل: هو مأخوذ من الإيالة، وهي السياسة، وآل الرعية، يؤولها إيالة: فكان المؤول للكلام قد ساس الكلام ووضع المعنى فيه موضعه كما قال السيوطي في الاتقان، أي يسوس الكلام فيقلّبه لينتهي بالمعنى إلى موضعه.

٥ ـ التأويل اصطلاحاً:

اختلف علماء التفسير في المصطلح

فعند أبي عبيد وطائفة: التأويل والتفسير بمعنى واحد، أي يعرف التأويل بما يعرف به التفسير، ولا فرق بينهما اصطلاحاً.

وأنكر عليه قوم فقال السيوطي: حتى بالغ ابن حبيب النيسابوري فقال: «نبغ في زماننا مفسّرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه»(١).

وأقام كثير من العلماء حدوداً واختلافات بين التفسير والتأويل فقال الراغب الأصفهاني:

(١) الإتقان: ٢/ ١٧٣.

Marfat.com

التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعمال التفسير في الألفاظ ومفرداتها. وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل، وفي الكتب الإلهية، وأمّا التفسير فيستعمل في الكتب الإلهية وغيرها.

وقال غيره: التفسير بيان لفظ يحتمل وجهاً واحداً، والتأويل هو توجيه لفظٍ متوجّه إلى معانٍ مختلفة إلى واحد منها، بما ظهر من الأدلة.

أما الماتريدي فقال: «التفسير هو القطع بأن المراد من هذا اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى بهذا اللفظ هذا. فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي وهو منهيّ عنه. وأمّا التأويل فهو ترجيح أحد الاحتمالات دون القطع والشهادة على الله سبحانه[١]».

وقال الثعالبي[٢]: «التفسير هو بيان وضع اللفظ إمّا حقيقةً أو مجازاً كتفسير الصراط بالطريق، والصيّب بالمطر. والتأويل تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأوْل، وهو الرجوع لعاقبة الأمر».

وعلى هذا يكون التفسير أخباراً عن دليل المراد، والتأويل أخباراً عن حقيقته، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل. ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٣] ففي التفسير: المرصاد من الرصد، مفعال منه، يقال: رصدتُه، راقبته. والتأويل هو التحذر من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة، والاستعداد للعرض عليه. وقواطع الأدلة هنا تقتضي: أن المراد منه على خلاف وضع اللفظ.

أمّا قدماء المفسرين كابن جرير الطبري، فالتفسير عنده مرادف للتأويل، وحتى القرطبي في تفسيره للآية ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾[٤] اشتقاق التأويل من آل إلى كذا، يؤول إليه إذا صار، وأوّله تأويلاً، أي صيّره، فجعلا التأويل مرادفاً للتفسير. وعلى هذا يحمل قول المبرد وابن الأعرابي في دعاء النبي ﷺ لابن عباس: «اللهمّ فقهه في الدين وعلّمه التأويل».

ورفض المتأخرون هذا الترادف بين التفسير والتأويل وأقاموا حدوداً بينهما، فرأى بعضهم: أن التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى يحتمله الدليل. وقال البغوي: «هو صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها، بطريق الاستنباط، وغير مخالف للكتاب والسنة».

ويبقى التفسير موضوعاً مبيّناً كما في كتاب الله، ومعيناً في صحيح السنة. لأن معناه قد وضح وظهر، وليس لأحد أن يعترض عليه باجتهاد ولا غيره، بل يحمله كل مفسّر على المعنى الذي ورد فيه ولا يتعدّاه. أمّا التأويل، فهو ما استنبطه العلماء العاملون لمعاني الخطاب الإلهي، الماهرون بآلات العلوم.

---

(١) (٢) المرجع السابق: ٢/ ١٧٣.

(٣) سورة الفجر، الآية: ١٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤.

Marfat.com

٦ ـ العلوم ـ الآلة ـ التي يحتاج إليها المفسّر والمؤوّل:

تقدّم في تحديد التفسير والتأويل: أن المفسّر يعتمد على آلة تفتح له مغاليق النصّ فتوضّحه وتكشفه. وأن هذه الآلة ضرورية كي تظهر المراد من النص، وتوضع معانيه، وتستخرج أحكامه، وتبعد صاحبها عن الوقوع في الخطأ، وتقيه الزّلل، وتدنيه من الصواب. هذه الآلة هي عدد من العلوم يستخدمها المفسر وسيلة لهدف، وليست غرضاً لذاتها. وقد أوجزها السيوطي في الاتقان بخمسة عشر علماً[١].

الأول: اللغة «وبها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع». قال مجاهد: «لا يحل لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب».

الثاني: النحو، لأن المعنى يختلف ويتغير باختلاف الإعراب فلا بدّ من اعتباره. وربما كان الجهل بالنحو سبيلاً إلى الكفر، في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[٢] إذا قرأ ﴿ورسوله﴾ بالكسر فقد كفر. والصحيح: أنها بالرفع.

الثالث: التّصريف. وبه تعرف صيغة الكلمة، فإذا وجدت كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها. وفي الآية ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾[٣] فالجاهل هو الذي يعتبر إمامهم جمع أم، ويكون المعنى: يدعى الناس يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، والذي يقول إلى هذا المعنى هو الجهل بالتصريف، فإنّ أمّاً لا تجمع على إمام.

الرابع: الاشتقاق. لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما كالمسيح من المسح أو السياحة، هل سمّي مسيحاً لكثرة سياحته، أو لأنه كان يمسح على ذوي العاهات فيبرأون بإذن الله؟ والنبي هل هو من النبأ بمعنى الخبر، أي المخبر عن الله، أم من النبوة بمعنى الرفعة؟.

الخامس والسادس والسابع: علوم المعاني والبيان والبديع علوم البلاغة. فبالمعاني: يدرك خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى. وبالبيان: يدرك خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها. وبالبديع: يدرك وجوه تحسين الكلام. وهي أركان مهمة للمفسر لمراعاة ما يقتضيه الإعجاز.

الثامن: علم القراءات. وبه يعرف كيفية النطق بالقرآن، وبه يترجّح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

---

(١) الإتقان: ٢/ ١٨٠ ـ ١٨٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

Marfat.com

التاسع: علم أصول الدين. وبه يعرف من الآية الدالة بظاهرها على ما لا يجوز على الله تعالى، فالأصولي يؤوّل ذلك ويستدل على ما يستحيل وما يجب، وما يجوز.

العاشر: علم أصول الفقه. وبه يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط.

الحادي عشر: علم أسباب النزول. والقصص والأخبار ليتمكن من معرفة معنى الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت فيه.

الثاني عشر: علم الناسخ والمنسوخ.

الثالث عشر: علم الفقه. ويعرف به طريق الاستنباط من النصوص. ومعرفة مذاهب الفقهاء، واحتجاج كل فقيه بالآية التي يتخذها أصلاً في مذهبه وفتواه.

الرابع عشر: الأحاديث والآثار المبينة لتفسير المجمل والمبهم.

الخامس عشر: علم الموهبة. وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم.

وقد أضاف بعضهم: المعرفة بالأديان السماوية السابقة على الإسلام وما دخل عليها من تحريف وتغيير. والعلم بالسير: سيرة النبي ﷺ وأصحابه، وأحوال العرب في تاريخهم قبل الإسلام، ومعرفة أحوال الأمم الماضية، ومعرفة أيام الإسلام كيوم بدر، والخندق، والحديبية، وفتح مكة، وفتح خيبر...

هذه العلوم هي كالآلة للمفسّر، لا يكون مفسّراً إلا بتحصيلها. ومن كان مفسّراً بدونها، كان مفسّراً بالرأي المنهي عنه. وإذا فسّر مع حصولها، لم يكن مفسّراً بالرأي. وقد امتلك السمرقندي ناصية هذه العلوم، فأظهر في تفسيره إحاطة تامة بهذه العلوم، وقدرة كبيرة على استخدامها في تفسيره للآيات القرآنية كما سيأتي.

٧ ـ وجوه التفسير: ما يجوز تفسيره وما لا يجوز تفسيره.

أخرج ابن جرير الطبراني عن ابن عباس قال: «التفسير أربعة أوجهٍ. وجهٌ: تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى»[1] ثم رواه بسند ضعيف مرفوعاً.

الوجه الأول: ما هو واضح تعرفه العرب من كلامها. وهو المفسّر باللسان العربي، أو ما يرجع إلى اللسان العربي وعلومه من اللغة والإعراب. وجب على المفسر معرفة قواعد العربية ليتوصّل بها إلى معرفة المعنى، ويسلم والقارىء من اللحن.

وقال ابن جرير: «وذلك إقامة إعرابه ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة، غير المشترك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإن ذلك لا يجهله أحد»[2]. وذلك كسامع

(١) تفسير الطبري: ١/ ٣٤ والاتقان: ٢/ ١٨٢.

(٢) تفسير الطبري: ١/ ٣٣.

Marfat.com

لو سمع تالياً يتلو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾(١) لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه لضرره، وأن الإصلاح هو ما ينبغي فعله لما فيه من منفعة، وإنْ جَهِلَ المعاني التي جعلها الله إفساداً، والمعاني التي جعلها الله إصلاحاً، فالذي يعلمه ذو اللسان الذي سأل، بلسانه نزل. إلا أن هذا التعريف يقتصر على العرب الخلّص دون سواهم.

وقال الزركشي في البرهان: «قول ابن عباس صحيح، أمّا اللغة فعلى المفسّر معرفة معانيها ومسميات أسمائها ولا يلزم ذلك القارىء. وأمّا الإعراب، فما كان اختلافه محيلاً للمعنى، وجب على المفسّر والقارىء تعلّمه، ليوصل المفسّر إلى معرفة الحكم، ويسلم القارىء من اللحن، وإن لم يكن محيلاً للمعنى، وجب تعلمه على القارىء ليسلم من اللحن، ولا يجب على المفسّر لوصوله إلى المقصود»(٢).

الوجه الثاني: تفسير لا يعذر أحد بجهالته. وهو ما يتبادر إلى الفهم معناه من الآيات المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد. أو هو كلّ لفظٍ أفاد معنى واحداً واضحاً جلياً يعلم أنه مراد الله سبحانه، كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾(٣) أي لا شريك له في الألوهية. فالإنسان يدرك بفطرته وبصفاء الذهن معبوداً واحداً خالقاً للكون وإنْ لم يعلم أنّ «لا» الموضوعة للنفي و«إلا» للإثبات ومقتاضاها الحصر. أي هو يدرك معناها من غير معرفة الأدوات التي اشتملت عليها.

ويعلم الإنسان قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أن هنا طلب إيجاب بإقامة الصلاة وتأدية الزكاة، وإن لم يعلم صيغة أفعل للوجوب.

الوجه الثالث: تفسير تعرفه العلماء. ولا يجوز تفسيره إلا من قبل العلماء الراسخين في العلم، ويُرجع فيه إلى اجتهادهم، ويغلب عليه عادة التأويل. وقيل: كل لفظ احتمل معنيين وأكثر لا يجوز لغير العالم الاجتهاد فيه، مع التأكيد أنه يجب اعتماد الأدلة والشواهد دون الرأي، وأنه إذا كان أحد المعنيين أظهر وجب الحمل عليه، إلا إذا قام دليل أنّ الخفيّ هو المقصود. بل إذا كان أحد الدليلين لغوياً والثاني شرعياً، حمل على الشرعي دون اللغوي، كما في لفظ الصلاة، وجب صرفها إلى الشرعي لا إلى اللغة ومعناها: الدعاء. وكذلك الزكاة تصرف إلى المعنى الشرعي، لا اللغوي وهو الزيادة والنماء، كذلك المسجد مكان العبادة، لا المعنى اللغوي: موضع السجود.

الوجه الرابع: تفسير لا يعلمه إلا الله سبحانه، ولا يجوز لأحد الاشتغال به. وهو ممّا

(١) سورة البقرة، الآية: ١١.
(٢) الإتقان: ٢/ ١٨٢.
(٣) سورة محمد، الآية: ١٩.

Marfat.com

استأثر الله سبحانه بعلمه فلم يطلِعْ عليه أحداً من خلقه. وموضوعه: الروح، وقيام الساعة، وأحوال الآخرة، والحروف المقطعة في أوائل السور، فلا سبيل إلى معرفة ذلك بالآلة المتقدمة في التفسير، إلا إذا وجد نصّ قرآني، أو حديثي أو إجماع الأمة على تأويله: قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1]. والسمرقندي يميل إلى رأي قتادة عن ابن عباس في سورة الإسراء: أنه من المكتوم الذي لا يفسّر. ثم يعرض آثار الذين يؤولونه...

أمّا الآيات المتشابهة مثل ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ و﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ و﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ و﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ فإنّ السلف آمنوا بها كما وردت دون تأويل ولا تشبيه ولا تكييف مع الاعتقاد التام بتنزيه الله عن ظواهرها المعروفة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

وقال الشافعي رحمه الله: لا يفسّر المتشابه إلا بسنةٍ عن رسول الله ﷺ، أو خبر عن أحد من أصحابه، أو إجماع الأمة[2] إلا أن السيوطي يرى عدم الخوض فيه لأنه لا يؤدي إلى أمر تركن إليه النفس ويطمئن إليه القلبُ، وأنه لم ترد رواية عن النبي ﷺ صحيحة وثابتة، والكثرة فيها روايات ضعيفة أو واهية أو مكذوبة، وما ورد عن الصحابة فمعظمه لم يصحَّ عنهم.

ففي سورة الأعراف ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال السمرقندي: قال بعضهم: هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وذكر عن يزيد بن هارون قال: تأويله الإيمان به. وأن رجلاً دخل على مالك بن أنس سأله عن قوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيفية غير معقولة، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً.

وفي سورة الفجر قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ قال السمرقندي: قال بعضهم: هذا من المكتوم الذي لا يفسّر. وقال أهل السنة: وجاء ربك بلا كيف.

٨ ـ نوعا التفسير: المأثور، والرأي.

النوع الأول: التفسير المأثور أو النقلي: والمأثور: مفعول من أثرت الحديث، إذا نقلته. وحديث مأثور، أي منقول. ويعتبر هذا التفسير أصلاً، فما صحّ منه لا يجوز العدول عنه إلى غيره، إلا أنه يجب الحذر فيه لقلّة الصحيح وكثرة الضعيف والموضوع فيه، لما دخله من الإسرائيليات والأقاصيص في أمور الغيب والساعة، وقد سرى من مسلمة أهل الكتاب وصدّقهم فيه الرواة، ثم اختلاف المفسرين في مسائله. ولهذا التفسير مصادره:

المصدر الأول: القرآن الكريم: أي تفسير القرآن بالقرآن. وقال بعضهم: القرآن يفسّر بعضه بعضاً، وأنه قد بيّن في موضع ما أجمله في آخر، أو قيّد ما أطلقه، أو خصّص ما عمّمه. ومن أمثله ذلك في تفسير السمرقندي في أوّل سورة المائدة، قوله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) الإتقان: ٢/ ١٨٣.

Marfat.com

ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾(١) قال السمرقندي: يعني رخصت لكم الأنعام كلها إلا ما حرّم عليكم، ثم فسّر ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في الآية الثالثة فقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

وفي سورة الواقعة قوله عز وجل: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾(٢) قال السمرقندي: تكونون يوم القيامة ثلاثة أصناف. وقد فسّرت الآيات التالية الأصناف ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ و﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ و﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾(٣).

وفي سورة المعارج قوله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾(٤) وقد فسّرتِ الهلعَ الآيتان ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾(٥).

وفي سورة الفاتحة قوله عز وجل: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال السمرقندي قد أجمع المفسّرون أن المغضوب عليهم أراد به اليهود، والضالين أراد بهم النصارى، فإن قيل: كيف صرف المغضوب عليهم إلى اليهود والضالين إلى النصارى، أجاب السمرقندي: استدلالاً بالآية، فلأن الله تعالى قال في قصّة اليهود ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾(٦) وقال تعالى في قصة النصارى ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾(٧).

المصدر الثاني: السّنة النبوية، أي تفسير القرآن بالسّنّة.

والمقصود: الأحاديث الشارحة والمبيّنة لكلام الله تعالى. فما صحّ عنه ﷺ في التفسير، أخذ به للقطع بعصمته وتوفيقه، ولأنه سبحانه وتعالى وعده ببيان القرآن له فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾(٨).

وقال الإمام أحمد: «السنة تفسّر الكتاب وتبيّنه». وقال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٩).

وقال عمران بن الحصين: «ليس في كتاب الله أن الظهر أربع ركعات لا يجهر فيها بالقراءة» أي أن القرآن أجمل ولم يفصل، فجاءت السنة تفسّر وتفصل في آيات الأحكام ما غمض على المسلمين وأشكل عليهم. أمّا في الآيات الكونية والتي تستدعي مجال التأمل والنظر والتدبير، فقد فتح القرآن أمام العقل الإنساني الآفاق للتعرُّف على بدائع خلقه تعالى، فلم تخبر السنة عن حقائقها، وما نقل فهو قليل جداً، وقد يكون الهدف حثّ العقل والتفكير ليتأملا في كتاب الله ليفهموا معانيه، ويكتشفوا الهندسة البديعية التي أبدعها خالق الكون سبحانه وتعالى.

(١) سورة المائدة، الآية: ١.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٧.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ٨ ـ ١١.
(٤) سورة الواقعة، الآية: ١٩.
(٥) سورة المعارج، الآية: ٢٠ ـ ٢١.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٩٠.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٧٧.
(٨) سورة القيامة، الآية: ١٩.
(٩) سورة النحل، الآية: ٣.

Marfat.com

ومن صور تفسير القرآن بالسنة النبوية ما أورده السمرقندي في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: أجمع المفسرون أن المغضوب عليهم أراد به اليهود، والضالين النصارى، ويعرف ذلك بالخبر، فما روي عن رسول الله ﷺ أن رجلاً سأله وهو بوادي القرى: من المغضوب عليهم؟ قال: «اليهود» قال: ومن الضّالين»؟ قال: «النصارى».

وفي سورة الأنفال قوله عز وجل ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(١) قال السمرقندي: يعني السلاح ثم قال: وروى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قرأ على المنبر ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وقال: «**إلا إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي**» ثلاثاً.

وفي سورة الكوثر قوله عز وجل ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾(٢) يفسّر السمرقندي الكوثر بحديثين، أحدهما: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكوثَرُ نهرٌ في الجنّةِ حافَّتَاهُ الذَّهبُ، ومجرَاهُ الدرُّ والياقُوتُ، وماؤه أشدُّ بياضاً من اللَّبَنِ وأحلَى من العَسَلِ**». والثاني: حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «**بينما أنا أسيرُ في الجنةِ فإذا بنهرٍ حافَّتاهُ من اللؤلُؤِ المجوفِ، قلتُ: ما هذا يا جبريلُ، قال: هذا الكوثَرُ الذي أعطَاكَ ربُّكَ**».

المصدر الثالث: تفسير القرآن بالصحابة.

وأصحاب النبي ﷺ هم أعلم الناس بالتفسير بعد النبي ﷺ، مع تفاوت بينهم بما قدّره الله سبحانه لهم من الملكة والتوفيق والفهم لمعاني التنزيل. وقد عاشوا فترة نزول الوحي، وما صاحبه عن وقائع ودلائل، وسمعوا قول النبي ﷺ وعاينوا أفعاله، واعتبروا بما عاينوه من قرائن في نزول القرآن، وتفسير النبي ﷺ لهم. قال الإمام الشافعي رحمه الله: «**هم فوقنا في كلّ علم واجتهاد وورع وعقل**».

ومن صور تفسيرهم ما نقله السمرقندي في النساء ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾(٣) قال السمرقندي: وروي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت الناس يتزوجون اليتامى ولا يعدلون بينهنّ، ولم يكن لهم أحد يخاصم عنهنّ، فنهى الله تعالى المؤمنين عن ذلك فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾».

وفي سورة النصر قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾(٤) قال السمرقندي: كان عمر رضي الله عنه يدني ابن عباس ويقول: سأريكم منه اليوم ما تعرفون به فضله. فسأله عن هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فقال ابن عباس: أعلمه الله تعالى متى يموت فقال ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فهي آيتك من الموت. ولمّا نزلت السورة استبشر أبو بكر وعمر، وسمع بذلك ابن عباس فبكى، فقال له النبي ﷺ: «وما يبكيك»؟ قال ابن عباس: نعيَتْ

---

(١) سورة الأنفال، الآية: .

(٢) سورة الكوثر، الآية: ١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣.

(٤) سورة النصر، الآية: ١.

Marfat.com

نفسك» فقال ﷺ: «صدقت» فعاش بعد هذه السورة سنتين.

وفي سورة الكوثر قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[١] قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يعني ضعْ اليمين على الشمال في الصلاة».

وهل قول الصحابي في التفسير في حكم المرفوع أم الموقوف؟ أجاب الحاكم النيسابوري في مستدركه بأن تفسير الصحابي في حكم المرفوع. وقد نازعه فيه ابن الصلاح وغيره من المتأخرين لأن ذلك مخصوص بما فيه سبب النزول أو نحوه ممّا لا مدخل للرأي منه[٢].

وابن حجر[٣]: يشترط شرطين باعتبار قول الصحابي في حكم المرفوع:

الأول: أن لا يكون الصحابي معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا.

والثاني: أن يكون ممّا لا مجال للرأي فيه، كأسباب النزول، وأحوال يوم القيامة، واليوم الآخر ونحوه.

وذهب بعضهم: إلى أن النبي ﷺ، بيّن لأصحابه معاني القرآن وألفاظه، وأنه لا يتصوّر أن يحفظ القرآن ويعلموا به إذا لم يفهموا معانيه. وقيل: إنه ﷺ بيّن لأصحابه بعض الكلام الآلهي، لأن الحكمة الإلهية تقتضي أن يتفكر المؤمن في النصّ الإلهي، ليفهم معانيه، ويكتشف أسراره وأسرار الخلق والوجود.

واشتهر بالتفسير عشرة من الصحابة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير.

وقال السيوطي: أمّا الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان، فالرواية عنهم قليلة. وأمّا عليّ فروي عنه الكثير، وقيل: إنه في أثناء خطبة له قال: «والله ما نزلت آية إلا وأعلم أبليلٍ نزلت أم بنهارٍ، أم في سهلٍ أم في جبلٍ، وأين نزلت وفيم نزلت».

وأمّا ابن مسعود فهو من حفاظ القرآن، فقد أخرج البخاري من حديث ابن عمر مرفوعاً «خُذُوا القُرآنَ من أربعةٍ: من عبدِ الله بنِ مسعودٍ، وسالمٍ، ومعاذٍ، وأبيّ بن كعب» وقال علي رضي الله عنه: «علم القرآن والسنة انتهى إلى ابن مسعود، وكفى بذلك علماً».

وأمّا ابن عباس فقد دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم فقّههُ في الدين، وعلّمه التأويل» وقال: «اللهمّ آته الحكمة» وسمّاه ابن مسعود: ترجمان القرآن، وكان عمر يجلسه مع صغر سنة مع الأشياخ من الصحابة. وقال مجاهد: «هو البحر» لكثرة علمه. وقال ابن الحنفية: «هو حبر الأمة». وروى عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة، وفيه روايات وطرق مختلفة.

---

(١) سورة الكوثر، الآية: ٢.

(٢) الكفاية: ٢/١٧٩.

(٣) فتح الباري: ١/١٦٧.

Marfat.com

وأبي بن كعب أبو المنذر قال فيه عمر: «أبيُّ أقرأنا» وفي حديث أنس الصحيح: أن النبي ﷺ أمره الله أن يقرأ عليه ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وزيد بن ثابت كاتب الوحي وممّن جمع القرآن في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعثمان. وأمّا أبو موسى وابن الزبير فروي عنهما أقلّ ممّا روي عن ابن مسعود وابن عباس.

المصدر الرابع: التابعون، وهم الذين تعلموا وتفقهوا في العلم عن الصحابة.

واختلف العلماء في اعتبار التابعين مصدراً من مصادر التفسير المأثور، فقال الزركشي: عن أحمد روايتان، واختار ابن عقيل: المنع[1] وحكوه عن شعبة بن الحجاج حتى قال: أقوالهم في الفروع ليست حجّة فكيف تكون حجّة في التفسير؟

إلا أن عمل المفسّرين على خلاف ذلك، فقد امتلأت كتبهم بأقوالهم، واعتبروا أنهم تلقوا تلك الأقوال والشروحات والتفسيرات عن الصحابة. إلا أن أقوال التابعين مع علمهم الذي تلقوه، فقد امتاز عدد لا يستهان به منهم بالضعف والكذب وعدم الثقة. بل إن كثيراً من الروايات التي اعتمدها السمرقندي في تفسيره تعتمد على رواة اتهموا بالضعف والكذب والوضع كالكلبي، والسّدي...

وأشهر التابعين الذين حفل بهم تفسير السمرقندي من تلامذة ابن عباس: عكرمة (ت ١٠٥هـ) والأكثرون على توثيقه وعطاء ابن أبي رباح (ت ١١٤هـ) وسعيد بن جبير (ت ٩٥هـ) ومجاهد ابن جبير (ت ١٠٢هـ). وقال الإمام سفيان الثوري: «خذوا التفسير من أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك».

وهناك أبو العالية رفيع بن مهران (ت ٩٠هـ) قيل: ليس بعد الصحابة أحد أعلم بالقراءة منه. ومحمد بن كعب القرظي (ت ١١٨هـ) من رجال الكتب الستة. وزيد بن أسلم (ت ١٣٦هـ) ومسروق (ت ٦٣هـ) من رجال الكتب الستة. والحسن بن يسار (ت ١١٠هـ) وقتادة (ت ١١٧هـ) من رجال الكتب الستة. مرة بن شراحيل الكوفي (ت ٧٦هـ) أخرج له أصحاب الكتب الستة، والضحاك (ت ١٠٥هـ) وثقة ابن حنبل وأبو زرعة. وطاوس اليماني (ت ١٠٦هـ) ووهب بن منبه (ت ١١٤هـ) بالإضافة إلى أعلام من أهل الرواية كسفيان الثوري (ت ١٦١هـ) وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ) ووكيع الجراح (ت ١٩٦هـ) وشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ) ويزيد بن هرون (ت ٢٠٦هـ) وإسحق بن راهويه (ت ٢٣٨هـ).

وقد ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة، وفيه روايات وطرق مختلفة ورد معظمها في تفسير السمرقندي، وعقد السيوطي في الاتقان فصلاً لها[2] فقال: «فمن جيدها: طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي عنه وقال ابن حجر: رواها عن معاوية بن صالح عن علي بن

---

(١) الإتقان: ٢/١٧٩.
(٢) الإتقان: ٢/١٨٨.

Marfat.com

أبي طلحة عن ابن عباس، وهي عند البخاري: عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في صحيحه كثيراً. وأخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر كثيراً بوسائط بينهم وبين أبي صالح.

وقال قوم: لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير. وقال الخليلي في الإرشاد: تفسير معاوية عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس رواه الكبار عن أبي صالح عن معاوية، وأجمع الحفاظ أن ابن أبي طلحة لم يسمعه من ابن عباس وقال: وهذه التفاسير الطوال التي أسندها إلى ابن عباس غير مرضية، ورواتها مجاهيل. كتفسير جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس.

وتفسير أبي نجيح عن مجاهد، عن ابن عباس قريب إلى الصحة. وتفسير عطاء بن دينار يكتب ويحتجّ به. أمّا تفسير إسماعيل السّدي الذي يورده بأسانيد إلى ابن مسعود وان عباس، وروى عنه الأئمة مثل الثوري وشعبة، ولكنّ التفسير الذي جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا على صحته، وتفسير السمرقندي حافل بهذا السند. وهذا التفسير يورد منه ابن جرير من طريق السدي، عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، ولم يورد ابن أبي حاتم منه شيئاً لأنه التزم أن يخرج أصحّ ما ورد.

والحاكم يخرج منه في مستدركه أشياء ويصحّحه، لكن من طريق مرة، عن ابن مسعود فقط، دون الطريق الأول. وقد قال ابن كثير: إن هذا الإسناد يروي به السدي أشياء فيها غرابة.

ومن جيد الطرق عن ابن عباس: طريق قيس، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وهي طرق صحيحة على شرط الشيخين.

وطريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس هي طريقة جيدة بإسنادها وإسنادها حسن، وقد أخرج منها: ابن جرير وابن أبي حاتم.

وأوهى الطرق هي طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فإن انضمّ إلى ذلك رواية: محمد بن مروان السّدي الصغير، فهي سلسلة الكذب. إلا أن ابن عدي في الكامل قال: للكلبي أحاديث صالحة وخاصة عن أبي صالح، وهو معروف في التفسير، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع. وبعده مقاتل بن سليمان، إلا أن الكلبي يفضل عليه، لما في مقاتل من المذاهب الردية.

وطريق الضحّاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة، فإن الضحاك لم يلقه، فإذا انضمّ إليها رواية بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك فضعيفة لضعف بشر، وقد أخرج هذه النسخة كثيراً ابن جرير وابن أبي حاتم.

وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشدّ ضعفاً، لأن جويبراً شديد الضعف ومتروك ولم يخرج ابن جرير من هذا الطريق شيئاً، وإنما أخرجها ابن مردويه وأبو الشيخ.

Marfat.com

وطريق العوفي عن ابن عباس، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم، والعوفي ضعيف وليس بواهٍ، وربّما حسّن له الترمذي. وأخرج القطان عن الشافعي قال: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث».

أمّا أبي بن كعب، فعنه نسخة صحيحة يرويها أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن أبي العالية، عن أبي بن كعب وهذا إسناد صحيح، وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم منها كثيراً، وكذلك الحاكم في مستدركه وأحمد في مسنده[1].

حفل تفسير السمرقندي بجميع هذه الأسانيد، وهي تتراوح بين الصحيح والحسن والضعيف، شأنه شأن معظم المفسّرين الذين اعتمدوا على هذه الأسانيد، وحفلت بها كتبهم. إلا أن السمرقندي أكثر من رواية الكلبي أبي النصر محمد بن السائب، يرويه عن أبي صالح وهو مولى أم هانىء عن ابن عباس. والكلبي متهم بالكذب وقيل: قال في مرضه: كل شيء حدثتكم به عن أبي صالح فهو كاذب. وهناك محمد بن مروان السّدي الصغير، كذاب، وصالح بن محمد الترمذي كذاب ومدلس. وجويبر وهو واهٍ، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي قال أبو حاتم: كان يكتب حديثه ولا يحتجّ به، وهناك تفسير مقاتل بن سليمان قال الشافعي عنه: قاتله الله.

وأوهى الطرق كما تقدم: الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فإذا انضمّ إليها رواية محمد بن مروان فهي سلسلة الكذب. وستجد أن السمرقندي يكثر من هذه الروايات في أول سورة. فأخرج في سورة الفاتحة عن محمد بن مروان السّدى الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح مولى أم هانىء، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الحمدُ لله﴾ قال: الشكر لله.

٩ ـ النوع الثاني من التفسير: التفسير بالرأي:

قال السمرقندي في مقدمة تفسيره: «لا يجوز لأحد أن يفسّر القرآن من ذات نفسه برأيه ما لم يتعلّم ويعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل، ففي حديث ابن عباس المرفوع: «مَنْ قالَ في القرآنِ بغيرِ علمٍ فليتبوّأ مقعدَهُ من النار» وفي رواية: «مَنْ فسّرَ القرآنَ برأيه فَليتَبَوّأ مقعده من النار».

والمقصود من قوله: من يجعل الرأي أصلاً والقرآن تبعاً، فيفسّر بناء على طبعه ووفق هواه دون اعتماد العلوم التي افترضت في الفقية، أو الآلة التي تمكنه من فهم النص والكشف عن معناه، من موافقة لأدلة الشرع، ومعرفة بقوانين العربية، فإنه يعتبر مذموماً. وكما يقول الشاطبي

(١) راجع الإتقان: ٢/١٨٧ ـ ١٨٨.

Marfat.com

«فقد تقوّل على الله بغير برهان، فيرجع إلى الكذب على الله تعالى»[1] وهذا النوع من التفسير المذموم هو ما صدر عن أهل الأهواء والفرق، كالمعتزلة، والخوارج والباطنية أو أدعياء العلم الذي يفسّرون بالهوى والاستحسان، فيحرفون الكلم عن مواضعه.

أمّا إذا فسّر النصّ بما هو معلوم لغة وشرعاً فلا حرج عليه، وهو كمن تسلّح بالعلوم المتقدّمة لاستنطاق النصّ، أي شرط أن يوافق في تفسيره الكتاب والسنة ومقاصد الشريعة، وقواعد العربية وقوانينها، متمكناً من العلوم إلى حدّ تقيه من الوقوع في الزلل أو الخطأ.

أمّا تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنصّ بيان رسول الله ﷺ، أو بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القول فيه برأيه كما قال الطبري[2] بل القائل فيه برأيه وإن أصاب الحق فيه فهو مخطىء، لأن إصابته ليس إصابة موقن أنه حق، وإنما إصابته إصابة خارص وظان، والقائل في دين الله بالظن هو قائل على الله ما لم يعلم، وقد حرّمه الله تعالى كما قال الطبري.

وتشدّد بعض العلماء في التفسير بالرأي، حتى ولو استخدم في تفسيره جميع العلوم اللازمة لفهم النص، وقالوا: لا يجوز تفسير القرآن بغير ما ورد عن النبي ﷺ وعن الصحابة وعن التابعين إلا أن هذا الشرط مستحيل القبول به لما تقدم أن النبي ﷺ لم يفسّر لأصحابه جميع معاني ومفردات القرآن الكريم، وكذلك فالصحابة الذي اشتهروا بالتفسير لم يفسّروا جميع معاني القرآن، الأمر الذي يجعل معظمه مجهول الحال.

١٠ ـ التفسير والإعراب:

الإعراب: مصدر أعرب، بمعنى: أبان وأفصح. والتعريب: مصدر عرّب، ومعناهما: أي الإعراب والتعريب واحد وهو: الإبانة والإفصاح كما قال الأزهري.

وهو اصطلاحاً عند ابن هشام وغيره: الأثر الظاهر أو المقدر من حركة أو سكون أو حذف في أواخر الكلمة. أي ما يجلبه العامل من أثر ظاهر أو مقدّر.

اعتبره ابن فارس من العلوم التي اختصت بها العربية، فلولاه لما ميّز بين فاعل ومفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام. وقال السيوطي: من فوائده معرفة المعنى، لأن الإعراب يميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين»[3] لذلك قال: على الناظر في كتاب الله، الكاشف عن أسراره، النظر في الكلمة وصيغتها، ومحلّها لكونها مبتدأ، أو خبراً، أو فاعلاً، أو مفعولاً به، أو في مبادىء الكلام...

وأخرج أبو عبيد عن عمر رضي الله عنه قال: «تعلّموا اللحن والفرائِضَ كما تعلمونَ

---

(١) الموافقات للشاطبي: ٣/ ٤٢٢ دار المعرفة، بيروت.

(٢) تفسير الطبري: ١/ ٣٥.

(٣) الإتقان: ١/ ١٧٩.

Marfat.com

القرآن» لذلك كان الإعراب وسيلة لفهم اللسان العربي، وأداة للوصول إلى معرفة أغراض المتكلمين، باللسان الذي نزل به القرآن.

ثمّ إنّ القرآن الكريم جاء معرباً بالنقل والتواتر عن النبي ﷺ فاعتبر الأصل الذي اعتمد عليه علماء النحو في وضع أسس علم النحو، وكانت المادة الأولى لتأسيس قواعد الإعراب.

وقد سرى الفساد إلى اللغة العربية بعد أن شاع اللحن في الصدر الأول في كلام الموالي والمتعرّبين، حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بضرب كاتب أبي موسى الأشعري عندما أرسل إليه كتاباً قد لحن فيه. ومن هنا نشأ الاهتمام بالإعراب لأن الشريعة كما يقول الشاطبي: «لا يفهمها حقّ الفهم إلا من فهم العربية حقّ الفهم» فكان طلب إجادة الإعراب واللغة مطلباً شرعياً ملّحاً، وإلزاماً من جانب الدين. لأن المبتدىء في فهم العربية هو نفسه مبتدىء في فهم الدين، والمتوسط في فهم العربية هو متوسط في فهم الشريعة، والمسلم يطلب الكمال والسعادة الدينية والدينوية، ولا سبيل له إلا بفهم مقاصد الشريعة، ولا يتمّ ذلك إلا بإجادته قواعد اللغة.

لذا كان المطلوب من المفسّر خاصة والمؤمن عامة، ولكلّ من يتصدّى إلى معرفة النصّ الشرعي، أن يجيد قواعد العربية وعلوم اللغة، كي تطمئن نفسه إلى أن فهمه المراد من النصّ صحيح، ولكي لا يقول على الله ما لا يعلم، فيضل نفسه والناس معاً.

وإذا كان الإعراب ضرورياً ومدخلاً إلى معرفة المعنى، فكل تفسير لا يستند إلى هذا المبدأ لا يعتمد حجة ولا يعتبر شرعاً، وبالتالي لا يلتفت إليه. وكل معنى مستنبط من القرآن وغير جار على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء، وهو في دعواه مبطل كما قال الشاطبي (١). فالإعراب أشدّ العلوم حاجة يعتمدها المفسر، لأنه السبيل الممهّد لفهم معاني القرآن وإدراك الصلة بين ألفاظه وتراكيبه.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ (٢) فإذا قريء ﴿ورسوله﴾ بالجرّ أفاد أن الله بريء من رسوله كما هو بريء من المشركين، وهذا كفر وبالرفع قال السمرقندي: يعني ورسوله أيضاً بريء من المشركين. وقال: وقرأ بعضهم ﴿ورسولَه﴾ بنصب اللام ومعناه: إن رسوله بريء من المشركين، وهي قراءة شاذة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا﴾ (٣) فلو رفع الله، ونصب العلماء لاختل المعنى اختلالاً شنيعاً فصارت الخشية والعقوبة لله لا للعلماء. وقال السمرقندي: يعني

(١) الموافقات: ٤/١١٥.
(٢) الموافقات: ٢/٣٩١.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

Marfat.com

أن العلماء يتفكرون في خلق الله ويعملون ثوابه وعقابه، فيخشونه ويعملون بالطاعة خشية عقابه، وفيها تقديم، أي إنما يخشى العلماءُ الله.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[١] قال السمرقندي: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿بعِّد﴾ بتشديد العين وبغير ألف وقرأ الباقون: ﴿باعد﴾ بالألف. وقرأ يعقوب الحضرمي من أهل البصرة ربُّنا بضمّ الباء ـ مبتدأ ـ وباعَد بنصب العين على أنه فعل ماض، وهو على معنى الخبر، ومن قرأ ﴿ربَّنا﴾ فهو منادى مضاف، وباعدْ فعل أمر بمعنى الدعاء، فاختلف المعنى في القراءتين.

ويظهر السمرقندي في تفسيره إحاطة تامة بقواعد اللغة، وخاصة الإعراب ووجوهه ومدارسه، وقلّما تخلو آية من شاهد من الإعراب، أو القراءات ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[٢] يقول: أصل ﴿اللهم﴾ يا الله أمنا بخير، ولكن لمّا كثر استعمال هذا اللفظ في الناس، صارت الكلمتان واحدة. وفي قوله: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾[٣] قال الزجاج: معناه تولي الملك من تشاء أن تؤتيه وحذف الهاء في الكلام دليلاً عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[٤]. قال السمرقندي: وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص ﴿بزينةٍ﴾ بالتنوين و﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بالنصب. وقرأ الباقون ﴿بزينة﴾ بالكسر بغير تنوين و﴿الكواكب﴾ بكسر الباء. ومن قرأ بزينة الكواكب بالكسر جعل الكواكب بدلاً من الزينة والمعنى: إنّا زيّنّا السماء الدنيا بالكواكب. ومن قرأ بالنصب أقام الزينة مقام التزيين فكأنه قال: إنّا زيّنا السماء الدنيا بتزييننا للكواكب، فيكون الكواكب على معنى التفسير. ومن قرأ بغير تنوين فهو على معنى الإضافة، أي إضافة الزينة إلى الكواكب.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٥] قال السمرقندي: ﴿إن﴾ ههنا للتأكيد، وهو حرف من حروف القسم. وفي قوله عز وجل ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٦] قال: نصب إحساناً على معنى أحسنوا إحساناً، فيكون إحساناً بدلاً من اللفظ، أي: أحسنوا إلى الوالدين براً بهما وعطفاً عليهما.

وفي قوله عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[٧] قال السمرقندي: قرأ عاصم في رواية حفص ﴿شهر﴾ بفتح الراء، وقرأ الباقون بالضم. وإنما صار رفعاً لمعنيين، أحدهما: أنه مفعول ما لم يسمّ فاعله بقول: كتب عليكم شهرُ رمضان. ومعنى آخر: أنه خبر مبتدأ يعني: هذا شهر رمضان ومن قرأ بالنصب احتمل أنه صار نصباً لوقوع الفعل عليه، أي

(١) سورة سبأ، الآية: ١٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الصافات، الآية: ٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

Marfat.com

صوموا شهر رمضان. وقيل: صار نصباً لنزع الخافض، أي: في شهر رمضان، ويحتمل: عليكم شهر رمضان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [(١)] قال: وإنما صار خفضاً لأنه عطف على سبيل الله، فكأنه قال: وصدٌ عن سبيل اللهِ وعن المسجد الحرام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [(٢)] قال السمرقندي: في الآية دليل أن ﴿لن﴾ لا تدل على التأبيد، خلافاً لقول المعتزلة.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [(٣)] قال السمرقندي: قرأ بعضهم بالرفع، وقرأ بعضهم: ما هذا ببشرٍ يعني: مثل هذا لايكون بشراً. وقراءة العامة ﴿ما هذا بشرا﴾ بالنصب والتنوين لأنه خبر ﴿ما﴾ ولأنه صار نصباً لنزع الخافض.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [(٤)]. قرأ أهل الكوفة ﴿أنا صببنا﴾ بنصب الألف والباقون بالكسر. فمن قرأه بالنصب جعله بدلاً عن الطعام يعني: فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً. ومن قرأ بالكسر فهو على الاستئناف.

وقد أفرد السيوطي في الإتقان[(٥)]. فصلاً من أربع وعشرين صفحة بين فيها معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسّر، ويعني بالأدوات: الحروف وماشاكلها من الأسماء والأفعال والظروف. ثمّ أفرد فصلاً في قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها [(٦)] كقاعدة في الضمائر، وجمع العاقلات، والتذكير والتأنيث... وهي ضرورية لكلّ من يريد التفسير بالإعراب.

١١ ـ **التفسير والقراءات**: عرّف صاحب كشف الظنون القراءة بقوله: «هي وجه من الوجوه التي روي القرآن بها، يأخذ بها راوٍ من الرواة» [(٧)]. وقال أبو البقاء في كلياته: «هي اختلاف ألفاظ الوحي في الحروف، أو كيفيتها من تخفيف وتشديد..» [(٨)] وقال: «كلّ قراءة وافقت العربية بوجه، أو وافقت أحد المصاحف العثمانية وصحّ سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها، ولا يحلّ إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها».

فالقراءات علم يعرف به كيفية أداء كلمات القرآن وحروفه واختلافها. فموضوعه الكلمات القرآنية من حيث أحوالها واختلافها في الحروف: من مدٍّ وقصرٍ، وتخفيف وتشديد..

وهذا الاختلاف يرينا لهجات العرب واختلافها، وكيفية النطق بها، أي في الحروف

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٥.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٣١.
(٤) سورة عبس، الآية: ٢٥.
(٥) الإتقان: ١/١٤٥ ـ ١٧٩.
(٦) الإتقان: ١٨٦ ـ ٢٠٠.
(٧) كشف الظنون: ٢/١٣١٧.
(٨) الكليات لأبي البقاء: ص٧٠٢ مؤسسة الرسالة، بيروت.

Marfat.com

ومخارجها. فبعضهم يفتحون الألف ويميلونها، وبعضهم يفخمون الراء ويرققونها وكذلك اللام، ويأتون بالقلقلة في الجيم، والدال، والقاف، والطاء ..

وأهل التفسير مجمعون على الاحتجاج بالقراءة لاتخاذها آلة أو علماً، أو بيّنةً على لفظة من ألفاظ القرآن الكريم، ولاظهار الوجه الصحيح في القراءة، الذي يشير بدوره إلى المعنى المقصود.

ولمّا كانت القراءات متعددّة الوجوه للفظ الواحد، فقد تعدّدت المعاني التي تظهرها القراءات، وتعدّدت بالتالي وجوه الإعراب لفظة الواحدة، لارتباط القراءة بالإعراب. وتأتي مهمة المفسّر في اختيار القراءة الصحيحة التي تظهر معنى صحيحاً لا لبس فيه.

وقد احتجّ السمرقندي بالقراءات في معظم الآيات الكريمة، وأظهر قول البصريين، والكوفيين، والصحيح منها، والشاذ، والذي اتفق عليه الجمهور وابتعد عن الشاذ مع الإشارة إليه، ورجّح القراءة التي أجمع عليها العلماء. وأظهر العلاقة بين القراءة، والإعراب والمعنى. ومن شواهد ذلك.

ففي قوله عز وجل: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[١] قال السمرقندي: قرأ نافع وابن كثير وحمزة وأبو عمرو بن العلاء وابن عامر: ملك بغير الألف. وقرأ عاصم والكسائي بالألف فأمّا من قرأ بالألف قال: لأن المالك أبلغ في الوصف، لأنه يقال: مالك الدار، ومالك الدابة، ولا يقال ملك إلا الملك الملوك. ومن قرأ بغير ألف ـ ملك ـ قال: لأن الملك أبلغ في الوصف، لأنك إذا قلت: فلان ملك هذه البلدة، يكون ذلك كناية عن الولاية دون الملك، وإذا قلت: فلان مالك هذه البلدة كان ذلك عبارة عن ملك الحقيقة. ثمّ ساق حديث أنس في الصحيحين أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعلي يقرأون: ﴿مالك يوم الدين﴾ بالألف. ثم ساق حجّة أخرى على صحة قراءة الكسائي بالألف فعن أبي عبد الله البلخي الذي قال له بعض أهل اللغة: الملك أبلغ في الوصف، فرأى في المنام آتٍ يلومه على حذف الألف من ﴿مالك﴾ وأن رسول الله ﷺ يقول: «إقرأوا القرآنَ فخماً مفخّماً» وحديث ثانٍ مرفوع «من قرأ القرآن فلهُ بكلّ حرْفٍ عَشْرُ حسنَاتٍ»، فقد أنقص عشر حسنات بانقاصه الألف من ﴿مالك﴾ وعاد إلى قراءة الكسائي.

وفي قوله عز وجل: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٢] قال السمرقندي: قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿يسّمّعون﴾ بنصب السّين والتشديد، والباقون ﴿يسْمعون﴾ بنصب الياء وجزم السين مع التخفيف. فمن قرأ بجزم السين فهو بمعنى يسمعون، ومن قرأ

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٤.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٨.

Marfat.com

بالتشديد فأصله: يتسمعون، فأدغمت التاء في السين وشدّدت يعني: لكيلا يسمعون.

وفي قوله عز وجل: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾[١] قال السمرقندي: قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي ﴿فك رقبة﴾ بنصب الكاف والهاء. و﴿أطعم﴾ بنصب الهمزة وبغير ألف، والباقون ﴿فك رقبة﴾ بضمّ الكاف وكسر الهاء ﴿أو إطعام﴾ بكسر الهمزة وإثبات الألف. فمن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى أي: فلا فكَّ رقبة ولا أطعمَ في يوم ذي مسغبة، فكيف يجاوزُ العقبة. ومن قرأ بالضمّ فمعناه: اقتحامُ العقبة، فكُّ رقبة أي: مجاوزة العقبة بعتق رقبة وبإطعام في يوم ذي مسغبة، أي مجاعة.

وفي قوله عز وجل: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢] قال: قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿يعملون﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء، واختلفوا في مواضع أخرى. فقرأ حمزة والكسائي في كلّ موضع ﴿وما الله بغامل عما تعملون﴾ بالياء وفي كل موضع ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بالتاء، واختلفت الروايات عن غيرهما،

وفي قوله عز وجل: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[٣] قال السمرقندي: قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (لتركبن) بنصب التاء والباقون بالضم. فمن قرأ بالنصب، فمعناه: لتركبن يا محمد من سماء إلى سماء. ومن قرأ بالضمّ فالخطاب لأمته أجمعين يعني: لتركبن حالاً بعد حال وقرأ بعضهم: ليركبن بالياء يعني: ليركبن هذا المكذّب طبقاً عن طبق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ﴾[٤] قال السمرقندي: قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿حِج﴾ بكسر الحاء والباقون بالنصب، وهما لغتان ومعناهما واحد.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٥]. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص ﴿وكنتُ نَسْياً منسِياً﴾ بنصب النون والباقون نِسيا بكسر النون. وقال أبو عبيد: بالكسر نقرأها، لأنها كانت أكثر في لغة العرب وأفشاها، وعليها أهل الحرمين والبصرة.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾[٦] قرأ حمزة والكسائي ونافع وعاصم في رواية حفص ﴿مِن﴾ بالكسر يعني: الملك، وهكذا قرأ مجاهد والحسن، وقرأ الباقون ﴿مَن﴾ بالنصب يعني به: عيسى عليه السلام، وقال أبو عبيد: بالأولى نقرأ، يعني بالكسر، لأن قراءتها أكثر والمعنى فيها أعم.

وقوله: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[٧] قرأ حمزة: تساقط بنصب

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٣ ـ ١٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.
(٣) سورة الانشقاق، الآية: ١٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.
(٥) سورة مريم، الآية: ٢٣.
(٦) سورة مريم، الآية: ٢٤.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ٢٥.

Marfat.com

التاء وتخفيف السين، وأصله: تتساقط، إلا أنه حذف منه إحدى التاءين للتخفيف. وقرأ عاصم في رواية حفص: تُساقط، بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف، يعني: أن النخلة تساقط عليك. وقرأ الباقون بالنصب وتشديد السين ونصب القاف، لأن التشديد أقيم مقام التاء التي حذفت. وروي عن البراء بن عازب أنه كان يقرأ يساقط بالياء يعني: أن الجذع يساقط عليك. وقرأ بعضهم: نساقط بالنون ومعناه: نحن نساقط عليك.

وقوله عز وجل: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾[1] قال السمرقندي: قرأ الكسائي وحمزة وابن عامر: ﴿فنعما هي﴾ بنصب النون وكسر العين. وقرأ عاصم في رواية حفص ونافع في رواية ورش وابن كثير بكسر النون وكسر العين. وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر بكسر النون وجزم العين. وكل ذلك جائز وفيه ثلاث لغات: نِعِم، ونَعِم، ونِعْم، وما زيدت فيها للصلة.

١٢ ـ الاسرائيليات:

هي كل ما لحق بكتب التفسير من خرافات وأباطيل، وأساطير وأخبار، وقصص تناقلها علماء اليهود أولاً، والنصارى ثانياً بعد تحريفهم للتوراة والإنجيل، وخاصة أنّ معظمها مأخوذ من التلمود، ومن القصص التي اختلقها علماء اليهود.

وقد انتقلت هذه الأخبار والاختلاقات إلى كتب التفسير في عصر كثرت فيه الفتن والصراع الحزبي، والعقائدي، فوجد أعداء الإسلام في ترويجها من الزنادقة وغيرهم متنفساً يروجون به أباطيلهم وقصصهم وينسبونها إلى الصحابة والتابعين ممن كانوا على دين اليهودية ودخلوا في الإسلام وحسن إسلامهم وأشهرهم: الصحابي الجليل عبد الله بن سلام (ت٤٣)هـ. وكعب الأحبار (ت٣٤) الذي لم يدرك النبي ﷺ ووهب بن منبه (ت١١٠)هـ. وهو من كبار التابعين، وقد نسبوا هذه الأخبار إليهم وهم منها براء.

وعلى هذا، احتشدت كتب التفسير بالمنقولات عنهم، ونسب إليهم الرواة أخبار الأمم الماضية، والفتن، وبدء الخلق، والملاحم، وتساهل المفسرون في قبولها مع علمهم بإسرائيلية الأخبار. وقد يكون السبب: أن من الصقت بهم هذه الأخبار كابن سلام وكعب الأخبار ووهب بن منبه معروفون بالتوثيق والصدق والبعد عن الكذب والوضع والاختلاق، فقبلوا الروايات دون تمحيص أو تحقيق، فوقعوا في فخ الوضّاعين والدسّاسين.

والسمرقندي كمعظم المفسّرين ـ كابن جرير الطبري، وابن كثير، والقرطبي وغيرهم قد ذكر الكثير من هذه الاسرائيليات في تفسيره دون إشارةٍ في الكثير منها إلى أنها مختلقة أو واهية،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧.

Marfat.com

إلا أنه لا يتمادى في الإكثار من الاسرائيليات ووجوهها واستطراداتها كما في كتب التفسير الأخرى.

ومنها: قصة ـ هارون وماروت التي وردت في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾[١] قال السمرقندي: «قال بعضهم: إن سليمان عليه السلام أمر بأن لا يتزوج المرأة من غير بني إسرائيل، فتزوج امرأة من غير بني إسرائيل يقال لها: ضبنة بن صابورا، فعاقبه الله بأن أجلس مكانه شيطاناً، وكان الناس يظنون أنه سليمان، وأشكل عليهم أمره، فجاءوا إلى أصف بن برخيا وكان وزيره.. ودخل أصف على نساء سليمان فسألهنّ عن ذلك فقلن: إن كان هذا سليمان فقد هلكتم، والله ما يعتزل منا حائضاً، وما يغتسل من جنابة، هكذا ذكر في رواية الكلبي».. ثم قال: ولمّا عرف الشيطان أن الناس علموا بحاله كتب سحراً وجعله تحت كرسيه، وألقى خاتم سليمان في البحر وهرب. وكان سليمان عليه السلام خرج إلى ساحل البحر وأجّر نفسه للملاحين كل يوم بسمكتين، فلما أعطوه أجره، باع أحداهما واشترى به الخبز، وشقّ بطن الأخرى، فوجد فيه الخاتم، فرجع إلى ملكه...

ثم أخرج السمرقندي عن ابن عباس قال: إنّ الناس بعد آدم وقعوا في الشرك واتخذوا هذه الأصنام وعبدوا غير الله تعالى، فجعلت الملائكة، يدعون عليهم ويقولون: ربّنا خلَقْتَ عبادك فأحسنت خلقهم ورزقهم... فقال لهم الربّ: إنهم في عذر، فجعلوا لا يعذرونهم ويدعون عليهم، فقال لهم الربّ اختاروا منكم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت فأهبطهما الله إلى الأرض، فأمرهما ونهاهما عن الزّنا وقتل النفس وشرب الخمر. فمكثا زماناً يحكمان بالحق، وكان في ذلك الزمان امرأة فضلت بالحسن على سائر النساء، فأتياها فخضعا لها بالقول وراوداها عن نفسها، فقالت: إلا حتى تصليا لهذا الصنم، أو تقتلا هذه النفس، أو تشربا هذه الخمر، فقالا: أهون الشرّين شرب الخمر، فلما شربا الخمر سجدا للصنم، وفعلا بالمرأة، وقتلا النفس...

وقال السمرقندي: وروي في الخبر أن المرأة تعلّمت منهما اسم الله الأعظم، فصعدت به إلى السماء، فمسخها الله كوكباً هو الذي يقال له الزهرة، وروي أن ابن عمر: كان إذا نظر إلى الزهرة لعنها ويقول: هي التي فتنت هاروت وماروت، وروي عن علي رضي الله عنه هذا.

هذه الأخبار مختلقة، نسبها الدساسون إلى ابن عباس، وعلي، قال القاضي عياض في الشُّفا: ما ذكره المفسّرون وأهل الأخبار في قصة هاروت وماروت لم يرد فيها شيء صحيح، وهو قول ابن كثير في البداية[٢]: منشأها روايات إسرائيلة، ورفعها إلى النبي ﷺ ووقفها على

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: ١/ ٣٦ ـ ٣٨.

Marfat.com

ابن عباس وعلي اختلاق وكذب. ثم إنّ الملائكة معصومون عن الخطأ فكيف يرتكب الملكان الفجور ويزنيان؟ ثم كيف ترفع الفاجرة لتصير نجماً ملعوناً في السماء، وهو كوكب مضيء؟!

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾(١) في قصة هبوط آدم وحواء من الجنة. قال السمرقندي: وروي عن ابن عباس أنه قال: لمّا رأى إبليس آدم في النعمة حسده واحتال لإخراجه منها، فعرض نفسه على كل دابة من دواب الجنة أن يدخل في صورتها فأبت عليه، حتى أتى الحية وكانت أعظم وأحسن دابة في الجنة، وكانت لها أربعة قوائم، فلم يزل يستدرجها حتى أطاعته، فدخل ما بين لحييها وأقام في رأسها... وقالت حواء لآدم: تعال حتى نأكل من هذه الشجرة وأخذت بيده، وكان يحب حواء فكره أن يخالفها لحبّه إياها، وكان يقول لها: لا تفعلي إني أخاف العقوبة، وكانت تقول له: إن رحمة الله واسعه...

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٢) ونقل السمرقندي عن مقاتل: أن السّكينة دابة رأسها كرأس الهرة ولها جناحان، فإذا صوّتت عرفوا أن النصر لهم، ويقال: كانت جوهراً أحمر يسمع منه الصوت، ويقال: كانت ريحاً تهبّ فيها لها صوت، يعرفون منه النصر. وكان الأفضل للسمرقندي لو اكتفى بالقول: إنّ السكينة هي طمأنينة من ربكم.

ثم يقول السمرقندي قال الكلبي: وكان التابوت من عود الشمشاد الذي يتخذ منه الأمشاط، فأخذوا بقرتين من المدينة وتركوا أولادها في المدينة، وربطوا التابوت على عجلة، ثم ربطوا العجلة بالبقرتين، ثم وجّهوهما نحو بني إسرائيل، فضربت الملائكة جنوبها وساقوهما حتى هجموا بها على أرض بني إسرائيل، فأصبحوا والتابوت بين أظهرهم...

وفي قوله تعالى: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٣) نقل السمرقندي عن قتادة قال: كان آدم لا يولد له ولد إلا مات، فجاء الشيطان وقال: إنْ سرّك أن يعيش ولدك فسمّه عبد الحارث، ففعل، فأشركا في الاسم ولم يشركا في العبادة. وروى عن السدي قال: اسم إبليس هو الحارث يوم لعن، فأراد أن ينسب إليه فأمرهما، فسمته عبد الحارث فعاش أياماً ثم مات.

ومن الاسرائيليات: **في تفسير قصة ذي القرنين في سورة الكهف (٨٣ ـ ٨٥) وقصة سبأ في سورة النمل (٤٢ ـ ٤٤). وفي صورة ص(٢١ ـ ٢٣).**

١٣ ـ تفسير السمرقندي:

يتّضح لنا من قراءتنا لتفسيره المسمّى: بحر العلوم، أنه جمع بين التفسير المأثور النقلي، والتفسير بالرأي الممدوح وليس المذموم. فلا يكتفي بمجرد النّقل للدليل الشرعي من الكتاب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

Marfat.com

والسنة والصحابي والتابعي، وإنما يدخلُ رأيه، فيعرض لرأي اللغويين والنحاة، وأهل الصرف والنحو والاشتقاق والإعراب والقراءات والفقه، فيوازن ويقارن، ويترجّح عنده الدليل فيختار ما يوافق الدليل الشرعي أو اللغوي الذي يلوح له، ولا يعتمد ما سنح له خاطره، أو ميله، بل يستنبط معتمداً على الأصول المتفق عليها في العلوم المتقدّمة، وهذا الطريق ليس بمذموم ولا بخارج، على رأي أهل السنة والجماعة.

قد يغالي البعض ويقول: كان عليه الاعتماد على التفسير المأثور دون غيره، وترك الاستنباط. لكنه قول مردود، لأن الصحابة أنفسهم اختلفوا في التفسير، ولم ينقلوا كل ما قالوه عن النبي ﷺ، فكان لا بدّ أمام هذه الواقعة أن يعتمد كغيره من المفسرين على علوم تساعده على فهم النصّ وكشف ما غمض منه، فأردف التفسير المأثور بالعلوم المبنية على الاجتهاد، فجمع بين الاثنين.

إلا أنه في تفسيره يورد الأحاديث والآثار المرفوعة والموقوفة، دون انتقاد للسند والرواة، ودون تمييز بين حديث صحيح أو حسن، أو ضعيف أو موضوع. . . ودون تمييز للدخيل وغير الدخيل. بل إنه في كثير من المواضع يحذف الأسانيد، لذلك لم يسلم تفسيره من الروايات المنكرة والضعيفة والاسرائيلية وإذا عزا الرواية إلى مخرجيها، فلا يبيّن منزلتها من الصحّة أو الضعف.

يستعين بكتب معاني القرآن ـ كغيره من المفسرين، وما شرحوه وبيّنوه من ألفاظ القرآن ومعانيه، وأهل البلاغة والصرف والإعراب: كسيبويه، والأخفش، والزجاج، والكسائي، وابن عمرو، وابن الأعرابي، وقطرب، والفراء. . فينتفع بأقوالهم وشروحاتهم لتبيان المعنى المقصود.

يمتاز تفسيره بالسهولة في الألفاظ والتراكيب، والبعد عن التعقيد والغرابة والصعوبة، وعدم الاستطراد، وعدم الإكثار في المباحث اللغوية والنحوية والفقهية، وخلوه من الحشو والتطويل. يصدق عليه القول: ليس بالطويل المملّ ولا بالقصير المخلّ.

التعريف بالمصنّف وآثاره

هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي[1]، كنيته: أبو الليث. علامة، ومن أئمة الحنفية، ومن الزهاد والمتصوّفين.

له لقبان، الأول: إمام الهدى.

---

(١) راجع ترجمته في الأعلام للزركلي: ٨/ ٢٧. والفوائد البهية: ٢٢٠. والجواهر المضيئة: ٢/ ١٩٦. ومفتاح الكنوز: ١٣٠، ١٤٠. وكشف الظنون: ٢/ ١١٨٧، وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٢٤٥.

Marfat.com

والثاني: الفقيه، وكان يؤثره على الأول. وقد لقبه النبي ﷺ بالفقيه، إثر رؤيا عرضت له في المنام، رأى النبي ﷺ فقال له: يا فقيه».

اغفل المؤرخون سنة ميلاده فلم يحدّدوها، وذكروا على وجه التقريب أن ميلاده كان بين سنة ٣٠٠ و٣١٠، كما اختلفوا في سنة وفاته فقيل: ٣٧٥ و٣٧٦، و٣٨٣ و٣٩٣ هـ.

كما لم يذكر المؤرخون شيئاً عن أسرته، ومكانتها في سمرقند، إلا أنهم أشاروا كما أشار هو في تفسيره إلى أبيه الشيخ محمد الذي تتلمذ أبو الليث عليه، فقرأ القرآن، ونال مبادىء الفقه وعلومه، فقال في كثير من المواضع في تفسيرة: حدثني أبي.

ولد في سمرقند، عاصمه العلم والأدب، والفقه، والتصوّف، والزهد في عصره. يقصدها طلاب العلم والشيوخ والمريدون لينهلوا من مساجدها ومدارسها ورباطاتها الفقه والطب والفلسفة، والفلك، والزهد، والتصوف.

تتلمذ على أبيه في الفقه والقراءات، كما تتلمذ على شيخين يذكرهما كثياً في تفسيره هما: أبو جعفر البلخي، والقاضي الخليل بن أحمد، وهما مقدّمان في الفقه والفتوى بسمرقند على المذهب الحنفي.

نال ثقافة فلسفية أكسبته المهارة في الجدل والمناظرة والاطلاع على مذاهبهم ومناهجهم العقلية والعلمية. وأحاط بمذهب أبي حنيفة، وأصوله وفروعه واجتهادته وطرق استنباطاته عند أبي حنيفة وصاحبه، بالإضافة إلى إطلاع تام على مذاهب الأئمة: الشافعي، ومالك، وابن حنبل.

بالإضافة إلى مناهج التفسير المأثور والعقلي وأصحاب القراءات، واللغة والصرف، والنحو، والاشتقاق، وأيام العرب، وأخبار الأمم الماضية.

وعاشر زهاد عصره ومتصوفي سمرقند، فاكتسب منهم العزوف عن الدنيا وزينتها والإنابة إلى دارالخلود، بالعلم والعمل.

مؤلفاته:

١ ـ بحر العلوم. في التفسير. يجمع فيه بين التفسير المأثور والتفسير بالرأي. قال الزركلي: وفي فهارس بعض المكتبات: من تصنيفه بحر العلوم، بضعة مجلدات في التفسير، والصواب: أن بحر العلوم من تأليف سمرقندي آخر اسمه علي، من أبناء المئة التاسعة كما في كشف الظنون ٢٢٥ والقول لصاحب الأعلام. وقال: وله تفسير القرآن، مخطوط في أجزاء متفرقة، وهو غير كبير، اقتنيت منه الجزء الأخير، وأوله: تفسير الحاقة.

٢ ـ تفسير جزء عم يتساءلون.

٣ ـ خزانة الفقه. وهي رسالة. مطبوع.

٤ ـ المقدمة: في الفقه.

Marfat.com

٥ ـ عيون المسائل: فتاوى وتراجم في مسائل المذهب الحنفي.
٦ ـ شرعة الإسلام: في الفقه.
٧ ـ النوازل من الفتاوى: في الفقه. في الفروع.
٨ ـ مختلف الرواية: في الخلافيات بين أبي حنيفة ومالك والشافعي.
٩ ـ رسالة في أصول الدين.
١٠ ـ عمدة العقائد.
١١ ـ بستان العارفين: في التصوف، وسمّاه البستان ـ وهو مطبوع.
١٢ ـ تنبيه الغافلين: في المواعظ والزهد. وهو مطبوع.
١٣ ـ دقائق الأخبار في بيان أهل الجنة والنار. في الزهد والتصوف.
١٤ ـ فضائل رمضان. في الأذكار والأدعية.
١٥ ـ قرة العيون ومفرح القلب المحزون: في الزهد. مطبوع.

وصف المخطوط:

اعتمدنا في تحقيق هذه التفسير على مخطوطتين، الأولى: نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٦، ورمزنا إليها بالحرف (ب) عدد أوراقها: (٥٤٣) ومسطرتها: (٢٩). وهي منسوخة بخط واضح وجلي. وقد كتبت الآيات القرآنية بالحبر الأحمر، وكتب التفسير بالحبر الأسود.

اعتمدنا هذه النسخة أصلاً في التحقيق لوضوحها. وخلوها من الأخطاء، بل ولندرة أخطائها. وفي الصفحة الأخيرة يشير المؤلف إلى الانتهاء منها فيقول: أنه انتهى من نسخها يوم الأحد المبارك، مستهل محرم الحرام، افتتاح سنة اثنين وتسعين وتسعمائة المباركة.

النسخة الثانية: وهي نسخة جامعة أدبنزغ تحت رقم (٣٦٨٨) ورمزنا إليها بالحرف (أ). وعدد أوراقها (٣٥٢) مسطرتها: ٢٤، وفيها نقص لأربع سور: الحجر، والنحل، والإسراء، والكهف، وفي الصفحة الأولى للمخطوطة فهرس للسور، وبدون تاريخ للنسخ. وتمتاز هذه المخطوطة بكثرة الشروح والتعليقات، التي يوضح فيها الناسخ معنى لفظة، أو يصحّح لفظ حديث، أو معنى من المعاني، وعلى جانبي صفحاتها. إلا أنّ خطها رديء النسخ، وتمتاز بكثرة الأخطاء النحوية.

وقد أشرنا إلى الاختلاف الوارد بين النسختين، واعتمدنا الأصحّ منهما، وخرّجنا الأحاديث والآثار الواردة في النسختين، معتمدين كتب الصحاح والسنن والتفسير.

والله ولي التوفيق

د. محمود مطرجي

Marfat.com

قال اخبرنا ابو الفضل جبريل بن احمد [illegible] قال انبانا ابو محمد لقمان بن حكيم بن
[illegible] خلف [illegible] قال [illegible] نصر بن محمد بن ابراهيم [illegible]
رحمه الله عليه [illegible] قال اخبرنا ابو [illegible]
وكيع [illegible]
[illegible] فان فيه علم الاولين
والاخرين [illegible] عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه [illegible]
[illegible] حدثنا ابو [illegible] محمد بن [illegible] قال حدثنا محمد بن جعفر
قال حدثنا [illegible] عطاء بن السائب عن ابي عبد الرحمن
السلمي قال حدثنا من كان يقرئنا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم كانوا
[illegible] من النبي صلى الله عليه وسلم [illegible] الاخرى حتى يعلموا
ما فيها من العلم والعمل قال [illegible] حدثنا ابو [illegible]
ابو بكر محمد بن احمد [illegible] قال حدثنا ابو [illegible] حدثنا عبد الرحمن بن [illegible]
حدثنا داود بن المحبر قال حدثنا عباد بن كثير [illegible] عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته ايها الناس [illegible]
[illegible]
[illegible] النبي صلى الله عليه وسلم [illegible]
[illegible] قال الله تعالى نزل القران
هدى للناس [illegible]
[illegible] فلما كان القران حجة على العرب والعجم [illegible]
[illegible]

الصفحة الأخيرة من النسخة (ب)

Marfat.com

فعلان يراد به المبالغة في وصفه كما يقال سكران وغضبان اذا امتلأ غضبا فلهذا سمى نفسه رحمانا لان رحمته وسعت كل شئ فلا يجوز ان يقال لغير الله تعالى الرحمن لان هذا الوصف لا يوجد في غيره وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة يستر عليهم ذنوبهم في الدنيا ويرحمهم في الاخرى ويدخلهم الجنة وقيل انما سمى نفسه رحيما لانه لا يكلف عباده جميع ما لا يطيقون وكل ملك يكلف عباده جميع ما لا يطيقون فليس برحيم. وروى عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال في قوله بسم الله شفاء من كل داء وعون على كل دواء لانه اسمه واما الرحمن فهو عون لمن امن به وهو اسم لم يسم به غيره واما الرحيم لمن تاب وامن وعمل صالحا وقد فسره بعضهم على الحروف وروى عبد الرحمن المدني عن عبد الله بن عمر ان عثمان بن عفان رضي الله عنهم سال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم فقال اما الباء فبلاء الله وروحه ونعمته وبهاؤه واما السين فسناء الله واما الميم فملك الله واما الله فلا اله غيره واما الرحمن فالعاطف على البر والفاجر واما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة وروى عن كعب الاحبار انه قال الباء بهاؤه والسين سناؤه ولا شئ اعلى منه والميم ملكه وهو على كل شئ قدير فلا شئ يعازه وقد قيل ان كل حرف هو افتتاح اسم من اسمائه فالباء مفتاح اسمه بصير والسين مفتاح اسمه سميع والميم مفتاح اسمه مليك وقيل مجيد والالف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والهاء مفتاح اسمه هادي والراء مفتاح اسمه رازق والحاء مفتاح اسمه حليم والنون مفتاح اسمه نور ومعنى هذا كله دعاء الله عند افتتاح

فاتحة الكتاب سبع ايات مكية

روى عن مجاهد انه قال سورة فاتحة الكتاب مدنية وروى ابو صالح عن ابن عباس انه قال هي مكية ويقال نصفها نزل بمكة ونصفها نزل بالمدينة قال حدثنا الحاكم ابو الفضل محمد بن الحسين الحدادي قال حدثنا ابو حامد ... قال حدثنا ابراهيم بن مرزوق قال حدثنا عمر بن يونس قال حدثنا جهضم بن عبد الله عن العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في كتاب الله تعالى لسورة ما انزل الله على نبي مثلها فسأله ابي بن كعب عنها فقال اني لارجو ان لا تخرج من الباب حتى تعلمها فجعلت ابطئ ثم سأله ابي عنها فقال له يا ابي بن كعب كيف تقرأ في صلاتك فقال بام القرآن فقال والذي نفسي بيده ما انزل الله في التوراة والانجيل مثلها وانها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي اعطيته وقال بعضهم السبع المثاني السبع الطوال سورة البقرة وال عمران والسور التي بعدها وسماها مثاني ... قال اكثر اهل العلم هي سورة الفاتحة واما تسميتها السبع المثاني لانها سبع ايات واما تسميتها المثاني لانها تثنى بقراءتها في كل صلاة وقال حدثنا ابي قال حدثنا ابو عبد الله محمد ابن حامد ... قال حدثنا علي بن اسحاق قال حدثنا محمد بن مروان عن محمد بن السائب الكلبي عن ابي صالح مولى ام هانئ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى الحمد لله قال الشكر لله ومعنى قول ابن عباس الشكر لله يعني الشكر لله على نعمائه كلها وقد قيل الحمد لله يعني الوحدانية لله وقد قيل الالوهية لله ويروى

سورة الفاتحة من النسخة «ب»

علانيه وروى ابو معاوية عن عمار ... سألني الى محمد بن المنكدر اساله عن المعوذتين
انهما من كتاب الله تعالى فقال من لم يزعم انهما من ... الله تعالى فعليه لعنة الله والملائكة والناس
اجمعين والله اعلم وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وامام المتقين ورسول رب العالمين
وعلى جميع الانبياء والمرسلين والملائكة والمقربين من اهل طاعتك اجمعين
ورضي الله تعالى عن اصحاب رسول الله اجمعين ... والتابعين وتابع التابعين
لهم باحسان الى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل وقد وقع الفراغ
من كتابة هذا التفسير المبارك لمولانا الامام العالم العلامة
ابي الليث نصر بن ابراهيم السمرقندي رضي الله عنه
وارضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه ونفعنا
بعلومه ومدده واسراره في الدارين امين
في يوم الاحد المبارك مستهل محرم
الحرام افتتاح سنة اثنين
وتسعين وتسعمائة
المباركة احسن الله
عاقبتها بخير
والحمد

Marfat.com

حتى تعلم ما خرجت انبطا ثم سأله ابي بن كعب فقال كيف تقرأ في صلوتك فقال بام الكتاب
فقال والذي نفسي بيده ما انزل الله في التوراة والانجيل ولا في الفرقان مثلها وانها السبع المثاني
والقرآن العظيم الذي اعطيته وقال بعضهم السبع المثاني هي السبع الطوال البقرة وآل عمران الى الحشر
التي بعدها وقال اكثر اهل العلم هي سورة فاتحة الكتاب وانما سميت السبع لانها سبع ايات وانما
سميت المثاني لانها تثنى بقراءتها في كل صلوة وقيل لانها مما استثناها الله فيها مرتين قال
الفقيه رحمه الله حدثنا ابي قال حدثنا ابو عبد الله محمد بن حامد قال حدثنا علي بن اسحق قال حدثنا
محمد بن مروان عن محمد بن السائب الكلبي عن ابي صالح مولى ام هاني عن ابن عباس في قوله عز وجل
الحمد لله قال الشكر لله ومعنى قول ابن عباس الشكر لله يعني به الشكر لله على نعمائه كلها
وقد قيل الحمد لله يعني الوحدانية لله وقد قيل الالوهية لله وروي عن ... انه قال معناه الحمد لله
الذي لم يجعلنا من المغضوب عليهم ولا الضالين ثم معنى قوله الحمد لله قال بعضهم قل فيه مضمر
يعني قل الحمد لله وقال بعضهم حمد الرب نفسه ليعلم عباده فيحمدونه وقال اهل اللغة الحمد هو
الثناء الجميل وحمد الله الثناء عليه بصفاته الحسنى وبما انعم على عباده ويكون في الحمد معنى الشكر وفيه
معنى المدح وهو اعم من الشكر لان الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد وقال بعضهم الشكر
اعم لانه باللسان وبالجوارح وبالقلب والحمد يكون باللسان خاصة وروي عن ابن عباس انه قال
الحمد لله كلمة كل شاكر وذلك ان آدم عليه السلام قال حين عطس الحمد لله فقال الله تعالى يرحمك الله
فسبقت رحمته غضبه وقال الله تعالى لنوح قل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقال
ابرهيم عليه السلام الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحق وقال في قصة داود وسليمان
الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وقال لمحمد عليه السلام وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا وقال
اهل الجنة الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن فهي كلمة كل شاكر **قوله تعالى رب العالمين**
قال ابن عباس سيد العالمين وهو رب كل ذي روح دب على وجه الارض ويقال معنى
قوله رب العالمين خالق الخلق ورازقهم ومربيهم ومحولهم من حال الى حال من النطفة الى علقة
ثم الى مضغة والرب في اللغة هو السيد قال الله تعالى ارجع الى ربك يعني الى سيدك والرب
هو المالك يقال رب الدار ورب الدابة والرب هو المربي من قولك ربيت تربية وقوله العالمين
كل ذي روح ويقال كل من كان له عقل يخاطب مثل بني آدم والملائكة والجن ولا يقع على البهايم

نسخة – جامعة ادنبرغ – (سورة الفاتحة)

Marfat.com

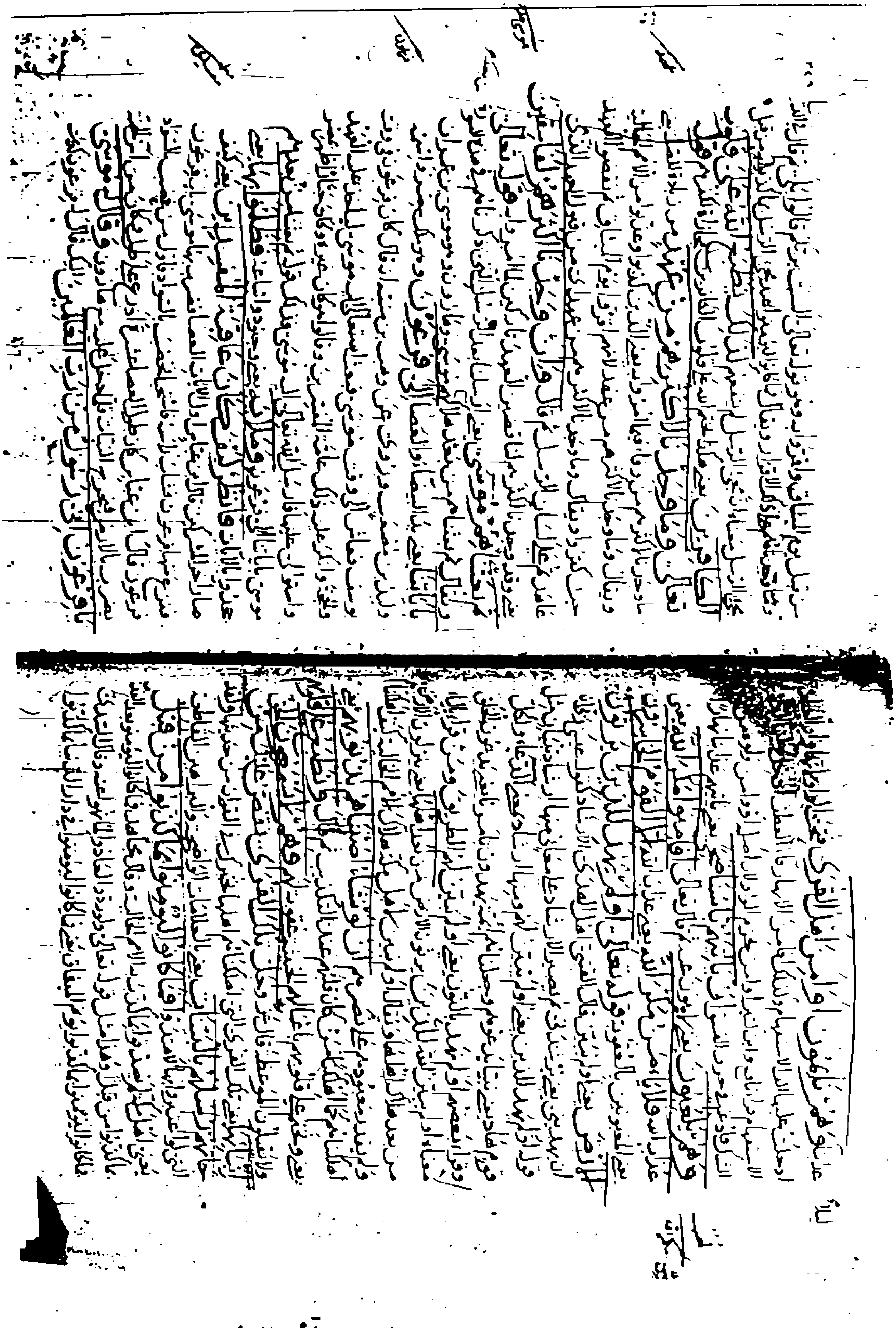

نسخة - جامعة ادنبرغ - (سورة الأعراف)

Marfat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المصنف

قال: **أخبرنا** أبو الفضل جبريل بن أحمد اليوناني قال: أنبأنا أبو محمد لقمان بن حكيم بن خلف الفرغاني بأوزكندة قال: **حدثنا** الفقيه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي رحمة الله عليه قال: أخبرنا أبو جعفر الكرابيسي قال: **حدثنا** إبراهيم بن يوسف قال: **حدثنا** وكيع، عن سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن مرة الهمذاني قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد العلم فليثر القرآن» وفي رواية أخرى: «فليؤثر القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين». وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «ما من شيء إلا وعلمُه في القرآن، غيرَ أنّ آراء الرجال تعجزُ عنه».

حدثنا أبو جعفر محمد بن الفضل قال: **حدثنا** محمد بن جعفر قال: **حدثنا** إبراهيم بن يوسف قال: **حدثنا** محمد بن الفضل، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السّلمي، قال: **حدثنا** من كان يقرئنا من أصحاب رسول الله ﷺ: «أنهم كانوا يقرؤون على النبي ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل».

قال: حدثنا الفقيه أبو الليث رحمه الله: **حدثنا** أبي قال: **حدثنا** أبو بكر محمد بن أحمد المعلم قال: **حدثنا** أبو عمران الفريابي قال: **حدثنا** عبد الرحمن بن جبير قال: **حدثنا** داود بن المخبر قال: **حدثنا** عباد بن كثير، عن عبد خير، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال في خطبته: **«أيُهَا النّاسُ، قَدْ بَيّنَ الله لَكُمْ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ وَمَا حَرّمَ عَلَيْكُمْ، فَأَحِلُّوا حَلالَهُ، وَحَرّمُوا حَرَامَهُ، وَآمِنُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَاعْمَلُوا بِمُحْكَمِهِ، وَاعْتَبِرُوا بِأَمْثَالِهِ»**(١)

قال: فلما أمر النبي ﷺ بأن يحلّ حلاله ويحرم حرامه، ثم لا يمكن أن يحلّ حلاله ويحرم حرامه إلا بعد ما يعلم تفسيره. ولأن الله تعالى أنزل القرآن هدًى للناس، وجعله حجة على جميع الخلق لقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فلما كان القرآن حجة على العرب والعجم، ثم لا يكون حجة عليهم إلا بعد أن يعلموا تفسيره وتأويله، فدلّ ذلك على أن طلب تفسيره وتأويله واجب. ولكن لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه من ذات نفسه، ما لم يتعلم أو يعرف وجوه اللغة، وأحوال التنزيل، لأنه روي في الخبر ما حدثنا به محمد بن الفضيل قال: **حدثنا** محمد بن جعفر قال: **حدثنا** إبراهيم بن يوسف قال: **حدثنا** وكيع عن سفيان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن

(١) قال السيوطي في الدّر المنثور ٢/١٤٩، وأخرجه ابن النجار في تاريخ بغداد بسندٍ واهٍ عن عليّ مرفوعاً.

Marfat.com

النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قالَ في القرآنِ بِغيرِ عِلم، فَلْيتبوَّأ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١]. وروى أبو صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ فَسَّرَ القُرآنَ بِرَأيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[٢].

قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضيل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو حفص، عن ابن مجاهد قال: قال رجل لأبي: أنت الذي تفسر القرآن برأيك؟ فبكى أبي ثم قال: «إني إذاً لجريء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رضي الله عنهم.

وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١] فقال: «لا أدري ما الأبُّ». فقيل له: قلْ من ذات نفسك يا خليفة رسول الله، قال: «أيُّ سماء تظلُّني وأي أرض تقلُّني إذا قلت في القرآن بما لا أعلم»[٣]. فإذا لم يعلم الرجل وجوه اللغة وأحوال التنزيل، فتعلم التفسير وتكلف حفظه، فلا بأس بذلك، ويكون ذلك على سبيل الحكاية. والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا القاضي الخليل بن أحمد[٤] قال: حدثنا السَّراج[٥] قال: حدثنا قتيبة بن سعيد قال: حدثنا خالد، عن داود، عن عامر[٦] قال: «كان النبي ﷺ يكتب باسمك اللهم، فلما نزل في

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٠) وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد: ١/ ٢٣٣ وشرح السنة للبغوي: ١/ ٢٥٨، ٢٥٩ ومشكاة المصابيح: (٢٣٤) و(٢٣٥). والطبري: ١/ ٣٤.

(٢) أخرجه الترمذي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس (٢٩٥١) بلفظ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» وقال: حديث حسن.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى أبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد. ٨/ ٤٢١ والقرطبي: ١/ ٣٥.

(٤) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، الأزدي، اليحمدي، أبو عبد الله (١٠٠ - ١٧٠هـ). واضع علم العروض، ومن أئمة اللغة والأدب، وهو أستاذ سيبويه. صدوق له: كتاب العين، وجلمة آلات العرب، وتفسير حروف اللغة، وكتاب العروض، والنغم... راجع: الأعلام: ٢/ ٣١٤ ووفيات الأعيان: ١/ ١٧٢ وأنباء الرواة: ١/ ٣٤١، وتهذيب التهذيب: ٣/ ١٦٢.

(٥) محمد بن إسحق بن إبراهيم، مهران الثقفي، مولاهم، النيسابوري، أبو العباس السرّاج (٢١٦ - ٣١٣هـ) حافظ للحديث، ثقة، كان شيخ خراسان له: «المسند» أربعة عشر جزءاً و«التاريخ». راجع: الأعلام: ٦/ ٢٩ وتذكرة الحفاظ: ٢/ ١٦٨ وتاريخ بغداد: ١/ ٢٤٨.

(٦) عامر الشعبي. هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري، أبو عمرو (١٩ - ١٠٣) من التابعين، راوية، يضرب المثل بحفظه، ومن رجال الحديث الثقات. راجع: الأعلام: ٣/ ٢٥ وتهذيب التهذيب: ٥/ ٦٥. وحلية الأولياء: ٤/ ٣١٠، والوفيات: ١/ ٢٤٤ وتاريخ بغداد ١٢/ ٢٢٧.

Marfat.com

سورة هود ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] كتب: بسم الله، فلما نزل في سورة بني إسرائيل ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] كتب: بسم الله الرحمن، فلما نزل في سورة النمل ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] كتب: بسم الله الرحمن الرحيم»[(١)].

ففي هذا الخبر دليل على أنه ليس من أول كل سورة، ولكنه بعض آية من كتاب الله تعالى من سورة النمل.

فأما تفسير قوله: ﴿بسم الله﴾، يعني: بدأت باسم الله، ولكن لم يذكر بدأت، لأن الحال ينبىء أنك مبتدىء فيُستغنى عن ذكره. وأصله: باسم الله بالألف، ولكن حذفت من الاسم لكثرة الاستعمال، لأنها ألف وصل وليست بأصلية، بدليل أنها تسقط عند التصغير، فتقول سُمَيّ. وقال بعضهم: معنى قوله ﴿بسم الله﴾، يعني: بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته، وهذا تعليم من الله تعالى لعباده، ليذكروا اسم الله تعالى عند افتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الافتتاح ببركة اسم الله.

وقوله ﴿الله﴾ هو اسم موضوع ليس له اشتقاق، وهو أجلّ من أن يذكر له اشتقاق، وهو قول الكسائي[(٢)]. قال أبو الليث رحمه الله: هكذا سمعت أبا جعفر يقول: روي عن محمد بن الحسن أنه قال: هو اسم موضوع ليس له اشتقاق. وروي عن الضحاك أنه قال: إنّما سمي ﴿الله﴾ إلهاً، لأن الخلق يألهون إليه في قضاء حوائجهم، ويتضرعون إليه عند شدائدهم. وذكر عن الخليل بن أحمد البصري أنه قال: لأن الخلق يألَهون إليه، بنصب اللام، ويألِهون بكسر اللام أيضاً، وهما لغتان. وقيل أيضاً: إنه إنّما اشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول للشيء المرتفع: «لاه»، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: طلعت لاهة، وغربت لاهة. وقيل أيضاً: إنما سمي ﴿الله﴾، لأنه لا تدركه الأبصار، «ولاه» معناه: احتجب، كما قال القائل:

لاه رَبِّي عَنِ الخَلائِقِ طُراً … لا يُرى خالقُ الخلق وهو يُرَى

وقيل: إنّما سمي ﴿الله﴾ لأنه يوله قلوب العباد بحبه.

فأما ﴿الرحمن﴾ فالعاطف على جميع خلقه بالرزق لهم، ولا يزيد في رزق التقيّ لأجل تقواه، ولا ينقص من رزق الفاجر لأجل فجوره. وما كان في لغة العرب على ميزان «فعلان» يراد به المبالغة في وصفه، كما يقال: شبعان من شبع، وغضبان من غضب، إذا امتلأ غضباً،

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٨٩.

(٢) الكسائي: علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي (ت ١٨٩هـ). أمام في اللغة والنحو والقراءة، ومؤدب الرشيد والأمين. له: معاني القرآن، والقراءات، والنوادر، والمتشابه في القرآن، ويعد من القراء السبعة. راجع: الأعلام: ٤/ ١٨٣ وابن خلكان: ١/ ٣٣٠ وتاريخ بغداد: ١١/ ٤٠٣ وأبناء الرواة: ٢/ ٢٥٦.

Marfat.com

فلهذا سمى نفسه رحماناً، لأن رحمته وسعت كل شيء، **فلا يجوز أن يقال لغير الله تعالى «الرحمن»**. لأن هذا الوصف لا يوجد لغيره.

وأما ﴿الرحيم﴾ فالرفيق بالمؤمنين خاصة، يستر عليهم ذنوبهم في الدنيا، ويرحمهم في الآخرة، ويدخلهم الجنة. وقيل أيضاً: إنما سمى نفسه رحيماً، لأنه لا يكلف عباده جميع ما لا يطيقون، وكل ملك يكلف عباده جميع ما لا يطيقون، فليس برحيم.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في قوله: ﴿بسم الله﴾ «اسمه شفاء من كل داء، وعون على كل دواء»[1] وأما ﴿الرحمن﴾ فهو عون لمن آمن به، فهو اسم لم يسمَّ به غيره. وأما ﴿الرحيم﴾ فلمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

وقد فسره بعضهم على الحروف، وروى عبد الرحمن المدنيّ، عن عبد الله بن عمر: أن عثمان بن عفان رضي الله عنهم سأل رسول الله ﷺ عن تفسير ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فقال: «**أما الباء فبلاء الله وروحه، ونضرته وبهاؤه، وأما السين: فسناء الله، وأما الميم: فملك الله؛ وأما الله: فلا إله غيره، وأما الرحمن: فالعاطف على البر والفاجر من خلقه، وأما الرحيم: فالرفيق بالمؤمنين خاصة**»[2].

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: «الباء: بهاؤه، والسين: سناؤه، فلا شيء أعلى منه، والميم: ملكه، وهو على كل شيء قدير، فلا شيء يعازّه»[3]. وقد قيل: إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه؛ فالباء: مفتاح اسمه بصير، والسين: مفتاح اسمه سميع، والميم: مفتاح اسمه مليك وقيل: مجيد، والألف: مفتاح اسمه الله، واللام: مفتاح اسمه لطيف، والهاء: مفتاح أسمه هادي، والراء: مفتاح أسمه رزاق، والحاء: مفتاح اسمه حليم، والنون: مفتاح اسمه نور. ومعنى هذا كله: دعاء الله تعالى عند الافتتاح[4].

---

(١) أخرجه القرطبي: ١/ ١٠٢.

(٢) أخرجه القرطبي: ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣ والدر المنثور: ١/ ٢٣.

(٣) أخرجه القرطبي: ١/ ١٠٣ وكعب الأحبار هو: كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحق (ت ٣٢ هـ) تابعي كان من كبار علماء اليهود في الجاهلية، أسلم في زمن أبي بكر، وأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرا من أخبار الأمم الماضية. راجع: الأعلام ٥/ ٢٢٩ والإصابة: ٥/ ٣٢٢ وخزانة البغدادي: ١/ ٢٠٠ وقال ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٧: روي مرفوعاً. ورواه الحافظ ابن مردوية من حديث أبي سعيد وقال: رواه ابن جرير الطبري من حديث ابن مسعود. وأبي سعيد وقال: هذا غريب جداً، وقد يكون صحيحاً إلى من دون رسول الله ﷺ وقد يكون من الإسرائيليات، لا من المرفوعات.

(٤) راجع القرطبي: ١/ ١٠٣.

Marfat.com

سورة فاتحة الكتاب

مدنية وهي سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾

روي عن مجاهد(١) أنه قال: «سورة فاتحة الكتاب مدنية»، وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال: «هي مكية». ويقال: نصفها نزل بمكة، ونصفها نزل بالمدينة.

قال الفقيه رحمه الله: **حدثنا** الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي قال: **حدثنا** أبو حامد المروزي قال: **حدثنا** إبراهيم بن مرزوق قال: **حدثنا** عمر بن يونس قال: **حدثنا** جهضم بن عبد الله بن العلاء عن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ فِي كِتَابِ الله لَسُورَةً مَا أَنْزَلَ الله عَلَى نَبِيٍّ مِثْلَهَا**»، فسأله أبيّ بن كعب عنها فقال: «**إنِّي لأَرْجُو أَنْ لا تَخْرُجَ مِنَ البَابِ حَتَّى تَعْلَمَهَا**»، فجعلتُ أتبطأ، ثم سأله أبيٌّ عنها فقال: «**كَيْفَ تَقْرَأُ فِي صَلاتِكَ؟**» قال: بأمّ الكتاب. فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنزلَ الله فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ مِثْلَهَا، وَإِنَّهَا السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ**»(٢) وقال بعضهم: السبع المثاني، هي السَّبع الطوالُ: البقرة، وآل عمران، والخمس التي بعدها. وقال أكثر أهل العلم: هي سورة الفاتحة. وإنما سميت السبع المثاني، لأنها سبع آيات، وإنما سميت المثاني، لأنها تثنى بقراءتها في كل صلاة وقيل: إنما سمَّاها مثاني لذكر القصص فيها مرتين.

قال الفقيه رحمه الله: **حدثنا** أبي قال: **حدثنا** أبو عبد الله، محمد بن حامد الخزعوني

---

(١) مجاهد بن جبير، أبو الحجاج المكي (٢١ ـ ١٠٤هـ) مولى بني مخزوم، تابعي، مفسّر، قال الذهبي: هو شيخ القراء والمفسرين عن ابن عباس، وقرأه عليه ثلاث مرات. الإعلام: ٥/ ٢٧٨ وصفوة الصفوة: ٢/ ١١٧ وميزان الاعتدال: ٣/ ٩. وحلية الأولياء: ٣/ ٢٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي: (٢٨٧٦) وقال: حديث حسن صحيح وقال السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٣: أخرجه الدارمي والترمذي وحسّنه، والنسائي، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند، وابن الضريس في فضائل القرآن، وابن جرير وابن خزيمة والحاكم وصحّحه من طريق العلاء عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، والقرطبي: ١/ ١٠٥.

Marfat.com

قال: حدثنا علي بن إسحاق قال: حدثنا محمد بن مروان، عن محمد بن السائب الكلبي[١]، عن أبي صالح، مولى أم هانىء، عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿الحمد لله﴾ قال: الشكر لله. ومعنى قول ابن عباس: الشكر لله، يعني: الشكر لله على نعمائه كلها. وقد قيل: ﴿الحمد لله﴾ يعني الوحدانية لله. وقد قيل: الألوهية لله. وروي عن قتادة[٢] أنه قال: معناه الحمد لله الذي لم يجعلنا من المغضوب عليهم ولا الضالين. ثم معنى قوله: ﴿الحمد لله﴾ قال بعضهم: «قل» فيه مضمر يعني، قل: الحمد لله. وقال بعضهم: حمد الرب نفسه ليعلم عباده فيحمدونه.

وقال أهل اللغة: الحمد هو الثناء الجميل، وحمد الله تعالى هو الثناء عليه بصفاته الحسنى، وبما أنعم على عباده. ويكون في الحمد معنى الشكر، وفيه معنى المدح وهو أعم من الشكر، لأن الحمد يوضع موضع الشكر، ولا يوضع الشكر موضع الحمد. وقال بعضهم: الشكر أعم، لأنه باللسان وبالجوارح وبالقلب، والحمد يكون باللسان خاصة، كما قال: ﴿اعملُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرا﴾.

وروي عن ابن عباس أنه قال: «الحمد لله كلمة كل شاكر»[٣]، وذلك أن آدم عليه السلام قال حين عطس: «الحمد لله» فقال الله تعالى: «يرحمُكَ الله»، فسبقت رحمته غضبه[٤]. وقال الله تعالى لنوح: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] وقال في قصة داود وسليمان: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] وقال لمحمد

---

(١) محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي، أبو النضر (ت١٤٦). عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة. له: «تفسير القرآن» وضعيف في الحديث. ورواياته من روايات الضعفاء عن ابن عباس. فإنه يرويه عن أبي صالح ـ مولى أم هانىء ـ عن ابن عباس. وقالوا: هو متهم بالكذب، وقال النسائي: حدّث عنه ثقات من الناس ورضوه بالتفسير، وأمّا في الحديث ففيه مناكير. وقيل: كان سبئياً وقيل: قال قبل وفاته في مرضه: كل شيء حدثتكم عن أبي صالح كذب. روى عنه من الثقات: سفيان الثوري، ومحمد بن فضيل. راجع: الأعلام: ٦/ ١٣٣ وتهذيب التهذيب: ١٧٨/٩ ووفيات الأعمال: ١/ ٤٩٣ وميزان الاعتدال: ٣/ ٦١ والوافي بالوفيات: ٣/ ٨٣.

(٢) قتادة بن دِعامة بن قتادة بن عُزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري (٦١ ـ ١١٨هـ) مفسّر وحافظ ضرير. قال الإمام أحمد: هو أحفظ أهل البصرة، تابعي وعالم بالحديث، والعربية وأيام العرب، وكان يرى القدر. وقال بعضهم: كان يدلس في الحديث. راجع الأعلام: ٥/ ١٨٩ وتذكرة الحفاظ: ١/ ١١٥ وابن خلكان: ١/ ٤٢٧ وإنباه الرواة: ٣/ ٥٣. وابن خلكان: ١/ ٤٢٨.

(٣) رواه السيوطي في الدر المنثور: ١/ ٣٠ وعزاه إلى ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق، عن ابن عباس.

(٤) حديث ابن عباس: أخرجه الحاكم: ٢/ ٢٦١ بلفظ: قال ابن عباس: لمّا فرغ الله من خلق آدم وأجرى فيه الروح، عطس فقال: الحمدُ لله، فقال له ربه: يرحمك ربك» وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد أسنده عتاب عن خصيف، وليس من شرط هذا الكتاب ووافقه الذهبي.

Marfat.com

عليه السلام: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] فهي كلمة كل شاكر.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيد العالمين، وهو رب كل ذي روح دبَّ على وجه الأرض»[١]. ويقال: معنى قوله **﴿رب العالمين﴾**: خالق الخلق ورازقهم ومربيهم ومحوِّلهم من حال إلى حال، من نطفة إلى علقة، ثمَّ إلى مضغة.

والربُّ في اللغة: هو السيد، قال الله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، يعني: إلى سيدك. والربّ: هو المالك، يقال: ربّ الدار، وربّ الدابة والربُّ هو المربِّي من قولك: ربى يربِّي تربيةً وقوله: **﴿العالمي﴾** كل ذي روح، ويقال: كل من كان له عقل يخاطب، مثل بني آدم والملائكة والجن، ولا يقع على البهائم ولا على غيرها. وروي عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنَّ لله تعالى ثَمانِيَةَ عَشرَ أَلفَ عَالَمٍ، وإنَّ دُنياكُمْ مِنهَا عَالَمٌ واحد**»[٢] ويقال: كل صنف عالم على حدةٍ.

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ قال في رواية الكلبي: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر. وقال بعض أهل اللغة: هذا اللفظ شنيع، فلو قال: هما اسمان لطيفان، لكان أحسن ولكن معناه عندنا والله أعلم: أنه أراد بالرقة الرحمة، يقال: رق فلان فلاناً إذا رحمه. يقال: رق يرق إذا رحمه. وقوله: أحدهما أرق من الآخر، قال بعضهم: الرحمن أرق، لأنه أبلغ في الرحمة لأنه يقع على المؤمنين والكافرين. وقال بعضهم: الرحيم أرق، لأنه في الدنيا وفي الآخرة. وقال بعضهم: كل واحد منهما أرق من الآخر من وجه، فلهذا المعنى لم يبين، وقال: أحدهما أرق من الآخر، يعني: كل واحد منهما أرق من الآخر.

قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ قرأ نافع وابن كثير وحمزة وأبو عمرو بن العلاء وابن عامر: «ملك» بغير الألف، وقرأ عاصم والكسائي بالألف ﴿مالك﴾. فأما من قرأ ﴿مالك﴾ قال: لأن المالك أبلغ في الوصف، لأنه يقال: مالك الدار، ومالك الدابة، ولا يقال «ملك» إلا لملك من الملوك. وأما الذي قرأ «ملك» قال: إن «ملك» أبلغ في الوصف، لأنك إذا قلت: فلان ملك هذه البلدة، يكون ذلك كناية عن الولاية دون الملك. وإذا قلت: فلان مالك هذه البلدة، كان ذلك عبارة عن ملك الحقيقة.

وروى مالك بن دينار عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر

---

(١) الدر المنثور: ١/٣٣ - ٣٤ والطبري: ١/٦٣.

(٢) عزاه في الدر المنثور: ١/٣٤ إلى أبي الشيخ وأبي نعيم في الحلية. وهو موقوف برواية وهب بن منبه وابن كثير: ١/٢٣ وقال: هذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح.

Marfat.com

وعثمان وعلي يفتتحون الصلاة بـ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وكلهم يقرؤون ﴿مالك يوم الدين﴾ بالألف[(١)].

قال الفقيه رحمه الله: سمعت أبي يحكي عن أبي عبد الله، محمد بن شجاع البلخي يقول: كنت أقرأ بحرف الكسائي ﴿مالك يوم الدين﴾ بالألف، فقال لي بعض أهل اللغة: الملك أبلغ في الوصف، فأخذت بقراءة حمزة: ﴿ملك يوم الدين﴾، فرأيت في المنام كأنه أتاني آت فقال لي: لم حذفت الألف من ﴿مالك﴾ أما بلغك الخبرُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اقْرَؤُوا القُرْآنَ فَخماً مُفخَّماً»[(٢)]؟ فلم أترك القراءة بـ «ملك» حتى أتاني بعد ذلك آت فقال لي: لم حذفت الألف من ﴿مالك﴾؟ أما بلغك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرأَ القُرْآنَ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ»[(٣)]، فَلِمَ نقصت من حسناتك عشراً في كل قراءة؟ فلما أصبحت، أتيت قطرباً[(٤)]، وكان إماماً في اللغة، فقلت له: ما الفرق بين ملك ومالك؟ فقال: بينهما فرق كثير. فأما ملك فهو ملك الملوك، وأما مالك فهو مالك الملوك. فرجعت إلى قراءة الكسائي.

ثم معنى قوله: ﴿مالك﴾ يعني: قاضي وحاكم ﴿يوم الدين﴾ يعني: يوم الحساب كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦ وغيرها]. وقيل أيضاً: معنى يوم الدين، يعني يوم القضاء. كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] يعني: في قضائه، وقيل: ﴿يوم الدين﴾ يعني يوم الجزاء، كما يقال: كما تدين تدان، يعني كما تجازي تجازى به. فإن قيل: ما معنى تخصيص يوم الدين، وهو مالك يوم الدين وغيره؟ قيل له: إنّ في الدنيا كانوا منازعين له في الملك، مثل فرعون ونمرود وغيرهما، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه، وكلهم خضعوا له. كما قال الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فأجاب جميع الخلق ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [الرعد: ١٦، وغيرها] فكذلك هاهنا. قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ يعني

---

(١) حديث أنس روى من طرق عدة. عن قتادة عن أنس. وقتادة وثابت وحميد عن أنس، وأبي قلابة عن أنس. وهو في البخاري (٧٤٣) ومسلم (٣٩٩) وأحمد: ٣/ ١٠١ ـ ١٣٥ والنسائي: ٢/ ١٣٥ وأبي داود (٧٨٢) وابن ماجة (٨١٣) والترمذي (٢٤٦) وابن خزيمة (٤٩٦) والبغوي (٥٨١) والبيهقي: ٢/ ٥٠.

(٢) حديث زيد بن ثابت، أخرجه الحاكم: ٢/ ٢٣١ مرفوعاً بلفظ: «انزل القرآن بالتفخيم كهيئة الطير عذراً ونذراً...» وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: لا والله، العوفي مجمع على ضعفه والحديث واهٍ منكر.

(٣) عزاهُ السيوطي إلى محمد بن نصر السلفي في كتاب الوجيز، عن أنس مرفوعاً، وإلى ابن أبي داود في المصاحف من حديث ابن عمر، وإلى أبي جعفر النحاس في الوقف والابتداء من حديث ابن مسعود موقوفاً.

(٤) قطرب: محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقطرب (ت ٢٠٦هـ) نحوي، عالم باللغة والأدب، بصري، ومن الموالي. يرى رأي المعتزلة له: معاني القرآن، والنوادر، والأزمنة، وغريب الحديث راجع: الأعلام: ٧/ ٩٥. وفيات الأعيان: ١/ ٤٩٤. تاريخ بغداد: ٣/ ٢٩٨.

Marfat.com

في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مجازٍ غيره.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو تعليم، علم المؤمنين كيف يقولون إذا قاموا بين يديه في الصلاة، فأمرهم بأن يذكروا عبوديتهم وضعفهم، حتى يوفقهم ويعينهم فقال ﴿إياك نعبد﴾ أي: نوحد ونطيع. وقال بعضهم ﴿إياك نعبد﴾ يعني إياك نطيع طاعة نخضع فيها لك.

قوله: ﴿وإياك نستعين﴾ يقول: بك نستوثق على عبادتك وقضاء الحقوق. ففي هذا دليل على أن الكلام قد يكون بعضه على وجه المغايبة وبعضه على وجه المخاطبة، لأنه افتتح السورة بلفظ المغايبة وهو قوله: ﴿الحمد لله﴾ ثم ذكر بلفظ المخاطبة، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ وهذا كما قال في آية أخرى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس: ٢٢] فذكر بلفظ المخاطبة، ثم قال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢] على المغايبة، ومثل هذا في القرآن كثير.

قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ رويت القراءتان عن ابن كثير: أنه قرأ ﴿السراط﴾ بالسين، وروي عن حمزة: أنه قرأ بالزاي، وقرأ الباقون بالصاد؛ وكل ذلك جائز، لأن مخرج السين والصاد واحد، وكذلك الزاي مخرجها منهما قريب، والقراءة المعروفة بالصاد ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ يعني: أرشدنا الطريق المستقيم وهو الإسلام فإن قيل: أليس هذا الطريق المستقيم وهو الإسلام، فما معنى السؤال؟ قيل له: الصراط المستقيم هو الذي ينتهي بصاحبه إلى المقصود، فإنما يسأل العبد ربه أن يرشده الثبات على الطريق الذي ينتهي به إلى المقصود، ويعصمه من السبل المتفرقة.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «خطَّ لي رسول الله ﷺ خطاً مستقيماً، وخط بجنبه خطوطاً، ثم قال: «**إن هذا الصِّراطَ المستقيمَ وهذه السبل المتفرقة، وعلى رأسِ كلِّ طريقٍ شيطانٌ يدعُو إليه ويقولُ: هلمّ إلى الطريق**»[(١)]. وفي هذا نزلت هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فلهذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، واعصمنا من السبل المتفرقة. قال الكلبي: أمتنا على دين الإسلام.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ يعني: «ثبّتنا عليه». ومعنى قول علي: «ثبتنا عليه»، يعني احفظ قلوبنا على ذلك، ولا تقلبها بمعصيتك. وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] فكذلك ههنا.

وقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني طريق الذين مننت عليهم، فحفظت قلوبهم على الإسلام حتى ماتوا عليه، وهم: أنبياؤه وأصفياؤه وأولياؤه. فامنن علينا كما مننت عليهم.

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١١٩/٢ وقال: أخرجه أحمد والدارمي والنسائي وعبد حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم.

Marfat.com

قال الفقيه: أخبرنا الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن سهل القاضي قال: حدثنا أحمد بن جرير قال: حدثنا عمرو بن إسماعيل بن مجالد قال: حدثنا هشام بن القاسم قال: حدثنا حمزة بن المغيرة، عن عاصم، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما» قال عاصم: فذكرت ذلك للحسن البصري فقال: صدق والله أبو العالية ونصح[1].

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي غير طريق اليهود. يقول: لا تخذلنا بمعصيتنا، كما خذلت اليهود ولم تحفظ قلوبهم، حتى تركوا الإسلام.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يعني ولا النصارى، يعني: لم تحفظ قلوبهم وخذلتهم بمعصيتهم حتى تنصروا. وقد أجمع المفسرون: أن ﴿غير المغضوب عليهم﴾ أراد به اليهود، ﴿والضالين﴾ أراد به النصارى، فإن قيل: أليس النصارى من المغضوب عليهم، واليهود أيضاً من الضالين؟ فكيف صرف المغضوب عليهم إلى اليهود، وصرف الضالين إلى النصارى؟ قيل له: إنما عرف ذلك بالخبر واستدلالاً بالآية. فأما الخبر، فما روي عن رسول الله ﷺ أن رجلاً سأله وهو بوادي القرى: من المغضوب عليهم؟ قال: «اليهود» قال: ومن الضالين؟ فقال: «النصارى»[2]، وأما الآية، فلأن الله تعالى قال في قصة اليهود. ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] وقال تعالى في قصة النصارى: ﴿ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقوله: «آمين» ليس من السورة. ولكن روي عن النبي ﷺ أنه كان يقوله ويأمر به[3]، ومعناه ما قال ابن عباس يعني: كذلك يكون. وروي عن مجاهد أنه قال: هو اسم من أسماء الله تعالى ويكون معناه: يا الله استجب دعاءنا. وقال بعضهم: هي لغة بالسريانية. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ما حَسَدَتْكُمُ النصارى فِي شَيْءٍ، كَحَسَدِهِمْ فِي «آمين»[4] يعني: أنهم يعرفون

---

(١) قال السيوطي: ١/ ٤٠ أخرجه عبد بن حميد. وقال: أخرجه الحاكم وصححه من طريق أبي العالية عن ابن عباس.

(٢) قال السيوطي: (١/ ٤٢) أخرجه البيهقي في الشعب. وأخرجه وكيع وعبد بن حميد وابن جرير عن عبد الله بن شقيق العقيلي.

(٣) إشارة إلى حديث أبي هريرة المرفوع: «إذا أمّن الإمام فأمّنوا، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدّم من ذنبه». أخرجه البخاري (٧٨٠) (٧٨١) و(٧٨٢) و(٤٤٧٥) ومسلم (٤١٠) (٧٢) (٧٣) (٧٤) (٧٥) وأحمد: ٢/ ٢٣٣، ٢٧٠ ومالك: ١/ ٨٧ وأبو داود (٩٣٥) (٩٣٦) والترمذي (٢٥٠) والنسائي ٢/ ١٤٤ والبيهقي: ٢/ ٥٥، ٥٧، والبغوي (٥٨٧) وابن خزيمة (٥٦٩).

(٤) حديث عائشة: أخرجه ابن ماجه (٨٥٦) وفي الزوائد: إسناده صحيح واحتجّ مسلم بجميع رواته وأخرجه من حديث ابن عباس (٨٥٧) وإسناده ضعيف والبيهقي: ٢/ ٥٧ والسيوطي: ١/ ٤٤ وقال: أخرجه أحمد وابن ماجة والبيهقي من حديث عائشة، وقال: وبسند ضعيف أخرجه ابن ماجة عن ابن عباس.

Marfat.com

ما فيها من الفضيلة. وروي عن كعب الأحبار قال: «آمين» خَاتَم رَبِّ العَالَمِينَ، يَخْتِمُ بِهِ دُعَاءَ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ». وقال مقاتل: هو قوة للدعاء واستنزال للرحمة. وروى الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ ما معنى آمين؟ قال: **يا رَبِّ افْعَلْ**[1]. ويقال: فيه لغتان «أمين» بغير مد، و«آمين» بالمد، ومعناهما واحد، وقد جاء في أشعارهم كلا الوجهين. قال القائل:

تَبَاعَدَ عَنِّي فُطْحُلٌ إذْ دَعَوْتُهُ ... أَمِينَ فَزَادَ اللهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدَا

وقال الآخر:

يَا رَبِّ لا تَسْلُبَنِّي حُبَّهَا أَبَدَا ... وَيَرْحَمُ اللهُ عَبْداً قَالَ: آمِينَا[2]

وصلى الله على سيدنا محمد.

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٤٥.

(٢) البيتان: ذكرهما القرطبي في تفسيره: ١/ ١٢٦.

Marfat.com

سورة البقرة

مدنية وهي مائتان وسبع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾

قال الفقيه رحمةُ الله عليه: حدثنا أبي رحمه الله قال: حدثني محمد بن حامد قال: حدثنا علي بن إسحاق قال: حدثنا محمد بن مروان، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس[١] في قوله تعالى: ﴿الم﴾ قال: أنا الله أعلم. ومعنى قول ابن عباس «أنا الله أعلم» يعني الألف: أنا، واللام: الله، والميم: أعلم، لأن القرآن نزل بلغة العرب، والعرب قد كانت تذكر حرفاً وتريد به تمام الكلمة، ألا ترى إلى قول القائل:

قُلْنا لَها قِفي فقالَتْ قافْ   لا تَحْسَبي أنّا نَسينا الإيجافْ[٢]

يعني بالقاف: قد وقفت.

وقال الكلبي: هذا قسم، أقسم الله تعالى بالقرآن أن هذا الكتاب الذي أنزل على قلب محمد ﷺ، هو الكتاب الذي نزل من عند الله تعالى لا ريب فيه. وقال بعض أهل اللغة: إن هذا الذي قال الكلبي لا يصح، لأن جواب القسم معقود على حروف مثل: إن، وقد، ولقد، وما، واللام، وهنا لم نجد حرفاً من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يميناً. ولكن الجواب أن يقال: موضع القسم قوله ﴿لا ريب فيه﴾، فلو أن إنساناً حلف فقال: والله هذا الكتاب لا ريب فيه، لكان الكلام سديداً، وتكون «لا» جواباً للقسم، فثبت أن قول الكلبي صحيح سديد. فإن قيل: إيش الحكمة في القسم من الله تعالى، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين: مصدق ومكذب، فالمصدق يصدق بغير قسم، والمكذب لا يصدق مع القسم. قيل له: القرآن نزل بلغة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه، أقسم على كلامه، فالله تعالى أراد أن يؤكد عليهم بالحجة فأقسم أن القرآن من عنده.

---

(١) وفي نسخة (ب). حدثني أبي رحمه الله قال: حدثني محمد بن حامد قال: قال ابن عباس. والأثر في الدر المنثور: ١/٥٦ وقال: أخرجه وكيع وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس.

(٢) وفي نسخة (ب):

قلت لها قفي فقالت: قاف   لا تحسبن أنت أنا نسينا الإيجاف

واعتمدنا النسخة (أ) وهو في الطبري: ١/٩٠ والقرطبي: ١/١٥١.

Marfat.com

وقد قيل ﴿الم﴾: الألف: الله، واللام: جبريل، والميم: محمد ﷺ ويكون معناه: الله الذي أنزل جبريل على محمد بهذا القرآن لا ريب فيه.

وقال بعضهم: كل حرف هو افتتاح اسم من أسماء الله تعالى. فالألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، الميم مفتاح اسمه: مجيد، ويكون معناه: الله اللطيف المجيد أنزل الكتاب.

وروي عن محمد بن علي الترمذي الحكيم[١] أنه قال: إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة، ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولي، ثم بين ذلك في جميع السور ليفقه الناس. وروي عن الشعبي أنه قال: إن لله تعالى سراً خفياً جعله في كتبه، وإن سره في القرآن هو الحروف المقطعة[٢]. وروي عن عمر وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر. وعن علي رضي الله عنه أنه قال: «هو اسم من أسماء الله تعالى، فرقت حروفه في السور». يعني أن هاهنا قد ذكر ﴿الم﴾ وذكر: ﴿الر﴾ في موضع آخر، ﴿حم﴾ في موضع آخر، ﴿نون﴾ في موضع آخر، فإذا جمع يكون ﴿الرحمن﴾، كذلك سائر الحروف إذا جمع يصير اسماً من أسماء الله.

وذكر عن قطرب أنه قال: المشركون كانوا لا يسمعون القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فأراد أن يسمعهم شيئاً لم يكونوا سمعوه، ليحملهم ذلك على الاستماع حتى يلزمهم الحجة. وقال بعضهم: إن المشركين كانوا يقولون: لا نفقه هذا القرآن، لأنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥] فأراد الله أن يبين لهم أن القرآن مركب على الحروف التي ركبت عليها ألسنتكم، فما لكم لا تفقهون؟ وإنما أراد بذكر بعض الحروف تمام الحروف، كما أن الرجل يقول: علمت ولدي: ألف، باء، تاء، ثاء، وإنما يريد جميع الحروف ولم يرد به الحروف الأربعة خاصة.

وقال بعضهم: هو شعار السور، وكان اليهود أعداء الله فسروه على حروف الجمل، لأنه ذكر أن جماعة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف، وحُيي بن أخطب، وأبو ياسر بن الأخطب، ومالك بن الضيف، وشعبة بن عمرو، دخلوا على رسول الله ﷺ وقالوا: بلغنا أنك قرأت: ﴿الم ذلك الكتاب﴾ فإن كنت صادقاً، فيكون بقاء أمتك إحدى وسبعين سنة، لأن

---

(١) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشير أبو عبد الله الحكيم الترمذي (ت ٣٢٠هـ). صوفي وعالم بالحديث وأصول الدين له: نوادر الأصول في أحاديث الرسول، والفروق، والرياضة، وأدب النفس راجع: الأعلام: ٦/ ٢٧٢ ولسان الميزان: ٥/ ١٠٨ وطبقات السبكي: ٢/ ٢٠ ومفتاح السعادة: ٢/ ١٧٠.

(٢) عزاه في الدر المنثور لابن المنذر وأبي الشيخ وابن حبان.

Marfat.com

الألف: واحد، واللام: ثلاثون، والميم: أربعون، فضحك رسول الله ﷺ ثم قالوا له: وهل غير هذا؟ قال: نعم. ﴿المص﴾ فقالوا: هذا أكثر لأن ﴿ص﴾ تسعون. فقالوا: هل غير هذا؟ قال: نعم. ﴿الر﴾ فقالوا: هذا أكثر، لأن «الراء»: مائتان، ثم ذكر ﴿المر﴾ فقالوا: خلطت علينا يا محمد لا ندري أبالقليل نأخذ أم بالكثير(١)؟ وإنما أدركوا من القرآن مقدار عقولهم، وكل إنسان يدرك العلم بمقدار عقله. وكل ما ذكر في القرآن من الحروف المقطعة، فتفسيره نحو ما ذكرنا ها هنا، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يعني: هذا الكتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه أنه مني، لم يختلقه محمد من تلقاء نفسه. وقد يوضع ﴿ذلك﴾ بمعنى هذا، كما قال القائل:

أَقُولُ لَهُ والرُّمْحُ يَأْطِرُ مَتْنَهُ ... تَأَمَّلْ خُفَافاً أَنَّنِي أَنَا ذَلِكَا(٢)

يعني هذا. وقال بعضهم: معناه ذلك الكتاب الذي كنت وعدتك يوم الميثاق أن أوحيه إليك، وقال بعضهم: معناه ذلك الكتاب الذي وعدت في التوارة والإنجيل أن أنزل على محمد ﷺ.

وروي عن زيد بن أسلم أنه قال: أراد بالكتاب اللوح المحفوظ، يعني: الكتاب الذي ثبت في اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿لا ريب فيه﴾ يعني: أنه لا شك فيه، أنه من الله تعالى ولم يختلقه محمد ﷺ من تلقاء نفسه. فإن قيل: كيف يجوز أن يقال: ﴿لا شك فيه﴾ وقد شك فيه كثير من الناس وهم الكفار والمنافقون؟ قيل: معناه ﴿لا شك فيه﴾ عند المؤمنين وعند العقلاء. وقيل: ﴿لا شك فيه﴾ أي لا ينبغي أن يشك فيه، لأن القرآن معجز فلا ينبغي أن يشك فيه أنه من الله تعالى.

وقوله عز وجل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني بياناً من الضلالة للمتقين الذين يتقون الشرك والكبائر والفواحش. فهذا القرآن بيان لهم من الضلالة، وبيان لهم من الشبهات، وبيان الحلال من الحرام. فإن قيل: فيه بيان لجميع الناس، فكيف أضاف إلى المتقين خاصة؟ قيل له: لأن المتقين هم الذين ينتفعون بالبيان ويعملون به، فإذا كانوا هم الذين ينتفعون به، صار في الحاصل البيان لهم. روي عن أبي رَوْق أنه قال: ﴿هدى للمتقين﴾ أي كرامة لهم. يعني إنما أضاف إليهم إجلالاً لهم، وكرامة لهم، وبياناً لفضلهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③﴾

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن إسحق والبخاري في تاريخه وابن جرير بسند ضعيف: ١/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) وفي نسخة (ب):

أقول له والرمح يأطر بطنه ... تأمل خفافاً فانني أنا ذلك

وهو في الطبري ١/ ٩٦ والقرطبي ١/ ١٥٣ بلفظ «متنه» والبيت لخُفاف بن نُدْبة السُّلمي ويأطر: يثني.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يعني: يصدقون بالغيب. والغيب: هو ما غاب عن العين، وهو محضر في القلب. وإنما أراد به أصحاب محمد ﷺ ومن تابعهم إلى يوم القيامة، أنهم يصدقون بغيب القرآن أنه من الله تعالى فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه. ويقال: يؤمنون بالغيب يعني: بالله تعالى.

قال: حدثنا القاضي الخليل بن أحمد قال: حدثنا الديبلي قال: حدثنا أبو عبيد الله، قال: حدثنا سفيان الثوري قال: حدثنا أصحابنا، عن الحرث بن قيس أنه قال لعبد الله بن مسعود: نحتسب لكم يا أصحاب محمد ما سبقتمونا إليه من رؤية محمد ﷺ وصحبته، فقال عبد الله بن مسعود: ونحن نحتسب لكم إيمانكم به ولم تروه، وأن أفضل الإيمان إيمان بالغيب، ثم قرأ عبد الله ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وقد قيل: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ يعني: يصدقون بالبعث بعد الموت.

قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، يعني: يحافظون على الصلوات الخمس بمواقيتها وركوعها وسجودها والتضرع بعدها. وقد قيل معناه: يقيمون الصلاة، أي يديمون الصلاة، بمعنى المداومة. وقد قيل: إن العبد إذا صلى صلاة تُقبَلُ منه، خلق الله تعالى منها ملكاً يقوم ويصلي لله تعالى إلى يوم القيامة، وثوابه لصاحب الصلاة، فهذا معنى قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي يتصدقون، قال الكلبي: وهو زكاة المال. وروى أسباط[١]، عن السدي[٢]، عن أصحابه قال: هي نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل نزول آية الزكاة. ويقال: يعني يتصدقون صدقة التطوع. ويقال: هي عليهما جميعاً الفريضة والتطوع.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: بالقرآن. قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: التوراة والإنجيل وسائر الكتب، ويقال لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قالت اليهود والنصارى: نحن آمنا بالغيب، فلما قال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قالوا: نقيم الصلاة؛ فلما قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قالوا: ننفق ونتصدق. فلما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ نفروا من ذلك.

---

(١) أسباط بن نصر الهمذاني الكوفي، أبو يوسف (ت ١٧٠هـ). مفسّر ومن رجال الحديث، أخرجه له مسلم والأربعة والبخاري في تاريخه وتوقف أحمد في الرواية عنه. الأعلام: ١/ ٢٩٢ وتهذيب التهذيب ١/ ٢١١.

(٢) إسماعيل بن عبد الرحمن السدي (ت ١٢٨) تابعي وهو صاحب التفسير والمغازي والسير وإمام في أيام الناس والوقائع. الأعلام: ١/ ٣١٧ واللباب: ١/ ٥٣٧.

Marfat.com

وقوله: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعني: يقرُّون بيوم القيامة والجنة، والنار، والبعث، والحساب، والميزان. واليقين على ثلاثة أوجه: يقين عيان، ويقين خبر، ويقين دلالة. فأما يقين العيان، إذا رأى شيئاً زال الشك عنه في ذلك الشيء: وأما يقين الدلالة، فهو أن يرى دخاناً يرتفع من موضع، يعلم باليقين أن هناك ناراً وإن لم يرها. وأما يقين الخبر، فإن الرجل يعلم باليقين أن في الدنيا مدينة يقال لها بغداد، وإن لم يكن يعاينها، فهاهنا يقين خبر، ويقين دلالة: أن الآخرة حق، ولكن تصير معاينة عند الرؤية.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني: أهل هذه الصفة الذين سبق ذكرهم على بيان من الله تعالى، يعني: أكرمهم الله تعالى في الدنيا حيث هداهم، وبين لهم طريقهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في الآخرة، يعني: هم الناجون. يعني: أن الله تعالى أكرمهم في الدنيا بالبيان، وفي الآخرة بالنجاة. وقد قيل: الفلاح هو البقاء في النعمة. وقد قيل: الفلاح إذا بلغ الإنسان نهاية ما يأمل. ويقال: معناه قد وجدوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما هربوا منه. وكل ما في القرآن ﴿المفلحون﴾ فتفسيره هكذا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿إن﴾ هاهنا للتأكيد، وهو حرف من حروف القسم. والكفر في اللغة: هو الستر، يقال: ليلة كافرة إذا كانت شديدة الظلمة، وإنما سمي الكافر كافراً، لأنه يستر نعمة الله تعالى.

وقوله عز وجل: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ قرأ أهل الكوفة وعاصم وحمزة والكسائي بهمزتين ﴿أأنذرتهم﴾. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر في رواية هشام: بهمزة واحدة مع المد ﴿آنذرتهم﴾ وتفسير القراءتين لا يختلف. قال مقاتل[1]: نزلت هذه الآية في مشركي قريش، منهم: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل وغيرهم. وقال الكلبي: نزلت في رؤساء اليهود منهم: كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب. قال الكلبي: وليس هو بأخي حيي. وقال بعضهم: هو أخو حيي؛ دخلوا على النبي ﷺ حيث سألوه عن ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ ثم خرجوا من عنده فنزل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا القرآن.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ يعني خوفتهم أو لم تخوفهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، أبو الحسن (ت ١٥٠هـ) من أعلام المفسرين، وقيل: كان متروك الحديث. له: التفسير الكبير، والناسخ والمنسوخ، والقراءات. راجع الأعلام ٧/ ٢٨١ وفيات الأعيان ٢/ ١١٢ وميزان الاعتدال: ٣/ ١٩٦.

Marfat.com

يصدقون. فإن قيل: إذا علم أنهم لا يؤمنون، فما معنى دعوتهم إلى الإسلام؟ قيل له: لأن في الدعوة زيادة الحجة عليهم، كما أن الله تعالى بعث موسى إلى فرعون ليدعوه إلى الإسلام وعلم أنه لا يؤمن. وجواب آخر: أن الآية خاصة، وليست بعامة، وإنما أراد به بعض الكفار الذين ثبتوا على كفرهم، كما روي عن صفية بنت حيي بن أخطب قالت: رجع أبي وعمي من عند رسول الله ﷺ، فقال أحدهما لصاحبه: ما ترى في هذا الرجل؟ فقال: إنه نبي، فقال: ما رأيك في اتّباعه؟ فقال: رأيي أن لا أتبعه، وأن أظهر له العداوة إلى الموت. فأنزلت هذه الآية في شأن مثل هؤلاء الذين قد ظهر لهم الحق وكانوا لا يؤمنون. فقال: ﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾. وأصل الإنذار: هو الإعلام، يعني خوفتهم بالنار، وأعلمتهم بالعذاب أو لم تعلمهم، فهو سواء ولا يصدقونك.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑦﴾

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني طبع الله»، ومعنى الختم على القلوب: ليس أنه يذهب بعقولهم، ولكنهم لا يتفكرون فيعتبرون بعلامات نبوة محمد ﷺ فيؤمنون، ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ يعني: لا يسمعون الحق، ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ يعني: غطاء فلا يبصرون الهدى. واتفقت الأئمة السبعة على رفع الهاء ﴿غشاوة﴾ وقرأ بعضهم: بنصب الهاء ﴿غشاوةً﴾ وهي قراءة شاذة. فأما من قرأ برفع الهاء، فهو على معنى الابتداء يعني: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾؛ وأما من قرأ بالنصب فيكون الجعل فيه مضمراً، يعني: جعل على أبصارهم غشاوة. فقد ذكر في شأن المؤمنين ثوابهم في الدنيا الهدى، وفي الآخرة الفلاح، وذكر في شأن الكفار عقوبتهم في الدنيا الختم، وفي الآخرة كما قال تعالى: ﴿ولَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: عذاباً وجيعاً، يخلص وجعه إلى قلوبهم.

قال الفقيه رحمه الله: وفي الآية إشكال في موضعين: أحدهما في اللفظ، والآخر في المعنى. فأما في اللفظ قال: ﴿خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ذكر جماعة القلوب ثم قال: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ ذكر بلفظ الوحدان ثم قال: ﴿وعلى أبصارهم﴾ ذكر بلفظ الجمع، فجوابه: أن السمع مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع، فلهذا ذكر بلفظ الوحدان والله أعلم. وقد قيل: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ يعني: موضع سمعهم، لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضعه. وقد قيل: إن الإضافة إلى الجماعة تغني عن لفظ الجماعة، لأنه قال: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ فقد أضاف إلى الجماعة، والشيء إذا أضيف إلى الجماعة، مرة يذكر بلفظ الجماعة، ومرة يذكر بلفظ الوحدان، فلو ذكر القلوب والأبصار بلفظ الوحدان لكان سديداً في اللغة، فذكر البعض بلفظ الوحدان، وذكر البعض بلفظ الجماعة؛ وهذه علامة الفصاحة، لأن كتاب الله تعالى أفصح الكلام.

Marfat.com

وأما الإشكال الذي في المعنى أن يقال: إذا ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فمنعهم عن الهدى فكيف يستحقون العقوبة؟ والجواب عن هذا أن يقال: إنّ ختم الله مجازاة لكفرهم. كما قال في آية أخرى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] لأن الله تعالى قد يسر عليهم السبيل، فلو جاهدوا لوفقهم، كما قال في آية أخرى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فلما لم يجاهدوا واختاروا الكفر عاقبهم الله تعالى في الدنيا بالختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، وفي الآخرة بالعذاب العظيم.

وروي عن مجاهد أنه قال: من أول سورة البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين. وروي عن مقاتل أنه قال: آيتان من أول السورة في نعت المؤمنين المهاجرين، وآيتان في نعت المؤمنين غير المهاجرين، وآيتان في نعت مؤمني أهل الكتاب، وآيتان في نعت الكفار، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين من قوله: ﴿ومن الناس﴾ إلى قوله: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِٱللهِ﴾: قوله ﴿من﴾ للتبعيض، فإنه أراد به بعض الناس ولم يرد به جميع الناس، فكأنه قال: بعض الناس يقولون: آمنا بالله. وقد قيل: معناه: ومن الناس ناس يقولون: آمنا بالله، يعني: صدقنا بالله وصدَّقنا ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ وبالبعث بعد الموت ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ليسوا بمصدقين، بل هم منافقون منهم: عبد الله بن أبي بن سلول، ومعتب بن قشير، وجد بن قيس، ومن تابعهم من المنافقين. وفي هذه الآية دليل على أن القول بغير تصديق القلب لا يكون إيماناً، لأن المنافقين كانوا يقولون بألسنتهم، ولم يكن لهم تصديق القلب، فنفى الله الإيمان عنهم فقال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللهَ﴾ وأصل الخداع في اللغة: الستر. يقال للبيت الذي يخزن فيه المال: مُخدَع، والعرب تقول: انخدعت الضبُّ في جحرها. فكان المنافقون يظهرون الإيمان ويسترون نفاقهم وكفرهم فقال: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللهَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: يكذبون ويخالفون الله والذين آمنوا، ويقال: يظنون أنهم يخادعون الله والذين آمنوا، لأنه قد بين في سياق الآية حيث قال: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾. وروي عن الأخفش[1] أنه قال: اجترؤوا على الله، حتى

---

(١) هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء البخلي، أبو الحسن المعروف بالأخفش (ت٢١٥). نحوي وعالم باللغة والأدب، وتلميذ سيبويه. له: تفسير معاني القرآن، والاشتقاق، ومعاني الشعر. راجع: الأعلام: ٣/ ١٠٢ وفيات الأعيان: ١/ ٢٠٨ وأنباه الرواة: ٢/ ٣٦.

Marfat.com

ظنوا أنهم يخادعون الله. ـ وقال بكر بن جريج: يظهرون لا إله إلا الله، يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وأنفسهم[١] ـ ويقال: يظهرون غير ما في أنفسهم، وهذا موافق لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**علامَةُ المنافِق ثلاثٌ: إذا وعدَ أخلَفَ، وإذا أُوتُمِنَ خانَ، وإذا حدَّثَ كذب**»[٢].

وقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ﴾. قرأ أهل الكوفة حمزة وعاصم والكسائي **﴿وما يخدعون﴾** بغير ألف، وقرأ الباقون **﴿وما يخادعون﴾**. بالألف وتفسير القراءتين واحد، يعني: وبال الخداع يرجع إليهم، يضرُّ بأنفسهم.

وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. قال الكلبي: يعني وما يعلمون أن الله يطلع نبيه على كذبهم. وقال بعضهم: معناه وما يشعرون أن وبال الخداع يرجع إليهم.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: شكاً ونفاقاً وظلمة وضعفاً، لأن المريض يكون فيه فترة ووهن، والشاك أيضاً في أمره فترة وضعف. وعبَّر بالمرض عن الشك، لأن المنافقين فيهم ضعف ووهن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]. ويقال: إن المريض يعرض للهلاك، فسمي النفاق مرضاً، لأن النفاق يهلك صاحبه.

ثم قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ وهذا اللفظ يحتمل معنين: يحتمل الخبر عن الماضي، ويحتمل الدعاء فإن كان المراد به الخبر فمعناه: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم، كما قال في آية أخرى ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، لأن كل سورة نزلت يشكُّون فيها، فكان ذلك زيادة المرض لهم، وللمؤمنين زيادة اليقين. وإن كان المراد به الدعاء، فمعناه: فزادهم الله مرضاً على مرضهم، على وجه الذم والطرد لهم، كما قال في آية أخرى ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠]، فإن قيل: كيف يجوز أن يحمل على وجه الدعاء، وإنما يحتاج إلى الدعاء عند العجز؟ قيل له: هذا تعليم من الله تعالى أنه يجوز الدعاء على المنافقين والطرد لهم، لأنهم شر خلق الله تعالى، ولأنه وعد لهم يوم القيامة: الدرك الأسفل من النار.

ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: مؤلماً، أي عذاب وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم.

قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ يعني: مجازاة لتكذيبهم.

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٣٣) و(٢٦٨٢) و(٦٧٣٩) و(٦٠٩٥) ومسلم (١٠٧) (٥٩) وأحمد: ٢/٣٩٧، ٥٣٦ والترمذي (٢٦٣١) والنسائي: ٨/١١٧ والبيهقي: ٦/٢٨٨ والبغوي (٣٥) (٣٦) وابن مندة (٥٢٧).

(٢) ما بين معقوفتين ساقط في النسخة (أ).

Marfat.com

قرأ حمزة وابن عامر ﴿فزادهم الله﴾ بكسر الزاي، وهي لغة لبعض العرب، وقرأ أبو عمرو وعاصم بالفتح، وهي اللغة الظاهرة، وقرأ أهل الكوفة: عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿يكذبون﴾ بتخفيف الذال، وقرأ الباقون بتشديد الذال. فمن قرأ بالتخفيف معناه: بما كانوا يكذبون بقولهم إنهم مؤمنون، وجحدوا في السر، لأنهم كفروا بالله وبمحمد ﷺ في السر. ومن قرأ بالتشديد فمعناه: بما كانوا يكذبون، يعني ينسبون محمداً إلى الكذب، ويجحدون نبوته.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11)﴾

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾، قرأ الكسائي برفع القاف ﴿قيل لهم﴾ وكذلك كل ما ذكر في القرآن: قيل وغيض، وسيء، وحيل، وسيق. وقرأ حمزة وعاصم وغيرهما بكسر القاف، وأصله في اللغة: قول مع الواو، فحذفت الواو للتخفيف، فجعل الكسائي الرفع مكان الواو، وقرأ غيره بالكسر للتخفيف.

والآية نزلت في شأن المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لا تعملوا فيها بالمعاصي وهو الفساد، لأن الأرض كانت قبل أن يبعث النبي فيها الفساد، وكان يُعمل فيها بالمعاصي، فلما بعث النبي عليه السلام ارتفع الفساد وصلحت الأرض؛ فإذا عملوا بالمعاصي فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، كما قال في آية أخرى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦ و٨٥].

﴿قَالُوا إِنَّمَا نحنُ مُصلِحُونَ﴾ يعني: نعمل بالطاعة، ولا نعمل بالفساد. وقد قيل: معناه ﴿لا تفسدوا في الأرض﴾ يعني: لا تداهنوا بين الناس ولا تعملوا بالمداهنة، ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ يعني: لا نعادي الكفار ولا المؤمنين، حتى لو كانت الغلبة للمؤمنين أو للكفار، لا يصيبنا من دائرتهم شيء.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (12)﴾

قال الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ في الأرض وليسوا بمصلحين، لأن عداوتهم مع الفريقين، لأن كل فريق منهم يعلم أنهم ليسوا معهم. وقد قيل: معناه لا تفسدوا في الأرض بتفريق الناس عن محمد ﷺ، يعني: لا تصرفوا الناس عن دينه ﴿قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بتفريقنا عن محمد ﷺ. ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ألا: كلمة تنبيه، فنبه المؤمنين وأعلمهم نفاقهم، فكأنه قال: ألا أيها المؤمنون، اعلموا أنهم هم المفسدون العاصون، ويكون تكرار كلمة ﴿هم﴾ على وجه التأكيد، والعرب إذا كررت الكلام تريد به التأكيد. ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِن لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (13)﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾. قال في رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن هذه الآية نزلت في شأن اليهود ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ يعني: عبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ ٱلسُّفَهَاءُ﴾ يعني: الجهال الخرقى. قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ﴾ يعني الجهال الخرقى بتركهم الإيمان بمحمد عليه السلام، ﴿وَلَكِن لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم السفهاء.

وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في شأن المنافقين، وهكذا قال مجاهد ومعناه: ﴿وإذا قيل لَهُمْ﴾ يعني: للمنافقين ﴿آمنوا﴾ يعني صدّقوا بقلوبكم، كما صدّق أصحاب محمد عليه السلام ﴿قالوا: أنؤمن﴾ يعني: أنصدّق كما صدق الجهال. قال الله تعالى: ﴿ألا إِنهُمْ هُمُ السُّفهاءُ﴾ يعني الجهّال بتركهم التصديق في السر، ولكن لا يعلمون أنهم جهال.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، هذه الآية نزلت في ذكر المنافقين، منهم: عبد الله بن أبي بن سلول، وجد بن قيس، ومعتب بن قشير وغيرهم وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم مرّوا بقوم من المنافقين، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: انظروا كيف أرد هؤلاء الجهال عنكم فتعلّموا مني كيف أكلمهم، فأخذ بيد أبي بكر، وقال: مرحباً بسيد بني تميم، وثاني اثنين، وصاحبه في الغار، وصفيه من أمته، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد عمر قال: مرحباً بسيد بني عدي القوي في أمر الله تعالى، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد علي فقال: مرحباً بسيد بني هاشم، ما خلا رسول الله ﷺ، الباذل نفسه ودمه لرسول الله ﷺ، والسابق إلى الهجرة؛ فقال له علي: «اتق الله يا عبد الله ولا تنافق، فإن المنافقين شر خليقة الله تعالى». قال: فلم تقول لي هكذا وإيماني كإيمانكم وتصديقي كتصديقكم؟ ثم افترقوا، فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتم ردي بهؤلاء عنكم؟ فقالوا له: لا نزال بخير ما عشت لنا[1]، فنزلت الآية: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ يعني: إيماننا كإيمانكم، وتصديقنا كتصديقكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال الكلبي: يعني إلى كهنتهم وهم خمسة رهط من اليهود، ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان، منهم: كعب بن الأشرف بالمدينة، وأبو بُردة الأسلمي في بني سُليم وأبو السواد بالشام، وعبد الدار من جهينة، وعوف بن مالك من بني

(١) قال السيوطي ١/٧٨: أخرجه الواحدي والثعلبي بسنده عن ابن عباس.

Marfat.com

أسد. ويقال: ﴿وَإِذَا خَلَوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني: إلى رؤسائهم في الضلالة. وقال أبو عبيدة[1]: كل عاتٍ متمرد فهو شيطان. ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بمحمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بهمْ﴾ يعني: يجازيهم جزاء الاستهزاء. وفي رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: «أنّ الاستهزاء أن يُفتح لهم وهم في جهنم، باب من الجنة فيقبلون ويسبّحون في النار والمؤمنون على الأرائك ينظرون إليهم، فإذا انتهوا إلى الباب سدّ عليهم وفتح لهم باب آخر في مكان آخر، والمؤمنون ينظرون إليهم ويضحكون» كما قال في آية أخرى ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤] الآية. وقال مقاتل: الاستهزاء ما ذكره الله تعالى في سورة الحديد ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] فهذا استهزاء بهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني: يتركهم في ضلالتهم يتحيرون ويترددون، عقوبة لهم لاستهزائهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾، يعني اختاروا الكفر على الإيمان. وفي الآية دليل أن الشراء قد يكون بالمعنى دون اللفظ وهو المبادلة، لأن الله تعالى سمى استبدالهم الضلالة بالهدى شراء، ولم يكن هنالك لفظ شراء.

وقوله: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ فقد أضاف الربح إلى التجارة على وجه المجاز، والعرب تقول: ربحت تجارة فلان، وخسرت تجارة فلان، وإنما يريدون به: أنه ربح في تجارته وخسر في تجارته، والله تعالى أنزل القرآن بلغة العرب على ما يتعارفون فيما بينهم، قال: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ يعني: فما ربحوا في تجارتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قال بعضهم: معناه وما هم بمهتدين في الحال، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] يعني من هو في المهد في الحال. وقال بعضهم: معناه ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ من قبل، لأنهم لو كانوا مهتدين من قبل لوفقهم الله تعالى في الحال، ولكن لما لم يكونوا مهتدين من قبل، خذلهم الله تعالى مجازاة لأفعالهم الخبيثة.

---

(١) معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، أبو عبيدة النحوي (١١٠ - ٢٠٩هـ). من أئمة العلم والفقه والأدب من إباضي وشعوبي من حفاظ الحديث، يبغض العرب وقد ألّف في مثالبهم كتباً. له نحو ٢٠٠ مؤلف. راجع الإعلام ٧/ ٢٧٢ وبغية الوعاة: ٣٩٥ ومفتاح السعادة: ١/ ٩٣.

Marfat.com

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَاراً﴾**، روى معاوية بن طلح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت هذه الآية في شأن اليهود الذين هم حوالي المدينة، فقال: **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾** يعني: كمثل من كان في المفازة في الليلة المظلمة وهو يخاف السباع، فأوقد ناراً فأمن بالنار من السباع، **﴿فلمّا أضاءت ما حوله ذهبَ اللهُ بنورهم﴾** طفئت ناره وبقي في ظلمة، كذلك اليهود الذين كانوا حوالي المدينة، كانوا يقرون بالنبي ﷺ قبل أن يخرج، وكانوا إذا حاربوا أعداءهم من المشركين يستنصرون باسمه ويقولون: بحق نبيك محمد أن تنصرنا، فلما خرج النبي ﷺ وقدم المدينة، حسدوه وكذّبوه وكفروا به فطفئت نارهم وبقوا في ظلمات الكفر.

وقال مقاتل: نزلت في المنافقين، يقول: مثل المنافق مع النبي ﷺ كمثل رجل في مفازة فأوقد ناراً ليأمن بها على نفسه وعياله وماله، فكذلك المنافق يتكلم بلا إله إلا الله مراءاة للناس، فيأمن بها على نفسه وعياله وماله، ويناكح مع المسلمين، فكان له نوراً بمنزلة المستوقد النار يمشي في ضوئها ما دامت ناره تتقد، فلما أضاءت النار أبصر ما حوله بنورها، وذهب نورها فبقي في ظلمة.

ـ قوله تعالى: **﴿ذهبَ اللهُ بنورهم﴾** أي يذهبُ الله بنور الإيمان الذي يتكلم به ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ الهدى[1] ـ فكذلك المنافق، إذا بلغ آخر عمره بقي في ظلمة كفره، وهكذا فسّر قتادة والقتبي[2] وغيرهما.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

ثم قال عز وجل: **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾** وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «صُمّاً بُكْماً عُمْياً»، وإنما جعلها نصباً لوقوع الفعل عليها، يعني: وتركهم صماً بكماً عمياً. وقرأ غيره: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾. وتفسير الآية: أنهم يتصاممون، حيث لم يسمعوا الحق ولم يتكلموا بالحقّ، ولم يبصروا العبرة والهدى، فكأنهم صم بكم عمي، ولأن الله تعالى خلق السمع والبصر واللسان لينتفعوا بهذه الأشياء، فإذا لم ينتفعوا بالسمع والبصر صار كأن

(١) في نسخة «ب».

(٢) هو عبد الله بن مسلم الدينوري أبو محمد (٢١٣ ـ ٢٧٦هـ). له: تأويل مختلف الحديث، والمعارف، والاشتقاق، ومشكل القرآن، والمشتبه في الحديث والقرآن، وتفسير غريب القرآن. الأعلام ٤/ ١٣٧ وفيات الأعيان: ١/ ٢٥١.

Marfat.com

السمع والبصر لم يكن لهم. كما أن الله تعالى سمى الكفرة موتى حيث قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[الأنعام: ١٢٢] يعني: كافراً فهديناه. وإنما سماهم موتى والله أعلم لأنه لا منفعة لهم في حياتهم، فكأن تلك الحياة لم تكن لهم، فكذلك السمع والبصر واللسان، إذا لم ينتفعوا بها، فكأنها لم تكن لهم، وكأنهم ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾، يعني: لا يرجعون إلى الهدى.

وقال القتبي: معنى قوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ قال: الظلمة الأولى كانت ظلمة الكفر، واستيقادهم النار قول: لا إله إلا الله، وإذا خلوا إلى شياطينهم فنافقوا وقالوا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[البقرة: ١٤] فسلبهم نور الإيمان وبقوا في ظلمة الكفر، ﴿وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون﴾.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾، يعني: كمطر نزل من السماء، فضرب لهم الله تعالى مثلاً آخر، لأن العرب كانوا يوضحون الكلام بذكر الأمثال، فالله تعالى ضرب لهم الأمثال ليوضح عليهم الحجة، فضرب لهم مثلاً بالمستوقد النار، ثم ضرب لهم مثلاً آخر بالمطر. فإن قيل كلمة ﴿أو﴾ إنما تستعمل للشك، فما معنى ﴿أو﴾ ها هنا، فقيل له: ﴿أو﴾ قد تكون للتخيير، فكأنه قال: إن شئتم فاضربوا لهم مثلاً بالمستوقد النار، وإن شئتم فاضربوا لهم المثل بالمطر، فأنتم مصيبون في ضرب المثل في الوجهين جميعاً. وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾[النور: ٤٠] فكذلك ها هنا ﴿أو﴾ للتخيير لا للشك. وقد قيل: ﴿أو﴾ بمعنى الواو يعني: وكصيب من السماء، معناه: مثلهم كرجل في مفازة في ليلة مظلمة، فنزل مطر من السماء، وفي المطر ظلمات ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾؛ والمطر: هو القرآن، لأن في المطر حياة الخلق وإصلاح الأرض، فكذلك القرآن فيه هدى للناس، وبيان من الضلالة وإصلاح الأرض، فلهذا المعنى شبه القرآن بالمطر. والظلمات: هي الشدائد والمحن التي تصيب المسلمين، والشبهات التي في القرآن، والرعد: هو الوعيد الذي ذكر للكفار والمنافقين في القرآن، والبرق: ما ظهر من علامات نبوة محمد ﷺ ودلائله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُم فِي آذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَاعِقِ﴾، يعني: يتصاممون عن استماع الحق ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ يعني: لحذر الموت، والكلام إنما ينصب لنزع الخافض، مثل قوله ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾[الأعراف: ١٥٥] أي من قومه، فكذلك ها هنا ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، يعني لحذر الموت ومعناه: مخافة أن ينزل في القرآن شيء يظهر حالهم، كما قال في آية أخرى

Marfat.com

﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ [التوبة: ١٢٧] قال بعضهم: في الآية مضمر، ومعناها: يجعلون أصابعهم في آذانهم من الرعد، ويغمضون أعينهم من الصواعق. وقال أهل اللغة: الصاعقة صوت ينزل من السماء فيه نار، فمن قال بهذا القول لا يحتاج إلى الإضمار في الآية: يجعلون أصابعهم في آذانهم من خوف الصاعقة.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني عالم بأعمالهم. والإحاطة: هي إدراك الشيء بكماله، والله أعلم.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، يعني ضوء البرق، يذهب ويختلس بنوره أبصارهم من شدة ضوء البرق، فكذلك نور الإيمان من المنافق يكاد يغشى على الناس كفره في سره، حتى لا يعلموا كفره. وقد قيل: معناه يكاد أن يظهر عليهم نور الإسلام، فيثبتون على ذلك.

ثم قال: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوا فِيهِ﴾، يعني: كلما لمع البرق في الليلة المظلمة مضوا فيه، ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: إذا ذهب ضوء البرق ﴿قَامُوا﴾ متحيرين فكذلك المنافق، إذا تكلم بلا إله إلا الله، يمضي مع المؤمنين، ويمنع بها من السيف، فإذا مات بقي متحيراً نادماً. ويقال: معناه ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠] يعني: كلما ظهر لهم دليل نبوة محمد ﷺ وظهرت لهم علاماته مالوا إليه، ﴿وإذا أظلم عليهم﴾، يعني: أصابت المسلمين محنة، كما أصابتهم يوم أحد، وكما أصابتهم يوم بئر معونة ﴿قاموا﴾ أي ثبتوا على كفرهم.

وروى أسباط، عن السدي أنه قال: كان رجلان من المنافقين هربا من المدينة إلى المشركين، فأصابهما المطر الذي ذكر الله فيه ظلمات ورعد وبرق، كلما أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما، فإذا لمع البرق مشيا في ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصرا، فقاما مكانهما فجعلا يقولان: يا ليتنا لو أصبحنا فنأتي محمداً ﷺ فنضع أيدينا في يده، فأصبحا فأتياه فأسلما وحسن إسلامهما، فضرب الله تعالى بشأن هذين المنافقين الخارجين مثلاً للمنافقين الذين كانوا بالمدينة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ قال بعضهم: ﴿بسمعهم﴾ الظاهر الذي في الرأس ﴿وأبصارهم﴾ التي في العين، كما ذهب بسمع قلوبهم، وأبصار قلوبهم عقوبة لهم. وقد قيل: معناه، ولو شاء لجعلهم صماً وعمياً في الحقيقة، كما جعلهم صماً وعمياً في الحكم. فقد قيل: ﴿ولو شاء الله﴾ لجعلهم صماً وعمياً في الآخرة، كما جعلهم في الدنيا. وروي في إحدى

Marfat.com

الروايتين، عن ابن عباس أنه قال: هذا من المكتوم الذي لا يفسر. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من العقوبة وغيرها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾

قول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، يعني أطيعوا ربكم، ويقال: وحّدوا ربكم. وهذه الآية عامة، وقد تكون كلمة ﴿يا أيها الناس﴾ خاصة لأهل مكة، وقد تكون عامة لجميع الخلق، فهاهنا ﴿يا أيها الناس﴾ لجميع الخلق. يقول للكفار: وحّدوا ربكم، ويقول للعصاة: أطيعوا ربكم، ويقول للمنافقين: أخلصوا دينكم. معرفة ربكم، ويقول للمطيعين: اثبتوا على طاعة ربكم. واللفظ يحتمل هذه الوجوه كلها، وهو من جوامع الكلم. واعلم أن النداء في القرآن على ستة مراتب: نداء مدح، ونداء ذم، ونداء تنبيه، ونداء إضافة، ونداء نسبة، ونداء تسمية. فأما نداء المدح فمثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ﴿يا أيها النبي﴾ ﴿يا أيها الرسل﴾. ونداء الذم مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين كفروا﴾ ﴿يا أيها الذين هادوا﴾. ونداء التنبيه مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان﴾ ﴿يا أيها الناس﴾. ونداء الإضافة مثل قوله تعالى: ﴿يا عبادي﴾. ونداء النسبة مثل قوله تعالى: ﴿يا بني آدم﴾ ﴿يا بني إسرائيل﴾ ونداء التسمية مثل قوله تعالى: ﴿يا داود﴾ ﴿يا إبراهيم﴾ والنداء السابع: نداء التّعنيف مثل قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب﴾ فهاهنا ذكر نداء التنبيه فقال: ﴿يا أيها الناس﴾، أخبر بالنداء أنه يريد أن يأمر أمراً أو ينهى عن شيء، ثم بيّن الأمر فقال: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، يعني: وحّدوا وأطيعوا ربكم ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾، معناه: أطيعوا ربكم الذي هو خالقكم، فخلقكم ولم تكونوا شيئاً ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، يعني: وخلق الذين من قبلكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ المعصية وتنجون من العقوبة.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ معناه: اعبدوا ربكم الذي خلقكم و﴿جعل لكم الأرض فراشاً﴾ يعني: مهاداً وقراراً. وقال أهل اللغة: الأرض بساط العالم. وروي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: «إنما سميت الأرض أرضاً، لأنها تأرض ما في بطنها»، يعني تأكل ما فيها. وقال بعضهم: لأنها تتأرض بالحوافر والأقدام. ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ في اللغة: ما علاك وأظلك. يعني: اذكروا الله بهذه النعم واعبدوه، واعرفوا شكر هذه النعم حيث جعل لكم الأرض فراشاً، والسّماء ﴿بناء﴾ يعني: سقفاً. قال ابن عباس رضي الله عنه في رواية الكلبي: «كل سماء مطبقة على الأخرى مثل القبة، وسماء الدنيا ملتزقة أطرافها على الأرض» ويقال: ﴿والسماء بناء﴾ يعني: مرتفعاً.

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾، يعني: المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾، يعني: أنبت بالمطر ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، يعني: من ألوان الثمار ﴿رزقاً لكم﴾ يعني: طعاماً لكم.

وقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَندَاداً﴾، يعني: لا تقولوا له شركاء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خالق هذه الأشياء، وغيره لا يستطيع أن يخلق شيئاً من هذه الأشياء. ويقال: كل شيء في هذه الدنيا فيه دلالة على كونه الخالق من أربعة أوجه: فوجود هذه الأشياء وكونها يدل على كون الصانع واستقامتها يدلّ على توحيده، وهو استقامة الليل والنهار، والشتاء والصيف، وخروج الثمرات، وحدوث كل شيء في وقته، لأن المدبر لو كان اثنين لم تكن على الاستقامة، كما قال في آية أخرى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]وتجانسها يدل على أن الخالق واحد عالم حيث خلق الأشياء أجناساً مختلفة، وتمام الأشياء يدل على أن خالقها قديم قادر.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ممَّا نزّلنا﴾ قال بعضهم: هذا الخطاب لليهود، يعني: ﴿وإن كنتم في ريب﴾: يعني: في شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ يعني: من القرآن ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ أنه ليس من الله تعالى ﴿فأتوا بسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، يعني: من مثل هذا القرآن من التوراة، يعني: فأتوا بسورة من التوراة، وقابلوها بالقرآن، فتجدوها موافقةً لما في التوراة، فتعلموا به أن محمداً ﷺ لم يختلقه من تلقاء نفسه وأنه من الله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ ٱلله﴾، يعني: استعينوا بأحباركم ورهبانكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تشكون فيه.

وقال بعضهم: نزلت في شأن المشركين فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ محمد عليه السلام وتقولون: إنه اختلقه من تلقاء نفسه ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ أي فاختلقوا بسورة من مثل هذا القرآن، لأنكم شعراء وفصحاء ﴿وَٱدْعُوا شُهَدَاءكُمْ﴾، يعني: استعينوا بآلهتكم، ويقال: استعينوا بخطبائكم وشعرائكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن محمداً يقوله من تلقاء نفسه.

وقال قتادة: معناه ﴿فأتوا بسورة﴾ فيها حق وصدق ولا باطل فيها. وكان الفقيه أبو جعفر رحمه الله يقول: «الهاء» إشارة إلى النبي ﷺ فكأنه قال: فأتوا بسورة من مثل محمد ﷺ، لأنه لم يكن قرأ الكتب، فأتوا بسورة من رجل لم يقرأ الكتب، كما جاء به محمد ﷺ. ويقال: هذه الآيات أصل لجميع ما تكلم به المتكلمون في التوحيد والعلم والشريعة، لأن في أول الآية إثبات الصانع ثم في الآية الأخرى إثبات نبوة محمد ﷺ، فالله تعالى أمرهم أولاً بأن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا عنها، ثم أمرهم بسورة من مثله، فعجزوا عنها، فنزلت هذه الآية ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ

Marfat.com

ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾[الإسراء: ٨٨] الآية.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾، ﴿لم﴾ تستعمل للماضي ﴿ولن﴾ تستعمل للمستقبل، فكأنه قال: فإن لم تفعلوا، أي: لم تأتوا في الماضي، ولن تفعلوا، أي: لن تأتوا في المستقبل، وتجحدون بغير حجة ﴿فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ﴾.

قال قتادة: معناه ﴿فإن لم تفعلوا﴾ ولن تقدروا أن تفعلوا ولن تطيقوا ﴿فاتقوا النار﴾، يقول: احذروا النار ﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، يعني: حطبها الناس إذا صاروا إليها، والحجارة قبل أن يصيروا إليها. ويقال معناه: إن مع كل إنسان من أهل النار حجراً معلقاً في عنقه حتى إذا طفئت النار، رسبه به الحجر إلى الأسفل. ويقال: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ أي: حجارة الكبريت، وإنما جعل حطبها من حجارة الكبريت لأن لها خمسة أشياء ليست لغيرها: أحدها: أنها أسرع وقوداً، والثاني: أنها أبطأ خموداً، والثالث: أنها أنتن رائحة، والرابع: أنها أشد حراً، والخامس: أنها ألصق بالبدن. ثم قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني: وهيئت وخلقت وقدرت لهم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾، فقد ذكر في أول الآية إثبات الصانع وذكر حجته، ثم ذكر إثبات الكتاب والنبوة، ثم ذكر الوعيد للكافرين، لمن لا يؤمن بالله، ثم ذكر ثواب للمؤمنين؛ وهكذا في جميع القرآن في كل موضع ذكر عقوبة الكفار، ثم ذكر على أثره ثواب المؤمنين لتسكن قلوبهم إلى ذلك، وتزول عنهم الوحشة لكي يثبتوا على إيمانهم ويرغبوا في ثوابه، فقال ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: فرّح قلوب الذين آمنوا، يعني: صدّقوا بوحدانية الله تعالى، وبمحمد ﷺ وبما جاء به جبريل عليه السلام ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ يعني: بأن لهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ وهي البساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي من تحت شجرها ومساكنها وغرفها الأنهار، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾، يعني: أطعموا منها، أي من الجنة ﴿مِن ثَمَرَةٍ رِزْقاً﴾ يعني: طعاماً.

﴿قَالُوا هَـٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا﴾ يعني: أطعمنا من الجنة ﴿من قبل﴾. قال بعضهم: معناه إذا أتي بطعام وثمار في أول النهار فأكلوا منها، ثم إذا أتي بها في آخر النهار، ﴿قَالُوا هَـٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن

Marfat.com

قَبْلُ﴾، يعني: الذي أطعمنا في أول النهار، لأن لونه يشبه لون ذلك، فإذا أكلوا منه وجدوا لها طعماً غير طعم الأول. وقال بعضهم: معناه **﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾** يعني: في الدنيا، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمها غير ذلك.

ثم قال: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ قال بعضهم: معناه ﴿متشابهاً﴾ يعني: في المنظر، مختلفاً في الطعم. وقيل: ﴿متشابهاً﴾ يعني يشبه بعضها بعضاً في الجودة، ولا يكون فيها رديء.

قال الفقيه رحمه الله: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء». يعني: أسماء الثمار.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ يعني: مهذبة في الخلق ويقال: مطهرة في الخلق والخلق. فأما الخلق فإنهن لا يحضنَ ولا يبلنَ ولا يتمخطن ولا يأتين الخلاء. وأما الخُلق، فهن لا يحسدن ولا يَغِرْنَ ولا ينظرْن إلى غير أزواجهن.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: دائمين لا يموتون ولا يخرجون منها أبداً.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ وذلك أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ [الحج: ٧٣] وقال في آية أخرى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، قالت اليهود والمش...ن: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت فنزلت هذه الآية **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَ... ... مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾**، يعني: لا يمتنع من ضرب المثل وبيان الحق ... ...قها. ويقال: لا يمنعه الحياء أن يضرب المثل ويروي ويصف للحق شبهاً ... بعوضة **﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾**، يعني: بالذباب وبالعنكبوت. وقال بعضهم: **﴿فما ...﴾** ...ما دونها في الصغر، وهذا من أسماء الأضداد، يذكر الفوق ويراد به دونه، كما ... ويراد به الأمام مثل قوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧] يعني: أمامهم، ...ذكر الفوق ويراد به ما دونه، يعني: يضرب المثل بالبعوضة وبما دون البعوضة، بعد أن ...يه إظهار الحق، وإرشاد إلى وكيف الهدى، وكيف يمتنع من ضرب المثل بالبعوضة، ولو ...تمعت الإنس والجن على أن يخلقوا بعوضة لا يقدرون عليه. ويقال: إنما ذكر المثل

Marfat.com

بالبعوضة، لأن خلقة البعوضة أعجب خِلقةً، لأن خلقتها تشبه خلقة الفيل. قيل: إن البعوضة ما دامت جائعة عاشت فإذا شبعت ماتت، فكذلك الآدمي إذا استغنى، فإنه يطغى. فضرب الله المثل للآدمي.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: صدّقوا وأقرُّوا بتوحيد الله تعالى: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، يعني: المثل بالذباب والعنكبوت، فيؤمنون به. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: اليهود والمشركين ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، بذكر البعوضة والذباب.

قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ يعني: إنما ضرب المثل ليضل به كثيراً من الناس، يعني: يخذلهم ولا يوفقهم للهدى ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾، يعني: يوفق به على معرفة ذلك المثل كثيراً من الناس وهم المؤمنون. وقال بعضهم: معناه ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً﴾، يعني: يسميه ضالاً، كما يقال: فسّقْتُ فلاناً، يعني: سميته فاسقاً، لأن الله تعالى لا يضل أحداً، وهذا طريق المعتزلة، وهو خلاف جميع أقاويل المفسرين، وهو غير محتمل في اللغة أيضاً. يقال: ضلله إذا سمّاه ضالاً ولا يقال: أضله إذا سماه ضالاً، ولكن معناه ما ذكره المفسرون: أنه يخذل به كثيراً من الناس مجازاة لكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ يعني: وما يهلك، وأصل الضلالة: الهلاك. يقال: ضلّ الماء في اللبن إذا صار مستهلكاً. وما يهلك وما يخذل به، يعني: بالمثل إلا الفاسقين يعني: العاصين، وأصل الفسق في اللغة: هو الخروج من الطاعة، والعرب تقول: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، ويقال للفأرة: فويسقة، لأنها تخرج من الجُحْر وقال الله تعالى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] يعني: خرج عن طاعة ربه.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم نعت الفاسقين فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ يعني: يتركون أمر الله ووصيته ﴿من بعد ميثاقه﴾، يعني: من بعد تغليظه وتوكيده، وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام في التوراة بأن يأمر قومه فيقروا بمحمد ﷺ ويصدقوه إذ خرج. وكان موسى عليه السلام عاهدهم على ذلك، فلما خرج رسول الله ﷺ نقضوا العهد وكذبوه ولم يصدقوه، ويقال: إنما أراد به العهد الذي أخذه من بني آدم من ظهورهم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] يقال: إنه أراد به العهد فنقضوا ذلك العهد والميثاق وهم يقرُّون. فإن قال قائل: فكيف يجوز هذا واليهود كانوا مقرّين بالله تعالى، فكيف يكون نقض العهد وهم مقرّون؟ قيل له: إذا لم يصدقوا بمحمد ﷺ فقد أشركوا بالله، لأنهم لم يصدقوا بأن القرآن من عند الله، ومن

Marfat.com

زعم أن القرآن قول البشرفقد أشرك الله تعالى، وصار ناقضاً للعهد. ويقال: الميثاق الذي يعرف كل واحد ربه إذا تفكر في نفسه، فكان ذلك بمنزلة أخذ الميثاق عليه، وجميع ما في القرآن من ذكر الميثاق فهو على هذه الأوجه الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، روى الضحاك وعطاء عن ابن عباس أنه قال: «إنهم أمروا أن يؤمنوا بجميع الأنبياء فآمنوا ببعضهم ولم يؤمنوا ببعضهم»، فهذا معنى قوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾. ويقال: أمروا بصلة القرابات فقطعوا الأرحام فيما بينهم. ويقال: كان بين اليهود والعرب قرابة من وجه، لأن العرب كانت من أولاد إسماعيل واليهود من أولاد إسحاق، فإذا لم يؤمنوا بالنبي ﷺ فقد قطعوا ذلك الرحم الذي كان بينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾، لأنهم يكفرون ويأمرون غيرهم بالكفر، فذلك فسادهم في الأرض ﴿أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ أي المغبونون بالعقوبة. وقال الكلبي: ليس من مؤمن ولا كافر إلا وله منزل وأهل وخدم في الجنة، فإن أطاع الله تعالى أتى أهله وخدمه ومنزله في الجنة، وإن عصى الله تعالى ورّثه الله تعالى المؤمنين، فقد غبن عن أهله وخدمه، كما قال في آية أخرى ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥]. وقال بعضهم: هذا التفسير لا يصح لأنه لا يجوز أن يقال للكافر منزل في الجنة وخدم، ولكن يقال له هذا على وجه المثل، أن الكافر لو آمن كان له منزلٌ وخدم في الجنة، إلا أن الكلبي لم يقل ذلك من ذات نفسه، وإنما رواه عن أبي صالح، عن ابن عباس.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَيفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وَكُنتُمْ﴾، قال ابن عباس: هو على وجه التعجب. وقال الفراء[1]: هو على وجه التوبيخ والتعجب، لا على وجه الاستفهام، فكأنه قال: ويحكم كيف تكفرون وتجحدون بوحدانية الله تعالى. فإن قيل: كيف يجوز التعجب من الله تعالى والتعجب وإنما يكون ممن سمع شيئاً لم يكن سمعه، أو رأى شيئاً لم يكن رآه، فيتعجب لذلك، والله تعالى قد علم الأشياء قبل كونها؟ قيل له: التعجب من الله تعالى يكون على وجه التعجيب، والتعجب هو أن يدعو إلى التعجب فكأنه يقول: ألا تتعجبون أنهم يكفرون بالله تعالى؟! وهذا كما قال في آية أخرى ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥].

(١) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور مولى بني أسد، أبو زكرياء المعروف بالفراء. (١١٤ - ٢٠٧ هـ). إمام الكوفيين بالنحو واللغة والأدب، وأمير المؤمنين في النحو. فقيه ومتكلم وعالم بأيام العرب: له معاني القرآن والمعاني، والأمثال. راجع: الأعلام: ٨/ ١٤٦ ووفيات الأعيان: ٢/ ٢٢٨ وتهذيب التهذيب ١١/ ٢١٢.

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾، يعني: كنتم نطفاً في أصلاب آبائكم فأحياكم في أرحام أمهاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقطاع آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحيِيكم﴾ للبعث يوم القيامة. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فتثابون بأعمالكم. قال الكلبي: فلما ذكر البعث عرف اليهود فسكتوا وأنكر ذلك المشركون قالوا: ومن يستطيع أن يحيينا بعد الموت؟ فنزل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. فإن قيل: كيف يجوز أن يكون هذا الخطاب لليهودوهم لم يكفروا بالله تعالى؟ فالجواب ما سبق ذكره: أنهم لما أنكروا نبوة محمد ﷺ فقد أنكروا وحدانية الله تعالى، لأنهم أخبروا أن القرآن قول البشر.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾، يعني: قدّر خَلقَهَا، لأن الأشياء كلها لم تُخلق في ذلك الوقت، لأن الدواب والثمار وغيرها التي في الأرض تخلق وقتاً فوقتاً، ولكن معناه: قدّر خلق الأشياء التي في الأرض.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ هذه الآية من المشكلات، والناس في هذه الآية وما شاكلها على ثلاثة أوجه: قال بعضهم: نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها، وهذا كما روي عن مالك بن أنس أن رجلاً سأله عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فقال مالك: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً، فأخرجوه» فنظروا فإذا هو جَهْم بن صفوان، وقال بعضهم: نقرؤها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة وهذا قول المشبهة. وقال بعضهم: نقرأها ونتأولها وللتأويل في هذه الآية وجهان: أحدهما: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾، يعني: صعد أمره إلى السماء، وهو قوله: ﴿كن فكان﴾، والثاني: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني: أقبل إلى خلق السماء. فإن قيل: قد قال في آية أخرى ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ إلى قوله ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨، ٣٠]فذكر في تلك الآية أن الأرض خلقت بعد السماء، وذكر في هذه الآية أن السماء خلقت بعد الأرض الجواب عن هذا أن يقال: خلق الأرض قبل السماء وهي ربوة حمراء في موضع الكعبة، فلما خلق السماء بسط الأرض بعد خلق السماء فذلك قوله: ﴿وَالأَرْض بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ يعني: بسطها.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ يعني: خلقهن ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ فهنّ أعظم من خلقكم ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعني: بكل خلق عليم. معناه: أن الذي خلق لكم الأرض جميعاً وخلق السماوات، قادر على أن يحييكم بعد الممات. قرأ نافع والكسائي وأبو عمرو ﴿وهْو﴾ بجزم

Marfat.com

الهاء. وقرأ الباقون بضم الهاء ﴿وهُو﴾ في جميع القرآن، وهما لغتان ومعناهما واحد.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾، روي عن أبي عبيدة أنه قال: معناه وقال ربك، و﴿إذ﴾ زيادة. وروي عن الفراء أنه قال: معناهُ واذكر إذ قال ربك. وقال مقاتل: معناه، وقد قال ربك للملائكة. والملائكة: جميع الملك. وهذا اللفظ على غير القياس، لأنه يقال: ملائكة بالهمزة ويقال للواحد: ملك بغير همز. وإنما قيل ذلك لأنه في الأصل كان مالك بالهمز فأسقط الهمزة للتخفيف. وأصله من: لأكَ، يألكُ، والألوكه الرسالة. كما قال القائل:

وَغُـلامٌ أَرْسَـلَـتْـهُ أُمُّـهُ[1] بِـأَلُـوكٍ، فَـبَـذَلْـنَـا مَـا سَـأَلْ

وإنما سميت الملائكة ملائكة، لأنهم رسل الله تعالى، وإنَّمَا أراد ها هنا بعض الملائكة، وهم الملائكة الذين كانوا في الأرض. وذلك أن الله تعالى لما خلق الأرض، خلق الجان من مارج من نار، أي من لهب من نار لا دخان لها، فكثر نسله، وهم الجنّ بنو الجان، فعملوا في الأرض بالمعاصي وسفكوا الدماء، فبعث الله تعالى ملائكة سماء الدنيا، وأمر عليهم إبليس وكان اسمه عزازيل، حتى هزموا الجن، وأخرجوهم من الأرض إلى جزائر البحور، فسكنوا الأرض، فصار الأمر عليهم في العبادة أخف، لأن كل صنف من الملائكة يكون أرفع في السماوات فيكون خوفهم أشد، وملائكة سماء الدنيا يكون أمرهم أيسر من الذين فوقهم، فلما سكنوا الأرض صار الأمر عليهم أخف مما كانوا، وسكنوا الأرض واطمأنوا إليها، وكل من اطمأن إلى الدنيا أمر بالتحول عنها. فأخبرهم الله تعالى أنه يريد أن يخلق خليفة في الأرض سواكم فشق ذلك عليهم وكرهوا ذلك، فذلك قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ في الأَرْض خَلِيفَةً﴾ يعني: أريد أن أخلق في الأرض خليفة سواكم، فشق ذلك عليهم وكرهوا ذلك ﴿فقالُوا أَتجْعَلُ فِيهَا من يفسدُ فيها﴾ يعني: أتخلق فيها ﴿مَن يُفسِدُ فِيهَا﴾ كما أفسدت الجن ﴿ويَسْفِكُ الدِّمَاءِ﴾ كما سفكت الجن ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، يعني: نصلي لك بأمرك. ويقال معناه، نحن نسبحك ونحمدك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. قال بعضهم: نقدس أنفسنا لك، يعني: نظهر أنفسنا بالعبادة عن المعصية. وقال بعضهم: ﴿ونقدس لك﴾ أي: ننسبك إلى الطهارة.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾، قال مجاهد: علم من إبليس المعصية،

---

(١) في «ب»: الوكه. وفي القرطبي: ١: ٢٥٠ والطبري: ١/١٩٨ والقائل: لبيد بن ربيعة العامري (ت ٤١هـ) أبو عقيل، أدرك الإسلام، ويعدّ من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم، ومن أصحاب المعلقات. الأعلام ٥/ ٢٤٠.

Marfat.com

وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وأصل السجود في اللغة: هو الميلان والخضوع، والعرب تقول: سجدت النخلة إذا مالت، وسجدت الناقة إذا طأطأت رأسها ومالت. وإنما كانت سجدة التحية لا سجدة العبادة، وكانت السجدة تحية لآدم وطاعة لله تعالى ﴿فسجدوا﴾ كلهم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾. يقال: إبليس اسم أعجمي، ولذلك لا ينصرف، وهو قول أبي عبيدة. وقال غيره: هو أفعيل من أبلس يبلس إذا يئس وكذا قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أنه أيئسه من رحمته. وكان اسمه عزازيل[1] ويقال: عزائيل، وإنما لم ينصرف لأنه لا سمي له فاستثقل. وقال ابن عباس: إنما سمي آدم، لأنه خلقه من أديم الأرض. وروي عن قطرب أنه قال: هذا الخبر لا يصح، لأن العربية لا توافقه. ويقال: هو مأخوذ من الأدمة، وهو الذي يكون في لونه سمرة. ﴿إلا إبليس أبى وَاسْتَكْبَرَ﴾ يعني امتنع عن السجود تكبراً، معناه: أن كبره منعه من السجود.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال بعضهم: وصار من الكافرين، كما قال في آية أخرى ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، يعني: صار من المغرقين. ويقال: ﴿وكان من الكافرين﴾ في علم الله، معناه: كان في علم الله تعالى أنه يكفر. وقال بعضهم بظاهر الآية وقال: كان كافراً في الأصل، وهو قول أهل الجبر. وقالوا: كل كافر أسلم فقد ظهر أنه كان مسلماً في الأصل، وكل مسلم كفر ظهر أنه كان كافراً في الأصل، لأنه كان كافراً يوم الميثاق. ألا ترى أن الله تعالى قال في قصة بلقيس ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣] ولم يقل إنها كانت كافرة، وقال في قصة إبليس ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. وقال أهل السنة والجماعة: الكافر إذا أسلم كان كافراً إلى وقت إسلامه، وإنما صار مسلماً بإسلامه إلا أنه غفر له ما قد سلف. والمسلم إذا كفر كان مسلماً إلى ذلك الوقت، إلا أنه حبط عمله.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يا آدمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «أمر الله تعالى ملائكته أن يحملوا آدم على سرير من ذهب إلى السماء، فأدخلوه الجنة، ثم خلق منه زوجه حواء، يعني من ضلعه الأيسر، وكان آدم بين النائم واليقظان». وقال ابن عباس رضي الله عنه: «سميت حواء لأنها خلقت من الحي[2]. ويقال: إنما سميت حواء لأنه كان في

---

(١) السيوطي: ١/١٢٣ وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وابن الأنباري في الأضداد والبيهقي في الشعب.

(٢) عزاه السيوطي ١/١٢٧ إلى ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات.

Marfat.com

شفتيها حوّة، يعني: حمرة، فقال عز وجل: ﴿يا آدمُ اسكنْ أنتَ وزوجُك﴾ يعني: حواء. يقال للمرأة: زوجة وزوج، والزوج أفصح.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلاَ مِنْهَا﴾، يعني: من الجنة ﴿رَغَداً﴾، يعني: موسعاً عليكما بلا فوتٍ ولا هنداز بالزاي المعجمة، هكذا قال في رواية الكلبي يعني: بغير تقدير. وقال بعض أهل اللغة: الرغد هو السعة في الرّزق من غير تقدير.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِه ٱلشَّجَرَةَ﴾، يعني: ولا تأكلا من هذه الشجرة. وروى السدي، عمن حدثه عن ابن عباس أنه قال: «هي شجرة الكرم». وروى الشعبي عن جعد بن هبيرة مثله. وروي عن علي رضي الله عنه مثله. وقال قتادة: وذكر لنا أنها شجرة التين ويقال: إنما كان النهي عن الأكل من الشجرة للمحنة، لأن الدنيا دار محنة، وقد خلق من الأرض ليسكن فيها، فامتُحِن بذلك، كما امتُحن أولاده في الدنيا بالحلال والحرام. فذلك قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾، يعني فتصيرا من الضارّين بأنفسكما.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيطَانُ عَنهَا﴾، قرأ حمزة: ﴿فأزالهما﴾ بالألف، وقرأ غيره ﴿فأزلهما﴾ بغير ألف. وأصله في اللغة: من أزلَ يزلُّ، معناه: فأغراهما الشيطان واستزلّهما. وأما من قرأ ﴿فأزالهما﴾ بالألف، فأصله من أزال يُزيل، إذا أزال الشيء عن موضعه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، يعني: مما كانا فيه من النعمة. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: مكث آدم في الجنة كما بين الظهر والعصر، يعني: من أيام الآخرة، لأن كل يوم من أيام الآخرة كألف سنة من أيام الدنيا.

وروي عن ابن عباس أنه قال: «لما رأى إبليس آدم في النعمة حسده، واحتال لإخراجه منها، فعرض نفسه على كل دابة من دواب الجنة أن يدخل في صورتها فأبت عليه، حتى أتى الحية وكانت هي أحسن دابة في الجنة خلقاً، وكانت لها أربعُ قوائم، فلم يزل يستدرجها حتى أطاعته، فدخل ما بين لحييها وأقام في رأسها، ثم أتى باب الجنة وناداهما وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، يعني: أن هذه الشجرة شجرة الخلد، فمن أكل منها يبقى في الجنة أبداً، فأكلا منها».

ويقال: إن حواء قالت لآدم: تعال حتى نأكل من هذه الشجرة فقال آدم: قد نهانا ربنا عن أكل هذه الشجرة، فأخذت بيده حتى جاءت به إلى الشجرة، وكان آدم يحب حواء، فكره أن يخالفها لحبه إياها، وكان آدم يقول لها: لا تفعلي فإني أخاف العقوبة. وكانت حواء تقول: إن

Marfat.com

رحمة الله واسعة، فأخذت من ثمرها فأكلت. ثم قالت لآدم: هل أصابني شيء بأكلها؟، وإنما لم يصبها شيء بأكلها لأنها كانت تابعة وآدم متبوعاً، فما دام المتبوع على الصلاح يتجاوز عن التابع، فإذا فسد المتبوع فسد التابع ثم أخذت ثمرة أخرى فدفعت إلى آدم. فلما أكل آدم لم تصل إلى جوفه حتى أخذتهما الرعدة، وسقط عنهما من الحلي والحلل وغيرهما، وعريا عن الثياب حتى بدت عورتهما فاستحييا وهربا. قال الله تعالى: أمني تهرب يا آدم؟ قال: لا ولكن حياء من ذنبي. فأخذا من أوراق التين، وألصقا على عوراتهما، ثم أمرهما الله تعالى بأن يهبطا منها إلى الأرض، فوقع آدم بأرض الهند، وحواء بجدة، والحية بأصبهان، وإبليس في جزائر البحر. وروي عن ابن عباس أنه قال: «إنما سمي الإنسان إنساناً، لأن الله تعالى عهد إليه فنسي»، يعني: ترك.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني: آدم وحواء والحية وإبليس، فبقي بين إبليس وبين آدم عداوة إلى يوم القيامة. وكذلك بين الحية وبين أولاد آدم عداوة ظاهرة.

ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، يعني موضع القرار وقوله: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، يعني: الحياة والعيش إلى حين، يعني: الموت.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، قرأ ابن كثير ﴿فتلقى آدمَ﴾ فنصب آدم ورفع الكلمات. وقرأ غيره برفع ﴿آدمُ﴾ وكسر الكلمات. فأما من قرأ ﴿فتلقى آدمُ﴾ بالرفع فمعناه: أخذ وقبل من ربه. ويقال: تلقّى وتلقّف بمعنى واحد في اللغة. وأمّا من قرأ بنصب ﴿فتلقى آدمَ﴾. يعني: استقبلته الكلمات من ربه. يقال: تلقيت فلاناً بمعنى استقبلته. ومعنى ذلك كله: أن الله تعالى ألهمه بكلمات، فاعتذر بتلك الكلمات وتضرع إليه، فتاب الله عليه.

وقال مجاهد: تلك الكلمات هي قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية. وقال بعضهم: قال: بحق محمد أن تقبل توبتي. قال الله تعالى له: من أين عرفت محمداً؟ قال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك، فتاب الله عليه. وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «تلك الكلمات هي قوله: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم». الثاني: «فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين». الثالث: «فارحمني إنك أنت خير الراحمين».

وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، يعني: فقبل توبته. يقال: تاب العبد إلى ربه، وتاب الله على عبده، فهذا اللفظ مشترك، إلا أنه إذا ذكر من العبد يقال: تاب إلى الله، وإذا ذكر من الله تعالى يقال: على، فيقال: تاب العبد إلى ربه، إذا رجع عن ذنبه. وتاب الله على عبده، إذا قبل

Marfat.com

توبته. قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يعني: المتجاوز عن الذنوب الرحيم بعباده.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾، يعني: آدم وحواء والحية وإبليس. وفي الآية دليل على أن المعصية تزيل النعمة عن صاحبها، لأن آدم قد أخرج من الجنة بمعصيته. وهذا كما قال القائل:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ
وداوِم عليها بشكر الإله ... فإنَّ الإله شديدُ النِّقَم

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ [الرعد: ١١] الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِي هُدًى﴾، وأصله: فإن ما، إلا أن النون أدغمت في الميم، وإن لتأكيد الكلام، وما للصلة، ومعناه: فإنْ يأتينكم مني هدى، يعني: البيان، وهو الكتاب والرسل، خاطب به آدم وعنى به ذريته. ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾، يعني: من اتبع كتابي وأطاع رسلي ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلهم من العذاب، ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا من أمر الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، يعني: جحدوا برسلي وكذبوا بآياتي ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، يعني: دائمين.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، يعني: أولاد يعقوب. وإنما سمي إسرائيل، لأن الأسر بلغتهم عبد، وأيل هو الله، فكأنه قال: يا بني عبد الله. وقيل: إنما سمي إسرائيل لأنه أسره ملك يقال له: إيل، وذلك أنه كان في سفر مع أولاده، وكان يسير خلف القافلة، وكان له قوة فدخل في نفسه شيء من العجب، فابتلاه الله تعالى، أن جاءه ملك على هيئة اللص وأراد أن يضرب على القافلة، فأراد يعقوب أن يضربه على الأرض فلم يقدر على ذلك، وكانا في تلك

Marfat.com

قال: حدثنا الحجاج بن يوسف، عن سهل بن حماد، عن أبيّ بن غياث، عن هشام الدستوائي، عن المغيرة وهو ختن مالك بن دينار، عن مالك بن دينار، عن أبي ثمامة، عن أنس قال: لما عرج بالنبي ﷺ مرّ على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من النار، فقال: «يا جبْريلُ مَنْ هؤلاءِ»؟ فقال: «هم الخطباء من أمّتك، الّذِينَ يأمُرُونَ النّاسَ بِالبِرّ، وَيَنسَوْنَ أنْفُسَهُمْ»[1]. ثم قال: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يعني أفلا تعقلون أن صفته في التوراة. ويقال: ﴿وأنتم تتلونَ الكِتابَ أفلا تعقِلونَ﴾ أن ذلك حجّة عليكم.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلاةِ﴾، يعني: استعينوا ﴿بالصبر﴾ على أداء الفرائض، وبكثرة الصلاة على تمحيص الذنوب. ويقال: استعينو بالصبر على نصرة محمد ﷺ. وقال مجاهد: ﴿استعينوا بالصبر والصلاة﴾ يعني: استعينوا بالصوم والصلاة، وإنما سمي الصوم صبراً لأن في الصوم حبس النفس عن الطعام والشراب والرفث. وقد قيل: الصبر على ثلاثة أوجه: صبر على الشدة والمصيبة، وصبر على الطاعة وهو أشد من الأول وأجره أكثر، وصبر عن المعصية وهو أشد من الأول والثاني، وأجره أكثر منهما. وفي هذا الموضع أراد الصبر على الطاعة.

﴿وإنّها لَكَبِيرَةٌ﴾، يعني: الاستعانة، ويقال: الصلاة لكبيرة أي ثقيلة ﴿إلاّ عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ﴾، يعني: المتواضعين. ويقال: الذليلة قلوبهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ﴾، يعني: يستيقنون أنهم يبعثون يوم القيامة بعد الموت. وإنما سمي اليقين ظناً، لأن في الظن طرفاً من اليقين، فيعبّر بالظن عن اليقين. وقوله: ﴿وَأَنّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ يعني: في الآخرة بعد البعث للحساب.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِي ٱلّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنّي فَضّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾، يعني: عالمي زمانهم. وقال بعضهم: من آمن من أهل الكتاب بمحمد ﷺ كانت له فضيلة على غيره وكان له أجران: أجر إيمانه بنبيه، وأجر إيمانه بمحمد ﷺ؛ وقد روي عن رسول الله النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثَةٌ يُعْطِيهِمُ اللهُ الأجرَ مرّتَيْنِ، مَنِ اشْتَرَى جارِيَةً فأحْسَنَ تأدِيبَها

---

(١) عزاه السيوطي ١/١٥٦ إلى وكيع وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبزار وابن أبي داود في البعث، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبي نعيم في الحلية، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان.

Marfat.com

فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَها، وَعَبْدٌ أَطَاعَ سَيِّدَهُ وَأَطَاعَ اللهَ تَعَالَى، وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ»(١). وقيل: معنى قوله ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾ بإنزال المن والسلوى وغير ذلك، ولم يكن لأحد من العالمين غيرهم.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً﴾، يعني: اخشوا عذاب يوم ﴿لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شيئاً﴾، يعني: لا تغني في ذلك اليوم نفس مؤمنة عن نفس كافرة، وذلك أنهم كانوا يقولون: نحن من ولد إبراهيم خليل الرحمن، ومن ولد إسحاق والله تعالى يقبل شفاعتهما فينا، فنزلت هذه الآية: ﴿لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾، يعني: لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة. ﴿ولا يُقْبلُ منها شَفَاعَةٌ﴾، يعني: من نفس كافرة.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ولا تقبل﴾ بالتاء، لأن الشفاعة مؤنثة؛ وقرأ الباقون بالياء، لأن تأنيثه ليس بحقيقي، وما لم يكن تأنيثه حقيقياً جاز تذكيره، كقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُؤْخَذُ مِنهَا عَدْلٌ﴾، يعني: لا يقبل الفداء من نفس كافرة كما قال في موضع آخر ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١]، ويقال: لو جاءت بعدل نفسها رجلاً مكانها لا يقبل منها. ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾، يقول: ولا هم يمنعون من العذاب.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيناكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، إنما خاطبهم وأراد به آباءهم، لأنهم كانوا يتولون آباءهم فأضاف إليهم. ومعناه: واذكروا إذ نجيناكم من قوم فرعون ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يعذبونكم بأشد العذاب وأقبح العذاب. ويقال في اللغة: سامه الخسف، إذا أولاه الهوان، يعني: يولونكم بأشد العذاب. ثم بيّن العذاب فقال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الصغار ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، يعني: يستخدمون نساءكم. وأصله في اللغة: من الحياة، يقال:

---

(١) حديث أبي موسى الأشعري: أخرجه البخاري (٩٧) و(٣٠١١) و(٣٤٤٦) ومسلم (١٥٤) وأحمد ٤/ ٣٩٥ ـ ٤٠٢/ ٤١٤ والترمذي (١١١٦) والنسائي: ٦/ ١١٥ وابن ماجه (١٩٥٦) وأبو داود (٢٠٥٣) والبيهقي ٧/ ١٢٨.

Marfat.com

استحيا، يستحيي إذا تركه حيّاً. وكانوا يذبحون الأولاد، ويتركون النساء أحياء للخدمة، وذلك أن فرعون قالت له كهنته: يولد في بني إسرائيل مولود ينازعك في ملكك، فأمر بأن يذبح كل ابن يولد في بني إسرائيل، وتترك البنات.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاَءٌ﴾، يعني: في أي إنجاء الله تعالى من ذبح الأولاد واستخدام النساء نعمة لكم ﴿من ربكم عظيم﴾ فالبلاء: يكون عبارة عن النعمة، ويكون أيضاً عبارة عن البلية والشدة، وأصله: من الابتلاء والاختبار يكون بهما جميعاً. فإن أراد به النعمة، فمعناه ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ﴾، يعني من انجاء الله تعالى من ذبح الأولاد واستخدام النساء نعمة لكم من ربكم عظيم، وإن أراد به العذاب، فمعناه: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ يعني: في ذبح الأبناء واستخدام النساء بلاء لكم من ربكم عظيم.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فأنجيناكم﴾، يعني: فرق الماء يميناً وشمالاً حين خرج موسى مع بني إسرائيل من مصر، فخرج فرعون وقومه في طلبهم، فلما انتهوا إلى البحر ضرب موسى عصاه على البحر، فانفلق، فصار اثني عشر طريقاً يابساً لكل سبط منهم طريق. فلما جاوز موسى البحر ودخل فيه فرعون مع قومه، غشيهم من اليم ما غشيهم، يعني: غشيهم الماء فغرقوا في اليم فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُم الْبَحْرَ﴾. يقول: واذكروا إذا فلقنا بكم البحر فأنجيناكُمْ من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾، يعني: فرعون وآله. قال بعض أهل اللغة: آل الرجل أتباع الرجل، قريبه كان أو غيره، وأهله قريبه أتبعه أو لم يتبعه. ويقال: الآل والأهل بمعنى واحد، إلا أن الآل يستعمل لاتباع رئيس من الرؤساء، يقال: آل فرعون وآل هارون، ولا يقال: آل زيد، وآل عمرو. روي عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: من آلك؟ قال: «آلِي كُلُّ تَقِيٍّ إلى يوم القيامَةِ».

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، يعني: تنظرون إليهم حين لفظهم البحر بعدما غرقوا، يعني آباءهم. وقال بعضهم: معناه أنكم تعلمون ذلك كأنكم تنظرون إليهم. قال الفقيه: وكان في قصة فرعون وغيره علامة نبوة محمد ﷺ لأنه لا يعرف ذلك إلا بالوحي، فلما أخبرهم بذلك من غير أن يقرأ كتاباً، كان ذلك دليلاً أنه قاله بالوحي، وفيه أيضاً تهديد للكفار ليؤمنوا حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، وفيه أيضاً تنبيه للمؤمنين وعظة لهم ليزجرهم ذلك عن المعاصي.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، قرأ أبو عمرو بغير ألف ﴿وإذا وعدنا

Marfat.com

موسى﴾، وقرأ غيره ﴿وَإِذْ واعَدْنَا﴾ بالألف، فمن قرأ بغير ألف فمعناه ظاهر، يعني أن الله تعالى وعد موسى عليه السلام. ومن قرأ بالألف فالمواعدة تجري بين اثنين، وإنما كان الواعد من الله تعالى ومن موسى الوفاء، ومن الله الأمر، ومن موسى الائتمار. فكأنما جرت المواعدة بين الله تعالى وبين موسى. وقد يجوز أن تكون المفاعلة من واحد، كما يقال: سافر ونافق.

ويقال: أربعين ليلة، كانت ثلاثين ليلة منها من ذي القعدة وعشراً من ذي الحجة. وقال بعضهم: ثلاثين كانت من ذي الحجة وعشراً من المحرم، وكانت مناجاته يوم عاسوراء. وروى الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: لما وعدهم موسى أربعين ليلة، عدَّت بنو إسرائيل عشرين يوماً وعشرين ليلة، وقالوا: قد تمت أربعون ولم يرجع موسى، فقد خلفنا.

وذكر أن السامري قال لهم: إنكم قد استعرتم من نساء آل فرعون حليهم ولم تردوه عليهن، فلعل الله تعالى لم يرد علينا موسى لهذا المعنى، فهاتوا ما معكم من حليهن حتى نحرقه، فلعلَّ الله يرد إلينا موسى، فجمعوا تلك الحلي، وكان السامري صائغاً فاتخذ منها عجلاً، وقد كان قبل ذلك رأى جبريل عليه السلام على فرس الحياة، فكلما وضع حافره اخضر ذلك الموضع، فرفع من تحت سُنبكه قبضة من التراب، ونفخ ذلك التراب في العجل فصار ذلك عجلاً جسداً له خوار. وروي عن ابن عباس أنه قال: «صار عجلاً له لحم ودم وفيه حياة له خوار». وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «اتخذ عجلاً جسداً مشبكاً من ذهب له خوار، فدخل الريح في جوفه وخرج من فيه كهيئة الخوار». فقال للقوم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي، يعني أن موسى أخطأ الطريق. ويقال: كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة، فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة، لأنه قد أفطر من الصِّيام في تلك العشرة، فإنما ظهر لهم الخلاف في تلك العشرة وهذا الطريق أوضح.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، يعني: عبدتم العجل من بعد انطلاق موسى إلى الجبل ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾، يعني: كافرين بعبادتكم العجل. ويقال: وأنتم ضارون بأنفسكم بعبادة العجل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، يقول: تركناكم من بعد عبادة العجل، فلم نستأصلكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، يعني: لكي تشكروا الله تعالى على العفو والنعمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، يعني: أعطينا موسى التوراة ﴿وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾، يعني: الفارق بين الحلال والحرام. ويقال: ﴿الفرقان﴾ هو النصرة بدليل قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] يعني: يوم النصرة. ويقال: الفرقان هو المخرج من الشبهات. ويقال: هو انفلاق البحر بدليل قوله: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة: ٥٠]. وقال الفراء: في الآية مضمر، ومعناها: وآتينا موسى الكتاب يعني التوراة، وآتينا محمداً الفرقان، يعني: أعطينا موسى التوراة، وأعطينا محمداً الفرقان، كأنه خاطبهم فقال: قد أعطيناكم علم موسى وعلم محمد ﷺ

Marfat.com

وعي سائر الأنبياء. قوله: ﴿لعلَّكُم تهتدُون﴾، لكي تهتدوا من الضلالة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذْ قالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾، وأصله: يا قومي بالياء، ولكن حذف الياء وترك الكسرة بدلاً عن الياء، وتكون في الإضافة إلى نفسه معنى الشفقة. ﴿يا قوم إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أنفسَكُم﴾، يعني: أضررتم بأنفسكم ﴿باتِّخاذِكُم العِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾، يعني: إلى خالقكم يقول: فارجعوا عن عبادة العجل إلى عبادة خالقكم، وتوبوا إليه، فقالوا له: وكيف التوبة؟ قال لهم موسى: ﴿فاقْتُلُوا أنفُسَكُمْ﴾، يعني: يقتل بعضكم بعضاً، يعني: يقتل من لم يعبد العجل الذين عبدوا العجل، وإنما ذكر قتل الأنفس وأراد به الإخوان. وهذا كما قال في آية أخرى ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] يعني: إخوانكم من المسلمين، أي لا تغتابوا إخوانكم. ﴿ذٰلِكُمْ خيرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾، خالقكم يعني: التوبة خير لكم عند خالقكم، ومعناه: قتل أنفسكم مع رضا الله، خير عند الله تعالى من ترككم على عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، يعني: المتجاوز عن الذنوب ﴿الرحيم﴾ حيث جعل القتل كفارة لذنوبكم. وروي في الخبر: «أن الذين عبدوا العجل جلسوا على أبواب دورهم، فأتاهم هارون والذين لم يعبدوا العجل شاهرين السيوف، فكان موسى يقول: فاتقوا الله واصبروا له، فلعن الله رجلاً حلّ حبوته أو قام من مجلسه، أو مدّ طرفه إليهم أو اتقاهم بيد أو برجل. فيقولون: آمين»، وذكر في رواية أبي صالح: «أن هارون كان يتقدم ويقول ذلك، فجعلوا يقتلونهم إلى المساء، فقام موسى عليه السلام يدعو ربه لما شق عليه من كثرة الدماء، حتى نزلت التوبة. وقيل لموسى: ارفع السيف عنهم، فإني قبلت توبتهم جميعاً، من قتل ومن لم يُقتل».

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾، يعني: لن نصدقك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جهرَةً﴾ يعني: عياناً، وذلك أن موسى عليه السلام حين انطلق إلى طور سيناء للمناجاة، اختار موسى من قومه سبعين رجلاً، ولما انتهوا إلى الجبل أمرهم موسى بأن يمكثوا في أسفل الجبل، وصعد موسى الجبل فناجى ربه، فأعطاه الله تعالى الألواح، فلما رجع إليهم قالوا له: إنك قد رأيت الله فأرناه حتى ننظر إليه، فقال لهم: إني لم أره، وقد سألته أن أنظر إليه، فتجلى للجبل،

Marfat.com

فدك الجبل، فلم يصدقوه وقالوا: لن نصدقك حتى نرى الله جهرة. فأخذتهم الصاعقة فماتوا كلهم، فدعا موسى ربه فأحياهم الله تعالى، فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى الصاعقة. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، يعني: أحييناكم من بعد هلاككم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ للحياة بعد الموت.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، خاطبهم وأراد به آباءهم، وهم قوم موسى حيث أمروا بأن يدخلوا مدينة الجبارين، فأبوا ذلك وقالوا لموسى: ﴿أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فعاقبهم الله تعالى فبقوا في التيه أربعين سنة، وكانت المفازة اثني عشر فرسخاً، وكان يؤذيهم حر الشمس فظلل عليهم الغمام، ذلك قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وهو السحاب الأبيض، يقيكم حر الشمس في التيه، وكان لهم في التيه عمود من نور مدلّى لهم من السماء، فيسير معهم من الليل مكان القمر. فأصابهم الجوع، فسألوا موسى، فدعا ربه فأنزل عليهم المن وهو الترنجبيل كان يتساقط عليهم كل غداة، فيأخذ كل إنسان منهم ما يكفيه يومه وليلته، فإن أخذ أكثر من ذلك دود ما زاد عليه وفسد. وإذا كان يوم الجمعة أخذ كل إنسان منهم مقدار ما يكفيه ليومين، لأنه لا يأتيهم يوم السبت، وكان ذلك مثل الشهد المعجون بالسمن، فأجموا من المن، يعني: ملوا من أكله. فقالوا لموسى: قتلنا هذا المن بحلاوته وأحرق بطوننا، فادع لنا ربك أن يطعمنا لحماً. فدعا لهم موسى فبعث الله إليهم طيراً كثيراً وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾، وهو السماني، وهو طير يضرب إلى الحمرة. قال بعضهم: كان طيراً يأتيهم مشوياً. قال عامة المفسرين: إنهم كانوا يأخذونها ويذبحونها.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾، يعني: قيل لهم: ﴿كلوا من طيبات﴾ وهذا من المضمرات، وفي كلام العرب يضمر الشيء إذا كان فيه دليل يستغنى عن إظهاره، كما قال في آية أخرى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، يعني: يقال لهم أكفرتم؟ وكما قال في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ٣] يعني قالوا: ما نعبدهم. ومثل هذا في القرآن كثير. وكذلك قوله هاهنا ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، يعني: من حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، أي أعطيناكم من المن والسلوى ولا ترفعوا منها شيئاً، كما قال في آية أخرى ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [طه: ٨١]، يعني: لا تعصوا فيه ولا ترفعوا إلى الغد، فرفعوا وجعلوا اللحم قديداً مخافة أن ينفد، فرفع ذلك عنهم، ولو لم يرفعوا لدام ذلك عليهم.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وما ظلمونا﴾، يعني: وما أضرونا ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾، يعني: أضروا بأنفسهم حيث رفعوا، فمنع ذلك عنهم. وروى خلاس، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام، ولم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن امرأة زوجها»[1].

﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين (٥٨) فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون (٥٩) ۞ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين (٦٠)﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾، قال الكلبي: يعني أريحا، وقال مقاتل: إيليا. ويقال: هذا كان بعد موت موسى وهرون، وبعد مضي أربعين سنة، حيث أمر الله تعالى يوشع بن نون وكان خليفة موسى بأن يدخل مع قومه المدينة، فقال لهم يوشع بن نون: ادخلوا الباب سجداً، يعني: إذا دخلتم من باب المدينة فادخلوا ركعاً منحنين ناكسين رؤوسكم متواضعين، فيقوم ذلك منكم مقام السجود، فذلك قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾، يعني أريحا أو إيليا.

﴿فكلوا منها حيث شئتم رغداً﴾، يعني: موسعاً عليكم ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾، يعني: ركعاً منحنين.

﴿وقولوا حطة﴾. قرأ بعضهم بالرفع، وبعضهم بالنصب وهي قراءة شاذة، وإنما جعله نصباً لأنه مفعول من قرأ بالرفع معناه: قولوا قولاً فيه حطة. وروي عن قتادة أنه قال: تفسير ﴿حطه﴾ يعني: حطّ عنا ذنوبنا، وقال بعضهم: بسم الله، وقال بعضهم: معناه لا إله إلا الله. وقال بعضهم: بسم الله. وقال بعضهم: أمروا بأن يقولوا بهذا اللفظ ولا ندري ما معناه.

وقوله تعالى: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾، قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام ﴿تُغفر﴾ بالتاء والضمة، لأن لفظ الخطايا مؤنث. وقرأ نافع ومن تابعه من أهل المدينة ﴿يُغفر لكم خطاياكم﴾ بالياء والضمة بلفظ التذكير، لأن تأنيثه ليس بحقيقي ولأن الفعل مقدم. وقرأ الباقون بالنون وكسر الفاء على معنى الإضافة إلى نفسه، وذلك كله يرجع إلى معنى واحد، ومعناه: نغفر لكم خطايا الذين عبدوا العجل. ﴿وسنزيد المحسنين﴾، أي في إحساننا من لم يعبد

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٣٣٣٠) و(٣٣٩٩) ومسلم (١٤٧٠) (٦٩) وأحمد: ٢/٣٠٤، ٣١٥ والبغوي (٢٣٣٥). وخنز اللحم: أنتن.

Marfat.com

العجل. ويقال: نغفر خطايا من رفع المن والسلوى للغد، وسنزيد في إحسان من لم يرفع إلى الغد. ويقال: نغفر خطايا من هو عاصٍ، وسنزيد في إحسان من هو محسن. فلما دخلوا الباب خالفوا أمره. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ «أَنَّهُمْ دَخَلُوا البَابَ يَزْحَفُونَ»[١]. وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: «دخلوا على أستاههم»[٢]. ويقال: دخلوا منحرفين على شق وجوههم، وقالوا: «حنطاً سمقانا» يعني حنطة حمراء، بلغة النبط استهزاء وتبديلاً. وإنما قال ذلك سفهاؤهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، يعني: فير ذلك القول وقالوا بخلاف ما قيل لهم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً﴾، أي عذاباً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وهو موت الفجاءة - وقال أبو روق: الرجز الطاعون. ويقال: مات منهم بالطاعون سبعون ألفاً في وقت واحد. ويقال: نزلت بهم نار فاحترقوا. ويقال: وقع بينهم قتال فاقتتلوا، فقتل بعضهم بعضاً[٣] -.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني: جزاء لفسقهم وعصيانهم. ثم رجع إلى قصة موسى عليه السلام حين كانوا في التيه وأصابهم العطش فاستغاثوا بموسى، فدعا ربه، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه الحجر، فأخذ موسى حجراً مربعاً مثل رأس الإنسان، ووضعه في المخلاة بين يدي قومه، ضَرَبَ بِعَصَاه عَلَيْهِ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثنتا عشرة عيناً ماءً عذباً، وكانت بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً لكل سبط منهم عين على حدة.

قال الفقيه: حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد بن مندوسة قال: حدثنا أبو القاسم، أحمد بن حمزة الصفار قال: حدثنا عيسى بن أحمد قال: حدثنا يزيد بن هارون، عن الفضل بن مرزوق، عن عطية العوفي قال: تاه بنو إسرائيل في اثني عشر فرسخاً أربعين عاماً على غير ماء، وجعل لهم حجراً مثل رأس الثور، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى بعصاه، فذلك قوله: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾.

﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ فإذا ساروا حملوه واستمسك. وقال بعضهم: كان يخرج عيناً واحدة ثم تتفرق على اثنتي عشرة فرقة، وتصير اثني عشر نهراً. وقال بعضهم: كان للحجر اثنا عشر ثقباً، يخرج منها مشربهم وموردهم، يعني: موضع شربهم من العيون. قال مقاتل: كان الحجر مربعاً، وكان جبريل عليه السلام أمر موسى يوم جاوز البحر ببني إسرائيل، وإنما انفجرت اثنتا عشرة عيناً لأنه أخذ من مكان فيه اثنا عشر طريقاً.

(١) عزاه السيوطي ١/ ١٧٤ إلى أحمد والبخاري ومسلم وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) عزاه السيوطي ١/ ١٧٤ إلى ابن المنذر وابن جرير.

(٣) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿قد علم كلّ أناسٍ مشربهم﴾ أي قد عرف كلّ سبط مشربهم أي موضع شربهم من العيون. لا يخالطهم فيها غيرهم. والحكمة في ذلك أن الأسباط كانت بينهم عصبية ومباهاة، وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر، وأراد كل سبط تكثير نفسه، فجعل لكل سبط منهم نهراً على حدة يستقون منه، ويسقون دوابهم لكيلا يقع بينهم جدال ومخاصمة. ويقال: كان الحجر من الجنة. ويقال: رفعه موسى من أسفل البحر حيث مرّ فيه مع قومه. ويقال: كان حجراً من أحجار الأرض.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ يعني: قيل لهم كلوا من المنّ والسلوى، واشربوا من ماء العيون.

وقوله تعالى: ﴿ولاَ تعثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، يعني: لا تعملوا في الأرض بالمعاصي، يقال: عثا يعثو عُثُوّاً، إذا أظهر الفساد وعَثِيَ يَعْثَى عُثِيّاً، وعاث يعيثُ عُيوثاً ومعاثاً ثم أجمعوا من المن والسلوى.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، يعني: من جنس واحد ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، يعني: سل لنا ربك ﴿يُخرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرْضُ﴾، يعني: مما تخرج الأرض ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا﴾. وقوله: ﴿بقلها﴾ أراد به: البقول كلها، وقوله ﴿وقثائها﴾ أراد به: جميع ما يخرج من الفاكهة نحو: القثاء والبطيخ ونحو ذلك، وقوله: ﴿وَفُومِهَا﴾، يعني: طعامها وهي الحبوب كلها، ويقال: هي الحنطة خاصة. وقال مجاهد: الفوم الخبز. وقال الفراء: فومي لنا يا جارية، يعني اخبزي لنا، ويقال: الفوم هو الثوم، والعرب تبدل الفاء بالثاء لقرب مخرجيهما. وفي قراءة عبد الله بن مسعود ﴿وَثُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

فغضب عليهم موسى و﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، يعني: أتستبدلون الرديء من الطعام بالذي هو خير، يعني: بالشريف الأعلى؟ ويقال: معناه تسألون الدنيء من الطعام وقد أعطاكم الله الشريف منه وهو المن والسلوى؟ ويقال: أتختارون الدنيء الخسيس وهو الثوم والبصل على الذي هو أعلى وأشرف وهو المن والسلوى؟ فقال لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ قرأ أبي بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهما بلا تنوين يعني: مصر الذي خرجتم منه، وهو مصر فرعون، ومن قرأ ﴿مِصراً﴾ بالتنوين يعني: ادخلوا مصراً من الأمصار، ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيه ﴿مَا سأَلْتُم﴾ تزرعون وتحصدون.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾. قال الحسن وقتادة: جعلت عليهم الجزية يعني: على ذريتهم. ويقال: جعل عليهم كدّ العمل، يعني أولئك القوم حتى كانوا ينقلون السرقين.

وقوله: ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ يعني زي الفقر. قال الكلبي: الرجل من اليهود وإن كان غنياً، يكون عليه زي الفقر.

وقوله تعالى: ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ﴾، يعني: استوجبوا الغضب ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾. وقال بعضهم: من الرجوع، يعني: رجعوا باللعنة في أثر اللعنة. ويقال: باؤوا أي احتملوا كما يقال: بؤت بهذا الذنب أي احتملته.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾، يعني: ما أصابهم من الذلة والمسكنة، وهم اليهود، بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، يعني: كذّبوا عيسى وزكريا ويحيى ومحمداً، عليهم السلام ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، يعني: بغير جرم منهم، وهم زكريا ويحيى. قرأ نافع ﴿النبيين﴾ بالهمزة وكذلك جميع ما في القرآن: ﴿يا أيها النبي﴾، وقرأ الباقون: بغير همزة. وروي عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال له: يا نبيء الله، فقال: «**لست بنبيء الله ولكن نبي الله**»[(١)] والنبيين: جماعة النبي. وأما من قرأ بالهمزة، قال: أصله من النبأ وهو الخبر، لأنه أنبأ عن الله، ومن قرأ بغير همزة فأصله مهموز، ولكن قريشاً لا تهمز[(٢)]. وقال بعضهم: هو مأخوذ من النبوة وهو الارتفاع، لأنه مشرف على جميع الخلق. ويقال: النبيء هو الطريق الواضح، سمي بذلك لأنه طريق الخلق إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾، يعني: ذلك الغضب على اليهود بما عصوا، يعني: بعصيانهم أمر الله تعالى، فخذلهم الله تعالى حين كفروا، فلو أنهم لم يعصوا الله تعالى كانوا معصومين عن ذلك.

﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يعني: بقتلهم الأنبياء وركوبهم المعاصي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلصَّابِئِينَ﴾، قال ابن عباس في رواية أبي صالح: «إن الذين آمنوا وهم قوم كانوا مؤمنين بعيسى والتوراة ولم يتهوّدوا ولم يتنصروا». والنصارى: الذين تركوا دين عيسى وَتَسَمَّوْا بالنصرانية. واليهود الذين تركوا دين

---

(١) قال السيوطي: ١/١٧٨: أخرجه الحاكم وصححه، وتعقّبه الذهبي وقال: منكر لم يصح.

(٢) قال السيوطي: ١/١٧٩: أخرج الحاكم عن ابن عمر قال: «ما همز رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء، وإنما الهمز بدعة من عندهم».

Marfat.com

موسى وتسمّوا باليهودية. والصابئين: هم قوم من النصارى ألين قولاً منهم. ﴿مَنْ آمَنَ﴾ من هؤلاء ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: ثوابهم. وقال مقاتل: ﴿إن الذين آمنوا﴾، يعني: صدقوا بتوحيد الله، ﴿ومن آمن﴾ من الذين هادوا ومن النصارى والصابئين فلهم أجرهم. وقال القتبي: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هم قوم آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، فكأنه قال: إن المنافقين والذين هادوا والنصارى والصابئين. ويقال: اليهود سموا يهوداً بقول موسى عليه السلام حيث قال: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. اشتقاقه من الميل، من هاد يهود، وهو الميل عن الطريق. وأما النصارى قال بعضهم: سموا أنفسهم نصارى بقول عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ويقال: لأنهم نزلوا قرية يقال لها ناصرة، فتوافقوا على دينهم، فسموا نصارى. وأما الصابىء فقد أخذ من صبا يصبو، إذا مال. ويقال: من صبأ يصبأ، إذا رفع رأسه إلى السماء، لأنهم يعبدون الملائكة. قرأ نافع و﴿الصابيين﴾ بغير همز، من صبا يصبو، إذا خرج من دين إلى دين. وقرأ الباقون بالهمزة من صبأ يصبأ، إذا رفع رأسه إلى السماء. واختلف العلماء في حكم الصابئين، فقال بعضهم: حكمهم حكم أهل الكتاب، يجوز أكل ذبائحهم، ويجوز مناكحة نسائهم، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله، لأنهم قوم بين اليهودية والنصرانية يقرؤون الزبور. وقال بعضهم: هم بمنزلة المجوس، لا يجوز أكل ذبائحهم ولا مناكحة نسائهم، وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله، لأنهم يعبدون الملائكة فصار حكمهم حكم عبدة النيران.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ آمن بالله واليوم الآخر﴾ ولم يذكر في الآية الإيمان بمحمد ﷺ، لأنه لما ذكر الإيمان بالله تعالى فقد دخل فيه الإيمان بمحمد ﷺ، لأنه لا يكون مؤمناً بالله تعالى ما لم يؤمن بجميع ما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ وعلى جميع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال: من آمن بالله وبما أنزل على جميع أنبيائه، وصدق باليوم الآخر وعمل صالحاً، أي أدّى الفرائض ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يعني: لهم ثواب أعمالهم في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلهم من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيما خلفوا من الدنيا. ويقال: ليس عليهم خوف النار ولا حزن الفزع الأكبر. فإن قيل فيه: كيف ذكر من آمن بالله بلفظ الوحدان، ثم قال: ﴿فلهم أجرهم﴾ ولم يقل: فله أجره، قيل له: لأنه انصرف إلى ما سبق ذكره، وإنما سبق ذكر الجماعة فمرةً يذكر بلفظ الوحدان لاعتبار اللفظ، ومرة بلفظ الجمع لاعتبار المعنى.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، قال ابن عباس: «هما ميثاقان: الأول: حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام، والثاني: الذي أخذ في التوراة وسائر الكتب». ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ

Marfat.com

﴿الطُّورَ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام، لما أتاهم بالتوارة فرأوا ما فيها من التغليظ والأمر والنهي، فشقَّ ذلك عليهم فأبوا أن يقبلوا. وإن الله تعالى قد منّ على هذه الأمة حيث فرض عليهم الفرائض واحداً بعد واحد، ولم يفرض عليهم جملة، فإذا استقر الواحد في قلوبهم فرض الآخر. وأما بنو إسرائيل، فقد فرض عليهم دفعة واحدة، فشق ذلك عليهم ولم يقبلوا، فأمر الله تعالى الملائكة فرفعوا جبلاً من جبال فلسطين، وكان عسكر موسى فرسخاً في فرسخ، والجبل مثل ذلك، فلما رأوا أنه لا مهرب لهم، قبلوا التوراة وسجدوا من المهابة والفزع، وهم يلاحظون في سجودهم الجبل، فمن ذلك يسجد بعض اليهود على أنصاف وجوههم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾. والطور: اسم جبل بالسريانية: ويقال: هو جبل ذو أشجار.

ثم قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾، يعني: قيل لهم: اعملوا بما آتيناكم بجد ومواظبة، واعملوا في طاعة الله ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾. قال بعضهم: اعملوا بما فيه. وقال بعضهم: اذكروا ما فيه من الثواب والعقاب، لكي يسهل عليكم القبول. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، يعني: لكي تتقوا عقوبته في المعصية فتمتنعوا عنها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي أعرضتم من بعد ذلك الإقرار، يعني: من بعد ما رفع عنكم الجبل، وقيل: البرهان وهو أخذ الميثاق، ورفع الجبل. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي منُّ الله عليكم ورحمته بتأخير العذاب، وقيل: من بعد البيان في كتابهم بتأخير العذاب، ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والخسران: النقصان: ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بإرسال الرسل إليكم لكيلا تقيموا على الكفر ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ في العقوبة وقيل: فضله في قبول التوبة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾، يعني: اصطادوا، ويقال: استحلوا أخذ الحيتان يوم السبت. والسبت في اللغة هو الراحة، كما قال في آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩] أي راحة. فيوم السبت كان راحة لليهود عن أشغال الدنيا. وهذه الآية على معنى التحذير والتهديد، فكأنه قال: إنكم تعلمون ما أصاب الذين استحلوا أخذ السمك في يوم السبت من العقوبة، فاحذروا كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم، وذلك أن مدينة يقال لها آيلة على ساحل البحر كان يجتمع فيها السمك يوم السبت حتى يأخذ وجه الماء، وفي سائر الأيام لا يأتيهم إلا قليل. وقال بعض أهل القصص: إنما كانت الحيتان تجتمع هناك لزيارة السمكة التي كان في بطنها يونس عليه السلام ففي كل سبت يجتمعن لزيارتها. ويقال: لم يكن لهذا المعنى،

Marfat.com

ولكن كانت لهم محنة أولئك، فاحتالوا وحبسوا ذلك السمك في يوم السبت وأخذوه يوم الأحد، فلما لم تصبهم العقوبة لفعلهم ذلك أمنوا، واستحلوا أخذها، فمسخهم الله قردة. وقد بيّن قصتهم في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، يعني: مبعدين من رحمة الله. وأصله في اللغة: من البعد. يقال: خسأ الكلب إذا بعد. ويقال: ﴿خاسئين﴾ يعني: صاغرين ذليلين.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً﴾، يعني: جعلنا تلك العقوبة نكالاً ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾، يعني لما سبق منهم من الذنب ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾، يعني: عبرة لمن بعدهم. ويقال: ﴿فجعلناها﴾، يعني تلك القرية ﴿نكالاً لما بين يديها﴾ من القرى ﴿وما خلفها﴾ من القرى ليعتبروا بها. ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، يعني: نهياً لأمة محمد ﷺ وعبرة لهم.

قال الفقيه: حدثنا أبو القاسم عمر بن محمد قال: حدثنا أبو بكر الواسطي قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا كثير بن هشام، عن المسعودي، عن علقمة بن مرثد، عن المسور بن الأحنف قال: قيل لعبد الله بن مسعود: أرأيت القردة والخنازير، أمن نسل القرود والخنازير التي قد مسخت؟ قال عبد الله بن مسعود: «إن الله تعالى لم يمسخ أمة فجعل لها نسلاً، ولكنها من نسل قرود وخنازير كانت قبل ذلك».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، قال ابن عباس: وذلك أن بني إسرائيل قيل لهم في التوراة: أيما قتيل وجد بين قريتين لا يدرى قاتله، فليقس إلى أيتهما أقرب، فعمد رجلان أخوان من بني إسرائيل إلى ابن عم لهما واسمه عاميل، فقتلاه لكي يرثاه، وكانت ابنة عم لهما شابة جميلة حسناء، فخشيا أن ينكحها ابن عمها عاميل، ثم حملاه فألقياه إلى جانب قرية، فأصبح أهل القرية والقتيل بين أظهرهم، فأخذ أهل القرية بالقتيل وجاؤوا به إلى موسى.

وروى ابن سيرين عن عبيدة السلماني: أن رجلاً كان له قرابة فقتله ليرثه، ثم ألقاه على

Marfat.com

باب رجل، ثم جاء يطلب بدمه، فهموا أن يقتتلوا ولبس الفريقان السلاح، فقال رجل: أتقتتلون وفيكم نبي الله؟ فجاؤوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام فأخبروه بذلك، فدعا الله تعالى في ذلك أن يبيّن لهم المخرج من ذلك، فأوحى الله تعالى إلى موسى، فأخبروهم بذلك وقال: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فتضربوه ببعضها، يعني: ببعض أعضاء تلك البقرة فيحيا، فيخبركم من قتله ﴿قَالُوا﴾: لموسى، ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾؟ قرأ عاصم في رواية حفص برفع الزاي بغير همزة، وقرأ حمزة بسكون الزاي مع الهمزة، وقرأ الباقون بالهمزة ورفع الزاي. ومعناه: أتتخذنا سخرية، يعني يا موسى أتسخرُ بنا؟ فإن قيل: ألم يكن هذا القول منهم كفراً، حيث نسبوه إلى السخرية؟ قلنا: لا لأنهم قد ظهر عندهم علامات نبوته وعلموا أن قوله حق، ولكنهم أرادوا بهذا الكشف والبيان، ولم يريدوا به الحقيقة؛ فـ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، يعني أمتنع بالله. ويقال: معاذ الله أن أكون من المستهزئين.

قال ابن عباس في رواية أبي صالح: «فلو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شدَّدوا على أنفسهم بالمسألة فشدَّد الله عليهم بالمنع» لما ﴿قَالُوا﴾: يا موسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، يقول: سل لنا ربك أن ﴿يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ﴾، يعني: يبيِّن لنا كيفية البقرة، إنها صغيرة أو كبيرة. ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ﴾، يعني: لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، يعني: وسطاً ونصفاً بين ذلك، يعني: بين الصغيرة والكبيرة. وقد قيل في المثل: «العوان لا تعلَّم الخُمْرة»، يعني أن المرأة البالغة ليست بمنزلة الصغيرة التي لا تحسن أن تختمر.

ثم قال تعالى: ﴿فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ولا تسألوا. فسألوا وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾: يا موسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، يعني: سل ربك ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾، قال لهم موسى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾، يعني شديد الصفرة. يقال: أصفر فاقع إذا كان شديد الصفرة، كما يقال: أسود حالك، وأبيض يقق، وأحمر قاني، وأخضر ناضر إذا وصف بالشدة. وقال بعضهم: أراد به بقرة صفراء الظِلف والقرن، يعني: شعرها وظلفها وقرنها وكل شيء فيها أصفر. ويقال: أراد به البقرة السوداء، لأن السواد الشديد يضرب إلى الصفرة، كما قال تعالى: ﴿كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٣]، يعني: سود وكما قال القائل:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْكُم، وَتِلْكَ رِكَابِي ... هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ

أراد بالصفر السود. ولكن هذا خلاف أقاويل المفسرين، وكلهم اتفقوا أنه أراد به: اللون الأصفر، إلا قولاً روي عن الحسن البصري.

قوله عز وجل: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾، يعني: تعجب من نظر إليها لحسن لونها، فشددوا على أنفسهم.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، يعني: إنها من العوامل أو من غير العوامل. ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، يعني: تشاكل علينا في أسنانها ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، يعني نهتدي للقاتل. أو يقال: لمهتدون إلى البقرة، أي ندركها بمشيئة الله تعالى. **وروي عن ابن عباس** أنه قال: «لولا أنهم استثنوا لم يدركوها». وروى عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَوْ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذُوا أَدْنَى بَقَرَةٍ لأَجْزَأَتْ عَنْهُمْ، وَلَوْلاَ أَنَّهُمْ قَالُوا** ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ **مَا وَجَدُوهَا**»[1].

﴿قَالَ﴾، لهم موسى: إن ربكم ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾، يعني: لم يذللها العمل. وقال أهل اللغة: الذلول في الدواب مثل الذليل في الناس، يقال: رجل ذليل بيِّن الذُّلّ، ودابة ذلول بيِّنة الذل. ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ يعني: تقلبها للزراعة. ويقال للبقرة: المثيرة ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾، يعني لا يسقى عليها الحرث، أي لا يستسقى عليها الماء لسقي الزرع، ومعناه: أن هذه البقرة لم تكن تعمل شيئاً من هذه الأعمال. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يعني: مهذبة سليمة من العيوب. ويقال: مسلمة من الألوان. ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾، يعني: لا عيب فيها ويقال: لا وضح ولا سواد ولا بياض ولا لون سوى الصفرة. وقال أهل اللغة: أصله من وشى الثوب، وأصله في اللغة: لا وشية فيها، ولكن حذفت الواو منها للخفة مثل عدة وزنة.

فلما وصف لهم موسى تلك ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، يعني: الآن أتممت الصفة، ويقال: الآن جئت بالصفة التي كنا نطلب. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾، يعني: البقرة ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، يعني: كادوا أن لا يذبحوها. وقد قيل: إنما لم يريدوا أن يذبحوها، لأن كل واحد منهم خشي أن يظهر القاتل من قبيلته. وقال بعضهم: ﴿وما كادوا يفعلون﴾ لغلاء ثمن البقرة، لأنهم كانوا لا يدركون بقرة بتلك الصفة. **وروي عن وهب بن منبه** أنه قال: لم توجد تلك البقرة إلا عند فتى من بني إسرائيل، كان باراً بوالديه وكان يصلي ثلث الليل، وينام ثلث الليل، ويجلس عند رأس أمه ويقول لها: إن لم تقدري على القيام فسبحي الله وهللي، وكان ورث من أبيه بقرة فلم يجد أهل تلك القرية بقرة على تلك الصفة إلا هذه البقرة، فاشتروها بملىء مسكها دنانير. وقال بعضهم: كان رجل يبيع الجوهر، فجاءه إبليس يوماً من الأيام بجراب من اللؤلؤ فعرض عليه، وأراد أن يبيع منه بمائة ألف، وكان ذلك يساوي مائتي ألف. فلما أراد أن يشتري، فإذا مفتاح الصندوق كان تحت رأس أبيه وهو نائم، فذهب ليوقظه ليرفع المفتاح فيدفع الثمن، ثم قال في نفسه: كيف أوقظ أبي لأجل ربح مائة ألف، ولم يحتمل قلبه فرجع، فقال: أبي نائم. فقال له إبليس: اذهب فأيقظه فإني أبيع منك بخمسين ألفاً فذهب ليوقظه فلم يحتمل قلبه فرجع، فلا

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٨٩ إلى البزار والفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر.

Marfat.com

يزال يحط من الثمن حتى بلغ إلى عشرة دراهم فلم يوقظه وترك ذلك الشراء، فجعل الله في ماله البركة حتى اشتروا بقرته بملىء مسكها ذهباً.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفساً فَادَّارأْتُم فِيهَا﴾أي: تدافعتم، أي: ألقى بعضكم على بعض. يقال: ادارأ القوم إذا تدافعوا، وقال القتبي: أصله تدارأتم، فأدغمت التاء في الدال وأدخل الألف ليسلم السكون للدال، ويقال: هذا ابتداء القصة، ومعناه: وإذ قتلتم نفساً فأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى، وقال موسى: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخرِجٌ مَا كُنتُم تَكْتُمُونَ﴾، يعني: مظهر ما كنتم تصمون من قتل عاميل.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾يعني: اضربوا الميت ببعض أعضاء البقرة. قال بعضهم: بفخذها الأيمن. وقال بعضهم: بلسانها. وقال بعضهم: بعَجُزها وهو عظم في أصل ذنبها، ويقال: عليها يتركّب الخلق، فأول شيء يخلق ذلك الموضع، ثم يركب عليه سائر البدن، وهو آخر الأعضاء فساداً بعد الموت. فلما ضربوه جلس وأوداجه تشخب دماً، وقال: قتلني ابنا عمي. فأخذا وقتلا، ولم يعط لهما من ميراثه شيئاً. وقال عبيدة السلماني: لم يورث قاتل قط بعد صاحب البقرة.

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾، كان في ذلك دليل لأولئك القوم أن البعث كائن لا محالة، لأنهم رأوا الإحياء بعد الموت معاينة. وكان في ذلك أيضاً دليل لهذه الأمة ولمشركي العرب وغيرهم، لأن الله تعالى لما أخبر محمداً ﷺ بذلك، وأخبرهم فصدقه في ذلك أهل الكتاب ولم يكونوا على دينه، فكان من أدل الدليل عليهم بالبعث.

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، يعني: عجائبه مثل إحياء الموتى وغيره. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي تفهمون أن الذي يخبركم به محمد ﷺ حق.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾، قال الزجاج: تأويل ﴿قست﴾في اللغة غلظت ويبست، فتأويل القسوة في القلب: ذهاب اللين والرحمة والخشوع. وقوله: ﴿مِن بَعْدِ

Marfat.com

ذلك﴾، قد قيل: من بعد إحياء الميت، ويحتمل بعد الآيات التي ذكرت، نحو مسخ القردة والخنازير ورفع الجبل وتفجير الأنهار من الحجر وغير ذلك. وقال بعض الحكماء: يعني قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾، يعني: يبست. ويبس القلب أن ييبس عن ماءين: أحدهما: ماء خشية الله والثاني: ماء شفقة الخلق.

ثمّ قال تعالى: ﴿فهم كالحجارة﴾، وكل قلب لا يكون فيه خشية الله تعالى، ولا شفقة الخلق، فهو كالحجارة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، قال بعضهم: بل أشد قسوة، مثل قوله: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] بمعنى: بل يزيدون، وكقوله: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، أي: بل هو أقرب، وكقوله: ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾. أي: بل هو أدنى. وقال بعضهم: معناه وأشد قسوة، والألف زائدة. وقال الزجاج: ﴿أو﴾ للتخيير يعني: إن شئتم شبهتم قسوتها بالحجارة أو بما هو أشد قسوة فأنتم مصيبون كقوله عز وجل: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ﴾ يعني: الحجر الذي تخرج منه العيون في الجبل فأعذر الحجارة، وعاب قلوبهم بقساوتها، حين لم تلن بذكر الله ولا بالمواعظ فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لِمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾، يعني: الحجر الذي تخرج منه العيون في الجبل. ويقال: أراد به حجر موسى عليه السلام الذي كان يخرج منه العيون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾، يعني: من الحجارة ما يتصدع ﴿فَيَخرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ وَإِنَّ مِنهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ﴾. ويقال: كل حجر يتردى من رأس الجبل إلى الأرض فهو من خشية الله. ويقال: أراد به الجبل الذي صار دكاً حين كلم الله موسى عليه السلام. ويقال: هو جميع الجبال، ممّا زال الحجر من مكانه. وقال بعضهم: هو على وجه المثل، يعني: لو كان له عقل لهبط من خشية الله تعالى، وهو قول المعتزلة، وهو خلاف أقاويل أهل التفسير.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿يعملون﴾ بالياء والباقون بالتاء. واختلفوا في مواضع أخرى. قرأ حمزة والكسائي في كل موضع ﴿وَما ربك بِغافِلٍ عمّا يعمَلُون﴾ بالياء. وفي كل موضع ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] بالتاء. واختلفت الروايات عن غيرهما. وهذا كلام التهديد، يعني: أن الله تعالى يجازيكم بما تعملون فيحذرهم بذلك.

ثم ذكر التعزية للنبي ﷺ لكيلا يحزن على تكذيبهم إياه، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا فقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، قال ابن عباس: يعني به النبي ﷺ خاصة. وقال بعضهم: أراد به النبي ﷺ وأصحابه، أفتطمعون أن يصدقوكم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللهِ﴾؟ فإن أراد به النبي ﷺ خاصة، فمعناه: أفتطمع أن يصدقوك؟ وقد يذكر لفظ الجماعة ويراد به الواحد، كما قال في آية أخرى ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ [يونس: ٨٣]،

Marfat.com

وقال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ [هود: ١٤]، أراد به النبي ﷺ خاصة كذلك هاهنا.

ثم قال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، قال في رواية الكلبي: يعني السبعين الذين ساروا مع موسى عليه السلام إلى طور سيناء فسمعوا هناك كلام الله تعالى، فلما رجعوا قال سفهاؤهم: إن الله أمر بكذا وكذا بخلاف ما أمرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، يعني: غيروه من بعد ما حفظوه وفهموه. وقال بعضهم: إنما أراد به الذين يغيرون التوراة. وقال بعضهم: يغيرون تأويله وهم يعلمون.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: المنافقين منهم ﴿قَالُوا﴾ للمؤمنين ﴿آمَنَّا﴾، يعني: أقررنا بالذي أقررتم به. وهم منافقو أهل الكتاب. ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، يعني: إذا رجعوا إلى رؤسائهم، ﴿قَالُوا﴾ بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: أتخبرونهم بأن ذكر محمد ﷺ في كتابكم فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك حجة لهم عليكم؟ ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ﴾، أي ليخاصموكم. ﴿عند ربكم﴾ باعترافكم أن محمداً ﷺ نبيّ لا تتبعوه. ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفليس لكم ذهن الإنسانية، لا ينبغي لكم هذا فيما بينكم.

قال الله تعالى: ﴿أَوَ لاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. قال بعضهم: ﴿ما يسرون﴾ في قلوبهم ﴿وما يعلنون﴾ بالقول فيما بينهم. وقال بعضهم: ﴿ما يسرون﴾ فيما بينهم، ﴿وما يعلنون﴾ مع أصحاب محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾، يعني: من أهل الكتاب وهم السفلة أميون لا يقرؤون الكتاب، يقول: لا يحسنون قراءة الكتاب ولا كتابته. وقال الزجاج: الأمي المنسوب إلى ما عليه جبلة الأمّية، يعني: هو على الخلقة التي خلقت، لأن الإنسان في الأصل لا يعلم شيئاً ما لم يتعلّم.

وقوله عز وجل ﴿إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾، قال بعضهم: إلا التلاوة، وهذا كما قال في آية أخرى ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، يعني: في تلاوته. يعني: إن السفلة منهم لا يعرفون من التوراة شيئاً سوى تلاوته. وقال بعضهم: ﴿إلا أماني﴾: إلا أباطيل. وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «ما تغنيت ولا تمنيت»، أي ما تكلمت بالباطل منذ

Marfat.com

أسلمتُ. وروي في الخبر: «أن الإنسان إذا ركب دابته ولم يذكر الله تعالى، صكّه الشيطان في قفاه ويقول له: تغنَّ، فإن لم يحسن الغناء، يقول له: تمنَّ يعني: تكلم بالباطل». ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾، يعني: السفلة لأنه قد ظهر لهم الكذب من رؤسائهم فكانوا يشكون في أحاديثهم، وكانوا يظنون من غير يقين. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والظنّ فإنه من أكذب الحديث»(١).

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، الويل: الشدة من العذاب. ويقال: الويل كلمة تستعمل عند الشدة ويقال: يا ويلاه. ويقال: الويل واد في جهنم.

قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر أنه قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا وكيع عن سفيان، عن زياد، عن ابن عباس قال: «الويل واد في أصل جهنم يسيل فيه صديدهم»(٢). وإنما صار رفعاً بالابتداء. وقال الزجاج: ولو كان هذا في غير القرآن لجاز (فويلاً) على معنى: فجعل ويلاً للذين، إلا أنه لم يقرأ. وذلك أن رؤساء اليهود محوا نعت محمد ﷺ وكتبوا سوى نعته، ﴿ثُمَّ يقولون﴾ للسفلة ﴿هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾، يعني: عرضاً يسيراً من مال الدنيا. وروي عن إبراهيم النخعي: أنه كره أن يكتب المصحف بالأجرة، وتأول هذه الآية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾. إلى قوله: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ وغيره من العلماء أباحه.

ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني: مما يصيبهم من العذاب ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، يعني: مما يصيبون، فجعل لهم الويل ثلاث مرات.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾، روي عن الضحاك أنه قال: لم يكن أحد من الكفار أجرأ على الله تعالى من اليهود، حين قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]

---

(١) حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تحاسدوا...» أخرجه مالك: ٢/٩٠٨ والبخاري (٦٠٦٦) ومسلم (٢٥٦٣) (٢٨) وأحمد ٢/٤٦٥، ٥١٧ وأبو داود (٤٩١٧) والبيهقي: ٦/٨٥ و١٠/٢٣١.

(٢) عزاه السيوطي ١/٢٢ إلى هناد في الزهد. وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وعبد بن حميد.

Marfat.com

وقالوا: إن الله فقير، وأيضاً ﴿وقالوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعْدُودَةً﴾، أي: مقدار الأيام التي عبد فيها آباؤنا العجل، وهي أربعون يوماً. وقال مجاهد: ﴿لاَّ أيَّاماً مَعْدُودَةً﴾: أي مقدار عدد أيام الدنيا وهي سبعة أيام. وهكذا روي عن عكرمة، عن ابن عباس: وقال بعضهم: كان مذهبهم مذهب جهم: في أنهم لا يرون الخلود في النار.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾، قال الزجاج: أعهد إليكم ألا يعذبكم إلا هذا المقدار، إن كان لكم عهد؟ ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥ﴾، أي وعده. ويقال: أعقدتم عند الله عقداً؟ وهو عقد التوحيد، ﴿فلن يخلف الله عهده﴾ أي وعده. وقد قيل: هل أنزل عليكم بذلك آية؟ ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي بل تقولون على الله ﴿ما لا تعلمون﴾. وروي في الخبر: «أنه إذا مضت عليهم في النار تلك المدة، قالت لهم الخزنة: يا أعداء الله ذهب الأجل وبقي الأبد، فأيقنوا بالخلود».

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قال الله تعالى ﴿بَلَىٰ﴾، يعني: بلى يخلد فيها ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، يعني: الشرك ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، يعني: مات على الشرك. وقال بعضهم: السيئة الشرك، والخطيئة الكبائر. وهو قول المعتزلة خذلهم الله تعالى: إن أصحاب الكبائر مخلدون في النار. وقال الربيع بن خثيم: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ الذي يموت على الشرك. قرأ نافع ﴿خطاياه﴾ وهو جمع خطيئة. وقرأ والباقون ﴿خطيئته﴾ وهي خطيئة واحدة، والمراد به الشرك. ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: دائمين لا يخرجون منها أبداً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾، معناه: والذين صدقوا بالله وبمحمد ﷺ وعملوا الصالحات أي الطاعات فيما بينهم وبين ربهم، يعني: أدوا الفرائض وانتهوا عن المعاصي، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، يعني دائمين لا يموتون ولا يخرجون.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، يعني: وقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل في التوراة، يعني: بمجيء محمد ﷺ. ويقال: الميثاق الأول حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام.

وقوله: ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ ٱللَّهَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وابن كثير ﴿لاَ يَعْبُدُونَ﴾ بالياء، وقرأ

Marfat.com

يعبدون بالتاء. فمن قرأ بالياء، فمعناه: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا يعبدوا إلا الله. ومن قرأ بالتاء فمعناه: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل وقلنا: لا تعبدوا إلا الله، يعني: أخذنا عليهم الميثاق بأن لا تعبدوا إلا الله، يعني: لا توحدوا إلا الله. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، نصب إحساناً على معنى أحسنوا إحساناً، فيكون إحساناً بدلاً من اللفظ، أي: أحسنوا إلى الوالدين يعني: براً بهما وعطفاً عليهما. وفي هذه الآية بيان حرمة الوالدين، لأنه قرن حق الوالدين بعبادة نفسه. ويقال: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا يقبل إحداها بدون الأخرى. إحداها: قوله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، والثانية: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، والثالثة: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣ وغيرها].

وقوله تعالى: ﴿وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾، يعني: أحسنوا إلى ذي القربى ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، يعني: أحسنوا إلى اليتامى ﴿وَ﴾ إلى ﴿ٱلْمَسَٰكِينِ﴾ والإحسان إلى اليتامى والمساكين: أن نحسن إليهم بالصدقة وحسن القول. ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، قرأ حمزة بنصب الحاء والسين، وقرأ الباقون برفع الحاء، وسكون السين. فمن قرأ بالنصب يعني: قولوا للناس حَسَناً يعني: قولوا لهم قولاً صدقاً في نعت محمد ﷺ وصفته كما بيّن في كتابكم. ونظيرها في سورة طه ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦]، أي: وعداً صدقاً. ومن قرأ بالرفع، فمعناه: قولوا لجميع الناس حَسَناً يعني: خالقوا الناس بالخُلُق الحسن، فكأنه يأمر بحسن المعاشرة وحسن الخلق مع الناس. ﴿وأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾، يعني: أقروا بها، وأدوها في مواقيتها. ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، المفروضة ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، يعني: أعرضتم عن الإيمان والميثاق، ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِنكُمْ﴾، وهو عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وأَنتُم مُعْرِضُونَ﴾، أي: تاركون لما أخذ عليكم من المواثيق.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، أي: إقراركم ﴿لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، أي: بأن لا تسفكوا دماءكم، يعني: لا يهريق بعضكم دماء بعض، ﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: لا يخرج بعضكم بعضاً ﴿مِّن دِيَارِكُمْ﴾. فجملة ما أخذ عليهم من الميثاق ألا يعبدوا إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ويقولوا للناس حسناً، ويقيموا

Marfat.com

الصلاة، ويؤتوا الزكاة ولا يسفكوا دماءهم، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وأن يفادوا أسراهم. فذكر المفاداة بعد هذا حيث قال تعالى: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾ تفدوهم على وجه التقديم والتأخير.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، يعني: بني قريظة والنضير، يعني: أقررتم بهذا كله، وأنتم تشهدون أن هذا في التوراة، فنقضوا العهد فعيّرهم الله تعالى بذلك فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، يعني: أنتم يا هؤلاء، ويقال: معناه، ثم أنتم هؤلاء يا معشر اليهود ﴿تقتلون أنفسكم﴾ أي يقتل بعضكم بعضاً، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنكُمْ مِن دِيَارِهِمْ﴾، يعني: بعضكم بعضاً، لأنه كان بين الأوس والخزرج عداوة وكان قريظة وبنو النضير: إحدى القبيلتين كانت معينة للأوس، والأخرى كانت معينة للخزرج، فإذا غلبت إحداهما على الأخرى كانت تقتلهم وتخرجهم من ديارهم. وفي الآية دليل أن الإخراج من الدار ينزل منزلة القتل، لأن الله تعالى قرن الإخراج من الديار بالقتل حيث قال تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنكُمْ مِن دِيَارِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم﴾، قرأ أهل الكوفة وحمزة وعاصم والكسائي بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد ﴿تظّاهرون﴾ لأن أصله تتظاهرون، فأدغم إحدى التاءين في الظاء وأقيم التشديد مقامه، معناه: تتعاونون عليهم ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، يعني: بالمعصية والظلم. قال الزجاج: العدوان هو الإفراط في الظلم. ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾، قرأ عاصم والكسائي ونافع ﴿أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾ كلاهما بالألف، وقرأ حمزة ﴿أَسْرَى تَفْدُوهُمْ﴾ بغير ألف فيهما، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿أُسَارَى تَفْدُوهُمْ﴾ الأول بالألف والثاني بغير ألف. وهذا من الميثاق الذي أخذ عليهم بأن يفادوا الأسارى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ هذا انصرف إلى ما سبق ذكره من الإخراج، فكأنه يقول: وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم وهو محرم عليكم، يعني: ذلك الإخراج كان محرماً، ثم بيّن الإخراج مرة أخرى لتراخي الكلام، فقال: ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾.

ثم قال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، لأنهم كانوا إذا أسروا من غيرهم قتلوا الأسرى ولا يفادوهم، وإن أسر منهم أحد يأخذوهم بالفداء، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

ثمّ قال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعني: عقوبة من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، وهو إخراج بني النضير إلى الشام وقتل بني قريظة، وقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم. ثم أخبر أن الذي أصابهم في الدنيا من الخزي والعقوبة لم يكن كفارة لذنوبهم ولكنهم: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾. ويقال: الخزي في الدنيا الجزية.

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي لا يخفى على الله تعالى من أعمالهم شيء، ويجازون بأعمالهم.

ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ﴾، يعني: اختاروا الدنيا على الآخرة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، ليس لهم مانع يمنعهم من العذاب.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾، يعني: أعطينا ﴿موسى الكتاب﴾ يعني: أعطينا موسى عليه السلام التوراة جملة واحدة، ويقال: الألواح ﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، يعني: أتبعنا وأردفنا، معناه: أرسلنا رسولاً على أثر رسول. يقال: قفوت الرجل إذا ذهبت في أثره. ﴿وَآتَيْنَا﴾ يعني: أعطينا ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ﴾، يعني: الآيات والعلامات مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾. قرأ ابن كثير ﴿القُدْس﴾ بسكون الدال، وقرأ الباقون برفع الدال؛ تفسيرهما واحد، يعني أعانه بجبريل حين أرادوا قتله فرفعه إلى السماء. وقال بعضهم: ﴿أيدناه﴾ أي قويناه وأعناه باسم الله الأعظم الذي يحيي به الموتى.

وقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ﴾ يقول: بما لا يوافق هواكم ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، يعني: تعظمتم من الإيمان. قال الزجاج: معناه أنفتم أن تكونوا أتباعاً له، لأنه كانت لهم رياسة وكانوا متبوعين، فلم يؤمنوا مخافة أن تذهب عنهم الرياسة. فقالوا: ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ﴾، مثل عيسى ابن مريم ومحمد صلى الله عليهما وعلى جميع الأنبياء وسلم ﴿وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾، مثل يحيى وزكريا عليهما السلام.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ﴾، قرأ ابن عباس رضي الله عنه: ﴿غُلُفٌ﴾ بضم اللام وهي قراءة شاذة. وقرأ الجمهور بسكون اللام، يعني ذو غلاف، والواحد أغلف مثل: أحمر وحمر. ومعناه: أنهم يقولون قلوبنا في غطاء من قولك ولا نفقه حديثك. وهذا كما قال في آية أخرى

Marfat.com

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]. وأما من قرأ ﴿غُلُف﴾ فهو جماعة الغلاف، على ميزان حمار وحمر. يعنون: أن قلوبنا أوعية لكل علم ولا نفقه حديثك، فلو كنت نبياً لفهمنا قولك.

قال الله تعالى رداً لقولهم: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ يعني: خذلهم الله وطردهم مجازاة لكفرهم. ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، صار نصباً لأنه قدم المفعول. وقال بعضهم: معناه لا يؤمنون إلا القليل منهم، مثل عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال بعضهم: إيمانهم بالله قليل، لأنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. وقال بعضهم: معناه أنهم لا يؤمنون، كما قال: فلان قليل الخير يعني: لا خير فيه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، يعني: موافقاً للتوراة في التوحيد، وفي بعض الشرائع. ويقال: ﴿مصدق لما معهم﴾ يعني يدعوهم إلى تصديق ما معهم، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بالتوراة. ﴿وكانوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: من قبل مجيء محمد ﷺ كانوا يستنصرون على المشركين، لأن بني قريظة والنضير قد وجدوا نعت محمد ﷺ في كتبهم فخرجوا من الشام إلى المدينة، ونزلوا بقربها ينتظرون خروجه. وكانوا إذا قاتلوا من يليهم من مشركي العرب يستفتحون عليهم، أي: يستنصرون ويقولون: اللهم ربنا انصرنا عليهم باسم نبيك وبكتابك الذي تنزل عليه الذي وعدتنا، وكانوا يرجون أن يكون منهم، فنصروا على عدوهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وكانوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: باسم النبي ﷺ ﴿فلمّا جاءهُمْ ما عرفُوا﴾، يعني: عرفوا محمداً ﷺ وعرفوه ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ وغيّروا صفته مخافة أن تزول عنهم منفعة الدنيا.

قال تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، يعني: سخط الله وعذابه على الجاحدين بمحمد ﷺ.

ثم قال عز وجل: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾. قال الكلبي: بئس ما باعوا به أنفسهم من الهدايا بكتمان صفة محمد ﷺ. ويقال: بئس ما صنعوا بأنفسهم حيث كفروا بما أنزل الله عليهم، بعد ما كانوا خرجوا من الشام على أن ينصروا محمداً ﷺ. وكفروا به حسداً منهم، فذلك قوله: ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً بينهم﴾، يعني حسداً منهم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾، يعني: كفروا مما ينزل الله تعالى. ﴿مِن فضله﴾، يعني: لم يؤمنوا لأجل أن الله تعالى ينزل من فضله النبوة والكتاب ﴿على من يشاء مِن عباده﴾، من كان أهلاً لذلك وهو محمد ﷺ. ﴿فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ يعني: استوجبوا اللعنة على إثر اللعنة. قال مقاتل: الغضب الأول حين كفروا بعيسى عليه السلام، واستوجبوا الغضب الآخر حين كفروا بمحمد ﷺ. ويقال: الغضب الأول حين عبدوا العجل، والغضب الثاني حين استحلوا السمك في يوم السبت. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿أن ينزل الله﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد. وأنزل يُنزل، ونَزل يُنزلُ معناهما واحد.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: يهانون فيه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾، يعني: صدّقوا بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، وهم يهود أهل المدينة ومن حولها. ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ في التوراة وبموسى عليه السلام ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، يعني: بما سواه وهو القرآن. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ﴾، يعني: القرآن هو المصدّق، وهو منزل من الله تعالى موافق لما معهم، يعني: أنهم إذا جحدوا بالقرآن صار جحوداً بما معهم، لأنهم جحدوا بما هو مصدق لما معهم فقالوا له: إنك لم تأتنا بمثل الذي أتانا به أنبياؤنا، ولم يكن لنا نبي إلا كان يأتينا بقربان تأكله النار.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ﴾ وقد جاؤوا بالقربان والبينات، أي بالعلامات ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي إن كنتم مصدقين بالأنبياء. فهذا اللفظ للمستأنف، وهو قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾، ولكن المراد منه الماضي، وإنما خاطبهم وأراد به آباءهم. وفي الآية دليل أن من رضي بالمعصية فكأنه فاعل لها، لأنهم كانوا راضين بقتل آباءهم الأنبياء، فسماهم الله تعالى قاتلين. وفي الآية دليل أن من ادعى أنه مؤمن، ينبغي أن تكون أفعاله مصدقة لقوله، لأنهم كانوا يدعون أنهم مؤمنون بما معهم. قال الله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ﴾، يعني: أي كتاب جوّز فيه قتل نبي من الأنبياء عليهم السلام، وأي دين وإيمان جوّز فيه ذلك؟ يعني: قتل الأنبياء.

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُوسَى بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾، يعني: بالآيات والعلامات. ويقال: بالحلال والحرام والحدود والفرائض. ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾، يعني: عبدتم العجل ﴿مِن بَعْدِهِ﴾، يعني: بعد انطلاق موسى إلى الجبل. ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾، أي: كافرون بعبادتكم العجل.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾، أي بجد ومواظبة في طاعة الله ﴿وَٱسْمَعُوا﴾، يعني: قيل لهم اسمعوا، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. قال في

Marfat.com

رواية الكلبي: قالوا: سمعنا قولك وعصينا أمرك، ولولا مخافة الجبل ما قبلنا. ويقال: إنهم يقولون في الظاهر: سمعنا، ويضمرون في أنفسهم: وعصينا أمرك.

ثم قال: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، يعني: جعل حلاوة عبادة العجل، في قلوبهم مجازاة لكفرهم. ويقال: حب عبادة العجل فحذف الحب، وأقيم العجل مقامه؛ ومثل هذا يجري في كلام العرب. كما قال في آية أخرى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾، يعني: بئس الإيمان الذي يأمركم بالكفر. وقال مقاتل: معناه إن كان حب عبادة العجل في قلوبكم يعدل حب عبادة خالقكم، فبئس ما يأمركم به إيمانكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما تزعمون.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِند اللَّهِ خَالِصَةً مِن دُونِ النَّاسِ﴾ يعني: الجنة. وذلك أن اليهود كانوا يقولون: إن الجنة لنا خاصة من دون سائر الناس. قال الله تعالى لمحمد ﷺ: قل لهم: إن كان الأمر كما تقولون إن الجنة لكم خاصة. ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾، يعني: سلوا الله الموت يعني: بما عملوا من المعاصي ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الجنة لكم. فقال لهم النبي ﷺ: **«قُولُوا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ: اللَّهُمَّ أَمِتْنَا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَقُولُهَا رَجُلٌ مِنْكُمْ إلاَّ غَصَّ بِرِيقِهِ»**، يعني: يموت مكانه. فأبوا أن يقولوا ذلك، فنزل: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: بما عملوا من المعاصي. قال الزجاج: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة رسالة النبي ﷺ، لأنه قال لهم: ﴿فتمنوا الموت﴾ وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً، فلم يتمنه واحد منهم. ويقال إن قوله: ﴿لن يتمنوه﴾ إنما يقع على الحياة الدنيا خاصة، ولا يقع على أمر الآخرة، لأنهم يتمنون الموت في النار إذا كانوا في جهنم. وفي هذه الآية دليل أن لفظة ﴿لن﴾ لا تدل على التأبيد، لأنهم يتمنون الموت في الآخرة خلافاً لقول المعتزلة في قوله: ﴿لن تراني﴾ ويقال: ولو أنهم سألوا الموت في الدنيا ولم يموتوا، وكان في ذلك تكذيباً لقول النبي ﷺ، وكان في ذلك أيضاً ذهاب معجزته. فلما لم يتمنوا الموت، ثبت بذلك عندهم أنه رسول الله وظهر عندهم معجزته، وظهر أن الأمر كما عز وجل ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فهو عليم بهم وبغيرهم من الظالمين، وإنما الفائدة هاهنا أنه بمجازاتهم عليم.

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾، يعني: أن اليهود أحرص الناس على البقاء. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، يعني: أحرص الناس على الحياة، وأحرص من الذين أشركوا قال الكلبي: ﴿الذين أشركوا﴾ يعني المجوس. وقال مقاتل: ﴿أحرص الناس على حياة﴾ وأحرص ﴿من الذين أشركوا﴾ يعني مشركي العرب. فإن قيل: كيف يصح تفسير الكلبي والمجوس لا يسمون مشركين؟ قيل له: المجوس مشركون في الحقيقة، لأنهم قالوا بإلهين اثنين: النور والظلمة.

قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾، يعني: المجوس يقولون لملوكهم في تحيتهم: عش عشرة آلاف سنة وكل ألف نيروز. وقال مقاتل: يود أحدهم يعني اليهود ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، يعني: طول حياته لا يبعده ولا يمنعه من العذاب وإن عاش ألف سنةٍ كما تمنى. ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يعني عالم بمجازاتهم بأعمالهم.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾، وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لليهود: «ما لكم لا تؤمنون بمحمد ﷺ؟» قالوا: لأن جبريل هو الذي ينزل عليه بالوحي، فلو نزل عليه ميكائيل بالوحي لآمنا به، لأن ميكائيل ملك الرحمة، وجبريل ملك العذاب فنزلت هذه الآية. ويقال: إنهم كانوا يقولون: إن النبوة كانت فينا، فجبريل صرف النبوة عنا لعداوته معنا، فنزلت هذه الآية ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُواً لِجِبْرِيلَ﴾. قال بعضهم: في الآية مضمر، ومعناه: قل من كان عدواً لجبريل فلا يبغضه، فإن جبريل هو الذي ينزل بالقرآن فيقرأه عليك فتحفظه في قلبك ﴿بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة. ويقال: هذا على وجه الترغيم، فكأنه يقول: قل من كان عدواً لجبريل، فإن جبريل هو الذي ينزل عليك رغماً لهم بهذا القرآن ليقرأه عليك، وليثبت به فؤادك. وهذا القرآن ﴿وَهُدًى﴾ هدى من الضلالة ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي لمن آمن به من المؤمنين.

ثم قال الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ﴾، ومعناه: من كان عدواً لجبريل فإنه عدو لله ﴿وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، يعني: اليهود.

ويقال: إن عبد الله بن صوريا هو الذي قال لعمر: إن جبريل عدونا لأنه ينزل بالشدة والخوف، وميكائيل ينزل بالرخاء، فنزلت هذه الآية ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين﴾ الآية. قرأ حمزة والكسائي وقرأ عاصم في رواية أبي بكر

Marfat.com

﴿جَبْرَئِيلَ﴾ بفتح الجيم والراء والهمزة، ﴿وميكائيل﴾. بالياء مع الهمزة. وقرأ نافع ﴿جِبرِيل﴾ بكسر الجيم والراء بغير همزة ﴿ومِكَالَ﴾ بالهمزة بغير ياء. وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص بغير همزة بكسر الجيم والراء وميكال بغير همز وياء. وقرأ ابن كثير جبريل بنصب الجيم ﴿جبريل﴾ بغير همزة و ﴿ميكايل﴾ بغير الهمزة والياء. وقرأ ابن عامر جبريل بكسر الجيم مثل قراءة نافع وميكائيل بالياء مع المد والهمزة مثل حمزة، وإنما لم ينصرف لأنه اسم أعجمي، فوقع ذلك في لسان العرب فاختلفوا فيه لاختلاف ألفاظهم ولغاتهم. ويقال: جبريل وميكائيل بمنزلة عبد الله وعبد الرحمن، يعني: بلغتهم غير لغة العربية.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ (٩٩)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: واضحات. ويقال: مبيناتٍ للحلال والحرام. **﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلا الفاسقون﴾**، يعني: وما يجحد بالآيات ﴿إِلاَّ الفَاسِقُون﴾ يعني: الكافرين من اليهود ومشركي العرب.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾

قال عز وجل: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً﴾، وهو العهد الذي بُيِّن لهم في التوراة ويوم الميثاق **﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾**، أي تركه ولم يعمل به فريق منهم، أي طائفة منهم. **﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** وقد ذكرناه.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ﴾، يعني: محمد ﷺ **﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾**، يعني: يدعوهم إلى تصديق ما معهم، **﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾**، يعني: طرح فريق **﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾** ولم يؤمنوا به، **﴿كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** في كتابهم بأن محمداً رسول الله.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُو ٱلشَّيَاطِينُ﴾، يعني: تقفو الشياطين ويقال: ما كتبت

Marfat.com

الشياطين، ويقال: ما ألقت الشياطين ويقال: ما افتعلته الشياطين. ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، أي على عهد سليمان. ويقال: ﴿على﴾ بمعنى: في، أي في ملك سليمان، ويقال: في وقت ذهاب ملك سليمان. ويقال: هذا منسوب على الأول، فكأنه قال: نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما تتلو الشياطين، يعني: تركوا سنة أنبياء الله واتبعوا السحر. ويقال: تركوا شيئين واتبعوا شيئين: تركوا اتباع الكتب واتباع الرسل والعمل بذلك، واتبعوا ما تتلو الشياطين أي ما تدونه الشياطين ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.

واختلفوا في سبب ذلك، قال بعضهم: إن سليمان عليه السلام أمر بأن لا يتزوج إمرأة من غير بني إسرائيل، فتزوج امرأة من غير بني إسرائيل يقال لها: ضُبنة بنت صابورا، فعاقبه الله تعالى بأن أجلس مكانه الشيطان؛ وكان الناس يظنون أنه سليمان، فأشكل عليهم أمره، فجاؤوا إلى آصف بن برخيا، وكان معلم سليمان بن داود في حال صغره وكان وزيره في حال كبره مدّة فقالوا له: إن قضاياه لا تشبه قضايا سليمان. فقام آصف ودخل على نساء سليمان فسألهن عن ذلك فقلن: إن كان هذا سليمان فقد هلكنا وهلكتم والله ما يعتزل منا حائضاً، ولا يغتسل من جنابة، هكذا ذكر في رواية الكلبي.

وقال بعضهم: هذا خطأ لأن نساء الأنبياء معافات معصومات عن الفواحش، فلا يجوز أن يظن بهن أن الشيطان يقربهن وهو الأصح. وقال بعضهم: كان هذا على وجه الخيال لا على وجه الحقيقة، لأن الشيطان روحاني وليس له جسم، فلا يجوز أن تقع بينه وبين آدمي شهوة، ولكن كان يريهن ذلك على وجه الخيال. فلما عرف الشيطان أن الناس علموا بحاله، كتب سحراً كثيراً وجعله تحت كرسيه وألقى خاتم سليمان في البحر وهرب. وكان سليمان خرج إلى ساحل البحر وأجر نفسه من الملاحين كل يوم بسمكتين، فلما أعطوه أجره، باع إحداهما واشترى به الخبز وشق بطن الأخرى، فوجد الخاتم في بطنها فرجع إلى ملكه فلما توفي سليمان جاء الشيطان على صورة آدمي وقال: إن أردتم أن تعلموا علم سليمان بن داود عليهما السلام فانظروا تحت كرسيه. فنظروا وحفروا ذلك الموضع وأخرجوا منه كتباً كثيرة، فوجدوا فيها السحر والكفر، فقال العلماء منهم: لا يجوز أن يكون هذا من علم سليمان، وقال السفهاء منهم: بل هذا من علم سليمان فاتبعوه، فنزلت هذه الآية على محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء عذراً لسليمان عليه السلام.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، يعني: ما كان ساحراً. وفي الآية دليل أن الساحر كافر، لأنه سمى السحر كفراً. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى جرير بن معاوية وهو عم الأحنف بن قيس: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة».

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: هم الذين كتبوا السحر. قرأ حمزة

Marfat.com

والكسائي ﴿وَلَكِنِ الشَّيَاطِينُ﴾ بكسر النون من غير تشديد ورفع النون في ﴿الشياطينُ﴾ وقرأ الباقون بتشديد النون مع النصب ﴿ولكنَّ الشياطينَ﴾ بفتح النون في ﴿الشَّيَاطِينَ﴾. وهذا هو الأصل في اللغة، فإنّ كلمة أنّ لكن إذا كانت مشدّدة تنصب ما بعدها، وإن لم تكن مشدّدة ترفع ما بعدها.

وقال بعضهم: لنزول هذه الآية سبب آخر؛ وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويعلمون الناس السحر وأبواب النيرنجايات، فكان سليمان يأخذ ذلك منهم ويدفنه تحت الأرض، فلما مات سليمان قالت الشياطين للناس: إن علم سليمان مدفون في موضع كذا وكذا، فحفروا ذلك الموضع وأخرجوا منه كتباً كثيرة. وقال بعضهم: معناه أن سليمان كان إذا أصبح كل يوم، رأى نباتاً بين يديه فيقول له: لأيّ دواء أنت؟ فيقول: لكذا وكذا، وإن اسمي كذا. وكان سليمان يكتب ذلك، فنبت يوماً من الأيام نبات بين يديه فقال له سليمان: ما اسمك؟ فقال: خرنوب. فقال له: لأي دواء أنت؟ فقال: لخراب المسجد. فعلم سليمان أنه قد جاء أجله، لأنه علم أن المسجد لا يخرب في حياته، وكان له صحيفة فيها يكتب أسماء الأدوية ويضعها في الخزانة، فكتبت الشياطين سحراً ووضعوه في ذلك الموضع، فلما مات سليمان وجدوا ذلك في كتبه فاتّبعه بعض الناس فذلك قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، يعني: اتبعوا الذي أنزل على الملكين يعني: وهما الملكان ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾. **حدثنا** القاضي الخليل بن أحمد قال: **حدثنا** الماسرجسي فقال: **حدثنا** إسحاق قال: **حدثنا** حكّام بن سليمان الرازي قال: **حدثنا** أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ ببابل هاروت وماروت﴾. قال: «إن الناس بعد آدم وقعوا في الشرك، واتخذوا هذه الأصنام، وعبدوا غير الله تعالى، فجعلت الملائكة يدعون عليهم ويقولون: ربنا خلقت عبادك فأحسنت خلقهم، ورزقتهم فأحسنت رزقهم، فعصوك وعبدوا غيرك». فقال لهم الرب عز وجل: إنهم في عذر، وقيل: في عيب فجعلوا لا يعذرونهم ويدعون. فقال لهم الرب: اختاروا منكم اثنين، فأهبطهما إلى الأرض فأمرهما ونهاهما، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطهما الله تعالى إلى الأرض فأمرهما ونهاهما عن: الزنى، وقتل النفس، وشرب الخمر. فمكثا زماناً يحكمان في الأرض بالحق. وكان في ذلك الزمان امرأة فضّلت بالحسن على سائر النساء، فأتيا عليها فخضعا لها بالقول وراوداها عن نفسها فقالت: لا حتى تصليا لهذا الصنم، فقالا: هذا أمر عظيم، هذا كفر بالله، فأبيا، ثم عبدا زماناً، فأبيا عليها، فخضعا لها بالقول، فقالت: لا حتى تصليا لهذا الصنم أو تقتلا هذه النفس، أو تشربا هذا الخمر. فقالا: أهون الثلاثة شرب الخمر. فشربا الخمر، فلما شربا الخمر وفعلا بالمرأة وقتلا النفس، فكشف الغطاء

Marfat.com

فيما بينهما وبين الملائكة، فنظروا إليهما وما يعملان، فجعلت الملائكة بعد ذلك يعذرون أهل الأرض ويستغفرون لمن في الأرض. فقيل لهاروت وماروت: اختارا إما عذاب الدنيا فهما يعذّبان، وإما عذاب الآخرة. فقالا: عذاب الدنيا يذهب وينقطع، وعذاب الآخرة لا انقطاع له، فاختارا عذاب الدنيا، فهما يعذّبان إلى يوم القيامة.

وروي في الخبر: أن المرأة تعلمت منهما اسم الله الأعظم، فصعدت إلى السماء فمسخها الله تعالى كوكباً. ويقال: هو الكوكب الذي يقال له الزهرة. وروي عن ابن عمر: كان إذا نظر إلى الزهرة لعنها ويقول: «هي التي فتنت هاروت وماروت». وروي عن علي رضي الله عنه هذا[1]. وقال بعضهم: هذا لا يصح، لأن هذا الكوكب قد كان في الأصل خلقه حين خلق النجوم، وجعل مدار الأشياء على سبع من الكواكب، وجعل لكل كوكب سلطاناً، وجعل سلطان الزهرة الرطوبة واسمها بالعبرانية: ناهيذ وبالقبطية بيذخت، وقال بعضهم: إن كوكب الزهرة قد كان، ولكن الله تعالى مسخ هذه المرأة على شبه الكوكب فهي تعذب هناك. وقال بعضهم: قد صارت إلى النار، كما أن سائر الأشياء التي مسخت لم يبق منها أثر فذلك قوله: ﴿وما أنزل على الملكين﴾، يعني: اليهود اتبعوا ﴿ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾.

قوله تعالى ﴿وما يعلّمان من أحدٍ حتّى﴾، قال بعضهم: هذا ﴿ما﴾ للنفي، فكأنه يقول: ولم ينزل على الملكين السحر. وقال بعضهم: إن إبليس قد جاء بالسحر ووضعه عند أقدامهما وهما معلقان بالسلسلة فيذهب اليهود ويتعلمون السحر من تلك الكتب والملكان يقولان: ﴿إنّما نحنُ فتنةٌ فلا تكفرْ﴾، يعني: لا تتعلم السحر، لأنه لا يجوز للملكين أن يعلّما الكفر. وقال بعضهم: ويبينان أن عمل السحر كفر، وينهيان عن التعلم، ويبيّنان كيفية السحر، ويكون بمنزلة رجل قال لآخر: علّمني ما الزنى أو علّمني ما السرقة، فيقول له: إن الزنى كذا وكذا، وهو حرام فلا تفعل وإن السرقة كذا وكذا هي حرام فلا تفعل. كذلك هاهنا الملكان يقولان: السحر كذا وكذا، وهو كفر فلا تكفر. وقرأ بعضهم ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ﴾ بكسر اللام وهي قراءة شاذة، يعني: كانا ملكين في بني إسرائيل فمسخهما الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فلا تكفر﴾ يعني: اختبار أو ابتلاء. وأصل الفتنة الاختبار.

وقوله: ﴿فيتعلّمون منهما﴾ يعني: من الملكين: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾، يعني: فيتعلمون منهما من السحر ما يفرقون به بين الرجل وزوجته، يؤخذ الرجل عن المرأة حتى لا يقدر على الجماع.

---

(١) عزاه السيوطي ١/٢٣٩ إلى ابن جرير والخطيب وابن راهويه وابن مردويه. وقال: وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن أبي العباس قال: «كانت الزهرة امرأة في قومها».

Marfat.com

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ﴾ من الناس ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾، أي بإرادة الله تعالى ويقال: بتخلية الله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾، يعني: ما يضرهم في الدنيا ولا ينفعهم في الآخرة، ويقال: ما يضرّهم بعلم الله في الآخرة ولا ينفعهم في الدنيا، يعني السحر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾، يعني: اليهود علموا في التوراة أن من اختار السحر ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ يعني: نصيب. والخلاق في اللغة: هو النصيب الوافر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: لبئس ما باعوا به أنفهسم. ويقال: بئس ما اختاروا لأنفسهم السحر على كتاب الله تعالى وسنن أنبيائه لو كانوا يعلمون، ولكنهم لا يعلمون. فإن قيل: ذكر في الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ ما له في الآخرة من خلاق﴾ وفي هذه الآية يقول: ﴿لَوْ كَانُوا يعلمون﴾ فمرة يقول: يعلمون، ومرة يقول: لا يعلمون. فالجواب أن يقال: إنهم يعلمون ولكن لا منفعة لهم من علمهم، وكل عالم لا يعمل بعلمه فليس بعالم، لأنه يتعلم العلم لكي ينتفع به، فإذا لم ينتفع به فكأنه لم يعلم، فكذلك ها هنا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، لو كانوا يوفون للعلم حقه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوا﴾، يعني: اليهود، ولو صدقوا بثواب الله واتقوا السحر، ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ﴾ يعني: كان ثواب الله تعالى خيراً لهم من السحر، والمثوبة والثواب بمعنى واحد وهو الجزاء على العمل وكذلك الأجر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فهذا نداء المدح، يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صدّقوا بتوحيد الله تعالى وبمحمد ﷺ، ﴿لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا﴾. وذلك أن المسلمين كانوا يأتون رسول الله عليه السلام ويقولون له: يا رسول الله ﴿راعنا﴾ وهو بلغة العرب: أرعنا سمعك. وأصله في اللغة: من راعيت الرجل إذا تأملته وتعرفت أحواله. وكان هذا اللفظ بلغة اليهود سباً بالرعونة، فلما سمعت اليهود ذلك من المسلمين، أعجبهم ذلك فقالوا فيما بينهم: كنا نسبّ محمد سراً فالآن نسبّه علانية، فكانوا يقولون حين يأتونه: راعنا يا محمد، ويريدون به السّبّ.

وقال بعضهم: كان في لغتهم معناه: اسمع لا سمعت، فنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا﴾. فنهى المسلمين أن لا يقولوا بهذا اللفظ، وأمرهم أن يقولوا بلفظ أحسن منه.

وقال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ أي أطيعوا ما تؤمرون به. ثم ذكر الوعيد

Marfat.com

للكفار فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يعني: اليهود. وقرأ الحسن ﴿راعناً﴾ بالتنوين. وقال القتبي: من قرأ ﴿راعناً﴾ بالتنوين جعله اسماً منه، مثاله: أن تقول: لا تقولوا حمقاً.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾، يعني: يهود أهل المدينة، ونصارى أهل نجران. ﴿وَلاَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، يعني: مشركي العرب ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعني: أن ينزل على رسولكم من الوحي وشرائع الإسلام لأنهم كانوا كفاراً، فيحبون أن يكون الناس كلهم كفاراً مثلهم. وهذا كما قال في آية أخرى ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]. فأخبر الله تعالى أن الأمر ليس على مرادهم حيث قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ﴾، يعني: يختار للنبوة من يشاء، من كان أهلاً لذلك، ويكرم بدينه الإسلام من يشاء، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، يعني: ذا المن العظيم لمن اختصه بالنبوة والإسلام. وقال مقاتل: كان قوم من الأنصار يدعون حلفاءهم ومواليهم من اليهود إلى الإسلام. فقالوا للمسلمين: أنكم الذي تدعوننا ما هو خير مما نحن فيه، وددنا لو أنكم على هذا الدين، فنزل قوله تعالى: ﴿وٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يعني: بدينه الإسلام من يشاء. ونظيرهما في سورة هل أتى ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى: ٨]، يعني: في دينه الإسلام.

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، قرأ ابن عامر ﴿ما نُنسِخ﴾ برفع النون وكسر السين، وقرأ الباقون ﴿ما نَنسَخ﴾ بالنصب ومعناهما واحد. وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿أو نَنسَأها﴾ بنصب النون والسين والهمز، وقرأ الباقون: ﴿أو نُنسِهَا﴾ برفع النون وكسر السين بغير همز. فمن قرأ ﴿نَنسَأها﴾ أي نؤخرها، ومنه النسيئة في البيع وهو التأخير. ومن قرأ ﴿نُنسِهَا﴾ أي نتركها مثل قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي تركهم في النار، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ فلا نعمل بها ﴿أو نُنسِها﴾ أي ندعها غير منسوخة. ثم قال تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أو مثلها﴾، يعني: ألين وأهون منها على الناس ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ في المنفعة.

وقال الزجاج: النسخ في اللغة، هو إبطال شيء وإقامة شيء آخر مقامه، والعرب تقول: نسخت الشمس الظل إذا أزالته. ﴿أو ننسها﴾ أي نتركها، بمعنى: أي نأمركم بتركها. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: النسخ له ثلاثة مواضع ولكل منها شواهد ودلائل، فأحدها: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ يعني: نبدلها ونوضحها، وما روي عن

Marfat.com

مجاهد أنه قال: نثبت خطها، ونبدل حكمها. فهذا هو المعروف عند الناس. والنسخ الثاني. أن ترفع الآية المنسوخة بعد نزولها، ولهذا دلائل جاءت فيه، من ذلك: ما روي عن النبي ﷺ أنه صلى ذات يوم صلاة الغداة، فترك آية، فلما فرغ من صلاته قال: «هَلْ فِيكُمْ أُبَيٌّ»؟ قالوا: نعم. قال: «هَلْ تَرَكْتُ مِنْ آيَةٍ»؟ قالوا: نعم تركت آية كذا، أنسخت أم نسيت قال: «لا، وَلٰكِنْ نَسِيتُ». وجاءت الآثار في نحو هذا، أنّ الآية قد تنسخ بعد نزولها وترفع. والنسخ الثالث: تحويله من كتاب إلى كتاب، وهو ما نسخ من أم الكتاب، فأنزل على محمد ﷺ ﴿أو ننساها﴾ أي نتركها في اللوح المحفوظ.

وقال بعضهم: لا يجوز النسخ فيما يرفع كله بعد نزوله، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧] ولكن أكثر أهل العلم قالوا: يجوز ذلك. والنسخ يجوز في الأمر والنهي والوعد والوعيد ولا يجوز في القصص والأخبار، لأنه لو جاز ذلك يكون كذباً، والكذب في القرآن لا يجوز. ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني: من الناسخ والمنسوخ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يحكم فيهما ما يشاء بالأمر ثم يأمر غيره. قال الزجاج: الملك في اللغة: هو تمام القدرة، وأصل هذا من قولهم: ملكت العجين إذا بالغت في عجنه. ومعنى الآية: أن الله يملك السموات والأرض وما فيهما. فهو أعرف بما يصلحهم فيما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ ومتروك وغير متروك. وكان اليهود أعداء الله ينكرون النسخ، وكانوا يقولون حين تحولت القبلة إلى الكعبة: لو كنتم على الحق فلم رجعتم؟ ولو كان هذا الثاني حقاً، فقد كنتم على الباطل، وكانوا لا يرون النسخ في الشرائع، لأن ذلك حال البداء ولا يجوز ذلك على الله. ولكن الجواب أن يقال: إن الله تعالى يدبر في أمره ما يشاء، كما أنه يخلق الخلق ولم يكونوا، ثم يميتهم بعد ذلك، ثم يحييهم كذلك يجوز أن يأمر ثم يأمر بغير ذلك، كما أن شريعة موسى لم تكن من قبل، فأمره بذلك. والمعنى في ذلك: أنه حين أمرهم بالأمر الأول كان الصلاح في ذلك الأمر ثم إذا أمر بأمر آخر كان الصلاح في ذلك الوقت في الأمر الثاني، وهذا هو معنى قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمٰوات وَٱلْأَرْضِ﴾، يعني: هو أعلم بأمر الخلق، وما يصلحهم في كل وقت.

ثم بين الوعيد لمن لم يؤمن بالناسخ والمنسوخ فقال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، يعني: عذاب الله من ﴿وليّ﴾ أي: من قريب ينفعكم ﴿ولا نصير﴾ أي مانع يمنعكم من عذاب الله تعالى.

Marfat.com

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾، قال مقاتل: معناه أتريدون أن تسألوا رسولكم ﴿كما سئل موسى من قبل﴾ يعني: كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام حيث قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]. ويقال: إن اليهود سألوا أصحاب رسول الله ﷺ بأن يطلبوا القربان كما كان لموسى. وروي عن الضحاك أنه قال: دخل جماعة من كفار قريش منهم أبو جهل وغيره فقالوا لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً فاكشف عنا الغطاء حتى نرى الله جهرة، فنزلت هذه الآية: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ حيث قالوا: ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾ ثم قال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلإِيمَانِ﴾، أي يختار الكفر على الإيمان، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، يعني أخطأ قصد السبيل وهو طريق الهدى.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾؛ وذلك أن المسلمين لما أصابتهم المحنة يوم أحد، قالت اليهود لعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان: قد أصابكم ما أصابكم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم، فنزلت هذه الآية ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ يعني: يريد ويتمنى كثير من أهل الكتاب ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾، يعني: يصدّونكم ويردونكم عن التوحيد ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَاراً﴾ إلى الكفر.

ثم أخبر أن هذا القول لم يكن منهم على وجه النصيحة، ولكن هذا القول كان ﴿حَسَداً﴾ منهم ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ ما في التوراة أنه ﴿ٱلْحَقُّ﴾، يعني: أن دين محمد ﷺ هو الحق، ﴿فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا﴾، يقول: اتركوهم وأعرضوا عنهم ﴿حَتَّى يَأْتِي ٱللهُ بِأَمْرِهِ﴾، يعني: الأمر بالقتال، وكان ذلك قبل أن يؤمر بقتال أهل الكتاب، ثم أمرهم بعد ذلك بقتالهم، وهو قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]. ﴿إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النصرة للمسلمين على الكفار. ويقال: هو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾، يعني: أقروا بالصلاة وأدوها في مواقيتها بركوعها وسجودها وخشوعها، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، يعني: أعطوا الزكاة المفروضة.

ثمّ قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾، يعني: ما تصدقتم من الصدقة وتعملون من العمل الصالح، تجدوه عند الله محفوظاً يجزيكم به. ونظير هذا ما قال في آية أخرى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. وذكر أنه مكتوب في بعض الكتب: يا ابن آدم، ضع كنزك عندي لا سرق ولا حرق ولا فساد، تجده حين تكونُ أحوجَ إليه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يعني: عالماً بأعمالكم، يجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾.

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا﴾، يعني اليهود والنصارى، وهم يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران. ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾ فاليهود جماعة الهائد، وإنما أراد به اليهود، وهذا من جوامع الكلم، وهذا كلام على وجه الاختصار، فكأنه يقول: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. قال الله تعالى رداً لقولهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، أي ظنهم وأباطيلهم. وهذا كما يقال للذي يدعي ما لا يبرهن عليه: إنما أنت متمن، وإنما يراد به: إنك مبطل في قولك.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، يعني: حجتكم من التوراة والإنجيل. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، يعني: بأن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً أو نصرانياً.

قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ﴾، معناه: بل يدخل الجنة غيركم من أسلم وجهه لله، يعني: من أخلص دينه لله وآمن بمحمد ﷺ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾، يعني: ثوابه في الآخرة. ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب حين يخاف أهل النار، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمر الدنيا. ويقال: الخوف إنما يستعمل في المستأنف، والحزن في الماضي، كما قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] ويقال: الخوف ثلاثة: خوف الأبد، وخوف الانقطاع، وخوف الحشر والحساب. فأما خوف الأبد فيكون أمناً للمسلمين، وخوف العذاب على الانقطاع يكون أمناً للتائبين، وخوف الحشر والحساب يكون أمناً للمحسنين. والمحسنون يكونون آمنين من ذلك.

Marfat.com

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ يعني: من أمر الدين. وروي عن ابن عباس أنه قال: «صدقوا ولو حلفوا على ذلك ما حنثوا، لأن كل فريق منهم ليس على شيء». ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾، يعني: عندهم ما يخرجهم من ذلك الاختلاف أن لو نظروا فيه. وقال الزجاج: معناه، كلا الفريقين يتلون الكتاب وبينهم هذا الاختلاف، فدلّ ذلك على ضلالتهم. ﴿كَذَلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِم﴾، يعني: الذين ليسوا من أهل الكتاب قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا. ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾، يعني: أنه يريهم من يدخل الجنة عياناً يدخل النار عياناً، ويبيّن لهم الصواب ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، في الدنيا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، قال في رواية الكلبي: ومن أكفر. وقال بعضهم: هذا التفسير غير سديد، لأن الكفر كله سواء. ولكن معنى قول الكلبي: «ومن أكفر»، يعني من أشد في كفره، لأن الكفار وإن كانوا كلهم في الكفر سواء، فربما يكون بعضهم في كفره أشد شراً من غيره. قال الكلبي: نزلت هذه الآية في شأن ططوس بن أسفيانوس الرومي، حيث خرب بيت المقدس وألقى فيه الجيفة، وكان خراباً إلى زمن عمر رضي الله عنه فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ ٱللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ ثم قال: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾، فلم يدخلها بعد عمارتها رومي إلا خائفاً ومستخفياً، لو علم به قتل. قال قتادة: هم النصارى. وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى ويقال: من أراد أن يكون ملكاً عليهم، لا يمكنه ذلك ما لم يكن دخل مسجد بيت المقدس، فيجيء ويدخله مستخفياً.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، يعني: بفتح مدائنهم الثلاثة: قسطنطينة، وعمورية، وأرمينية. وقال بعضهم: لنزول الآية سبب آخر، وذلك أن النبي ﷺ لما خرج عام الحديبية إلى مكة، ومنعه أهل مكة فرجع، ولم يدخلها منها تلك السنة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ ٱللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، يعني: سعى في منع المسلمين عن الصلاة، وذكر الله فيها لأن عمارة المسجد بالصلاة، وذكر الله فيها وخرابها في ترك ذلك. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾ يعني: بعد فتح مكة، فلا يقربون المسجد الحرام بعد عامهم هذا إلا خائفين.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنيا خِزْيٌ﴾ وهو فتح مكة، ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لمن مات على كفره أو قتل. وروى الزجاج عن بعض أهل العلم قال: نزلت في شأن جميع الكفار، لأن الكفار كانوا يقاتلون المسلمين ويمنعونهم من الصلاة، فقد منعوا المسلمين عن جميع المساجد، لأن الأرض كلها جعلت مسجداً وطهوراً. فمعناه: ومن أظلم ممن خالف ملة الإسلام؟ قال: ومعنى قوله ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾، يعني: دار الإسلام يعني: يظهر الإسلام على سائر الأديان كقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣ وغيرها].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلله ٱلْمَشرِقُ وَٱلمَغرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾. قد اختلفوا في سبب نزول هذه الآية. روي عن ابن عباس أنه قال: «خرج رهط من أصحاب رسول الله ﷺ في سفر فأصابهم الضباب، فمنهم من صلى إلى المشرق، ومنهم من صلى إلى المغرب، فلما طلعت الشمس وذهب الضباب، استبان لهم ذلك، فلما قدموا على النبي ﷺ سألوه عن ذلك، فنزلت هذه الآية ﴿وَلله المَشرِقُ وَالمَغرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾، يعني: ﴿فأينما تولوا﴾ وجوهكم في الصلاة ﴿فثم وجه الله﴾. قال بعضهم: فثم قبلة الله. وقال بعضهم: فثم رضا الله. وقال بعضهم: فثم ملك الله. وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه أن قوماً خرجوا إلى السفر وذكر القصة نحو هذا. وقال بعضهم: المراد به الصلاة على الدابة.

قال الفقيه: حدثنا محمد بن سعيد الترمذي قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا علي بن شيبة قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي على راحلته تطوّعاً، حيث ما توجهت به[١] وهو جاءٍ من مكة، ثم تلا ابن عمر: ﴿ < ولله المَشرِقُ وَالمَغرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾. قال ابن عمر: في هذا نزلت هذه الآية».

وقال بعضهم: لنزول هذه الآية سبب آخر: وذلك أن النبي عليه السلام كان يصلي إلى بيت المقدس، فلما أمر بالتحويل إلى الكعبة، قالت اليهود: مرة يصلون هكذا، ومرة يصلون هكذا، فنزلت هذه الآية: ﴿ولله المَشرِقُ والمَغرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾.

ثم قال: ﴿إنّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، يعني: الواسع الجواد المحسن، يقبل اليسير، ويعطي الجزيل عليم بصلواتكم. ويقال: ﴿واسع﴾ يعني: يوسع عليكم أمر الشرائع، ولم يضيق عليكم الأمر. ويقال: ﴿واسع﴾ يعني: واسع الفضل ويقال: ﴿واسع﴾ الغني عن صلاة الخلق، وإنما

(١) حديث ابن عمر: أخرجه مالك: ١/ ١٥١ والبخاري (١٠٩٦) ومسلم (٧٠٠) (٣٧) (٣٨) وأحمد: ٢/ ٦٦ والنسائي: ١/ ٢٤٤ و٢/ ٦١ والبيهقي: ٢/ ٤.

Marfat.com

يطلب منهم النيّة الخالصة، ﴿عليم﴾ بنيّاتكم. وقال الزجاج: معنى قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، يعني: اقصدوا وجه الله بنيّتكم القبلة، كقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤ و١٥٠].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام ﴿قالوا﴾ بغير واو. وقرأ الباقون بالواو، ومعناهما واحد، لأن الواو للعطف، وذلك أن اليهود قالوا: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال بعض المشركين: الملائكة بنات الله. فالله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، نزّه نفسه عن الولد. ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلهم عبيده ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾، يعني مطيعون ومقرون بالعبودية، مجيبون للطاعة. وقد قيل: إن لفظ الآية عام والمراد به الخاص.

وقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ يعني به: المؤمنين خاصة. ويقال معناه: أثر صنعه وشواهد توحيده ودلائل ربوبيته في جميع ما في السموات والأرض. ويقال: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ يعني: كل خلق لا يستطيع أن يغير نفسه عن خلقته، فأخبر الله تعالى أن جميع ما في السموات والأرض له، خالق الأشياء، والمستغني عن الولد سبحانه وتعالى.

ثم قال عز وجل: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يعني: خالقهما. والإبداع في اللغة: إنشاء شيء لم يُسْبَقْ إليه على غير مثال ولا مشورة. وإنما قيل لمن خالف السنة: مبتدع، لأنه أتى بشيء لم يسبقه إليه الصحابة ولا التابعون. ومعناه: هو خالق السموات والأرض. ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾، يعني: إذا أراد أن يخلق خلقاً، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. ويقال: هذه الآية نزلت في شأن وفد نجران السيد والعاقب وغيرهما، وكانوا يقولون للنبي ﷺ: هل رأيت خلقاً من غير أب؟ فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، كما كان عيسى بن مريم عليه السلام خلقه من غير أب. فإن قيل: قوله: ﴿كن﴾ هذا خطاب للموجود أو للمعدوم؟ فإن قال: الخطاب للمعدوم. قيل له: كيف يصح الخطاب لشيء معدوم، وكيف يصح الإشارة إليه بقوله: ﴿كن﴾؟ فإن قال: الخطاب للموجود. قيل له: كيف يأمر الشيء الكائن بالكون؟ فالجواب عن هذا من وجهين: أحدهما: أن الأشياء كلها كانت موجودة في علم الله تعالى قبل كونها، فكان الخطاب للموجود في علمه. وجواب آخر: أن معناه إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون، يعني: إذا أراد أن يخلق خلقاً يخلقه، والقول فيه على وجه المجاز. قرأ ابن عامر ﴿فَيَكُونَ﴾ بالنصب، لأن جواب الأمر بالفاء، وقرأ الباقون بالرفع على معنى الاستئناف، يعني: فهو يكون.

Marfat.com

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي لا يعلمون توحيد الله تعالى ومعناه. وقال الجهال من الناس وهم الكفار: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾، يعني: هلا يعلمنا الله فيخبرنا بأنك رسونه، ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، يعني: علامة لنبوتك.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾، يعني: اليهود لموسى عليه السلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، يعني في القسوة والكفر. ويقال: تشابهت كلمتهم كما تشابهت قلوبهم في القسوة والكفر.

قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ﴾، يعني: في التوراة أي العلامات إنك نبي مرسل في الصفة والنعت. ويقال: قد بينا العلامات لنبوتك. ويقال: لم يكن لنبي من الأنبياء معجزة وعلامة إلا وقد كان للنبي ﷺ مثلها. ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، يعني مؤمني أهل التوراة. ويقال: من كان له عقل وتمييز.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾، يعني: بالقرآن. ويقال ﴿بالحق﴾: أي لأجل الحق ويقال: أي بالدعوة إلى الحق. ويقال: ببيان الحق. ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾؛ قرأ نافع ﴿وَلاَ تَسْأَلْ﴾ بنصب التاء وجزم اللام، والباقون برفع التاء واللام. فمن قرأ بالرفع، فمعناه: أنك إذا بلّغت الرسالة، فإنك قد فعلت ما عليك، ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ عمّا فعلوا، وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤] ومن قرأ بالنصب، فهو في معنى النهي، أي ﴿لا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي عما فعلوا.

قال الفقيه: حدثنا القاضي الخليل بن أحمد: أخبرنا الدّيبلي قال: أخبرنا أبو عبيد الله قال: حدثنا سفيان، عن موسى بن عبيدة الربذي، عن محمد بن كعب القرظي أن رسول الله ﷺ قال: «لَيتَ شِعْرِي مَا فُعِلَ بِأَبَوَيَّ»[1]. فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ ﴿ولا تُسألُ عن أصحاب الجحيم﴾.

---

(١) عزاه السيوطي: ١/٢٧١ إلى وكيع وسفيان، وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي. وقال السيوطي: هذا مرسل ضعيف الإسناد لا تقوم به حجة. والقرطبي تابعي =

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عنك ٱلْيَهُودُ وَلاَ ٱلنَّصَارَىٰ﴾، يعني: يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، يعني: تصلي إلى قبلتهم. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، يعني: إن قبلة الله هي الكعبة ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، يعني: صليت إلى قبلتهم ﴿بَعْدَ ٱلَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، يعني من بعد ما ظهر لك أن القبلة هي الكعبة، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ينفعك ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾، يعني: مانع يمنعك. ويقال: معناه ﴿ولن تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، يعني: حتى تدخل في دينهم، وذلك أن الكفار كانوا يطلبون الصلح، وكان يرى أنهم يسلمون، فأخبره الله تعالى أنهم لن يرضوا عنه، حتى يتبع ملتهم، فنهاه الله عن الركون إلى شيء مما يدعون إليه. فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهُدَى﴾، يعني: دين الله هو دين الإسلام. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، وهذا الخطاب للنبي ﷺ والمراد منه أمته، يعني: لئن اتبعت دينهم بعد ما جاءك من العلم، يعني: ما ظهر أن دين الإسلام هو الحق ﴿مَا لكَ مِنَ الله﴾، أي من عذاب الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ ينفعك ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾، أي: مانع يمنعك عنه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾، يعني: مؤمني أهل الكتاب يصفونه في كتبهم حق صفته لمن سألتهم. قال مجاهد: يتبعونه حق اتباعه. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن مسعود قال: «والله إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأ حق قراءته كما أنزل الله تعالى، ولا يحرِّف عن مواضعه». ويقال: يقرؤونه حق قراءته. ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، يعني: بمحمد ﷺ ويصدقونه. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾، يعني: بمحمد ﷺ ويقال بالقرآن، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾، وهو كعب بن الأشرف وأصحابه. ويقال: نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب، وهم اثنان وثلاثون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة، وكانوا يتبعون القرآن حق اتباعه.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِي ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ قد ذكرناها من قبل.

= ثقة فالحديث مرسل. والمربذي ضعفه أحمد وقال: منكر الحديث، وقال غيره: كذاب ومتروك الحديث.

Marfat.com

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾، قرأ ابن عامر ﴿أبرَهَامَ﴾، وروي عنه أنه قرأ ﴿أبرَاهَمَ﴾ وهي لغة بعض العرب، وقرأ غيره ﴿إبراهِيمَ﴾ في جميع القرآن، وهو اسم أعجمي ولهذا لا ينصرف. وروي عن ابن عباس أنه قال: «أمر الله تعالى إبراهيم بعشر خصال من السنن: خمس في الرأس، وخمس في الجسد»(١)، وروي عن النبي ﷺ نحو هذا.

حدثنا أبي قال: **حدثنا** محمد بن الفضل البلخي قال: **حدثنا** أبو بشر محمود بن مهدي، قال: **حدثنا** يزيد بن هارون، عن الحجاج بن أرطأة، عن عطاء قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَشْرٌ مِمَّا عَلِمَهُنَّ وَعَمِلَ بِهِنَّ أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ - عليه السلام - خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ، وَخَمْسٌ فِي الجَسَدِ؛ فَأَمَّا الَّتِي فِي الرَّأْسِ: فَالسِّوَاكُ وَالمَضْمَضَةُ وَالاسْتِنْشَاقُ وَقَصُّ الشَّارِبِ وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَأَمَّا الَّتِي فِي الجَسَدِ فَالخِتَانُ وَالاسْتِحْدَادُ وَالاسْتِنْجَاءُ وَنَتْفُ الإِبْطِ وَقَصُّ الأَظْفَارِ**»(٢) ويقال. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾، يعني: اختبره. والاختبار من الله تعالى: أن يظهر حاله ليستوجب الثواب أو العقاب، لأن الله تبارك وتعالى لا يعطي الثواب والعقاب ما لم يظهر منه ما يستوجب به الثواب أو العقاب بما يعلم. كما علم من إبليس الكفر، ولم يلعنه بما لم يختبره وأظهر منه ما يستوجب به اللعنة والعقوبة.

وقوله عز وجل: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، يعني: عمل بهن. ويقال: كان إبراهيم أفضل الناس في زمانه، وأكرم على الله تعالى، فابتلاه الله عز وجل بخصال لم يبتل بذلك غيره، فكان من الابتلاء: أن أمّه ولدته في غار. ومن الابتلاء: حيث نظر إلى الكوكب فقال: هذا ربي. وروي عن الحسن أنه قال: الابتلاء كان ثلاثة أشياء؛ أوله: الابتلاء بالكوكب والقمر والشمس، والثاني: بالنار، والثالث: بأمر سارة. ويقال: كل من كان أكرم على الله كان ابتلاؤه أشد، لكي يتبين فضله ويستوجب الثواب. كما روي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بنيَّ الذهبُ والفضة

---

(١) عزاه السيوطي ١/ ٢٧٣ إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه.

(٢) الحديث مرسل وقال السيوطي ١/ ٢٧٤: أخرجه ابن أبي حاتم عن عطاء مرفوعاً بلفظ «من فطرة إبراهيم السواك» والحجاج بن أرطأة مدلس لا يحتج به. وقال السيوطي: وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة مرفوعاً «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقصّ الشارب، وتقليم الأظفار ونتف الإباط» وفي البخاري من حديث ابن عمر: «حلق العانة وتقليم الأظفار وقصّ الشارب». وعند مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عائشة مرفوعاً «عشر من الفطرة...».

Marfat.com

يختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلايا. ﴿فأتمهن﴾، يعني: عمل بهن. ويقال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فوفى بهن، فلما وفى الأمر جعله الله تعالى إماماً للناس ليقتدى به. وفي هذا دليل: أن الإنسان لا يبلغ درجة الأخيار إلا بالتعب وجهد النفس، فلما جعله الله تعالى إماماً، ﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ والإمام الذي يؤتم به فأعجبه ذلك، وتمنى أن يكون ذلك لذريته مثل ذلك، ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، يعني اجعلهم أئمة يقتدى بهم.

قال الله تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، يعني: الكافرين، يعني: لا يصلح أن يكون الكافر إماماً للناس. ويقال: لا تصيب رحمتي الكافرين، فالله تعالى أخبره أنه يكون في ذريته كفار، وأخبره أنه لا ينال مثل ما عهده إليه من كان كافراً.

قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ بسكون الياء. والباقون بنصب الياء ﴿عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ﴾ وهما لغتان ومعناهما واحد.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

قوله تعالى عز وجل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾، يقول: وضعنا البيت، يعني: الكعبة معاداً لهم، يعودون إليه مرة بعد مرة. وقال قتادة: مجمعاً للناس يثوبون إليه من كل جهة، وفي كل سنة فلا يقضون منها وطراً. ﴿وَأَمْناً﴾، يعني: جعلناه أمناً لمن التجأ إليه، يعني: من وجب عليه القصاص. ولهذا قالوا: لو أن رجلاً وجب عليه القصاص فدخل الحرم، لا يقتص منه في الحرم. وهكذا روي عن ابن عمر أنه قال: «لو وجدت قاتل عمر في الحرم، ما هيجته»، يعني: ما أزعجته ولكن يمنع منه المنافع، حتى يضجر فيخرج فيقتص منه. ويقال: ﴿آمناً﴾ لغير الممتحنين، وهي الصيود إذا دخلت الحرم صارت آمنة. ويقال: آمناً من الجذام.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، قرأ نافع وابن عامر ﴿وَٱتَّخَذُوا﴾ بنصب الخاء على وجه الخبر، معناه: جعلناه مثابة فاتخذوه مصلى. وقرأ الباقون بكسر الخاء على معنى الأمر.

حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الدّبيلي قال: حدثنا أبو عبد الله قال: حدثنا سفيان، عن زكريا بن أبي زائدة، عمن حدثه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت يوم الفتح، فلما فرغ من طوافه أتى المقام فقال: «هٰذَا مَقَامُ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الخليل»، فقال عمر: أفلا تتخذه مصلى يا رسول الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ويقال: المسجد الحرام كله مقام إبراهيم، هكذا روي عن مجاهد وعطاء.

قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾، أي: أمرنا إبراهيم وإسماعيل: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، يعني: مسجدي من الأوثان، ويقال: من جميع النجاسات، ثمّ قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ أي

Marfat.com

طهّرا المسجد من الأوثان والنجاسات، لأجل الطائفين الذين يطوفون بالبيت وهم الغرباء، ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾ وهم أهل الحرم المقيمون بمكة من مكة وغيرهم ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ يعني: أهل الصلاة من كل وجه من الآفاق. قرأ نافع وعاصم في رواية حفص ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ بنصب الياء وقرأ الباقون بسكون الياء.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾ يعني: الحرم. ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ﴾، فاستجاب الله تعالى دعاءه، فتحمل الثمار إلى مكة من كل جهة، فيوجد فيها في كل وقت من أنواع الثمار، فاشترط إبراهيم في دعائه فقال: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾. وإنما اشترط هذا الشرط، لأنه قد سأل الإمامة لذريته، فلم يستجب له في الظالمين، فخشي إبراهيم أن يكون أمر الرزق هكذا، فسأل الرزق للمؤمنين خاصة، فأخبره الله تعالى: أنه يرزق الكافر والمؤمن، وأن أمر الرزق ليس كأمر الإمامة. قالوا: لأن الأمامة فضل، والرزق عدل، فالله تعالى يعطي بفضله من يشاء من عباده من كان أهلاً لذلك، وعدله لجميع الناس لأنهم عباده، وإن كانوا كافرين، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام «فَأُمْتِعُهُ» بالتخفيف من أمتعت، وقرأ الباقون بالتشديد من متّعت، يعني: سأرزقه في الدنيا يسيراً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ يعني: مصيره، ويقال: ملجأه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ إذا صاروا إليه.

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾ يعني: يبني إبراهيم ﴿القواعد﴾ يعني: أساس البيت، يعني: الكعبة. والقواعد جماعة الأساس، واحدها قاعدة. ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ يعني إسماعيل يعينه. قال مقاتل: وفي الآية تقديم وتأخير، معناه: وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت. ويقال: إن إبراهيم كان يبني البيت وإسماعيل يعينه، والملائكة يناولون الحجر من إسماعيل، وكانوا ينقلون الحجر من خمسة أجبل: طور سيناء، وطور زيتاء، والجودي، ولبنان، وحراء، فلما فرغا من البناء، قالا ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ يعني: أعمالنا. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ السميع لدعائنا ﴿العليم﴾ بنياتنا.

Marfat.com

وفي الآية دليل: أن الإنسان إذا عمل خيراً ينبغي أن يدعو الله بالقبول، ويقال: ينبغي أن يكون خوف الإنسان على قبول العمل بعد الفراغ أشد من شغله لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. وروي في الخبر: أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لما فرغا من البناء، جثيا على الركب وتضرعا وسألا القبول، فقال جبريل لإبراهيم: قد أجيب لك، فاسأل شيئاً آخر، قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، يعني: مخلصين لك، ويقال: واجعلنا مثبتين على الإسلام، ويقال: مطيعين لك، ويقال: وأمتنا على الإسلام.

ثم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، يعني: اجعل بعض ذريتنا من يخلص لك، ويثبت على الإسلام. ثم قال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾. يعني: علمنا أمور مناسكنا. وقال القتبي: الرؤية المعاينة في اللغة كقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٠]. ويقال: يذكر الرؤية ويراد بها العلم كقوله تعالى: ﴿ألم تر الذين كفروا﴾ وكقوله تعالى: ﴿أَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، أي: علمنا. وكقوله ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أراك الله﴾. قرأ ابن كثير ومن تابعه من أهل مكة ﴿وَأَرْنَا﴾ بسكون الراء في جميع القرآن، والباقون بكسر الراء، وهما لغتان، والكسر أظهر وأفصح.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ يعني: مطيعين وموحدين لك، واجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَا﴾ جماعة موحدة مطيعة لك. ويقال: أشكل عليهما موضع البيت، فبعث الله تعالى سحابة فقالت له: ابن بخيالي، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت بخيال السحابة. ثم قال تعالى: ﴿وأرنا مناسكنا﴾ أي: ﴿وَتُبْ﴾ يعني: تجاوز عنا الزلة، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ﴾ المتجاوز ﴿الرحيم﴾ بعبادك.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا﴾. قال مقاتل: لأن إبراهيم علم أن في ذريته من يكون كفاراً، فسأل الله تعالى أن يبعث فيهم رسولاً فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتك﴾، يعني: القرآن. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾، أي: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعني: الموعظة التي في القرآن من الحلال والحرام. ويقال: علم التفسير. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهرهم من الكفر والشرك. ويقال: يأمرهم بالزكاة لتطهر أموالهم. قال مقاتل: استجاب الله دعاءه في سورة الجمعة. وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى»[1]. يعني قوله: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، المنيع الذي لا يغلبه شيء، ويقال:

---

(١) عزاه السيوطي إلى ١/ ٣٣٤ إلى أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من حديث العرباض بن سارية.

Marfat.com

﴿العزيز﴾: الذي لا يوجد مثله ويقال: الذي لا يعجزه شيء عما أراد. ويقال: ﴿العزيز﴾ بالنقمة، ينتقم ممن شاء ممّن عصاه، ﴿الحكيم﴾ في أمره الذي يكون عمله موافقاً للعلم.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، يقول: عن سنته ودينه وهو الإسلام. ويقال: لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه: التقريع والتوبيخ، ويقال: ﴿وَمَن﴾ ها هنا بمعنى ما، فكأنه يقول: ومن يرغب عن دين إبراهيم ﴿إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾. قال أبو عبيدة: إلا من أهلك نفسه. وقال الأخفش: معناه إلا من سفه من نفسه. وهذا كما قال في آية أخرى ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] يعني: على عقدة النكاح. ويقال: إلا من جهل أمر نفسه، فلا يتفكر فيه، كما قال في آية أخرى ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، قال الكلبي: ومن يرغب عن دين إبراهيم الإسلام والحج والطواف، إلا من خسر نفسه.

ثمّ قال: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾، يقول: اخترناه في الدنيا للنبوة والرسالة والإسلام والخلة. ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، يعني: في الجنة. ويقال: مع الصالحين في الجنة وهو أفضل الصالحين ما خلا محمداً ﷺ.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾، قال ابن عباس: «يعني أخلص». ويقال: معناه قل لا إله إلا الله. ويقال: معناه استقم على ما أنت عليه. ويقال: حين خرج من السرب، نظر إلى الكوكب والقمر والشمس، فابتلي بذلك فألهمه الله تعالى الإخلاص، فقال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] الآية. فهذا معنى قوله ﴿أسلم﴾ يعني: أخلص دينك لله، فقال إبراهيم: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يعني: أخلصت ديني لرب العالمين، ويقال: معناه: فوِّض أمرك إلى الله فقال: فوَّضتُ أمري إلى الله.

ثمّ قال عز وجل: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾، يعني: بشهادة أن لا إله إلا الله. قرأ نافع وابن عامر ﴿وَأَوْصَى﴾ وقرأ الباقون ﴿وَوَصَّىٰ﴾ ووصَّى وهو أبلغ من أوصى، لأنه لا يكون إلا لمرات كثيرة. وقوله ﴿بِهَا﴾، يرجع إلى الملة، والملة هي السنة والمذهب. ويقال: إنه جمع بنيه عند موته، لأنه خشي عليهم كيد إبليس، فجمعهم وأوصاهم بأن يثبتوا على الإسلام. قال مقاتل: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ الأربعة: إسماعيل، وإسحاق، ومدين، ومداين، ثم أوصى بها ﴿يعقوب﴾ بنيه، وهم إثنا عشر ابناً، وذلك حين دخل مصر فرآهم يعبدون الأصنام، فأوصى

Marfat.com

بنيه بأن يثبتوا على الإسلام وكان له اثنا عشر ابناً: روبيل، وشمعون، ويهوذا، نفتالي، ولاوي، وزبالون، ويشجر، ودان، واسْتُرْقُفا، وجادو، ويوسف، وبنيامين.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾، يعني: اختار لكم دين الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، يعني: اثبتوا على الإسلام وكونوا بحالٍ لو أدرككم الموتُ يدرككم على الإسلام، وأنتم مخلصون بالتوحيد. فقالت اليهود للنبي ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه بدين اليهودية؟.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

فأنزل الله تعالى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَداءَ﴾، يعني: أكنتم حضوراً حين ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ وإنما لم ينصرف ﴿شُهَداءَ﴾ لمكان ألف التأنيث في آخره، وإذا دخلت ألف التأنيث أو هاء التأنيث في آخر الكلام فإنه لا ينصرف. معناه: إنكم تدعون ذلك، كأنكم كنتم حضوراً في ذلك الوقت، يعني أنكم تقولون ما لا علم لكم بذلك، والله تعالى يخبر ويبين أن وصيته كانت بخلاف ما قالت اليهود.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي﴾، يعني: من بعد موتي؟ ﴿قالوا: نَعْبُدُ إِلٰهكَ وإِلٰهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ﴾. روي عن الحسن البصري أنه قرأ ﴿قالوا نَعْبُدُ إِلٰهكَ وإِلٰهَ أَبِيكَ إِبْراهِيمَ﴾. وقرأ غيره ﴿قالوا نَعْبُدُ إِلٰهكَ وإِلٰهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وإِسْماعِيلَ وإِسْحاقَ﴾. وإسماعيل كان عم يعقوب، ولكن العم بمنزلة الأب بدليل ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ»(1). ثم قال: ﴿إِلٰهاً واحِداً﴾، يعني: نعبد إلهاً واحداً. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: مخلصون له بالتوحيد.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني: جماعة قد مضت. ﴿لَها ما كَسَبَتْ﴾، يعني: جزاء ما عملت ﴿ولكم ما كسبتم﴾ يعني: جزاء ما عملتم من خير أو شرّ. ﴿وَلاَ تَسْأَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وذلك أن اليهود والنصارى كانوا يقولون: نحن على دينهم، فقال لهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، لا تقدرون عليهم يشهدوا لكم، فلهم ما عملوا وإنما لكم ما تعملون، وإنما ينظر اليوم إلى أعمالكم، ولا ينفعكم من أعمالهم شيء.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٧٥٨) وقال: حديث حسن صحيح و(٣٧٦٠) من حديث علي وقال: حديث حسن صحيح ومن حديث أبي هريرة (٣٧٦١) وقال حسن صحيح غريب. وأحمد: ١/ ٩٤ و٤/ ١٦٦.

Marfat.com

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾، وذلك أن يهود المدينة ونصارى أهل نجران اختصموا، فقال كل فريق: ديننا أصوب، ونبينا أفضل. فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ: أينا أفضل؟ فقال لهم: «كُلُّكُمْ عَلَى البَاطِلِ». فأعرضوا عنه فنزلت هذه الآية: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾ يعني: اليهود قالوا: كونوا على دين اليهودية والنصارى قالوا: كونوا على دين النصرانية تهتدوا من الضلالة.

قال الله تعالى لمحمد ﷺ ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾. وإنما نصب الملة على معنى: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً. ويقال: معناه واتبعوا ملة إبراهيم. وقال مقاتل: بل الدين ملة إبراهيم حنيفاً، يعني: مخلصاً. وقال القتبي: ﴿حنيفاً﴾ يعني: مستقيماً. ويقال للأعرج: حنيف، نظراً إلى السلامة، كما يقال للديغ: سليم، وللجبانة مفازة، وإن كانت مهلكة. وقال الزجاج: أصل الحنيف إذا كان أصابع الرجل مقبلاً بعضها إلى بعض إقبالاً لا تنصرف عن ذلك أبداً، فكذلك كان إبراهيم عليه السلام مقبلاً على دين الإسلام، مائلاً عن الأديان كلها ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولكنه كان على دين الإسلام. فقال أصحاب محمد ﷺ: كيف نقول حتى لا نكذب أحداً من الأنبياء؟ فعلمهم الله تعالى فقال عز وجل:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

قال عز وجل: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، يعني صدقنا بالله بأنه واحد لا شريك له. ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، يعني: صدقنا بما أنزل إلينا، يعني: بما أنزل على نبينا ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، يعني: صدقنا بما أنزل على إبراهيم من الصحف. ﴿وَ﴾ ما أنزل إلى ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ وهم وُلْدُ يعقوب، كان له اثنا عشر ابناً، فصار أولاد كل واحد منهم سبطاً، والسِّبط بلغتهم بمنزلة القبيلة للعرب. وإنما أنزل على أنبيائهم وكانوا يعملون به، فأضاف إليهم، كما أنه أنزل على محمد ﷺ فأضاف إلى أمته فقال: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ فكذلك الأسباط أنزل على أنبيائهم فأضاف إليهم، لأنهم كانوا يعملون به.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، يعني: التوراة والإنجيل. ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾، يعني: وما أنزل على الأنبياء من الله تعالى، وقد آمنا بجميع الأنبياء وبجميع الكتب

Marfat.com

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، كما فرقت اليهود والنصارى، ﴿وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ﴾، يعني: مخلصون له بالتوحيد.

ثم قال عز وجل للمؤمنين: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾، يعني: اليهود والنصارى ﴿بِمِثْلِ مَآ آمَنتُم بِهِ﴾ يا أصحاب محمد ﷺ، ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ من الضلالة. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾، يقول: أعرضوا عن الإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الأنبياء ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، يعني في خلاف من الدين. ويقال: في ضلال. والشقاق في اللغة: له ثلاثة معان، أحدها: العداوة مثل قوله تعالى: و﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ [هود: ٨٩]، والثاني: الخلاف مثل قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥]، والثالث: الضلالة مثل قوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، يعني: يدفع الله عنكم مؤنتهم. وقال الزجاج: هذا ضمان من الله تعالى النصر لنبيه، أنه سيكفيه إياهم بإظهاره على كل دين سواه، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١] يعني: أن عاقبة الأمر كان لهم. قال مقاتل: يعني قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ بقولهم للمؤمنين حيث قالوا: كونوا هوداً أو نصارى ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعقوبتهم.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

ثم فضل دين محمد ﷺ على كل دين فقال عز وجل: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾، يقول: اتبعوا دين الله والزموه، لا دين اليهود والنصارى. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾، يعني: أيّ دين أحسن من دين الله تعالى، وهو دين الإسلام. ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ يقول: اثبتوا على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ونحنُ له عابدون﴾ أي: موحدون مقرون، وذلك أن النصارى إذا ولد لأحدهم ولد غمروه في اليوم السابع في ماء لهم، ليطهروه بذلك، ويقولون: هذا طهور مكان الختان، وهم صنف من النصارى يقال لهم: المعمودية.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، أي مطيعون، ولنا الختان طهور، طهّر الله تعالى به إبراهيم عليه السلام. وروى عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أختتن إبراهيم عليه السلام بالقدوم وهو ابن مائة وعشرين سنة» والقدوم موضع بالشام. ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة[1]. وقال القتبي: هذا من الاستعارة حيث سمى الختان صبغة، لأنهم كانوا يصبغون أولادهم في ماء. قال الله تعالى: ﴿صبغة الله﴾ لا صبغة النصارى، يعني: اتبعوا دين الله والزموا دين الله.

---

(١) حديث أبي هريرة: «اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن مائة وعشرين وعاش بعد ذلك ثمانين سنة» أخرجه البخاري (٣٣٥٦) و(٦٢٩٨) ومسلم (٢٣٧٠) وأحمد: ٢/ ٣٢٢ والبيهقي: ٨/ ٣٢٥ والحاكم ٢/ ٥٥١.

Marfat.com

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

ثم قال الله عز وجل: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ليهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران: ﴿أتحاجوننا في الله﴾، يعني: أتخاصموننا في دين الله؟ وقال الزجاج: نزلت هذه الآية في اليهود الذين يظاهرون المشركين، فقال: أنتم تقولون: أنكم توحدون الله ونحن نوحد الله تعالى، فلم تظاهرون علينا من لا يوحد الله تعالى؟ والله ﴿رَبُّنا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمالُنا﴾، أي ثواب أعمالنا ﴿وَلَكُمْ﴾ ثواب ﴿أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾، مقرون له بالوحدانية، مخلصون له بالعبادة.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون: بالياء «أم يَقُولُونَ». ﴿إِنَّ إبراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وإسحاق وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصارىٰ﴾، يعني إن تعلقتم أيضاً بدين الأنبياء فنحن على دينهم، وقد آمنا بجميع الأنبياء، فإن ادعيتم أن الأنبياء كانوا على دين اليهودية أو النصرانية. ﴿قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ بذلك ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾. والله تعالى أخبر أنهم كانوا على دين الإسلام، وقد بيَّن ذلك في كتبهم ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، لأن الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق بأن يبيِّنوه فكتموه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا الله بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، يعني: لا يخفى على الله من عملهم شيء فيجازيهم بذلك. ويقال: هذا القول وعيد للظالم وتعزية للمظلوم.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، الآية، وقد ذكرناها.

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، يعني: الجهال من الناس وهم اليهود والمنافقون. ويقال: هم أهل مكة: ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾؟ يقول: ما الذي صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾؟ يعني: التي صلوا إليها من قبل. وذلك أن الأنصار قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين كانوا يصلون إلى بيت المقدس، فلما قدم النبي ﷺ المدينة، صلى إلى بيت المقدس ثمانية عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، فلمّا صرفت قبلته إلى الكعبة. فقال أهل مكة: إذا حرّكت القبلةُ إلى الكعبة رجع محمد إلى قبلتنا، فعن قريب يرجع إلى ديننا، فأنزل الله تعالى ﴿قُل لله ٱلْمَشْرِقُ

Marfat.com

﴿وَالْمَغْرِبُ﴾، يقول: الصلاة إلى بيت المقدس والصلاة إلى الكعبة لله، إذا كان بأمر الله. ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ إلى قبلة الكعبة ﴿يهدي من يشاء﴾ أي: يرشدُ من يشاء ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: ديناً يرضاه. روي عن أبي العالية الرياحي أنه قال: رأيت مسجد صالح عليه السلام وقبلته إلى الكعبة وقال: وكان موسى عليه السلام يصلي من الصخرة نحو الكعبة، وهي قبلة الأنبياء كلهم، صلوات الله عليهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ والوسط: هو العدل، كما قال في آية أخرى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨]، أي: أخيرهم وأعدلهم. والعرب تقول: فلان من أوسط قومه، أي خيارهم وأعدلهم، ومنه قيل للنبي ﷺ: «هو أوسط قريش حسباً». أي جعلناكم عدلاً للخلائق. ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، للنبيين. ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ بالتصديق لكم، وذلك أن الله تعالى إذا جمع الخلق يوم القيامة فيسأل الأنبياء عن تبليغ الرسالة لقوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨] فيقولون: قد بلغنا الرسالة، فتنكر أممهم تبليغ الرسالة، فتشهد لهم أمة محمد ﷺ بتبليغ الرسالة، فتطعن الأمم في شهادتهم، فيزكيهم النبي ﷺ فذلك معنى قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ ومعنى قوله: ﴿وكذلك﴾ أي وكما هديتكم للإسلام ولقبلة الكعبة فكذلك ﴿جعلناكم أمة﴾ عدلاً لتكونوا شهداء على الناس وللآية تأويل آخر: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي عدلاً ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ يقول: إنكم حجة على جميع من خلقنا ورسول الله ﷺ حجة عليكم. والشهادة في اللغة: هي البيان، فلهذا يسمى الشاهد بيِّنة، لأنه يبيِّن حق المدعي، يعني: أنكم تبيِّنون لمن بعدكم، والنبي ﷺ يبين لكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾، يعني: ما أمرناك بالصلاة إلى القبلة الأولى، ويقال: ما حولنا القبلة التي كنت عليها، ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾. يقول: إلا لنميِّز ونبيِّن ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾، يعني: من يطيع الرسول في تحويل القبلة، ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، أي: يرجع إلى دينه بعد تحويل القبلة. ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾، أي: وقد كانت لثقيلة وهو صرف القبلة. ﴿إِلاَّ عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾، يعني: حفظ الله قلوبهم على الإسلام وأكرمهم باتباع محمد ﷺ في تحويل القبلة، وهم أصحاب محمد ﷺ قالوا: يا رسول الله، فإخواننا الذين ماتوا ما صنع الله بصلاتهم التي صلوا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، يعني صلاتهم إلى بيت المقدس التي صلوا إليها وماتوا عليها ويقال: إن اليهود

Marfat.com

قالوا: قد بطل إيمانكم حيث تركتم القبلة فنزل ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ يعني: يبطل إيمانكم، وإنَّما تحولّت قبلتكم. قال الضحاك: يعني لم يبطل تصديقكم بالقبلتين.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، يعني: بالمؤمنين رحيم حين قبلها منهم ولم يضيع إيمانهم. قرأ أبو عمرو حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿لَرَؤُفٌ﴾ بالهمزة على وزن رعف، وقرأ الباقون: ﴿رَؤُوفٌ﴾ على وزن رؤف في جميع القرآن، وهما لغتان ومعناهما واحد.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ﴾، يعني: رفع بصرك إلى السماء، وذلك أن النبي ﷺ قال لجبريل: «وَدِدتُ لَوْ أَنَّ اللهَ تَعَالى صَرَفَنِي عَنْ قِبْلَةِ اليَهُودِ إِلَى غَيْرِهَا» وإنما أراد الكعبة لأنها قبلة إبراهيم عليه السلام وقبلة الأنبياء عليهم السلام، ولأنها كانت أدعى للعرب إلى الإسلام، فقال جبريل: إنما أنا عبد مثلك لا أملك شيئاً فاسأل ربك، فجعل النبي ﷺ يديم النظر إلى السماء فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ﴾، يعني: رفع بصرك إلى السماء. ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾، يعني: فلنحولنك ولنوجهنك في الصلاة ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، يقول: تهواها إلى الكعبة. فأمره الله تعالى بالتوجه فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، يعني: نحوه وتلقاءه ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، يعني: أن القبلة إلى الكعبة هو الحق وهي قبلة إبراهيم عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، يعني: جحودهم القبلة إلى الكعبة، فقالوا للنبي ﷺ: ائتنا بعلامة على تصديق مقالتك، وهم اليهود والنصارى، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾، يعني: بكل علامة ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾، أي ما صلُّوا إلى قبلتك. ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، أي ما أنت بمصل إلى قبلتهم، ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ ويقال: معناه كيف ترجو أن يتبعوك ويصلوا إلى قبلتك وهم لا يتبعون بعضهم بعضاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ هذا الخطاب للنبي ﷺ والمراد منه أمته، يعني: لئن صليت إلى قبلتهم واتبعت مذهبهم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، أي البيان أن دين الإسلام

Marfat.com

هو الحق، والكعبة هي القبلة. ﴿إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أي الضارين بنفسك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾، وهم مؤمنو أهل الكتاب ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعني: محمداً ﷺ بنعته وصفته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بين الغلمان. قال عبد الله بن سلام: والله لأنا كنت أشد معرفة برسول الله ﷺ مني بابني، فقال له عمر: «وكيف ذلك يا ابن سلام؟» فقال: لأني أشهد أنه رسول الله حقاً وصدقاً يقيناً، وأنا لا أشهد بذلك على ابني لأني لا أدري ما أحدثت النساء بعدي، فقال له: «والله يا ابن سلام، لقد صدقت، أو أصبت».

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ﴾، يعني: طائفة من اليهود ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ في كتابهم، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه نبي مرسل. قال مقاتل: إن اليهود قالوا للنبي ﷺ: لم تطوفون بالبيت المبني بالحجارة؟ فقال لهم: «**إنكم تعلمون أنَّ الطَّوَافَ بِالبَيْتِ حَقٌّ وَإِنَّهُ هُوَ القِبْلَةُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ**» فجحدوا، فنزل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾، يعني: التوراة يعرفون أن البيت قبلة كما يعرفون أبناءهم؛ ﴿وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق﴾ في أمر القبلة و﴿هم يعلمون﴾ ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يا محمد، قبلة إبراهيم. ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، يعني: من الشاكين، إنهم يعرفون أنها قبلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾، أي: قبلة. والوجهة والجهة والوجه بمعنى واحد، أي لكل ذي ملة قبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: مستقبلها، وقيل: لكلّ دين وملّة قبلة ﴿هو مولّيها﴾. قرأ ابن عامر: «وَهُوَ مُوَلاَّهَا» يعني: إليه مُولّيها، وقرأ الباقون بالكسر يعني: هو بنفسه موليها. وقال مقاتل: لكل أهل ملة قبلة هم مستقبلوها، يريدون بها الله تعالى. ﴿فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ﴾، يعني: قال لهذا الأمة: فاستبقوا بالطاعات. وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨]، يعني: لكل قوم شريعة وسبيلاً، فإذا أخذوا بالسنة والمنهاج رضي عنهم. فأمر الله تعالى أهل هذه الشرائع أن يستبقوا الخيرات في الأعمال الصالحة.

ثم قال تعالى: ﴿أَيْنَما تَكُونُوا﴾ في الأرض ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللهُ جَمِيعاً﴾، يعني: يقبض أرواحكم يعني: يجمعكم يوم القيامة.

وقال مجاهد: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هِوَ مُوَلِّيهَا﴾ أمر كل قوم بأن يحولوا وجوههم إلى الكعبة.

Marfat.com

ويقال: ولكل أمة قبلكم قبلة أمرتهم بأن يستقبلوها، ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ يقول: بادروا الأمم بالطاعات.

ثم قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ﴾، يعني: يقبض أرواحكم ويجمعكم يوم القيامة. ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي هو قادر على جمعكم يوم القيامة.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يقول: حيث صليت. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ بالصلاة ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني: نحوه وتلقاءه. ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: التوجه إلى الكعبة بالصلاة هو الحق من ربكم، ﴿وما الله بغافلٍ عمّا تعملونَ﴾ يعني: يجازيكم بأعمالكم، ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ أي لكي لا يكون لليهود ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ لأنهم يعلمون أن الكعبة هي القبلة، فلا حجة لهم عليكم، ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني: إلا من ظلم باحتجاجه فيما وضح له كما يقول الرجل لصاحبه: مالك عليَّ حجة إلا أن تظلمني. وقال بعضهم: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعني: ولا الذين ظلموا لا حجة لهم عليكم. وذكر عن أبي عبيدة أنه قال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ولا الذين ظلموا فهذا موضع واو العطف، فكأنه قال: ليس للناس عليكم حجة ولا الذين ظلموا منهم.

قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ﴾ بانصرافكم إلى الكعبة، ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ في تركها. قرأ نافع في رواية ورش: ﴿لِيَلاَ﴾ بغير همز. والباقون: ﴿لِئَلاَّ﴾ بالهمز لأن أصله (لأن لا)، وإنما أسقط نافع الهمزة للتخفيف. ثم قال تعالى: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بتحويل القبلة وبإرسال الرسول، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا من الضلالة.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ يعني: القرآن. وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعني: من العرب. ويقال: آدمي مثلكم لأنه لو كان من الملائكة لا تستطيعون النظر إليه، فأرسل آدمياً مثلكم يتلو عليكم القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ قال

Marfat.com

الكلبي: يقول ويصلحكم بالزكاة. وقال مقاتل: يعني: يطهركم من الشرك والكفر ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾. وقال الزجاج: خاطب به العرب أنه بعث رسولاً منكم، وأنتم كنتم أهل الجاهلية لا تعلمون الكتاب والحكمة، فكما أنعمت عليكم بالرسالة فاذكروني بالتوحيد. ويقال قوله: ﴿كما﴾ وصل بما قبله ومعناه: ولأتم نعمتي كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم. ويقال: وصل بما بعده، ومعناه: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم﴾. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فاعرفوا هذه النعمة، واذكروني بالتوحيد.

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِي﴾ بالتوحيد ﴿أذكركم﴾ يقول: اذكروني بالطاعة أذكركم بالمغفرة، فحق على الله أن يذكر من ذكره، فمن ذكره في طاعته، ذكره الله تعالى بخير. ومن ذكره من أهل المعصية في معصية، ذكره الله باللعنة وسوء الدار. ويقال: ﴿فاذكروني﴾ في الرخاء، ﴿أذكركم﴾ عند البلاء. ويقال: ﴿فاذكروني﴾ في الضرّ ﴿أذكركم﴾ بالمخرج. ويقال: ﴿فاذكروني﴾ في الخلاء، ﴿أذكركم﴾ في الملأ. ويقال: ﴿اذكروني﴾ في ملأ من الناس، ﴿أذكركم﴾ في ملأ من الملائكة.

قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا محمد بن الفضيل الضبي، عن الحصين، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال(١): «ما اجتمع قوم يذكرون الله تعالى، إلا ذكرهم الله في ملأ أعز منهم وأكرم، وما تفرق قوم من مجلس لا يذكرون الله في مجلسهم، إلا كانت حسرة عليهم يوم القيامة»(٢). ويقال: اذكروني في الدنيا بالإخلاص أذكركم في الآخرة بالإخلاص. ويقال: اذكروني بالشكر أذكركم بالزيادة. ويقال اذكروني بالدعاء أذكركم بالإجابة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ يعني: اشكروا نعمتي التي أرسلت فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا، ولا تجحدوا هذه النعمة. ويقال: النعمة في الحقيقة هي العلم، وما سوى ذلك فهو تحويل من راحة إلى راحة، وليس الطّعام بنعمة، لأن الطعام إذا أكله الإنسان فبعد ساعة يطلب منه الفرج، والثوب الحسن ربما يمل منه إذا كان يؤذيه الحر أو البرد، والعلم لا يمل منه صاحبه، بل ربما يطلب له الزيادة. فأمر الله تعالى بشكر هذه النعمة التي بعث رسولاً ليعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

---

(١) وفي نسخة «ب» قال الفقيه: حدّثنا محمد بن فضيل الضبيّ عن حصين، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه السيوطي: ١/٣٦٦.

Marfat.com

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: صدقوا بتوحيد الله تعالى. وهذا نداء المدح، وقد ذكرنا قبل هذا أن النداء على ست مراتب. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارْعَ له سمعك فإنه أمر تؤمر به، أو نهي تنهى عنه».

﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ يقول: استعينوا بالصبر على أداء الفرائض وبالصلاة خاصة. قال الزجاج: استعينوا بالصبر على ما أنتم عليه وإن أصابكم مكروه. وقال مجاهد: ﴿استعينوا بالصبر﴾ أي بالصوم والصلاة. وقال الضحاك: ﴿استعينوا بالصبر﴾ على صوم شهر رمضان وعلى الصلوات الخمس. ويقال: الصبر هو الصبر بعينه. ذكر في هذه الآية الطاعة الظاهرة والطاعة الباطنة، فأمر بالصبر والصلاة، لأنه ليس شيء من الطاعة الظاهرة أشد على البدن من الصلاة، لأنه يجتمع فيها أنواع الطاعات: الخضوع والإقبال والسكون والتسبيح والقراءة، فإذا تيسر عليه الصلاة، تيسَّر عليه ما سوى ذلك. وليس بشيء من الطاعات الباطنة أشد على البدن من الصبر، فأمر بالصبر والصلاة لأنه حسن.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، فالله تعالى مع كل واحدٍ، ولكن خصّ الصابرين لكي يعلموا أن الله سبحانه وتعالى يفرج عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾. قال الضحاك: هم النفر الذين قتلوا عند بئر معونة. وقال الكلبي: هم الذين قتلوا ببدر، قتل يومئذٍ من المسلمين أربعة عشر رجلاً وكان الناس يقولون: مات فلان ومات فلان، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يُقتَلُ في سَبيلِ الله أمواتٌ بلْ أحياءٌ﴾ يعني: هم في الحكم كالأحياء، لأنه يجري ثوابهم إلى يوم القيامة، ولأنهم يسرحون في الجنة حيث شاؤوا. كما قال في آية أخرى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، يعني: المؤمنين ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾. يقول: لنختبرنكم بخوف العدو، وهو الخوف الذي أصابهم يوم الخندق، حتى بلغت القلوب الحناجر ﴿والجوع﴾ وهو القحط الذي أصابهم، فكان يمضي على أحدهم أيام لا يجد طعاماً. ﴿ونقصٍ من

Marfat.com

﴿الْأَمْوَالِ﴾ . يعني: ذهاب أموالهم، ويقال موت الماشية. ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ ، يعني الموت والقتل والأمراض. ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي نقص الثمار، فلا تخرج الثمرة كما كانت تخرج أو تصيبها الآفة. ويقال: الثمرات هي موت الولد، وهو ثمرة القلب.

ثم قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ، يعني: الذين يصبرون على هذه المصائب والشدائد التي ذكر في هذه الآية.

ثم وصفهم فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ صبروا ولم يجزعوا، و﴿**قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ ، يعني: يقولون: نحن عبيد الله وفي ملكه، إن عشنا فعليه أرزاقنا، وإن متنا فإليه مردنا، وإليه راجعون بعد الموت، ونحن راضون بحكمه.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ ، يعني: أهل هذه الصفة ﴿**عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ . والصلاة من الله تعالى على ثلاثة أشياء: توفيق الطاعة، والعصمة عن المعصية، ومغفرة الذنوب، فبالصلاة الواحدة يكون لهم هذه الأشياء الثلاثة، فقد وعد لهم الصلوات الكثيرة، ومقدار ذلك لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ، أي الموفقون للاسترجاع. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يكن الاسترجاع إلا لهذه الأمة، ألا ترى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام قال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] فلو كان له الاسترجاع، لقال ذلك وروي عن عثمان بن عطاء، عن أبيه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ ذَكَرَ مُصِيبَةً أَوْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَاسْتَرْجَعَ، جَدَّدَ اللهُ ثَوَابَهُ كَيَوْمِ أُصِيبَ بِهَا**»(١). وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتِي، فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ المَصَائِبِ**»(٢). وروي هذان الحديثان، عن علي بن أبي طالب، عن رسول الله ﷺ أيضاً. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «نعم العلاوة ونعم العدلان؛ فالعدلان قوله تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ ، والعلاوة قوله تعالى: ﴿**وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾(٣).

﴿۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

---

(١) أخرجه ابن ماجة من طريق هشام بن زياد، عن أمه، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها (١٦٠٠) وفي الزوائد إسناده ضعيف لضعف هشام بن زياد. ضعفه الإمام أحمد، وقال ابن حيان: روى الموضوعات عن الثقات وقال السيوطي: ١/ ٣٧٨ أخرجه أحمد والبيهقي وابن ماجه وقال: ضعيف.

(٢) الحديث مرسل، وعطاء تابعي.

(٣) عزاه السيوطي: ١/ ٣٧٨ إلى وكيع وسعيد بن منصور وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، والحاكم، وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، قال أهل اللغة: الصفا الحجارة الصلبة التي لا تنبت بها شيء. والواحدة: صفاة. يقال: حصىً وحصاة. والمروة: الحجارة اللينة. والشعائر: علامة متعبِّداته. واحدها شعيرة. يعني: أن الطواف بالصفا والمروة من أمور المناسك، ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. روي عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. وروي عن ابن عباس، وأنس بن مالك أنهما كانا يقرآن كذلك. ومعنى ذلك: أن من حج البيت أو اعتمر فترك السعي، لا يفسد حجه ولا عمرته، ولكن يجب عليه جبر النقصان وهو إراقة الدم، وفي مصحف الإمام ﴿فلا جُناح عَلَيْهِ أَن يُطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ بحذف كلمة (لا). وذلك أن في الجاهلية كان لهم صنمان على الصفا والمروة: أحدهما يقال له: إساف، والآخر: نائلة، وكان المشركون يطوفون بين الصفا والمروة ويستلمون الصنمين. فلما قدم النبي ﷺ لعمرة القضاء، وكان الأنصار لا يسعون فيما بين الصفا والمروة ويقولون: السعي فيما بينهما من أمر المشركين، فنزلت هذه الآية. ويقال: إن النبي ﷺ لما فتح مكة، طاف بالبيت والمسلمون معه، فلما سعى بين الصفا والمروة، رفع المسلمون أزرهم، وشمروا قمصهم كيلا يصيب ثيابهم ذلك الصنمان، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾ يعني: من أمور المناسك. ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُناح عَلَيه أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، يعني: لو أصاب ثيا ذلك لا يضره ولا إثم عليه، فخرج عمر فتناول المعول وكسر الصنمين.

قال الفقيه: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا علي بن أحمد قال: حدثنا محمد بن الفضل، عن يعلى بن منبه، عن صالح بن حيان، عن أبي بريدة، عن أبيه قال: دخل جبريل المسجد، فبصر بالنبي ﷺ نائماً في ظل الكعبة فأيقظه فقام وهو ينفض رأسه ولحيته من التراب، فانطلق به نحو باب بني شيبة فلقيهما ميكائيل. فقال جبريل لميكائيل: ما يمنعك أن تصافح النبي ﷺ؟ فقال: أجد من يده ريح نحاس. فقال جبريل للنبي ﷺ أفعلت ذلك؟ وكان النبي ﷺ نسي ذلك ثم ذكر فقال: «**صَدَقَ أَخِي، مَرَرْتُ أَوَّلَ أَمْسِ عَلَى إِساف وَنَائِلَةَ فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى أَحَدِهِما وَقُلْتُ: إِنَّ قَوْماً رَضُوا بِكُمَا آلِهَةً مَعَ الله تعالى لَقَوْمُ سُوءٍ**».

قال صالح: قلت لأبي بريدة: وما أساف ونائلة؟ قال: كانا إنسانين من قريش يطوفان بالكعبة، فوجدا منها خلوة، فراود أحدهما صاحبه، فمسخهما الله تعالى نحاساً، فجاءتهما بهما قريش وقالوا: لولا أن الله رضي بأن نعبد هذين الإنسانين ما مسخهما نحاساً. وأساف كان رجلاً ونائلة كانت امرأة. قال الزجاج: الجناح في اللغة: أخذ من جنح، إذا مال وعدل عن المقصد. وأصل ذلك من جناح الطير.

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً﴾. قرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم العين ﴿يطوَّعْ﴾، لأن الأصل يتطوع أدغمت التاء في الطاء وشددت. وقرأ الباقون ﴿تَطَوَّعَ﴾ على معنى الماضي

Marfat.com

والمراد به الاستقبال، يعني: إذا زاد في الطواف حول البيت على ما هو واجب عليه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ يقبله منهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما نووا وقال القتبي: يطوف أصله يتطوف فأدغمت التاء في الطاء. الجناح. الإثم. ويقال: إن الله شاكر يقبل اليسير ويعطي الجزيل ويقال: إن الله شاكر بقبول أعمالكم ﴿عليم﴾ بالثواب. ويقال: الطواف للغرباء أفضل من الصلاة، لأنهم يقدرون على الصلاة إذا رجعوا إلى منازلهم، ولا يمكنهم الطواف إلا في ذلك الوقت، والله تعالى قد حث على الطواف بقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٦٠)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ﴾ نزلت في شأن رؤساء اليهود، منهم: كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف وابن صُوريا، يقول: يكتمون ما أنزلنا في التوراة من البينات: الحلال والحرام وآية الرجم. ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾، يعني: أمر محمد ﷺ ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابِ﴾، يعني: في التوراة. ويقال: في القرآن ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: يخذلهم ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ﴾، قال ابن عباس: «وذلك أن الكافر إذا وضع في قبره، سئل من ربك وما دينك؟ فيقول: لا أدري. فيقال له: ما دريت فهكذا كنت في الدنيا، ثم يضربه ضربة يسمعها كل شيء إلا الثقلين، فلا يسمع صوته شيء إلا لعنه». فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ﴾ وروي عن ابن مسعود أنه قال: «إذا تلاعن اثنان، فإن كان أحدهما مستحقاً للعنة رجعت اللعنة إليه، وإن لم يكن يستحق أحدهما اللعنة ارتفعت اللعنة إلى السماء، فلم تجد هناك موضعاً فتنحدر فترجع إلى الذي تكلم بها إن كان أهلاً لذلك؛ وإن لم يكن أهلاً لذلك رجعت إلى الكفار»، وفي بعض الروايات: «إلى اليهود»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ﴾.

ثم استثنى التائبين من اللعنة، فقال عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا﴾ من الكفر واليهودية ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم فيما بينهم وبين ربهم. ويقال: معناه وأصلحوا لمن أفسدوا من السفلة، وبينوا صفته في كتبهم. ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: أتجاوز عنهم. ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المتجاوز لمن تاب ورجع، فيقبل توبته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، يعني: ثبتوا على كفرهم حتى ماتوا على ذلك. ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. قال الكلبي: لعنة المؤمنين

Marfat.com

خاصة. وقال بعضهم: يلعنهم جميع الناس، لأن من يخالف دينهم يلعنهم في الدنيا، وأهل دينهم يلعنونهم في الآخرة، كما قال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] ثم قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، يعني: في اللعنة. ولعنته: عذاب النار، يعني: ما توجبه اللعنة. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾، يعني لا يهوّن عليهم طرفة عين. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، يعني لا يؤجلون.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، قال مقاتل: يعني ربكم رب واحد. وقال الضحاك: كان لمشركي مكة ثلاثمائة وستون صنماً يعبدونها من دون الله تعالى، فدعاهم الله تعالى إلى توحيده والإخلاص لعبادته فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لا إله إلا هو﴾. ويقال: نزلت هذه الآية في صنف من المجوس يقال لهم: المانوية فكان رئيسهم يقال له: ماني، فقال لهم: أرى الأشياء زوجين وضدين، مثل الليل والنهار، والنور والظلمة، والحر والبرد، والخير والشر، والسرور والحزن، والذي يصلح للشيء لا يصلح لضده، فمن كان خالق النور والخيرات لا يكون خالق الشر والظلمات؛ فهما اثنان: أحدهما يخلق الشر، والآخر يخلق الخير، فنزلت هذه الآية ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، أي خالقكم خالق واحد، هو خالق الأشياء كلها.

وقوله تعالى: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، وقوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ قال بعض الناس: هذا الكلام نصفه كفر، وهو قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ﴾، ونصفه إيمان وهو قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾. ولكن هذا الكلام غير سديد، لأن الله تعالى أمر رسوله بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فلا يجوز أن يأمرهم بالكفر. وقال بعضهم: النصف الأول منسوخ، والنصف الثاني ناسخ، وهذا أيضاً لا يصح، لأن المنسوخ هو الذي كان مباحاً قبل النسخ، والكفر لم يكن مباحاً أبداً. وأحسن ما قيل فيه: إن قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ نفي معبود الكفار، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إثبات معبود المؤمنين. أو نقول: ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ نفي الألوهية عمن لا يستحق الألوهية، وقوله ﴿إلا الله﴾ إثبات الألوهية لمن يستحق الألوهية. لما نزلت هذه الآية، أنكر المشركون توحيد الله تعالى، وطلبوا منه دليلاً على إثبات وحدانيته. فنزلت هذه الآية:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾، يعني: في خلق السموات والأرض دليل على وحدانيته في أنه خلقها بغير عمد ترونها، وزينها بمصابيح، والأرض أيضاً بسطها وجعل لها

Marfat.com

أوتاداً وهي الجبال وفجر فيها الأنهار، وجعل فيها البحار. ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، يعني: مجيء النهار وذهاب الليل، ومجيء الليل وذهاب النهار. ويقال: نقصان الليل في تمام النهار، ونقصان النهار في تمام الليل. ويقال: اختلافهما في اللون. ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾. يعني: السفن، ويقال للسفينة الواحدة: الفلك ولجماعة السفن: الفلك. يعني السفن التي تسير في البحر، فتقبل مرة وتدبر مرة بريح واحدة، فتسير في البحر ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾من الكسب والتجارة وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن مَّاءٍ﴾، يعني: المطر الذي ينزل من السماء، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾يعني: اخضرت الأرض بعد يبسها ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾، يقول: خلق في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي: ﴿الرِّيحِ﴾بغير ألف وقرأ الباقون بألف. واختار أبو عبيدة في قراءته: أن كل ما في القرآن من ذكر العذاب، الريح بغير ألف، وكل ما في القرآن من ذكر الرحمة: الرياح بالألف، واحتج بما روى أنس عن النبي ﷺ أنه كان إذا هاجت الريح قال: «اللَّهُمَّ ٱجْعَلْهَا رِيَاحاً وَلاَ تَجْعَلْهَا رِيحاً».

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾يعني: هبوب الرياح مرة جنوباً ومرة شمالاً، ومرة صباً، ومرة دبوراً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾، يعني: المذلل والمطوع، ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، يعني: في هذه الأشياء التي ذكرت في هذه الآية، آيات لوحدانيته لمن كان له عقل وتميز. ويقال: هذه الآية تجمع أصول التوحيد، وقد بيّن فيها دلائل وحدانيته، لأن الأمر لو كان بتدبير اثنين يختلفان في التدبير، لفسد الأمر باختلافهما. كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾، يعني: بعض الناس وصفوا لله شركاء وأعدالاً وهي الأوثان.

وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، قال بعضهم: يحبون الأوثان كحبهم لله تعالى، لأنهم كانوا يقرون بالله تعالى. وقال بعضهم: معناه، يحبون الأوثان كحب المؤمنين لله تعالى.

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾، لأن الكفار يعبدون أوثانهم في حال الرخاء، فإذا أصابتهم شدة تركوا عبادتها؛ والمؤمنون يعبدون الله تعالى في حال الرخاء والشدة، فهذا معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾. فإن قيل: إذا كان المؤمنون أشد حباً لله، فما معنى قوله: ﴿يحبونهم كحب الله﴾؟ قيل له: يحتمل أن بعض المؤمنين حبهم مثل حبهم، وبعضهم أشد حباً لله، وفي أول الآية ذكر بعض المؤمنين الذين حبهم مثل حبّ الكفار، وفي آخر الآية ذكر المؤمنين الذين هم أشد حباً لله. والحب لله أن يطيعوه في أمره وينتهوا عن نهيه، فكل من كان أطوع لله فهو أشد حباً له. كما قال القائل:

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ثم قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ يا محمد. ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، يعني: حين يرون العذاب. ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾، وفي الآية مضمر ومعناها: لو رأيت يا محمد الذين ظلموا في العذاب، لرأيت أمراً عظيماً؛ كما تقول: لو رأيت فلاناً تحت السياط فتستغني عن الجواب، لأن المعنى مفهوم. فكذلك هاهنا لم يذكر الجواب، لأن المعنى معلوم. قرأ نافع وابن عامر: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ بالتاء عبدة الأوثان اليوم ما يرون يوم القيامة، أن الأوثان لا تنفعهم شيئاً وأن القوة لله جميعاً، تركوا عبادتها. وقرأ ابن عامر ﴿إِذْ يُرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ بضم الياء على معنى فعل ما لم يسمَّ فاعله وقرأ الباقون بنصب الياء على معنى الخبر عنهم. وقرأ الحسن وقتادة: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ للهِ﴾ على معنى الابتداء، وقرأ العامة: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ﴾ بالنصب على معنى البناء، يعني: بأن القوة لله.

وقوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، يعني: للرؤساء والاتباع من أهل الأوثان.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا﴾، يعني: القادة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾ وهم السفلة ﴿وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾، أي: حين رأوا العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، يعني: العهود والحلف التي كانت في الدنيا بينهم. وقال القتبي: ﴿الأسباب﴾ يعني الأسباب التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا. وقال بعضهم: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾، أي الخلّة والمواصلة، كما قال في آية أخرى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]؛ ويقال: الأرحام والمودة التي كانوا يتواصلون بها فيما بينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾، أي السفلة: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾، يعني: رجعة إلى الدنيا، وذلك أن الرؤساء لما تبرؤوا منهم ولا ينفعونهم شيئاً، ندمت السفلة على اتباعهم في الدنيا ويقولون في أنفسهم: ﴿لو أن لنا كرة﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾، من القادة ﴿كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا﴾.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ لأنهم يرون أعمالهم غير مقبولة، لأنها كانت لغير وجه الله تعالى، فيكون ذلك حسرة عليهم.

Marfat.com

وقوله تعالى: ﴿وما هُمْ بخارجين منَ ٱلنَارِ﴾، يعني: التابع والمتبوع، والعابد والمعبود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها ٱلنَاسُ كُلوا ممَّا في ٱلأرضِ حلالاً طَيباً﴾، وذلك أن قوماً من العرب مثل بني عامر وبني مدلج وخزاعة وغيرهم، حرموا على أنفسهم أشياء مما أحل الله عليهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة وغير ذلك، فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿يا أيها النَاسُ كُلوا ممَّا في الأرضِ حلالاً طَيباً﴾ من الحرث والأنعام، و ﴿حلالاً﴾ نصب على الحال. ﴿ولا تتَبِعوا خُطُوات ٱلشَيطانِ﴾، يعني: طاعات الشيطان. وقال مقاتل: يعني تزيين الشيطان. ويقال: وساوس الشيطان. وقال القتبي: الخطوات جمع الخطوة. وقال الزجاج: خطواته أي طرقه، ومعناه: لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان ﴿إنَهُ لكُمْ عَدوٌ مُبينٌ﴾، يعني: ظاهر العداوة.

قوله تعالى: ﴿إنَما يأمُرُكُمْ بٱلسُوءِ وٱلفَحشاءِ﴾، يعني: بالإثم والقبيح من العمل. ويقال: السوء الذي يجب به الحبس والحساب، ﴿والفحشاء﴾: الذي يستوجب بها العقوبة في النار. ويقال ﴿بالسوء﴾ الذي يجب به التعزير في الدنيا، ﴿والفحشاء﴾ الذي يجب به الحد. ﴿وأن تقولوا على ٱلله ما لا تعْلمُونَ﴾، يعني: الشيطان يأمركم بأن تكذبوا على الله، لأنهم كانوا يقولون: هذه الأشياء حرَّمها الله تعالى علينا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وإذا قيل لَهُمُ ٱتبعُوا ما أنزَلَ ٱللهُ﴾، يعني: اعملوا بما أنزل الله في القرآن، وهو من تحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرم الله. ﴿قالوا بلْ نتَبعُ ما ألفينا عَلَيهِ آباءَنا﴾، يعني: ما وجدنا عليه آباءنا. قال الله تعالى: ﴿أولوْ كانَ آباؤهُمْ لا يَعْقِلونَ شيْئاً ولا يَهْتَدُونَ﴾، معناه: اتبعوا آباءهم وإن كانوا جهالاً فيتابعونهم بغير حجة، فكأنه نهاهم عن التقليد وأمرهم بالتمسك بالحجة. وهذه الواو مفتوحة وهي واو: ﴿أولو﴾ لأنها واو العطف أدخلت عليها ألف التوبيخ وهي ألف الاستفهام.

قرأ أبو عمرو ومن تابعه من أهل البصرة: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٦٧] بكسر الهاء والميم، وكذلك في كل موضع تكون الهاء والميم بعدهما الألف واللام. مثل قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [البقرة: ٦١] ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣]. وكان عاصم وابن عامر ونافع وابن كثير يقرؤون بكسر الهاء وضم الميم. وكان حمزة والكسائي يقرآن: بضم الهاء والميم. وكان ابن كثير يقرأ: ﴿إنَهُ لكُمْ عَدوٌ مُبينٌ﴾ بضم الميم، وكذلك ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾؛ وكذلك كل ميم

Marfat.com

ونحو هذا مثل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة: ٧]، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾[البقرة: ٧]. وكان نافع في رواية ورش عنه يقرأ: سكون الميم، إلا أن يستقبله ألف أصلية فيضم الميم مثل قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾[البقرة: ٦ ويس: ١٠] ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾[الكهف: ٢١]، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[نوح: ١٤]. وكان حمزة والكسائي يقرآن بسكون الميم، إلا أن يستقبله ألف ولام مثل قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾[البقرة: ٦١].

وأما قوله: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[البقرة: ١٦٨ وغيرها] قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر ﴿خُطْوَاتِ﴾ بجزم الطاء. وقرأ الكسائي وابن كثير وعاصم في رواية حفص: ﴿خُطُوَاتِ﴾ بضم الطاء؛ وهما لغتان ومعناهما واحد.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾. فهذا مثل ضرب الله تعالى لأهل الكفر، إنهم مثل البهائم لا يعقلون شيئاً سوى ما يسمعون من النداء. وفي الآية إضمار ومعناه: مثلك يا محمد مع الكفار، ﴿كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾ وهذا قول الزجاج. وقال القتبي: قال الفراء: ومثل واعظ الذين كفروا، فحذف ذكر الواعظ. كما قال تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢]. وقال القتبي أيضاً: ﴿مثل الذين كَفَرُوا﴾، يعني: ومثلنا في وعظهم، فحذف اختصاراً إذ كان في الكلام ما يدل عليه، ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعَقُ﴾، يعني: الراعي إذا صاح بالغنم لا يسمع إلا دعاة ونداة فحسب، ولا تفهم قولاً ولا يحسن جواباً، فكذلك الكافر لا يعقل المواعظ. ﴿صُمٌّ﴾ عن الخير فهم لا يسمعون ﴿بُكْمٌ﴾، يعني: خرساً لا يتكلمون بالحق ﴿عُمْيٌ﴾ لا يبصرون الهدى. ويقال: كلّهم صم، لأنهم يتصاممون عن سماع الحق. ﴿فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ الهدى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، يعني من الحلال، من الحرث والأنعام. ﴿وَاشْكُرُوا لله إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، يعني: إن كنتم تريدون بترك أكله رضى الله تعالى فكلوه، فإن رضى الله تعالى أن تحلوا حلاله وتحرموا حرامه. ويقال: إن محرّم ما أحل الله مثل محل ما حرم الله. ويقال: في الآيتين بيان فضل هذه الأمة، لأنه تعالى خاطبهم بما خاطب به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام لأنه قال لأنبيائه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾

Marfat.com

[المؤمنون: ٥١] وقال لهذه الأمة ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وقال في الآية الأولى: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]. فلما أمر الله تعالى بأكل هذه الأشياء التي كانوا يحرمونها على أنفسهم. قالوا للنبي ﷺ: إن لم يكن هذه الأشياء محرمة فالمحرمات ما هي؟ فبيّن الله تعالى المحرمات، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ وهي الدابة التي تموت من غير ذكاة سوى السمك والجراد، ﴿والدم﴾ يعني: الدم المسفوح أي الجاري. كما قال في آية أخرى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] ﴿ولحم الخنزير﴾ يعني: حرم عليكم لحم الخنزير، فذكر اللحم خاصة والمراد به: اللحم والشحم وجميع أجزائه. وهذا شيء قد أجمع المسلمون عليه فقد ذكر الميتة وإنما انصرف إلى بعض منها وأحل البعض منها وهو السمك والجراد، وذكر الدم وإنما المراد به بعض الدم، لأنه لم يدخل فيه الطحال والكبد؛ وذكر لحم الخنزير فانصرف النهي إلى اللحم وغيره. ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني: ما ذبح لغير اسم الله تعالى. والإهلال في اللغة: هو رفع الصوت. فكان أهل الجاهلية إذا ذبحوا، رفعوا الصوت بذكر آلهتهم، فحرم الله تعالى على المؤمنين أكل ما ذبح لغير اسم الله تعالى. وفي الآية دليل: أنه إذا ترك التسمية عمداً لا يؤكل، لأنه قد ذبح بغير اسم الله تعالى.

ثم إن الله تعالى علم أن بعض الناس يبتلون بأكل الميتة عند الضرورة، فرخص لهم في ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ قرأ حمزة وعاصم وأبو عمرو: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ بكسر النون وقرأ الباقون بالضم؛ وهما لغتان ومعناهما واحد. يقول: فمن أجهد إلى شيء مما حرم الله من أكل الميتة ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ وقال بعضهم: يعني غير مفارق الجماعة ﴿ولا عاد﴾ على المسلمين بالسيف؛ فمَن خرج لقطع الطريق، أو خرج على إمام المسلمين بالسيف لا رخصة له عند بعضهم. وقال الشافعي: من خرج في معصية فلا رخصة له. وقال بعضهم: كل من اضطر إلى أكل الميتة رخص له أن يأكل سواء خرج للمعصية أو غيرها. وهذا قول أصحابنا. ومعنى قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ يعني: غير طالب للحرام ولا راضٍ بأكله. ﴿ولا عاد﴾ يعني: لا يعود إلى أكله بعدما أكل مقدار ما يسدُّ به رمقه.

وروي عن ابن عباس نحو هذا. قال: حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعيد الترمذي قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمي قال: حدثنا عبد الله بن أبي صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: «من أكل شيئاً من هذه الأشياء وهو مضطر، فلا حرج عليه؛ ومن أكله وهو غيرُ مضطر، فقد بغى واعتدى»[1].

وقوله تعالى: ﴿فمن اضطرَ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم﴾ ثم اختلفوا

---

(١) عزاه السيوطي: ١/ ٤٠٧ إلى ابن أبي حاتم.

Marfat.com

في حد الاضطرار الذي يحل له الميتة. قال بعضهم: إذا كان بحال يخاف على نفسه التلف وهو قول الشافعي. وروي عن ابن المبارك أنه قال: إذا كان بحال لو دخل السوق لا ينظر إلى شيء سوى الخبز. وقال بعضهم: إذا كان بحال يضعفه عن أداء الفرائض.

وقد اختلفوا أيضاً في أكله: قال بعضهم: أكله حرام، إلا أنه كما قال تعالى: ﴿فلا إثم عليه﴾ ألا ترى أنه قال في سياق الآية ﴿إن الله غفور رحيم﴾. وقال بعضهم: هو حلال ولا يسعه تركه، لأنه قال في آية أخرى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[الأنعام: ١١٩]، فلما استثنى منه ثبت أنه حلال. وروي عن مسروق أنه قال: «من اضطر إلى ميتة فلم يأكل حتى مات، دخل من النار».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾، نزلت في رؤساء اليهود، كانوا يرجون أن يكون النبي عليه السلام منهم، فلما كان من غيرهم خشوا بأن تذهب منافعهم من السفلة، فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ فغيّروها. وقال بعضهم: غيروا تأويلها فنزلت هذه الآية: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾، يعني: في التوراة بكتمان نعت محمد ﷺ ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾، يعني: يختارون به عرضاً يسيراً من منافع الدنيا. ﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾، يعني: يأكلون الحرام. وإنما سمي الحرام ناراً، لأنه يستوجب به النار، كما قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾، أي لا يكلمهم بكلام الخير، لأنه يكلمهم بكلام العذاب حيث قال: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[المؤمنون: ١٠٨]، ﴿وَلا يُزَكِّيهِمْ﴾، يعني: ولا يطهرهم من الأعمال الخبيثة السيئة. وقال الزجاج: ﴿ولا يزكيهم﴾ أي لا يثني عليهم خيراً، ومن لا يثني عليه الخير فهو يعذبه؛ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي وجيع، يعني: الذين يكتمرن ما أنزل الله من الكتاب، وكذلك كل من كان عنده علم فاحتاج الناس إلى ذلك فكتمه، فهو من أهل هذه الآية. وهذا كما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً أعطاه الله تعالى، أُلْجِمَ بلجَامٍ مِنْ نَارٍ»(١).

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد: ٢/٢٦٣، ٣٠٥ وأبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه =

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾، يعني: رؤساء اليهود ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، يعني: اختاروا الكفر على الإيمان ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾، يعني: اختاروا النار على الجنة، ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، يقول: فما الذي أجرأهم على فعل أهل النار؟ ويقال: معناه فما أبقاهم في النار؟ كما يقال: فما أصبر فلاناً على الحبس: أي أبقاه ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي ذلك العذاب ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي القرآن بالحق، يعني: بالعدل. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: في القرآن ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: في ضلال بيِّن. ويقال: معناه أن الله تعالى أنزل القرآن على محمد ﷺ بالعدل، فتركوا اتباعه وخالفوه فاستوجبوا بذلك العذاب. ويقال: ﴿لفي شقاق بعيد﴾، يعني: في خلاف بعيد من الحق. وذكر عن قتادة أنه قال: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: فما أجرأهم على العمل الذي يقرّبهم إلى النار. وروي عن مجاهد أنه قال: ما أعملهم بعمل أهل النار، ويريد: ما أدومهم على أعمال أهل النار. وقال أبو عبيدة: ما الذي صيرهم ودعاهم إلى النار؟

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿لَيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ بنصب الراء على معنى خبر ليس. وقرأ الباقون: بالرفع على معنى اسم ليس. من قرأ بالرفع فهو الظاهر في العربية، لأن ليس يرفع الاسم الذي بعده بمنزلة كان؛ وأما من قرأ بالنصب، فإنه يجعل الاسم ما بعده ويجعل ﴿البر﴾ خبره. وقرأ نافع وابن عامر ﴿وَلَٰكِنِ ٱلْبِرُّ﴾ بكسر النون وضم الراء، وقرأ الباقون: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ بنصب النون مشددة وبنصب الراء. قال مقاتل: في قوله: ﴿لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾، يعني: ليس البر أن تحولوا وجوهكم في الصلاة ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ فلا تعملوا غير ذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾، يعني: صدق بالله بأنه واحد لا شريك له. ويقال: معناه ليس البر كله في الصلاة، ولكن البر ما ذكر في هذه الآية من العبادات. ثم اختلفوا في معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بالله﴾. قال بعضهم: معناه ولكن ذو البر من آمن بالله. وقال بعضهم: معناه ولكن البِرّ بِرُّ من آمن بالله، وكلا المعنيين

= (٢٦١) والطيالسي (٢٥٣). وعند الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو: ١٠٢/١ ووافقه الذهبي على تصحيحه والبغوي (١٤٠).

Marfat.com

ذكرهما الزجاج في كتابه. وقال بعضهم: ﴿ليس البرُّ﴾ أي: ليس البارُّ من يولي وجهه إلى المشرق والمغرب، ولكن البار من آمن بالله.

ثم ذكر في هذه الآية خمسة أشياء وهي من الإيمان، فمن لم يقر بواحدة منها فقد كفر. أحدها: الإيمان بالله تعالى أنه واحد لا شريك له، وصدَّق باليوم الآخر، وبالبعث الذي فيه جزاء الأعمال، وأنه كائن، وأن أهل الثواب يصلون إلى الثواب، وأهل العقاب يصلون إلى العقاب، وصدَّق بالكتاب أنه منزل من الله تعالى يعني: القرآن وسائر الكتب: التوراة والإنجيل والزبور، ويقر بالملائكة أنهم عباده، ويقر بالنبيين أنهم رسله وأنبياؤه، فهذه الخمسةُ من الإيمان فمن جحد واحدة منها فقد كفر.

ثم ذكر الفضائل فقال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، يعني: يعطي المال على شهوته وجوعه وهو صحيح شحيح يخشى الفقر، ويؤمّل العيش. ويقال: ﴿على حبه﴾ الإعْطاء بطيبة من نفسه، يعطي ﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، يعني: الضيف النازل ﴿وَٱلسَّائِلِينَ﴾ الذين يسألون الناس ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، يعني المكاتبين. وقد قيل: ﴿وابن السبيل﴾ هو المنقطع من ماله.

ثم ذكر الفرائض فقال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ﴾ المكتوبة، ﴿وَآتَى ٱلزَّكَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ فيما بينهم وبين الله تعالى، وفيما بينهم وبين الناس. ﴿وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾. قال القتبي: ﴿البأساء﴾ الفقر وهو من البؤس، ﴿والضراء﴾ المرض والزمانة. ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾، يعني يصبرون عند الحرب. وقال القتبي: ﴿البأس﴾ الشدة ومنه يقال: لا بأس عليك يعني لا شدة عليك يقال: فلهذا سمي الحرب البأس، لأن فيه شدة.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا﴾ يعني: صدقوا في إيمانهم، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن نقض العهد.

فإن قيل: أيش معنى قوله: ﴿وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ﴾ وموضعه موضع رفع، ولم يقل: والصابرون؟ قيل له: قد قال بعض من تعسف في كلامه: إن هذا غلط الكاتب حين كتبوا مصحف الإمام، والدليل على ذلك ما روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه نظر في المصحف فقال: أرى فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها وهكذا قال في سورة النساء: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢] وفي سورة المائدة ﴿وَٱلصَّابِئُونَ﴾. لكن الجواب عند أهل العلم أن يقال: إنما صار نصباً للمدح والكلام يصير نصباً على المدح أو الذم. ألا ترى إلى قول القائل:

نَحْنُ بَنِي ضَبَّةَ أَصْحَابُ الجَمَلْ
نُنَازِلُ المَوتَ إذِ المَوتُ نَزَلْ

Marfat.com

والموتُ أشهى عندنا من العسلِ(١)

وإنما جعله نصباً للمدح. وكان سبيله: نحنُ بنو ضبّة، إلا أنه لمّا جاء الكلام على سبيل المدح نصبه، وأراد بالجمل: حرب الجمل والضّبة: اسم قبيلة وهم الذين شهدوا معركة الجمل. وروي عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن البر فنزلت هذه الآية: ﴿لَيسَ البِرَّ أن تُولُّوا وُجُوهَكُم﴾ إلى آخر الآية. وقال الضحاك ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ يعني: صدقت نياتهم فاستقامت قلوبهم بأعمالهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، يعني المطيعين لله تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾، يعني: فرض عليكم، وأوجب عليكم القصاص. فإن قيل: الفرض على من يكون؟ على الوليّ أو على غيره؟ قيل له: الفرض على القاضي إذا اختصموا إليه، بأن يقضي على القاتل بالقصاص إذا طلب الولي، لأن الله تعالى قد خاطب جميع المؤمنين بالقصاص؛ ثم لا يتهيأ للمؤمنين ولا يمكنهم جميعاً أن يجتمعوا على القصاص فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص، فخاطب الولي بالقصاص، وخاطب غيره بأن يعين الولي على ذلك. وهو قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾، أي: فرض عليكم إذا كان القتل عمداً.

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾. قال بعضهم: كان في أول الشريعة، أن الحر يقتل بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، ولا يقتل الحر بالعبد ولا العبد بالحر، ولا الذكر بالأنثى ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[المائدة: ٤٥]. وقال بعضهم: هي غير منسوخة، لأنه قد ذكر هذه الآية: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ ولم يذكر في هذه الآية: أن العبد لو قتل حراً ما حكمه، فبيّن في آية أخرى وهو قوله: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾. وقال ابن عباس: «نزلت هذه الآية في حيين من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية، فكانت بينهم قتلى وجراحات، وكان لأحدهما طول على الآخر فقالوا: لنقتلن بالعبد منا الحر منكم، وبالمرأة الرجل منكم، وبالرجل منا الرجلين منكم، فلما جاء الإسلام طلب بعضهم من بعض ذلك، فنزلت هذه الآية»: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، يعني: ترك ولي المقتول من أخيه، يعني: القاتل ولم يقتله وأخذ الدية. ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾، يعني: يطلب الدية بالرفق ولا يعسر عليه،

(١) البيتان: الثاني والثالث، ساقطان من النسخة «ب».

Marfat.com

وأمر المطلوب بأن يؤدي الدية إلى الطالب لقوله: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾. وقال القتبي ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾قال: قبول الدية في العمد والعفو عن الدم. وقوله ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي مطالبة جميلة ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾لا يبخسه ولا يماطله ولا يدفعه، ويقال: معناه إذا عفا أحد وليّ القصاص صار نصيب الآخر مالاً فيتبعه بالمعروف، والقاتل يؤدّي إليه نصيبه بإحسان.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو وليس لهم قود ولا دية، فجعل الله تعالى القصاص والديَة والعفو تخفيفاً لهذه الأمة: فمن شاء قتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا. وقد قال بعض الناس: إن الولي إن شاء قتل، وإن شاء أخذ الدية، وإن لم يرض القاتل، وهو قول الشافعي رحمه الله، وقال أصحابنا: ليس له أن يأخذ الدية إلا برضا القاتل. وليس في هذه الآية دليل، أن له أن يأخذ الدية بكره منه، وفيه دليل: أن له أن يقبل الدية ومعناه عند أصحابنا: أن له الدية إذا رضي القاتل وَاصْطَلَحا على ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني: أن يقتل بعد ما أخذ الدية ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾أي: وجيع. وقال قتادة: يقتل ولا يقبل منه الدية إذا اعتدى، واحتج بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أَعْفِي عَنْ أَحَدٍ قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَةِ»[1]. ولكن معناه عندنا: أنه إذا طلب الولي القتل، فأما إذا عفا عنه الثاني وتركه جاز عفوه، لأنه قتل بغير حق، فصار حكمه حكم القاتل الأول، لأنه لو عفي عنه لجاز ذلك، فكذلك الثاني.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾أي: بقاء،. لأن الناس يعتبرون بالقصاص فيمتنعون عن القتل. وهذا كما قال القائل:

أَبْلِغْ أَبَا مَالِكٍ عَنِّي مُغَلْغَلَةً ... وَفِي العِقَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَقْوَام

وهذا معنى قوله: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ ﴿يا أولي الألبابِ﴾ يعني: يا ذوي العقول. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾أي: القتل مخافة القصاص.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فرض عليكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾يقول: أي ترك مالاً، والخير في القرآن على وجوه، أحدها: المال كقوله: ﴿إِن تَرَكَ

---

(1) حديث جابر: أخرجه أبو داود في الديات (٤٥٠٧) وأحمد: ٣/ ٣٦٢.

Marfat.com

خير﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿ومَآ أنفقتم مِّن خيرٍ﴾[البقرة: ٢٧٢] أي المال. والثاني: الإيمان كقوله تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيرا﴾[الأنفال: ٢٣] يعني: إيماناً، وقوله: ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً﴾[هود: ٣١]. والثالث: الفضل كقوله تعالى: ﴿وأنت خير الرٰحمين﴾ ﴿ وأنت خير الحاكمين﴾ [المؤمنون: ١٠٩ و١١٨]. والرابع: العافية كقوله تعالى: ﴿وإن يمسسك بخير﴾[الأنعام: ١٧] ﴿وإن يردك بخير﴾[يونس: ١٠٧]. والخامس: الأجر، كقوله تعالى: ﴿لكم فيها خير﴾[الحج: ٣٦] أي أجر.

وقال بعضهم: الوصية واجبة على كل مسلم، لأن الله تعالى قال: ﴿كتب عليكم﴾، أي: فرض عليكم الوصية. وروي عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا حَقُّ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَبِيتُ لَيْلَةً وَعِنْدَهُ مَالٌ يُوصِي بِهِ، إلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ»(١) وقال بعضهم: هي مباحة وليست بواجبة. وقد روي عن الشعبي أنه قال: «الوصية ليست بواجبة فمن شاء أوصى ومن شاء لم يوص». وقال إبراهيم النخعي: مات رسول الله ﷺ ولم يوص، وقد أوصى أبو بكر رضي الله عنه، فإن أوصى فحسن، وإن لم يوص فليس عليه شيء. وقال بعضهم: إن كان عليه حج أو كفارة أو شيء من الكفارات فالوصية واجبة، وإن لم يكن عليه شيء من الواجبات فهو بالخيار: إن شاء أوصى، وإن شاء لم يوص. وبهذا القول نأخذ.

ثم بيّن موضع الوصية فقال تعالى: ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾. وقال مجاهد: كان الميراث للولد والوصية للوالدين والأقربين، فصارت الوصية للوالدين منسوخة. وروى جويبر، عن الضحاك أنه قال: نسخت الوصية للوالدين والأقربين ممّن يرث، وبقيت الوصية لمن لا يرث من القرابة. ويقال: في الآية تقديم وتأخير، ومعناه: كتب عليكم الوصية للوالدين والأقربين إذا حضر أحدكم الموت. وكانوا يوصون للأجنبيين ولم يوصوا للقرابة شيئاً، فأمرهم الله تعالى بالوصية للوالدين والأقربين، ثم نسخت الوصية للوالدين بآية الميراث في قوله: ﴿حقاً على المتقين﴾، يعني: واجباً على المتقين.

قوله تعالى: ﴿فمن بدله بعد ما سمعه﴾، يعني: غيره بعدما سمع الوصية؛ ﴿فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾، يعني: وزره على الذين يغيرونه لا على الموصي، لأن الموصي قد فعل ما عليه. ﴿إن الله سميع﴾ بالوصية ﴿عليم﴾ بثوابها وبجزاء من غير الوصية.

قوله تعالى: ﴿فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً﴾، أي علم من الموصي الجنف وهو الميل عن الحق ﴿فلا إثم عليه﴾، إذا غيّر وصيّته فردها إلى الحق، لأن تبديله كان للإصلاح ولم

---

(١) حديث ابن عمر: أخرجه مالك ٢/ ٧٦١ والبخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧) والترمذي (٩٧٤) وأبو داود (٢٨٦٢) والنسائي: ٦/ ٢٣٨ وابن ماجة (٢٦٩٩) وأحمد: ٢/ ٥٧، ٨٠ والبيهقي: ٦/ ٢٧٢ والبغوي (١٤٥٧).

Marfat.com

يكن للجور. وقال الكلبي: ﴿فمن خاف من موص جنفاً﴾، يعني: علم من الميت الخطأ في الوصية، ﴿أَوْ إِثْماً﴾، يعني تعمداً للجور في وصيته فزاد على الثلث؛ ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: رد ما زاد على الثلث ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. هكذا قال مقاتل. وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «الإضرار في الوصية من الكبائر».

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍّ جنفاً﴾ بنصب الواو وتشديد الصاد، وقرأ الباقون: بسكون الواو وتخفيف الصاد. فمن قرأ بالنصب والتشديد، فهو من وصّى يوصّي، ومن قرأ بالتخفيف، فهو من أوصى يوصي. وهما لغتان ومعناهما واحد ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، معناه: ﴿غفور﴾ لمن جنف ﴿رحيم﴾ لمن أصلح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا كُتب عليكُمْ الصيامُ﴾، يعني: فرض عليكم صيام شهر رمضان، ﴿كما كُتب على الَّذِينَ مِن قبلِكُمْ﴾، يعني: فرض على الذين من قبلكم من أهل الملل. ﴿لعلَّكُم تتقونَ﴾ الأكل والشرب والجماع بعد صلاة العشاء الأخيرة وبعد النوم. ويقال: كما كتب في الذين من قبلكم في الفرض. ويقال: كما كتب على الذين من قبلكم في العدد ﴿أيَّاماً مَعْدُوداتٍ﴾، أي: معلومات، وإنما صارت الأيام نصباً لنزع الخافض، ومعناه: في أيام معدودات. وقال مقاتل: كل شيء في القرآن معدودة أو معدودات فهو دون الأربعين، وما زاد على ذلك لا يقال معدودة.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَن كانَ مِنكُم مَرِيضاً﴾، فلم يقدر على الصوم ﴿أو على سفرٍ﴾، فلم يصم في سفره. ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أيّام أخر﴾، أي: فعليه أن يقضيها بعد مضي الشهر مثل عدد الأيام التي فاتته. ﴿وعلى الَّذِينَ يُطيقُونَهُ﴾، يعني: يطيقون الصوم ﴿فدْيَةٌ طعامُ مسكينٍ﴾، يعني: يدفع لكل مسكين مقدار نصف صاع من حنطة ويفطر ذلك اليوم. ﴿فَمَنْ تطوَّعَ خيراً﴾، فتصدق على مسكينين مكان كل يوم يفطره، ﴿فهُوَ خيرٌ لهُ﴾ من أن يطعم مسكيناً واحداً، والصيام خير له من الإفطار وهو قوله: ﴿وأن تَصُومُوا خيرٌ لَكُمْ﴾ من أن وتطعموا وتفطروا. قال الكلبي: ثم نسخت

Marfat.com

هذه الآية بالآية التي بعدها، وهكذا قال القتبي، وهكذا روي عن سلمة بن الأكوع أنه قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، من أراد أن يفطر ويفدي فعل، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وقال الشعبي: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، كان الأغنياء يطعمون ويفطرون ولا يصومون، وصار الصوم على الفقراء، فنسختها هذه الآية ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فوجب الصوم على الغني والفقير، وقال بعضهم: ليست بمنسوخة، وإنما نزلت في الشيخ الكبير. وروي عن عائشة أنها كانت تقرأ: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوَّقُونَهُ»، يعني: يكلفون فلا يطيقونه. وروي عطاء، عن ابن عباس أنه قال: «ليست بمنسوخة وإنما هي الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة اللذان لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان كل يوم مسكيناً».

قرأ نافع وابن عامر ﴿فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَٰكِينَ﴾ بضم الهاء وكسر الميم بألف: على الإضافة. وقرأ الباقون بتنوين الهاء ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ﴾ بضم الميم ﴿مسكين﴾ بغير ألف.

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، قرأ بعضهم: ﴿شهرَ رمضان﴾ قرأ عاصم في رواية حفص ﴿شهرَ﴾ بفتح الراء وقرأ الباقون: ﴿شهرُ﴾ بالضم. وإنما صار رفعاً لمعنيين: أحدهما أنه مفعول ما لم يسم فاعله، يقول: كتب عليكم شهر رمضان، ومعنى آخر: أنه خبر الابتداء يعني: هذا شهر رمضان. ومن قرأ بالنصب احتمل أنه صار نصباً لوقوع الفعل عليه، أي صوموا شهر رمضان؛ ويقال: إنه لنزع الخافض، أي: في شهر رمضان. ويحتمل: عليكم شهر رمضان. كقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، قرأ ابن كثير ﴿القُرَانُ﴾ بالتخفيف وقرأ الباقون: بالهمزة، وقال ابن عباس في معنى قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، يعني: أنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى الكتبة في سماء الدنيا، ثم أنزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ نجوماً نجوماً، أي الآية والآيتين في أوقات مختلفة؛ أنزل عليه في إحدى وعشرين سنة. وقال مقاتل: أنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ كل عام في ليلة القدر إلى سماء الدنيا، نزل إلى السفرة من اللوح المحفوظ في عشرين شهراً، ونزل فيه جبريل في عشرين سنة.

حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا الفضل بن دكين[1]، عن سفيان الثوري، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة قال: «أنزلت التوراة في ثنتي عشرة ليلة مضت من رمضان، والإنجيل في ثمانية عشرة، والقرآن في أربعة وعشرين».

قال الفقيه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم القطان قال: حدثنا محمد بن صالح الترمذي قال:

---

(١) في نسخة «ب» حدثنا محمد بن الفضل العابد قال: حدثنا الفضل بن دكين.

Marfat.com

حدثنا سويد بن نصر قال: حدثنا عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ قال: «أنزل القرآن جملة واحدة على جبريل في ليلة القدر». قال ابن جريج: كان ينزل من القرآن في ليلة القدر كل شيء ينزل في تلك السنة. فينزل ذلك من السماء السابعة على جبريل في سماء الدنيا، ولا ينزل جبريل من ذلك على محمد ﷺ إلا كلما أمر به ربه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن هدى للناس من الضلالة وبياناً لهم. ﴿وبيّنات مِنَ الْهُدَىٰ﴾، يعني: بيان الحلال والحرام ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾، يعني: المخرج من الشبهات ﴿فمن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، يعني: من كان منكم شاهداً ولم يكن مريضاً ولا مسافراً فليصم الشهر. ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ فأفطر، ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يقضيه بعد ذلك. روي عن عبد الله بن عمر: «أنه كان يكره قضاء رمضان متفرقاً». وعن علي بن أبي طالب مثله. وقال معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح وجماعة من الصحابة: «أحص العدد وصم كيف شئت». واختلفوا في حدّ المريض الذي يجوز له الإفطار: قال بعضهم: إذا كان بحال يخاف على نفسه التلف، وقال بعضهم: إذا استحق اسم المريض جاز له الإفطار، وقال بعضهم: إذا كان بحال يخاف أن يزيد الصوم في مرضه، جاز له أن يفطر، وهذا قول أصحابنا.

ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ يعني: في الإفطار في حال المرض والسفر، ﴿ولا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ يعني: بالصوم في المرض والسفر. ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾، قال الكلبي: يعني لتتموا عدة ما أفطرتم من الصوم في السفر أو في المرض. وقال الضحاك: ﴿وَلِتُكْمِلُوا العِدّةَ﴾، يعني: إذا غمّ عليكم هلال شوال فأكملوا الشهر ثلاثين يوماً. قرأ عاصم في رواية أبي بكر وأبو عمرو في رواية هارون: «وَلِتُكَمِّلُوا»؛ بنصب الكاف وتشديد الميم، وقرأ الباقون بالتخفيف وسكون الكاف؛ وهما لغتان يقال: كملت الشيء وأكملته مثل وصّيت وأوصيت ثم قال: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾، يعني: لتعظموا الله على ما هداكم الشريعة وسننه وأمر دينه وقيل: تعظيم الله والثناء عليه، وقيل: هو تكبير يوم الفطر، وقيل: هذا التكبير للإهلال. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله تعالى على هذه النعمة حيث رخص لكم الفطر في المرض والسفر. وقال مقاتل: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ هذه النعم، أن هداكم لأمر دينه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ

Marfat.com

مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾؛ وذلك أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، قال أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، في أي وقت ندعو الله حتى يستجاب دعاؤنا؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، يعني: أجيبكم في أي وقت تدعونني. وقال بعضهم: سأله بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. وقال مقاتل: «إن عمر واقع امرأته بعدما صلى العشاء، فندم على ذلك فبكى وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ورجع من عنده مغتماً، وكان ذلك قبل الرخصة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم في إحدى الروايتين: ﴿دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾ بالياء كليهما وقرأ الباقون كليهما بحذف الياء. وأصله بالياء، إلا أن الكسر يقوم مقام الياء. ويقال: فإني قريب في الإجابة، أجيب دعوة الداعي إذا دعاني.

ثم قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ الاستجابة بالطاعة، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ وليصدقوا بوعدي. وقال ابن عباس في رواية الكلبي: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ «الاستجابة أن تقولوا بعد صلاتكم: «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك». ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ والإيمان أن تقول: آمنت بالله وكفرت بالطاغوت، وأن وعدك حق لقاءك حق، وأشهد أنك أحد فرد، لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنك باعث من في القبور». وروي عن ابن عباس أنه قال: «ما تَرَكْتُ هذه الكلمات دبر كل صلاة منذ نزلت هذه الآية». وروي عن الكلبي أنه قال: ما تركتها منذ أربعين سنة. ويقال: معناه أجيبوا لي بالطاعة إذا دعاكم محمد ﷺ ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾، أي صدقوا بتوحيدي. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، أي يهتدون من الضلالة.

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾، يعني الجماع. كان في ابتداء الإسلام لا تحلّ المجامعة في ليالي الصوم، ولا الأكل ولا الشرب بعد العشاء الآخرة، فأحلّ الله تعالى ذلك كله إلى طلوع الفجر. وروى بكر بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: «الغشيان واللمس والإفضاء والمباشرة والرفث هو الجماع، ولكن الله حيي كريم يكني بما شاء». وسبب نزول هذه الآية: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقع امرأته بعد صلاة العشاء في شهر رمضان بعد النوم، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «مَا كُنْتَ جَدِيراً بِذَلِكَ». فرجع

Marfat.com

مغتماً فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[1]، يعني: رخص لكم الجماع مع نسائكم. ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، يعني: هن سكن لكم وأنتم سكن لهن. ويقال: هن ستر لكم من النار وأنتم ستر لهن من النار. ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، يعني: تظلمون أنفسكم. قال القتبي: أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي الأمانة فيه، وقد سمى الله تعالى هذا الفعل خيانة، لأن الإنسان قد اؤتمن على دينه، فإذا فعل بخلاف ما أمر الله به ولم يؤد الأمانة فيه، فقد خانه بمعصيته.

ثم قال ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: فتجاوز عنكم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ فلم يعاقبكم بما فعلتم. ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾، أي جامعوهن ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، يعني اطلبوا ما قضى الله لكم من الولد الصالح. وقال الزجاج: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أي اتبعوا القرآن فيما أبيح لكم فيه وأمرتم به.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، نزلت في شأن صرمة بن قيس، عمل في النخيل بالنهار، فلما رجع منزله غلب عليه النوم قبل أن يأكل شيئاً، فأصبح صائماً فأجهده الصوم، فرآه رسول الله ﷺ في آخر النهار فقال له: «مَا لَكَ يَا ابْنَ قَيْسٍ أَمْسَيْتَ طَلِيحاً؟» فقال: ظللت أمس في النخيل نهاري كله أجرّ بالجرين، حتى أمسيت فأتيت أهلي، فأرادت أن تطعمني شيئاً سخناً فأبطأت عليَّ، فنمت فأيقظوني وقد حرم عليَّ الطعام والشراب، فلم آكل فأصبحت صائماً، فأمسيت وقد أجهدني الصوم. فنزلت هذه الآية[2] ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخيط الأبيض﴾، وهذا أمر إباحةٍ لله تعالى وليس بأمر حتم. هذا مثل قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] ومثل قوله: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]. اللفظ لفظ الأمر والمراد به الإباحة. وقد أباح الأكل والشرب إلى وقت طلوع الفجر بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، يعني: يستبين لكم بياض النهار من سواد الليل.

ويقال: في الابتداء حين نزل: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، كان بعضهم يأخذ خيطين أحدهما أبيض والآخر أسود، ويجعل ينظر إليهما ويأكل ويشرب، حتى يستبين له الأسود من الأبيض. وذكر عن عدي بن حاتم الطائي أنه قال: «أخذت خيطين، فجعلت أنظر إليهما، فلم يتبين الأسود من الأبيض ما لم يسفر الفجر، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك فتبسم وقال: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ القَفَا؛ إِنَّما هُوَ سَوادُ اللَّيلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»[3]، فنزل قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فارتفع الاشتباه.

---

(١) عزاه السيوطي ١/٤٧٦ إلى ابن جرير.

(٢) عزاه السيوطي ١/٢٧٥ إلى وكيع وعبد بن حميد وأبي داود والترمذي وابن جرير وابن المنذر والبيهقي.

(٣) حديث عدي أخرجه البخاري (٤٥٠٩) (٤٥١٠) ومسلم (١٠٩٠) وأحمد ٤/٣٧٧ وابن خزيمة (١٩٢٦) وأبو داود (٢٣٤٩) والبيهقي: ٤/٢١٥ والطحاوي: ٢/٥٣ والترمذي (٢٩٧١).

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يعني: إلى أول الليل وبعد غروب الشمس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾، يقول: ولا تجامعوهن ﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾، أي: وأنتم معتكفون فيها، وذلك أنه لما رخص لهم الجماع في ليلة الصيام، فكان الرجل إذا كان معتكفاً فإذا بدا له، خرج بالليل إلى أهله فيغشاها ثم يغتسل فيرجع إلى المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾، ليلاً ولا نهاراً ﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ قال الكلبي: يعني المباشرة في الاعتكاف معصية الله ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ في الاعتكاف. وقال الزجاج: الحد في اللغة هو المنع، فكل من منع فهو حداد. ولهذا سمي حد الدار حداً، لأنه يمنع الغير عن دخولها. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾، يعني: النهي عن الجماع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الجماع حتى يفرغوا من الاعتكاف. ويقال ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، يعني: جميع ما ذكر من أول الآية إلى آخرها في أمر الصيام وغيره، ويبيّن لهم الآيات ﴿لعلهم يتقون﴾: فينتهون عما نهى الله ويتبعون ما الله به.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾، يعني: بالظلم وشهادة الزور. ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾، يعني: تلجؤوا بالخصومة إلى الحكام. وقال الزجاج: معناه، تعملون بما يوجبه ظاهر الحكم، وتتركون ما علمتم أنه الحق. ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾، يعني طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾، يعني: باليمين الكاذبة وشهادة الزور. ويقال: ﴿بالإثم﴾ يعني: بالجور. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه جور. ويقال: إنكم تعلمون أنكم تأخذون بالباطل.

وهذه الآية نزلت في شأن امرىء القيس بن عابس الكندي وعبدان بن أشوع الحضرمي(١)، اختصما إلى رسول الله ﷺ فادعى أحدهما على صاحبه شيئاً، فأراد الآخر أن يحلف بالكذب، فقال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ وَرَأَى أَنَّهُ مِنْ حَقِّهِ، فَإِنَّمَا أَقْضِي لَهُ بِقِطْعَةٍ مِنَ النَّارِ»(٢). فنزلت هذه الآية فيهما، وصارت عامة لجميع الناس. وروى سعيد بن المسيب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شَاهِدُ الزُّورِ إِذَا شَهِدَ لا يَرْفَعُ قَدَمَيْهِ مِنْ مَكَانِهِمَا، حَتَّى يَلْعَنَهُ اللهُ مِنْ فَوْقِ الْعَرْشِ»(٣).

---

(١) في نسخة «ب» عبدان بن الإسرع الحضرمي.

(٢) حديث أم سلمة: أخرجه مالك: ٢/ ٧١٩ والبخاري (٢٤٥٨) (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) (٤) (٥) والترمذي (١٣٣٩) والنسائي: ٨/ ٢٣٣ وابن ماجة (٢٣١٧) (٢٤٥٨) وأحمد ٦/ ٢٠٣، ٢٩١، والبيهقي ١٠/ ١٤٣ والبغوي (٢٥٠٧). وبنحوه من حديث أبي هريرة عند ابن ماجة (٢٣١٨) وأحمد: ٢/ ٣٣٢ وهو صحيح.

(٣) الحديث مرسل. وسعيد بن المسيب تابعي.

Marfat.com

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾. الأهلة: جمع هلال، واشتقاقه من قولهم: استهل الصبي إذا صاح؛ وأهلّ بالحج: إذا رفع صوته بالتلبية. وكذلك الهلال سمي هلالاً، لأنه يهل الناس بذكره يعني: يرفعون الصوت عند رؤيته؛ وإنما سمي الشهر شهراً لشهرته. وقال الضحاك في معنى الآية: وذلك إن المسلمين سألوا رسول الله ﷺ عن خرص النخيل والتصرف في زيادة الشهر ونقصانه، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾، يعني: التصرف في زيادته ونقصانه سواء. قال ابن عباس في رواية أبي صالح: «نزلت هذه الآية في شأن معاذ بن جبل، وثعلبة الأنصاري، أنهما قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو فيطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم ينقص؟! فنزل»: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ يقول: «هي علامات للناس في حل ديونهم وصومهم وفطرهم وعدة نسائهم ووقت الحج».

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾؛ قال الضحاك: وذلك أن الكفار كانوا لا يدخلون البيت في أشهر الحج من بابه، وكانوا يدخلونه من أعلاه، فنزلت هذه الآية. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «وذلك أن الناس كانوا في الجاهلية وفي أول الإسلام، إذا أحرم رجل منهم قبل الحج، فإن كان من أهل المدر يعني من أهل البيوت، ثقب في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج، أو يضع سلماً فيصعد منه وينحدر عليه. وإن كان من أهل الوبر يعني من أهل الخيام، يدخل من خلف الخيمة إلا من مكان من أهل الحمس أي نجران. وإنما سموا الحمس، لأنهم يحمسون في دينهم، أي شددوا على أنفسهم، فحرموا على أنفسهم أشياء أحلّ الله عليهم، وأحلّ لم أشياء كانت حراماً على غيرهم وهو الدخول من الباب. فنزلت هذه الآية»: ﴿وَلَيْسَ البِرُّ أَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾، يعني: ليس التقوى بأن تأتوا البيوت من خلفها إذا أحرمتم. ﴿وَلَكِنَّ البِرَّ﴾، يعني: التقوى ﴿مَنِ اتَّقَى﴾، يعني: أطاع الله واتبع أمره. ويقال: ولكن ذو البر من اتقى الشرك والمعاصي.

ثم قال تعالى: ﴿وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، يعني ادخلوها محلين ومحرمين. ﴿وَٱتَّقُوا اللهَ﴾ ولا تقتلوا الصيد في إحرامكم؛ وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: ﴿واتقوا الله﴾ ولا تعصوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي تنجون من العقوبة.

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

Marfat.com

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقاتِلوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ ولا تعتدوا﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة، فنزل بالحديبية بقرب مكة، والحديبية: اسم بئر، فسمي ذلك الموضع باسم تلك البئر، فصده المشركون عن البيت، فأقام بالحديبية شهراً، وصالحه المشركون على أن يرجع من عامه كما جاء، وعلى أن تخلى له مكة في العام المقبل ثلاثة أيام، وصالحه المشركون على أن لا يكون بينهم قتال إلى عشر سنين، فرجع إلى المدينة. فخرج في العام الثاني للقضاء، فخاف أصحاب رسول الله ﷺ أن يقاتلهم المشركون، وكرهوا القتال في الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية ﴿وقَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ﴾، يعني: في طاعة الله ﴿الذين يقاتلونكم﴾، يعني: في الحرم أو في الشهر الحرام، ﴿ولا تعتدوا﴾ بأن تنقضوا العهد وتبدؤوهم بالقتال في الشهر الحرام أو في الحرم. ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، يعني: من بدأ بالظلم.

قوله تعالى: ﴿واقتُلوهُمْ حيثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، أي حيث وجدتموهم في الحل والحرم، والشهر الحرام. فأمرهم الله تعالى بقتل المشركين الذين ينقضون العهد.

وقوله: ﴿وأخرجوهُمْ مِنْ حيثُ أخرجُوكُمْ﴾ يعني: من مكة ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾، يعني: الشرك بالله ﴿أَشَدُّ﴾، يعني: أعظم عند الله ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، يعني: في الحرم، ﴿حتى يقاتلوكم فيه﴾، يعني يبدؤوكم بالقتال. ﴿فإن قاتلوكم﴾، يعني: بدؤوكم بالقتال ﴿فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جزاءُ الكافرين﴾، يعني: هكذا جزاؤهم، القتل في الحرم وغيره. قرأ حمزة والكسائي: ﴿ولا تقتلوهم﴾ بغير ألف ﴿حتى يقتلوكم﴾، ﴿فإن قتلوكم﴾ وقرأ الباقون في هذه المواضع الثلاثة: بالألف. فمن قرأ بالألف فهو من المقاتلة؛ ومن قرأ بغير ألف فمعناه: لا تقتلوهم حتى يقتلوا منكم.

ثم قال تعالى: ﴿فإن انتهوا﴾ يعني: عن قتالكم، ﴿فَإِنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾؛ يعني: إذا أسلموا. وهذا كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. ﴿وقاتلوهم﴾، يعني: أهل مكة ﴿حتى لا تكون فتنة﴾، يعني: الشرك بالله تعالى، ﴿ويكونَ الدينُ لله﴾، يعني: الإسلام. ﴿فإنِ انتهوا﴾ عن قتالكم وتركوا الشرك ﴿فلا عدوان﴾،

Marfat.com

يقول: لا سبيل ولا حجة عليكم في القتل، ﴿إِلاَّ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ الذين يبدؤونكم بالقتال. وقال القتبي: أصل العدوان الظلم، يعني لا جزاء للظلم إلا على الظالمين.

فساق رسول الله ﷺ وأصحابه الهدايا فدخلوا مكة، وطافوا بالبيت، ونحروا الهدي، وأقاموا بمكة ثلاثة أيام ثم انصرفوا فنزل قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾، يعني: الشهر الحرام الذي دخلت فيه الحرم، بالشهر الحرام الذي صدوكم عنه يعني: العام الأول وهو ذو القعدة﴿وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ أي: ما اقتصصت لكم في ذي القعدة كما صدوكم. ويقال: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام﴿وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، يعني: قتالكم يكون بقتالهم قصاصاً، فكما تركوا الحرمة فأنتم تتركون أيضاً ذلك.

ويقال: إن سبب نزول هذه الآية: أن المشركين سألوا المسلمين فقالوا: في أي شهر يحرم عليكم القتال؟ وأرادوا أن يقفوا على ذلك، حتى يقاتلوهم في الشهر الذي حرم القتال على المؤمنين، فنزل قوله: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، يعني: في أيّ وقت قاتلكم المشركون حل لكم قتالهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: قاتلكم في الشهر الحرام﴿فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾، أي قاتلوهم فيه، وإنما سمي الثاني اعتداء، لأنه مجازاة الاعتداء فسمي بمثل اسمه، وهذا كقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[النحل: ١٢٦]؛ ثم صارت هذه الآية حكماً في جميع الجنايات: أن من جنى على إنسان أو في ماله، فله أن يجازيه بمثل ذلك، بظاهر هذه الآية: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ عن الاعتداء قبل أن يعتدوا عليكم﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، يعني: يعين من اتقى الاعتداء.

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني: في طاعة الله. قال ابن عباس: «وذلك أن رسول الله ﷺ لما أمر الناس بالخروج إلى الجهاد، قام إليه ناس من الأعراب حاضري المدينة فقالوا: بماذا نتجهَّزُ؟ فوالله ما لنا زاد ولا يطعمنا أحد». فنزل قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني: تصدقوا يا أهل الميسرة في سبيل الله، يعني: في طاعة الله. ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، يعني: ولا تمسكوا بأيديكم عن الصدقة فتهلكوا، وهكذا قال مقاتل. ومعنى قول ابن عباس: «ولا تمسكوا عن الصدقة فتهلكوا»، أي: لا تمسكوا عن النفقة والعون للضعفاء، فإنهم إذا تخلفوا عنكم غلب عليكم العدو فتهلكوا. ومعنى آخر: ولا تمسكوا، فيرث منكم غيركم فتهلكوا بحرمان منفعة أموالكم. معنى آخر: ولا تمسكوا، فيذهب عنكم الخلف في الدنيا والثواب في الآخرة.

Marfat.com

ويقال: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، يعني: لا تنفقوا من حرام، فيرد عليكم فتهلكوا. وقال الزجاج: ﴿التهلكة﴾ معناه الهلاك. يقال: هلك يهلِكُ هَلاكاً وتَهلكة. يعني: إن لم تنفقوا عصيتم الله تعالى فهلكتم. وروي عن البراء بن عازب: أن رجلاً سأله عن التهلكة فقال: «أهو الرجل إذا التقى الجمعان، فحمل فيقاتل حتى يقتل؟ قال: لا ولكن الرجل يذنب ثم لا يتوب». وقال قتادة: قيل لأبي هريرة: ألم تر سعد بن هشام لما التقى الصفان حمل فقاتل حتى قتل، ألقى بيده إلى التهلكة؟ فقال أبو هريرة: «كلا والله ولكنه تأوّل آيةً من كتاب الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]

وقال أبو عبيدة السلماني: ﴿التهلكة﴾ أن يذنب الرجل فيقنط من رحمة الله فيهلك.

وروي عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال: نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه الإسلام وكثرنا، قلنا فيما بيننا: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أقمنا فيها وأصلحنا منها ما ضاع، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، فكانت التهلكة في الإقامة التي أردنا أن نقيم في أموالنا ونصلحها، فأمرنا بالغزو.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ يعني: أحسنوا النفقة من الصدقة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في النفقة ويقال: ﴿وأحسنوا﴾ يعني: النفقة أي أخلصوا النية في النفقة. ويقال: ﴿وأحسنوا﴾ الظن بالله تعالى فيما أنفقتم، إنه يخلفكم في الدنيا ويثيبكم في الآخرة.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لله﴾ قرأ الشعبي: ﴿وَالعُمْرَةُ لله﴾ بالضم على معنى الابتداء، وقرأ العامة ﴿وَالعُمْرَةَ﴾ بالنصب على معنى البناء. قال ابن عباس: «تمام العمرة إلى البيت، وتمام الحج إلى آخر الحج كله». وقال مقاتل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لله﴾ من المواقيت، ولا تستحلوا فيهما ما لا ينبغي لكم، وذلك أنهم كانوا يشركون في إحرامهم. ومعنى قول مقاتل: أنهم كانوا يشركون فيقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال: فأتموهما ولا تخلطوا بهما شيئاً آخر ثم خوّفهم بقوله تعالى:

﴿واعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾ فيما تعدّيتم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ يعني: حبستم عن البيت بعدما أحرمتم. وقال القتبي: الإحصار هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين الحج من مرض أو كسر أو عدو. وقال

Marfat.com

الفراء: الإحصار ما ابتلي به الرجل في إحرامه من المرض أو العدو وغيره. وقال بعضهم: لا يكون الإحصار إلا من العدو، وهو قول الشافعي. وقال بعضهم: يكون من العدو ومن المرض، وبه قال علماؤنا رحمهم الله.

ثم قال: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، يعني: ابعثوا إلى البيت ما استيسر من الهدي، فالله تعالى رخص لمن عجز عن الوصول إلى البيت بالعذر أن يبعث الهدي، فيذبح عنه بمكة، ويحل الرجل من إحرامه إذا ذبح هديه، ويرجع إلى أهله، ثم يقضي حجه وعمرته بعد ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾، يعني المحصر إذا بعث بالهدي، لا يجوز له أن يحل من إحرامه ما لم يذبح هديه. يقول: لا يحلق رأسه، حتى يكون اليوم الذي واعده فيه، ويعلم أن هديه قد ذبح. ثم صار هذا أصلاً لجميع الحاجّ من كان مفرداً أو متمتعاً أو قارناً، لا يجوز له أن يحلق رأسه إلا بعد أن يذبح هديه وإن لم يكن محصراً.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾، يعني: إذا حلق رأسه على وجه الإضمار مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] يعني إذا كان أفطر. وروي عن كعب بن عجرة أنه قال: فيَّ نزلت هذه الآية، وذلك أن النبي ﷺ مرَّ بي والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «**أيُؤذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟**» فقلت: نعم. فأمرني بأن أحلق وأَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِين، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ حِنْطَةٍ، «**أَوْ صُمْ ثَلاثَةَ أيَامٍ أَوْ أَنْسِكْ نَسِيكَةً**» يعني: اذبح شاة، فنزلت هذه الآية[1]: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، أي شاة يذبحها. قرأ حمزة: ﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾ وروي عن عبد الرحمن الأعرج أنه قرأها: بتشديد الياء. وواحدها هديَّة. وقرأ الباقون: بالتخفيف، يقال: هدي وهدية للواحدة.

ثم قال: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وهذا على سبيل الاختصار والإضمار، ومعناه: فإذا أمنتم من العدو، فاقضوا ما وجب عليكم من الحج والعمرة. ويقال: إذا أمنتم من العدو وبرأتم من المرض، فحجوا واعتمروا.

ثم قال: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، يعني: فعليه ما تيسر من الهدي؛ وللمتمتع أن يعتمر ويحجّ في سفرة واحدة من أشهر الحج. والمحرمون أربعة: مفرد بالحج، ومفرد بالعمرة، والمتمتع، والقارن. فأما المفرد بالحج أن يحج ويعتمر، والمفرد

---

(١) حديث كعب بن عجرة: أخرجه البخاري (١٨١٧) (١٨١٨) (٤١٩٠) و(٦٥٦٥) (٥٧٠٣) ومسلم (١٢٠١) (٨٠) (٨١) (٨٣) والترمذي (٢٩٧٤) و(٩٥٣) وأبو داود (١٨٥٧) (١٨٥٨) (١٨٥٩) (١٨٦٠) (١٨٦١) وأحمد: ٤/٢٤١ وابن خزيمة (٢٦٧٧) والبيهقي ٥/ ٨٧.

Marfat.com

بالعمرة أن يعتمر ولا يحج، وأما المتمتع أن يعتمر في أشهر الحج ويمكث بمكة حتى يحج بعدما فرغ من عمرته، وأما القارن فهو الذي يحرم بالحج والعمرة جميعاً. فمن كان مفرداً بالحج أو بالعمرة، فلا يجب عليه الهدي، ومن كان متمتعاً أو قارناً، فعليه الهدي. وقال عبد الله بن عمر: «الهدي: الجزور». وقال ابن عباس: «أقله شاة»، وبه أخذ علماؤنا.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ يعني: إنْ لم يجد الهدي ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾. قال ابن عباس: «آخرها يوم عرفة». ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾. قال بعضهم: ﴿إذا رجعتم﴾ يعني: إلى أهاليكم. وقال بعضهم: إذا رجعتم من منى. وقال بعضهم: إذا رجعتم إلى الأمر الأول، يعني: إذا فرغتم من أمر الحج؛ وبهذا القول نقول.

ثم قال: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، في البدل من الهدي يعني: العشرة الكاملة كلها بدل عن الهدي. ﴿ذَلِكَ﴾ الفداء ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ﴾ ومنزله في الحرم. وقال قتادة ومقاتل: ذلك يعني التمتع لمن لم يكن أهله ﴿حاضرو المسجد الحرام﴾ يعني: الحرم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إن خالفتم أمره.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾، أي: وقت الحج أشهر معلومات وهو: شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة. ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾؛ قال القتبي: الفرض هو إيجاب وجوب الشيء، يقال: فرضت عليك كذا، أي أوجبته. قال الله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، أي ما ألزمتم أنفسكم، وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وقال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾، يعني: فمن أحرم في هذه الأشهر بالحج، ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿فَلاَ رَفَثٌ وَلاَ فُسُوقٌ﴾ بالرفع مع التنوين، وقرأ الباقون بالنصب بغير تنوين. واتفقوا في قوله: ﴿وَلاَ جِدَالَ﴾ بالنصب، غير أبي جعفر المدني فإنه قرأ بالرفع، وهذا يقال له: لا التبرية، فكل موضع يدخل فيه لا التبرية، فصاحبه بالخيار إن شاء نصبه بغير تنوين، وإن شاء ضمه بالتنوين مثل قوله: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وتفسير الرفث هو الجماع، كقوله عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ وقال بعضهم: الرفث، التعرض بذكر النساء، والفسوق: هو السباب، والجدال: أن يماري صاحبه حتى يغيظه. يعني: من كان محرماً لا يجامع في إحرامه ولا يسب ولا يماري. ويقال: الفسوق الذبح للأصنام. كقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، والجدال: هو أن قريشاً كانت تقف بالمزدلفة وكانوا يجادلون كل فريق، يقولون: نحن أصوب سبيلاً. وروي عن مجاهد أنه قال: قد استقر الحج في ذي الحجة، فلا جدال فيه، وذلك أن

Marfat.com

المشركين كانوا يحجون عامين في ذي القعدة وعامين في ذي الحجة، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة، بعث أبا بكر ليحج بالناس فوافق ذلك آخر عام ذي القعدة، فلما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، وافق ذلك أول عامي ذي الحجة، فقال النبي ﷺ: «**ألا إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ**». يعني: رجع أمر الحج إلى ذي الحجة كما كان، فنزل قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ**﴾، يعني: من ترك الفسوق والمرأة والجدال. ﴿**يَعْلَمْهُ ٱللهُ**﴾، يعني: يقبله الله فيجازيكم به.

ثم قال عز وجل: ﴿**وَتَزَوَّدوا**﴾ في سفركم للحج والعمرة ما تكفون به وجوهكم عن المسألة. ﴿**فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ**﴾. وقال مقاتل: وذلك أن أناساً من أهل اليمن كانوا يخرجون بغير زاد، ويصيبون من أهل الطريق ظلماً، فنزلت في شأنهم﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. وقال بعضهم: معناه، تزودوا لسفر الدنيا بالطعام، وتزودوا لسفر الآخرة بالتقوى﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ ويقال: ﴿خير الزاد﴾ هو التوكل على الله، وأن لا يؤذي أحدٌ لأجل الزاد والطعام. ثم قال تعالى: ﴿**واتقون يا أولي الألباب**﴾، يعني: اطيعوني يا ذوي العقول فيما أمرتكم به.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ**﴾؛ وذلك أنهم كانوا إذا حجوا، كفوا عن التجارة وطلب المعيشة في الحج، فلم يشتروا ولم يبيعوا حتى تمضي أيام حجهم، فجعل الله تعالى لهم رخصة في ذلك فقال: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ**﴾، أي: لا مانع عليكم أن تطلبوا رزقاً من ربكم من التجارة في أيام الحج. وقال مقاتل: سئل رسول الله ﷺ: عن سوق عكاظ وسوق منى وذي المجاز في الجاهلية كنا نقوم في التجارة قبل الحج وبعد الحج، فهل يصلح لنا البيع والشراء في أيام حجنا؟ فنزلت هذه الآية(١). ومعنى آخر: ما روي عن عبد الله بن عمر: أن رجلاً سأله فقال: إني رجل أكري الإبل إلى مكة،

(١) عزاه السيوطي ١/٥٣٤ إلى سفيان وسعيد بن منصور والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس. وقال: وأخرجه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي من طريق عبيد بن عمير، عن ابن عباس.

Marfat.com

أفيجزىء عني من حجي؟ فقال: «أولست تلبي، وتقف بعرفات وترمي الجمار؟ فقال: نعم فقال: سأل رجل رسول الله ﷺ عن مثل ما سألتني، فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية[1]: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وروي عن ابن عباس نحوه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾، يعني: إذا رجعتم من عرفات بعد غروب الشمس، ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾، يعني: بالمزدلفة. وقال عطاء: إنما سميت عرفات، لأن جبريل عليه السلام كان يعلِّم إبراهيم عليه السلام أمور المناسك، فكان يقول له: عرفت؟ فيقول: عرفت. فسميت عرفات. وقال ابن عباس: «إنما سميت منىً، لأن جبريل قال لآدم: تمنَّ. قال: أتمنى الجنة. فسميت منى». قال: «وإنما سميت جمع، لأنه أجتمع فيه آدم وحواء» والجمع أيضاً: هو المزدلفة وهو المشعر الحرام.

ثم قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾، يقول: اشكروا الله كما هداكم لدين الإسلام ﴿وَإِن كُنتُمْ من قبله﴾، يعني: وقد كنتم ﴿مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى، وكانت قريش لا تخرج من الحرم إلى عرفات، وكان الناس يقفون خارج الحرم من كان من أهل اليمن وغيرهم بعرفات، ويفيضون منها؛ فأمر الله تعالى قريشاً أن يقفوا من حيث وقف الناس، ويفيضوا من حيث أفاض الناس، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾ لذنوبكم في الموقف. ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: متجاوز عن ذنوبكم. فأمر النبي ﷺ أبا بكر أن يخرج بالناس جميعاً إلى عرفات فيقف بها. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُبَاهِي مَلاَئِكَتَهُ بِأَهْلِ عَرَفَاتٍ وَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي جَاؤُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ شُعْثاً غُبْراً، إِشْهَدُوا أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ».

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾، يعني: فرغتم من أمر حجكم ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ باللسان ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ في ذلك الموقف ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾؛ يقول: أو أكثر ذكراً، وذلك أن العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم، وقفوا بين المسجد الذي بمنى وبين الجبل، ثم ذكر كل واحد منهم أباه بما كان يعلم منه من الخير ثم يتفرقون، قال الله تعالى: فَاذْكُرُونِي بالخير ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ بالخير، فإن ذلك الخير مني. وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ هو كقول الصبي: أبه أبه، يعني أن الصبي إذا كان أول ما يتكلم فإن أكثر قوله: أبْ أبْ. ويقال: ﴿فاذكروا الله كذكركم﴾ آبائكم لأبيكم آدم، لأنه لا أب له، بل ﴿أشد ذكراً﴾ لأني خلقته من غير أب ولا أم، وخلقتكم من الآباء والأمهات.

ثم قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾، وهم المشركون، أي: كانوا

---

(١) عزاه السيوطي: ١/ ٥٣٥ إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وأبي داود وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي أمامة عن ابن عمر.

Marfat.com

يقولون إذا وقفوا: اللهم ارزقنا إبلاً وبقراً وغنماً وعبيداً وإماءً وأموالاً، ولم يكونوا يسألون لأنفسهم التوبة ولا المغفرة، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾. ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾، أي نصيب.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ قال ابن عباس: «يعني المغفرة والشهادة والغنيمة»﴿وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾، أي الجنة. وقال القتبي: الحسنة النعمة كقوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾[التوبة: ٥٠]، أي نعمة. وقال الحسن البصري: ﴿آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، أي العلم والعبادة﴿وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾، أي الجنة قال الإمام: حسنة الدنيا ذكر ثوابك، وقوت من الحلال يكفيك، وزوجة صالحة ترضيك، وعلم إلى الحق يهديك، وعمل صالح ينجيك. وأمّا حسنة الآخرة، أرض الخصومات وعفو السيئات، وقبول الطاعات، والنجاة من الدركات، والفوز بالدرجات[1]﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، يعني: ادفع عنا عذاب النار.

﴿أُولَٰئِكَ﴾، الذين يدعون بهذا الدعاء﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾، أي حظ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من حجهم. ويقال: لهم ثواب مما عملوا. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً كان على عهد رسول الله ﷺ يدعو ويقول: «اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة، فعجِّله لي في الدنيا، فأضني الرجل في مرضه حتى نحل جسمه، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فأتاه فأخبره بأنه كان يدعو بكذا وكذا، فقال النبي ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ بِعُقُوبَةِ الله تَعَالَى وَلٰكِنْ قُلْ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾». فدعا بها الرجل فبرأ[2].

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ قال الكلبي: إذا حاسب فحسابه سريع. ويقال: والله سريع الحفظ. وقال الضحاك: يعني لا يغالط العباد في الحساب يوم القيامة ولا يشغله ذلك. ويقال: يحاسب كل إنسان فيظن كل واحد منهم أنه يحاسبه خاصة.

﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾، أي: معروفات وهي أيام التشريق. وقال القتبي: المعدودات أيام التشريق، والمعلومات أيام النحر بدليل قوله﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا

(١) في نسخة «ب» في قوله: «حسنة الدنيا.. إلى بالدرجات».

(٢) عزاه السيوطي: ١/٥٥٩ إلى ابن أبي شيبة، وأحمد وعبد بن حميد وأبي يعلى وابن حبان.

Marfat.com

رَزَقَهُم من بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ فذكر النحر في تلك الأيام ـ وقال يحيى بن سعيد: سألت عطاء عن الأيام المعدودات وعن المعلومات، قال: الأيام المعدودة: أيام النحر، والمعلومات: أيام العشر[1] ـ وقال بعضهم الأيام المعدودات أيام التشريق بدليل ما سبق في سياق الآية: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ والمعلومات: أيام النحر بدليل قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فذكر النحر في تلك الأيام. وقال الضحاك: معنى قوله: ﴿واذْكُرُوا الله فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ أي معروفات وهي أيام التشريق، يعني: كبروا دبر كل صلاة من يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق. ويقال: ﴿وَاذْكُرُوا الله فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ يعني التكبير عند رمي الجمار.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني: رجع إلى أهله، بعدما رمى في يومين وترك الرمي في اليوم الثالث ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تعجيله، ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ إلى آخر النفر ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تأخيره. ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ يعني: قتل الصيد في الإحرام وفي الحرم. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن مسعود قال: «إنما جعلت المغفرة لمن اتقى في حجه». ويقال: لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي. وإنما حذرهم الله تعالى، لأنهم إذا رجعوا من حجهم، يجترئون على الله تعالى بالمعاصي، فحذرهم عن ذلك فقال: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٢٠٦)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُه في الحياة الدنيا﴾ يعني: كلامه وحديثه، وهو أخنس بن شريق، كان حلو الكلام، حلو المنظر، فاجر السريرة. وروى أسباط عن السدي قال: أقبل أخنس بن شريق إلى رسول الله ﷺ بالمدينة وقال: إنما جئت أريد الإسلام وقال: الله تعالى يعلم أني صادق، فأعجب النبي ﷺ بقوله ثم خرج من عنده، فمر بزرع للمسلمين فأحرقه، ومر بحمارٍ للمسلمين فعقره، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: يعجبك كلامه وحديثه. ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ من الضمير أنه يحبه ويريد الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ يعني: شديد الخصومة. قال القتبي: يعني: أشدهم خصومة. يقال: رجل ألد بيّن اللدد، وقوم لد. كما قال في آية أخرى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

(١) ما بين معقوفتين ساقط في «ب».

Marfat.com

ثمّ قال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ ، يعني: إذا فارقك رجع عنك، ﴿سعى في الأرض﴾ ، أي. مضى في الأرض بالمعاصي. ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ ، يعني: يعصي الله في الأرض ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ ، يعني: يحرق الكدس ويعقر الدواب. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ، أي لا يرضى بعمل المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في صنعك، ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بالإثم﴾ ، يعني: الحمية في الإثم، يعني: تكبراً. يقول الله تعالى: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ، يعني: ولبئس الفراش ولبئس القرار. وهذه الآية نزلت في شأن أخنس بن شريق، ولكنها صارت عامة لجميع الناس، فمن عمل مثل عمله، استوجب تلك العقوبة. وقال بعض الحكماء، إن من يقتل حماراً ويحرق كدساً، استوجب الملامة ولحقه الشين إلى يوم القيامة، فالذي يسعى بقتل مسلم كيف يكون حاله؟ وذكر أن يهودياً كانت له حاجة إلى هارون الرشيد، فاختلف إلى بابه سنة، فلم يقض حاجته، فوقف يوماً على الباب، فلما خرج هارون سعى ووقف بين يديه وقال: اتق الله يا أمير المؤمنين. فنزل هارون عن دابته وخرّ ساجداً لله، فلما رفع رأسه أمر بحاجته، فقضيت له. فلما رجع قيل: يا أمير المؤمنين نزلت عن دابتك بقول يهودي؟ قال: لا ولكن تذكرت قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ الله أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثم فحسبُه جهنم وبئس المهاد﴾ . وقال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «إِذَا دُعِيتُمْ إِلى الله فَأَجِيبُوا، وإِذَا سُئِلْتُم بالله فَأَعْطُوا، فإِنَّ المُؤْمِنِينَ كَانُوا كَذلِكَ».

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ . قال ابن عباس: «نزلت هذه الآية في شأن صهيب بن سنان الرومي، مولى عبد الله بن جدعان، وفي نفر من أصحاب رسول الله ﷺ منهم: عمّار بن ياسر، وسمية أم عمار، وخباب بن الأرت وغيرهم، أخذهم المشركون فعذبوهم. فأما صهيب فإنه كان شيخاً كبيراً وله مال ومتاع، فقال لأهل مكة: إني شيخ كبير لا أضرُكم إنْ كنت معكم أو مع عدوكم، فأنا أعطيكم مالي ومتاعي وذروني وديني، أشتريه منكم بمالي. ففعلوا ذلك، وأعطاهم ماله إلا مقدار راحلته، وتوجه إلى المدينة، فلما دخل المدينة لقيه أبو بكر فقال له: ربح البيع يا صهيب. فقال له: وبيعك لا يخسر. فقال: وما ذلك يا أبا بكر؟ فأخبره بما نزل فيه ففرح بذلك صهيب. وقتل ياسر أبو عمار وأمُّه سمية، فنزلت هذه الآية في شأن صهيب﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله﴾ ، يعني: يشري نفسه ودينه. وهذا من أسماء الأضداد، يقال: شرى واشترى وباع وابتاع. ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله﴾ ، يعني: يشتري نفسه ودينه يطلب رضاه الله. ﴿وَٱللَّهُ رَؤُوفٌ بِٱلْعِبَادِ﴾ ، يعني: رحيم بهم. ثم هذه الآية صارت عامة لجميع الناس، من بذل ماله ليصون به نفسه ودينه، فهو من أهل هذه الآية.

Marfat.com

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنوا ادْخُلواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ قرأ نافع وابن كثير والكسائي: ﴿السَّلْم﴾ بنصب السين وقرأ الباقون: بالكسر. ﴿والسِّلْم﴾ بالكسر هو الإسلام، والسَّلم بالنصب هو المسالمة والصلح. ويقال: السَّلم والسِّلم في اللغة: هو الصلح. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فيمن أسلم من أهل الكتاب، كانوا يتقون السبت، ويحرمون أكل لحم الجمال فنزل: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنوا ادخُلوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ يعني: في شرائع دين محمد ﷺ. ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطَانِ﴾، يعني: طاعات الشيطان.

وقال مقاتل: استأذن عبد الله بن سلام وأصحابه بأن يقرؤوا التوراة في الصلاة، وأن يعملوا ببعض ما في التوراة، فنزل: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيطَانِ﴾ فإن اتباع السنة أولى - بعدما بعث محمد ﷺ - ﴿من خطوات الشيطان﴾. وقال بعضهم: ﴿ادخُلوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ يعني: اثبتوا على شرائع محمد ﷺ ولا تخرجوا منها.

وقوله تعالى: ﴿كافة﴾ يعني: عبارة عن الجميع، فيجوز أن يكون معناه: ادخلوا جميعاً، ويجوز أن يكون معناه: ادخلوا في جميع شرائعه ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي لا تسلكوا الطرق التي يدعوكم إليها الشيطان. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُم﴾ يعني: ملتم عن شرائع محمد ﷺ. ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ﴾ يعني محمداً ﷺ وشرائعه، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ عزيز بالنقمة ﴿حكيم﴾ في أمره، وقال مقاتل: ﴿حكيم﴾ أي يحكم حكم عليهم بالعذاب الشديد.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل في القرآن على سبعة أوجه: في موضع يراد بها «قد»، كقوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ [الغاشية: ١] أي قد أتاك. ومرة يراد بها «الاستفهام»، كقوله ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤] ومرة يراد بها «السؤال»، كقوله: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤] ومرة يراد به «التفهيم»، كقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ [الصف: ١٠] ومرة يراد به «التوبيخ»، كقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢٢١] وقد يذكر ويراد به «الأمر»، كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي انتهوا، ومرة يراد به «الجحد»، كقوله في هذا الموضع: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾. ﴿إلاَّ أن يأتِيَهُمْ اللهُ﴾ يعني: ما ينظرون. وقال ابن عباس في

Marfat.com

رواية أبي صالح: هذا من المكتوم الذي لا يفسر وروى عبد الرزاق، عن سفيان الثوري **قال**: قال ابن عباس: تفسير القرآن على أربعة أوجه: «تفسير يعلمه العلماء، وتفسير تعرفه العرب، وتفسير لا يقدر أحد لجهالته، وتفسير لا يعلم تأويله إلا الله عز وجل، ومن ادعى علمه فهو كاذب». وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] وكذلك هذه الآية، سكت بعضهم عن تأويلها وقالوا: لا يعلم تأويلها إلا الله. وبعضهم تأولها فقال: هذا وعيد للكفار، فقال: ﴿هل ينظرون﴾، أي ماذا ينتظرون ولا يؤمنون ما ينظرون ﴿إلاّ أن يأتيهم الله﴾ يعني: أمر الله تعالى، كما قال في موضع آخر: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢]، يعني: أمر الله تعالى. وقال بعضهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيهِم الله﴾، معناه بما وعد لهم من العذاب. ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾. يعني: في غمام فيه ظلمة. ويقال: على غمام فيه ظلمة.

﴿وَٱلْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ أبو جعفر بكسر الهاء، يعني: في ظلل من الغمام وفي الملائكة وهي قراءة شاذة، والقراءة المعروفة: بالضم يعني تأتيهم الملائكة. وقال قتادة: ﴿وَالمَلائِكَةُ﴾، يعني: تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم. ويقال: يوم القيامة. ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، يعني: فرغ مما يوعدون، يعني: دخول أهل الجنة في الجنة ودخول أهل النار في النار. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تَرْجِعُ ٱلْأُمُورُ﴾، يعني: عواقب الأمور. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿تَرْجِعُ﴾ بنصب التاء ويكون الفعل للأمور. وقرأ الباقون: بضم التاء على فعل ما لم يسم فاعله.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم﴾. ومعناه: سل علماء بني إسرائيل كم أعطيناهم. ﴿مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ حين فرق لهم البحر وأهلك عدوهم، وأنزل عليهم المن والسلوى. ويقال: ﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾، يعني نعت محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾، يعني: يغيّر نعمة الله تعالى. ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، يعني يقول: إذا لم يشكروا نعمة الله، تزول عنهم النعم ويستوجبوا العقوبة.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾، قال الكلبي: نزلت في شأن رؤساء قريش، زين لهم ما بسط لهم في الدنيا من الخير. ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ في أمر المعيشة، لأنهم كانوا فقراء.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾، يعني: أطاعوا الله وهم فقراء المؤمنين. ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾، يعني:

Marfat.com

فوق المشركين في الجنة والحجة في الدنيا. وقد اختلفوا في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قال بعضهم: يعني زيَّنها لهم إبليس، لأن الله تعالى قد زهَّدهم فيها وأعلمَ أنها متاع الغرور، ولكن الشيطان زيَّن لهم الأشياء، كما قال في آية أخرى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] وقال بعضهم: معناه أن الله تعالى زين لهم، لأنه خلق فيها الأشياء المعجبة، فنظر إليها الذين كفروا فاغتروا بذلك كما قال في آية أخرى ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤]وكان ذلك مجازاة لكفرهم.

وروي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: **«يقول الله تعالى لملائكته: لَوْلا أَنْ يَجزع عَبْدِي المُؤمِنُ، لَعَصَّبْتُ الكَافِرَ بِعِصَابَةٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَصَبَبْتُ عَلَيهِ الدُّنْيَا صَبّاً»**. ومصداق ذلك في القرآن ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف: ٣٣]الآية. وقال عليه الصلاة السلام: **«لَوْ أنَّ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ الله قدر جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى الكافِرَ مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**[1].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني: يرزق من يشاء رزقاً كثيراً لا يعرف حسابه. ويقال: معناه ﴿يرزق من يشاء بغير حساب﴾يعني: ليس له أحد يحاسبه منه بما يرزقه ويقال: ﴿بغير حساب﴾يعني: بغير احتساب. كما قال في آية أخرى ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣] وكل ما في القرآن: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فهو على هذه الوجوه الأربعة.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾. قال الزجاج: الأمة على وجوه منها: القرن من الناس، كما يقال: مضت أمم، أي قرون، والأمة: الرجل الذي لا نظير له. ومنه قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]والأمة: الدين، وهو الذي قال ها هنا: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، يعني: على دين واحد وعلى ملة واحدة. وقال بعضهم: كان الناس كلهم على دين الإسلام، جميع من كان مع نوح في السفينة ثم تفرقوا. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. وقال بعضهم: كان الناس كلهم كفاراً في عهد نوح وعهد إبراهيم فبعث الله للناس إبراهيم وإسماعيل ولوطاً

---

(١) أخرجه السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (١٣٣). والطبقات لابن سعد ١:٢/١٥٨ والكنز (١٨٦٨٣) وابن ماجه (٤١١٠) وهو ضعيف لضعف زكريا بن منظور. وفي المطالب العالية (٣١٧٢) ورواه البزار من حديث أبي هريرة بمعناه والترمذي من حديث سهل بن سعد.

Marfat.com

وموسى ومن بعدهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنة لمن أطاع الله، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالنار لمن عصى الله ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ﴾ يقول: بالعدل ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: يقضي بينهم ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من أمور الدين. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي الدين. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ يعني: أعطوا الكتاب. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ يعني: جاءهم البيان من الله تعالى، ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يعني اختلفوا فيه حسداً بينهم. ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يعني: هداهم ووفقهم حتى أبصروا الحق من الباطل ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بتوفيقه ويقال: برحمته. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: الإسلام. ويقال: فعصم الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بعصمته ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي﴾ من يشاء إلى دين الإسلام. ويقال: يوفّق الله بتوفيقه إذا جهدوا في طلب الحق. ﴿والله يهدي﴾ يعني: يوفق من يشاء إلى صراط مستقيم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ يقول: أظننتم أن تدخلوا الجنة. ﴿ولما يأتكم مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي لم يأتكم صفة الذين مضوا من قبلكم، يعني: لم يصبكم مثل الذي أصاب من قبلكم. ويقال: لم تبتلوا بمثل الذي ابتلي من قبلكم. ﴿مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ﴾. ﴿البأساء﴾: الشدة والبؤس، ﴿والضراء﴾: البلاء والأمراض. ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أي حركوا وأجهدوا، ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قال مقاتل: يعني شعيباً النبي ﷺ وهو اليسع. وقال الكلبي: هذا في كل رسول بعث إلى أمته، واجتهد في ذلك حتى قال: ﴿متى نصر الله﴾؟ قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

روي عن الضحاك أنه قال: يعني محمداً ﷺ. ومعنى ذلك: أظننتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا كما ابتلي الذين من قبلكم، ﴿مستهم البأساء والضراء﴾ فيصيبكم مثل ذلك، حتى يقول: محمد ﷺ: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾، يعني: فتح الله تعالى عاجل، وإنما ظهر لهم ذلك في يوم الأحزاب، فأصابهم خوف شديد وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠] فصدق الله وعده وأرسل عليهم ريحاً وجنوداً، لم تروها وهزموا الكفار. فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ قرأ نافع: ﴿حَتَّىٰ يَقُولُ ٱلرَّسُولُ﴾ بالرفع على معنى الاستئناف. وقرأ الباقون: بالنصب على معنى الماضي.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وذلك أن النبي ﷺ لما حثهم على الصدقة، قال

Marfat.com

عمرو بن الجموح: يا رسول الله، كم ننفق وعلى من ننفق؟ فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، أي ماذا يتصدقون من أموالهم؟ ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، يعني: من مال ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، يعني: أنفقوا على الوالدين والقرابة، وعلى جميع المساكين. فهذا جواب قولهم: على من ننفق؟ ونزل في جواب قولهم: ﴿ماذا ينفقون﴾؟ قوله تعالى: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، يعني: الفضل من المال، ثم نسخ ذلك بآية الزكاة. وقال بعضهم: آية الزكاة نسخت كل صدقة كانت قبلها. وقال بعضهم: هذه الآية ليست بمنسوخة، وإنما فيها بر الوالدين وصلة الأرحام. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، يعني: يجازيكم به.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، أي: فرض عليكم القتال. ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، أي: شاق عليكم. وذلك أن الله تعالى، لما أمرهم بالجهاد، كرهوا الخروج. وإنما كانت كراهتهم له، لأنه كان في الخروج عليهم مشقة، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾، يعني: الجهاد. ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لأن فيه فتحاً وغنيمة وشهادة، وفيه إظهار الإسلام. ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً﴾، وهو الجلوس عن الجهاد ﴿وهو شر لكم﴾، لأنه يسلط عليكم عدوكم. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ أن الجهاد خير لكم. ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك حين أحببتم القعود عن الجهاد. ويقال: ﴿والله يعلم﴾ ما كان فيه صلاحكم وأنتم لا تعلمون ذلك خيراً حين أحببتم القعود عن الجهاد.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. وذلك أن النبي ﷺ بعث عبد الله بن جحش مع تسعة رهط، في جمادى الآخرة قبل بدر بشهرين إلى عير لقريش، فلقوا العير، وكان ذلك آخر الشهر، فأمر عبد الله بن جحش بعض أصحابه، فحلق رأسه. فلما رآهم المشركون أمنوا وظنوا أنه دخل رجب، فقاتلهم المسلمون وأخذوا أموالهم، فعيّرهم المشركون بذلك، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾. قال الزجاج: معناه، يسألونك عن

Marfat.com

القتال في الشهر الحرام. وقال القتبي: يسألونك عن القتال في الشهر الحرام هل يجوز؟ فأبدل قتالاً من الشهر الحرام.

ثمّ قال تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، أي: عظيم عند الله وتمّ الكلام. ثم قال: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يقول منع الناس عن دين الله وعن الكعبة أن يطاف بها. ﴿وكفر به﴾، أي بالله تعالى ويقال: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾أي بالحج.

وقوله: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. وإنما صار خفضاً، لأنه عطف على سبيل الله، كأنه قال: وصدّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وكفر بالله تعالى. ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾. أي من المسجد ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ من القتل﴾، أي أعظم عقوبة عند الله من القتل في الشهر الحرام. ﴿والفتنة﴾، يعني: الشرك ﴿أكبر من القتل﴾، أعظم عقوبة من القتل في الشهر الحرام.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾الإسلام إلى دينهم الكفر. ﴿إِنِ ٱسْتَطَاعُوا﴾، أي: إن قدروا على ذلك ولكنهم لا يقدرون عليه.

ثم هدد المسلمين ليثبتوا على دينهم الإسلام، فقال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾يعني: الإسلام. ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾بالله تعالى ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي بطلت حسناتهم. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ﴾، يعني: لا يكون لأعمالهم التي عملوا ثواب، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال في آية أخرى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي دائمون.

قال الفقيه: حدثنا إبراهيم محمد بن سعيد قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا إبراهيم بن داود قال: حدثنا المقدمي، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه قال: حدثنا الحضرمي، عن أبي السوار، عن جندب بن عبد الله: أن النبي ﷺ بعث رهطاً وبعث عبد الله بن جحش وكتب له كتاباً، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال: «لاَ تُكْرِه أحَداً مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى المَسِيرِ». فلما بلغ المكان، قرأ الكتاب فاسترجع ثم قال: السمع والطاعة لله ولرسوله، فرجع رجلان ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب، فقال المشركون: قتلهم محمد في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ . . .﴾إلى آخر الآية. فقال المشركون: لو لم يكن عليهم وزر فليس لهم أجر، فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾من مكة ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني: في طاعة الله بقتل ابن الحضرمي. ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ﴾، أي ينالون جنة الله. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ

Marfat.com

رَحِيمٌ﴾ بقتالهم في الشهر الحرام، ثم نسخ تحريم القتال في الشهر الحرام وصار مباحاً بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾[التوبة: ١٣٦]؛ فنهاهم الله عن ظلم أنفسهم بالسيئات والخطايا، وأمرهم بالقتال عاماً. وروى أبو يوسف عن الكلبي أن القتال في الشهر الحرام لا يجوز. وقال أبو جعفر الطحاوي: لا نعلم أن أهل العلم اختلفوا أن قتال المشركين في الشهر الحرام غير جائز. وروي عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن قتال الكفار في الشهر الحرام، فقال: لا بأس به، وكذلك قال سليمان بن يسار وغيره.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾. قال بعض المفسرين: إن الله لم يدع شيئاً من الكرامة والبر إلا وقد أعطى هذه الأمة، ومن كرامته وإحسانه: أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة، ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة. فكذلك في تحريم الخمر، كانوا مولعين بشربها، فنزلت هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، أي عن شرب الخمر، والميسر: وهو القمار. ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ في تجارتهم. ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾. فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير، ولم يتركها بعض الناس وقالوا: إنما نأخذ منفعتها ونترك إثمها. ثم نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[النساء: ٤٣]، فتركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما يمنعنا من الصلاة، وشربها بعض الناس في غير أوقات الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ﴾[المائدة: ٩٠] إلى آخر الآية. فصارت حراماً عليهم حتى كان يقول بعضهم: ما حرم علينا من شيء أشد من الخمر. وقيل: ﴿إثم كبير﴾ في أخذها، ومنافع في تركها.

وروي أن الأعشى توجه إلى المدينة ليسلم، فلقيه بعض المشركين في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم أنه يريد محمداً ﷺ. فقالوا: لا تقصد إليه فإنه يأمرك بالصلاة. فقال: إن خدمة الرب واجبة. فقالوا له: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء. فقال: اصطناع المعروف واجب. فقيل له: إنه ينهى عن الزنى. فقال: إن الزنى فحش قبيح في العقل، وقد صرت شيخاً، فلا أحتاج إليه. فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر. قال: أما هذا فإني لا أصبر عنها فرجع وقال: أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه، فلم يصل إلى منزله، حتى سقط عن البعير فانكسر عنقه فمات. وقال بعضهم: في هذه الآية ما دلّ على تحريمه، لأنه سماها إثماً، وقد

Marfat.com

حرم الإثم في آية أخرى وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقال بعضهم: أراد بالإثم، الخمر بدليل قول الشاعر:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي ... كَذَاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بِالعُقُولِ

وروي عن جعفر الطيار: أنه كان لا يشرب الخمر في الجاهلية، وكان يقول: الناس يطلبون زيادة العقل، فأنا لا أنقص عقلي. وأما الميسر، فكانوا يشترون جزوراً ويضربون سهامهم، فمن خرج سهمه أولاً، يأخذ نصيبه من اللحم ولا يكون عليه من الثمن شيء، ومن بقي سهمه آخراً، فكان عليه ثمن الجزور كله، ولم يكن له من اللحم شيئاً. وقال عطاء ومجاهد: الميسر هو القمار كله، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب. قرأ حمزة والكسائي: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَثِيرٌ﴾ بالثاء من الكثرة وقرأ الباقون (كبير) يعني: ذنب عظيم ومعنى قوله: ﴿إثمهما﴾ بعد التحريم لأكبر من نفعهما قبل التحريم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، أي ماذا يتصدقون؟ ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾، يعني: الفضل من المال، يريد: أن يعطي ما فضل من قوته وقوت عياله، ثم نسخ بآية الزكاة. وقرأ أبو عمرو: «قُلِ العَفْوُ» بالرفع، يعني: الإنفاق وهو الزكاة. وقرأ الباقون: بالنصب، يعني أنفقوا الفضل. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾، يعني: أمره ونهيه، كما يبين لكم أمر الصدقة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾، يعني: في الدنيا أنها لا تبقى ولا تدوم، ولا يدوم إلا العمل الصالح، وفي الآخرة أنها تدوم وتبقى ولا تزول. وقال بعضهم: معناه ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا﴾ لعلكم تتفكرون في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾، يقول: عن مخالطة اليتامى، وذلك أنه لما نزل قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، تركوا مخالطتهم، فشق ذلك عليهم. وكان عند رجلٍ منهم يتيم، فجعل له بيتاً على حدة وطعاماً على حدة، ولا يخالطه بشيء من ماله. فقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، قد أنزل الله آية في أموال اليتامى، ما أنزل من الشدة، فعزلناهم على حدة، أفيصلح لنا أن نخالطهم؟ فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾، أي عن مخالطة اليتامى. ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ من ترك خلطتهم. ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾، يعني: تشاركوهم في النفقة والخدمة والدابة، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي في الدين. ويقال: الامتناع منه خير، وإن تخالطوهم فهم إخوانكم. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لمال اليتيم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ لماله، يعني: لا بأس بالخلطة إذا قصدت به الإصلاح ولم تقصد به الإضرار به.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾. قال القتبي: ولو شاء الله، لضيّق عليكم ولشدّد عليكم، ولكنه لم يشأ إلا التسهيل عليكم. وقال الزجاج: ﴿لأعنتكم﴾، معناه لأهلككم. وأصل العنت في اللغة من قول العرب: عنت البعير، إذا انكسرت رجله، وحقيقته: ولو شاء الله

Marfat.com

لكلفكم ما يشتد عليكم. وقال الكلبي ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُم﴾ في مخالطتهم فجعلها حراماً. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقد ذكرناه.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾. نزلت في مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان يأتي مكة ويخرج منها ناساً من المسلمين كانوا بها سراً من أهل مكة، فلما قدم مكة جاءته امرأة يقال لها عناق، كانت بينهما خلة في الجاهلية، فقالت له: ألا تخلو بي يا مرثد؟ فقال لها: يا عناق إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك، وقد حُرِّمتِ علينا. ولكني أسأل رسول الله ﷺ، ثم أتزوجك إن شئت. فلما رجع إلى رسول الله ﷺ سأله عن ذلك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا المُشرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ﴾ (١)، يقول: نكاح أمة مؤمنة ﴿خيرٌ مِّن﴾ نكاح حرة ﴿مُشرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتكُمْ﴾، نكاحها.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُنكِحُوا الْمُشرِكِينَ﴾، يقول: ولا تنكحوا نساءكم المشركين، ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خيرٌ مِن﴾ تزويج ﴿مُشرِكٍ﴾ حر. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، يعني إلى عمل أهل النار. ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾، يعني إلى التوحيد والتوبة ﴿بِإِذْنِهِ﴾، يعني: بأمره ويقال: يدعوكم إلى مخالطة المؤمنين، لأن ذلك أوصل إلى الجنة والمغفرة بإذنه، يعني: بعلمه الذي يعلم أنه أوصل لكم إليها ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾، يعني: أمره ونهيه في أمر التزويج. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي ينتهون عن المعاصي والنكاح الحرام. ويقال: إن رجلاً من الأنصار أعتق جارية له، فأراد رجل من قريش أن يتزوجها فعيّروه بذلك، فنزلت هذه الآية ﴿وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِن مُشرِكَةٍ﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾. قال ابن عباس: «نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له: عمرو بن الدحداح، سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف نصنع

---

(١) عزاه السيوطي: ١/ ٦١٤ إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر عن مقاتل بن حبان.

Marfat.com

بالنساء إذا حضن؟ انقربهن أم لا؟ فنزلت ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ يقول عن النساء إذا حضن. ويقال: ﴿يسألونك﴾ عن مجامعة النساء في المحيض. ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾، يعني: الدم هو قذر نجس. ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾، يقول: لا تجامعوهن في حال الحيض. ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾، يعني لا تجامعوهن وهن حيض، ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿حَتَّى يَطَّهَّرْنَ﴾ بتشديد الطاء والهاء والنصب، وقرأ الباقون بالتخفيف وأصله يتطهرن، فأدغمت التاء في الطاء فمن قرأ ﴿يَطَّهَّرْنَ﴾ أي يغتسلن، ومن قرأ ﴿يَطْهُرْنَ﴾ أي حتى يطهرن من الحيض.

قال الفقيه الزاهد: نعمل بالقراءتين جميعاً، فإن كانت المرأة أيام حيضها أقل من عشرة أيام فلا يجوز أن يقربها ما لم تغتسل أو يمضي عليها وقت صلاة. وإن كانت أيام حيضها عشرة، فإذا انقطع عنها الدم وتمت العشرة، جاز أن يقربها.

ثم قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، يعني: أي اغتسلن من الحيض، ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، يعني: جامعوهن ﴿من حيث أمركم الله﴾ يعني: من حيث رخص الله في موضع الجماع.

ويقال: لما نزلت هذه الآية ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾، اعتزلوا النساء في أيام الحيض وأخرجوهن من البيوت، فقدم أناس من الأعراب وقالوا: يا رسول الله البرد شديد وقد اعتزلنا النساء، وليس كلنا يجد سعة لذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أُمِرتُمْ أَنْ تَعْتَزِلُوا مُجَامَعَتُهُنَّ، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ أَنْ تُخرِجُوهُنَّ مِنَ البُيُوتِ كَمَا يَفْعَلُ الأَعَاجِمُ».

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾، يعني: من الذنوب والشرك. ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، يعني: من الجنابة والأحداث. ويقال: ﴿ويحب المتطهرين﴾ من إتيانهن في الحيض، وفي أدبارهن يتنزهون عن ذلك. ويقال: و﴿يحب التوابين﴾ من الذنوب و﴿المتطهرين﴾ الذين لم يذنبوا. فإن قيل: كيف قدّم بالذكر الذين تابوا من الذنوب على الذي لم يذنب؟ قيل له: إنما قدّمهم لكيلا يقنط التائب من الرحمة، ولا يعجب المتطهر بنفسه؛ كما ذكر في آية أخرى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

ثم قال عز وجل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾. يقول: مزرعة لكم للولد، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾. والحرث في اللغة: هو الزرع، فسمى النساء حرثاً على وجه الكناية، أي هن للولد كالأرض للزرع. وقوله: ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾، أي وكيف شئتم، إن شئتم مستقبلين، وإن شئتم مستدبرين، إذا كان في صمام واحد. وذلك أن اليهود كانوا يقولون: إذا أتاها من خلفها، يكون الولد أحول[1]، فنزل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. قال النبي ﷺ: «لا يَنظُرُ اللهُ عزَّ وَجَلَّ إلى رَجُلٍ

(١) حديث جابر. أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٢٨) ومسلم (١٤٣٥) (١١٧) (١١٨) والترمذي (٢٩٧٨) وابن ماجة (١٩٢٥) وأبو داود (٢١٦٣) والبيهقي ٧/ ١٩٤.

Marfat.com

أتى رَجلاً أو إمرأةً في دُبرها» وعن النبي ﷺ أنه قال: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى إمْرَأَةً في دُبرها»(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ﴾ من الولد الصالح. ويقال: ﴿قدموا لأنفسكم﴾ من العمل الصالح. ويقال: سموا الله تعالى عند ذلك.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، يقول: اخشوا الله ولا تقربوهن في حال الحيض ولا في أدبارهن. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ﴾، يعني تصيرون إليه يوم القيامة، فيجزيكم بأعمالكم. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يحافظون حدود الله ويصدقون بوعده.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾

قال عز وجل: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيمَانِكُمْ﴾ أي علّة. وأصل العُرضة في اللغة: هو الاعتراض، فكأنه يعترض باليمين في كل وقت، فيكون كناية عن العلة. وقيل: العرضة أن يحلف الرجل في كل شيء، فمُنِعوا من ذلك. ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾، يعني: لكي تبروا وتتقوا، لأنهم إذا أكثروا اليمين لم يبروا، وبهذا أمر أهل الأيمان. وقال الفراء: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة﴾ الحلف بالله مانعاً لكم، متعرّضاً، أي مانعاً لكم دون البرّ والتعرّض بين الشين المانع. وقال القتبي: لا تجعلوا الله بالحلف مانعاً لكم ﴿أن تبروا وتتقوا﴾، ولكن إذا حلفتم على أن لا تصلوا رحماً، ولا تتصدقوا، ولا تصلحوا، أو على أشباه ذلك من أبواب البر، فكفِّروا اليمين. وقال الكلبي: نزلت في عبد الله بن رواحة الأنصاري. حين حلف أن لا يدخل على ختنه بشير بن النعمان ولا يكلمه، فجعل يقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل، ولا يحل لي أن لا أبر في يميني. فنزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا الله عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾. يقول: علة لأيمانكم ﴿أَن تَبَرُّوا﴾، يعني: تصلوا قرابتكم، وتتقوا اليمين في المعصية، وترجعوا إلى ما هو خير لكم منها، ﴿وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ﴾، أي بين إخوانكم. وروى عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: «لا تحلفوا أن لا تبرُوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴿والله سميع عليم﴾ فمن حلف على ذلك، فعلى

(١) الحديثان في النسخة «ب». حديث ابن عباس مرفوعاً «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة في دبرها» أخرجه الترمذي (١١٦٥) وقال: حسن غريب والنسائي كما في التحفة: ٥/ ٢١٠ وأبو يعلى (٢٣٧٨). وهو عند ابن ماجة من حديث أبي هريرة (١٩٢٣) وإسناده صحيح. وفي سنن أبي داود (٢١٦٢) بلفظ ملعون من أتى امرأة في دبرها».

Marfat.com

الذي حلف عليه أن لا يفعل ويكفِّر عن يمينه». وقال الزجاج: معنى الآية بأنهم كانوا يقبلون في البر بأنهم قد حلفوا، فأعلم الله تعالى أن الإثم إنما هو في الإقامة في ترك البر، واليمين إذا كفَّرتها، فالذنب فيها مغفور.

ثم قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي بالإثم في الحلف إذا كفّرتم، ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ بعزمكم على أن لا تبروا ولا تتقوا. قال ابن عباس: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ «هو الرجل يحلف بالله في شيء يرى أنه فيه صادق، ويرى أنه كذلك، وليس كذلك، فيكذب فيها». ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قلوبكم﴾ يعني: هو أن يحلف على شيء ويعلم أنه كاذب. ويقال: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو﴾ باليمين إذا حلفتم وكفرتم، إذا كان في الحنث خير ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ يعني: أثمتم بغير كفارة.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن حنث وكفَّر يمينه. ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث رخص لكم في ذلك ولم يعاقبكم.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾، يعني: الذين يحلفون أن لا يجامعوا نساءهم، ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، يعني: لهم أجل أربعة أشهر بعد اليمين، ﴿فَإِن فَاءُوا﴾ قال القتبي: آليتُ من امرأتي، أولي إيلاءً، والإسم: الألية، يعني: إنْ رجعوا عن اليمين وجامعوا نساءهم من قبل أن تمضي أربعة أشهر، وكفَّروا عن أيمانهم ولا تبين المرأة عن الزوج؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾، يعني: أوجبوا الطلاق بترك الجماع حتى مضت أربعة أشهر، وقعت عليها تطليقة واحدة بمضي أربعة أشهر. وقال بعضهم: لا يقع الطلاق، ولكن يؤمر الزوج بعد مضي أربعة أشهر أن يجامعها أو يطلقها. وقال بعضهم: وقع الطلاق بمضي أربعة أشهر، وهو قول علمائنا. وروي عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود أنهما قالا: «عزيمة الطلاق انقضاء الأربعة الأشهر» وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾، يعني: أوجبوا الطلاق بترك الجماع، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهم بكلمة الإيلاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾، يعني: وجب عليهن العدة ﴿ثلاثة قروء﴾،

Marfat.com

أي: ثلاث حيض. وقال بعضهم: ثلاثة أطهار. وقال أكثر أهل العلم: المراد به الحيض. وأصل القرء: الوقت. وظاهر الآية عام في إيجاب العدة على جميع المطلقات، ولكن المراد بها الخصوص، لأنه لم يدخل في الآية خمس من المطلقات: الأمة، والصغيرة، والآيسة، والحامل، وغير المدخول بها.

ثم قال: ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾، يعني: الحمل والحيض، لا يحل لها أن تقول: أنا حائض ولم تكن حائضاً أو تقول: أنا حامل وليست بحامل ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾، يعني: إن كن يصدقن بالله واليوم الآخر.

قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِن أَرَادُوا إِصْلاحاً﴾، يعني: في حال التربص إذا كان الطلاق رجعياً. ثمّ قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلذي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، يعني: للنساء على الأزواج من الحقوق مثل ما للرجال على النساء في حال التربّص إذا كان الطلاق رجعياً ﴿ولهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ يقول: بما عرف شرعاً، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، يعني: فضيلة في النفقة والمهر. ﴿وَٱللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيما حكم من الرجعة في الطلاق الذي يملك فيه الرجعة.

ثم بيّن الطلاق الذي يملك فيه الرجعة، فقال تعالى: ﴿ٱلطَّلاَقُ مَرَّتَانِ﴾، يعني: يقول: الطلاق الذي يملك فيه الرجعة تطليقتان. ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾، يعني إذا راجعها، يمسكها بمعروف، ينفق عليها، ويكسوها، ولا يؤذيها، ويحسن معاشرتها؛ ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، يعني: يؤدي حقها، ويخلي سبيلها. ويقال: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، يعني: يطلقها التطليقة الثالثة ويعطي مهرها. ويقال: يتركها حتى تنقضي عدتها. ويقال: يؤدّي حقها ويخلّي سبيلها ويقال: ﴿أو تسريح بأحسان﴾ وقال ابن عباس: «كان الرجل في الجاهلية إذا طلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، كان الرجل أحق بها، وإذا طلقها الثالثة، كانت المرأة أحق بنفسها؛ واحتج بقول الأعشى: كانت لديه امرأة بني هوزان:

يـا ربَّ ذي ضِغْـنٍ وضبٍّ فـارض مـالـهُ قـرءٌ كـقُـرْءِ الـحـائـض

فأخذه بنو هوزان حتى يطلق امرأته، فلما طلقها واحدة قالوا له: عد فطلقها الثانية، فلما طلقها الثانية قالوا له: عد فطلقها الثالثة، فعرف أنها بانت منه ولا تحل له، فقال عند ذلك:

أَجَـارَتـيْ بِـيْـنِـي فـإنَّـكِ طَـالِـقَـه كَـذَا أُمُـورُ الـنَّـاسِ غَـادٍ وَطَـارِقَـه
وبِيْنِي فَإِنَّ الْبَيْنَ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا وَأَنْ لاَ تَـزَالُ فَـوْقَ رَأْسِـكِ بَـارِقَـه
وذُوقِـي فَـتَـى الـحـيِّ إنّـي ذائـقٌ فـتـاة أُنـاسٍ مـثـلَ مـا أنـتِ ذائـقـة
لـقـد كـان فـي شُـبَّـانِ قـومـكِ مـنـكـحٌ وفـتـيـانُ هـوزانَ الـطـوالُ الـعـرايـقـة

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾. نزلت في جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول، وزوجها ثابت بن قيس وكانت تبغضه، فأتت رسول الله ﷺ

Marfat.com

فقالت: لا أنا ولا ثابت، فقال لها: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟» فقالت: نعم وزيادة. فقال: «أَمَّا الزِّيَادَة، فَلا». فدعا رسول الله ﷺ زوجها وخلعها من زوجها[١]، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهر ﴿شيئاً﴾ ﴿إِلاَّ أَنْ يَخَافَا﴾، يعني: يعلما ﴿أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾، أي: فيما أمروا بها. قرأ حمزة ﴿يُخَافَا﴾ بضم الياء على فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون: بالنصب. وقرأ ابن مسعود: ﴿إِلاَّ أَنْ يَخَافُوا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾، يقول: إن علمتم أن لا يكون بينهما إصلاح في المقام، ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، أي لا حرج على الزوج أن يأخذ ممّا افتدت به المرأة، إن كان النشوز من قبل المرأة. فأما إذا كان النشوز من قبل الزوج، فلا يحل له أن يأخذ، بدليل ما قال في آية أخرى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾، يعني: أحكامه وفرائضه ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾، يقول: لا تجاوزوها. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ﴾، أي يتجاوز أحكام الله وفرائضه ويترك ما أمره الله تعالى، أو يعمل بما نهى عنه، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، يقول: الضارون بأنفسهم. ويقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾، يعني: الطلاق مرتان، فلا تجاوزوهما إلى الثالثة. ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ بالتطليقة الثالثة، ﴿فأولئك هم الظالمون﴾. ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي الثالثة، ﴿فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ﴾ الثالثة، ﴿حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾، يعني: تتزوج بزوج آخر ويدخل بها. وإنما عرف الدخول بالسنة، وهو ما روي عن ابن عباس: أن رفاعة القرظي طلق امرأته ثلاثاً وكانت تدعى أميمة بنت وهب، فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير ولم تكن عنده إلا كهُدبة الثوب، فأتت النبي ﷺ وقالت: إن رفاعة طلقني فبتَّ طلاقي، فتزوجني عبد الرحمن، ولم أكن عنده إلا كهدبة الثوب، فقال لها: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟» فقالت: نعم. قال: «لَيْسَ ذٰلِكَ مَا لَمْ تَذُوقِي مِنْ عُسَيْلَتِهِ وَيَذُوقَ مِنْ عُسَيْلَتِكِ»[٢]، فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾، يعني: إذا طلقها الثالثة.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾، يعني: واحدة أو اثنتين؛ ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، يعني: المرأة والزوج ﴿أَن يَتَرَاجَعَا﴾. ويقال: فإن طلقها الزوج الثاني بعدما دخل بها، ﴿فلا جناح عليهما﴾ يعني: المرأة والزوج الأول أن يتراجعا، يعني: أن يتزوجها مرة أخرى. ﴿إِن ظَنَّا﴾، يعني: إن علما ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾، يعني: فرائض الله يعني: إذا علما أنه يكون بينهما الصلاح بالنكاح الثاني.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧٣) (٥٢٧٤ و٥٢٧٥) (٥٢٧٦) (٥٢٧٧). وأبو داود (٢٢٢٧) ومالك ٢/ ٥٦٤ والنسائي ٦٠/ ١٦٨ والبيهقي ٧/ ٣٠٣ وأحمد: ٤/ ٣.

(٢) حديث عائشة: أخرجه البخاري (٢٦٣٩) (٥٢٦٠) (٥٢٦١) (٥٢٦٥) (٥٣١٧) (٥٧٩٢) (٥٨٢٥) ومسلم (١٤٣٣) (١١٠) (١١١) (١١٢).

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، يعني: فرائض الله وأمره ونهيه وأحكامه، ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. ويقال: إنما قال: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، لأن الجاهل إذا بيّن له، فإنه لا يحفظ ولا يتعاهد؛ والعالم يحفظ ويتعاهد. فلهذا المعنى خاطب العلماء ولم يخاطب الجهال.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي: مضى عليهن ثلاث حيض قبل أن يغتسلن، وقبل أن يخرجن من العدة؛ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، يعني: يراجعها ويمسكها بالإحسان. قوله: ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: لا يراجعها ويتركها حتى تخرج من العدة. ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً﴾؛ والضرار في ذلك: أن يدعها حتى إذا حاضت ثلاث حيض، وأرادت أن تغتسل، راجعها ثم يطلقها، يريد بذلك: أن يطوّل عليها العدة. فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً﴾. ﴿لِتَعْتَدُواْ﴾، يعني: لتظلموهن. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يعني: الإضرار، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، يقول: أضر بنفسه بمعصيته في الإضرار. وقال الزجاج: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، يعني: عرّض نفسه للعذاب، لأن إتيان ما نهى الله عنه، تعريض لعذاب الله، لأن أصل الظلم: وضع الشيء في غير محلّه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً﴾، يعني: القرآن لعباً. ويقال: إنهم كانوا يطلقون ولا يعدون ذلك طلاقاً، ويجعلونه لعباً، فنزل: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ الله هُزُواً﴾. قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿هُزُواً﴾ بغير همز، وكذلك قوله: ﴿كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الصمد: ٤] وقرأ الباقون بالهمز، وهما لغتان، ومعناهما واحد.

ثم قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، يقول: احفظوا نعمة الله عليكم بالإسلام يقول: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾ في القرآن من المواعظ ﴿وَالحِكْمَةِ﴾ يعني: الفقه في القرآن ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾، يقول: ينهاكم عن الضرار. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الضرار، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أعمالكم فيجازيكم به.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، يقول: انقضت عدتهن؛ ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾، يقول: لا تحبسوهن ولا تمنعوهن ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَواْ بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بمهر ونكاح جديد. وذلك أن معقل بن يسار كانت أخته تحت أبي الدحداح،

Marfat.com

فطلقها وتركها حتى انقضت عدتها، ثم ندم فخطبها فرضيت، وأبى أخوها أن يزوجها له وقال لها: وجهي من وجهك حرام أن تتزوّجيه. فنزلت هذه الآية ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ﴾، يعني: يؤمر به. ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، يعني: يصدق بالله واليوم الآخر ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ﴾، يعني: خير لكم ويقال: أصلح لكم، ﴿وَأَطْهَرُ﴾ من الريبة أي: الزنا. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ من حب كل واحد منهما لصاحبه ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. ويقال: ذلكم أطهر لقلوبكم من العداوة، لأن المرأة تأتي الحاكم فيزوجها، فتدخل في قلوبهم العداوة والبغضاء. وقال الضحاك: ﴿والله يعلم﴾ أن الخير في الوفاء والعدل، ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ما عليكم في التفريق من العقوبة والعذاب. وقال مقاتل: فدعا رسول الله ﷺ معقلاً، فقال: «إِنْ كُنْتَ مُؤْمِناً فَلاَ تَمْنَعْ أُخْتَكَ عَنْ أَبِي الدَّحْدَاحِ»، فقال: آمنت بالله وزوجتها منه، وفي هذه الآية دليل أن الولي إذا منع المرأة عن النكاح، كان للحاكم أن يزوجها.

﴿۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، يعني: سنتين كاملتين، ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، أي: يكمل الرضاعة. فإن قيل: لما ذكر الحولين، إيش معنى الكاملين؟ قيل له: هذا للتأكيد، لأن بعض الحولين يسمى حولين، كما قال في آية أخرى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإنما هي شهران وعشرة أيام. فهاهنا لما ذكر الكاملين، علم أنه أراد الحولين بغير نقصان.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾، يعني: على الأب أجر الرضاع ونفقة الأم، ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، يعني: على قدر طاقته. ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، يعني: لا يجب على الأب من النفقة والكسوة إلا مقدار طاقته.

ثمّ قال: ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ يقول: لا ينزع الولد من الأم لأنها أحق بولدها من غيرها. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿وَلاَ تُضَارُّ﴾ بضم الراء على معنى الخبر تبعاً لقوله: ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، فلفظه لفظ الخبر والمراد به: النهي. وقرأ الباقون: بالنصب على صريح النهي. ثمّ قال: ﴿وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾، يعني: الأب لا يضار بالولد، فتطرح الأم الولد على الأب بعدما عرفت أنه لا يقبل ثدي غيرها، فلا يجوز لها أن تفعل ذلك. فقال: ﴿وَلاَ مَوْلُودٌ

Marfat.com

لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ يعني: إذا كان الأب يجد ظئراً أرخص من الأم، والأم أبت أن ترضع إلا بأجر كثير، فإن الأب لا يجبر على ذلك، وله أن يدفع إلى ظئر أخرى.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾، يعني: إذا لم يكن للصبيّ أب وله ورثة سوى الأب، فعلى وارث الصبي مثل ما على الأب. ويقال: على وارث الأب لا يضارّها ولا تضاره. ويقال ﴿على الوارث مثل ذلك﴾، يعني: الرزق والكسوة في رضاع الأم الصبي ونفقته. ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً﴾، يعني: فطاماً ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾، يعني الأب والأم دون الحولين. ويقال: بعد الحولين. ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، أي لا حرج عليهما إن لم يرضعاه سنتين. ﴿وَإِنْ أَردتُم أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ﴾، يعني: أن تأخذوا ظئراً لأولادكم، إذا أرادت الأم النكاح ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾، يعني: لا إثم عليكم إذا أعطيتم الظئر ﴿مَّا آتَيْتم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، بما تعرفونه. ويقال: أعطيتم ما شرطتم لهن.

ثم خوفهما في الإضرار، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، يعني: الأبوين فلا يضار واحد منهما لصاحبه. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الإضرار فيجازيكم به. قرأ ابن كثير: ﴿مَا أَتَيْتُم﴾ بغير مد، يعني: ما جئتم وفعلتم، وقرأ الباقون بالمد، يعني: ما أعطيتم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾، يعني: يموتون منكم، ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾، يعني: يتركون نساء من بعدهم. ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾، يعني: ينتظرن بأنفسهن ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾، لا يتزوجن ولا يتزيّن ولا يخرجن. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، يعني انقضت عدتهن ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، أي فلا إثم عليكم ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من الزينة والكحل والخضاب. وذلك أن المرأة إذا انقضت عدتها، فكان أولياؤها يمنعونها من الزينة، فأباح الله تعالى لهن الزينة بعد العدة. ويقال: فلا جناح عليكم ﴿فيما فعلن في أنفسهن بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، يعني: إذا تزوجن بزوج آخر، إذا كان الزوج كفواً، فلا يمنع من نكاحها. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من الزينة والمنع من نكاحها وغير ذلك. وهذه الآية عامة، يستوي فيها المدخولة وغير المدخولة، والصغيرة والكبيرة في وجوب العدة من الزينة والمنع وغير ذلك.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَاءِ﴾. فقد أباح للخاطب أن يتعرض بالنكاح، ونهاه عن العقدة والخطبة، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ﴾ يقول: لا بأس بأن يأتي الرجل المرأة المتوفى عنها زوجها، فيعرض لها ويقول: إنك لتعجبيني وإنك لموافقة لي، فأرجو أن يكون بيننا اجتماع، ونحو ذلك من الكلام. فهذا هو التعريض ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾، يعني أضمرتم في أنفسكم. قال الزجاج: كل شيء سترته فقد أكننته وكننته وهو مكنون، فلذلك أباح الله تعالى التعريض.

ثم قال تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾، يعني: خافوا الله في العدة من تزويجهن. ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، يعني: نكاحاً، ويقال: جماعاً. وقال القتبي: سمي الجماع سراً، لأنه يكون في السر فيكنى عنه. ﴿إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. يعني: عدة حسنة، نحو إنك لجميلة، وإني فيك لراغب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾، يقول: ولا تحققوا عقدة النكاح، يعني: لا تتزوجوهن في العدة. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُ﴾، يعني: حتى تنقضي عدتها. ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾، يعني: ما في قلوبكم من الوفاء وغيره. ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾، أن تخالفوه فيما أمركم ونهاكم. ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾، ذو تجاوز، ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل عليكم بالعقوبة.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: لا حرج عليكم ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي ﴿تُمَاسُّوهُنَّ﴾ بالألف من المفاعلة، وهو فعل بين اثنين؛ وقرأ الباقون بغير ألف، لأن الفعل للرجال خاصة. وقال بعضهم: المس هو الجماع خاصة، فما لم يجامعها لم يجب عليه تمام الصَّداق. وقال بعضهم: إذا جامعها أو خلا بها، وجب عليه جميع الصداق إذا كان سمى لها مهراً؛ وإن لم يكن سمى لها مهراً فلها مهر مثلها إن دخل بها، وإن لم يدخل بها فلها المتعة. فذلك قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾، يعني: إذا تزوج الرجل امرأة ثم لم يعجبه المقام معها، فلا بأس بأن يطلقها قبل أن يمسها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، يعني: لا حرج عليكم أن تتزوجوا النساء ولا تسموا لهن مهراً ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾، يعني: إذا طلقها قبل أن يدخل بها، فعلى الزوج أن يمتعها

Marfat.com

﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: «قَدَرُهُ» بنصب الدال، وقرأ الباقون بالجزم؛ ومعناهما واحد.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: قال ابن عباس في رواية الكلبي: «أدنى ما يكون من المتعة ثلاثة أثواب: درع، وخمار، وملحفة»، وهكذا قال في رواية الضحاك ﴿حَقّاً عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أن يمتعوا النساء على قدر طاقتهم.

ثم قال عزّ وجل ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾، يعني: من قبل أن تجامعوهن وقبل أن تخلوا بهن، هكذا قال في رواية الضحاك، ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، يعني: على الزوج نصف ما فرض لها من المهر. ﴿إِلاَّ أَن يَعْفُونَ﴾، يعني: إلا أن تترك المرأة فلا تأخذ شيئاً، ﴿أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾، يعني: الزوج، يكمل لها جميع الصداق. ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، يقول: أن يعفو بعضكم بعضاً كان أقرب إلى البر، فأيهما ترك لصاحبه فقد أخذ بالفضل. ويقال: إن الله تعالى ندب إلى الإنسانية، فأمر كل واحد منهما بالعفو.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، يعني: لا تتركوا الفضل والإنسانية فيما بينكم في إتمام المهر أو في الترك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجاريكم بذلك.

﴿حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وٱلصَّلاَةِ ٱلْوُسْطَى﴾: قال ابن عباس في قوله عز وجل ﴿حافظوا على الصلوات﴾ «حافظوا على الصلوات المكتوبات الخمس، في مواقيتها بوضوئها وركوعها وسجودها» يقول: ﴿وَٱلصَّلاَةِ ٱلْوُسْطَى﴾، خاصة حافظوا عليها. ويقال: هي صلاة العصر. ويقال: هي صلاة الصبح ويقال: هي صلاة الظهر.

حدثنا القاسم بن محمد بن روزبة قال: حدثنا عيسى بن خشنام قال: حدثنا سويد بن سعيد، عن مالك بن أنس، أنه بلغه، عن علي وابن عباس رضي الله عنهما كانا يقولان: «صلاة الوسطى صلاة الصبح»(1). قال مالك: وذلك رأيي. أخبرنا القاسم بن محمد قال: حدثنا عيسى بن خنشام قال: حدثنا سويد بن سعيد عن مالك، عن داود بن الحصين، عن رجل، عن زيد بن ثابت قال: «صلاة الوسطى صلاة الظهر».

وبهذا الإسناد، عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن الحكم، عن أبي يونس

(١) عزاه السيوطي ٧١٨/١ إلى مالك في الموطأ عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب. وأخرجه البيهقي في سننه.

Marfat.com

مولى عائشة رضي الله عنها أنه قال: «أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذني، فلما بلغتها آذنتها، فأملت علي: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ صلاة العصر»[١].

قال الفقيه: حدثنا أبو إبراهيم الترمذي عن أبي إسحق، عن أبي جعفر محمد بن علي، عن نافع مولى ابن عمر[٢] قال: حدثنا علي بن معبد قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، عن أبي إسحاق، عن أبي جعفر محمد بن علي، عن نافع، مولى ابن عمر وكان يكتب المصاحف أنه قال: استكتبتني حفصة ابنة عمر مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها، حتى تأتيني فأمليها عليك كما حفظتها من رسول الله ﷺ، فلما بلغتها أتيتها بالورقة فقالت: اكتب ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾صلاة العصر[٣]. ويقال: هي قراءة عبد الله بن مسعود.

وروي عن أبي هريرة وابن عمر أنهما قالا: «صلاة الوسطى العصر»، وروي عن عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، عن علي رضي الله عنه أنه قال: «كنت ظننت أنها صلاة الفجر، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الخندق وقد شغلوه عن صلاة العصر، قال: «**مَلأَ الله بُطُونَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَاراً، شَغَلُونا عَنِ الصَّلاةِ الوُسْطَى، صَلاةِ العَصْرِ**»[٤]. وإنما كان فائدة التخصيص بصلاة العصر، لأن ذلك وقت الشغل فيخاف فوتها ما لا يخاف لسائر الصلوات. وقد أكد بالذكر وبطريق المعقول لأن قبلها صلاتي النهار، وبعدها صلاتي الليل.

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾ يعني: قوموا لله طائعين في الصلاة مطيعين. ويقال: صلوا لله قائمين، فكأنه أمر بطول القيام في الصلاة. كما قال في آية أخرى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣] وروي عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن أفضل الصلاة فقال: «**التِي يُطِيلُ القُنُوتَ فِيهَا**»[٥]، يعني: القيام. ويقال: قانتين، يعني ساكتين، كما روي عن زيد بن أرقم أنه قال: «كنا نتكلم في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام». وقال الزجاج: القنوت المشهور في اللغة الدعاء في القيام، وحقيقة القانت القائم بأمر الله تعالى.

---

(١) الدر المنثور: ١/ ٧١٩.
(٢) هكذا في النسخة «ب».
(٣) عزاه السيوطي: إلى الموطأ. وهو في الموطأ: ١/ ١٣٨.
(٤) حديث علي: أخرجه البخاري (٢٩٣١) و(٤١١١) و(٤٥٣٣) و(٦٣٩٦) ومسلم (٦٢٧) وابن ماجة (٦٨٤) وأبو داود (٤٠٩) وأحمد: (١/ ١٢٢، ١٣٥، ١٣٧)، والبغوي (٣٨٧) والبيهقي ١/ ٤٦٠.
وفي الباب عن ابن مسعود مرفوعاً «صلاة الوسطى صلاة العصر» عند مسلم (٦٢٨) والترمذي (١٨١) و(٢٩٨٥) وأحمد: ١/ ٣٩٢ والبيهقي: ١/ ٤٦١.
(٥) حديث جابر: أخرجه مسلم (٧٥٦) (١٦٥ والترمذي (٣٨٧) وابن ماجة (١٤٢١) والبيهقي ٣/ ٨ وأحمد ٣/ ٣٠٢ والبغوي: (٦٦٠).

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾، يعني: إذا خفتم العدو فصلوا قياماً، فإن لم تستطيعوا فصلوا ركباناً على الدواب، حيث ما توجهت بكم بالإيماء. وهذا موافق لما روي عن النبي ﷺ أنه ذكر صلاة الخوف، ثم قال في آخره «فَإِنْ كانَ الخَوْفُ أَشَدَّ مِنْ ذٰلِكَ، صَلُّوا عَلَى أَقْدامِكُمْ أَوْ رُكْباناً مُسْتَقْبِلِي القِبْلَةِ أَوْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِيها». ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾، يعني: من العدو والخوف، ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ﴾، يعني: صلوا كما علمكم أربعاً. وعلمكم ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: علمكم الصلاة ولم تكونوا تعلمون من قبل.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً﴾، يعني: يموتون ويتركون نساءهم من بعدهم ﴿وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم﴾، يعني: يوصون لنسائهم. قرأ ابن كثير ونافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم «وَصِيَّةٌ» بالضم، يعني: عليهم وصية؛ وقرأ الباقون: بالنصب، يعني: يوصون وصية لأزواجهم. ﴿مَتَاعاً﴾، أي: نفقة وكسوة ﴿إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، يقول: لا يخرجن من بيت أزواجهن. وهذا في أول الشريعة، كانت العدة حولاً، وهكذا كان في الجاهلية، ألا ترى إلى قول لبيد:

وَهُمْ رَبِيعٌ لِلْمُجَاوِرِ فِيهِمُ وَالْمُرْمِلاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا

ثم نسخ ما زاد على الأربعة أشهر وعشراً، ونسخت الوصية للأزواج بقول النبي ﷺ: «لا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»(١). ويقال: نسخ بآية الميراث.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾، يعني: من الزينة، يحتمل أنه أراد به الخروج بعد مضي سنة، ويحتمل الخروج في السنة إذا خرجت بعذر في أمر لا بد لها منه. ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقد ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾. والمطلقات أربع: مطلقة سمى لها مهراً، ومطلقة لم يسم لها مهراً، ومطلقة دخل بها، ومطلقة لم يدخل بها، فالمتعة لا تكون واجبة إلا لمطلقة واحدة وهي التي لم يسم لها مهراً وطلقها قبل الدخول، كما ذكر في الآية التي سبق

---

(١) حديث أبي أمامة: أخرجه الترمذي (٢١٢٠) و(٢١٢١) والبيهقي: ٦/ ٨٥) وأحمد: ٤/ ١٨٦ والطبراني: ١٧/ ٣٥ والدارقطني: ٤/ ٧٠، ٩٧ وعبد الرزاق (٧٢٧٧) والمطالب: (١٤٦٧).

Marfat.com

ذكرها، وفي سائر المطلقات المتعة مستحبة وليست بواجبة. ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: واجباً على المتقين، وذلك فيما بينه وبين الله تعالى، فلا يجبر عليه إلا في المطلقة التي ذكرناها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعني: أمره ونهيه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ما أمرتم به. ويقال: آياته يعني دلائله. ويقال: ﴿آياته﴾يعني القرآن.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا﴾ يقول: ألم تخبر: وهذا على سبيل التعجب، كما يقال: ألا ترى إلى ما صنع فلان؟! ويقال: ﴿ألم تر﴾يعني: ألم تعلم؟ ويقال: ألم ينته إليك خبرهم؟ أي الآن نخبرك عنهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: «وذلك أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمر الناس بالخروج إلى الغزو فخرجوا، فبلغهم أن في ذلك الموضع طاعوناً، فامتنعوا عن الخروج إلى هناك، ونزلوا في موضعهم، فهلكوا كلهم، فبلغ خبرهم إلى بني إسرائيل، فخرجوا ليدفنوهم، فعجزوا عن ذلك لكثرتهم، فحظروا عليهم الحظائر، ثم أحياهم الله تعالى بعد ثمانية أيام، وبقيت منهم بقايا لم تحيى». وقال بعضهم: بلغهم أن هناك للعدو شوكة وقوة، فامتنعوا عن الخروج إليهم، فأهلكهم الله تعالى.

وقال بعضهم: إن أرضاً كان وقع بها الوباء فخرج الناس منها هاربين، فنزلوا منزلاً فماتوا كلهم، فمر بهم نبي يقال له حِزقيل عليه السلام فقال: الحمد لله القادر الذي يحيي هذه النفوس البالية ليعبدوه. فدعا لهم فأحياهم الله تعالى؛ فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ قال ابن عباس في رواية الكلبي وفي رواية الضحاك: «ثمانية آلاف، ويقال: سبعون ألفاً، ويقال: ثمانية عشر ألفاً. وقال بعضهم ﴿وهم ألوف﴾كما قال الله تعالى، ولا يعرف كم عددهم إلا الله. ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ يعني: خرجوا من ديارهم مخافة الموت.

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا﴾ يعني: أماتهم الله، ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعني: على أولئك الكفار حين أحياهم. يقال: هو ذو منٍّ على جميع الناس. ويقال: على الذين أحياهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾رب هذه النعمة، يعني: الكفار، ويقال: على الذي أحياهم.

وفي هذه الآية: دلالة نبوة محمد ﷺ حيث أخبر عمن قبله ولم يكن قرأ الكتب، فظهر ذلك عند اليهود والنصارى وعرفوا أنه حق. وفي هذه الآية إبطال قول من يقول: إن الإحياء بعد الموت لا يجوز، وينكر عذاب القبر؛ لأن الله تعالى يخبر أنه قد أماتهم ثم أحياهم.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ . قال ابن عباس في رواية أبي صالح: «لما أحياهم الله قال لهم: ﴿قَاتِلُوا في سَبِيل الله﴾ . ويقال: هذا أمر بالجهاد لأمة محمد ﷺ، قال لهم: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ، أي: ﴿سميع﴾ لمقالتهم، ﴿عليم﴾ بالأرض التي وقع فيها الوباء.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ . نزلت في شأن أبي الدحداح، قال: يا رسول الله، إن لي حديقتين لو تصدقت بواحدة منهما، أيكون لي مثلها في الجنة؟ قال «نَعَمْ». قال: وأم الدحداح معي؟ يعني امرأته. قال: «نَعَمْ». قال: والدحداح معي؟ يعني ابنه، فقال: «نَعَمْ». قال: أشهدك أني قد جعلت حديقتي لله تعالى. ثم جاء إلى الحديقة، وقام على الباب وتحرج الدخول فيها بعدما جعلها لله تعالى ونادى: يا أم الدحداح اخرجي، فإني جعلت حديقتي لله تعالى، فخرجت وتحولت إلى حديقة أخرى، وقالت له: هنيئاً لك بما فعلت أو كما فعلت[1]، فنزل قوله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ يعني: ألفي ألف ضعف.

قال الفقيه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد قال: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا المعلى بن منصور قال: حدثنا جعفر قال: حدثنا علي بن زيد، عن أبي عثمان النهدي قال: بلغني عن أبي هريرة حديث أنه قال: «إن الله تعالى يكتب للعبد المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة» فحججت ذلك العام لألقى أبا هريرة، فأكلمه في هذا الحديث، فلقيته فأخبرته فقال: ليس كذا قلت، ولم يحفظ الذي حدثك عني، وإنما قلت: «ألفي ألف حسنة»، ثم قال أبو هريرة: «أو لستم تجدون في كتاب الله تعالى قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ . قوله: ﴿كَثِيرَةً﴾ أكثر من ألف ألف ومن ألفي ألف.

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱللهُ يَقْبِضُ﴾ ، أي: يقتر الرزق على من يشاء ﴿وَيَبْسطُ﴾ ، يعني: يوسع على من يشاء من عباده. ويقال: يقبض الصدقات ويخلفها الثواب في الدنيا وفي الآخرة. وقال بعضهم: يسلب قوماً ما أنعم عليهم، ويوسع على آخرين. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة. قرأ حمزة والكسائي ونافع وأبو عمرو: ﴿فَيُضَاعِفُهُ﴾ بالألف وبضم الفاء، وقرأ عاصم ﴿فَيُضَاعِفَهُ﴾ بالألف وبنصب الفاء، وقرأ ابن كثير ﴿فَيُضَعِّفُهُ﴾ بغير ألف بنصب الفاء. فأما من قرأ: ﴿فَيُضَاعِفُهُ﴾ بالألف والضم، ﴿يُضَعِّفُهُ﴾ فهما لغتان بمعنى واحد. يقال: ضاعفت الشيء وضعفته. ومن قرأ بضم الفاء عطفه على قوله: ﴿يُقْرِضُ الله﴾ . ومن نصبه فعلى جواب

(١) عزاه السيوطي: ١/٧٤٦ إلى ابن مردويه من طريق زيد بن أسلم عن عطاء. وعن الأعرج عن أبي هريرة.

Marfat.com

الاستفهام. وقرأ نافع ﴿يَبْصُطُ﴾ بالصاد، وقرأ الباقون: بالسين وهو أظهر عند أهل اللغة. وفي كل موضع يكون الصاد قريباً من الطاء، جاز أن يقرأ بالسين وبالصاد مثل: المصيطرون ومثل: الصراط، لأنه يشتد فرق الصاد عند ذلك، فيجوز القراءة بالسين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: الرؤساء والقادة. وقال بعضهم: اشتقاق المَلأ في اللغة من المَلأ هو الجماعة التي تملأ باديتهم. وقال بعضهم: الناظر إذا نظر إليهم، امتلأ عينه هيبة منهم؛ وذلك أن كفار بني إسرائيل قهروا مؤمنيهم فقتلوهم، وسبوهم، وأخرجوهم من ديارهم. وكان رئيسهم جالوت، فلما اضطر المسلمون في ذلك جاؤوا إلى نبي لهم يقال له: أشمويل بن هلقانا عليه السلام بلغة العبرانية، وبالعربية إسماعيل بن هلقان، ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ يعني: أشمويل: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً﴾ يعني: ادع الله تعالى لنا أن يجعل لنا ملكاً، ﴿نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم أشمويل: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ قرأ نافع: ﴿هَلْ عَسِيتُم﴾ بكسر السين، وقرأ الباقون: بالنصب، وهي اللغة المعروفة. والأول لغة لبعض العرب ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ ألاَّ تُقَاتِلُوا﴾ يعني: إذا بعث الله لكم ملكاً وفرض عليكم القتال، لعلكم لا تقاتلون وتجبنون عن القتال. ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا ألاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول: كيف لا نقاتل في سبيل الله؛ ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ يعني: أخذوا ديارنا وسبوا أبنائنا.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ﴾ يعني: فرض عليهم القتال. ﴿تَوَلَّوا﴾ وتركوا القتال ولم يثبتوا ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعني: أن الله تعالى يعلم جزاء من تولى عن القتال.

Marfat.com

ثم بيّن لهم القصة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾ ، يعني: قد أجابكم ربكم إلى ما سألتم من بعث ملك تقاتلون في سبيل الله معه، وقد جعل لكم﴿طالوت ملكاً﴾ وكان طالوت فيهم حقير الشأن، وكانت النبوة في بني لاوي بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا. ولم يكن طالوت من أهل بيت الملك، ولا من أهل بيت النبوة. ويقال: كان رجلاً يبيع الخمر، ويقال: كان دباغاً، ولكنه كان عالماً فرفعه الله بعلمه. ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ ، يعني: المسلمون قالوا لنبيهم: من أين يكون له الملك علينا﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ ؟ لأن منا الملوك. ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾ طالوت﴿سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ ينفق علينا. والملك يحتاج إلى مال ينفق على جنوده وأعوانه.

﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ ، يعني: اختاره عليكم﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ ، أي فضيلة﴿فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ ؛ وكان رجلاً جسيماً وكان عالماً بأمر الحرب. ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ . والواسع في اللغة: هو الغني. ويقال: ﴿واسع﴾ بعطية الملك، ﴿عالم﴾ لمن يعطيه. ويقال: ﴿واسع﴾ يعني: باسط الرزق، ﴿عليم﴾ : بمن يصلح له الملك. فظنوا أنه يقول لهم من ذات نفسه. وقالوا له: إن كان الله تعالى أمرك بذلك، فأتنا بآية: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وذلك أن الكفار كانوا أخذوا التابوت، وكان التابوت للمسلمين، فإذا خرجوا للغزو والتابوت معهم كانوا يرجون الظفر. فأخذ الكفار التابوت ووضعوه في مخرأة لهم فابتلاهم الله تعالى بالباسور. ويقال: إن أصل الباسور من ذلك الوقت، وأصل الجذام من وقت أيوب عليه السلام، وتغير الطعام من قبل بني إسرائيل. فجعل الله تعالى آية ملك طالوت رد التابوت إليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ يعني: علامة ملكة﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ . ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ . قال الكلبي: طمأنينة من ربكم، إذا كان التابوت في مكان اطمأنت قلوبهم بالظفر. وقال مقاتل: السكينة كانت دابة ورأسها كرأس الهرة ولها جناحان، فإذا صوّتت، عرفوا أن النصرة لهم. ويقال: كانت جوهراً أحمر يسمع منه الصوت. ويقال: كانت ريحاً تهب فيها، لها صوت يعرفون أن النصرة لهم عند الصوت.

وقوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ ، يعني الرضراض من الألواح، وقفيزاً من منّ في طست من ذهب، وعصا موسى، وعمامة هارون. قال الكلبي: وكان التابوت من عود الشمشاذ الذي يتخذ منه الأمشاط، فلما ابتلاهم الله تعالى بالباسور، عرفوا أن ذلك من التابوت، فقالوا: لعل إله بني إسرائيل الذي فينا، يعنون التابوت، هو الذي يفعل بنا هذا الفعل. فأخرجوا بقرتين من المدينة وتركوا أولادهما في المدينة، وربطوا التابوت على عجلة ثم ربطوا العجلة بالبقرتين، ثم وجهوهما نحو بني إسرائيل؛ فضربت الملائكة جنوبهما، فساقوهما حتى هجموا بهما على أرض بني إسرائيل، فأصبحوا والتابوت بين أظهرهم. فذلك قوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ ، يعني: الملائكة ساقوا العجلة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ ، يعني: إن في رد التابوت

Marfat.com

علامة لملك طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: مصدقين بأن ملكه من الله تعالى فعرفوا وأطاعوه.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾، يعني: فتجهز طالوت وخرج بالجنود وهم سبعون ألفاً، فساروا في حر شديد، فأصابهم عطش شديد، فسألوا طالوت الماء. فـ﴿قَالَ﴾لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾وهو بين الأردن وفلسطين، وإنما كان الابتلاء ليظهر عند طالوت من كان مخلصاً في نيته من غيره، وأراد أن يميز عنهم من لا يريد القتال، لأن من لا يريد القتال إذا خالط العسكر، يدخل الضعف والوهن في العسكر، لأنه إذا انهزم وهرب ضعف الباقون. ويقال: إن أشمويل هو الذي أخبر طالوت بالوحي، حتى أخبر طالوت قومه حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، يعني: ليس معي على عدوي، إذا شرب بغير غرفة. ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، يعني: لم يشرب منه بغير غرفة. ﴿فإنه مني﴾ أي معي على عدوي ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿غَرْفَةً﴾بنصب الغين، وقرأ الباقون برفع الغين. فمن قرأ بالنصب، يكون مصدر غرفة، أي مرة واحدة باليد. ومن قرأ بالضم، هو ملء الكفّ وهو اسم الماء مثل: الخَطوة والخُطوة. قال بعض المفسرين: الغَرفة بكف واحدة، والغُرفة بالكفين. وقال بعضهم: كلاهما لغتان ومعناهما واحد.

فلما خرجوا من المفازة وقد أصابهم العطش، وقفوا في النهر، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾بغير غرفة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوم بدر: **«أَنْتُمْ عَلَى عَدَدِ الْمُرْسَلِينَ وَعَدَدِ قَوْمِ طَالُوتَ ثَلاثمائةٍ وثلاثة عشر»**(1)، فأمر من شرب

(1) عزاه السيوطي ١/ ٧٦٠ إلى ابن جرير عن قتادة.

Marfat.com

بغير غرفة أن يرجعوا. ويقال: قد ظهر على شفاههم علامة، عرف بها من شرب من الذي لم يشرب، فردهم وأمسك المخلصين منهم.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ ، أي: النهر. ﴿هُوَ﴾ ، يعني: طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: المؤمنون ودنوا إلى عسكر جالوت، وكان معه مائة ألف فارس كلهم شاكون في السلاح. ﴿قَالُوا﴾ ، المؤمنون: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ، لما رأوا من كثرتهم. ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ﴾ ، يعني: أيقنوا بالموت لما رأوا من كثرة العدو فأيقنوا بهلاك أنفسهم. ويقال: أيقنوا بالبعث بعد الموت وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ﴾ ، وهم أهل العلم منهم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ ، يعني: كم من جند قليل، ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ عدتهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ، أي: بنصر الله وأمره، إذا خلصت نيتهم، وطابت أنفسهم بالموت في طاعة الله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر على عدوهم يعني: معينهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ، يقول: خرجوا واصطفوا لجالوت. دعوا الله تعالى، ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ ، يقول: أصبب علينا صبراً، معناه: ارزقنا الصبر على القتال، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عند القتال ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ .

قال وكان داود عليه السلام راعياً، وكان له سبعة أخوة مع طالوت، فلما أبطأ خبر إخوته على أبيهم وكان اسمه إيشا، أرسل إليهم ابنه داود ينظر إليهم ما أمرهم ويأتيه بخبرهم، فلما خرج مرَّ على حجر فقال له الحجر: خذني فإني حجر إبراهيم الذي قتل بي عدوه، فأخذه وجعله في مخلاته ثم مرَّ بآخر فقال له: خذني فإني حجر موسى الذي قتل بي كذا كذا، ثم مرَّ بثالث فقال له: خذني فأنا الذي أقتل جالوت، فأخذه وجعله في مخلاته. فأتاهم وهم بالصفوف وقد برز جالوت فقال: من يبارزني؟ فلم يخرج إليه أحد. ثم قال: يا بني إسرائيل لو كنتم على حق، لخرج إليَّ بعضكم. فقال داود لإخوته: أما فيكم أحد يخرج إلى هذا الأقلف؟ فقالوا له: اسكت. فذهب داود إلى ناحية من الصف ليس فيها أحد من إخوته، فمر طالوت به وهو يحرض الناس، فقال له داود: وما تصنعون بمن يقتل هذا الأقلف؟ قال طالوت: أنكحه ابنتي واجعل له نصف ملكي. قال داود: فأنا أخرج إليه. فأعطاه طالوت درعه وسيفه، فلما خرج في الدرع جرها، لأن طالوت كان أطول الناس، فرجع داود إلى طالوت وقال: إني لم أتعود القتال في الدرع، فرد الدرع إليه. فقال له طالوت: فهل جرَّبت نفسك؟ قال: نعم، وقع ذئب في غنمي فضربته بالسيف فقطعته نصفين. فقال له طالوت: إن الذئب ضعيف، فهل جربت نفسك في غير هذا؟ قال: نعم، دخل أسد في غنمي فضربته، ثم أخذت بلحييه فشققتها، فقال له: هذا أشد، ثم قال له ما اسمك؟ قال: داود بن إيشا. فعرفه. فرأى أنه أجلد إخوته، فأخذ قذافته وخرج. فلما رآه جالوت قال: خرجت إليّ لتقتلني بالقلاعة كما يقتل الكلاب؟ فقال له داود: وهل أنت إلا مثل الكلب؟ قال الكلبي: وكان على رأس جالوت بيضة ثلاثمائة رطل، فقال له جالوت: إما

Marfat.com

أن ترميني وإما أن أرميك. فقال له داود: بل أنا أرميك. ثم أخذ واحداً من الأحجار فرماه. فوقع في صدره ونفذ من صدره، وقتل خلفه خلقاً كثيراً. وقال بعضهم: صارت الأحجار كلها واحدة، فلما رماها تفرقت في عسكره فقتلت خلقاً كثيراً. وقال بعضهم: رمى واحداً بعد واحد، فقتل جالوت وخلقاً كثيراً، وهزمهم بإذن الله، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾.

ثم إن طالوت زوّج داود ابنته وأراد أن يدفع إليه نصف ملكه، فقال له وزراؤه: لو دفعت إليه نصف ملكك، فيصير منازعاً لك في ملكك، ويفسد عليك الملك. فامتنع من ذلك وأراد قتل داود عليه السلام وكان في ذلك ما شاء الله حتى دفع إليه النصف، ثم خرج طالوت إلى بعض المغازي فقتل هناك، فتحول الملك كله إلى داود. ولم يجتمع بنو إسرائيل كلهم على ملك واحد إلا على داود. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَآتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، يعني: ملك اثني عشر سبطاً ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعني: النبوة، وأنزل عليه الزبور أربعمائة وعشرين سورة؛ ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾، يعني: ما يشاء داود من صنع الدروع وكلام الطيور وتسبيح الجبال معه ويقال: ما شاء الله من الزبور، وكلام الطيور، وتسبيح الطيور معه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، أي يدفع البلاء عن المؤمنين بالنبيين عليهم السلام، ويدفع بالمؤمنين عن الكفار، ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، يعني: هلك أهلها. ويقال: ﴿ولولا دفع الله﴾ جالوت بطالوت، لهلكت بنو إسرائيل كلهم. ويقال: ﴿ولولا دفع الله﴾ البلايا بسبب المطيعين، لهلك الناس كما جاء في الأثر: «**لولا رجال خشّع وصبيان رضّع وبهائِم رتّع، لصببْتُ عليكُمُ العذابَ صبّاً**». وروي عن الحسن أنه قال: لولا الصالحون لهلك الطالحون. ويقال: لولا أمر الله تعالى المسلمين بحرب الكفار، لفسدت الأرض بغلبة الكفار. ويقال لولا ما ينتفع بعض الناس ببعض، لأن في كل أرض بلدة يتولد منها شيء لا يوجد ذلك في سائر البلدان، فينتفع به أهل سائر البلدان؛ وينتفع بعضهم ببعض، فيكون في ذلك صلاح أهل الأرض.

قرأ نافع هاهنا ﴿وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللهِ﴾ وفي الحج: ﴿يُدَافِعُ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف في كلا الموضعين، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ﴾ بغير ألف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾ [الحج: ٣٨] بالألف. وتفسير القراءتين واحد وهما لغتان معروفتان.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ﴾، أي ذو منّ ﴿على العالمين﴾ برفع البلايا عنهم.

ثم قال عز وجل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نتلوها﴾ وهو ما قصّ عليه من أخبار الأمم. ﴿عَلَيْكَ﴾، يعني: تنزلها، بقراءة جبريل عليك ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، يعني: بالصدق. ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، يعني: إنك من جملة المرسلين الذين ذكرناهم. وقال الزجاج: ﴿تلك آيات الله﴾ أي هذه الآيات

Marfat.com

التي أنبأت، أي العلامات التي تدل على توحيد وتثبيت رسالاته، إذ كان يعجز عن إتيان مثلها المخلوقون، وإنك من هؤلاء المرسلين، لأنك قد أتيتهم بالعلامات.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾، الذين أنزلنا عليك في القرآن خبرهم، ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا. ويقال: التفضيل يكون على ثلاثة أوجه. أحدها: أن يكون دلالة نبوته أكثر. والثاني: أن تكون أمته أكثر. والثالث: أن يكون بنفسه أفضل. ثم بيّن تفضيلهم فقال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ يعني: مثل موسى عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، يعني: إدريس عليه السلام حيث قال: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]. وقال الزجاج: جاء في التفسير يعني: أنه أراد به محمداً ﷺ، لأنه أرسله إلى الناس كافة. وليس شيء من الآيات التي أعطاها الله الأنبياء إلا وقد أعطى محمداً ﷺ أكثر، لأنه قد كلمته الشجرة، وأطعم من كف من التمر خلقاً كثيراً، وأمرَّ يده على شاة أم معبد فدرت لبناً كثيراً بعد الجفاف، ومنها انشقاق القمر فذلك قوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، يعني محمداً ﷺ. ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ﴾، يعني: العجائب والدلائل وهو: أن يحيي الموتى بإذنه، ويبرىء الأكمه والأبرص ﴿وأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، يعني: أعناه بجبريل حين أرادوا قتله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ﴾ يعني: ما اختلف الذين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ التي أتاهم بها مثل موسى وعيسى عليهما السلام. وقال الزجاج: يحتمل وجهين: يحتمل: ولو شاء الله ما أمر بالقتال بعد وضوح الحجة ويحتمل: ولو شاء الله اضطرهم إلى أن يكونوا مؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] ولكن اختلفوا في الدين فصاروا فريقين ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَن كَفَرَ﴾ بالكتاب والرسل. ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا﴾ فجعلهم على أمر واحد. ﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، يعني: يعصم من يشاء من الاختلاف، ويخذل من يشاء، ولا مرد لأمره، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾، يعني: تصدقوا. قال بعضهم:

Marfat.com

أراد به الزكاة المفروضة. وقال بعضهم: صدقة التطوع. ثم بيّن لهم أن الدنيا فانية وأنه في الآخرة لا ينفعهم شيء إلا ما قدموه. فقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾، يقول: لا فداء فيه ﴿وَلاَ خُلَّةٌ﴾ يعني: لا صداقة، وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. ﴿وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ للكافرين كما تكون في الدنيا.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لاَ بَيْعَ فِيهِ وَلاَ خُلَّةَ وَلاَ شَفَاعَةَ﴾ بالنصب، وكذلك في سورة إبراهيم: ﴿لاَ بَيْعَ فِيهِ وَلاَ خِلاَلَ﴾ وقرأ الباقون بالضم مع التنوين.

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلْكَافِرُونَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ يظلمون أنفسهم. والظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه. وكان المشركون يقولون: الأصنام شركاؤه وهم شفعاؤنا عند الله، فوحد الله نفسه فقال: .

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

قال عز وجل: ﴿ٱللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾؛ يقول: لا خالق ولا رازق ولا معبود إلا هو. ويقال: الإثبات إذا كان بعد النفي، فإنه يكون أبلغ في الإثبات، فلهذا قيل: لا إله إلا الله، فبدأ بالنفي ثم استثنى الإثبات، فيكون ذلك أبلغ في الإثبات. ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، يقول: ﴿الحي﴾ الذي لا يموت، ويقال: ﴿الحي﴾ الذي لا بديء له، يعني لا ابتداء له ﴿القيوم﴾، يعني: القائم على كل نفس بما كسبت، ويقال: القائم بتدبير أمر الخلق في إنشائهم ورزقهم ومعنى القائم: هو الدائم.

قوله تعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾؛ روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «السنة والنوم، كلاهما واحد، ولكنه أول ما يدخل في الرأس يقال له: سنة، ويكون بين النائم واليقظان، فإذا وصل إلى القلب صار نوماً». ويقال: معناه، أنه ليس بغافل عن أمور الخلق، فيكون النوم على وجه الكناية. وقال بعضهم هو على ظاهره: أنه مستغن عن النوم.

وروي في بعض الأخبار: «أن موسى بن عمران عليه السلام حين رفع إلى السماء، سأل بعض الملائكة؛ أينام ربنا؟ وقال بعضهم: خطر ذلك بقلبه، ولم يتكلم به، فأمره الله تعالى أن يأخذ زجاجتين في يده، وأمره بأن يحفظهما، ثم ألقى عليه النوم فلم يملك نفسه حتى نام، فانكسرت الزجاجتان في يده فقال له: يا موسى لو كان لي نوم، لهلكت السموات والأرض أسرع من كسر الزجاجتين في يدك»، فذلك قوله تعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمواتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ﴾. كلهم عبيده وإماؤه وهو مستغن عن الشريك، ويقال: معناه أن كل ما في السموات والأرض يدل على وحدانيته.

Marfat.com

ثمّ قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشفَعُ عِندَهُۥ﴾، يقول: من ذا الذي يجترىء أن يشفع عنده ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي دون أمره، رداً لقولهم حيث قالوا: هم شفعاؤنا عند الله. وفي الآية دليل على إثبات الشفاعة لأنه قال: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ففيه دليل على أن الشفاعة قد تكون بإذنه للأنبياء والصالحين.

ثم قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، هو الذي يعلم ما بين أيديهم من أمور الدنيا، يعني: يعلم أنهم لا يدعون الألوهية. ﴿وما خلفهم﴾، يعني: يعلم أنه لا شفاعة لهم. وقال مقاتل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني ما كان قبل خلق الملائكة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يكون بعد خلقهم قال الزجاج: يعني يعلم الغيب الذي تقدّمهم والغيب الذي يأتي من بعدهم. وقال الكلبي: ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ من أمر الآخرة ﴿وما خلفهم﴾ من أمر الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾، يعني: الملائكة لا يعلمون الغيب، لأن بعض الناس يعبدون الملائكة ويرجون شفاعتهم. فأخبر أنهم لا يملكون شيئاً ولا يعلمون مما تقدمهم ولا مما بعدهم، إلا بما أنبأهم الله تعالى. ويقال: لا يدركون جميع علمه. والإحاطة في اللغة: إدراك الشيء بكماله ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ فيعلمهم.

ثم أخبر عن عظمته فقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، يعني: ملأ كرسيه السموات والأرض.

وروي عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: السموات السبع والأرضون السبع تحت الكرسي كحلقة بأرض فلاة، وهكذا قال الكلبي ومقاتل. وقال بعضهم: الكرسي المكان الذي خلق الله فيه السموات والأرض. وقال بعضهم: الكرسي والعرش واحد، ولكنه مرة ذكر بلفظ العرش ومرة ذكر بلفظ الكرسي. وقال بعضهم: الكرسي غير العرش.

قال الفقيه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد قال: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا أبو مطيع، عن حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة وهو عاصم بن أبي النجود صاحب الفراء، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود قال: «بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وبين الكرسي وبين السماء السابعة مسيرة خمسمائة عام، وبين الكرسي وبين الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، أي بالعلو والقدرة يعلم ما أنتم عليه».

وقال الزجاج: قال ابن عباس: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾، «يعني» علمه وقال قوم: ﴿كرسيه﴾ قدرته التي يمسك بها السموات والأرض؛ وهذا قريب من قول ابن عباس. ثم أخبر عن قدرته: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، يقول: ولا يثقله حفظهما، يعني: حفظ السموات والأرض.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾، أي: الرفيع تعالى فوق خلقه، ﴿العظيم﴾ يعني: أعلى وأعظم من أن يتخذ شريكاً. ويقال: يحمل الكرسي أربعة أملاك، لكل ملك أربعة أوجه: وجه إنسان ووجه

Marfat.com

ثور ووجه أسد ووجه نسر، أقدامهم في الصخرة التي تحت الأرضين، هكذا قال الكلبي ومقاتل. ويقال: يدعو بالوجه الذي كوجه الإنسان لبني آدم، ويسأل الله تعالى لهم الرزق والرحمة والمغفرة، وبالوجه الذي كوجه الثور يدعو للأنعام بالرزق، وبالوجه الذي كوجه الأسد يدعو للوحوش، وبالوجه الذي كوجه النسر يدعو للطير.

وروي عن محمد بن الحنفية أنه قال: لما نزلت آية الكرسي، خرَّ كل صنم في دار الدنيا، وخرَّ كل ملك في الدنيا على وجهه، وسقطت التيجان عن رؤوسهم، وهربت الشياطين يضرب بعضهم بعضاً، فاجتمعوا إلى إبليس وأخبروه بذلك، فأمرهم أن يبحثوا عن ذلك، فجاؤوا إلى المدينة، فبلغهم أن آية الكرسي قد نزلت. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ قرأ آية الكرسي خلْف كلّ صلاةٍ، أعطاه الله تعالى صلاة الشاكرين وصلاة المطيعين، وصلاة الصَّابرين، ولا يمنعهم دخول الجنة إلا الموت**»[1].

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، يعني: لا تكرهوا في الدين أحداً بعد فتح مكة وبعد إسلام العرب. ﴿قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾، يعني: قد تبين الهدى من الضلالة. ويقال: قد تبين الإسلام من الكفر، فمن أسلم وإلا وضعت عليه الجزية ولا يكره على الإسلام.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾، يعني: بالشيطان. ويقال: الصَّنم. ويقال: هو كعب بن الأشرف، ﴿وَيُؤمِنْ بِٱللهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى لا انفصام لها﴾، يعني: لا انقطاع لها ولا زوال لها ولا هلاك لها، ويقال: قد استمسك بالدين الذي لا انقطاع له من الجنة. ﴿وَٱللهُ سَمِيعٌ﴾ لقولهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ٱللهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: حافظهم ومعينهم وناصرهم. ﴿يُخْرِجُهُمْ مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، يعني: من الكفر إلى الإيمان. واللفظ للمستقبل والمراد به الماضي، أي أخرجهم. ويقال: يثبتهم على الاستقامة كما أخرجهم من الظلمات، أي من ظلمة الدنيا ومن ظلمة القبر، ومن ظلمة الصراط إلى الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أولياؤهم ٱلطَّاغُوتُ﴾، يعني: اليهود أولياؤهم كعب بن الأشرف

---

(١) الحديث من النسخة «ب».

Marfat.com

وأصحابه. ويقال: المشركون أولياؤهم الشياطين. ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، يعني: يدعونهم إلى الكفر، كما قال في آية أخرى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ [إبراهيم: ٥]، يعني: ادع قومك. ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، يعني: أهل النار ﴿هم فيها خالدون﴾ أي دائمون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، يقول: ألم تخبر قصة الذي خاصم إبراهيم في توحيد ربه ﴿أَنْ آتَاهُ ٱللهُ ٱلْمُلْكَ﴾، وهو نمروذ بن كنعان، وهو أول من ملك الدنيا كلها. وكانوا خرجوا إلى عيد لهم، فدخل إبراهيم عليه السلام على أصنامهم فكسرها، فلما رجعوا، قال لهم: أتعبدون ما تنحتون؟ فقالوا له: من تعبد أنت؟ قال: أعبد ربي الذي يحيي ويميت. وقال بعضهم: كان نمروذ يحتكر الطعام، وكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام كانوا يشترون منه، فإذا دخلوا عليه سجدوا له، فدخل عليه إبراهيم فلم يسجد له، فقال له نمروذ: ما لك لم تسجد لي؟ فقال: أنا لا أسجد إلا لربي. فقال له نمروذ: من ربك؟ فقال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ﴾ له نمروذ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، قال إبراهيم كيف تحيي وتميت؟ فجاءه برجلين فقتل أحدهما وخلى سبيل الآخر، ثم قال: قد أمت أحدهما وأحييت الآخر. ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾: إنك أحييت الحي ولم تحيي الميت، وإن ربي يحيي الميت. فخشي إبراهيم أن يلبس نمروذ على قومه، فيظنون أنه أحيا الميت كما وصف لهم نمروذ، فجاءه بحجة أظهر من ذلك قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فإن قيل: لِمَ لَمْ يثبت إبراهيم على الحجة الأولى، وانتقل إلى حجة أخرى، والانتقال في المناظرة من حجة إلى حجة غير محمود؟ قيل له: الانتقال على ضربين: انتقال محمود إذا كان بعد الإلزام، وانتقال مذموم إذا كان قبل الإلزام. وإبراهيم عليه السلام انتقل بعد الإلزام، لأنه قد بيّن له فساد قوله، حيث قال: إنك قد أحييت الحي ولم تحيي الميت. وجواب آخر: إن قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن للمناظرة، وإنما كان قصده إظهار الحجة، فترك مناظرته في الإحياء والإماتة على ترك الإطالة، وأخذ بالاحتجاج بالحجة المسكتة، ولأن الكافر هو الذي ترك حدّ النظر، حيث لم يسأل عما قال له إبراهيم، ولكنه اشتغل بالجواب عن ذات نفسه، حيث قال: أنا أحيي وأميت.

وقوله عز وجل: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾، يعني: انقطع وسكت متحيراً. يقال: بهت الرجل إذا تحير. ﴿وَٱللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾، يعني: لا يرشدهم إلى الحجة والبيان. وروي في الخبر أن الله عز وجل قال: «وعزتي وجلالي لا تقوم الساعة، حتى آتي بالشمس من المغرب،

Marfat.com

ليعلم أني أنا القادر على ذلك» ثم أمر نمروذ بإبراهيم فألقي في النار، وهكذا عادة الجبابرة أنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة، اشتغلوا بالعقوبة، فأنجاه الله من النار وسنذكر قصة ذلك في موضعها إن شاء الله تعالى.

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾؛ قال بعضهم: معناه إحيائي ليس كإحياء نمروذ، ولكن إحيائي كإحياء عزير عليه السلام أحييته بعد مائة عام. وقال بعضهم: هو معطوف على ما سبق من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] و ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾. ﴿أَو﴾ زيادة في الكلام قال مقاتل: والذي مرَّ على قرية هو عزير بن شرخيا، ويروى: سرحبا وكان من علماء بني إسرائيل، فمرّ بدير هرقل بين واسط والمدائن ويروى: أن شرخيا كان على حمار فمرَّ بها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾. وقال الضحاك بن مزاحم: هو عزير النبي عليه السلام، مرَّ ببيت المقدس وقد خربها بخت نصر، وقتل منهم سبعين ألفاً، وأسر منهم سبعين ألفاً، أي من بني إسرائيل، فمرَّ عزير فقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: إن بخت نصر غزا بني إسرائيل، فسبى منهم ناساً كثيراً، فجاء بهم وفيهم عزير بن شرخيا كان من علماء بني إسرائيل، فجاء بهم إلى بابل. فخرج ذات يوم لحاجة له إلى دير هرقل على شاطىء دجلة، فنزل تحت ظل شجرة وهو على حمار له، فربط حماره تحت ظل الشجرة، ثم طاف بالقرية فلم ير بها ساكناً ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، يقول: ساقط عروشها يقول: ساقطة على سقوفها، وذلك أن السقف يقع قبل الحيطان ثم الحيطان على السقف، فهي خاوية على عروشها. قال بعض أهل اللغة: الخاوية، الخالية. وقال بعضهم: بقيت حيطانها لا سقوف عليها. فتناول من الفاكهة والتين والعنب، ثم رجع إلى حماره فجلس يأكل من تلك الفاكهة، ثم عصر من العنب فشربه، ثم جعل فضل التين في سلة، وفضل العصير في زق، ثم نظر إلى القرى فتعجب من كثرة حملها وفناء أهلها فـ ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فلم يشك في البعث، ولكن أحب أن يريه الله كيف يحيي الموتى. فلما تكلم عزير بذلك، نام في ذلك الموضع.

Marfat.com

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ في منامه ﴿مِاْئَةَ عَامٍ﴾، وأمات حماره، ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ الله تعالى في آخر النهار، ومنعه الله تعالى حال موته عن أبصار الناس والسباع والطير. فلما بعثه الله تعالى، سمع صوتاً ﴿قَالَ﴾ له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ أي كم مكثت في نومك يا عزيز؟ ﴿قَالَ: لَبِثْتُ يَوْماً﴾، ثم نظر إلى الشمس، وقد بقي منها شيء لم تغرب فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. ﴿قَالَ﴾ له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾، يعني: لبثت ميتاً مائة عام، ثم أخبره ليعتبر. فقال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾، يعني: الفاكهة، ﴿وَشَرَابِكَ﴾، يعني: العصير. ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، يعني: لم يتغير، كقوله: ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]، أي غير متغير. ويقال: ﴿لم يَتَسَنَّه﴾ كأنه لم تأت عليه السنون.

قرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو: ﴿كَم لَّبِثتَ﴾ بإدغام التاء. وقرأ الباقون بإظهارها. وقرأ الكسائي: ﴿لَمْ يَتَسَنَّ﴾ بغير هاء عند الوصل، وأثبتت عند القطع. وقرأ حمزة: بحذف الهاء عند الوصل والقطع جميعاً. وقرأ الباقون بإثبات الهاء عند الوصل والقطع. وقرأ نافع: ﴿أَنَا أُحْيِي﴾ بمد الألف، وكذلك في جميع القرآن نحو هذا، إلا في قوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقرأ الباقون بغير مد؛ ومعنى القراءتين في هذا كله واحد.

ثم نظر عزير عليه السلام إلى حماره وقد بلي فنودي: أن ﴿انظر إلى حمارك﴾ فإذا هو عظام بيض تلوح، وقد تفرقت أوصاله. ثم سمع صوتاً قال: أيتها العظام البالية، إني جاعل فيكن روحاً فاجتمعن، فسعى بعضها إلى بعض حتى استقر كل شيء في موضعه، ثم بسط عليه الجلد ونفخ فيه الروح، فإذا هو قائم ينهق. فخرَّ عزير ساجداً لله تعالى وقال عند ذلك: أعلم أن الله على كل شيء قدير، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، يعني: عبرة للناس، لأن أولاده قد صاروا شيوخاً وهو قد كان شاباً. ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالراء، وقرأ الباقون بالزاي. فمن قرأ بالراء، فمعناه: كيف نحييها. ونظيرها ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١]، يعني: يبعثون الموتى. ومن قرأ بالزاي: يعني: كيف يضم بعضها إلى بعض. النشز: ما ارتفع من الأرض، وهذا كما جاء في الأثر: «الرضاع ما أنبت اللحم، وأنشز العظم». وقال أهل اللغة: النشز الحركة، يقال: نشز الشيء إذا تحرك، ونشزت المرأة عن زوجها، والمراد ها هنا: نضمُّها ﴿ثم نكسوها لحماً﴾.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أن الله﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿أعلم﴾ بالجزم على معنى الأمر، وقرأ الباقون: ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ على معنى الخبر عن نفسه، علمت بالمعاينة ما كنت أعلمه قبل ذلك غيباً. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء وغيره. وقال بعضهم: أن عزيراً لما أحياه الله تعالى قال في نفسه: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم. فلما رجع إلى منزله ولقيه أقرباؤه وحاسبوا غيبته، فقالوا له: بل لبثت مائة عام، وهذا قول من قال: إن هذا لم يكن عزيراً النبي عليه السلام، بل رجل آخر سوى عزيز النبي عليه السلام.

Marfat.com

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَى﴾، وذلك أن نمروذ لما قال له: أنا أحيي وأميت. ووصف لهم ذلك، فسألوا إبراهيم فقالوا له: كيف يحيي ربك الموتى؟ فأراد إبراهيم أن يرى ذلك بالمعاينة، حتى يخبرهم بما يرى من المعاينة، فسأل ربه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيفَ تُحيِي المَوْتَى﴾.

وقال مقاتل: مرَّ إبراهيم فرأى جيفة على ساحل البحر، يأكل منها دواب البحر والطيور، وبعضها يصير مستهلكاً في الأرض، فوقع في قلبه أن الذي تفرق في البحر وفي بطون الطير كيف يجمعها الله تعالى، فأراد أن يعاين ذلك فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيفَ تُحيِي المَوتَى﴾. فـ﴿قَالَ﴾ له ربه: ﴿أَوَلَمْ تؤمِن﴾؟ يعني: أو لم تصدق بأني أحيي الموتى؟ ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ قد صدقت؛ ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، يعني: ليسكن قلبي. ويقال: إنما قال له: ﴿أو لم تؤمن﴾؟ لكي يظهر إقراره، ولكي لا يظن أحد بعده أنه لم يكن مقراً بذلك في ذلك الوقت، فظهر إقراره بقوله: بلى. وقال سعيد بن جبير: ليسكن قلبي أنك اتخذتني خليلاً.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيرِ﴾، فأخذ ديكاً وحمامة وطاووساً وغراباً؛ وفي بعض الروايات: أخذ طاووساً وثلاثة من الطيور مختلفة ألوانها وأسماؤها وريشها. ﴿فصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كلِّ جبلٍ منهنّ جزءاً﴾، يعني: قطعهنَّ وقال السدي: يعني دُقهنَّ، وقال الأخفش: يعني ضُمهنَّ إليك. وذكر مقاتل بإسناده عن الأعمش قال: فيه تقديم وتأخير، يعني: فخذ إليك أربعة من الطيور فقطِّعهنَّ واخلُطْ بعضهن ببعض، ثم فرِّقهنَّ في أربعة أجبل. ﴿ثُم ادْعُهنَ يأْتِينك سعْياً﴾. يعني: ففعل ذلك ودعاهنّ فسعين على أرجلهن.

ويقال: إنه لما وضعهن على الأجبل، هبت الرياح الأربعة التي تقوم يوم القيامة: واحدة من قبل المشرق، والأخرى من قبل المغرب، والأخرى من قبل اليمين، والأخرى من قبل الشمال، فرفعت الأعضاء المتفرقة عن مواضعها، وحملتها إلى المواضع الأخرى، حتى اجتمع أعضاء كل طير في موضعها: فجعل إبراهيم ينظر ويتعجب حيث ينصم بعضها إلى بعض. فقال عند ذلك قوله: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه، ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بالبعث ولم أسأله لريب كان في قلبي، ولكن سألته ليسكن قلبي في الخلة. قرأ ابن كثير ﴿أرْني﴾ بجزم الراء، وقرأ الباقون بالكسر؛ وقرأ حمزة ﴿فصِرْهن﴾ بكسر الصاد، وقرأ الباقون بالضم. فمن قرأ بالكسر يعني: قطعهن، ومن قرأ بالضم يعني: فضمهن إليك؛ ويقال: هما لغتان ومعناهما واحد وتفسيرهما واحد.

Marfat.com

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف. وذلك أن رسول الله ﷺ، لما حثّ الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم فقال: يا رسول الله، كانت لي ثمانية آلاف، فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها لربي. فقال له رسول الله ﷺ: «**بَارَكَ الله لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ**». وقال عثمان بن عفان: يا رسول الله، علي جهاز من لا جهاز له، فنزلت هذه الآية **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾**؛ وفي الآية مضمر، ومعناها: مثل النفقة التي تنفق في سبيل الله **﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾**. وطريق آخر: مثل الذين ينفقون أموالهم، كمثل زارعٍ زرع في الأرض حبة فـ**﴿أَنۢبَتَتْ﴾** الحبة **﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾**، يعني: أخرجت سبع سنابل. **﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾**، فيكون جملتها سبعمائة حبة، فشبه المتصدق بالزارع، وشبه الصدقة بالبذر، فيعطيه الله تعالى بكل صدقة سبعمائة حسنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، يعني: يزيد على سبع مائة لمن يشاء، فيكون مثل المتصدق كمثل الزارع؛ إنّ كان الزارع حاذقاً في عمله، ويكون البذر جيداً، أو تكون الأرض عامرة، يكون الزرع مخصباً طيباً، فكذلك المتصدق إذا كان صالحاً والمال طيباً، ويوضع في موضعه، فيصير الثواب أكثر.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾، يعني: واسع الفضل لتلك الأضعاف، **﴿عَلِيمٌ﴾** بما ينفقون وبما نووا فيها. قرأ ابن كثير وابن عامر: **﴿والله يُضَعِّفُ﴾** بتشديد العين وحذف الألف، وقرأ الباقون **﴿يُضَٰعِفُ﴾** بالألف؛ ومعناهما واحد. فأما الذي قرأ **﴿يُضَعِّفُ﴾** من التضعيف، والذي قرأ **﴿يُضَٰعِفُ﴾** من المضاعفة.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني: يتصدقون بأموالهم؛ **﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾**، يعني: لا يمنون عليهم بما تصدقوا عليهم ولا يؤذونهم ولا يعيرونهم بذلك، ومعنى الأذى والتعيير: هو أن يقع بينه وبين الفقير خصومة، فيقول له: إني أعطيتك كذا وكذا. وقال بعضهم: المنّ يشبّه بالنفاق، والأذى يشبّه بالرياء. ثم تكلم الناس في ذلك، فقال بعضهم: إذا فعل ذلك لا أجر له في صدقته وعليه وزرٌ فيما منّ على الفقير. وقال بعضهم: ذهب أجره فلا أجر له ولا وزر عليه. وقال بعضهم: له أجر الصدقة، ولكن ذهبت مضاعفته وعليه الوزر بالمنّ.

ثم قال تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يعني: ثوابهم في الآخرة. **﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾**

Marfat.com

فيما يستقبلهم من العذاب. ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا من أمر الدنيا. ويقال: الآية نزلت في شأن عثمان بن عفان حين اشترى بئر رومة، ثم جعلها سبيلاً على المسلمين.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ يعني: دعاء الرجل لأخيه بظهر الغيب. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ يعني: يعفو ويتجاوز عمن مظلمته ﴿خير من صدقة﴾ يعطيها، ثم يمن على من تصدق عليه. ويقال: ﴿قول معروف﴾ للفقير، يعني إذا أتاه سائل سأله ولم يكن عنده شيء يعطيه، فيدعو له بالجنة والمغفرة. فهو ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ﴾ يعطيها له، و﴿يَتْبَعُهَا أَذًى﴾. ويقال: وعد المعطي خير من صدقة يتبعها أذى. ويقال: وعد الكريم خير من نقد اللئيم. ويقال: دعاء الفقير إذا دعا لصاحب الصدقة، ومغفرة الله خير من الصدقة التي يتبعها أذى. ويقال: قول معروف أي: يتجاوز عمن أساء إليه، ويحسن له القول خير من صدقة يتبعها أذى ويقال: الأمر بالمعروف، والصبر على ما أصابه، والتجاوز عن الذي ضرّه، خير من صدقة يتبعها أذى.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ يعني: ﴿غني﴾ عما عندكم من الصدقة ﴿حليم﴾، حيث لا يعجل بالعقوبة على من يمن بصدقته.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِٱلْمَنِّ وَٱلأَذى﴾ فالله تعالى أمر عباده برأفته، أن لا يمنوا بصدقاتهم، لكي لا يذهب أجرهم، ثم ضرب لذلك مثلاً فقال تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾. يعني: المشرك إذا تصدق، فأبطل الشرك صدقته، كما أبطل المن والأذى صدقة المؤمن. ثم ضرب لهما مثلاً جميعاً لصدقة المؤمن الذي يمن وبصدقة المشرك. فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾. قال القتبي: الصفوان الحجر الذي لا ينبت عليه شيء، يعني كمثل حجر صلب عليه تراب. ﴿فأصابه وَابِلٌ﴾ يعني: المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾ يعني ترك الصفا نقياً أجرد أملس ليس عليه شيء من تراب، فكذلك نفقة صاحب الرياء، ونفقة المشرك، لم يبق لهما ثواب.

ثم قال تعالى: ﴿لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ يعني: لا يجدون للصدقة ثواباً في الآخرة، وهذا كما قال في آية أخرى: و﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨]. ﴿وَٱللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ يعني: لا يرشدهم إلى الإسلام والإخلاص ولا يوفقهم الله، بل يخذلهم مجازاة لكفرهم.

Marfat.com

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

ثم ضرب مثلاً لنفقة المؤمن الذي يريد بنفقته وجه الله تعالى، ولا يمن بها فقال عز وجل: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ابتغاء مَرْضَاةِ ٱللَّهِ﴾ يعني: يتصدقون طلباً لرضى الله تعالى بصدقاتهم ﴿وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: وتصديقاً من قلوبهم، يعني: يصدقون الله تعالى من الثواب في الآخرة، والخلف في الدنيا. ويقال: وتثبيتاً من أنفسهم، يعني: وتحقيقاً من قلوبهم يقصدون بها وجه الله. ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ يعني: بستاناً في مكان مستو ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ يعني: البستان أصابه المطر الشديد ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿أُكْلها﴾ بجزم الكاف، ونصب اللام. وقرأ الباقون بالضم ﴿أُكلها،﴾ وتفسير القراءتين واحد. وقرأ عاصم وأبو عمرو ﴿بِرَبوة﴾ بنصب الراء، وقرأ الباقون بالضم، وقرأ ابن سيرين بكسر الراء، وفيه ثلاث لغات: رَبْوَة وَرِبْوَةَ وَرُبْوة. وتفسير القراءات واحد.

وفي الآية تقديم وتأخير، ومعناه: كمثل جنة بربوة أصابها وابل ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فأتت أكلها ضعفين، يعني: البستان إذا أصابه المطر أو الطل، والطل: البطيء من المطر، وهو مثل الندى، ﴿فأتت أكلها ضعفين﴾، يعني: اخضرت أوراق البستان، وأخرجت ثمرها ضعفين، فكذلك الذي يتصدق به لوجه الله تعالى يكون له الثواب ضعفين، يعني: بالواحد عشرة إلى سبعمائة ضعف وإلى ما لا نهاية له ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

ثم ضرب مثلاً آخر، لعمل الكافر والمنافق فقال عز وجل: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يقول: مثل الكافر كمثل شيخ كبير له بستان، وله أولاد صغار ضعفاء عجزة، لا حيلة لهم، ومعيشته ومعيشة ذريته من بستانه ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ يعني: ريحاً بها نار، يعني: تأتيه السموم الحارة ﴿فاحترقت﴾، فأحرقت بستانه، ولم يكن له قوة أن يغرس مثل بستانه، ولم يكن عند ذريته خيراً يعينونه، فيبقى متحيراً، **فكذلك الكافر إذا لقي ربه أحوج ما كان، فلا يجد خيراً، ولا يدفع عن نفسه شراً، ولا يكون له معين، ولا يعود إلى الدنيا، كما لا يعود الشيخ الكبير شاباً، وكان أحوج إليه.**

Marfat.com

قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمثاله فتعتبرون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ ما كسبتم﴾ يقول: من حلالات ﴿ما كَسَبْتُمْ﴾ في الآية أمر بالصدقة من الحلال، وفيها دليل: أن من تصدق من الحرام لا يقبل، لأن الواجب عليه أن يردها إلى موضعها. ويقال: ﴿أنفقوا من طيبات﴾ يعني: من المال اللذيذ والشهي عندكم مما كسبتم. يقول: مما جمعتم من الذهب والفضة.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ يعني: من الثمار والحبوب. ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ يعني: لا تعمدوا إلى رديء المال فتصدقوا منه، وذلك أن النبي ﷺ لما حثّ الناس على الصدقة، فجعل الناس يأتون بالصدقة، ويجمعون في المسجد، فجاء رجل بعذق من تمر عامته حَشَفٌ، فنزلت هذه الآية: ﴿ولا تيمموا الخبيث﴾، يعني: لا تعمدوا إلى الخشف فتتصدقوا به ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ بدل الطيب ﴿إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ يعني: إلا أن يهضم أحدكم، فيأخذ دون حقه مخافة أن يذهب جميع حقه، فيأخذ ذلك للضرورة مخافة فوت حقه، والله تعالى غني عن ذلك، فلا يقبل إلا الطيب، ويقال: ﴿إلا أن تُغمضوا﴾ يعني إلا أن يضطر أحدكم، فمسته الحاجة فرضي بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: ﴿غني﴾ عما عندكم من الصدقات، ﴿حميد﴾ في أفعاله عند خلقه. ويقال: ﴿حميد﴾ بمعنى محمود ويقال: ﴿حميد﴾ يعني من أهل أن يحمد ويقال: ﴿حميد﴾ يقبل القليل ويعطي الجزيل.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ يقول: الشيطان يأمركم بشيئين، والله تعالى يأمركم بشيئين. أما الشيطان، فإنه ﴿يعدكم الفقر﴾ ويقول: لا تنفق ولا تتصدق، كأنك تحتاج إلى ذلك. ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ قال الكلبي: يمنع الزكاة. ويقال: جميع الفواحش مثل الزنى وقول الزور وغير ذلك ﴿وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ لذنوبكم، يعني: المغفرة من الله. ﴿وَفَضْلاً﴾ يعني: خلفاً في الدنيا ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تنفقون. ويقال: عليم بمواضع الصدقات.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس: «يعني النبوة». وقال الكلبي: يعني الفقه. وقال مقاتل: يعني علم القرآن. ويقال: الإصابة في القول. ويقال: المعرفة بمكائد الشيطان ووساوسه. وقال مجاهد: الإصابة في القول والفهم والفقه. ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ يقول: من يعط علم القرآن، فقد أعطي خيراً كثيراً. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يعني: لا يتفكر في ذلك ﴿إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ يعني: إلا ذوي العقول. ويقال: إن من أعطي الحكمة والقرآن، فقد أعطي أفضل مما أعطي من جميع كتب الأولين من الصحف وغيرها، لأنه تعالى قال لأولئك: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٥] وسمي هذا: ﴿خَيْراً كثيراً﴾ لأن هذا جوامع الكلم.

وقال بعض الحكماء: من أعطي من العلم والقرآن، ينبغي أن يعرف نفسه، ولا يتواضع لأصحاب الدنيا لأجل دنياهم، لأن ما أعطي أفضل مما أعطي أصحاب الدنيا، لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعاً قليلاً. وقال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، وسمى العلم ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ﴾ يقول ما تصدقتم من صدقة. ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ فوفيتم بنذوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ يعني: يحصيه ويقبله منكم، وهذا وعد من الله تعالى، فكأنه يقول: إنه لا ينسى بل يعطي ثوابكم. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يعني: ليس للمشركين من مانع في الآخرة يمنعهم من العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ وذلك أن الله تعالى لما حثهم على الصدقة سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية؟ فنزل قوله: ﴿إن تبدوا الصدقات﴾، يعني: إن تعلنوا الصدقات المفروضة. ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر، ﴿فنَعِما هي﴾ بنصب النون وكسر العين، وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص ونافع في رواية ورش، وابن كثير بكسر النون وكسر العين، وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر، ﴿فنِعْما﴾ بكسر النون وجزم العين، وكل ذلك جائز وفيه ثلاث لغات نِعِم نَعِم ونِعْم، وما زيدت فيها للصلة.

قوله تعالى: ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص، ﴿ويُكفِرُ﴾ بالياء وضم الراء. وقرأ حمزة ونافع والكسائي ﴿ونكفرْ﴾ بالنون وجزم الراء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ونكفرُ﴾ بالنون وضم الراء، فمن قرأ بالجزم، فهو جزاء

Marfat.com

للصدقة، ومن قرأ بالضم فهو على المستقبل، يعني إن تعلنوا الصدقات فحسن ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من صدقة العلانية.

فأما صدقة التطوع فقد اتفقوا أن الصدقة في السر أفضل، وأما الزكاة المفروضة قال بعضهم: السر أفضل، لأنه أبعد من الرياء وقال بعضهم: العلانية أفضل، لأن الزكاة من شعائر الدين، فكل ما كان أظهر، كان أفضل كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين، ولأن في ذلك زيادة رغبة لغيره في أداء الزكاة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعني: فيما تصدقتم في السر والعلانية يعلمه ويتقبل منكم، ويكون في ذلك كفارة سيئاتكم، ويعطي ثوابكم في الآخرة.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ وذلك أن النبي ﷺ لما قدم مكة لعمرة القضاء، وخرجت معه أسماء بنت أبي بكر، فجاءتها أمها قتيلة، وجدها أبو قحافة، فسألا منها حاجة فقالت: لا أعطيكما شيئاً حتى أستأمر رسول الله ﷺ، فإنكما لستما على ديني، فاستأمرت رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، يعني: يوفق من يشاء لدينه. فإن قيل قد قال في آية أخرى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال هاهنا: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ قيل له: إنما أراد به هناك الدعوة، وهاهنا أراد به الهدى خاصة، وهو التوفيق إلى الهدى.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: ما تنفقوا من مال، فثوابه لأنفسكم إذا تصدقتم على الكفار، أو على المسلمين.

وروي عن عمر بن الخطاب أنه رأى رجلاً من أهل الذمة، يسأل على أبواب المسلمين فقال: «ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية ما دمت شاباً، ثم ضيعناك بعدما كبرت وضعفت، فأمر بأن يجري عليه قوته من بيت المال».

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ﴾ يعني: لا تنفقوا إلا ابتغاء ثواب الله ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: يوف ثوابكم. ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ يعني:

Marfat.com

لا تنقصون من ثواب أعمالكم وصدقاتكم، فتكون ﴿ما﴾ الأولى بمعنى الشرط، و﴿ما﴾ الثانية للجحود و﴿ما﴾ الثالثة للخبر.

ثم بيّن موضع الصدقة فقال عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ يعني: النفقة والصدقة للفقراء الذين حبسوا أنفسهم في طاعة الله، وهم أصحاب الصفة كانوا نحواً من أربعمائة رجل، جعلوا أنفسهم للطاعة، وتركوا الكسب والتجارة.

قوله: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لا يستطيعون الخروج إلى السفر في التجارة. ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ قرأ حمزة وعاصم وابن عامر: ﴿يحسَبهم﴾ بنصب السين في جميع القرآن، وقرأ الباقون: بالكسر، وتفسير القراءتين واحد، يعني: يظن الجاهل بأمرهم وشأنهم أنهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ لأنهم يظهرون أنفسهم للناس باللباس وغيره، كأنهم أغنياء، ويتعففون عن المسألة. ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بصفرة الوجوه من قيام الليل وصوم النهار ﴿لاَ يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً﴾ يعني: إلحاحاً. قال ابن عباس رضي الله عنه: «لا يسألون الناس إلحافاً ولا غير إلحاح»، ويقال: أصله من اللحاف، لأن السائل إذا كان ملحاً، فكأنه يلصق بالمسؤول فيصير كاللحاف وجعل ذلك كناية عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ بما أنفقتم، ويقال: هذا على معنى التحريض، فكأنه يقول: عليكم بالفقراء الذين أحصروا في سبيل الله. وقال بعضهم: هذا على معنى التعجب، فكأنه يقول عجباً للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ويقال: إنه رد إلى أول الآية ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ ﴿للفقراء الذين أحصروا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قال مقاتل والكلبي: نزلت هذه الآية في شأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت له أربعة دراهم لم يملك غيرها، فلما نزل التحريض على الصدقة تصدق بدرهم بالليل، وبدرهم بالنهار، وبدرهم في السر، وبدرهم في العلانية، فنزلت هذه الآية ﴿الذين ينفقون أموالهم باليل والنهار﴾. ﴿سِرّاً وَعَلاَنِيَةً﴾ يعني خفية وظاهراً. ويقال: هذا حث لجميع الناس على الصدقة يتصدقون في الأحوال كلها وفي الأوقات كلها، ﴿فلهم أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ يعني: يأكلون الربا استحلالاً ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ يوم القيامة

Marfat.com

من قبورهم ﴿إِلاَّ كَما يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ يعني: يتخبله الشيطان ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي من الجنون. ويقال: إنهم يبعثون يوم القيامة، وقد انتفخت بطونهم كالجبال، وكلما قاموا سقطوا، والناس يمشون عليهم، فيكون ذلك علامة آكل الربا، ويقال: يكون بمنزلة المجنون ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ يعني: الذي نزل بهم، لأنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَا﴾ معناه: استحلوا الرُّبا، وكان الرجل إذا حل أجل ماله طالبه فيقول له المطلوب: زدني في الأجل، وأزيدك في مالك، فيفعلان ذلك. فإذا قيل لهما: إن هذا رباً قالا: الزيادة في أول البيع، والزيادة عند حلول المال سواء، فذلك قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ الزيادة في أول البيع كالزيادة في آخر البيع. ويقال: إنهم استحلوا الربا وقالوا: الربا والبيع سواء في الحلّ، فالله سبحانه وتعالى أبطل قولهم فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا﴾.

ثمّ قال: ﴿فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ ولم يقل جاءته، لأن التأنيث ليس بحقيقي، ويجوز أن يذكر ويؤنث، لأنه انصرف إلى المعنى، يعني فمن جاءه نهي ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ في القرآن في بيان تحريم الربا ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عن أكل الربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ يعني: ليس عليه إثم فيما مضى قبل النهي، لأن الحجة لم تقم عليهم، ولم يعلموا بحرمته، وأما اليوم فمن تاب عن الربا، فلا بدَّ له من أن يرد الفضل، ولا يكون له ما سلف، لأن حرمة الربا ظاهرة بين المسلمين، لأن كتاب الله تعالى فيهم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في المستأنف إن شاء عصمه، وإن شاء لم يعصمه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى استحلال الرِّبا ﴿فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال ابن مسعود: «آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهداه ملعونون على لسان محمد ﷺ»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «سَيَأْتِي عَلَى ٱلنَّاسِ زَمَانٌ لا يَبْقَى أَحَدٌ إِلاَّ أَكَلَ الرِّبا، وَمَنْ لَمْ يَأْكُلِ الرِّبا أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ»[2]. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الرِّبا بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَاباً، أَدْنَاها كَإِتْيَانِ الرَّجُلِ أُمَّهُ»[3]، يعني: كالزاني بأمه.

ثم قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا﴾ يعني: يبطله، ويذهب ببركته ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَاتِ﴾ يقول: يقبلها ويضاعفها. ويقال: إن مال آكل الربا لا يخلو من أحد أوجه ثلاثة، إما أن يذهب عنه، أو عن ولده، أو ينفقه فيما لا يصلح.

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ يعني: جاحداً بتحريم الرِّبا ﴿أَثِيمٍ﴾ يعني: عاص بأكله.

---

(١) أخرجه أحمد: ١/٤٠٩ و٤٣٠ و٤٦٥ والنسائي: ٨/١٤٧ وابن خزيمة (٢٢٥٠) والحاكم ١/٣٨٨ وأبو يعلى (٥٢٤١).

(٢) حديث أبي هريرة: أخرجه أبو داود (٣٣٣١). والنسائي: ٧/٢٤٢ وأحمد: ٢/٤٩٣.

(٣) أخرجه ابن ماجة من حديث أبي هريرة (٢٢٧٤) بلفظ هوباً وإسناده ضعيف. ورواه صاحب الترغيب: ٣/٦ وهو في الضعفاء للعقيلي: ٢/٢٥٧، ٢٥٨.

Marfat.com

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالحَاتِ﴾ يعني: الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس ﴿وَآتَو ٱلزَّكَاةَ﴾ يعني: وأعطوا الزّكاة المفروضة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد ذكرناه.

ثم قال تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ﴾ ولا تعصوه فيما نهاكم من أمر الرّبا ﴿إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين بتحريمه. وقال أهل اللغة: «إنْ» الخفيفة على ثلاثة أوجه: إنْ بمعنى ما، كقوله: ﴿إن الكافرون﴾ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩]. وإن بمعنى لقد، كقوله ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨]. ﴿وتالله إن كنا﴾، ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٦]، ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩]، وإن بمعنى إذ كقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ﴿مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] يعني: إذْ كنتم مؤمنين نزلت هذه الآية في نفر من بني ثقيف، وفي بني المغيرة من قريش، وكانت ثقيف يربون لبني المغيرة في الجاهلية، وكانوا أربعة أخوة منهم: مسعود وعبد ياليل وأخواهما يربون لبني المغيرة، فلما ظهر النبي ﷺ على أهل مكة، وضع الرِّبا كله، وكان أهل الطائف قد صالحوا على أن لهم رباهم على الناس يأخذونه، وما كان عليهم من رباً للناس فهو موضوع عنهم، لا يؤخذ منهم، وقد كان رسول الله ﷺ كتب لهم كتاباً، وكتب في أسفل كتابهم: «إنَّ لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم»، فلما حلّ الأجل طلب ثقيف رباهم، فاختصموا إلى أمير مكة وهو عتاب بن أسيد، فكتب بذلك بالمدينة إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولا تستحلوا الربا وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: مصدقين بتحريم الرِّبا.

ثم خوفهم فقال عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني: لم تقروا بتحريم الربا ولم تتركوه ﴿فَأْذَنُوا بِحَربٍ مِنَ الله وَرَسُولِهِ﴾.

قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر ﴿فَآذِنوا﴾ بمد الألف وكسر الذال، وقرأ أبو عمرو وورش عن نافع، ﴿فاذَنُوا﴾ بترك الهمزة ونصب الذال، وقرأ الباقون بجزم الألف ونصب الذال،

Marfat.com

فمن قرأ ﴿فأذنوا﴾ بالجزم معناه: فاعلموا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ، يعني: بإهلاك من الله. ويقال: معناه، فاعلموا أنكم كفار بالله وَرَسُولِهِ، ومن قرأ ﴿فآذنوا﴾ يعني: اعلموا بعضكم بعضاً بحرب من الله، أي بإهلاك من الله تعالى ورسوله. فقالوا: وما لنا بحرب من الله ورسوله طاقة، فما توبتنا؟؟

فقال تعالى لهم: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رؤوس أَمْوَالِكُمْ﴾ التي أسلفتم. وقال النبي ﷺ: «**كُلُّ رِباً كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِباً وُضِعَ رِبَا العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وكُلُّ دَم كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ دَم وُضِعَ دَمُ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ**». ثم قال: ﴿لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ يعني: الطالب لا يظلم بطلب الزيادة، ويرضى برأس ماله، ولا يُظلم المطلوب، فينتقص عن رأس المال، وذلك أنهم طلبوا رؤوس أموالهم من بني المغيرة، فشكوا العسرة يعني: بني المغيرة وقالوا: ليس لنا شيء، وطلبوا الأجل إلى وقت إدراك ثمارهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ يعني: إن كان المطلوب ذو شدة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ يقول: أجله أن يتيسر عليه بإدراك ثمارهم ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ يقول: لو تصدقتم ولا تأخذونه فهو ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ويقال: لئن تصدقتم بالتأخير فهو خير لكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الصدقة خير لكم.

قرأ نافع إلى ﴿ميسُرة﴾ بضم السين. وقرأ الباقون والنصب، وهما لغتان ومعناهما واحد. وقرأ عطاء ﴿فناظرة﴾ بالألف. وقرأ العامة بغير ألف، ومعناها واحد.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ﴾ يعني: اجتنبوا عذاب يوم ترجعون ﴿فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: في يوم القيامة ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ يعني: لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً.

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «آخر آية نزلت من القرآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ثم توفى﴾ قرأ أبو عمرو ﴿ترجعون﴾ بنصب التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون ﴿تُرجَعون﴾ بضمّ التاء ونصب الجيم وقرأ عاصم ﴿وأن تصدقوا﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، لأن التاء أدغمت في الصاد وأصله: وإن تصدقوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ

Marfat.com

إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: «الآية نزلت في السلم»، ويقال: كل دين إلى أجل سلماً كان أو غيره. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني: إلى أجل معلوم، وفي الآية دليل: أن المداينة لا تجوز إلا بأجل معلوم ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ يعني: الدين والأجل، ويقال: أمر بالكتابة، ولكن المراد به الكتابة والإشهاد، لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة. ويقال: أمر بالكتابة لكي لا ينسى. ويقال: من أدان ديناً، ولم يكتب، فإذا نسي ودعا الله تعالى بأن يظهره يقول الله تعالى: أمرتك بالكتابة فعصيت أمري، وإذا دعى بالنجاة من الزوجة يقول الله تعالى: جعلت الطلاق بيدك إن شئت طلقها، وإن شئت فأمسكها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعني: يكتب الكاتب بين البائع والمشتري يعدل بينهما في كتابته، ولا يزداد على المطلوب على حقه، ولا ينقص من حق الطالب.

ويقال: إن هذا أمر للكاتب بالكتابة، وكانت الكتابة واجبة في ذلك الوقت على الكاتب، لأن الكتبة كانوا قليلاً ثم نسخ بقوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقال بعضهم: الكتابة لم تكن واجبة، ولكن الأمر على معنى الاستحباب.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾ يقول ولا يمتنع الكاتب عن الكتابة أن يكتب ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللهُ﴾ يعني: يكتب شكراً لما أنعم الله عليه حيث علمه الكتابة، واحتاج غيره إليه، فكما أكرمه الله تعالى بالكتابة وفضله بذلك، فيعرف شكره، ولا يمتنع عن الكتابة لمن طلب منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: المطلوب، هو الذي يملي على الكاتب حتى يكتب الكاتب، لأن قول المطلوب حجة على نفسه، فإذا أملى على الكاتب يكون ذلك إقراراً منه بوجوب الحق عليه.

ثم خوف المطلوب لكيلا ينقص شيئاً من حق الطالب. فقال تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللهَ رَبَّهُ﴾ يعني: المطلوب ﴿وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ يقول: لا ينقص من الحق شيئاً. ويقال: معنى الكاتب، ولا يبخس في الكتابة شيئاً.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني: المطلوب ﴿سَفِيهًا﴾ يعني: جاهلاً بالإملاء، ويقال: أحمق ﴿أَوۡ ضَعِيفًا﴾ يعني: صبياً عاجزاً عن الإملاء، ويقال: أخرس أو مجنوناً ﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ﴾ يعني: لا يحسن ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ على الكاتب فيرجع الإملاء على الطالب ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ﴾ يعني: ولي الحق، يعني: الطالب، هكذا قال في رواية الكلبي. وقال في رواية الضحاك: ولي المديون، يعني: إذا كان للصبي وصي أو ولي رجع الإملاء عليه فليملل وليه ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ يعني: بالحق.

ثم أمر بالإشهاد فقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ يعني: على حقكم ﴿شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡ﴾ يعني: من أهل دينكم من الأحرار البالغين ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٌ﴾ فليكن رجلاً ﴿وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ يعني: من العدول ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ يعني: إذا نسيت إحدى المرأتين. ﴿فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ يعني: الشهادة إذا حفظت إحداهما، تذكر صاحبتها ويقال: إن امتنعت إحداهما عن أداء الشهادة، فتعظها الأُخرى حتى تشهد. قرأ حمزة ﴿إِن تَضلّ﴾ بكسر الألف ونصب التاء وضمّ اللام ﴿فتذكرُ﴾ بضم الراء، وإنما كسر الألف على معنى الابتداء، وضمّ اللام بحرف الشرط، وقرأ الباقون بنصب الألف، ومعناه: لأن تضل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو، ﴿فتذكر﴾ بالتخفيف. وقرأ الباقون بنصب الذل وتشديد الكاف، وهما لغتان أذكرتُه وذكَّرته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ يعني: الشاهد إذا دعي إلى الحاكم ليشهد، فلا يمتنع عن أداء الشهادة، والإباء عن الشهادة حرام، لأن الله تعالى نهى عن الإباء عن الشهادة. ويقال: إباء الشهادة على ثلاثة أوجه: أحدهما: أن يمتنع عن أدائه. والثاني: أن يشهد ويقصّر في أدائه، لكيلا تقبل شهادته. والثالث بأن لا يصون نفسه عن المعاصي، فيصير متَّهماً لا تُقبل شهادته، فكأنه هو الذي أبطل حق المدعي، وخانه حيث عصى الله تعالى حتى ردت شهادته بمعصيته.

ثم قال تعالى ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ﴾ يقول: ولا تملوا ﴿أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا﴾ يقول: قليل الحق أو كثيره ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ لأن الكتابة أحصى للأجل وأحفظ للمال ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أعدل ﴿وَأَقۡوَمُ﴾ وأصوب ﴿لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ﴾ يقول: أحرى وأجدر ﴿أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ يعني: لا تشكوا في شيء من حقوقكم.

ثم استثنى الله تعالى فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ قرأ عاصم ﴿تجارةً حاضرةً﴾ بالنصب وقرأ الباقون بالرفع، فمن قرأ بالنصب جعله خبر تكون، والاسم مضمر معناه: إلا أن تكون المداينة تجارة حاضرة. ومن قرأ بالرفع جعله اسمه يعني: إذا كان البيع بالنقد ﴿تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ﴾ يعني: تداولونها أيديكم، ولم يكن المال مؤجلاً ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج ﴿أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾ يعني: التجارة. ثم قال ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ﴾ على حقكم ﴿إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ﴾ على كل حال، نقداً

Marfat.com

كان أو مؤجلاً، وهذا أمر استحباب، ولو ترك الإشهاد جاز البيع.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ﴾ يقال: لا يعمد أحدكم إلى الكاتب والشاهد، فيدعوهما إلى الكتابة والشهادة، ولهما حاجة مهمة، فتمنعهما عن حاجتهما، وليتركهما حتى يفرغا من حاجتهما، أو يطلب غيرهما ﴿وَإِن تَفْعَلُوا﴾ يقول: إن تضاروا الكاتب والشاهد ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ يقول معصية منكم وترك الأدب قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الضرار ويقال: واتقوا الله ولا تعصوه فيما أمركم من أمر الكتابة والإشهاد ﴿ويعلمكم الله﴾ في أمر الكتابة، ويقال: ويؤدبكم الله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم﴾ من أعمالكم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يعني: كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً﴾ يعني: لم تجدوا من يكتب الكتاب، وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ، ﴿ولم تجدوا كاتباً﴾، يعني: الكاتب والصحيفة ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿فرُهُنٌ﴾، والباقون ﴿فرهانٌ﴾، والرّهان: هو جمع الرهن، والرُّهنُ: فهو جمع الرهان، وهو جمع الجمع. يعني: إذا كنتم في السفر، ولم تجدوا من يكتب، ولم تجدوا الصحيفة والدواة، فاقبضوا الرهن. وفي الآية دليل أن الرهن لا يصح إلا بالقبض، لأنه جعل الرهن بالقبض.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾ يعني: إذا كان الذي عليه الحق أميناً عند الطلب، فلم يطلب منه الرهن، ورضي بدينه بغير رهن قوله: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ يعني: المطلوب يقضي دينه حيث ائتمنه الطالب، ولم يرتهن منه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ ولا يمنع حقه.

ثم رجع إلى الشهود فقال: ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ عند الحاكم يقول: من كانت عنده شهادة، فليؤدها على وجهها ولا يكتمها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ يعني: الشهادة ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ يعني: فاجر قلبه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وإقامتها ﴿عليم﴾، فهذا وعيد للشاهد على كتمان شهادته لكيلا يكتمها.

قرأ حمزة وعاصم ﴿فليؤدِّ الذي أُوتمن﴾، بضم الألف، والباقون يقرؤون بسكون الألف وكلاهما واحد. وقرأ نافع ﴿فليودِّ﴾ بغير همز، وقرأ أبو عمرو بالهمزة، وتفسير القراءتين واحد.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾

قوله تعالى: ﴿لله مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ من الخلق كلهم عبيده وإماؤه، وهو خالقهم ورازقهم، وحكمه نافذ فيهم، معناه: لا تعبدوا أحداً سواه، لأنه هو الذي خلق المسيح والملائكة والأصنام، ويقال: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾، يعني: في كل شيء دلالة ربوبيته ووحدانيته.

ثم قال تعالى: ﴿وإِن تُبْدوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخفوهُ﴾ يعني: إن تظهروا ما في قلوبكم أو

Marfat.com

تضمروه ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي يجازيكم به الله وقال بعضهم: يعني في كتمان الشهادة، أن تعلنوا الشهادة أو تخفوها ﴿يحاسبكم به الله﴾ أي يجازيكم به الله.

وقال الكلبي: وإن تعلنوا ما في أنفسكم من المعصية أو تسروها ولا تظهروها، يجازيكم به الله. ويقال: لما نزلت هذه الآية شقّ ذلك على المسلمين، وقالوا: يا رسول الله إنا لنحدث أنفسنا بالأمر من المعصية، ثم لا نعملها، أو نعمل بها فهو سواء، فشق ذلك على المؤمنين مشقة شديدة، فلما عرف الله مشقة ذلك على المسلمين، أنزل على نبيه ما هو أهون عليه منه فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا الدبيلي(١)، قال حدثنا أبو عبيد الله عن سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»(٢).

قال سفيان: بلغني أن الأنبياء كانوا يأتون قومهم بهذه الآية ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فيقولون: لا نطيق هذا ولا نحتمله، فأعقبهم الله بالمؤاخذة، فلما عرض على هذه الأمة قبلوا، فأعقبهم الله تعالى أن وضعها عنهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية.

ثم قال عز وجل: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: لمن تاب عن الذنوب ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: لمن أقام على ذلك، وأصر عليه. ويقال: ﴿فيغفر لمن يشاء﴾ الذنب العظيم لمن انتزع عنه، ﴿ويعذب من يشاء﴾ بالذنب الصغير إذا أصر عليه. ويقال: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار. قرأ عاصم وابن عامر، ﴿فيغفرُ﴾ بضم الراء على معنى الابتداء وقرأ الباقون بالجزم على جواب الشرط، وكذلك في قوله: ﴿ويعذب من يشاء﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من العقوبة والمغفرة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

(١) في نسخة «ب»: سقط اسم الدبيلي.

(٢) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٣١٩٤) (٧٤٠٤) و(٧٤٢٢) ومسلم (٢٧٥١) (١٤) (١٥) (١٦) وأحمد: ٢/ ٣٩٧، ٤٦٦ والبغوي (٤١٧٧).

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ روي عن الحسن وعن مجاهد وعن الضحّاك أنهم قالوا: إن هذه الآية نزلت في قصة المعراج، وهكذا روي في بعض الروايات عن عبد الله بن عباس.

وقال بعضهم: جميع القرآن نزل به جبريل على محمد ﷺ إلا هذه الآية، فإن النبي ﷺ سمعها ليلة المعراج. وقال بعضهم: لم يكن ذلك في قصة المعراج، لأن ليلة المعراج كانت بمكة، وهذه السورة كلها مدنية. فأما من قال: إنها كانت في ليلة المعراج قال: لما صعد النبي ﷺ، وبلغ فوق السموات في مكان مرتفع ومعه جبريل حتى جاوز سدرة المنتهى، فقال له جبريل: إني لم أجاوز هذا الموضع، ولم يؤمر أحد بالمجاوزة عن هذا الموضع غيرك، فجاوز النبي ﷺ حتى بلغ الموضع الذي شاء الله، فأشار إليه جبريل بأن يسلم على ربه. فقال النبي ﷺ: «التَّحِيَّاتُ لله وَالصَّلَوَاتُ والطَّيِّبَاتُ». قال الله تعالى: «السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ»، فأراد النبي ﷺ أن يكون لأمته حظ في السلام فقال: «السَّلامُ عَلَيْنَا، وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ». فقال جبريل وأهل السموات كلهم: «أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». قال الله تعالى على معنى الشكر: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه﴾، أي: صدق النبي عليه الصلاة والسلام بما أنزل إليه من ربه، فأراد النبي ﷺ أن يشارك أمته في الفضيلة فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رسبه﴾ يقولون: آمنا بجميع الرسل، ولا نكفر بواحد منهم، ولا نفرق بينهم، كما فرقت اليهود والنصارى.

فقال له ربه عز وجل: كيف قبولهم بالآية التي أنزلتها؟ وهي قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فقال: رسول الله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أي: أعطنا مغفرتك يا ربنا ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع. قال الله تعالى عند ذلك: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ يعني: طاقتها.

ويقال: إلا دون طاقتها، ويقال: لا يكلف الصلاة قائماً لمن لا يقدر عليها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشر فقال له جبريل عند ذلك: «سلْ تُعْطَ» فقال النبي ﷺ: «رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا» يعني: إن جهلنا ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ يعني: إن تعمدنا، ويقال إن عملنا بالنسيان، ﴿أو أخطأنا﴾ يعني: عملنا بالخطأ، فقال له جبريل: «قد أعطيت ذلك، قد رفع عن أمتك الخطأ والنسيان فَسَلْ شيئاً آخر»، فقال عند ذلك: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً﴾ يعني: ثقلاً ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ وهو: أنه حرم عليهم الطيبات بظلمهم، وكانوا إذا أذنبوا بالليل، وجدوه مكتوباً على بابهم، وكانت الصلوات عليهم خمسين، فخفف عن هذه الأمة، وحطّ عنهم بعدما فرض عليهم إلى خمس صلوات ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ يقول: لا تكلفنا من العمل ما لا نطيق، فتعذبنا. . ويقال: ما يشق ذلك علينا، لأنه لو أمر

Marfat.com

بخمسين صلاة، لكانوا يطيقون ذلك، ولكنه يشقّ عليهم، ولا يطيقون الإدامة على ذلك ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ من ذلك كله ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ يعني: تجاوز عنا ويقال: ﴿واعف عنا﴾ من المسخ والخسف، ﴿وآرحمنا﴾ من القذف، لأن الأمم الماضية بعضهم أصابهم المسخ، وبعضهم الخسف، وبعضهم القذف.

ثم قال تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾ يعني: أنت ولينا وحافظنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ فاستجيب دعاؤه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ». ويقال: إن الغزاة إذا خرجوا من بلادهم بالنية الخالصة، وضربوا الطبل، وقع الرعب والهيبة في قلوب الكفار مسيرة شهر، علموا بخروجهم أو لم يعلموا، ثم إن النبي ﷺ لما رجع، أوحى الله تعالى إليه هذه الآية، ليعلم أمته بذلك.

ولهذه الآية تفسير آخر قال الزجاج: لما ذكر الله تعالى فرض الصلاة والزكاة في هذه السورة، وبيّن أحكام الحج، وحكم الحيض، والطلاق والإيلاء، وأقاصيص الأنبياء، وبيّن حكم الربا والدين، ثم ذكر تعظيمه بقوله عز وجل: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. ثم ذكر تصديق نبيه ﷺ ثم ذكر تصديق المؤمنين جميع ذلك قال: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾، أي: صدق الرسول بجميع هذه الأشياء التي جرى ذكرها، وكذلك المؤمنون كلهم صدقوا بالله وملائكته وكتبه ورسله.

قرأ حمزة والكسائي ﴿وكتابه﴾ على معنى الوَحدان. وقرأ الباقون ﴿وكتبه﴾ على معنى الجمع. ثم قال: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾، فأخبر عن المؤمنين بأنهم يقولون: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾.

وقرأ الحضرمي ﴿لا يفرق﴾ بالياء، ومعناه: كلٌّ آمن بالله، وكلٌّ لا يفرق. وقرأ ابن مسعود ﴿لا يفرقون﴾ بين أحد من رسله. ﴿وقالوا: سمعنا وأطعنا﴾، أي: قبلنا ما سمعنا، لأن من سمع ولم يقبل قيل له: أصم أنت، لأنه لم ينتفع بسماعه.

وقرأ أبو عمرو ﴿من رُسْله﴾، بثقل السين، وكذلك جميع ما في القرآن فإذا جاوز عن هذه الحروف الأربعة، مثل رُسُلِنا ورُسُلهم يقرأ بالسكون، وقرأ الباقون برفع السين في جميع القرآن. ومعنى قوله: ﴿غفرانك ربنا﴾، يعني: اغفر غفرانك، وهو من أسماء المصادر، كالكفران والشُكران ﴿وإليك المصير﴾. يعني: نحن المقرون بالبعث.

ثم قال عز وجل: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ يعني: طاقتها. قال الفقيه: حدثنا أبو الحسين قال: حدثنا محمد بن يوسف قال: حدثنا محمد بن عبد الله قال: حدثنا مروان، عن عطاء بن عجلان عن زرارة بن أبي أوفى، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ

Marfat.com

عَنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ ما حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَها، أَوْ هَمَّتْ بِهِ مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ، أَوْ تَتَكَلَّمْ بِهِ»(١).

ثم قال ﴿لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت﴾، أي: لا تأخذ أحداً بذنوب غيره، كما قال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿إن نسينا﴾ أي: إن تركنا أو أخطأنا، يعني: إن كسبنا خطيئة، فأخبر الله تعالى بهذا عن النبي ﷺ، وعن المؤمنين، وجعله في كتابه ليكون دعاء النبي ﷺ لهم دعوة يدعون بها من بعده، لأن هذا الدعاء قد استجيب له، فينبغي أن يحفظ، ويدعى به كثيراً.

قال الفقيه: حدثنا القاضي الخليل قال: حدثنا السراج قال: حدثنا أحمد بن سعيد الدارمي قال: حدثنا سهل بن بكار قال: حدثنا أبو عوانة عن أبي مالك الأشجعي، عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلاثِ خِصَالٍ: جُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُوراً، وَجُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ المَلائِكَةِ، وَأُوتِيتُ هٰذِهِ الآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ من تَحْتَ العَرْشِ، لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي، ولا يُعْطَى أَحداً بَعْدِي»(٢).

وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: «تَعَلَّمُوا البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فإِنَّهُمَا تَجِيئَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَالغَمَامَتَيْنِ ـ أَوْ كَغيايتين، أَوْ كَفِرْقَتَيْنِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، وَتحاجَّان عَنْ صَاحِبِهِمَا»(٣). ثم قال: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، فإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلا يَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ»(٤)، يعني: السَّحَرَةَ.

وروي عن النبي ﷺ أنه نزل عليه ملك فقال له: «إِنَّ الله يبشِّرُكَ بنورين، لم يُعْطَهُما نبياً قبلَكَ، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لا يقرأ بحرفٍ منهما إلا أعطيتَه ما وُعد له»(٥).

وروي عن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ بَلَغَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ ثلاثمائةِ آيةٍ، لَتَكَلَّمَتْ» يعني: لصارت بحال تتكلم، لأنه لا يبقى شيء، إلا اجتمع فيها من كثرة ما فيها من العجائب. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد.

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٢٥٢٨) و(٦٦٦٤) وأبو داود (٢٢٠٩) والترمذي (١١٨٣) والنسائي: ٦/١٥٦ ـ ١٥٧ وابن ماجة (٢٠٤٤) وأحمد: ٢/٤٩١ والبيهقي ٧٠/٢٩٨.

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن خزيمة (٢٦٤) وأحمد: ٥/٣٨٢ والبيهقي ١/٢١٣ والسيوطي: ٢/١٣٨.

(٣) أخرجه مسلم (٨٠٤) (٢٥٢) وأحمد: ٥/٢٥١، ٣٥٢، ٣٦١ والمجمع: ٧/١٥٩ والدر المنثور: ١/٤٧.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي عمر والدارمي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه عن بريدة.

(٥) حديث أبي أمامة. أخرجه مسلم (٨٠٤) (٢٥٢).

Marfat.com

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

مدنية وهي: مائتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢﴾

﴿الم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا الله أعلم» يعني: هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي ﴿لا إله إلا هُوَ الْحَيُّ﴾ الذي لا يموت ولا يزول أبداً. ويقال: ﴿الحي﴾ الذي لا بدىء له أمّا ﴿الْقَيُّومُ﴾ يعني: القائم على كل نفس بما كسبت. ويقال: القائم بتدبير الخلق.

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «الحي قبل كل حي، والحي بعد كل حي، الدائم الذي لا يموت، ولا تنقضي عجائبه، والقائم على العباد بأرزاقهم وآجالهم.» ويقال: ﴿الحي القيوم﴾ وهو اسم الله الأعظم. ويقال: إن عيسى ابن مريم عليهما السلام كان إذا أراد أن يُحيي الموتى، يدعو بهذا الاسم: يا حَيُّ يَا قَيوم. ويقال: إن آصف بن برخيا لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس إلى سليمان دعا بقوله: يا حَيُّ يا قيوم ويقال: إن بني إسرائيل، سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله الأعظم فقال لهم: قولوا بآهيا يعني: يا حي، شراهيا يعني: يا قيوم. ويقال: هو دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق يدعون به.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: أنزل عليك جبريل بالقرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالعدل، ويقال: لبيان الحق ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: موافقاً للكتب المتقدمة في التوحيد، وفي بعض الشرائع ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى من قبل نزول هذا الكتاب.

وروي عن الفراء أنه قال: اشتقاق التوراة من ورى الزند، وهو ما يظهر من النور والضياء، فسمي التوراة بها، لأنه ظهر بها النور والضياء لبني إسرائيل، ومن تابعهم، وإنما سمي الإنجيل إنجيلاً، لأنه أظهر الدين بعدما درس، وقد سمي القرآن إنجيلاً أيضاً لما روي في قصة مناجاة موسى عليه السلام أنه قال: يا رب أرى في الألواح أقواماً أناجيلُهم في صدورهم، فاجعلهم أمتي، قال الله تعالى: «هم أمة محمد ﷺ». وإنما أراد بالأناجيل القرآن.

Marfat.com

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿التوراة﴾ بكسر الراء، والباقون بالفتح.

وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ معناه: وأنزل أيضاً التَّورَاة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما السلام بياناً لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ على محمد ﷺ بعد التوراة والإنجيل. وقال الكلبي: ﴿الفرقان﴾ هو الحلال والحرام، يعني: بيان الحلال والحرام. ويقال: المخرج من الشبهات.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: جحدوا بمحمد ﷺ وما أوتي به من آيات نبوته والقرآن ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

قال الكلبي: نزلت في وفد نجران، قدموا على رسول الله ﷺ، وجادلوه بالباطل. ويقال: نزلت في شأن اليهود. ويقال: نزلت في شأن مشركي العرب. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ يعني: منيع بالنقمة، يعني: ينتقم ممن عصاه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ يعني: لا يذهب ولا يغيب عنه شيء ﴿في الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ معناه: أنه لا يخفى عليه قول الكفار وعملهم، فيجازيهم يوم القيامة، وهم وفد نجران، وسائر المشركين.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾

ثم أخبر عن صنعه، ليعتبروا بذلك **فقال تعالى:** ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُم في الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يعني: يخلقكم كيف يشاء قصيراً أو طويلاً، حسناً أو ذميماً، ذكراً أو أنثى. ويقال: شقياً أو سعيداً. وهذا كما روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه» ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الوَلَدُ في بَطْنِ الأُمِّ يكونُ نُطفَةً أَرْبَعِينَ يَوماً، ثُمَّ يَصِيرُ عَلَقَةً أَرْبَعِينَ يَوماً، ثُمَّ يَصِيرُ مُضغَةً أَرْبَعِينَ يَوماً، ثُمَّ يُنفَخُ فيهِ الرُّوحُ، ثُمَّ يُكتَبُ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ»**(١).

وذكر عن إبراهيم بن أدهم: أن القراء اجتمعوا إليه ليسألوا ما عنده من الحديث. فقال لهم: إني مشغول بأربعة أشياء، فلا أتفرغ لرواية الحديث فقيل له: وما ذاك الشغل؟ فقال أحدها: إني أتفكر في يوم الميثاق. حيث قال: هؤلاء في الجنة، ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فلا أدري من أي الفريقين كنت في ذلك الوقت. والثاني: حيث صوّرني في رحم أمي، فقال الملك الموكل على الأرحام: يا رب شقيٌّ هو أم سعيد؟ فلا أدري كيف كان الجواب

---

(١) حديث ابن مسعود: أخرجه البخاري (٣٢٠٨) و(٣٣٣٢) و(٦٩٥٤) ومسلم (٢٦٤٣) (١) وأحمد: ١/ ٣٨٢ والدر المنثور: ٢/ ١٤٤.

Marfat.com

في ذلك الوقت. والثالث: حيث يقبض روحي ملك الموت فيقول: يا رب أمع الكفر أم مع الإيمان؟ فلا أدري كيف يخرج الجواب. والرابع: حيث يقول: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، فلا أدري من أي الفريقين أكون وإلى هذا ذهب أهل الخبر؟

ثم قال تعالى: ﴿لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾ يعني: لا خالق ولا مصور إلا هو ﴿ٱلْعَزِيزُ الحكيم﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن جحده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ يحكم تصوير الخلق على ما يشاء.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ يعني: جبريل أنزل بالقرآن ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ يعني: من القرآن آيات واضحات، ويقال: مبينات بالحلال والحرام. ويقال: ناسخات لم تنسخ قط ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾ يعني: أصل كل كتاب، وهي ثلاث آيات من سورة الأنعام وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى آخر الآيات. وروي عن ابن عباس أنه سمع رجلاً يقول: فاتحة الكتاب أم الكتاب؟ فقال له ابن عباس: «بل أم الكتاب» قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى آخر ثلاث آيات.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ قال الضحاك: يعني: منسوخات، وقال الكلبي: يعني ما اشتبه على اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿الألم﴾، و﴿ألمر﴾ ويقال: المحكم ما كان واضحاً لا يحتمل التأويل، والمتشابه الذي يكون اللفظ يشبه اللفظ، والمعنى مختلف.

ويقال: المحكم الذي هو حقيقة اللغة، والمتشابه ما كان مجازاً. ويقال: المحكمات التي فيها دلالة نبوة محمد ﷺ، والمتشابه الذي اشتبهت الدلالة فيه، فإن قيل: إذا أنزل القرآن للبيان، فكيف لم يجعل كله، واضحاً؟ قيل له: الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أن يظهر فضل العلماء، لأنه لو كان الكل واضحاً، لم يظهر فضل العلماء بعضهم على بعض. وهكذا يفعل كل من يصنف تصنيفاً يجعل بعضه واضحاً، وبعضه مشكلاً، ويترك للحيرة موضعاً، لأن ما هان وجوده، قل بهاؤه.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ يعني: مَيْلٌ عن الحق وهم اليهود ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ قال الضحاك: يعني ما نسخ منه ﴿ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ يعني: طلب الشرك واستبقاؤه ما

Marfat.com

هم عليه ﴿وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ يعني: طلب بقاء[١] هذه الأمة إلى أدنى زمنٍ. ويقال: طلب وقت قيام الساعة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يعني: منتهى ملك هذه الأمة، وذلك أن جماعة من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ، وفيهم حيي بن أخطب وغيره، فقالوا: بلغنا أنه نزل عليك ﴿ألم﴾، فإن كنت صادقاً في مقالتك، فإن ملك أمتك يكون إحدى وسبعين سنة، لأن الألف في حساب الجمل واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فنزل ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله**﴾، يعني: منتهى ملك هذه الأمة.

ثم قال تعالى: ﴿والراسخون في العلم﴾ قال الكلبي ومقاتل: استأنف الكلام يعني: لما قال ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾، فقد تم الكلام واستأنف فقال: ﴿**والراسخون في العلم**﴾ يعني: المبالغون في علم الكتاب، كتابهم التوراة والإنجيل ﴿**يقولون آمنا به**﴾ يعني: بالقرآن ﴿**كُلٌّ من عند ربنا**﴾ ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وهو عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال بعضهم: هو معطوف على قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم﴾ يعني: يعلمون تأويله. ويقولون: ﴿**آمنا به كل من عند ربنا**﴾. وروى ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: أنه كان يقرأ، ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾، ويقول: الراسخون في العلم: آمنا به، وهذا يوافق قول الكلبي ومقاتل. وقال عامر الشعبي: لو كان ابن عباس بين أظهرنا ما سألته عن آية من التفسير، لأني أحلُّ حلاله، وأحرّم حرامه، وأومن بمتشابهه، وأكل ما لم أعلم منه إلى عالمه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أولو الألباب﴾ يعني: ما يتعظ بما أنزل من القرآن إلا ذوو العقول من الناس.

ثم قال عبد الله بن سلام وأصحابه، حين سمعوا قول اليهود وتكذيبهم: ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا**﴾ يعني: لا تُحوّل قلوبنا عن الهدى ﴿**بعد إذ هديتنا**﴾ أي: بعد ما أكرمتنا بالإسلام، وهديتنا لدينك ﴿**وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً**﴾ يعني: ثَبِّتنا على الهدى ﴿**إِنَّكَ أنتَ الوهَّاب**﴾ يعني: المعطي المثيب للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ربنا إنك جامعُ الناس﴾ بعد الموت ﴿**ليوم لا ريب فيه**﴾ يعني: في يوم لا شك فيه عند المؤمنين أنه كائنٌ لا محالة. ﴿**إن الله لا يخلف الميعاد**﴾ في البعث ويقال: معناه إنَّ الله ﴿**إن الله لا يخلف الميعاد**﴾ في إجابة الدعاء، يعني: يوم يجمع الناس في الآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

---

(١) في نسخة «ب» فناء.

Marfat.com

ثم قال تعالى ﴿إن الذين كفروا﴾ يعني: اليهود، ويقال: جميع الكفار ﴿لن تغني عنهم﴾ كثرة ﴿أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ يعني: لا ينفعهم من عذاب الله ﴿شيئاً﴾ في الدنيا إذا نزل بهم شدة أو مرض، ولا في الآخرة عند نزول العذاب. ويقال: كل ما لم ينفق في طاعة الله، فهو حسرة له يوم القيامة. ويقال: إنما ذكر الأموال والأولاد، لأن أكثر الناس يدخلون النار لأجل الأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أنهما لا ينفعانهما في الآخرة، لكيلا يفني الناس أعمارهم لأجل المال والولد، وإنما ذكر الله تعالى الكفار، لكي يعتبر بذلك المؤمنون.

ثم قال تعالى: ﴿وَأولئك هم وقود النار﴾ يعني: حطب النار. وقرأ بعضهم ﴿وُقُودُ النار﴾ بضم الواو، يعني: إيقاد النار كما قال في آية أخرى ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] قالوا: معناه إذا أرادت النار أن تنطفىء، بدلهم الله جلوداً غيرها لتتقد النار.

ثم قال عز وجل: ﴿كدأب آل فرعون﴾ يعني: صنيع الكفار معك، كصنيع آل فرعون مع موسى. وقال مقاتل: كأشباه آل فرعون بالتكذيب بالعذاب في الدنيا. ويقال: إهلاك الله إياهم بالقتل، كإهلاك آل فرعون بالغرق. ويقال: تعاونُهم وتظاهرهم فيما بينهم عليك، كتظاهُر آل فرعون على موسى ﴿والذين من قبلهم﴾ يعني: قبل آل فرعون، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ﴿كذبوا بآياتنا﴾ بدلائلنا وعجائبنا، ويقال: بكتبي ورسلي كما كذبك قومك يا محمد ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ يعني: أهلكهم وعاقبهم بشركهم ﴿والله شديد العقاب﴾ للكفار.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى ﴿قل للذين كفروا﴾ قال الضحاك: يعني كفار مكة لما ظهروا يوم أحد، فرحوا بذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا﴾ من أهل مكة ﴿ستغلبون﴾ بعد هذا ﴿وتحشرون إلى نار جهنم﴾ وقال الكلبي: نزلت في شأن بني قريظة وذلك أن رسول الله ﷺ لما هزم المشركين يوم بدر، وقالت اليهود: هذا النبي الأمّي الذي بشرنا به موسى الذي نجده في التوراة، فأرادوا تصديقه واتباعه ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب محمد ﷺ وقالوا: والله ما هو إياه، فقد تغيّرت صفته وحاله، فشكوا فيه ولم يسلموا، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة، فنقضوا ذلك العهد، فأنزل الله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون﴾ وقال عكرمة عن عبد الله بن عباس أنه قال: «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر وقَدِم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: «يا مَعْشَرَ اليَهُودِ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمُ الله بِمِثْلِ مَا أَصَابَ قُرَيْشاً». قالوا: يا محمد لا تغرنّك نفسك. إنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، فإنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحنُ

Marfat.com

أولو البأس وأنك لم تلق مثلنا[1]، فأنزل الله تعالى ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون﴾ يعني: اليهود تُهزمون وتُقهرون وتُحشرون بعد القتل إلى جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ يعني: لبئس موضع القرار جهنم. قرأ حمزة والكسائي ﴿سَيُغلبون وَيُحشرُون﴾ بالياء على معنى الخبر، والباقون بالتاء على معنى المخاطبة.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿قد كان لكم آية﴾ يعني: عبرة ﴿في فئتين﴾ أي جَمْعَيْن، يعني: جَمع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجمع كفار أهل مكة ﴿التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم﴾ قرأ نافع ﴿ترونهم﴾ على معنى المخاطبة، والباقون بالياء على معنى الخبر، وذكر عن الفراء أنه قال: كان الكفار ثلاثة أمثال المسلمين، لأن المسلمين كانوا ثلاثمائة ونيفاً، وكان الكفار تسعمائة ونيّفاً. وقوله: ﴿مثليهم﴾ يعني: ثلاثة أمثالهم، والمعنى في ذلك عن طريق اللغة: أن الإنسان إذا كان عنده ألف درهم يقول احتاج إلى مثليها، فإنه يحتاج إلى ثلاثة آلاف درهم. وقال الزجاج: هذا القول لا يصح في اللغة، ولا في المعنى، ولكن المسلمين يرونهم مثليهم في العدد لكي لا يجبنوا، لأنه أعلمهم أن المائة تغلب المائتين، فأراهم في ﴿رأي العين﴾ أن المشركين مثلهم في العدد، لكي لا يجبنوا، وهذا كما قال في آية أخرى، ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾[الأنفال: ٤٤]، وذلك أن المشركين كانوا تسعمائة، فأرى المسلمين أنهم ستمائة، لكي لا يجبنوا، وأرى الكفار أن المسلمين أقل من ثلاثمائة، ثم ألقى مع ذلك في قلوبهم الرعب حتى انهزموا، فكان في ذلك دلالة من الدلالات. فمن قرأ بالياء فمعناه خطاب لليهود: إن لكم آية وعلامة، حيث رأيتم غلبة المسلمين على الكفار مع قلة المسلمين وكثرة الكفار. فإن قيل: اليهود لم يكونوا حضوراً في ذلك الوقت، فكيف يرون ذلك؟ قيل له: إذا انتشر الخبر فيهم، وعلموا ذلك صار كالمعاينة، ولأن لهم جواسيس عند المسلمين فيخبرون اليهود، فصار كأنهم رأوا ذلك. ومن قرأ بالتاء فمعناه: أن المسلمين يرون الكفار مثليهم.

ويقال: إن المشركين حين خرجوا من مكة، كانوا ألفاً وثلاثمائة رجل، فلما وجدوا العير سالمة رجع مع العير ثلاثمائة وخمسون، وتخلف تسعمائة وخمسون للحرب، وكان أبو

(١) عزاه السيوطي ١٥٨/٢ إلى ابن إسحق وابن جرير، والبيهقي في الدلائل.

Marfat.com

سفيان بن حرب مع ذلك العير، فرجع إلى مكة، وحثهم على الخروج، ولم يكن حاضراً وقت الحرب، وإنما قال الكلبي في كتابه: نزلت في جمع أبي سفيان وأصحابه، لأن أبا سفيان هو الذي حثهم على الخروج، ولم يخرج معهم.

ثم قال تعالى: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ يعني: يقوّي بنصرته، وهم أهل بدر، فأرسل إليهم الملائكة، وهزم المشركين **﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾** يعني: لمن ينصر الحق.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ أي: حُسِّن وحُبِّب إليهم، وقد يكون التزيين من الله تعالى. كما قال في آية أخرى ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤] وقد يكون من الشيطان كما قال في آية أخرى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] فأما التزيين من الله تعالى، فهو على وجهين: يكون على جهة الامتحان للمؤمنين مع العصمة، وقد يكون للكفار على جهة العقوبة مع الخذلان، وأما التزيين من الشيطان، فهو على جهة الوسوسة. فقال: **﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين﴾** بدأ بالنساء، لأن النساء أشد من فتنة جميع الأشياء، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما تَرَكْتُ لأُمَّتِي فِتْنَةً أَشَدَّ مِنْ فِتْنَةِ النِّساءِ»**[1]، ولأن النساء فتنتهن ظاهرة من وقت آدم عليه السلام إلى يومنا هذا.

ويقال: في النساء فتنتان، وفي الأولاد فتنة واحدة: إحداهما: أنها تؤدي إلى قطيعة الرحم، لأن المرأة تأمر زوجها بقطيعة الرحم عن الأمهات والأخوات. والثانية: يبتلي لجمع المال من الحلال والحرام، وأما البنون، فإن الفتنة فيهم واحدة، وهي ما ابتلي به من جمع المال لأجلهم. فذكر البنين وأراد به الذكور والإناث.

وقال بعض الحكماء: أولادنا فتنة إن عاشوا فتنونا، وإن ماتوا أحزنونا.

ثم قال عز وجل ﴿والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ عن الفراء أنه قال. القناطير جمع قنطار، والمقنطرة جمع الجمع، فيكون تسع قناطير.

---

(١) حديث أسامة: أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠) و(٢٨٤١) والترمذي (٢٧٨٠) وابن ماجة (٣٩٩٨) والبيهقي ٧/ ٩١ والبغوي (٢٢٤٢).

Marfat.com

وروي عن أبي عبيدة أنه قال: ﴿المقنطرة﴾ مفعَلة من الورق. كما يقال: ألوف مؤلفة، وبدار مُبدَّرة. ويقال: ﴿المقنطرة﴾ هي المكيلة، ثم اختلفوا في مقدار القنطار، فروي عن مجاهد أنه قال: القنطار سبعون ألف دينار. وقال أبو هريرة: القنطار اثني عشر ألف أوقية. وقال معاذ بن جبل: ألف ومائتا أوقية(١). وقال بعضهم: مِلْءُ مَسْكِ ثَوْرٍ من ذهب، حكاه الكلبي، وقال: هو لغة رومية. وروي عن الحسن البصري أنه سئل عن القنطار فقال: هو مثل دية أحدكم.

ثم قال تعالى: ﴿والخَيل المُسَوَّمة﴾ يعني: الراعية كما قال في آية أخرى ﴿فيه تسيمون﴾ أي ترعون. وهو قول سعيد بن جبير ومقاتل. وقال يحيى بن كثير: هي السمينة المصورة. وقال أبو عبيدة: المُعْلَمة.

ثمّ قال تعالى: ﴿والأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ثمّ قال: ﴿والحَرْث﴾ يعني: الزرع. ذكر أربعة أصناف كل نوع من الأموال، كل نوع من الأموال يتمول به صنف من الناس. أما الذهب والفضة، فيتمول به التجار، وأما الخيل المُسَوَّمة، فيتمول به الملوك. وأما الأنعام، فيتمول بها أهل البوادي. وأما الحرث، فيتمول به أهل الرساتيق، فتكون فتنة كل النوع الذي يتمول به، وأما النساء والبنين فهي فتنة للجميع.

ثم زهَّد في الدنيا، ورغَّب في الآخرة فقال: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ يعني منفعة الحياة الدنيا تذهب، ولا تبقى ﴿والله عنده حسن المآب﴾ يعني: المرجع في الآخرة الجنة، لا تزول ولا تفنى. ثم بَيّن أن الذي وعد المؤمنين في الآخرة، خير مما زين فقال عز وجل: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلك﴾ يعني: من الذي زين للناس ﴿للذين اتقوا﴾ الشرك والفواحش والكبائر. ويقال للذين اتقوا الزينة، فلا تشغلهم عن طاعة الله: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ يعني: البساتين تجري من تحت شجرها، ومساكنها الأنهار، فهو خير من زينة الدنيا.

وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَشِبْرٌ فِي الجَنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيهَا»(٢) وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الموضِعُ سَوْطٍ في الجنَّةِ خيرٌ من الدنيا وما فيها»(٣).

ثم قال: ﴿خالدين فيها﴾ يعني: مقيمين فيها أبداً ﴿وأزواجٌ مُطَهَّرة﴾ معناه: في الخَلْق والخُلُق. فأما الخَلْقُ فإنهن لا يَحضنَ ولا يتمخَّطن ولا يأتين الخلاء. وأما الخُلُق، فإنهن لا

---

(١) الأثر عن أبي هريرة ومعاذ، أخرجهما السيوطي: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) عزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة وابن ماجة عن ابن سعيد وإسناده ضعيف.

(٣) ساقط من نسخة «أ» ـ وحديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٢٧٩٣) و(٣٢٥٣) والترمذي (٣٢٩٢) والحاكم ٢/ ٢٩٩ وأحمد: ٢/ ٤٨٢.

Marfat.com

يَغِرْن ولا يحسدن، ولا ينظرن إلى غير أزواجهن ﴿ورضوان من الله﴾ يعني: مع هذه النعم لهم رضوان من الله، وهو من أعظم النعم كما قال في آية أخرى ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿وَرُضْوَان﴾ بضم الراء، والباقون بالكسر، وهما لغتان، وتفسيرهما واحد.

ثم قال تعالى: ﴿والله بصيرٌ بالعباد﴾ يعني: عالم بأعمالهم وثوابهم.

ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿الذين يقولون رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا﴾ يعني: صَدَّقْنا ﴿فَاغفِرْ لنا ذُنوبنا﴾ يعني: خطايانا التي كانت في الشرك وفي الإسلام ﴿وقِنَا عَذَابَ النَّار﴾ يعني: ادفع عنا عذاب النار.

ثم قال عز وجل: ﴿الصَّابرين﴾ الذين يصبرون على طاعة الله، ويصبرون على المعاصي، ويصبرون على ما أصابهم من الشدة والمصيبة.

ثم قال تعالى: ﴿والصادقين﴾ في إيمانهم، وفي قلوبهم، وفي وعدهم بينهم وبين الناس، وبينهم وبين الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿والقانتين﴾ يعني: المطيعين لله تعالى ﴿والمنفقين﴾ الذي يتصدقون من أموالهم في سبيل الله ﴿والمستغفرين بالأسْحار﴾ يعني يصلون لله عند الأسحار. ويقال: يصلون لله بالليل، ويستغفرون عند السَّحَر.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ الله أنّه لا إله إلاّ هُو﴾ يعني: أن الله تعالى قَبْل أن يخلق الخلق شهد أن لا إله إلا هو ﴿والملائكة﴾ ولما خلق الملائكة شهدوا بذلك، ثم لما خلق الله المؤمنين شهدوا بمثل ذلك وهم ﴿أولو العلم﴾ يعني: المؤمنين شهدوا بذلك ﴿قَائِماً بالقِسْط﴾ يعني: الله قائماً بالعَدْل ـ على كلّ نفسٍ. ويقال من أقرّ بهذه الشهادة على عقد قلبه، فقد قام بالعدل[1] ـ. وقال مقاتل: سبب نزول هذه الآية، أن عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا لرؤساء اليهود: اتبعوا دين محمد ﷺ. فقالت اليهود: ديننا أفضل من دينكم. فقال الله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ يشهدون بذلك، وأولو العلم بالتوراة يشهدون بذلك، ويشهدون أن الله قائم بالقسط، يعني: بالعدل، وأن الدين عند الله الإسلام.

قال الكلبي: وفيه وجه آخر: وذلك أنه لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة، قدم عليه حَبْران من أحبار الشام، فلما نظرا إلى المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «د».

Marfat.com

النبي ﷺ الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا عليه قالا له: أنت محمد؟ قال: «نَعَمْ». قالا: وأنت أحمد؟ قال: «أنا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ». قالا: أَخْبِرْنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله تعالى، فنزلت هذه الآية ﴿شهد الله أن لا إله إلا هو﴾ إلى آخرها. فأسلم الرجلان وصدّقا أن الدين عند الله الإسلام.

وروي عن أبي عبيدة أنه قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ يعني: عَلِم الله، وبَيَّن الله، فالله عز وجل دَلَّ على توحيده لجميع ما خلق، فبيّن أنه لا يقدر أحدٌ أن ينشىء شيئاً واحداً مما أنشأ الله تعالى، وشَهِدت ﴿الملائكة﴾ لمّا علمت من عظيم قدرته، وشهد ﴿أولو العلم﴾ بما ثبت عندهم، وتبين عندهم، وتبيّن من خلقه الذي لا يقدر غيره عليه. وفي هذه الآية بيان فضل أهل العلم، لأنه ذكر شهادة نفسه، ثم ذكر شهادة الملائكة، ثم ذكر شهادة أهل العلم.

ثم قال تعالى: ﴿لا إله إلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ﴾ فشهد بمثل ما شهد من قبل، لتأكيد الكلام. ـ وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، لكل حي من العرب صنم أو صنمان، فلما نزلت هذه الآية، أصبحت تلك الأصنام كلها قد خرت ساجدة[١] ـ.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿إن الدّين عند الله الإسلام﴾ قرأ الكسائي: إنَّ ﴿الدين﴾ بالنصب على معنى البناء يعني: شهدوا أنه لا إله إلا هو، وأنَّ الدين عند الله الإسلام، وقرأ الباقون بالكسر على معنى الابتداء، ومعناه: أن الدين المرضيَّ عند الله الإسلام ﴿وَمَا اختَلَف الَّذين أُوتُوا الكِتَابَ﴾ في هذا الدين ﴿إلاَّ مِن بَعْدِ مَا جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ يعني: بيان أمر محمد ﷺ، وهم اليهود والنصارى، فلما بعث الله تعالى محمداً، كفروا حسداً منهم، هكذا قال مقاتل. ويقال: إنهم كانوا مسلمين، وكانوا يسمّون بذلك، وكان عيسى عليه السلام سمّى أصحابه مسلمين، فحسدتهم اليهود لمشاركتهم في الاسم فغيّروا ذلك الاسم، وسُمُّوا يهوداً، وأما النصارى فغيرهم عن ذلك الاسم بولس، وسماهم نصارى، فذلك قوله تعالى: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بَعْدِ مَا جاءَهُم الْعِلْمُ بَغْياً بينهم﴾ يعني: غَيّروا الاسم حسداً منهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بآيَاتِ الله فإن الله سريع الحساب﴾ ـ لأنه قد جاء في آية أخرى ﴿وما أمر السّاعة إلا كلمح البصر﴾ يعني: سريع المجازاة[٢] ـ. ويقال: ﴿سريع الحساب﴾ يعني: سريع المجازاة، ويقال: سريع التعريف للعامل عمله، لأنه عالم بجميع ما عملوا، لا

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب». (٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

يحتاج إلى إثبات شيء، وتذكر شيء. ويقال: إذا حاسب، فحسابه سريع يحاسب جميع الخلق في وقت واحد، كل واحد منهم يظن أنه يحاسبه خاصة.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فإن حاجوك﴾ أي: خاصموك وجادلوك في الدين ﴿فقُلْ أسلمْتُ وجهي لله﴾ يعني: أخلصت ديني لله. وقال الزجاج: إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يحتج على أهل الكتاب والمشركين، بأنه اتبع أمر الله الذي هم أجمعون مقرون بأنه خالقهم، فأراهم الدلالات والآيات بأنه رسوله.

وقوله تعالى: ﴿أسلَمْتُ وَجْهِيَ لله﴾ يعني: ـ قصدتُ بعبادتي الله وأقررتُ بأنه لا إله غيره، وقال القتبي: معنى ﴿أسلمت وجهي لله﴾ أي(1) أسلمتُ لله ـ، والوجه زيادة كما قال الله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾، يعني: إلا هو.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُل لِلَّذِينَ أوتو الْكِتَابَ﴾ يعني: أُعْطُوا التَّوْرَاة والإنجيل ﴿والأمِّيِّين﴾ يعني: مشركي العرب ﴿أأسلمتم﴾ يعني: أخلصتم بالتوحيد. ويقال: اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الأمر، فكأنه يقول: أَسْلِمُوا، كما قال في آية أخرى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾؟ يعني: انتهوا. وقال الزجاج: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٧٤]؟ يعني: توبوا.

ثم قال تعالى: ﴿فإنْ أسلموا فقد اهتدَوا﴾ يعني: إنْ أخلصوا بالتوحيد وصدقوا بمحمد ﷺ وبالكتاب، فقد اهتدوا من الضلالة ﴿وإن تولَّوا﴾ يقول: إن أبوا أن يُسلموا ﴿فإنما عَلَيكَ الْبَلاَغ﴾ بالرسالة ﴿والله بَصِيرٌ بالعباد﴾ يعني: بأعمالهم، ومعناه: ليس عليك من عملهم شيء وإنما عليك التبليغ، وقد فعلت ما أمرتَ به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ يَكْفُرون بآياتِ الله﴾ يعني: يجحدون بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿وَيَقتُلونَ النَّبِيِّينَ بغير حق﴾ يعني: يتولون آباءهم بالقتل، ويرضون بذلك.

قرأ حمزة ﴿يقاتلون﴾ بألف من المقاتلة، وقرأ الباقون بغير ألف، وقرأ نافع ﴿النبيئين﴾ بالهمزة، وقرأ الباقون بغير همز ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ يعني: بالعدل، وهم

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

مؤمنو بني إسرائيل، يأمرونهم بالمعروف، فكانوا يقتلونهم، فعَيَّرهم الله بذلك، وأوعدهم النار فقال: ﴿فَبَشِّرْهم بعذاب أليم﴾ يعني: وجيع، ويقال: ﴿أليم﴾ يعني: مؤلم.

ثم قال تعالى: ﴿أولئك الذين حَبِطَتْ أعمالهم﴾ يعني بطل ثواب حسناتهم، فلا ثواب لهم ﴿في الدُّنيا والآخِرَة وَمَا لَهُمْ من نَاصِرين﴾ يعني: مانعين يمنعونهم من النار.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ثمّ قال عز وجل: ﴿ألم تَرَ إلى الَّذِين أُوتوا نَصِيباً من الكتاب﴾ يعني: أُعطُوا حظاً من علم التوراة. قال مقاتل: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة منهم حين قالوا؛ نحن أَهْدَى سبيلاً، وما بعث الله رسولاً بعد موسى فقال لهم النبي ﷺ: «أَنْتُم تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي أَقُولُ لَكُم حَقٌّ فَأَخرِجُوا التَّورَاة»، فأبوا. فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿أَلَمْ تَر إلى الَّذين أُوتُوا نصيباً مِنَ الكِتَاب﴾ ﴿يُدْعَوْن إلى كِتَابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ منهم وَهُم معرضون﴾ وقال الكلبي: نزلت في يهوديين من أهل خيبر زَنَيا، وكان الحكم في كتابهم الرجم، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى عليهما بالرجم فقالوا: ليس هذا بحكم الله، فدعا بالتوراة، ودعا بابن صوريا، وكان أعور، فحلَّفه بالله، فأقرّ بالقصة، فأنزل الله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله﴾ الآية.

ثم قال عز وجل: ﴿ذلك﴾ يعني: ذلك الجزاء. قال مقاتل: فيها تقديم وتأخير، ومعناه: فبشرهم بعذاب أليم ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار﴾ ويقال: إنما جزاؤهم على خلاف الكتاب، لأنهم قالوا لن تمسنا النار ﴿إلا أياماً معدودات﴾ يعنون: أربعين يوماً، على عدد أيام عبادة العجل، ويقال: على عدد أيام الدنيا، ويقال: إن مذهبهم كان مذهب جَهْم، لأنهم لا يرون الخلود في النار.

ثم قال تعالى: ﴿وغرَّهُم في دِينهم﴾ عَفْوُ الله عنهم بتأخير العذاب ﴿ما كانوا يفترون﴾ يكذبون على الله، وهو قولهم ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة: ١٨]، فذلك قولهم الذي غرهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم خوّفهم فقال تعالى: ﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ فقال: فكيف يصنعون، وكيف يحتالون إذا جمعناهم ﴿لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فيه﴾ يعني: يوم القيامة، لا شك فيه عند المؤمنين، بأنه كائن ﴿وَوُفِّيتْ كُلُّ نفسٍ ما كَسَبتْ﴾ يعني: وفيت وأُعْطِيَتْ كل نفسما عملت ﴿وهم لا يظلمون﴾ يعني: لا يُنْقَصُون من ثواب أعمالهم شيء.

Marfat.com

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ
وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ
وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: «نزلت في شأن المنافقين»، وذلك أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة قال عبد الله بن أبيٍّ رأس المنافقين: إن محمداً يتمنى أن ينال ملك فارس والروم وأنّى له ذلك» فنزلت هذه الآية.

وقال بعضهم: سأل النبي ﷺ ربه أن يجعل له ملك الروم وفارس في أمته، فعلّمه الله بأن يدعو بهذا الدعاء، وهو قول مقاتل. وقال بعضهم: إن النبي ﷺ لما أمر بحفر الخندق، ظهرت في الخندق صخرة عجزوا عن خفرها، فأخذ النبي ﷺ المعول، وضرب ضربة، فظهر من تلك الصخرة نور فقال له سلمان: رأيت شيئاً عجيباً. فقال له النبي: «**هَلْ رَأَيْتَ ذٰلِكَ**»؟ قال: «نعم». فقال: «**رأيت في ذلك النور قصور أهل الشام**»، ثم ضرب ضربة أخرى، فكذلك ظهر أيضاً. فقال: «رأيت قصور أهل فارس». فقال رسول الله ﷺ: «**سَيظْهَرُ لأُمَّتِي مُلْكُ الشَّام، وَمُلْكُ فَارِسَ**». فقال المنافقون: إن محمداً لا يأمن على نفسه، واضطر إلى حفر الخندق، فكيف يتمنى ملك الشام وفارس؟ فنزلت هذه الآية.

وقال بعضهم: إن مشركي مكة قالوا: إن ملك فارس والروم يبيتان في الحرير والديباج، فلو كان هو نبياً، كيف ينام على الحصير؟ فنزلت هذه الآية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالك المُلْك تؤتي الملك من تشاء﴾ وأصل ﴿اللهم﴾ في اللغة: يا الله أمّنا بخير، أي اقصِدْنا بالرحمة، ولكن لما كثر استعمال هذا اللفظ في الناس صارت الكلمتان كلمة واحدة فقال: ﴿اللهم﴾، يعني اللهم يا مالك الملك، ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ يعني: تعطي الملك من تشاء يعني: محمداً ﷺ ومن اتّبعه ﴿وَتنزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاء﴾ يعني: من فارس والروم ﴿وتعز من تشاء﴾ يعني: أهل الإسلام ﴿وتُذِلُّ من تشاء﴾ يعني: أهل الشرك والطغيان ﴿بيدك الخير﴾ يعني: النصرة والغنيمة والعز ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ من العزّ والذلّ. وقال الضحاك: ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾، يعني: الإسلام، ﴿وتعز من تشاء﴾ بالإسلام، ﴿وتذل من تشاء﴾ بالشرك، ﴿بيدك الخير﴾، يعني: الهداية والسعادة، ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ من الهداية والسعادة.

وقال الزّجّاج: ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ معناه: أن تؤتيه، ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ أن تنزعه، إلا أنه حذف الهاء، لأن في الكلام ما يدلُّ عليه. قال مقاتل: وقد قيل في الملك قولان: أحدهما: هو المال والعبيد، والآخر: من جهة الغلبة بالدين.

ثم قال عز وجل: ﴿تولِجُ اللّيلَ في النّهار﴾ يعني: ما نقص من الليل دخل في النهار حتى يبلغ خمس عشرة ساعة، وهو أطول ما يكون، والليل حتى يصير الليلُ تسع ساعات، يعني:

Marfat.com

أقصر ما يكون. وهو قول الكلبي. ويقال: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يعني: تذهب بالليل، وتجيء بالنهار، وتذهب بالنهار وتجيء بالليل، هكذا إلى أن تقوم الساعة.

ثم قال ﴿وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ﴾ فقرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿المَيِّت﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون ﴿المَيْت﴾ بالتخفيف، وهما لغتان ومعناهما واحد.

قال الكلبي: يعني تخرج البيضة وهي ميتة من الطير وهو حي، وتخرج النطفة وهي ميتة من الإنسان الحي، وتخرج الطير الحيّ من البيضة الميتة، وتخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة، وتخرج الحبة من السنبلة. وقال الحسن البصري: يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن. ويقال: يخرج الجاهل من العالم، ويخرج العالم من الجاهل. وروى معمر عن الزهري: أن رسول الله ﷺ دخل على بعض نسائه، فإذا بامرأة حسنة الهيئة فقال: «مَنْ هٰذِهِ؟» قالوا: إحدى خالاتك. قال: «وَمَنْ هِيَ؟» قالوا هي خالدة بنت الأَسْوَد بن عَبْد يغوث. فقال رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ الله الَّذِي يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ»[(1)]، وكانت امرأة صالحة، وكان أبوها كافراً.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني: من غير أن تحاسب في الإعطاء، فكأنه يقول: ليس فوقه من يحاسبه في الإعطاء. كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ويقال: بغير تقتير. ويقال: بغير حسبان كما قال: وترزقه من حيث لا يحتسب.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافري أولياء﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: «نزلت في شأن المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول وأصحابه من أهل النفاق، وقد أظهروا الإسلام والإيمان»، فكانوا يتولون اليهود في العون والنصرة، ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم ظفر على محمد ﷺ وأصحابه. وقال مقاتل: نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة وغيره، ممن كانوا يظهرون المودة لكفار مكة، فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿لا يَتَّخِذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾، فهذا نهي بلفظ المغايبة، يعني: لا يتخذونهم أولياء في النصرة والعون ﴿من دون المؤمنين وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْءٍ﴾ يعني: ليس في ولاية الله، ويقال: ليس في دين الله من شيء، لأن ولي الكافر يكون راضياً بكفره، ومن كان راضياً بكفره،

(١) عزاه السيوطي ٢/ ١٧٤ إلى عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق الزهري.

Marfat.com

فهو كافر مثله كقوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

ثم استثنى لما علم أن بعض المسلمين، ربما يُبْتَلون في أيدي الكفار فقال تعالى: ﴿إلاّ أن تتّقُوا مِنهُمْ تُقَاةً﴾. قرأ يعقوب الحضرمي ﴿تقيّة﴾، وقراءة العامة ﴿تقاة﴾، ومعناهما واحد، يعني: يرضيهم بلسانه، وقبله مطمئن الإيمان، فلا إثم عليه كما قال الله تعالى في آية أخرى ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] وقراءة حمزة والكسائي ﴿تُقاة﴾ بالإمالة. وقرأ الباقون بتفخيم الألف.

ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ﴾ يعني: يخوّفكم الله بعقوبته، يعني: الذي يتخذ الكافر وليّاً بغير ضرورة، وهذا وعيد لهم. ويقال: إذا كان الوعيد مبهماً، فهو أشد.

ثم قال تعالى: ﴿وإلى الله المَصِيرُ﴾ يعني: مرجعكم في الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إن تُخفُوا ما فِي صُدُورِكُم﴾ يقول: إن تسروا ما في قلوبك من النكوث، وولاية الكفار ﴿أو تبدوه﴾ يعني: تعلنوه للمؤمنين ﴿يَعْلمه الله﴾ لأن الله ﴿ويعْلَمُ ما في السموات وَمَا فِي الأرضِ﴾ من عمل، فليس يخفى عليه شيء ﴿والله على كل شيء قدير﴾ من السر والعلانية، والعذاب والمغفرة، قدير.

ثم قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ في الدينا ﴿مِنْ خَيْرٍ مُحضراً﴾ يعني: تجد ثوابه حاضراً، ولا ينقص من ثواب عمله شيء ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ يعني: من شر في الدنيا ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أمداً بَعِيداً﴾ يعني: تتمنى النفس أن تكون بينها وبين ذلك العمل أجلاً بعيداً، كما بين المشرق والمغرب، ولم تعمل ذلك العمل قط.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَه﴾ يعني: عقوبته في عمل السوء ﴿والله رَؤوفٌ بالعِبَاد﴾ قال ابن عباس: «يعني بالمؤمنين خاصة، وهو رحيم بهم».

ويقال: ﴿رؤوف﴾ بالذين يعملون السوء، حيث لم يعجّل بعقوبتهم. ويقال: في أوّل هذه الآية ذكر عدله عز وجل: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾، وفي أوسطها تخويفاً وتهديداً وهو قوله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَه﴾ وفي آخرها ذكر رأفته ورحمته وهو قوله ﴿والله رَؤوفٌ بِالعِبَادِ﴾.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ لمّا دعا كعب بن الأشرف وأصحابه إلى الإسلام، قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، يعني: نحن في المنزلة بمنزلة الأبناء، ولنحن أشدّ حباً لله. فقال الله لنبيِّه: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾ على ديني، فإني رسول الله أؤدي رسالته.

قوله تعالى: ﴿يحببكم الله﴾ قال الزجاج يعني: ﴿تحبون الله﴾ أي تقصدون طاعته، فافعلوا ما أمركم الله عز وجل، لأن محبة الإنسان لله وللرسول طاعته له، ورضاه بما أمر، والمحبة من الله عفوه عنهم، وإنعامه عليهم برحمته. ويقال: الحب من الله عصمته وتوفيقه، والحب من العباد طاعته كما قال القائل:

تَعْصي الإلهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِي في القِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فلما نزلت هذه الآية قالوا: إن محمداً يريد أن نتخذه حناناً، كما اتخذت النصارى عيسى حناناً فنزلت هذه الآية: ﴿قل أطيعو الله والرسول﴾ فقرن طاعته بطاعة رسوله رغماً لهم، ويقال: ﴿أطيعوا الله﴾ فيما أنزل، ﴿والرسول﴾ فيما بيّن ﴿فإن تولوا﴾ يعني: أعرضوا عن طاعتهما ﴿فإنَّ الله لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ يعني: لا يغفر لهم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣)﴾

قوله تعالى: ﴿إن الله اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ﴾ يعني: اختاره، ويقال: اختار دينه، وهو دين الإسلام. ويقال: قد اختاره لخمسة أشياء: أولها: أنه خلقه بأحسن صورة بقدرته. والثاني: أنه علّمه الأسماء كلها. والثالث: أنه أمر الملائكة أن يسجدوا له. والرابع: أسكنه الجنة. والخامس: جعله أباً للبشر. واختار نوحاً عليه السلام بخمسة أشياء: أولها: أنه جعله أبا البشر، لأن الناس كلهم غرقوا، وصارت ذريته هم الباقون. والثاني: أنه أطال عمره. ويقال: طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمرهُ، وحَسُنَ عَمَلُهُ. والثالث: أنه استجاب دعاءه على الكفار والمؤمنين. والرابع: أنه حمله على السفينة. والخامس: أنه كان أول من نسخ به الشرائع، وكان قبل ذلك لم يحرم تزوج الخالات والأخوات والعمات، واختار آل إبراهيم عليه السلام بخمسة أشياء: أولها: أنه جعله أبا الأنبياء، لأنه روي: «أنه خرج من صلبه ألف نبي من زمانه إلى زمان النبي ﷺ». والثاني: أنه اتخذه خليلاً، والثالث: أنه أنجاه من النار، والرابع: أنه جعله للناس إماماً، والخامس: أنه ابتلاه الله بكلمات، فوفقه حتى أتمهن.

ثم قال تعالى: ﴿وآل عِمْران﴾ قال مقاتل: يعني به أبا موسى وهارون. وقال الكلبي: هو عمران أبو مريم، وهو من ولد سليمان النبي عليه السلام، فإنه أراد به آل موسى وهارون، إنما كان اختارهما على العالمين، حيث بعثهما على قومه المن والسلوى، ولم يكن ذلك لأحد من

Marfat.com

الأنبياء في العالم. وإن أراد به أبا مريم، فإنه اصطفى آله، يعني: مريم بولادة عيسى عليه السلام بغير أب، ولم يكن ذلك لأحد في العالم. وقال الكلبي: يعني اختار هؤلاء الذين ذكروا في هذه الآية ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني: عالمي زمانهم.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾

ثم قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ يعني: بعضهم على إثر بعض. وقال: بعضهم على دين بعض. ﴿والله سميع﴾ لقولهم ﴿عليم﴾ بهم وبذنوبهم. ويقال: ﴿والله سميع عليم﴾، انصرف إلى ما بعده، يعني: سميع لقول امرأة عمران ﴿إذا قالت امرأة عمران﴾ وهي حنة أم مريم امرأة عمران بن ماثان، وذلك أنها لما حبلت، قالت: لئن نجّاني الله ووضعت ما في بطني لأجعلنه محرَّراً، والمحرر من لا يعمل للدنيا، ولا يتزوج، ويتفرغ لعمل الآخرة، ويلزم المحراب، فيعبد الله تعالى فيه، وهذا قول مقاتل.

وقال الكلبي: ﴿محرراً﴾ أي خادماً لبيت المقدس، ولم يكن محرراً إلا الغلمان، وقال أهل اللغة: المحرر والعتيق في اللغة بمعنى واحد. فقال لها زوجها: إن كان الذي في بطنك أنثى، والأنثى عورة، فكيف تصنعين؟ فاهتمت بذلك وقالت: يا ﴿رب إني نذرت لك﴾ وأنت تعلم ﴿ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع﴾ لدعائي ﴿العليم﴾ بنيتي، وما في بطني ﴿فلما وضعتها﴾ يعني: ولدت فإذا هي أنثى ﴿قالت رب إني وضعتها أنثى﴾ يعني: ولدتها جارية ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿والله أعلم بما وضعْتُ﴾، بجزم العين، وضم التاء، يعني: أن المرأة قالت: والله أعلم بما وَضَعْتُ، والباقون بنصب العين وجزم التاء، فيكون هذا قول الله إنه يعلم بما وضعت تلك المرأة.

ثم قال تعالى: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾. قال بعضهم: هذا قول الله لمحمد ﷺ ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ يا محمد في الخدمة. وقال بعضهم: هي كلمة المرأة، أنها قالت: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ في الخدمة. وقال مقاتل: فيها تقديم، فكأنه يقول: قالت رب أبي وضعتُها أنثى، وليس الذكر كالأنثى ﴿والله أعلم بما وضعت﴾، ثم قالت حنة: ﴿وإني سميتها مريم﴾ يعني: خادم الرب بلغتهم ﴿وإني أعيذها بك﴾ يعني: أعصمها وأمنعها بك ﴿وذريتها﴾ إن كان لها

Marfat.com

ذرية ﴿من الشيطان الرجيم﴾ يعني: الملعون. ويقال: المطرود من رحمة الله. ويقال: ﴿الرجيم﴾ بمعنى المرجوم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

قال: حدثنا أبو الليث، قال: حدثنا الخليل بن أحمد القاضي. قال: حدثنا أبو العباس قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلاَّ والشَّيطَانُ يَنخَسُهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِنَ الشَّيطَانِ، إلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَها»، قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ﴾[1] وقال الزجاج: معنى قوله: ﴿إذ﴾ يعني: إن الله اختار آل عمران، ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾: واصطفاهم، إذ قالت الملائكة.

وقال أبو عبيدة: معناه، قالت امرأة عمران، وقالت الملائكة و﴿إذ﴾ زيادة. وقال الأخفش: معناه واذكر إذ قالت امرأة عمران، واذكر إذ قالت الملائكة. ثم إن حنة لفتها في خرقٍ، ثم وضعتها في بيت المقدس عند المحراب، فاجتمعت القراء، أي الزهاد، فقال زكريا: أنا أحق بها، لأن خالتها عندي. فقال القُرّاء: إن هذه محررة، فلو تركت لخالتها، لكانت أمها أحق بها، ولكن نتساهم. فخرجوا إلى عين سلوان، فألْقَوْا أقلامهم في النهر. قال بعضهم: كانت أقلامهم من الشَّبه، فغابت أقلامهم في الماء، وبقي قلم زكريا على وجه الماء. وقال بعضهم: كانت أقلامهم من قَصَب، فبقيت أقلامهم على وجه الماء، وغاب قلم زكريا في الماء. وقال بعضهم: ألْقَوْا أقلامهم في النهر، فسال الماء بأقلامهم إلا قلم زكريا، فإنه جرى من الجانب الأعلى، فعلموا أن الحق له، فضمّها إلى نفسه فذلك قوله تعالى: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ يعني: تقبل منها نَذْرها ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ وقال مجاهد: غذاها غذاء حسناً، ورباها تربية حسنة. ﴿وكفلها زكريا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بالتشديد، يعني: ضمَّها الله إلى زكريا. وقرأ الباقون بالتخفيف، يعني: ضمها زكريا إلى نفسه. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿زكريا﴾ بغير مدّ وإعراب، وجزم الألف. وقرأ الباقون بالإعراب والمد، وهما لغتان معروفتان عند العرب. فمن قرأ ﴿كفّلها﴾ بالتشديد، قرأ زكريا بنصب الألف، لأنه يصير مفعولاً. ومن قرأ ﴿كفلها﴾ بالتخفيف قرأ زكريا برفع الألف على معنى الفاعل.

وذكر في الخبر: أن زكريا بنى لها محراباً في غرفة، وجعل باب الغرفة في وسط الحائط، لا يصعد إليها إلا بسلم، واستأجر ظئراً، فكان يغلق عليها الباب، وكان لا يدخل عليها أحد إلا زكريا حتى كبرت وكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله، فتكون عند خالتها، وكانت خالتها امرأة زكريا. وهذا قول الكلبي.

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٣٤٣١) (٤٥٤٨) ومسلم (٢٣٦٦) وأحمد ٢/ ٢٣٣ و٢٧٥ والبغوي في معالم التنزيل: ١/ ٢٩٥.

Marfat.com

وقال مقاتل: كانت أختها امرأة زكريا، وكانت إذا طهرت من حيضها واغتسلت، ردها إلى المحراب. وقال بعضهم: كانت لا تحيض، وكانت مطهرة من الحيض، وكان زكريا إذا دخل عليها في أيام الشتاء، رأى عندها فاكهة الصيف، وإذا دخل عليها في أيام الصيف، رأى عندها فاكهة الشتاء، وكانت الحكمة في ذلك أن لا يدخل في قلب زكريا شيء من الريبة، إذا رأى الفاكهة في غير أوانها، وعلم أنه لم يدخل عليها أحد من الآدميين، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾ ويقال: ﴿المحراب﴾ في اللغة أشرف المجالس. وهو المكان العالي، وقد قيل: إن مساجدهم كانت تسمى المحاريب فـ﴿قال﴾ لها زكريا ﴿يا مريم أنى لك هذا﴾ يعني: من أين لك هذا، فإنه لا يدخل عليك أحد غيري؟ ﴿فقالت﴾ مريم ﴿هو﴾ أي: هذا الرزق ﴿من عند الله﴾ يعني: من فضل الله ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ في غير حينه. ويقال: من حيث لا يحتسب.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هنالك دعا زكريا ربه﴾ يقول عند ذلك: طمع في الولد، وكان آيساً من ذلك، وكان مفاتيح بيت القربان عند آبائه، وقد صار ذلك بيده، وكان يخشى أن يخرج من أهل بيته إذا مات، فقال عند ذلك: إن الله قادر على أن يأتيها برزق الشتاء في الصيف، وبرزق الصيف في الشتاء، فهو قادر أن يرزق لي الولد بعد الكبر، فذلك قوله تعالى: ﴿هُنالِكَ دعا زَكَرِيَّا رَبَّه﴾ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لي مَن لَدُنكَ﴾ يعني: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ يعني: نقية مهذبة. ويقال: مستوي الخلق. ويقال: مسلمة مطيعة. ويقال: نقية ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أي مجيباً له.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْه المَلائِكَةُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء، يعني: ناداه جبريل عليه السلام وإنما صار مذكراً على معنى الجنس، كما يقال: فلان ركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة. وقرأ الباقون، ﴿فنادته﴾ على معنى التأنيث، لأن اللفظ لفظ الجماعة، والمراد به أيضاً جبريل. ﴿إن الله يبشرك بيحيى﴾ قرأ حمزة وابن عامر: ﴿إن الله يبشرك﴾، بكسر الألف، ومعناه فنادته الملائكة. وقالوا له: إن الله يبشرك. وقرأ الباقون بالنصب، ومعناه: فنادته الملائكة، بأن الله يبشرك ﴿بيحيى﴾ قال مقاتل: اشتق اسمه من اسم الله تعالى حي، والله تعالى حي، فسماه الله تعالى يحيى، ويقال: لأنه حيي به رحم أمه. ويقال: لأنه حي به المجالس.

ثم قال تعالى: ﴿مُصَدِّقاً بكلمة من الله﴾ يعني بعيسى عليه السلام، وكان يحيى أول من

Marfat.com

صدق بعيسى عليهما السلام، وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه، فلما شهد بذلك يحيى، عجبت بنو إسرائيل لصغره، فلما سمع زكريا شهادته، فقام إلى عيسى فضمه إليه وهو في خرقه، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين. وقال بعضهم صدقه وهو في بطن أمه، كانت أم يحيى عند مريم، إذ سجد يحيى بالتحية لعيسى، وكل واحد منهما كان في بطن أمه، وذلك قوله ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ ﴿وسيداً﴾ يعني حكيماً ﴿وحصوراً﴾ يعني: لا يأتي النساء، وهو قول الكلبي. وقال سعيد بن جبير: السيد الذي يملك غضبه، والحصور الذي لا يأتي النساء.

وقال مقاتل: يعني لا ماء له، يعني: لم يكن له ماء في الصلب. وقال بعضهم: هذا لا يصح، لأن العنة عيب بالرجال، والنبي لا يكن معيباً، ولكن معناه: أنه كان مانعاً نفسه من الشهوات، لأن الذي يمنع نفسه من الشهوات مع قدرته، كانت فضيلته أكثر من الذي لا قدرة له.

ثم قال تعالى: ﴿ونبياً من الصالحين﴾ يعني: أن يحيى كان نبياً من الصالحين، فلما بشره جبريل بذلك ﴿قال رب أنى يكون لي غلام﴾ قال ذلك على وجه التعجب، لا على وجه الشك، قال لجبريل: ﴿ربِّ﴾ أي يا سيِّدي من أين يكون لي غلام؟ يعني: ولد، وهذا قول الكلبي. - وقال بعضهم: قوله ﴿ربِّ﴾ يعني: يا اللهُ على وجه الدعاء يا ربِّ من أين يكونُ لي ولد[1] -.

﴿وقد بلغني الكبر﴾ قال القتبي: هذا من المقلوب، يعني بلغت الكبر. وقال الكلبي: كان يوم بشر ابن تسعين سنة، وامرأته قريبة في السن منه. وقال الضحاك: كان ابن مائة وعشرين سنة، فذلك قوله، ﴿وقد بلغني الكبر﴾ يعني: الهرم ﴿وامرأتي عاقر﴾ لا تلد ﴿قال كذلك﴾ قال بعضهم: تم الكلام عند قوله ﴿كذلك﴾، يعني: هكذا كما قلت: إنه قد بلغك الكبر، وامرأتك عاقر. ثم قال تعالى: ﴿الله يفعل ما يشاء﴾ وقال بعضهم: معناه. ﴿قال كذلك﴾ يعني الله تعالى هكذا قال: إنه يكون لك ولد ﴿والله يفعل ما يشاء﴾ إن شاء أعطاك الولد في حال الصغر، وإن شاء في حال الكبر.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ يعني: اجعل لي علامة حين حملت امرأتي أعرف ﴿قال آيتك﴾ يعني: علامة الحبل ﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام﴾ يعني: أنك تصبح، فلا تطبق

(١) ما بين معقوفتين ساقط من نسخة «أ».

Marfat.com

الكلام ثلاثة أيام ﴿إِلاَّ رَمْزاً﴾ أي كلاماً خَفِيّاً. ويقال: الرمز بالشفتين والحاجبين، والإيماء باليد والرأس.

قال بعضهم: كان منع الكلام عقوبة له، لأنه بُشّر بالولد، فسأل آية، فحبس الله لسانه ثلاثة أيام عن الناس، ولم يحبسه عن ذكر الله، وعن الصلاة. وقال بعضهم: لم يكن عقوبة، لكن كرامة له، حين جعلت له علامة لظهور الحبل، ومعجزة له. وروى أسباط عن السدي أنه قال: لما بُشّر بيحيى قال له الشيطان: إن النداء الذي سمعت بالبشارة كان من الشيطان، ولو كان من الله لأوحى إليك، كما أوحى إليك وإلى سائر الأنبياء، وكما أوحى إليك بسائر الأشياء. فقال عند ذلك: ﴿اجْعَل لِي آيَة﴾ حتى أعلم أن هذه البشارة منك. قال: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّام﴾.

وقال في موضع آخر: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، يعني: أنك مستوي الخَلْق، ولا علة بك. ثم أمره بذكر ربه، لأن لسانه لم يمنع عن ذكر الله تعالى فقال: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشيّ والإبكار﴾ يعني: بالغداة والعَشِيّ ويقال: بالليل والنهار.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة﴾ يعني: جبريل ﴿يا مريم إنّ الله اصْطَفَاكِ﴾ يعني: اختارك بالإسلام ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الذنوب والفواحش. ويقال: من دم الحيض والنفاس ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ يعني: بولادة عيسى بغير أب.

وقال بعضهم: ﴿اصطفاك﴾ يعني: فضلك على نساء العالمين، يعني: عالمي زمانها ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ يعني: أطيعي. ويقال: أطيلي القيام في الصلاة. وقال مجاهد: قامت في الصلاة حتى تورّمَتْ قدماها، ونحل جسمها. ثم قال تعالى: ﴿واسْجُدي وارْكَعِي مَع الرَّاكِعين﴾ يعني: مع المصلين، يعني: مع قراء بيت المقدس.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب﴾ يعني: الذي ذكر في هذه الآية من قصة زكريا ومريم من أخبار الغيب، مما غاب عنك خبره، ولم تكن حاضراً، وفي الآية دلالة نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم، ولم يكن قرأ الكتب، وأخبر عن ذلك، وصدقه أهل الكتاب

Marfat.com

بذلك ولم يكن قرأ الكتاب، فذلك قوله تعالى: ﴿**ذلك في أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم**﴾ يعني: لم تكن عندهم، وإنما تخبر عن الوحي. فقال: ﴿**وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم**﴾ يعني: يطرحون أقلامهم في النهر بالقرعة ﴿**وما كنت لديهم إذ يختصمون**﴾ في أمر مريم.

قوله تعالى: ﴿**إذ قالت الملائكة يا مريم**﴾ يعني: جبريل عليه السلام وحده ﴿**إن الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنه**﴾ قرأ نافع وعاصم وابن عامر ﴿يُبَشِّرك﴾ بالتخفيف في جميع القرآن. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتشديد في جميع القرآن إلا في ﴿حم، عسق﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ [الشورى: ٢٣] بالتخفيف، وقرأ حمزة بالتخفيف إلا في قوله ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] ووافقه الكسائي في بعضها. فمن قرأ بالتشديد، فهو من البشارة، ومن قرأ بالتخفيف، فمعناه: يفرحك وكانت قصة البشارة أن مريم لما طهرت من الحيض، ودخلت المغتسل كما قال في سورة مريم، ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]، يعني: أرادت أن تغتسل في جانب المشرفة، فلما دخلت المغتسل، رأت بشراً كهيئة الإنسان كما قال ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، فخافت مريم، ثم قالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]، لأن التقي يخاف الرحمن. فقال لها جبريل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، وذكرها هنا بلفظ آخر. ومعناهما واحد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، بمعنى بولد بغير أب يصير مخلوقاً بكلمة من الله، وهو قوله: كن فكان ﴿**اسمه المسيح عيسى ابن مريم**﴾ ويقال: إنما سمي المسيح، لأنه يسيح في الأرض. ويقال: الماسح، كان يمسح وجه الأعمى فيبصر. وقال الكلبي: المسيح الملك.

ثم قال تعالى: ﴿**وجيهاً**﴾ يعني: ذا جاه ﴿**في الدنيا و**﴾ وله منزلة ﴿**في الآخرة**﴾ وقال مقاتل: فيها تقديم وتأخير يعني: وجيهاً في الدنيا ﴿**ومن المقربين**﴾ في الآخرة عند ربه. وقال الكلبي: ﴿**وجيهاً في الدنيا**﴾ يعني في أهل الدنيا بالمنزلة، ﴿**وفي الآخرة**﴾ عند ربه ﴿**من المقربين**﴾ في جنة عدن.

قال عز وجل: ﴿**ويُكَلِّمُ النَّاسَ في الْمَهْدِ وَكَهلاً**﴾ يعني: في حال صغره، وهو في حجر أمه طفلاً، ﴿**وكهلاً**﴾: يعني إذا اجتمع عقله وكبر، فإن قيل: ما معنى قوله كهلاً، والكلام من الكهل لا يكون عجباً؟ قيل له: المراد منه كلام الحكمة والعبرة. ويقال: ﴿**كهلاً**﴾ بعد نزوله من السماء، وهو قول الكلبي ﴿**ومن الصالحين**﴾ مع آبائه في الجنة.

﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ**

Marfat.com

﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

ثم قال: **﴿قالت﴾** مريم **﴿ربّ أنّى يكون لي ولَدٌ﴾** يعني: من أين يكون لي ولد **﴿ولم يمسسني بشر﴾** وهو كناية عن الجماع فـ**﴿قال﴾** جبريل **﴿كذلك﴾** يعني: هكذا كما قلت أنه لم يمسسك بشر ولكن **﴿الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً﴾** يعني: إذا أراد أن يخلق خَلْقاً **﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾** فنفخ جبريل في جيبها، يعني: في نفسها. قال بعضهم: وقع نفخ جبريل في رحمها، فعلقت بذلك. وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل، لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة، وبعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام وأخذ الميثاق من ذريته، فجعل بعضهم في أصلاب الآباء، وبعضهم في أرحام الأمهات، فإذا اجتمع الماءان صار ولداً، وإن الله تعالى جعل الماءَيْن جميعاً في مريم، بعضه في رحمها، وبعضه في صلبها، فنفخ فيها جبريل لتهييج شهوتها لأن المرأة ما لم تهج شهوتها، لا تحبل، فلما هاجت شهوتها بنفخة جبريل، وقع الماء الذي كان في صلبها في رحمها، فاختلط الماءان فعلقت بذلك، فذلك قوله: **﴿إذا قضى أمراً﴾**، يعني: إذا أراد أن يخلق خلقاً **﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾** بغير أب.

ثم قال تعالى: **﴿ويعلّمه الكتاب﴾** قرأ نافع وعاصم **﴿وَيعلّمه﴾** بالياء يعني: أن الله يعلمه، وقرأ الباقون بالنون، ومعناه: أن الله يقول: ونعلمه **﴿الكتاب﴾** يعني كتب الأنبياء، وهذا قول الكلبي.

وقال مقاتل: يعني الخط والكتابة، فعلّمه الله بالوحي والإلهام **﴿والحكمة﴾** يعني: الفقه **﴿والتوراة والإنجيل﴾** يعني: يحفظ التوراة عن ظهر قلبه، وقال بعضهم: وهو عالم بالتوراة. وقال بعضهم: ألهمه الله بعدما كبر حتى تعلم في مدة يسيرة.

ثم قال تعالى: **﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾** نصب ﴿رسولاً﴾ لمعنيين: أحدهما: يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، والثاني: ويكلم الناس وعطف رسولاً، أي في حال رسالته إلى بني إسرائيل دليله أنه قال: **﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾**. ثم أخبر عن أداء رسالته بعدما أوحى إليه في حال الكبر، حيث قال لقومه: ﴿قد جئتكم بآية من ربكم﴾، يعني: علامة لنبوتي، ثم بيّن العلامة فقال: **﴿إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾** ويقال: إن الناس سألوه عنه على وجه التعنت فقالوا له: اخلق لنا خفّاشاً، واجعل فيه روحاً إن

Marfat.com

كنت صادقاً في مقالتك. فأخذ طيناً، وجعل منه خفاشاً، ثم نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض، وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى عليه السلام، والخلق من الله تعالى، كما أن النفخ في مريم من جبريل عليه السلام، والخلق من الله تعالى. ويقال: إنما طلبوا منه خلق خفاش، لأنه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه: أنه لحم ودم، يطير بغير ريش، ويلد كما يلد الحيوان، ولا يبيض كما تبيض سائر الطيور، ويكون له الضرع يخرج منه اللبن، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر جداً، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة، فلما أن رأوا ذلك منه ضحكوا. وقالوا: هذا سِحْر.

ثم قال تعالى: **﴿وأبرىء الأكمه والأبرص﴾** **﴿الأكمه﴾**: الذي ولد أعمى فقالوا: إن لنا أطباء يفعلون مثل هذا، فذهبوا إلى جالينوس، وأخبروه بذلك فقال جالينوس: إذا ولد أعمى، لا يبصر بالعلاج، والأبرص إذا كان بحال إذا غرزت الإبرة لا يخرج الدم منه، لا يبرأ بالعلاج، فرجعوا إلى عيسى عليه السلام وجاؤوا بالأكمه والأبرص، فمسح يده عليهما، فأبصر الأعمى، وبرىء الأبرص، فآمن به بعضهم، وجَحَد بعضهم، وقالوا: هذا سِحْر.

ثم قال تعالى: **﴿وأُحْيي الموتى بإذن الله﴾** فأَخْبَروا بذلك جالينوس. فقال: الميت لا يعيش، ولا يحيى بالعلاج، فإن كان هو يحيي الموتى، فهو نبي وليس بطبيب. وطلبوا منه أن يحيي الموتى، فأحيا أربعة نفر، أحدهم: عازر وكان صديقاً له، فبلغه أنه مات، فذهب مع أصحابه وقد دفن وأتى عليه أيام، فدعا الله، فقام بإذن الله تعالى وَوَدَكُه يقطر، فعاش وَوُلد له. والثاني: ابن العجوز، مَرّ به وهو يحمل على سرير، فدعا الله فقام بإذن الله تعالى، ولبس ثيابه، وحمل السرير على عنقه، ورجع إلى أهله. والثالث: بنت من بنات العاشر ماتت، وأتى عليها ليلة، فدعا الله تعالى فعاشت بعد ذلك، وولد لها. والرابع: سام بن نوح، لأن القوم قالوا له: إنك تحيي من كان موته قريباً، فلعلهم لم يموتوا، وأصابتهم سكتة، فأحيي لنا سام بن نوح. فقال: دلوني على قبره، فخرج وخرج القوم معه حتى انتهوا إلى قبره، فدعا الله تعالى، فخرج من قبره قد شاب رأسه. فقال له عيسى عليه السلام: كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانكم شيب؟ فقال: يا نبيّ الله إنك لما دعوتني، سمعت صوتاً يقول أَجِبْ روحَ الله، فظننت أن القيامة قد قامت، فمن هول ذلك شاب رأسي، فسأله عن النَّزْع. فقال له: يا نبيَّ الله إن مرارة النزع لم تذهب عن حنجرتي، وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة، ثم قال للقوم: صدقوه فإنه نبي، فآمن به بعضهم، وكذبه بعضهم. وقالوا: هذا ساحر، فأرنا آية أخرى نعلم أنك صادق، فأخبرنا بما نأكل في بيوتنا، وما نَدَّخر للغد، فأخبرهم. فقال: يا فلان أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا، وادخرت كذا وكذا، فذلك قوله: **﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ للغد فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر.**

Marfat.com

ويقال: إن الله بعث كل نبي إلى قومه، وأظهر لهم نوع ما كانوا يعرفونه، فكان في زمن موسى عليه السلام الغالب عليهم السحر، فبيّن لهم من جنس ذلك ليعرفوا أن ذلك ليس بِسِحْر، وأنه من الله تعالى. وكان الغالب في زمن عيسى عليه السلام علم الطب، فجاءهم عيسى بما عجز الأطباء عنه، فعرف الأطباء أن ذلك ليس من الطب، وكان في زمن نبينا عليه السلام الفصاحة والشعر، فجاءهم بقرآن عجز الفصحاء والشعراء عن إتيان مثله.

قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية لكم﴾ يعني: فيما صنع عيسى عليه السلام علامة لنبوته **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** أي: مصدقين أنه نبي. قرأ نافع: ﴿فيكون طائراً﴾، وكذلك في سورة المائدة. وقرأ الباقون بغير ألف، ومعناهما واحد. ويقال: الطائر واحد، والطير جماعة.

ثم قال تعالى: ﴿ومُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ من التوراة﴾ معناه: جئتكم مصدقاً، يعني للكتاب الذي أنزل عليّ، وهو الإنجيل ﴿مُصَدِّقاً﴾ قال: أي موافقاً لما بين يدي من التوراة **﴿ولأحل لكم﴾** يعني: أرخِّص لكم **﴿بعض الذي حُرِّم عليكم﴾** مثل الشحوم، ولحوم الإبل، ولحم كل ذي ظفر، وأما الميت، ولحم الخنزير، فهو حرام أبداً. قوله: **﴿وجئتُكم بآية من ربكم﴾** يعني: أني لم أحل لكم شيئاً بغير برهان، فحقيق عليكم اتباعي، لأني أتيتكم ببرهان، وأتيتكم بتحليل الطيبات **﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾** فيما أمركم ونهاكم وأنصح لكم.

ثم قال تعالى: ﴿إن الله ربي وربكم﴾ هذا تكذيب لقول النصارى حيث قالوا: إن الله هو المسيح. وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فاعترف عيسى أنه عبد الله، وهو قوله تعالى: **﴿إن الله ربي وربكم﴾** يعني: خالقي وخالقكم، ورازقي ورازقكم، **﴿فاعبدوه﴾**، يعني: وحدوه ولا تشركوا به شيئاً **﴿هذا صراط مستقيم﴾** يعني: التوحيد الذي أدعوكم إليه طريق مستقيم، لا عوج فيه، وهو طريق الجنة.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ قال الكلبي: فلما عرف منهم الكفر بالله. ويقال: فلما سمع منهم كلمة الكفر. وقال الزجاج: أحس في اللغة علم ووجد، يقال: هل أحسست الخبر؟ أي هل عرفته وعلمته؟.

وقال مقاتل: فلما رأى من بني إسرائيل الكفر. كقوله عز وجل: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨] يعني: هل ترى؟ ويقال: إنه لما علم عيسى أنهم أرادوا قتله **﴿قال مَنْ أنصاري إلى الله﴾** يقول: من أعواني مع الله؟ قال القتبي: ﴿إلى﴾ هاهنا بمعنى مع، مثل قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، أي مع أموالكم، كما يقال: الذود إلى الذود إبل، أي: مع

Marfat.com

الذود. فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إلى اللهِ﴾؟ أي: مع الله ﴿قالَ الحَوَارِيُّون نَحْنُ أَنصَارُ ٱللهِ﴾ قال الكلبي: الحواريون هم أصفياء عيسى عليه السلام وكانوا اثني عشر رجلاً. وقال مقاتل: كانوا قَصَّارين، فمر بهم عيسى عليه السلام وقال: من أنصاري إلى الله أي: مع الله؟ ﴿قالوا نحن أنصار الله﴾. ويقال: إنه مر بهم وهم يغسلون الثياب. فقال لهم: إيش تصنعون قالوا: نطهر الثياب. فقال: ألا أدلكم بقصارة أنفع من هذا؟ قالوا: نعم. فقال: تَعَالَوْا حتى نطهرَ أنفسنا من هذه الذنوب، فبايعوه. ويقال: إنهم كانوا صيادين، فمرَّ بهم وقال: ألا أدلُكم على اصطياد أنفعَ لكم من هذا؟ قالوا: نعم. فقال: تَعَالَوْا حتى نصطاد أنفسنا من شر إبليس فبايعوه. وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «إنما سُمُّوا حواريين لبياض ثيابهم، وكانوا صيّادين».

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الزُّبَيْرُ ابْنُ عَمَّتِي وَحَوارِيِّ من أُمَّتِي»(١)، يعني به: الخالص، فهذا يكون دليلاً لقول الكلبي: إنهم خواصه وأصفياؤه، ومعنى آخر: ﴿نحن أنصار الله﴾، يعني: أنصار دين الله: ﴿آمَنَّا بالله﴾ يعني: صدقنا بتوحيد الله ﴿واشهد بأنا مسلمون﴾ يعني: أشهدناك على ذلك، فاشهد يا عيسى بأنا مسلمون.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بما أنزلت﴾ من الإنجيل على عيسى ﴿واتبعنا الرسول﴾ يعني: عيسى عليه السلام على دينه ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ يعني: اجعلنا مع من أسلم قبلنا، وشهدوا بوحدانيتك.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

ثم قال تعالى حكاية عن كفار قومه فقال: ﴿ومكروا﴾ يعني: أرادوا قتل عيسى عليه السلام ﴿ومكر الله﴾ يعني: جازاهم جزاء المكر ﴿والله خير الماكرين﴾ لأن مكرهم جَوْرٌ ومكر الله عَدْل. قال الكلبي: وذلك أن اليهود اجتمعوا على قتل عيسى، فدخل عيسى عليه السلام البيت هارباً منهم، فرفعه جبريل عليه السلام من الكوّة إلى السماء. كما قال في آية أخرى، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧، ٢٥٣] فقال ملكهم لرجل خبيث يقال له يهوذا: ادخل عليه فاقتله، فدخل الرجل الخوخة، فلم يجد هناك عيسى، وألقى الله عليه شبه عيسى فلما خرج رأوه على شبه عيسى، فأخذوه وقتلوه وصلبوه، ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى، وبدنه يشبه بدن صاحبنا، فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ فوقع بينهم قتال، فقتل بعضهم بعضاً، فذلك قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللهُ والله خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ﴾ قال الضحاك: وكانت القصة أن اليهود لما أرادوا قتل عيسى عليه السلام اجتمع الحواريون في غرفة، وهم اثنا

---

(١) حديث جابر: أخرجه البخاري (٢٨٤٦) (٢٨٤٧) - (٢٩٩٧) و(٤١١٣) و(٧٢٦١) ومسلم (٢٤١٥) وأحمد ٣/ ٣٦٥ والترمذي (٣٧٤٥) وابن ماجة (١٢٢) والبيهقي في الدلائل ٣/ ٤٣١.

Marfat.com

عشر رجلاً، فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر إبليس جميع اليهود، فركب منهم أربعة آلاف رجل، فأحدقوا أي تحلّقوا بالغرفة. فقال المسيح للحواريين: أيكم يخرج فيُقتَلُ وهو معي في الجنة؟ فقال رجل منهم: أنا يا نبي الله، فألقى إليه مدرعة من صوف، وعمامة من صوف، وناوله عكازه، فألقي عليه شبه عيسى عليه السلام فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه، وأما المسيح، فكساه الله الريش، وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، فطار في الملائكة.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الله يا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِليَّ﴾ ففي الآية تقديم وتأخير ومعناه: إني رافعك من الدنيا إلى السماء، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء على عهد الدجال ويقال: إنه ينزل ويتزوج امرأة من العرب بعدما يقتل الدجال، وتلد له ابنة، فتموت ابنته، ثم يموت هو بعدما يعيش سنتين، لأنه قد سأل ربه أن يجعله من هذه الأمة، فاستجاب الله دعاه. وروي عن أبي هريرة أنه قال: «جاء إلى الكتّاب وقال للمعلم: قل للصبيان حتى يسكتوا، فلما سكتوا قال لهم: أيها الصبيان من عاش منكم إلى وقت نزول عيسى عليه السلام فليقرئه مني السلام، وإني كنت أرجو أن لا أخرج من الدنيا حتى أراه» وهذا كناية عن قرب الساعة.

قوله تعالى: ﴿ومطهرك﴾ يعني: منجيك **﴿من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك﴾** على دينك **﴿فوق الذين كفروا﴾** بالحجة والغلبة **﴿إلى يوم القيامة﴾**. وروي عن عبد الله بن عباس أنه قال: «الذين اتبعوه هم أمة محمد ﷺ، لأنهم هم الذين صدّقوه».

ثم قال تعالى: ﴿ثم إليّ مَرْجِعُكم﴾ يعني الذين اتبعوك، والذين كفروا كلهم مرجعهم إلي. **﴿فأحكم بينكم﴾** يعني: بين المؤمنين والكفار **﴿فيما كنتم فيه تختلفون﴾** من الدين.

ثم أخبر الله تعالى عن حال الفريقين في الآخرة فقال: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ في الدنيا بالقتل والجزية، وفي الآخرة بالنار **﴿وما لهم من ناصرين﴾** يعني: مانع يمنعهم من عذاب الله **﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** قال مقاتل: هم أمة محمد ﷺ **«فيوفيهم أجورهم»**.

قرأ عاصم في رواية حفص: **﴿فيوفيهم﴾** بالياء، يعني: الله يوفيهم أجورهم، وأما الباقون بالنون، يعني: أن الله قال **﴿فنوفيهم أجورهم﴾** وهذا اللفظ لفظ الملوك، إنهم يتكلمون بلفظ

Marfat.com

الجماعة، ويقولون: نحن نفعل كذا وكذا، ونكتب إلى فلان، ونأمر بكذا، فالله تعالى خاطب العرب بما يفهمون فيما بينهم، كما قال في سائر المواضع ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾ [القمر: ١٩] ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا﴾ [النساء: ١٠٥] وكذلك ها هنا: ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ يعني: نعطيهم ثواب عملهم ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ يعني: لا يرضى دين الكافرين.

﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات﴾ يقول: هذه الآيات، وهذه القصص بينات في القرآن. وأنزلنا عليك جبريل، ليقرأ عليك ﴿من الآيات﴾ يعني: من البيان ﴿والذكر الحكيم﴾ يعني: القرآن كله. وقال الكلبي: ﴿الذكر الحكيم﴾ الذي عند رب العالمين في درة بيضاء، وهو اللوح المحفوظ. ويقال هو القرآن، لأنه محكم ليس فيه تناقض، ولا يقدر أحد أن يأتي بمثله. ويقال: هو الشرف كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ نزلت في وفد نجران: السيد، والعاقب، والأسقف، وجماعة من علمائهم وأحبارهم، قدموا إلى النبيّ ﷺ، فناظروه في أمر عيسى عليه السلام فقال رسول الله ﷺ: «هُوَ عَبۡدُ الله وَرَسُولُهُ»، فقالوا: أرنا خلقاً من خلق الله تعالى من غير أب، وكَانَ يُحيي الموتى، وكان فيه دليل على ما قلنا، وكانوا يقولون: إنه اتخذه ابناً، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أَسْلِمُوا» فقالوا: قد أسلمنا قبلك، فقال لهم: «كَذَبْتُمْ، إِنَّمَا يَمْنَعُكُمْ مِنَ الإِسْلامِ ثَلاثٌ، أَكْلُ لَحْمِ الخِنْزِيرِ، وَعِبَادَةُ الصَّلِيبِ، وَقَوْلُكُمْ: لله وَلَدٌ»، فقالوا له: من أبو عيسى؟ فنزل قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ يعني: شبه خلق عيسى عند الله كشبه خلق آدم ﴿خَلَقَهُ من تُراب﴾ يعني: صوّره من غير أب ولا أم ﴿ثم قال له كُنْ فيكون﴾ فكان بشراً بغير أب، كذلك عيسى كان بشراً بغير أب، وفي هذه الآية دليل على أن الشيء يشبه بالشيء، وإن كان بينهما فرق كبير، بعد أن يجتمعا في وصف واحد، كما أن هاهنا خلق آدم من تراب، ولم يخلق عيسى من تراب، وكان بينهما فرق من هذا الوجه، ولكن الشبه بينهما أنه خلقهما من غير أب، ولأن أصل خلقهما جميعاً كان من تراب، لأن آدم لم يخلق من نفس التراب، ولكنه جعل التراب طيناً، ثم جعله صلصالاً، ثم خلقه منه، فكذلك عيسى عليه السلام حوّله من حال إلى حال، ثم خلقه بشراً من غير أب.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ

Marfat.com

تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الحق من ربك﴾ يعني: جبريل عليه السلام، كما أخبرتك وأنبأتك في القرآن ﴿فلا تكن من الممترين﴾ أي: من الشاكين. ويقال: المثل الذي ذكر في عيسى، هو الحق من ربك، وهذا الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد منه جميع من اتبعه، ومعناه: فلا تكونوا من الممترين، أي من الشاكين أن مثله كمثل آدم عليهما السلام.

قوله تعالى: ﴿فمن حاجك فيه﴾ وذلك أن النصارى لما أخبرهم بالمثل في حق عيسى قالوا: ليس كما تقول، وهذا ليس بمثل، فنزلت هذه الآية ﴿فمن حاجك فيه﴾ يعني: خاصمك في أمر عيسى عليه السلام ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي من البيان في أمره ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ يعني: نخرج أبناءنا وأبناءكم ﴿و﴾ نخرج ﴿نساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ ونجتمع في موضع ﴿ثم نبتهل﴾ أي نلتعن. وقال مقاتل: يعني نخلص في الدعاء، ويقال: هي المبالغة في التضرع ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ فوعدهم رسول الله ﷺ بأن يخرجوا للملاعنة، فجعلوا وقتاً للخروج، وتفرقوا على ذلك، ثم ندموا، فلما كان ذلك اليوم خرج النبي ﷺ، وأخذ بيد الحسن والحسين، وخرج معه علي بن أبي طالب، وفاطمة، فلما اجتمعوا في الموضع الذي واعدهم، طلب منهم الملاعنة، فقالوا. نعوذ بالله، فقال لهم: «**إمَّا أن تَلْتَعِنوا، وَإمَّا أنْ تُسْلِمُوا، وَإمَّا أنْ تقبلُوا الجِزْيَةَ**»، فقبلوا الجزية، وصالحوه بأن يؤدوا كل سنة ألفي حلة، ألف حلة في المُحَرَّم، وألف حلة في رجب، وأمَّرَ عليهم أبا عبيدة بن الجراح، ورجعوا، فقال النبيّ ﷺ: «**لَوْ أَنَّهُمُ الْتَعَنُوا لَهَلَكُوا كُلُّهُمْ حَتَّى الْعَصَافِيرُ فِي سُقُوفِ الحِيطَانِ**».

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَق﴾ يعني: ما أُخبِرُهم من أمر عيسى عليه السلام هو الخبر الحق، أنه كان عبد الله ورسوله. ويقال: هذا القرآن هو الخبر الحق ﴿وما من إلٰهٍ إلاَّ الله﴾ لا شريك له ﴿وإن الله لَهُوَ العزيز﴾ في ملكه، ﴿الحكيم﴾ في أمره، حكم بخلق عيسى في بطن أمه من غير أب.

قوله تعالى: ﴿فإن تولوا﴾ يقول: أبَوْا، ولم يسلموا ﴿فإن الله عليمٌ بالمفسدين﴾ يجازيهم بذلك، وهذه كلمة تهديد.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

Marfat.com

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قل يا أهلَ الكتابِ تَعالَوْا إلى كلمةٍ سَوَاءٍ بيننا وبينكم﴾ يعني: كلمة عدل بيننا وبينكم. ويقال في قراءة عبد الله بن مسعود: «إلى كلمة عدل بيننا وبينكم»، يعني: لا إِلٰه إلاّ الله، وهي كلمة الإخلاص. ويقال: إلى كلمةٍ تسوّي بيننا وبينكم فتصير دماؤكم كدمائنا، وأموالكم كأموالنا ﴿ألاَّ نعبدَ إلاَّ الله﴾ يعني: ألا نُوَحِّد إلا الله ﴿ولا نشرك به شيئاً﴾ من خلقه ﴿ولا يتخذ بَعْضُنَا بعضاً أَرْبَاباً من دونِ الله﴾ لأنهم اتخذوا عيسى رباً. ويقال: لا يطيع بعضنا بعضاً في المعصية. كما قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَـٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٣١] أي أطاعوهم في المعصية. ويقال: لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً. كما قالت النصارى: إن الله ثالثُ ثلاثة ﴿فإن تَوَلَّوا﴾ يعني: أبوا عن التوحيد ﴿فقولوا﴾ لهم يا معشر المسلمين ﴿اشهدوا بأنّا مسلمون﴾ يعني: مخلصون لله بالعبادة والتوحيد.

ثم قال عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب لم تُحاجُون في إبراهيم﴾ وذلك أن اليهود والنصارى كانوا اجتمعوا في بيت مدرسة لليهود، وكل فريق كان يقول: إبراهيم منا، وكان على ديننا فنزل ﴿يا أَهلَ الكِتابِ لِمَ تُحاجُونَ في إِبْراهِيمَ﴾ أي لِمَ تخاصمون في دين إبراهيم ﴿وما أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إلا من بَعْدِهِ﴾ يعني: من بعد إبراهيم، وأن اليهودية والنصرانية إنما سميت بهذا الاسم بعد نزول التوراة والإنجيل. وقال الكلبي: نزلت في شأن النفر الذين كانوا بالحبشة من أصحاب النبيّ ﷺ، منهم جعفر الطيار وغيره. كما قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾ أي أطاعوهم في المعصية، وكانت بينهم، وبين أحبار الحبشة مناظرة في ذلك، فنزلت هذه الآية.

وقال الزجاج: هذه الآية أبين الحُجَج على اليهود والنصارى، بأن التوراة والإنجيل أنزلا من بعده، وليس فيهما اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام في كل كتاب، وهو قوله: ﴿لِمَ تُحاجُون في إبراهيم وما أُنزلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلِ إلاّ مِن بَعْدِهِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ يقول: أليس لكم ذهن الإنسانية أن تنظروا فيما تقولون.

ثم قال عز وجل: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم﴾ أنتم يا هؤلاء خاصمتم ﴿فيما ليس لكم به علم﴾ في صفة محمد ﷺ، فتجدونه في كتبكم ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ يقول: ما ليس في كتابكم، وهو أمر إبراهيم عليه السلام و﴿الله يعلم﴾ أن إبراهيم كان على دين الإسلام ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك.

Marfat.com

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

ثمّ قال عز وجل: ﴿وما كان إبراهيمُ يهودياً ولا نَصْرَانِياً﴾ يقول: لم يكن إبراهيم عليه السلام على دين اليهودية ولا النصرانية ﴿ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ يعني: مخلصاً ﴿وما كان من المشركين﴾ يعني: ما كان على دينهم. وقال الزجاج: الحنيف في اللغة: إقبال صدور القدمين إقبالاً لا رجوع فيه أبداً، فمعنى الحنيفية في الإسلام: الإقبال والميل إليه، والإقامة على ذلك.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ يقول: أحق الناس بدين إبراهيم ﴿للَّذين اتبعوه﴾ واقتدوا به وآمنوا به ﴿وهذا النبي﴾ يعني: محمداً ﷺ على دينه ومنهاجه ﴿والذين آمنوا﴾ هم أصحاب محمد ﷺ على دينه، ثم قال: ﴿والله وَلِيُّ الْمُؤمنِينَ﴾ في العَوْن والنُّصرة.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهلِ الكِتاب﴾ يعني: أرادت وتمنت جماعة من أهل الكتاب ﴿لَوْ يُضِلُّونكم﴾ أي يصرفونكم عن دين الإسلام ﴿وما يُضِلّون إلا أنفسهم﴾ أي وَبالُ ذلك يرجع إلى أنفسهم. ويقال: وما يضلون إلا أمثالهم، أمثالهم كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٥٤] يعني: بعضكم بعضاً ﴿وما يَشْعُرون﴾ قال مقاتل: ﴿وما يشعرون﴾ أنهم يضلون بأنفسهم. وقال الكلبي: ﴿وما يشعرون﴾ أن الله يَدُلُّ نبيَّه عليه السلام على ضلالتهم، أي يُطْلِعُه.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يا أهلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُون بآياتِ الله﴾ يقول لم تجحدون بالقرآن ﴿وَأَنْتُم تَشْهَدُونَ﴾ أنه نبيّ الله، لأنهم كانوا يخبرون بأمره قبل مبعثه ويقال: ﴿بآيات الله﴾، يعني: عجائبه ودلائله: ويقال: بآية الرجم.

ثم قال عز وجل: ﴿يا أهلَ الكتابِ لِمَ تلْبِسُونَ الْحقَّ بِالْباطِلِ﴾ يعني: تخلطون الكفر بالإيمان؟ لأنهم آمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه ﴿وتَكْتُمُونَ الْحقَّ﴾ يعني: نعت محمد ﷺ ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه حق، وأنه في التوراة.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ

Marfat.com

مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ لما قَدِمَ المدينة، صلى نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً، أو ثمانية عشر شهراً، فلما صرف الله نبيّه عليه السلام إلى الكعبة عند صلاة الظهر، وقد كان صلى صلاة الصبح إلى بيت المقدس، وصلّى صلاة الظهر والعصر إلى الكعبة. فقال رؤساء اليهود منهم: كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف، وغيرهما للسفلة منهم: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾، يقول: صدقوه بالقبلة التي صلّى صلاة الصبح في أول النهار وآمنوا به، فإنه الحق، ﴿واكفُرُوا آخِرَه﴾ يعني: اكفروا بالقبلة التي صلى إليها آخر النهار ﴿لعلهم يرجعون﴾ إلى قبلتكم ودينكم. وقال مقاتل: معناه أنهم جاؤوا إلى محمد ﷺ أول النهار، ورجعوا من عنده، وقالوا للسفلة: هو حق فاتبعوه، ثم قالوا: حتى ننظر في التوراة، ثم رجعوا في آخر النهار. فقالوا: قد نظرنا في التوراة، فليس هو إياه، يعنون أنه ليس بحق، وإنما أرادوا أن يلبسوا على السفلة، وأن يشككوا فيه فذلك قوله: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ يعني: قالوا لهم في أول النهار: آمنوا به ﴿واكفروا آخره﴾ يعني: قالوا في آخر النهار: اكفروا به ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: يشكون فيه فيرجعون.

ثم قالوا للسفلة: ﴿وَلا تُؤْمِنُوا إلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ قال بعضهم: في الآية تقديم وتأخير، ومعناه: ﴿ولا تؤمنوا﴾، أي لا تصدقوا ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾، فإنه لن يُؤْتَى أَحَدٌ مثلَ ما أُوتِيتُمْ من التوراة، والمَنّ والسّلوى، ولا تخبروهم بأمر محمد ﷺ، فيحاجوكم عند ربكم، أي: يخاصموكم، ويجعلونه حجة عليكم. فقالوا ذلك حسداً، حيث كان النبيّ ﷺ من غيرهم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الهُدى هُدَى الله﴾ وإن الفضل بيد الله، وهو قول مقاتل.

وقال الكلبي: فيه تقديم وتأخير، يقول: ﴿وَلاَ تُؤْمِنوا﴾، أي: ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم اليهودية، وصلى إلى قبلتكم، ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ يقول: دين الإسلام. ﴿أن يُؤتَى أحدٌ مثل ما أوتيتُمْ﴾ يقول: لن يعطى أحد مثل ما أوتيتم من دين الإسلام، والقرآن الذي فيه الحلال والحرام ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ يقول: لن يخاصمكم اليهود عند ربكم يوم القيامة.

ثم قال ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إن الفضل بيد الله﴾ يعني: النبوة والكتاب والهدى، ﴿بيد الله﴾ أي: بتوفيق الله، ﴿يؤتيه من يشاء﴾ يعني: يوفق من يشاء، ﴿والله واسع عليم﴾. يقول: واسع الفضل ﴿عليم﴾ بمن يؤتيه الفضل ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ يعني: بدينه يعطيه من يشاء من عباده ﴿والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ لمن اختصه بالإسلام.

Marfat.com

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومن أهل الكتاب من إنْ تأمنه بقنطار يُؤدّه إليكَ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة ﴿يُؤدْهْ﴾ بجزم الهاء، وهي لغة بعض العرب، واللغة المعروفة هي: بإظهار الكسرة. قال مقاتل: يعني عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «إن الله تعالى ذكر أن أهل الكتاب فيهم أمانة، وفيهم خيانة». وقال الضحاك: **﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار﴾** يعني: عبد الله بن سلام، أودعه رجل ألفاً ومائتي أوقيّة من الذهب، فأداها إليه، فمدحه الله تعالى. ـ ويقال: إن نعت محمد ﷺ أمانة، فمن كتمه دخل تحت قوله: ﴿لا يؤدّه إليك﴾ ومن لم يكتمه دخل تحت قوله: ﴿يؤده﴾[1] ـ.

ثمّ قال تعالى: ﴿ومنهم من إن تَأمَنْهُ بدينار لا يُؤدِّهِ إليك﴾ وهو فنخاص بن عازورا اليهودي، أودعه رجل ديناراً، فخانه. ويقال: ﴿يُؤدِّه إليك﴾، يعني: النصارى كانوا ألْيَنَ قُلوباً، يؤدون الأمانة، واليهود لا يؤدون الأمانة، وكانوا إذا أخذوا أمانات الناس أو مال اليتامى، فكانوا يغتنمون ذلك، كما يفعل بعض أهل الإسلام إذا وقع في يده شيء من أموال المسلمين جعله كالغنيمة.

ثم قال تعالى: ﴿إلا ما دُمتَ علَيهِ قائماً﴾ يعني: مُلِحّاً متقاضياً و﴿ذلك﴾ يعني: الاستحلال ﴿بأنهم قالوا ليس علينا في الأمّيّين سبيل﴾ يعني: يقولون: ليس علينا في مال العرب مأثم. ويقال: من لم يكن على ديننا، فَمَالُه لنا حلال، بمنزلة مذهب الخوارج أنهم يستحلون مال من كان على خلاف مذهبهم ﴿ويقولون على الله الكذب﴾ لأنهم كانوا يقولون إن ذلك حلال في التوراة، فأخبر الله تعالى أنهم كاذبون على الله ﴿وهم يعلمون﴾ أن الله أمرهم بأداء الأمانة، وأخذ على ذلك ميثاقهم، فهذا قوله تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده﴾ الذي أخذ عليهم بأداء الأمانة، وأخذ على ذلك ميثاقهم وذلك قوله تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى﴾ يعني: محارمه، وهذا قول مقاتل. وقال الكلبي: ﴿واتقى﴾ ظلم الناس ﴿فإنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ عن نقض العهد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من نسخة «أ».

Marfat.com

لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: «نزلت في شأن عبدان بن الأشوع[1]، وامرىء القيس بن عابس، ادّعى أحدهما على صاحبه حقاً، فأراد المدّعى عليه أن يحلف بالكذب، فنزلت هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في شأن رؤساء اليهود، كتموا نعت محمد ﷺ لأجل منافع الدنيا. ويقال: إن جماعة من علماء اليهود، قدموا المدينة من الشام ليسلموا، فلقيهم كعب بن الأشرف فقال لهم: تعلمون أنه نبي؟ قالوا: نعم. فقال لهم كعب: حرمتم على أنفسكم خيراً كثيراً، لأني كنت أردت أن أبعث لكم الهدايا. فقالوا: حتى ننظر في ذلك، فنظروا ثم رجعوا. فقالوا: ليس هو الذي وجدنا صفته، فأخذ منهم إقرارهم بخطوطهم وأيمانهم على ذلك، ثم بعث إلى كل واحد منهم ثمانية أذرع من الكرباس، وخمسة أصوع من الشعير، فنزل في شأنهم ﴿إِنَّ الذين يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانهم ثَمَناً قَلِيلاً﴾ يعني: عرضاً يسيراً ﴿أولئك لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرةِ﴾ أي: لا نصيب لهم في الآخرة ﴿ولا يكلمهم الله﴾ وقال الزجاج: قوله تعالى: ﴿ولا يكلمهم الله﴾، يحتمل معنيين: أحدهما: إسماع كلام الله تعالى أولياءه خصوصاً لهم، كما كلم موسى خصوصية له دون البشر، ويجوز أن يكون تأويله: الغضب عليهم، كما يقال. فلان لا يكلم فلاناً، ولا ينظر إليه، أي هو غضبان عليه، وإن كان يكلمه بكلام السوء، فذلك معنى قوله: ﴿لا يكلمهم الله﴾، يعني: بكلام الرحمة ﴿وَلاَ يَنظُرُ إِلَيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ بالرحمة ﴿وَلاَ يُزَكّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وإِنَّ مِنهُمْ لَفَرِيقاً﴾ يعني: طائفة من اليهود، وهذه اللام لزيادة تأكيد على تأكيد ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالْكِتابِ﴾ يعني يحرفون ألسنتهم بالكتاب، يعني بنعت محمد ﷺ ويغيرونه، ويقال: يغيرون في التلاوة فيقرؤونه على خلاف ما في التوراة. ويقال: يحرفون تأويله على خلاف ما فيه ﴿لِتَحْسَبُوه مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: من التوراة ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: من التوراة، بل هم كتبوا وهم تأولوا ﴿وَيقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ الله﴾ أي ليس هو من عند الله ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه كذب.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

---

(١) في نسخة «ب» عبد الله بن الأشوع.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتابَ﴾ يعني: التوراة والإنجيل ثم قال: ﴿والحكم﴾ يعني: الفهم ﴿والنبوة﴾ وهو عيسى ابن مريم عليهما السلام ﴿ثم يقول للناس﴾ ما جاز له أن يقول للناس: ﴿كونُوا عِبَاداً لي من دُونِ اللهِ﴾ ويقال: إن اليهودَ والنصارى اختلفوا فيما بينهم، فجاء الفريقان جميعاً إلى رسول الله ﷺ. وقال كل فريق: نحن أولى بإبراهيم عليه السلام فقال لهم رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ عَلَى الخَطَأ» فغضبوا. وقالوا: والله ما تريد إلا أن نتخذك حَنَّاناً، فأنزل الله تعالى ﴿مَا كَانَ لبشر أن يؤتيه الله الكتاب﴾ يعني: القرآن ﴿والحكم﴾، يعني: الحلال والحرام والنبوة، ﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ ﴿ولكن﴾ يقول لهم: ﴿كونوا ربانيين﴾ يعني: متعبدين، ويقال: كونوا علماء فقهاء.

قال الزجاج: الربانيون أرباب العلم والبيان، أي: كونوا علماء ﴿بما كنتم تعلّمون الكتاب﴾ يعني: كونوا عاملين بما كنتم تعلمون، لأن العالم إنما يقال له عالم إذا عمل بعلمه وإن لم يعمل بعلمه فليس بعالم، لأن من ليس له من علمه منفعة، فهو والجاهل سواء.

ثمّ قال تعالى: ﴿وبما كنتم تَدْرُسُونَ﴾ يقول: بما كنتم تقرؤون، يعني: كونوا علماء بذلك عاملين به. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿بما كنتم تَعْلَمُون﴾ بنصب التاء والتخفيف، يعني: يُعَلّمكم الكتاب ودرسكم والباقون بضم التاء والتشديد يعني: تُعَلِّمُون غيركم، فإنما يأمركم بذلك ﴿ولا يأمركم أن تَتَّخِذُوا المَلائِكَة والنَّبِيِّين أرْباباً﴾ يعني: عيسى وعُزَيراً والملائكة صلوات الله عليهم، ولو أمركم بذلك لَكَفر، وتنزع منه النبوة ﴿أيأمركم بالكفر﴾ يعني: بعبادة الملائكة ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ يعني: مخلصون بالتوحيد لله. قرأ عاصم وحمزة وابن عامر: ﴿ولا يَأْمُرَكم﴾ بنصب الراء انصرف إلى قوله ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ﴾، فيصير نصباً بأن، والباقون ﴿ولا يأمُرُكم﴾ بضم الراء على معنى الابتداء.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ يعني: الميثاق حيث أخرجهم من صُلْب آدم عليه السلام وَأَخَذَ عليهم العهد والميثاق أن يبلغ الأول الآخر، وأن يصدق الآخر الأول، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ يعني: إقرار النَّبِيِّين ﴿لما آتيتكم﴾ قرأ حمزة ﴿لِمَا آتيتكم﴾ بكسر اللام والتخفيف، يعني: بما آتيتكم، والباقون بنصب اللام، ومعناه: فما آتيتكم يعني: أي، كتاب آتيتكم لتؤمنوا به. وقرأ بعضهم: بنصب اللام والتشديد، يعني: حين آتيتكم ﴿من كتاب وحكمة﴾ يعني: بيان الحلال والحرام. وقرأ نافع ﴿آتيناكم﴾ بلفظ الجماعة، وهو لفظ الملوك، والباقون ﴿آتيتكم﴾ بلفظ الوحدان. ويقال: أخذ الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبياً

Marfat.com

إلا ذكر له محمداً ﷺ ونعته، وأخذ عليه ميثاقه أن يبيِّنه لقومه، وأن يأخذ منهم ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم، ولا يكتمونه ﴿ثم جاءكم رسول﴾ يعني: أهل الكتاب الذين كانوا في زمان محمد ﷺ ﴿مصدق لما معكم﴾ في التوحيد وبعض الشرائع، وذلك أن الله تعالى لما أخذ ميثاق الأنبياء، وأخذ الأنبياء الميثاق من قومهم بأن يبينوه، فلما قدم النبيّ ﷺ المدينة فكذبوه، فذكرهم الله تعالى ما أتاهم به أنبياؤهم وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول﴾ يعني: محمداً ﷺ مصدق لما معكم من التوراة ﴿لَتُؤْمِنُنَّ به﴾ يعني: قال لهم في الميثاق: ﴿لتؤمنن به﴾ أي: لتصدقنه إذا بُعث ﴿وَلَتَنصُرنَّه﴾ إذا خرج ﴿قال﴾ لهم ﴿أأقررتم﴾ بتصديقه، يعني: هل أقررتم بما أخذ عليكم من الميثاق بتصديقه ونصره؟ ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾ يعني: هل قبلتم على ذلك عهدي الذي أخذت عليكم على إيمانكم بمحمد ﷺ؟ ﴿قالوا أَقْرَرْنَا قال﴾ يعني: الله تعالى ﴿فاشهَدُوا﴾ بعضكم على بعض بأني قد أخذت عليكم العهد ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ على إقراركم.

قال الزجاج: قوله ﴿فاشهدوا﴾، أي فبيِّنوا، لأن الشاهد هو الذي يصحح دعوى المدعي، ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾، وشهادة الله للنبيين تبيينه أمر نبوتهم بالآيات المعجزات. وقال القتبي: أصل الإصر الثقل، فسمي العهد إصراً، لأنه يمنع صاحبه عن مخالفة الأمر الذي أخذ عليه فثقل.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ يعني: أعرض عن الإيمان، وعن البيان بعد ذلك الإقرار والعهد قوله: ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ يعني الناقضون للعهد، ويقال: هم العاصون، وأصل الفسق: الخروج من الطاعة كقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [سورة الكهف: ٥٠] أي خرج عن طاعة ربه.

وقوله تعالى: ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ قال الكلبي: وذلك أن كعب بن الأشرف اختصم مع النصارى إلى النبيّ ﷺ. فقالوا: أينا أحق بدين إبراهيم؟ فقال النبيّ ﷺ: «كِلاَ الفَرِيقَيْنِ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِ» فقالوا: ما نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك، فنزل قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ﴾ يعني: يطلبون، قرأ عاصم في رواية حفص ﴿يبغون﴾ ﴿وإليه يرجعون﴾ كلاهما بالياء. وقرأ أبو عمرو ﴿يبغون﴾ بالياء، وإليه ﴿ترجعون﴾ بالتاء، وقرأ الباقون كلاهما بالتاء على معنى المخاطبة. فمن قرأ بالياء، يعني: أفغير دين الله يطلبون عندك، ومن قرأ ﴿تبغون﴾ يعني: قل لهم أفغير دين الله تطلبون، ﴿وله أسلم﴾، يعني: أخلص وخضع ﴿من في السموات والأرض طوعاً وكَرْهاً﴾. قال الكلبي: أما أهل السمٰوات، فأسلموا لله طائعين، وأما أهل الأرض، فمن

Marfat.com

ولد في الإسلام أسلم طوعاً، ومن أبى قُوتِل حتى دخل في الإسلام كرهاً، وأمّا أفاء الله عليهم مما يسبون، فيجاء بهم في السلاسل، فيكرهون على الإسلام. وقال مجاهد: يسجد ظل المسلم ووجهه طائع، ويسجد ظل الكافر وهو كاره. وقال مقاتل: ﴿وله أسلم من في السموات﴾، يعني: الملائكة والأرض، يعني: المؤمنين طوعاً وكرهاً، يعني: أهل الأديان يقولون الله ربهم وخالقهم فذلك إسلامهم، وهم مشركون. ومعنى قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: وله أسلم من في السموات والأرض، أي: خضعوا من جهة ما فطرهم عليه ودبرهم، لا يمتنع ممتنع من جبلة ما جبل عليها، ولا يقدر على تغيير ما خلق عليه.

ثم قال: ﴿وإليه ترجعون﴾ كما خلقكم، أي كما بدأكم فلا تقدرون على الامتناع، كذلك يبعثكم كما بدأكم ـ قرأ عاصم في رواية حفص ﴿يرجعُون﴾ وقرأ الباقون بالتاء[1]..

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

ثم قال: ﴿قل آمنا بالله﴾ خاطب النبيّ ﷺ، وأراد به أمته فقال: قل للمؤمنين إن لم يؤمن أهل الكتاب فقولوا أنتم آمنا بالله **﴿وما أنزل علينا﴾** أي آخر الآية وقد ذكرناه في سورة البقرة.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً﴾ قال الكلبي: نزلت في شأن وطُعْمَة بن أبَيرق، ومقيس بن ضبابة، والحارث بن سُوَيد ومرثد، وكانوا عشرة. وقال الكلبي: كانوا اثني عشر. وقال الضحاك: يعني لا يقبل الله من جميع الخلق من أهل الأديان ديناً غير دين الإسلام، ومن تديّن بدينٍ غير دين الإسلام **﴿فَلَنْ يُقبل منه وَهوَ في الآخرة من الخاسرين﴾** أي: من المغبونين، لأنه ترك منزله في الجنة، واختار منزله في النار.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾

ثمّ قال تعالى: ﴿كَيفَ يَهْدِي الله قَوماً كَفرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِم وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ يعني:

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

كفروا بعدما شهدوا أن الرسول حق ﴿وجاءهم البيِّنات﴾ يعني: بعدما ظهر لهم العلامات ﴿والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فإن قيل: في ظاهر الآية أن من كفر بعد إسلامه، لا يهديه الله، ومن كان ظالماً لا يهديه الله، وقد رأينا كثيراً من المرتدين قد أسلموا وهداهم الله، وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم؟ قيل له: معناه لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم، ولا يُقبِلُون إلى الإسلام، فأما إذا جاهدوا وقصدوا الرجوع، وفقهم الله لذلك لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩] وتأويل آخر قوله: ﴿كيف يهدي الله﴾ يقول: كيف يرشدهم إلى الجنة؟ كما قال في آية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [سورة النساء: ١٦٨] ويقال: كيف يرحمهم الله وينجيهم من العقوبة؟ ويقال: كيف يغفر الله لهم؟ وقالت المعتزلة: كَيْفَ يَهْدِي الله؟ معناه: كيف يكونون مهتدين، لأنهم لا يرون الهداية، والاهتداء في الابتداء إلا على سبيل الجزاء، ويرون ذلك من كسب العبد.

ثم قال تعالى: ﴿أولئك جزاؤهم﴾ يعني: أهل هذه الصفة التي ذكرها ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله﴾ يعني: سخط الله. ويقال: الطرد والتبعيد من رحمة الله والخذلان. ويقال: يلعنهم بالقول: ﴿والملائكة﴾ يعني: عليهم لعنة الله والملائكة ﴿والناس أجمعين﴾ إذا لعن رجل رجلاً، فإن لم يكن أهلاً لذلك، رجعت اللعنة إلى الكفار، ويقال: من لم يكن على دينهم يلعنهم في الدنيا، ومن كان على دينهم يلعنهم في الآخرة. لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [سورة العنكبوت: ٢٥] فذلك قوله تعالى: ﴿والنَّاس أَجْمَعِين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: في اللعنة فيما يوجبه الله تعالى، وهو عذاب النار خالدين فيها ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: لا يهون عليهم العذاب ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤجلون. ثم استثنى التوبة فقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ يقول: من بعد الكفر، وأصلحوا أعمالهم بالتوبة. ويقال: أصلحوا لمن أفسدوا من الناس ﴿فَإِنَّ الله غَفُورٌ﴾ لما كان منهم في الكفر، ﴿رحيم﴾ بهم بعد التوبة. قال الكلبي ومقاتل: لما نزلت هذه الآية أي الرخصة بالتوبة، كتب أخوة الحارث بن سُوَيْد، إلى الحارث: إن الله قد عرض عليكم التوبة فرجع وتاب. وبلغ ذلك إلى أصحابه الذين بمكة، فقالوا: إن محمداً تتربص به ريب المنون، فقالوا: نقيم بمكة على الكفر، متى بدا لنا الرجعة رجعنا، فينزل فينا ما نزل في الحارث، فيقبل توبتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثم ازْدَادُوا كُفْراً﴾ يعني: ثبتوا على كفرهم بقولهم: نقيم بمكة ما بدا لنا ﴿لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ ما أقاموا على الكفر.

قال الزجاج: كانوا كلما نزلت آية كفروا بها، فكان ذلك زيادة كفرهم. وقوله: ﴿لن تقبل توبتهم﴾، أي توبتهم الأولى، وحبط أجر عملهم. ويقال: ﴿لن تقبل توبتهم﴾، معناه: أنهم لم يتوبوا. كما قال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [سورة البقرة: ٤٨]، أي لا يشفع لها أحد.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وأولئك هم الضالون﴾ عن الإسلام، وهم الذين لم يتوبوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين كَفَروا وَماتوا وَهُم كفَّارٌ فلن يُقْبَلَ مِن أحَدِهِمْ ملءُ الأرضِ ذَهباً﴾ قال الكلبي: يعني وزن الأرض ذهباً. وقال مقاتل: إن الكافر إذا عاين النار في الآخرة، تمنّى أن يكون له الأرض ذهباً، فيقدر على أن يفتدي به نفسه من العذاب ما تقبل منه، ونظيرها في سورة المائدة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أنه قال: «لن تنالوا ما عند الله من ثوابه في الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون أي حتى تخرجوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم». وقال مقاتل: يعني لن تنالوا التقوى حتى تنفقوا مما تحبون من الأموال وقيل: هي منسوخة نسختها آية الزكاة. ﴿ومَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ يعني: الصدقة وصلة الرحم ﴿فإنّ الله بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي: لا يخفى عليه، فيثيبكم عليه. ويقال: ﴿لن تنالوا البر﴾ حتى تستكملوا التقوى. ويقال: لا تكونوا بارين حتى تنفقوا مما تحبون، أي: من الصدقة» أي بعض ما تحبّون من الأموال.

وروي عن عمر بن عبد العزيز: أنه كان يشتري أعدالاً من السُكّر، ويتصدق بها. فقيل له: هلا تصدقت بثمنه؟ فقال: لأنَّ السُكّر أحبّ إليَّ، فأردت أن أتصدَّق مما أحب.

وروي عن عبد الله بن عمر أنه اشترى جارية جميلة، وكان يحبها، فمكثت عنده أياماً، فأعتقها وزوجها من رجل، فوُلِد لها ولد، فكان يأخذ ولدها ويضمّه إلى نفسه، ويقول: «أشم منك ريح أمك». فقيل له: قد رزقك الله من حلال وأنت تحبها، فلم تركتها؟ فقال: ألم تسمع هذه الآية: ﴿لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون﴾. وروي عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت تقرأ في مصحف مذهّب، فلما انتهت إلى هذه الآية باعته وتصدَّقت بثمنه[(١)].

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كل الطعام كان حِلًّا لبني إسرائيل﴾ قال في رواية الكلبي: خرج يعقوب إلى بيت المقدس، فلقيه ملك في الطريق، فظن يعقوب عليه السلام أنه لص، فعالجه، فغمز الملك

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

رجل يعقوب، فهاج به عرق النساء، فنذر أن يحرم أحب الطعام إليه إن بريء من ذلك لما رأى فيه من الجهد. فلما بريء كان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وألبانها، فحرمها على نفسه. فقالت اليهود: هذا التحريم من الله تعالى في التوراة، فنزل قوله تعالى: ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل﴾ يعني: كان حلالاً، إلا الميتة والدم ولحم الخنزير.

ثم قال: ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّل التوراة﴾ وليس تحريمها في التوراة.

ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لليهود ﴿فَأْتوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ يعني: اقرؤوها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن تحريمها في التوراة، لأنهم كانوا يقولون: كان ذلك حراماً من وقت نوح، وأنت وأصحابك تستحلونها.

وقال الضحاك: إن يعقوب لما أصابه عرق النساء، وصف له الأطباء أن يتجنب لحوم الإبل، فحرم على نفسه لحوم الإبل. فقالت اليهود: حرّمْناها على أنفسنا، لأن يعقوب حرّمها على نفسه، ونزل تحريمها في التوراة، ونزلت الآية. ويقال: معناه كل طعام هو حلال لأمتك، مثل ما كان حلالاً لبني إسرائيل، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، وبعضها حُرّم عليهم بذنوبهم.

وقال الزجاج: هذه الآية أعظم دليل لنبوة محمد ﷺ: لأنه حين أخبرهم بأنه ليس في كتابهم، وأمرهم بأن يأتوا بالتوراة، فأبوا وعرفوا أنه قال ذلك بالوحي.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ يعني: اختلق على الله الكذب ﴿مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ البيان في كتابهم ﴿فَأُولٰئِكَ هُمُ الظالمون﴾ يعني: يظلمون أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾ أن تحريمه ليس في التوراة. ويقال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾ حين قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧] ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: مخلصاً مستقيماً، وكلوا لحوم الإبل وألبانها كما أكلها إبراهيم عليه السلام، ولا تحرموا على أنفسكم شيئاً بأهوائكم ﴿وما كان﴾ إبراهيم ﴿من المشركين﴾ يعني: على دينهم.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للناس﴾ قال مقاتل: يعني أول مسجد وضع للناس، أي للمؤمنين. ويقال: أول موضع خلق، هو موضع الكعبة للناس، أي قبلة للناس ﴿للذي ببكة﴾

Marfat.com

قال الكلبي: إنما بكة، لأن الناس يبك بعضهم بعضاً، أي يزدحم.

وقال الزجاج: بكة موضع البيت، وسائر ما حواليه مكة. وقال القتبي: بكة ومكة شيء واحد، والباء تبدل من الميم، كما يقال: سمَّد رأسه وسبَّده إذا استأصله ويقال: بكة موضع المسجد، ومكة البلد حوله. ثم قال تعالى: ﴿مباركاً﴾ أي: فيها بركة ومغفرة للذنوب ﴿وهدى للعالمين﴾ يعني: قبلة لمن صلّى إليها، وذلك أن اليهود قالوا للمؤمنين: لم عمدتم إلى الحجارة تطوفون بها وتصلون إليها؟ وجعلوا يعظمون بيت المقدس، فنزلت هذه الآية.

وروى الكلبي: أن آدم عليه السلام بنى البيت، فلما كان زمان الطوفان، رفع إلى السماء السادسة بحيال الكعبة ـ يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لم يدخلوه قط قبله. ويقال: أنزل من السماء، وهو من ياقوتة حمراء، فلما كان زمان الطوفان، رفع إلى السماء الرابعة[(١)] ـ.

ثم قال تعالى: ﴿فيه آياتٌ بيناتٌ﴾ يعني: علامات واضحات كالحجر الأسود والحطيم و﴿مقام إبراهيم﴾ ـ وروي عن عبد الله بن عباس: أنه كان يقرأ: ﴿فيه آية بيّنة مقام إبراهيم﴾ وقرأ غيره: ﴿آيات بينات﴾ ومعناه: من تلك الآيات مقام إبراهيم.[(٢)] ـ

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ يعني: الحرم ﴿كَانَ آمناً﴾ يعني: أنّ من دخله فإنه لا يهاج منه إذا وجب عليه القتل خارج الحرم.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿حِجُّ البت﴾ بكسر الحاء، والباقون بالنصب، وهما لغتان ومعناهما واحد. ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ يعني: بلاغاً، والاستطاعة: هي الزاد والراحلة وتخلية الطريق. ويقال: ولله على الناس فريضة حج البيت.

ثم قال تعالى: ﴿ومن كفر﴾ يعني: من لم يرَ الحج واجباً فقد كفر، فذلك قوله ﴿ومن كفر﴾. ﴿فإن الله غني عن العالمين﴾ يعني: عمن حج، وعمن لم يحج.

قال الفقيه: حدّثني أبي قال: حدّثني أبو بكر المعلم قال: حدثنا أبو عمران الفاريابي قال: حدّثنا عبد الرحمٰن بن حبيب قال: حدّثنا داود بن المحبر قال: حدّثنا عباد بن كثير، عن عبد خير عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال في خطبته: «**أيُّها النَّاسُ إنَّ الله تَعالَى فَرَضَ الحَجَّ عَلَى مَنِ اسْتَطَاعَ إليهِ سَبِيلاً، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَلْيَمُتْ عَلَى أيِّ حَالٍ شَاءَ يَهُودِيّاً أوْ نَصْرَانِيّاً أوْ مَجُوسِيّاً، إلاَّ أنْ يَكُونَ بِهِ مَرَضٌ أوْ مَنْعٌ مِنْ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، ألا لا نَصِيبَ لَهُ فِي شَفَاعَتِي، وَلا يَرِدُ حَوْضِي**».

وروي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**السَّبِيلُ الزَّادُ والرَّاحِلَةُ**». وكذلك

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».
(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

روي عن ابن عباس(١). وقال مجاهد: ﴿مقام إبراهيم﴾ أثر قدميه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ يعني: لم تجحدون بالحج والقرآن ومحمد ﷺ، ﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ من الجحود والكفر.

ثمّ قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ يقول: لم تصرفون الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي عن دين الإسلام والحج ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يعني: تطلبونها تغيراً وزيغاً ﴿وأنتم شهداء﴾ أن ذلك في التوراة ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ من كتمان صفة محمد ﷺ ونعته. ويقال في اللغة: ما كان ينتصب انتصاب العود والحائط يقال: عوج بالنصب، وما لم ينتصب مثل الأرض والكلام يقال: عِوَج كما قال تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧] وقال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً﴾ يقول: طائفة ﴿من الّذين أُوتُوا الْكِتابَ﴾ وهم رؤساء اليهود ﴿يردوكم بعد إيمانكم﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿كافرين﴾، لأنهم كانوا يدعون إلى الكفر، واتباع مذهبهم، وكان يتبعهم بعض المنافقين، فنهى الله تعالى المؤمنين عن متابعتهم.

ثم قال تعالى على وجه التعجب: ﴿وكيف تكفرون﴾ يقول: كيف تجحدون بوحدانية الله وبمحمد والقرآن؟ ﴿وَأَنتُمْ تُتلَى عليكُم آيَاتُ الله﴾ يقول: يُقْرأُ عليكم القرآن، وفيه دلائله وعجائبه، ﴿وفيكُمْ رَسُولُه﴾ يعني: معكم محمد ﷺ.

قال الزّجاج: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد ﷺ خاصة، لأن رسول الله ﷺ كان فيهم، وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة، لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذي أتى به فينا، فكان رسول الله ﷺ فينا وإن لم نشاهده.

---

(١) عزاه السيوطي ٢/ ٢٧٤ إلى ابن جرير والبيهقي وأمّا حديث أنس فأخرجه الدارقطني والحاكم وصححه: ٢/ ٢٧٣.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِمْ بِاللهِ﴾ يقول: يتمسك بدين الله ﴿فقد هُدِيَ﴾ يقول وفق وأرشد من الضلالة ﴿إلى صراط مستقيم﴾ يعني: الطريق الذي يسلك به إلى الجنة، وهو دين الإسلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ يقول: أطيعوا الله حق طاعته، وحق طاعته أن يطاع فلا يعصى طرفة عين، وأن يشكر فلا يكفر طرفة عين، وأن يذكر فلا ينسى طرفة عين، فشقّ ذلك على المسلمين، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فنسخت هذه الآية، هكذا قال الكلبي والضحاك ومقاتل، وغيرهم من المفسرين: إن هذه الآية منسوخة. وقال بعضهم: لا يجوز أن يقال هذه الآية منسوخة، لأنه لا يجوز أن يأمرهم بشيء لا يطيقونه، بل إنهم يطيقونه، ولكن تلحقهم مشقة شديدة، وكان ذلك مجهود الطاقة، ولا يستطيعون الدوام عليه، والله تعالى لا يكلف عباده إلا دون ما يطيقونه، فخفَّف عنهم بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ولم ينسخ آخر الآية، وهو قوله تعالى: ﴿ولا تموتن إلاَّ وَأَنْتُمْ مسلمون﴾ يعني: اثبتوا على الإسلام، وكونوا بحال يلحقكم الموت، وأنتم على الإسلام.

قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ يقول: تمسّكوا بدين الله وبالقرآن. ويقال: تمسكوا بسبيل السنة والهدى، ﴿ولا تفرقوا﴾. يقول: ولا تختلفوا في الدين كاختلاف اليهود والنصارى. ويقال: لا تختلفوا فيما بينكم بالعداوة والبغضاء، ويقال ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً﴾ يعني: اطلبوا النصرة من الله، لا من القبائل والعشيرة. ويقال: ﴿واعتصموا بحبل الله والرسول﴾، يعني: ما اشتبه عليكم، فردوه إلى كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٥٩] وقال بعض الحكماء: إن مثل من في الدنيا، كمثل من وقع في بئر، فيها من كل نوع من الآفات، فلا سبيل إلى النجاه منها إلا بالتمسك بحبل وثيق، وهو كتاب الله تعالى.

ثم ذكر لهم نعمته فقال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ يعني: احفظوا نعمة الله عليكم بالإسلام ﴿إذ كنتم أعداء﴾ في الجاهلية ﴿فألف بين قلوبكم﴾ يقول: جمع بين قلوبكم بالإسلام

Marfat.com

تودُّداً ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ يقول: فصرتم بنعمة الإسلام ﴿إخواناً﴾ في الدين، وكل ما ذكر في القرآن ﴿أصبحتم﴾، معناه: صِرْتم، كقوله: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠] أي صار ماؤكم غوراً، وهذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، كان بينهم قتال قبل الإسلام بأربعين عاماً، حتى كادوا أن يتفانوا، فلما بُعث النبيّ ﷺ بمكة، آمن به الأوس والخزرج وهم بالمدينة، ثم خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة قبل أن يهاجر منهم سبعون رجلاً، فخرج رسول الله ﷺ، ومعه عمه العباس إلى العقبة، فرأى سبعين رجلاً من الأنصار فعاهدوه ثم رجعوا إلى المدينة، وهاجر النبيّ ﷺ إليهم بعد الحولين، فوقعت بين الأوس والخزرج أُلفَةٌ، وزالت عنهم العداوة التي كانت عنهم في الجاهلية بالإسلام، وهذا كما ذكر في آية أخرى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وروي عن جابر بن عبد الله: أن رجلين من الأنصار، أحدهما من الأوس والآخر من الخزرج، تفاخرا فيما بينهما واقتتلا، فاستعان كل واحد منهما بقومه، فاجتمعت الأوس والخزرج وأخذوا السلاح، وخرجوا للحرب، فبلغ الخبر إلى رسول الله ﷺ، فخرج إليهم في ثلاثين من المهاجرين وهو راكب على حمار له، قال جابر: فما كان من طالع يومئذ أكرم إلينا من رسول الله ﷺ، إذ طلع علينا، فأومأ إلينا بيده، فكففنا، ووقف بيننا على حمار له فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تقاته﴾. إلى قوله: ﴿عذاب عظيم﴾ فألقوا السلاح وأطفؤوا الحروب التي كانت بينهم، وعانق بعضهم بعضاً يبكون، فما رأيت الناس أكثر باكياً من يومئذ، فلم يكن في الأرض شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِن النَّارِ﴾ قال القتبي: شفى على كذا، إذا أشرف عليه ﴿شَفَا حُفْرةٍ﴾، أي: حرف حفرة، ومعناه: وكنتم في الجاهلية على شرِّ هلاك بالشرك، من مات في الجاهلية كان في النار ﴿فأنقذكم﴾ اللهُ ﴿منها﴾ بعدما كنتم على حرف من النار ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ يعني: علاماته، أي كنتم أعداء في الجاهلية فصرتم إخواناً في الإسلام ﴿لعلّكم تهتدون﴾ أي: لكي تهتدوا من الضلالة، وتعرفوا علامته بهذه النعمة.

ثم قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة﴾ فهذه لام الأمر كقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] يعني: لتكن منكم أمة.

قال الكلبي: يعني جماعة. وقال مقاتل: يعني عصبة، وقال الزجاج: معناه ولتكونوا كلكم أمة واحدة تدعون إلى الخير، و﴿من﴾ هاهنا لتخص المخاطبين من بين سائر الأجناس، وهي مؤكدة كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله: ﴿يدعون إلى الخير﴾ يعني: إلى الإسلام. ويقال: إلى جميع الخيرات ﴿ويأمرون بالمعروف﴾ قال الكلبي: يعني باتباع محمد ﷺ ﴿وينهون عن المنكر﴾ يعني: الجبت والطاغوت. ويقال: ﴿المنكر﴾ العمل الذي بخلاف الكتاب والسنة. ويقال: ما لا يصلح في العقل.

Marfat.com

وروي عن سفيان الثوري أنه قال: «إنما يجب النهي عن المنكر إذا فعل فعلاً يخرج عن الاختلاف». ويقال: إنما أمر بعض الناس بقوله، ﴿ولتكن منكم أمة﴾، ولم يأمر جميع الناس؛ لأن كل واحد من الناس لا يحسن الأمر بالمعروف، وإنما يجب على من يعلم. ويقال: إن الأمراء، يجب عليهم الأمر والنهي باليد، والعلماء باللسان، والعوام بالقلب، وهنا كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا رَأى أحَدُكُمْ مُنكَراً، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذٰلِكَ أضْعَفُ الإيمانِ**»[1].

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «بحسب امرىء إذا رأى منكراً، لا يستطيع النكير أن يعلم الله من قلبه أنه كان». وروي عن بعض الصحابة أنه قال: إن الرجل إذا رأى منكراً، لا يستطيع النكير عليه، فليقل ثلاث مرات: اللهم إنَّ هذا منكر، فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ يعني: الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، هم الناجون. ويقال: فازوا بالنعيم.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تكونوا﴾ في الاختلاف ﴿كالَّذِينَ تَفَرَّقوا﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَاخْتَلَفُوا من بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ فافترقت اليهود فرقاً والنصارى فرقاً، فنهى الله المؤمنين عن ذلك.

ثم خوفهم فقال: ﴿وأولئك لهم عذابٌ عظيم﴾ يعني: دائم لا يرفع عنهم أبداً، يعني: الذين اختلفوا ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ يعني: العلامات في أمر محمد عليه السلام، أو بيان الطريق.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

ثم بيّن منازل الذين تفرقوا، والذين لم يتفرقوا فقال عز وجل: ﴿يوْم تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْودُّ وُجوه﴾ يعني: يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم. تكون وجوه المؤمنين مُبْيَضّة، ووجوه الكفار مُسْوَدّة. ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه، فرأى في كتابه حسناتٍ، استبشر وابيضّ وجهه. وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه، فرأى في كتابه سيئاتٍ، اسودّ وجهه. - ويقال: إن ذلك عند الميزان، إذا رجحت حسناته ابيضّ وجهه، وإذا رجحت سيئاته اسودّ وجهه. ويقال: عند قوله: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩][2] ويقال: إذا كان يوم القيامة

---

(١) حديث أبي سعيد: أخرجه مسلم (٤٩) والترمذي (٢١٧٢) والنسائي: ٨/ ١١١ وأحمد: ٣/ ٤٩، ٥٣ وأبو داود (٤٣٤٠).

(٢) ما بين معقوفتين ساقط في النسخة «ب».

Marfat.com

يؤمر كل قوم بأن يجتمعوا إلى معبودهم، فإذا انتهوا إليه حزنوا، واسودّت وجوههم، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون، فيقول الله تعالى للمؤمنين: من ربكم؟ فيقولون: ربنا الله عزّ وجلّ. فيقول لهم: أتعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: سبحانه إذا عرفنا عرفناه، فيرونه كما شاء الله تعالى، فيخر المؤمنون سجداً لله تعالى، فتصير وجوههم مثل الثلج بياضاً، وبقي المنافقون وأهل الكتاب لا يقدرون على السجود، فحزنوا واسودّت وجوههم، فذلك قوله تعالى: ﴿يوم تَبْيَضُّ وجوه وتسودّ وجوه﴾. ﴿فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ يعني: يقال لهم: أكفرتم؟ ولكن حُذِفَ القول، لأن في الكلام دليلاً عليه ﴿بعد إيمانكم﴾، يعني: يوم الميثاق. قالوا: بَلَى، يعني المرتدين والمنافقين. ويقال هذا لليهود، وكانوا مؤمنين بمحمد ﷺ، قبل أن يُبْعث، فلما بُعث كفروا به. وقال أبو العالية: هذا للمنافقين خاصة. يقول: أكفرتم في السرّ بعد إيمانكم، مع إقراركم في العلانية ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ بمحمد ﷺ والقرآن.

حدّثنا الخليل بن أحمد. قال: حدثنا محم بن صاعد، حدّثنا عباد بن الوليد قال: حدّثنا محمد بن عباد الهنائي قال: حدّثنا حميد بن الخياط قال: سألت أبا العالية عن هذه الآية: ﴿فأما الذين اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أكفرتم بعد إيمانكم﴾ فقال: حدّثنا أبو أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّهُمُ الخَوَارِجُ» وسألته عن قوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً من دونكم﴾ [آل عمران: ١١٨] قال: سمعتهُ قال: «إنهم الخوارج»[١].

ثم قال تعالى: ﴿وأما الذين ابيضّت وجُوهُهم ففي رحمة الله﴾ أي في جنة الله قال الزجاج: يعني في الجنة التي صاروا إليها برحمة الله تعالى، لأن الجنة تُنَالُ برحمة الله، ولا تُنَال بالجهد، وإن اجتهد المجتهد، لأن نعمة الله تعالى لا يكافئها عمل، ففي رحمة الله، أي في ثواب الله ﴿وهم فيها خالدون﴾ يعني: دائمين.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تلك آيات الله﴾ يعني: القرآن ﴿نتلوها عليك﴾ يعني: ننزل عليك جبريل فيقرأ عليك ﴿بالحق﴾ أي بالصدق. وقال الزجاج: ﴿تلك آيات الله﴾ أي: تلك التي جرى ذكرها، حجج الله وعلاماته ﴿نتلوها عليك﴾، أي: نعرّفك إياها ﴿وما الله يُرِيدُ ظُلْماً للعالمين﴾ يعني: لا يعذبهم بغير ذنب.

ثم قال تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ قال بعضهم: هذا معطوف على

(١) عزاه السيوطي ٢/٢٩٢ إلى عبد حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أمامة.

Marfat.com

الأول، كأنه يقول: وما الله يُرِيدُ ظُلْماً للعالمين لأنهم كلهم عبيده ومخلوقه ومرزوقه، فلا يريد ظلمهم. وقال بعضهم: هذا ابتداء الكلام، بين لعباده أن جميع ما في السمٰوات وما في الأرض له حتى يسألوه ويعبدوه، ولا يعبدوا غيره.

ثم قال تعالى: ﴿وإلى الله تُرْجَعُ الأمور﴾ يقول: تصير أمور العباد إلى الله في الآخرة.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاس﴾ قال الكلبي: أخبر الله تعالى أن خير الدين عند الله دين أهل الإسلام، ووصفهم بالوفاء فقال: ﴿كُنتُمْ خيرَ أُمَّةٍ﴾ يقول: أنتم خير أهل دين كان للناس لأنهم لا يظلمون من خالطهم منهم، أو من غيرهم، فجعلهم الله خير الناس للناس ﴿تأمرون بالمعروف﴾ ويقال: خير أمة أُخرِجَت للناس، لأنهم يأمرون بالمعروف، فيقاتلون الكفار ليسلموا، فترجع منفعتهم إلى غيرهم. كما قال ﷺ: «**خَيرُ النَّاسِ مَنْ يَنفَعُ النَّاس**». ويقال: ﴿كنتم خير أمة﴾ عند الله في اللوح المحفوظ. ويقال: كنتم مذ أنتم خير أُمَّة. ويقال: هذا الخطاب لأصحاب النبي ﷺ، يعني: أنتم خير الأمة. كما قال النبيّ ﷺ: «**خَيرُ القُرُونِ أَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**».

ثُمَّ وَصَفَهُمْ، فقال: ﴿تَأمُرُونَ بِالمَعْرُوف﴾ أي: بالتوحيد والإسلام. ﴿وتنهون عن المنكر﴾ أي: عن الشرك ﴿وتؤمنون بالله﴾ أي: تصدقون بتوحيد الله، وتثبتون على ذلك. وقال الزجاج: ﴿تؤمنون بالله﴾، معناه: تقرون بأن محمداً ﷺ نبيّ الله، لأن من كفر بمحمد ﷺ لم يوحد الله، لأنه يزعم أن الآيات المعجزات التي أتى بها من ذات نفسه.

ثم قال تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿لكان خَيراً لهم﴾ من الإقامة على دينهم.

ثم قال تعالى: ﴿منهم المؤمنون﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه، ومن آمن من اليهود والنصارى ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ وهم كعب بن الأشرف وأصحابه، والذين لم يؤمنوا منهم.

قوله تعالى: ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ يعني: باللسان بالسب وغيره، وليس لهم قوة القتال ﴿وإن يقاتلوكم﴾ يعني: إن أعانوكم في القتال، فلا منفعة لكم منهم لأنهم ﴿يُوَلُّوكم الأدبار﴾ وينهزمون ﴿ثم لا يُنصَرون﴾ يقول: لا يُمنَعون من الهزيمة، فكأنه يحكي ضعفهم عن القتال. يقول: لو كانوا عليكم لا يضرونكم، ولو كانوا معكم لا ينفعونكم، وهذا حالهم إلى اليوم، وهم اليهود ليس لهم شوكة، ولا قوة القتال في موضع من المواضع. ويقال: ﴿وإن يقاتلوكم

Marfat.com

﴿يُوَلُّوكم الأدْبار﴾ يعني: إن خرجوا إلى قتالكم وأرادوا قتالكم ﴿يولون الأدبار﴾ يعني: يهربون منكم. ويقال: ﴿يُوَلُّوكم الأدْبار﴾، يعني: منهزمين، ﴿ثم لا يُنصَرُون﴾ يقول: لا يُمْنَعون منكم، وهو قول الكلبي.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ﴾ يقول: جُعِلَتْ عليهم الجزية، ويقال: الزم عليهم القتال ﴿أَينما ثُقِفوا﴾ أي: وُجِدوا ﴿إلا بحبل من الله﴾ يعني: بعهد من الله ﴿وحبل من الناس﴾ أي: بعهد من الناس، يعني: تحت قوم يؤدون إليهم الجزية، فإن لم يكن لهم عهد قتلوا ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ يقول: استوجبوا الغضب من الله تعالى. ويقال: رجعوا بغضب من الله ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ يعني: جعل عليهم زي الفقر، فترى الرجل منهم غنياً، وعليه من البؤس والفقر والمسكنة. ويقال: إنهم يظهرون من أنفسهم الفقر، ويقال: إنهم يظهرون من أنفسهم الفقر لكيلا تضاعف عليهم الجزية ﴿ذلك﴾ الذي يصيبهم ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ ومحمدٍ ﷺ وبالقرآن ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حقّ﴾ يعني: رضوا بما فعل آباؤهم، فكأنهم قتلوهم ﴿ذلك﴾ الغضب ﴿بما عَصَوْا﴾ الله ﴿وكانوا يعتدون﴾ بأفعالهم، فكلما ذكر الله عقوبة قوم في كتابه، فبيّن المعنى الذي يعاقبهم لذلك، لكيلا يظن أحد أنه عذّبهم بغير جُرْم.

﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

ثم بيّن فضيلة من آمن من أهل الكتاب على من لم يؤمن فقال تعالى: ﴿لَيسوا سواء﴾ قال بعضهم: هذا معطوف على الأول ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ ﴿ليسوا سواء﴾ في الثواب، فيكون هاهنا وقف. وقال بعضهم: هذا ابتداء، ويكون فيه مضمر، فكأنه يقول: ليس من آمن منهم ويتلون آيات الله كمن هو كافر. كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ﴾ [الزمر: ٩] معناه: ليس كالذي هو من أهل النار، فكذلك هاهنا. قال: ليس من آمن ﴿من أهل الكتاب﴾ كمن لم يؤمن. فبيّن الذين آمنوا فقال: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ يعني: مهديّة عاملة بكتاب الله تعالى، ويقال: مستقيمة.

وروى الزجاج عن الأخفش قال: يعني ذا أمة قائمة، يعني ذو طريقة قائمة ﴿يَتلُونَ آياتِ الله﴾ يعني القرآن في الصلاة ﴿آناء الليل﴾ يعني: ساعات الليل ﴿وهم يسجدون﴾ أي يصلون لله تعالى.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يعني: يقرون بالله وبمحمد ﷺ ﴿ويأمرون بالمعروف﴾ يعني: باتباعه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يعني: الشرك ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يعني: يبادرون إلى الطاعات، والأعمال الصالحة ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي مع الصالحين، وهم أصحاب محمد ﷺ في الجنة.

وقال تعالى: ﴿وما يَفعَلُوا من خير فلن يكفروه﴾ يعني: لن تجحدوه ولن تنسوه، يقول: تجزون به، وتثابون عليه في الآخرة، وهذا كما روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «البرُّ لا يَبْلَى وَالإِثْم لا يُنْسَى».

ثم قال تعالى: ﴿والله عليم بالمتقين﴾ يعني: عليم بثوابهم، وهم مؤمنو أهل الكتاب، ومن كان بمثل حالهم. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿وما يَفعَلوا من خير فلن يُكفروه﴾ كلاهما بالياء، والباقون كلاهما بالتاء على معنى المخاطبة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنهُمْ﴾ قال مقاتل: ذكر قبل هذا مؤمني أهل الكتاب، ثم ذكر كفار أهل الكتاب، وهو قوله: ﴿إن الذين كفروا﴾.

وأما الكلبي فقال: هذا ابتداء ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم﴾ كثرة ﴿أموالهم ولا أولادهم من﴾ عذاب ﴿الله شيئاً﴾ وقال الضحاك: يعني اليهود والنصارى، وجميع الكفار، وكل من خالف دين الإسلام. وذلك أنهم تفاخروا بالأموال والأولاد وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً، وما نحن بمعذبين، فأخبر الله تعالى أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم من عذاب الله شيئاً. ثم قال: ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ثم قال: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا﴾ قال الكلبي: يعني ما ينفقون في غير طاعة الله ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ يعني: برد شديد ﴿أصابت﴾ الريح الباردة ﴿حرث قوم ظلموا أنفسهم﴾ بمنع حق الله تعالى فيه ﴿فأهلكته﴾ يقول: أحرقته، فلم ينتفعوا منه بشيء، فكذلك نفقة من أنفق في غير طاعة الله، لا ينفعه في الآخرة، كما لا ينفع هذا الزرع في الدنيا. وقال مقاتل: يعني نفقة السفلة على رؤساء اليهود. وقال الضحاك: مثل نفقة الكفار من أموالهم في أعيادهم وعلى أضيافهم وما يعطي بعضهم بعضاً على الضلالة ﴿كمثل ريح﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ يعني: أصحاب الزرع هم ظلموا أنفسهم بمنع حق الله تعالى، فكذلك الكفار أبطلوا ثواب أعمالهم بالشرك بالله تعالى.

Marfat.com

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذين آمنوا لا تَتَّخذُوا بِطَانَةً من دُونِكُم﴾ يعني: خلّة وصداقة من غير أهل دينكم، وإنما سميت بطانةَ الثوب بطانةً لقربها من البدن ﴿من دونكم﴾، يعني: من دون المؤمنين.

نزلت الآية في شأن جماعة الأنصار، كانت بينهم وبين اليهود مواصلة وخاصية، وكانوا على ذلك بعد الإسلام، فنهاهم الله تعالى عن ذلك. ويقال: كل من كان على خلاف مذهبهم ودينهم لا ينبغي له أن يخادنه، لأنه يقال في المثل:

عن المَرءِ لا تَسْأَلْ وَأَبْصِرْ قرينه فَإِنَّ القرينَ بالمقارن يَقْتَدِي

وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخَالِلْ**»(1). وروي عن ابن عباس أنه قال: «اعتبروا الناس بأخدانهم».

ثم بيّن الله المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة فقال: **﴿لاَ يَأْلونَكُمْ خَبالاً﴾** يقول: فساداً، يعني: لا يتركون الجهد في فسادكم، يعني: أنهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر، فإنهم لا يتركون جهدهم في المكر والخديعة **﴿وَدُّوا ما عَنِتُّم﴾** يعني: ما أَثِمْتُم بربكم. وقال الزَّجاج: الخبالُ في اللغةُ ذهابُ الشيء، والعَنَتُ في الأصل: المشقة. وقال القتبي: الخَبَال الفساد. وقال القتبي أيضاً: **﴿وَدُّوا ما عنتم﴾**، يعني: ما أعنتم؛ وما نزل بكم من مكروه.

ثم قال تعالى: ﴿قد بَدَتِ البَغْضَاءُ﴾ يعني: ظهرت العداوة والتكذيب لكم.

ثم قال: ﴿من أفواههم وما تخفي صدورهم﴾ والذي في صدورهم من العداوة **﴿أكبرُ﴾** مما أظهروا بأفواههم. ويقال: **﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورهم أكبر﴾**، يعني: قصدهم قتل محمد ﷺ، لأنهم كانوا يضمرون ذلك **﴿قد بينا لكم الآيات﴾** يقول: أخبرناكم بما أخفوا، وبما أبدوا بالدلالات والعلامات **﴿إن كنتم تَعْقِلون﴾** وتصدقون.

ثم قال تعالى: ﴿ها أنتم أولاء﴾ يعني: ها أنتم يا هؤلاء **﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾** لمظاهرتكم إياهم **﴿ولا يُحِبُّونكم﴾** لأنهم ليسوا على دينكم.

وقال الضحاك: معناه كيف تحبون الكفار وهم لا يحبونكم **﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾**

(1) حديث أبي هريرة: أخرجه الترمذي (٢٣٧٨) وقال: حديث حسن غريب وأبو داود (٤٨٣٣) وأحمد: ٢/ ٣٠٢.

Marfat.com

يعني: بالتوراة والإنجيل وسائر الكتب، ولا يؤمنون بذلك كله، وقد فضلكم الله عليهم بذلك، لأنهم لا يؤمنون إلا بكتابهم.

قوله تعالى: ﴿وإذا لقوكم﴾ يعني: المنافقين منهم ﴿قالوا آمنا﴾ بمحمد ﷺ أنه رسول الله ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فيما بينهم ﴿عَضُوا عليكم الأنامل﴾ يعني: أطراف الأصابع ﴿من الغيظ﴾ والحنق عليكم، فيقول بعضهم لبعض: ألا ترون إلى هؤلاء قد ظهروا وكثروا. قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قل﴾ لهم ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكم﴾ يقول: موتوا بحنقكم يعني: على وجه الدعاء والطرد واللعن، لا على وجه الأمر والإيجاب، لأنه لو كان على وجه الإيجاب، لماتوا من ساعتهم. كما قال في موضع آخر: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فماتوا من ساعتهم، فهاهنا لم يرد به الإيجاب.

وقال الضحاك: ﴿قل موتوا بغيظكم﴾، يعني: أنكم تخرجون من الدنيا بهذه الحسرة والغيظ، يعني: اللفظ لفظ الأمر، والمراد به الخبر، يعني: أنكم تموتون بغيظكم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: بما في قلوبكم من العداوة للمؤمنين، يعني: إن الله يجازيكم بذلك.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

ثم قال تعالى للمؤمنين: ﴿إن تمسسكم حسنة﴾ يعني: الظفر والغنيمة، كما أصابكم يوم بدر، ﴿تسؤهم﴾ يعني: ساءهم ذلك ﴿وإن تُصِبْكُمْ سيئة﴾ يعني: الهزيمة، كما أصابكم يوم أحد، ويقال: الشدة في العيش والقحط ﴿يفرحوا بها وإن تصبروا﴾ على أذى المنافقين واليهود ﴿وتتقوا﴾ المعصية والشرك، وهذا قول الكلبي.

وقال مقاتل: ﴿وإن تصبروا﴾ على أمر الله ﴿وتتقوا﴾ معاصيه. ﴿ولا يضركم كيدهم شيئاً﴾ يقول: عداوتهم شيئاً. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿لاَ يَضِرْكُمْ﴾ بكسر الضاد وجزم الراء، وقرأ الباقون بضم الضاد وتشديد الراء، ومعناهما قريب في التفسير يعني: لا ضير عليكم من كيدهم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الله بِمَا يعملون محيط﴾ يعني: أحاط علمه بأعمالهم، والإحاطة: أي إدراك الشيء بكماله.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ غَدَوْتَ من أهلك﴾ يعني: خرجت من منزلك بالصباح. ويقال: من

Marfat.com

عند أهلك، وهي عائشة رضي الله عنها ﴿تُبَوِّىءُ المؤمنين﴾ يعني: تهيىء للمؤمنين ﴿مقاعد للقتال﴾ يعني: مواضع للحرب. قال الكلبي: يعني: يوم أحد. وقال مقاتل: يعني: يوم الخندق ﴿والله سميع﴾ لدعائك ﴿عليم﴾ بأمر الكفار.

ثمّ قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طائفتان منكم﴾ يعني: أرادت وأضمرت طائفتان من المسلمين. وهما: حيّان بني حارثة وبني مسلمة من الأنصار ﴿أن تفشلا﴾ يعني: أن تَجْبُنَا عن القتال مع النبيّ ﷺ وترجعا ﴿والله وليهما﴾ يعني: ناصرهما ﴿وحافظهما﴾ يعني: وحافظ قلوبهما حيث لم يرجعا، لأن النبيّ ﷺ خرج يوم أحد من المدينة ومعه ألف رجل، فرجع عبد الله بن أبيّ ابن سلول مع ثلاثمائة من المنافقين ومن تابعهم، فدخل الفشل في قبيلتين من الأنصار، وهم المؤمنون، فأرادوا أن يرجعوا، فحفظ الله قلوبهم، فلم يرجعوا، فذلك قوله: ﴿والله وليُهما﴾ يعني: حافظ قلوبهما ﴿وَعَلَى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يعني: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله، وهذه كلها مِنَنٌ ذكرها الله لنبيّه ﷺ، ليعرف ويشكر الله تعالى، ويصبر على ما يصيبه من الأذى.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

ثم ذكّرهم اللهُ ببدرٍ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ﴾ يعني: أعانكم الله يوم بدرٍ ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ يعني: قليلة، ﴿فاتّقُوا الله﴾ يعني: اعرفوا هذه النعمة، واتقوا الله ولا تعصوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: يوم أحد[1] ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ ربكم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ منزلين﴾ من السماء. يقول الله: ﴿بلى إِن تَصْبِرُوا﴾ مع نبيّكم، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ معصيته بالهزيمة ﴿وَيَأْتُوكُم مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذَا﴾ يعني: العدو، يأتوكم من وجوههم، و﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ من الملائكة مُسَوِّمِين﴾ يعني: مُعلمين بالصوف الأبيض في نواصي الخيل، وفي أذنابها عليهم البياض، قد أَرْخَوْا أطراف العمائم بين أكتافهم؛ فأنزل الله تعالى عليهم يوم بدر ثلاثة آلاف، ووعدهم ليوم أُحد بخمسة آلاف. ولكنهم لما عصوا وتركوا أمر رسول الله ﷺ رجعوا عنهم، ولو أنهم صبروا لنزلت عليهم.

قرأ عاصم، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿مُسَوِّمين﴾ بكسر الواو، والباقون بالنصب ومعناهم قريب وهو: إرخاء أطراف العمائم بين الأكتاف؛ وهذا كما روي عن النبيَ ﷺ أنه قال يوم بدر:

---

(١) في نسخة «أ» يوم بدرٍ.

Marfat.com

«تَسَوَّمُوا فَإِنَّ المَلاَئِكَةَ قَدْ تَسَوَّمَتْ»(١).

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم﴾ يعني: المدد من الملائكة. قال بعضهم: إن الملائكة لم تقاتل، ولكن إنما بعثهم للبشارة ولتسكين قلوب المؤمنين، لأن في قتال الملائكة لم يكن للمؤمنين فضيلة، وإنما كانت الفضيلة للمؤمنين إذ كانوا هم الذين يقاتلون ويهزمون الكفار، ولو كان ذلك لأجل الإعانة لكان ملك واحد يكفيهم كما فعل بقوم لوط. ألا ترى أنه قال: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] فجعل الفضيلة في قلتهم في أعين الكفار ونصرتهم بالغلبة، وهذا معنى قوله: ﴿وما جَعَلَهُ الله إلاَّ بُشْرَى لَكُم﴾.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ به﴾ يعني: لتسكن به قلوبكم. وقال بعضهم: الملائكة كانوا يقاتلون، وكانت علامة ضربهم في الكفار ظاهرة، لأن كل موضع أصابت ضربتهم اشتعلت النار في ذلك الموضع، حتى إن أبا جهل قال لابن مسعود: أنت ما قتلتني، إنما قتلني الذي لم يصل سناني إلى سنبك فرسه وإن اجتهدتُ. وإنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة لتسكن قلوب المؤمنين، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة، وكل عسكر من المسلمين صبروا واحتسبوا تأتيهم تلك الملائكة ويقاتلون معهم. ويقال: الفائدة في كثرة الملائكة أنهم كانوا يدعون ويسبحون، وثواب ذلك للذين يقاتلون يومئذ. وسنذكر قصة بدر في سورة الأنفال إن شاء الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَمَا النَّصرُ إلاَّ مِنْ عِندِ الله العزيزِ الْحَكِيم﴾ يعني: ليس بكثرة العدد ولا بقلته، ولكن النصر من الله تعالى، كما قال في آية أخرى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥].

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿لِيَقطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أرسل الملائكة ونصر المؤمنين لكي يقطع طرفاً، أي: يستأصل جماعة من الذين كفروا ﴿أو يكبتهم﴾ قال الكلبي: أي يهزمهم. وقال مقاتل: يعني يخزيهم كقوله ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥] ويقال: يغيظهم ﴿فينقلبوا﴾ إلى مكة ﴿خائبين﴾ لم يصيبوا ظفراً ولا خيراً، وقد قتل منهم سبعون وأسر سبعون. ويقال: معناه وما جعله الله إلا بُشرَى لكم، ولتطمئن قلوبكم به، وليقطع طرفاً من الذين كفروا.

---

(١) عزاه السيوطي ٢/ ٣١٠ إلى ابن أبي شيبة وابن جرير عن عمير بن إسحق.

Marfat.com

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ روى جويبر عن الضحاك قال: لما كان يوم أحد، كسرت رباعية النبيّ ﷺ وأدمي ساقه، وقُتل سبعون رجلاً من الصحابة، فَهَمَّ النبيّ ﷺ أن يدعو على المشركين، فأنزل الله تعالى: **﴿لَيسَ لَكَ من الأمر شَيْءٌ﴾** يعني: ليس لك من الحكم شيء، **﴿أو يتوب عليهم﴾** يعني: كفار قريش يهديهم إلى الإسلام. وقال الكلبي: فهمّ رسول الله ﷺ أن يلعن الذين انهزموا من الصحابة يوم أحد، فنزل: **﴿لَيسَ لَكَ مِنَ الأَمرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيهِمْ﴾** يعني: الذين انهزموا **﴿أَوْ يُعَذِّبهم فإنهم ظالمون﴾** قال: فلما نزلت هذه الآية، كفّ ولم يلعن المشركين، لأنه سيؤمن كثير منهم. وقد آمن كثير منهم: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم.

قال مقاتل: كان سبعون رجلاً من أصحاب الصُفَّة، خرجوا إلى الغزو محتسبين، فقتل السبعون جميعاً، فشق ذلك على النبيّ ﷺ، فدعا الله تعالى عليهم أربعين يوماً في صلاة الغداة، فأنزل الله قوله تعالى: **﴿ليس لك من الأمر شيء﴾** ويقال: معنى قوله: **﴿أو يتوب عليهم﴾**، حتى يتوب عليهم. **﴿أو يعذبهم﴾** إن لم يكونوا من أهل التوبة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

ثم عظم نفسه فقال: **﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض﴾** يعني: جميع الخلق في ملكه وعبيده **﴿يغفر لمن يشاء﴾** وقال الضحاك: يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، **﴿ويعذب من يشاء﴾** على الذنب الصغير يعني: إذا أصرَّ على ذلك **﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾** في تأخير العذاب عنهم، حيث لم يعاقبهم قبل توبتهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذينَ آمَنوا لا تأكلوا الربا أَضْعَافاً مضاعفة﴾ قال الزَّجاج: يعني لا تضاعفوا أموالكم بالربا. وقال القتبي: هو ما يضاعف منها شيء بعد شيء، ويقال: **﴿أضعافاً﴾** عند البيع، يبيعه بأكثر من قيمته مضاعفة بعد العقد، أن يزيده في الأجل ويزيد في المال. ويقال: المضاعفة هي نعت الأضعاف كما قال تعالى: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨ وغيرها] والطيب هو نعت الحلال.

ثم قال تعالى: **﴿واتقوا الله﴾** أي: في الربا فلا تستحلوه **﴿لعلكم تفلحون﴾** لكي تنجوا من العذاب. ثم خوّفهم فقال: **﴿واتقوا النَّارَ التي أعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ﴾** يعني: خُلقت وهيئت للكافرين. وقالت المعتزلة: من أتى بالكبيرة ومات عليها فإنه يخلد في النار كالكفار، لأنه وعد لأكل الربا

Marfat.com

النار كما وعد الكفار. وقال أكثر أهل العلم والتفسير: هذا الوعيد لمن استحل الربا، ومن استحل الربا فإنه يكفر ويصير إلى النار. ويقال: معناه اتقوا العمل الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار، لأن من الذنوب ما يستوجب به نزع الإيمان ويخاف عليه، فمن ذلك: عقوق الوالدين. وقد جاء في ذلك أثر: «أن رجلاً كان عاقاً لوالدته يقال له علقمة، فقيل له عند الموت: قل لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك، حتى جاءت أمه فرضيت عنه». ومن ذلك: قطيعة الرحم، وأكل الربا، والخيانة في الأمانة. وذكر أبو بكر الوراق عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: أكبر ما في الذنوب، التي ينزع الإيمان من العبد عند الموت. ثم قال أبو بكر: فنظرنا في الذنب الذي ينزع الإيمان، فلم نجد شيئاً أسرع نزعاً للإيمان من ظلم العباد.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الله والرَّسُولَ﴾ يعني: أطيعوا الله في الفرائض، والرسول في السنن. ويقال: **﴿وأطيعوا الله﴾** في تحريم الربا، **﴿والرسول﴾** فيما بلغكم من تحريم الرِّبا **﴿لعلّكم تُرْحَمُونَ﴾** ولا تُعَذَّبُونَ.

قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ قرأ نافع ومن تابعه من أهل المدينة، وابن عامر ومن تابعه من أهل الشام: **﴿سارعوا﴾** بغير الواو على معنى الابتداء. وقرأ الباقون ﴿وسارعوا﴾ بالواو على معنى العطف. قال الكلبي: معناه وسارعوا إلى التوبة من الربا. وقال مقاتل: وسارعوا إلى الأعمال الصالحة التي هي مغفرة لذنوبكم وإلى الجنة. وقال الضحاك: يعني سارعوا إلى النجاء الأكبر، إلى الصف المقدم في الصلاة، وإلى الصف المقدم في القتال. ويقال: ﴿وسارعوا﴾ حتى لا تفوتكم تكبيرة الافتتاح.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال القتبي: يعني: سعتها، ولم يرد به العَرْض الذي هو خلاف الطول. والعرب تقول: بلاد عريضة، أي واسعة. ويقال: عَرْضُ الجنة كعرض سبع سموات، وكعرض سبع أرضين، لو ألزق بعضها إلى بعض. وإنما ذكر العرض ولم يذكر الطول، لأن طولها لا يعرف ولا يدرك. وقال الكلبي: الجنان أربع: جنة عدن وهي الدرجة العليا، وجنة المأوى، وجنة الفردوس، وجنة النعيم. كل جنة منها كعرض السموات والأرض لو وصل بعضها إلى بعض. ويقال: لم يرد بهذا التقدير، ولكنه أراد بذلك: أنها أوسع شيء رأيتموه. وقال السدي: لو كسرت السموات والأرض وصرن خردلاً، فبكل خردلة لله جنة عرضها كعرض السموات والأرض.

حدثنا محمد بن داود، **قال: حدثنا** أحمد بن يحيى، **قال: حدثنا قتيبة** بن سعيد، **قال:**

Marfat.com

حدثنا يعقوب، عن أبي حازم قال: أخبرني سهل بن سعد قال: «إن أدنى أهل الجنة يقال له: تَمَنَّ، فيقول: أعطني كذا أعطني كذا، حتى إذا لم يجد شيئاً يتمنى لُقِّن فيقال له: قل كذا، قل كذا، فيقول. فيقال: له لك ذلك ومثله معه». وفي رواية أبي سعيد الخدري: «لك هذه وعشرة أمثالها معها».

ثم قال تعالى: ﴿أُعِدَّت للمتقين﴾ يعني: الجنة.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

ثم نَعَتَ المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفقُونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ﴾ إلى آخر الآية. نعت للمتقين. ويقال: إن كل نعت من ذلك هو نعت على حدة، فكأنه يقول: أعدت للمتقين للذين ﴿ينفقون من السراء﴾ إلى آخر الآية.

قوله: ﴿في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ﴾ يعني: ينفقون أموالهم في حال اليسر وفي حال العسر، وهذا قول الكلبي وقال مقاتل، والضحاك: في حال السعة والشدة. ويقال: في الصحة والمرض. ويقال: ﴿في السراء﴾، يعني: في حال الحياة. وفي ﴿الضراء﴾ يعني: بعد الموت. ويقال في سراء المسلمين في عرسهم وولائمهم، والضراء في نوائبهم ومآتمهم. ويقال: ﴿في السَّرَّاءِ﴾ يعني: النفقة التي تسرّكم، مثل النفقة على الأولاد والأقربين ﴿والضراء﴾ النفقة على الأعداء والكاشحين. ويقال ﴿في السرّاء﴾ يعني: على الأغنياء يضيفهم ويهدي إليهم ﴿والضَّرَّاءُ﴾ يعني: على أهل الضر يتصدق عليهم.

وقال: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ يعني: المرددين الغيظ في أجوافهم، وأصله في اللغة: كظم البعير إذا رَدَّد جِرَّته. ومعناه: الذين إذا أصابهم الغيظ تجاوزوا ولم يعاقبوا.

ثم قال تعالى: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال الكلبي: يعني: عن المملوكين. ويقال: ﴿والعافين عن الناس﴾ بعد قدرتهم عليهم، فيعفو عنهم ﴿والله يُحِبُّ المحسنين﴾ من الأحرار والمملوكين، ويقال: الذين يحسنون بعد العفو ويزيدون عليه إحساناً. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ كَظَمَ غَيظاً وَهُوَ يَقدِرُ عَلَى أَنْ ينفذَهُ ثُمَّ لَمْ يُنفِذْهُ زَوَّجَهُ الله مِنَ الحُورِ العينِ حَيثُ يَشاءُ»(١)، وفي خبر آخر: عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ قَطُّ إلاّ زَادَهُ الله بِهَا عِزّاً»(٢).

---

(١) عزاه السيوطي: ٢/ ٣١٦ إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة. وعزاه من حديث معاذ بن أنس إلى الترمذي وحسنة وأبي داود وأحمد والبيهقي في الشعب. أخرجه الترمذي (٢٠٢١) وأبو داود (٤٧٧٧) والبيهقي: ٨/ ١٦٠ وأحمد: ٣/ ٤٤٠.

(٢) نسبه صاحب موسوعة أطراف الحديث إلى أحمد ٢/ ٤٣٨ والدر المنثور: ٦/ ٩.

Marfat.com

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والذين إذا فَعَلُوا فاحشة﴾ نزلت في شأن رجل تَمَّار، جاءت امرأة تشتري منه تمراً، فأدخلها في حانوته وقبلها ثم ندم على ذلك، فنزلت هذه الآية. ويقال: نزلت هذه الآية في رجل مَسّ امرأة أخيه في الله، وكان أخوه خرج غازياً، ثم ندم وتاب. ويقال: إنها نزلت في شأن بهلول النباش، تاب عن صنيعه فنزلت هذه الآية. فقال تعالى: **﴿والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أنفسهم﴾** يعني: القُبْلَة واللمس. ويقال: الفاحشة كل فعل يستوجب به الحد في الدنيا **﴿أو ظَلَمُوا أنفسهم﴾** ما دون ذلك. ويقال: الفاحشة ما استوجب به النار، **﴿أو ظلموا أنفسهم﴾** ما استوجب به الحساب والحبس. وقال إبراهيم النخعي: الظلم هاهنا تفسير الفاحشة فكأنه يقول: **﴿والذين إذا فعلوا فاحشة وظلموا أنفسهم﴾** ثمّ قال: **﴿ذَكَروا الله﴾** يعني: خافوا الله، ويقال: ذكروا مقامهم بين يدي الله، ويقال: ذكروا عذاب الله. **﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾** يعني: الاستغفار باللسان والندامة بالقلب. ويقال: الاستغفار باللسان بغير ندامة للقلب توبة الكذابين. وروي عن الحسن البصري أنه قال: «استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار الكثير».

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ الله﴾ يعني: لا يغفر الذنوب إلا الله **﴿ولم يُصِرُّوا على مَا فَعَلُوا﴾** يعني: لم يقيموا على ما فعلوا من المعصية **﴿وهم يَعْلَمُونَ﴾** أنها معصية فلا يرجعون. ويقال: في الآية تقديم وتأخير، فكأنه يقول: والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم، ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله **﴿أولئك﴾** يعني: أهل هذه الصفة **﴿جزاؤهم﴾** يعني: ثوابهم **﴿مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعم أجر العَامِلِين﴾** يعني: نعم ثواب العاملين الجنة، وهو قول الكلبي. وقال مقاتل: نعم ثواب التائبين من الذنوب، الجنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقد خلت من قبلكم سنن﴾ يعني: قد مضت لكل أمة سنة ومنهاج، فإذا اتبعوها رضي الله عنهم. قال الكلبي: قد مضت لكل أمة سننهُ بالهلاك فيمن كان قبلكم، **﴿فانظروا﴾**: أي: فاعتبروا **﴿كيف كان جزاء المكذبين﴾**. أي جزاء المكذبين وقال مقاتل نحو هذا، وقال: يخوف الله هذه الأمة بمثل عذاب الأمم الخالية. وقال السدي: **﴿فسيرُوا في الأرْضِ﴾** يعني: اقرؤوا القرآن **﴿فانظروا كيف كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** لأن من لم يسافر فإنه لا

Marfat.com

يعرف ذلك، وأما من قرأ القرآن فإنه يعرف ذلك. وقال الحسن: اقرؤوا القرآن وتدبروا فيه، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾ يعني: القرآن بيان للناس من الضلالة ﴿وَهُدًى﴾ من العمى ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ من الجهل، ويقال: ﴿هدى وموعظة﴾ أي: كرامة ورحمة لِلْمُتَّقِينَ ﴿وَلاَ تَهِنُوا﴾ يعني: ولا تضعفوا وقيل: ولا تجبنوا، ويقال: ولا تَعْجزوا عن عدوكم.

ثم قال: ﴿وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ وقيل: يعني على ما أصابكم يوم أحد من القتل والهزيمة ﴿وأنتم الأَعْلَوْنَ﴾ يعني: الغالبون، يقول: آخر الأمر لكم. ويقال: ﴿وأنتم الأعلون﴾ في الحجّة. ويقال: هذا وعد لأصحاب محمد ﷺ في المستأنف ﴿وأنتم الأعلون﴾ يعني: الغالبون على الأعداء بعد أحد، فلم يخرجوا بعد ذلك في عسكر إلا ظفروا في عهد رسول الله ﷺ، وفي كل عسكر كان بعد رسول الله ﷺ، إذا كان فيه واحد من الصحابة كان الظفر لهم، فهذه البلدان كلها إنما فتحت في عهد أصحاب رسول الله ﷺ، ثم بعد انقراضهم ما فتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتحون في ذلك الوقت. ويقال: في هذه الآية بيان فضل هذه الأمة، لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه، لأنه قال لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] وقال لهذه الأمه: ﴿وأنتم الأَعْلَون﴾ ويقال: اشتُقَّت هذه اللفظة من اسم الله تعالى، لأن اسمه العلي الأعلى. وقال للمؤمنين: ﴿وأنتم الأعْلَون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: إن كنتم مصدقين بوعد الله. ويقال: معناه إذ كنتم مؤمنين. ويقال: في الآية تقديم وتأخير، فكأنه قال: ولا تهنوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين وأنتم الأعلون.

ويقال. هذا وعد لهم بأنهم غالبون إن ثبتوا وصدقوا، فلو أنهم ثبتوا وصدقوا لغَلَبُوا كما غلَبوا يوم بدر، ولكنهم تركوا أمر رسول الله ﷺ فرجع الأمر عليهم. وكانت القصة في ذلك أنهم لما غلَبُوا المشركين يوم بدر، وأصابوا منهم ما أصابوا - وسنذكر في سورة الأنفال قصة بدرٍ إن شاء الله تعالى، فرجع أبو سفيان بن حرب بالعير إلى مكة، وانهزم المشركون، وذهب عكرمة بن أبي جهل، ورجال أصيب أبناؤهم وآباؤهم وإخوانهم ببدر إلى أبي سفيان بن حرب وهو رئيس مكة، فكلموه، وأتاه كل من كان له في ذلك العير مال، فقالوا: إن محمداً قد قتل خياركم، فاستعينوا بهذا المال على حربه، ففعلوا. قال الضحاك: قد أعانهم أبو سفيان بمائة

Marfat.com

راحلة وما يصلحها من السلاح والزاد، فسارت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل، وعليهم أبو سفيان بن حرب، وكان في القوم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل وذلك قبل دخولهم في الإسلام، فلم يبقَ أحد من قريش إلا وقد خرج أهله معه وولده يجعلهم خلف ظهره ليقاتل عنهم. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خطب الناس، فقال: **«إنّي رَأَيتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّ فِي سَيْفِي ثلمةً فَأَوَّلْتُهَا مصيبةً فِي نَفْسِي، وَرَأَيتُ بُقُوراً قَدْ ذُبِحَتْ، فَأَوَّلْتُهَا قَتْلَى فِي أَصْحَابِي، وَرَأَيتُ كَأَنِّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، فَأَوَّلْتُهَا المَدِينَةَ فأشِيرُوا عَلَيَّ ما ترون»**. وكره الخروج إليهم، وكان رأي عبد الله بن أبيّ ابن سلول مع رسول الله ﷺ بأن لا يخرج. ولكنه كان منافقاً فقال: يا رسول الله لا تخرج إليهم فإنا ما خرجنا إلى عدوّ قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا إلا أصبنا منه. فقال رجال من المسلمين ممن أكرمهم الله بالشهادة وغيرهم ممن فاتته بدر: اخرج يا رسول الله، لكي لا يرى أعداء الله أنا قد جَبُنّا لهم أو ضعفنا عنهم. فلم يزالوا به حتى دخل ولبس لأمته، ثم خرج النبيّ ﷺ إليهم وقد خرج الناس فقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ؛ فقالوا: يا رسول الله: قد استكرهناك وما كان لنا ذلك، فإن شئت فاخرج، وإن شئت فاقعد. فقال النبيّ ﷺ: **«مَا يَنْبَغِي لنبيٍّ أَنْ يَضَعَ سِلاَحَهُ إِذَا لَبِسَهُ حَتَّى يُقَاتِلَ»**. فخرج رسول الله ﷺ، وسار إلى أحدٍ، فانخذل عبد الله بن أبي ابن سلول. قال في رواية الكلبي: فرجع معه ثلث الناس، وبقي مع رسول الله ﷺ نحو سبعمائة رجل. وقال في رواية الضحاك: فانخذل في ستمائة رجل من اليهود، وبقي مع النبيّ ﷺ ألف رجل من المؤمنين الطيبين. ثم خرج رسول الله ﷺ حتى نزل بالشِّعب من أحد، وأمر عبد الله بن جبير على الرُّماة وقال لهم: **«لا تَبْرَحُوا عن هَذَا المَوْضِعِ، وَاثْبُتُوا هاهنا إِنْ كَانَ الأَمْرُ عَلَيْنَا أَوْ لَنَا»**. وقال في رواية الكلبي: كان الرماةُ خمسين رجلاً. وقال في رواية الضحاك: كانوا سبعين رجلاً. فجعل رسول الله ﷺ ظهره إلى أُحد، ودنا المشركون وأخذوا في الحرب، وقامت هند امرأة أبي سفيان وصواحبتها حين حميت الحرب يضربن بالدُّفوف خلف قريش ويقلن:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ نَمْشِي على النَّمَارِقْ
إن تُقْبِلُوا نُعَانِقْ أو تُدْبِرُوا نُفَارِقْ
المِسْكُ في المفارِقْ والدُّرُّ في المخَانِقْ
فِرَاقَ غَيْرَ وَامِقْ

فقاتل أبو دجانة في نفر من المسلمين قتالاً شديداً، وقاتل علي بن أبي طالب حتى التوى سيفه، وقاتل سعد بن أبي وقاص، وكان النبيّ ﷺ يقول لسعد: **«ارمِ فداكَ أبِي وأمّي»**(١) فقتلوا

(١) حديث علي: أخرجه البخاري (٢٩٠٥) (٤٠٥٨) ومسلم (٢٤١١) والترمذي (٢٨٢٨) (٢٨٢٩) (٤٠٥٨) وأحمد: ١/ ١٤٤ وابن ماجة (١٢٩) والبغوي (٣٩٢٠). وحديث سعد عند البخاري (٣٧٢٥) (٤٠٥٦) ومسلم (٢٤١٢) والترمذي (٢٨٣٠) وابن ماجة (١٣٠).

Marfat.com

جماعة من المشركين، وَصَدَقَهم الله وعده وأنزل نصره، حتى كانت هزيمة القوم لا شكّ فيها، وكشفوهم عن معسكرهم. قال الزبير: رأيت هنداً وصواحبتها هوارب، فلما نظر الرماة إلى القوم قد انهزموا أقبلوا على النهب، فقال لهم عبد الله بن جُبَيْر: لا تَبْرحوا عن هذا الموضع، فإن رسول الله ﷺ قد عَهِدَ إليكم. فلم يلتفتوا إلى قوله، وظنوا أن المشركين قد انهزموا. فبقي عبد الله بن جبير مع ثمانية نفر، فخرج خالد بن الوليد مع خمسين ومائتي فارس من قِبَل الشِّعب، وقتلوا من بقي من الرماة، ودخلوا خلف أقفية المسلمين، وتفرق المسلمون، ورجع المشركون، وحملوا حملةً واحدة، فصار المسلمون ثلاثة أنواع: بعضهم جريح، وبعضهم قتيل، وبعضهم منهزم.

وكان مصعب بن عمير يَذُبُّ عن رسول الله ﷺ حتى قُتِلَ دونه، ثم قام زياد بن السكن فقاتل بين يدي رسول الله ﷺ حتى قُتِلَ، وخلص الحربُ إلى رسول الله ﷺ، وقذف بالحجارة حتى وقع بشفتيه، وأصيبت رباعيَتُه، وكلِمَتْ شفته، وأدمي ساقه. فقال سفيان بن عيينة: لقد أصيب مع رسول الله ﷺ نحو ثلاثين رجلاً، كلهم جثوا بين يدي رسول الله. أو قال: يتقدم بين يديه. ثم يقول: وجهي لوجهك الوقاء، ونفسي لنفسك الفداء، وعليك سلام الله غير مودع. فرجع الذي قتل مصعب بن عمير، فظن أنه كان رسول الله ﷺ. فقال للمشركين: قتلت محمداً. فصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قُتل. ويقال: كان ذلك إبليس لعنه الله، فولى المسلمون هاربين متحيّرين، وجاء إبليس لعنه الله ونادى في المدينة: ألا إن محمداً قد قتل وأخَذَت النسوة في البكاء في البيوت، فأقبل أَنَس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله في رِجَالٍ من المهاجرين والأنصار، فقال لهم: ما يُحبسُكُم؟ قالوا: قتل محمد. فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا كراماً على ما مات عليه نبيُّكم ﷺ. ثم أقبل نحو العدو، فقاتل حتى قتل.

قال كعب بن مالك: فأوّل من كنت عرفت من المسلمين، عرفت رسول الله ﷺ، عرفت عينيه من تحت المغفر تزهران، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ. فأشار إليّ بأنّ اسكت. وقال أنس بن مالك: قد شجّ وجه رسول الله ﷺ، وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول: **«كَيْفَ يُفلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ رَسُولِ الله ﷺ بِالدَّمِ وهو يدعوهم إلى ربهم»**. ويقال: إن أصحابه لما اجتمعوا قالوا: يا رسول الله، لو دعوت الله على هؤلاء الذين صنعوا بك؟ فقال ﷺ: **«لَمْ أُبْعَثْ طَعَّاناً وَلاَ لَعَّاناً، وَلَكِن بُعِثْتُ دَاعِياً وَرَحْمَةً اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»** فجاءه أُبَيّن خلف الجمحي وهو يقول: يا محمد لا نَجوتُ إن نجوتَ مني، فهمّ المسلمون به، فقال لهم. **«دَعُوهُ»** حتى دنا منه، فتناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ورماه به، فخدشه في عنقه خدشاً غير كثير، وقد كان قبل ذلك لقي رسول الله ﷺ بمكة وقال: عندي فرس أعلفه كل يوم فرق ذرة، أقتلك عليه. فقال له رسول

Marfat.com

الله ﷺ: «بَلْ أَنَا أَقْتُلُكَ عليه إنْ شَاءَ الله». فلما خدشه رسول الله ﷺ في عنقه رجع إلى قريش وهو يقول: قتلني محمد. فقالوا له: ما بك من طعن. فقال: بلى، لقد قال لي: أنا أقتلك، والله لو بصق علي بعد تلك المقالة لقتلني. فمات قبل أن يصل إلى مكة في الطريق.

وكان رسول الله ﷺ واقفاً عند أحد وقد اجتمع إليه بعض أصحابه، فعلت عليه من قريش في الجبل فقال رسول الله ﷺ: «لاَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا». فأقبل عمر ورهط من المهاجرين، فقاتلوهم حتى أهبطوهم من الجبل. وقد كان جبير بن مطعم قال لمملوك له يقال له وحشي: إن أنت قتلت محمداً جعلت لك أعنة الخيل، وإن أنت قتلت علي بن أبي طالب جعلت لك مائة ناقة كلها سود الحدقة، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حرٌ. فقال وَحْشي: أما محمد فعليه حافظ من الله لا يخلص إليه أحد، وأما عَلِيٌ فما برز إليه رجل إلا قتله، وأما حمزة فرجل شجاع، فعسى أن أُصادفه في غِرَّته فاقتله مكانه. وكانت هند كلما مرّ بها وَحْشي أو مرّت به، قالت له: إيهاً أبا دسمة، اشفِ واستشْفِ. فكمن وحشي خلف صخرة وكان حمزة قد حمل على قوة من المشركين فلما رجع من حملته مرَّ بوحشي وهو خلف الصخرة، فزرقه بالمزراق فأصابه فسقط، فذهبت هند ابنة عتبة والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى، يجدعْن الآذان والأنوف، وشَقَّت هند بطن حمزة وأخذت كبده ومضغته، ثم صعدت هند على صخرة وهي تنادي بأعلى صوتها: نَحْنُ جَزَيْنَاكم بيوم بَدْر. وأقبل أبو سفيان وهو يصرخ بأعلى صوته: اعلُ هُبَلْ يوماً بيوم بدر. فقال النبيّ ﷺ لعمر: «أَجِبْهُ يَا عُمَرُ». فأجابه عمر: «الله أعلى وأجل لا سواه، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار».

ثم ركب النبيّ ﷺ بغلته، وظاهر بين درعيه، وأخرج يده من جيب الدرع، وسلّ سيفه ذا الفقار، وباشر القتال بنفسه، وحمل على المشركين والتأم إليه المسلمون فأعانوه، وهزم الله جمع المشركين، وقُتل يومئذ من المسلمين سبعون رجلاً: أربعة نفر من المهاجرين، وستة وستون من الأنصار. وقتل يومئذ من المشركين تسعة عشر رجلاً أو أكثر، وكثرت القروح في أصحاب رسول الله ﷺ، فعزّاهم الله تعالى: في ذلك بقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر والكسائي وحمزة: ﴿قُرْحٌ﴾ بضم القاف والباقون بالنصب. قال الفراء: القَرْح والقُرْح واحد. ويقال: ﴿القَرْح﴾ بالنصب مصدر، و﴿القُرح﴾ بالضم اسم. ويقال: القَرْحُ بالنصب الجراحة بعينها، والقُرح بالضمّ ألم الجراحة. يعني: أصابتكم الجراحات يوم أحد ﴿فقد مسّ القوم قرح مثله﴾ يقول: قد أصاب المشركين جراحات مثلها يوم بدر. ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ يقول: يوم لكم ويوم عليكم، وهذا كما يقال في الأمثال: الأيام دُوَل والحرب سِجَال.

ثم بَيّن المعنى الذي يداول مرة لهم ومرة عليهم، فقال تعالى: ﴿وليَعْلَم الله الَّذِين آمنوا﴾ يعني: يبيِّن المؤمن من المنافق أنهم يشكون في دينهم أم لا، لأن المؤمن المخلص يتبين حاله

Marfat.com

عند الشدة والبلايا. وهذا كما روي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: «الذهب والفضة يختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلايا، والاختبار من الله تعالى إظهار ما علم منه من قبل، فذلك قوله تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾: يعني ليبين الله الذين يعلم إيمانهم، لأنه يعطى الثواب بما يظهر منه لا بما يعلم منه، وكذلك العقوبة. ألاَ ترى أنه عَلِم من إبليس المعصية في المستأنف ثم لم يلعنه ما لم يظهر منه؟

ثم قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ منكم شهداء﴾ يعني: لكي يتخذ منكم شهداء، وإنما كان لأجل ذلك، لا لأجل حب الكفار ﴿والله لا يُحِبُّ الظَّالمين﴾ أي الجاحدين.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وليمحّصَ الله الَّذِينَ آمنوا﴾ يعني: لكي يُطهِّر المؤمنين ويكفر ذنوبهم. والتمحيص في اللغة: الاختبار والتطهير. والله بَيّن أنه يُداول الأيام بين الناس لكي يَظْهر المؤمن من المنافق، ويكرم بعض المؤمنين بالشهادة لينالوا ثواب الشهداء، وقد ذكر ثوابهم بعد هذا في هذه السورة، وليكفر ذنوبهم.

ثم قال: ﴿وَيَمْحَقَ الكافرين﴾ يعني: يهلكهم ويستأصلهم، لأنهم يجترئون فيخرجون مرة أخرى فيستأصلهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أم حسِبْتُمْ أنْ تدخلوا الجَنَّة﴾ قال مقاتل: بيّن للمؤمنين أنه نازل بهم الشدة والبلاء في ذات الله لكي يصبروا ويحتسبوا. فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّة﴾ يقول: أظننتم أن تدخلوا الجنة بغير شيء قبل أن تصيبكم الشدة في ذات الله؟ فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ قال مقاتل: أي ولما يرى الله الذين جاهدوا منكم. ويقال: ولما يظهر جهاد الذين جاهدوا منكم ﴿وَيَعْلَم الصَّابرين﴾ الذين يصبرون عند البلاء. ويقال: ويعلم الصابرين الكارّين أي: غير الفارين عن القتال.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْموتَ من قَبْلِ أَنْ تلْقوْه﴾ وذلك أنه لما وصف لهم الله تعالى بما نزل بشهداء بدر من الكرامة، فقالوا: ليتنا نجد قتالاً فنقتل في ذلك لكي نصيب مثل ما أصابوا، فلما لقوا القتال يوم أحد هربوا، فعاتبهم الله بقوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ يعني: القتال والشهادة من قبل أن تلقوه، ﴿فقد رَأَيْتُمُوه﴾ يوم أحد ﴿وأنتم تنظرون﴾ إلى السيوف فيها الموت. وقال الزجاج: معناه ﴿ولقد كنتم تمنون﴾ القتال، لأن القتال سبب الموت، ﴿فقد رأيتموه﴾، يعني: وأنتم بصراء، كقولك: رأيت كذا وكذا ولم يكن في عينيك علّة. ويقال:

Marfat.com

﴿وأنتم تنظرون﴾ إلى محمد ﷺ. وقال القتبي: ﴿قد رأيتموه﴾ يعني: أسبابه، وهو السيف.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ لأنهم هربوا حين سمعوا بقتله، فقال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ كسائر الرسل ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ يعني: مثله ﴿أفإن مات أو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ على أعقابكم﴾ يعني: رجعتم إلى دينكم الشرك. ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ يعني: يرجع إلى الشرك بعد الإسلام ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ يقول: لن ينتقص من ملكه وسلطانه شيء، وإنما يضرّ نفسه ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ يعني: الموحدين الله في الآخرة الجنة. ويقال: ﴿وسيجزي الله﴾ المؤمنين المجاهدين الجنة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت﴾ يعني: قبل أجلها ﴿إلا بإذن الله كتاباً مؤجَّلاً﴾ يقول: في موتها كتاباً مؤجلاً في اللوح المحفوظ، فلا يسبق أجله. وقال الزجاج: قوله ﴿كتاباً مؤجلاً﴾، أي: كتب كتاباً ذا أجل، وهو الوقت المعلوم، وذكر الكتاب على معنى التأكيد. وفي هذه الآية إبطال قول المعتزلة، لأنهم يقولون: إن من قتل فإنما يهلك قبل أجله، وكل ما ذبح من الحيوان كان هالكاً قبل أجله، لا يجب على القاتل القصاص والدية في الأدمي والضمّان في الحيوان ولو كان بأجلٍ لما وجب شيء بقتله، وقلنا: قد بيّن الله تعالى في هذه الآية أنه لا تهلك نفس قبل أجلها.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنها﴾ قال الكلبي: يعني يريد ثواب الدنيا بالعمل الذي افترض الله عليه ﴿نؤته منها﴾ يعني: نعطه ما أحبّ فيها، وما له في الآخرة من نصيب ﴿وَمَنْ يُرِد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين﴾ في الآخرة. ومعناه: أن عمله للرياء لا يكون له في الآخرة ثواب. ومن الناس من قال: إن الرياء يدخل في النوافل، ولا يدخل في الفرائض، لأن الفرائض واجبة على جميع الناس. وقال بعضهم: يدخل في الفرائض ولا يدخل في النوافل، لأنه لو لم يأتِ بها لا يؤاخذ بها، فإذا أتى بهذا القدر ليس عليه غير

Marfat.com

ذلك. وقال بعضهم: كلاهما سواء، فالرياء يدخل في الفرائض والنوافل جميعاً. وهذا القول أصح. لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

ثم إن الله تعالى أخبرهم بما لَقِيَتِ الأنبياءُ والمؤمنون قبلهم، فيعزِّيهم ليصبروا فقال تعالى سبحانه: ﴿وكأيِّن من نبي قاتل معه﴾ قرأ ابن كثير ﴿وكأين﴾ بمدّ الألف والهمزة، وقرأ الباقون ﴿كأين﴾ بغير مد وفتح الهمزة وباء مكسورة مشدَّدة، ومعناهما واحد و﴿كأين﴾ للتكثير. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿وكأيِّن من نبي قُتِل﴾، بضم القاف وكسر التاء. وقرأ الباقون: ﴿قاتل﴾. فمن قرأ ﴿قاتل﴾ فمعناه: كم من نبيّ قاتل معه جموع كثيرة. ومن قرأ ﴿قتل﴾ معناه: وكم من نبي قتل وقتل ﴿مَعَهُ﴾ جماعة كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿رِبِّيُّون كثير﴾ قال الكلبي: الربية الواحدة: عشرة آلاف. وقال الزجاج: هاهنا قراءتان ﴿رُبِّيُّون﴾ بضم الراء، ﴿ورِبِّيُون﴾ بالكسر، أما بالضم: الجماعة الكثيرة، ويقال: عسرة آلاف، وأما الرِّبِّيُّون بالكسر، العلماء الأتقياء الصبراء على ما يصيبهم في الله. ويقال: وكأين من نبي قتل يعني: كم من نبيّ قتل وكان معه ربيون كثير. ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ بعد قَتْلِهِ عن القتال، وما عجزوا بما نزل بهم من قتل أنبيائهم وأنفسهم ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ في سبيل الله وَما ضَعُفُوا﴾ لَعدُوِّهم، ويقال: وما جبنوا.

ثم قال تعالى: ﴿وما استكانوا﴾ يقول: وما خضعوا لعدوهم، ولكنهم صبروا ﴿والله يُحِبُّ الصَّابِرِين﴾ فكأنه يقول للمؤمنين: فهلا قاتلتم مع نبيكم ﷺ وبعد قتله وإن قتل، كما قاتلت القرون الماضية من قبلكم إذا أصيبت أنبياؤهم.

ثم أخبر عن قول الذين قاتلوا مع النبيين فقال تعالى: ﴿وما كَانَ قولهم﴾ عند قتل أنبيائهم ﴿إلا أنْ قَالُوا رَبَّنَا اغفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا﴾ أي دون الكبائر ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ العظام من الذنوب ﴿وثَبِّتْ أقْدَامنا﴾ عند القتال ﴿وانصُرْنَا على القوم الكافرين﴾ معناه: هلاّ قلتم كما قالوا، وقاتلتم كما قاتلوا. وقرأ بعضهم ﴿وما كان قولُهم﴾ بالضم، والمعنى في ذلك: أنه جعل القول اسم كان، فيكون معناه: وما كان قولهم إلا قولهم ربنا اغفر لنا. ومن قرأ بالنصب، جعل القول خبر كان، وجعل الاسم ما بعده.

قوله تعالى: ﴿فآتاهم﴾ بما قالوا. يقول: أعطاهم الله ﴿ثواب الدنيا﴾ بالغنيمة والنصرة ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ أي: الجنة ﴿والله يحبّ المحسنين﴾ المؤمنين المجاهدين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تُطيعوا الذين كفروا﴾ يعني: المنافقين ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ كفاراً بعد الإيمان ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ إلى دينكم الأول ﴿بل الله مولاكم﴾ يقول:

Marfat.com

أطيعوا الله فيما يأمركم، هو مولاكم يعني: وليكم وناصركم ﴿وهو خير الناصرين﴾ أي المانعين من كفار مكة.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم، وحمزة: ﴿الرُّعْب﴾ بتسكين العين. وقرأ ابن عامر والكسائي: ﴿الرُّعُب﴾ بضم العين. وأصله الضم، إلا أنه إذا اجتمع ضمتان حذفت إحداهما عند من قرأ بالجزم. ومعنى الآية: سنلقي الهيبة في قلوب المشركين، وذلك بعد هزيمة المؤمنين، قذف الله تعالى في قلوب الذين كفروا الرعب فانهزموا إلى مكة. ويقال: حين صعد خالد بن الوليد الجبل، قصد رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ فرجع خالد منهزماً. ويقال: عنى به يوم الأحزاب، ألقي في قلوبهم الرعب فانهزموا ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بالله﴾ يعني بأنهم أشركوا بالله ﴿ما لم يَنَزِّل به سُلْطَاناً﴾ يعني: كتاباً فيه عذر وحجة لهم بالشرك ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ يعني: مصيرهم إلى النار في الآخرة ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني: وبئس مثوى المشركين النار.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

• قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ﴾ وذلك أنهم لما أخذوا في الحرب انهزم المشركون، فلما أخذ بعض المسلمين في النهب والغارة، رجع الأمر عليهم وانهزم المسلمون، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَه﴾. ﴿إذ تَحُسُّونهم بإذنه﴾ يقول: تقتلونهم بأمره. وقال

Marfat.com

القتبي: ﴿تحسونهم﴾ يعني: تستأصلونهم بالقتل، يقال: جراد محسوس إذا قتله البرد.

قوله تعالى: ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم﴾ يعني: جَبُنْتُمْ من عدوكم، واختلفتم في الأمر ﴿وعصيتم﴾ أمر الرسول ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ يعني: أراكم الله ﴿ما تحبون﴾ من النصرة على عدوكم، وهزيمة الكفار والغنيمة.

ثم قال تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ يعني: يطلب الغنيمة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا عند المشركين حتى قتلوا. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «كنا لا نعرف أن أحداً يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية، فَعَلِمْنا أن فينا من يريد الدنيا» ﴿ثم صَرَفَكم عنهم﴾ بالهزيمة من بعد أن أظْفَركم عليهم ﴿ليبتليكم﴾ بمعصية الرسول بالقتل والهزيمة ﴿ولقد عفا﴾ الله ﴿عنكم﴾ ولم يعاقبكم عند ذلك، فلم تقتلوا جميعاً ﴿وَالله ذُو فَضْلٍ﴾ في عفوه وإنعامه ﴿على المؤمنين﴾ بالعفو والإنعام.

قوله تعالى: ﴿إذ تُصْعِدُون﴾ يعني: إلى الجبل هاربين، حيث صعدوا الجبل منهزمين من العدو، وكان رسول الله ﷺ يدعوهم: «يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ أَنَا رَسُولُ الله» فلم يلتفت إليه أحد، حتى أتوا على الجبل. فذلك قوله تعالى: ﴿إذ تصعدون﴾ يعني: الجبل، وهذا قول الكلبي. وقال الضحاك: ﴿إذ تصعدون﴾ في الوادي منهزمين. وقال القتبي: يعني تبعدون في الهزيمة في الوادي، يقال: أصعد في الجبل إذا أمرع في الهزيمة. وقرأ الحسن: ﴿تَصْعَدُون﴾ بنصب التاء، أي: تَصْعَدُون الجبل. وقرأ العامة بضمّ التاء.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تَلوون على أحدٍ﴾ يقول: ولا تقيمون على رسول الله ﷺ، ويقال: لا يقيم بعضكم على بعض ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكم في أخراكم﴾ يقول: مِنْ خَلْفِكم ﴿فأثابكم غمّاً بغم﴾ يقول: جعل ثوابكم غماً على غمّ، ويقال: غماً متصلاً بالغم. فأما الغم الأول: فإشراف خالد بن الوليد بخيل المشركين وهم في ذلك الجبل، وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: الغم الأول ما فاتهم من الفتح والغنيمة، فاجتمعوا وكانوا يذكرون فيما بينهم ما أصابهم في ذلك اليوم. والغم الثاني: إذ صعد خالد بن الوليد، فلما عاينوه أذْعَرهُم ذلك، أي: خوفهم ذلك، فأنساهم ما كانوا فيه من الحزن، فذلك قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من الغنيمة والفتح ﴿ولا ما أصابكم﴾ من القتل والهزيمة. ويقال: الغم الأول: الجُرح والقتل، والغم الثاني: أنهم سمعوا بأن النبيّ ﷺ قد قتل فأنساهم الغم الأول.

ثم قال: ﴿والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾ يعني: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجازيكم بها.

قوله تعالى: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أَمَنَةً نُعاساً﴾ الأمنة في اللغة: الأمن. قال الكلبي: إذا أَمِنَ القوم نعسوا. وقال الضحاك: النعاس عند القتال أَمَنَةٌ من الله تعالى. ويقال: الذي يصيبه الغم والهزيمة لا يكون له شيء أحسن من النعاس، فيذهب عنه همه، فأصاب القومَ النعاسُ، فذهب عنهم الغم وأمنوا.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿يَغشَى طائفة منكم﴾ يعني: النعاسَ يغشى ويعلو ﴿طائفة منكم﴾ من كان من أهل الصدق واليقين. قرأ حمزة والكسائي: ﴿تغشى﴾ بالتاء. وقرأ الباقون بالياء. فمن قرأ بالتاء انصرف إلى قوله ﴿أمنة﴾، ومن قرأ بالياء يكون نعتاً للنعاس.

ثم قال تعالى: ﴿وطائفة قد أَهَمَّتْهم أنفُسهم﴾ يعني: أهل النفاق. وقال الكلبي: هو معتب بن قُشَيْر وأصحابه ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيرَ الحق﴾ يعني: أنهم يظنون أن لا ينصر الله محمداً وأصحابه ﴿ظن الجاهلية﴾ قال الكلبي: يعني كظنهم في الجاهلية. وقال مقاتل: ظن الجاهلية كظن جهال المشركين، مثل أبي سفيان وأصحابه ﴿يقولون هَل لَنَا من الأَمر من شيء﴾ يعني: النصرة والفتح ﴿قل إنَّ الأَمرَ كُلَّه لله﴾ يعني: النصرة والغنيمة كله من الله ﴿يخفون في أنفسهم﴾ يعني: يُسِرُّونَ في أنفسهم ﴿ما لا يُبْدُون لك﴾ يعني: يقولون ما لا يظهرون لك ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا﴾ يقولون: لو كان ديننا ما قتلنا. ﴿ها هنا﴾ قال الكلبي: وفي الآية تقديم وتأخير، ومعناه: يقولون: هل لنا من الأمر من شيء، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ وقال الضحاك: ﴿قل إنَّ الأمر كله﴾ خيره وشره من الله. قرأ أبو عمرو: ﴿قل إنَّ الأَمْرَ كُلُّه لله﴾ بضم اللام، والباقون بالنصب. فمن رفع جعله اسماً مستأنفاً، ومن نصب جعله نعتاً للأمر.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ يقول: لظهر. ويقال: لخرج ﴿الذين كُتب عَلَيهِمُ القَتل﴾ أي: قُضِيَ عَلَيهم القتل ﴿إلى مَضَاجِعِهِم﴾ أي إلى مواضع مصارعهم. معناه: أنهم وإن لم يخرجوا إلى العدو وقد قضى الله عليهم بالقتل، لخرجوا إلى مواضع قتلهم لا محالة، حتى ينفذ فيهم القضاء.

ثم قال تعالى: ﴿وليبتَلِي الله مَا فِي صُدُورِكم﴾ يعني: ليختبر ويظهر ما في صدوركم ﴿وَلِيُمَحِّص﴾ يعني: ليظهر ويكفر ﴿مَا فِي قُلُوبِكم﴾ من الذنوب ﴿وَالله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: بما في القلوب من الخير والشر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

ثم نزل في المنهزمين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُم﴾ يقول: انهزموا منكم ﴿يوم التَقَى الجَمْعَان﴾ جمع المسلمين، وجمع المشركين ﴿إنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيطَانُ﴾ قال القتبي: ﴿استزلهم﴾ يعني: طلب زلتهم، كما يقال: استعجلت فلاناً، أي طلبت عجلته، واستعملته أي: طلبت عمله. ويقال: زَيَّنَ لهم الشيطان ﴿ببعض ما كسبوا﴾ يعني: الذي أصابهم كان بأعمالهم كما قال في آية أخرى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ حيث لم يستأصلهم ﴿إن الله غَفورٌ﴾ لذنوبهم ﴿حَلِيمٌ﴾ إذ لم يعجل عليهم بالعقوبة.

Marfat.com

قال: حدّثنا الخليل بن أحمد، قال: حدّثنا السراج، قال: حدّثنا قتيبة، قال: حدّثنا أبو بكر بن غيلان عن جرير، أن عثمان بن عفان كان بينه وبين عبد الرحمٰن بن عوف كلام، فقال له عبد الرحمٰن: أتسبُّني وقد شهدت بدراً ولم تشهدها؟ وبايعتُ تحت الشجرة ولم تُبَايع؟ وقد كنتَ توليت فيمن تولى يوم الجمع، أي يوم أحد؟ فردّ عليه عثمان وقال: أما قولك إنك شهدت بدراً ولم أشهد، فإني لم أغب عن شيء شهده رسول الله ﷺ، إلا أن ابنة رسول الله ﷺ كانت مريضة فكنت معها أُمرِّضها، وضرب لي رسول الله ﷺ بسهم في سهام المسلمين. وأما بيعة الشجرة، فبعثني رسول الله ﷺ رداً على المشركين بمكة، فضرب رسول الله ﷺ يمينه على شماله فقال: «هَذِهِ لِعُثْمَانَ» فيمين رسول الله ﷺ وشماله إليّ خير من يميني وشمالي. وأما يوم الجمع فقال الله تعالى: ﴿إنَّ الذين تَوَلَّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيطَانُ ببعض ما كسبوا ولقد عَفَا الله عنهم﴾ فكنت فيمن عفى الله عنهم. فخصم عثمان عبد الرحمٰن بن عوف(١).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كالّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول: كمنافقي أهل الكتاب ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ من المنافقين: ﴿إذا ضَرَبُوا في الأرض﴾ يقول: ساروا في الأرض تجاراً مسافرين، فماتوا في سفرهم ﴿أو كَانُوا غُزًى﴾ يعني: خرجوا في الغزو فقتلوا. قال القتبي: ﴿غزًى﴾ جمع غاز، مثل صائم وصُوَّم، ونائم ونوَّم وعافي وعُفًّى ﴿لو كانوا عندنا﴾ بالمدينة ﴿ما ماتوا﴾ في سفرهم ﴿وما قتلوا﴾ في الغزو ﴿لِيَجْعَلَ الله ذلك﴾ الظن ﴿حَسْرَةً في قلوبهم﴾ ويقال: جعل الله ذلك القول ﴿حسرة في قلوبهم﴾ لأنه ظهر نفاقهم. وقال الضحاك: ﴿ليجعل الله ذلك حسرة﴾ في قلوب المنافقين، لأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في أشجار الجنان حيث شاءت. وأرواح قتلى المنافقين في حواصل طير سُودٍ تسرح في الجحيم.

ثم قال تعالى: ﴿والله يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يعني: يحيي في السفر ويميت في الحضر، ويحيي في الحضر ويميت في السفر. ويقال: والله يحيي قلوب المؤمنين ويميت قلوب الكافرين، وقيل: يحيي قلوب المؤمنين بالنصر والخروج إلى الغزو، ويميت قلوب المنافقين بالتخلف وسوء ظن. وقال الضحاك: يعني يحيي من أحيا من نطفة بقدرته، ويميت من أمات بعزته وسلطانه. ﴿والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصير﴾ قرأ عبد الله بن كثير وحمزة والكسائي: ﴿يعملون﴾ بالياء على معنى المغايبة. وقرأ الباقون: بالتاء، ومعناه: قل لهم: والله بما تعملون بصير.

---

(١) عزاه السيوطي ٢/٣٥٦ إلى أحمد وابن المنذر.

Marfat.com

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ الله أَو مُتُّم﴾ يعني: إن متم في إقامتكم، أو قتلتم في سبيل الله وأنتم مؤمنون ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله﴾ لذنوبكم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يعني: ونعمة وجنة ﴿خير مما تجمعون﴾ يا معشر المنافقين في الدنيا من الأموال. قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم: ﴿مُتُّم﴾ بضم الميم في جميع القرآن، والباقون بكسرها، وهما لغتان ومعناهما واحد.

ثم قال: ﴿وَلَئِنْ مُتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في الغزو ﴿لإلى الله تُحْشَرُونَ﴾ بعد الموت. قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿خير مما يَجْمَعون﴾ بالياء على معنى المغايبة. وقرأ الباقون: بالتاء على معنى المخاطبة.

قوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ يقول: فبرحمة من الله، وما صلة، فالله تعالى ذكر مِنَّتهُ أن جعل رسوله رحيماً رؤوفاً بالمؤمنين، فقال: ﴿فبما رحمة من الله﴾ يا محمد ﴿لنت لهم﴾ جانبك، وكنت رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ يعني: خشناً في القول غليظ القلب ﴿لانفضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي: لتفرقوا من عندك، والله جعلك سهلاً سَمْحاً طلقاً ليناً لطيفاً باراً رحيماً، هكذا قال الضحاك.

ثم قال: ﴿فاعف عنهم﴾ أي: تجاوز عنهم، ولا تعاقبهم بما يكون منهم من الزلة والذنب ﴿واستغفر لهم﴾ من ذلك الذنب ﴿وشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ﴾ يقول: إذا أردت أن تعمل عملاً فاعمل بتدبيرهم ومشاورتهم، ويقال: ناظرهم في الأمر. ويقال: ناظرهم عند القتال. وروي عن عبد الله بن عباس أنه كان يقرأ: ﴿وشاوِرْهُمْ في بَعْضِ الأمر﴾ لأنه كان يشاورهم فيما لم ينزل عليه الوحي فيه، وكان النبيّ ﷺ عاقلاً ذا رأي، ولكنه أمر بالمشورة ليَقْتَدي به غيره، ولأن في المشاورة يتودَّد لأصحابه، لأنه إذا شَاوَرهم يتَوَدَّد قلوبهم. وفي المشورة أيضاً ترك الملامة، لأنه يقول: فعلت كذا بمشاورتكم. وروى سهل بن سعد الساعدي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا شَقِيَ عَبْدٌ قَطّ بِمَشُورَةٍ وَمَا سَعِدَ عَبْدٌ بِٱسْتِغْنَاءِ رَأْيٍ».

ثم قالَ تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ يعني: لا تتكل على المشورة، ولكن توكل على الله بعد المشورة، لا على الأصحاب ﴿إنّ الله يُحِبُّ المُتَوَكّلينَ﴾ الذين يتوكلون على الله.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

Marfat.com

ثم أخبر عزّ وجلّ أن النصرة كلها من الله، فقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ﴾ يقول إن يمنعكم الله ﴿فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾ من العدو يعني: يوم بدر ﴿وإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ يعني: يوم أحد ﴿فَمَنْ ذا الَّذي يَنصُرُكُمْ مِنْ بعده﴾ يعني: من يمنعكم من عدوكم ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يعني: فليتّق الواثقون في النصرة ويقال: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله، لأنهم عرفوا أنه لا ناصر لهم غيره. ـ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر ﴿مُتم﴾ بضمّ الميم في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالكسر، وهما لغتان ومعناها واحد(١) ـ.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿يَغُل﴾ بنصب الياء. وقرأ الباقون: ﴿يُغَل﴾ بضم الياء ونصب الغين. فمس قرأ بالنصب معناه: وما كان لنبي أن يخون في الغنيمة، ومن قرأ بالضم فمعناه: لا ينبغي لنبيٍّ أنْ ينسب إلى الغلول. وذلك أنه لما كان يوم أحد أخذوا في النهب والغارة وتركوا القتال، وخافوا أن تفوتهم الغنيمة، وظنوا أن من أخذ شيئاً يكون له، وأن النبيّ ﷺ لا يقسم لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وما كان لنبيّ أن يغل﴾ يقول: ما جاز لنبيّ أن يخون في الغنيمة، وما جاز لأصحابه أن ينسبوه إلى الخيانة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَغْلُل﴾ يعني: يخن في الغنيمة ﴿يأْتِ بِمَا غلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ يعني: يحمله على ظهره. وهذا كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لأعرِفَنّ أحَدَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ يَأْتِي عَلَى عُنُقِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله شَيْئاً»(٢) يريد: أن من غل شاة أو بقرة أتى بها يوم القيامة يحملها. ويقال: من غلّ شيئاً في الدنيا، يمثل له يوم القيامة في النار، ثم يقال له: انزل إليه فَخُذه، فيهبط إليه فإذا انتهى إليه حمله، فكلما انتهى به إلى الباب سقط منه إلى أسفل جهنم، فيرجع فيأخذه فلا يزال هكذا ما شاء الله. ويقال: ﴿يأت بِمَا غَلَّ﴾ يعني: تشهد عليه يوم القيامة تلك الخيانة والغلول، ويقال: هذا على سبيل التمثيل ﴿يأت بما غل﴾ يعني: يأتي بوباله، فيكون وباله على عنقه كما قال في آية أخرى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١].

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من نسخة «أ».

(٢) هو جزء من حديث أبي هريرة. أخرجه البخاري (٣٠٧٣) ومسلم (١٨٣١) وأحمد ٢/٤٢٦ والبيهقي ٩/١٠١.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعني: توفى وتجازى كل نفس ما عملت من خير أو شر﴿وهم لا يُظلَمُون﴾ يعني: لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً.

ثمّ قال: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ﴾ قال الكلبي: يعني أفمن أخذ الحلال من الغنيمة﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ﴾ يعني: كمن استوجب سخطاً من الله بأخذ الغلول من الغنائم. ثم بيّن مستقر من غل من الغنيمة ومن أخذ من الحلال، فقال لمن غل: ﴿ومأواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي صاروا إليه يعني: النار. وقال لمن أخذ من الحلال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾ يعني: لهم درجات عند الله في الجنة، ويقال: هم ذوو درجات عند الله﴿والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بمن غلّ وبمن لم يغل. وقال القتبي: هم طبقات عند الله في الفضل، فبعضهم أرفع من بعض. وقال أبو عبيدة والكسائي: لهم درجات عند الله، ويقال لمن لم يغل: درجات في الجنة، ولمن غل: دركات في النار.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَد مَنَّ الله على المؤمنين﴾ يعني: أنعم الله على المؤمنين﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً من أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: من أصلهم ونسبهم من العرب، يعرفون نسبه. ويقال: ﴿من أنفسهم﴾، يعني: من جنسهم من بني آدم، ولم يجعله من الملائكة. وإنما خاطب بذلك المؤمنين خاصة، لأن المؤمنين هم الذين صدقوه فكأنه منهم. وقرىء في الشاذ: ﴿من أَنفسكم﴾ بنصب الفاء، يعني: من أشرفهم. وقد كانت له فضيلة في ثلاثة أشياء: أحدها: أنه كان من نسب شريف لأنهم اتفقوا أن العرب أفضل، ثم من العرب قريش، ثم من قريش بنو هاشم، فجعله من بني هاشم. والثاني: أنه كان أمياً فيهم قبل الوحي. والثالث: أنه كان أمياً لكي لا يرتاب فيه الافتعال.

ثم قال: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ يعني: يعرض عليهم القرآن﴿ويزكيهم﴾ يعني: يأخذ منهم الزكاة ليطهر أموالهم، ويقال: يعني يطهرهم من الذنوب والشرك. ويقال: ﴿ويزكيهم﴾ يعني: يأمرهم بكلمة الإخلاص، وهي قول: لا إله إلا الله.

ثمّ قال: ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ يعني: القرآن، ﴿والحكمة﴾ يعني: الفقه وبيان الحلال والحرام﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ يعني: وقد كانوا من قبل مجيء محمد ﷺ لفي خطأ بيّن.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

Marfat.com

ثم رجع إلى قصة أحد وذكر التعزية للمؤمنين بما أصابهم من الجراحات، فقال: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة﴾ يوم أُحد ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يوم بدر، لأن المسلمين يوم بدر قتلوا سبعين نفساً من صناديد قريش، وأسروا سبعين. وقتل من المسلمين يوم أُحد سبعين ولم يؤسر منهم أحد، فذلك قوله: ﴿قد أَصَبْتُم مِثْلَيهَا﴾ وقوله: ﴿أَوَلَمَّا﴾ فالألف للاستفهام والواو للعطف، وما صلة، فكأنه يقول: ولئن متم أو قتلتم أو أصابتكم مصيبة يوم أحد، قد أصبتم مثليها يوم بدر ﴿قلتم أنى هذا﴾ يعني: قلتم: فمن أين لنا هذا؟ وكيف أصابنا هذا ونحن مسلمون؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ يعني: من عند قومكم بمعصية الرماة، بتركهم ما أمرهم به رسول الله ﷺ. وقال الضحاك: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾، يعني: بذنوبكم التي سلفت منكم قبل القتال، يعني: أن في ذلك تطهيراً لما سلف من ذنوبكم وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]. ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النصرة والهزيمة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أصابكُم يَوْمَ الْتَقَى الْجمعان﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿فبإذن الله﴾، أي فبإرادة الله أصابكم ﴿وليعلم المؤمنين وَليَعْلَم الَّذِينَ نَافقُوا﴾ يعني: أصابتكم المصيبة لكي يظهر المؤمن من المنافق.

ثم بيّن أمر المنافقين وصنيعهم وقلة حسبتهم في أمر الجهاد، فقال: ﴿وقيل لهم تعَالَوْا قَاتلُوا في سَبِيلِ الله أَوِ ادْفعُوا﴾ يعني: إن لم تقاتلوا لوجه الله، فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وحريمكم. قال الكلبي: ويقال ﴿ادفعوا﴾ يعني: كثّروا. وقال القتبي: ﴿ادفعوا﴾، أي كثّروا لأنكم إذا كثرتم دفعتم القوم بكثرتكم ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ يعني: لجئنا معكم. قال الضحاك: وذلك أن النبيّ ﷺ لما خرج يوم أحد، أبصر كتيبة خشناء وفيها كبكبة من الناس، فقال: «مَنْ هَؤُلاءِ»؟ فقيل: يا نبيّ الله، هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي. فقال: «إِنَّا لاَ نَسْتَعِينُ بِالكُفَّارِ» فرجع عبد الله مع حلفائه من اليهود. فقال له عمر: أقم مع المؤمنين. فقال: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾.

قال الله تعالى: ﴿هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان﴾ يعني: ميلهم إلى الكفر أقربُ من ميلهم إلى الإيمان. ويقال: عونهم للكفار أكثر من عونهم للمؤمنين ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ ذكر الأفواه على معنى التأكيد، لأن الرجل قد يقول بالمجاز بالإشارة، وهذا كما

Marfat.com

قال: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[البقرة: ٧٩] و ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[الفتح: ١١].

قال الله تعالى: ﴿وَالله أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق والكفر.

ونزل فيهم أيضاً: ﴿الَّذِينَ قالوا لإخوانِهم﴾ من المنافقين ﴿وقَعَدُوا﴾ عن الجهاد ﴿لو أطَاعُونا﴾ في القعود عن الجهاد ﴿ما قُتِلُوا﴾ أي في الغزو ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿فادرؤوا عَنْ أَنْفِسكُم﴾ في حال حضر ﴿الموت إِنْ كُنتُمْ صَادِقِين﴾ في مقالتكم. قال الفقيه: سمعت بعض المفسرين بسمرقند يقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَادْرَؤوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ مات يومئذ سبعون نفساً من المنافقين.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

ثم نزل في شأن الشهداء: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيل الله﴾ يعني: في طاعة الله ﴿أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهم يُرْزَقُون﴾ من التحف. وذلك أن المسلمين كانوا يقولون مات فلان ومات فلان، فنزلت هذه الآية: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ وهذا قول الكلبي. ويقال: ولا تظنن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً كسائر الأموات ﴿بل أحياء﴾ يعني: هم كالأحياء عند ربهم، لأنه يُكتب لهم أجورهم إلى يوم القيامة، فكأنهم أحياء في الآخرة. ويقال: لا يظنّ بهم كما يظن الكفار بهم أنهم لا يبعثون، بل يبعثهم الله ويقال: أرواحهم في المنزلة والكرامة بمنزلة الأحياء. وروى عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، جَعَلَ الله أَرْوَاحَهُم فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ تَحْتَ العَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مُنْقَلَبِهِمْ وَمَطْعَمِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ، وَرَأَوْا مَا أَعدَّ الله لَهُمْ مِنَ الكَرَامَةِ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا عَلِمُوا مَا أَعدَّ الله لَنَا مِنَ الكَرَامَةِ، وَمَا نَحْنُ فِيهِ مِن النَّعِيمِ، فَلَمْ يَنكِلُوا عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَمْ يَجْبُنُوا عِنْدَ القِتَالِ، فَقَالَ الله تَعَالَى أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ»، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾ ﴿فرحين﴾ يعني: معجبين ﴿بِمَا آتاهُمُ الله مِنْ فضله﴾ أي: من رزقه في الجنة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِين لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ من خَلفهم﴾ من إخوانهم من بعدهم أن يأتوهم.

ثم رجع إلى الشهداء فقال تعالى: ﴿ألا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلّفوا من الدنيا. قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ﴾ بنصب السين في جميع القرآن. وقرأ الباقون: بالكسر. وقرأ ابن عامر: ﴿قُتِّلوا﴾ بتشديد التاء على معنى التكثير: أنهم يقتلون واحداً فواحداً، وقرأ الباقون بالتخفيف.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ويستبشرون بنعمة من الله﴾ يقول: بجنة من الله، ويقال: بمغفرة من الله ﴿وَفَضۡلٖ﴾ يعني: الكرامات في الجنة. وروي عن مجاهد أنه قال: السيوف مفاتيح الجنة. وروت عائشة رضي الله عنها عن النبيﷺ أنه قال: «الشَّهِيدُ يَشفعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِهِ».

قال الفقيه: أروي هذا الحديث بمعناه لا بلفظه، إن الله تعالى أكرم الشهداء بخمس كرامات، لم يكرم بها أحد من الأنبياء ولا أنا، إحداها: أن جميع الأنبياء قبض أرواحهم ملك الموت وهو الذي سيقبض روحي، وأما الشهداء فالله تعالى هو الذي يقبض أرواحهم بقدرته كيف يشاء، ولا يسلط على أرواحهم ملك الموت. والثانية: أن جميع الأنبياء قد غُسّلوا بعد الموت، وأنا أغسّل بعد الموت، وأما الشهداء فلا يغسلون ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا. والثالثة: أن جميع الأنبياء قد كفنوا وأنا أكفن أيضاً، والشهداء لا يكفنون بل يدفنون في ثيابهم. والرابعة: أن الأنبياء لما ماتوا فقد سُمُّوا أمواتاً، وإذا مت أنا يقال: قد مات؛ والشهداء لا يُسمون موتى. والخامسة: أن الأنبياء تعطى لهم الشفاعة يوم القيامة، وشفاعتي أيضاً يوم القيامة، وأما الشهداء فيشفع لهم كل يوم من يستشفعون.

ثم قال تعالى: ﴿وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ قرأ الكسائي: ﴿وإنَّ الله﴾ بكسر الألف، والباقون بالنصب. فمن قرأ بالنصب فمعناه: يستبشرون بنعمة من الله، ويستبشرون بأن الله لا يضيع ثواب المؤمنين الموحدين. ومن قرأ بالكسر على معنى الابتداء: إن الله لا يبطل ثواب عمل الموحدين. ـ وهذا الخبر للترغيب في الشهداء. وأمّا الشهداء والأولياء فيشفع لهم، لا يبلغون درجة الأنبياء. ومن قال إنهم يبلغون درجة الإباحة، ومن أنكر كرامات الأولياء، فهو معتزلي(١) ـ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ قال في رواية الكلبي: وذلك أن أبا سفيان حين رجع من أحد، نادى فقال: يا محمد، إن الموعد بيننا وبينك بدر الصغرى، فقال ﷺ لعمر: «قُلْ لَهُ ذَلِكَ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ إِنْ شَاءَ اللهُ». ثم ندم أبو سفيان، فقال لنعيم بن مسعود وكان يخرج إلى المدينة للتجارة: إذا أتيت المدينة، فخوّفهم لكيلا يخرجوا. فلما قدم نعيم المدينة قال: إن أبا سفيان قد جمع خلقاً كثيراً، فكره أصحاب رسول الله ﷺ الخروج إليهم وتثاقلوا،

(١) ما بين معقوفتين ساقط من نسخة «أ».

Marfat.com

فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ منهم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرُجَنَّ إِلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِي مِنْكُمْ أَحَدٌ» قال: فمضى رسول الله ﷺ للميعاد، ومعه نحواً من سبعين رجلاً، حتى انتهوا إلى ذلك الموضع، وكان هنالك سوق فلم يخرج أحد من أهل مكة، فتسوقوا من السوق حاجتهم وانصرفوا، فنزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لله والرَّسولِ من بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ يعني: بعدما أصابتهم الجراحات يوم أحد ﴿للذين أَحْسَنُوا مِنْهُم﴾ أي: الذين أوفوا الميعاد ﴿واتقوا﴾ السخط في معصية رسول الله ﷺ لهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثواب كثير.

قوله تعالى: ﴿**الذين قال لهم الناس**﴾ يعني: نعيم بن مسعود، وإنما أراد به جنس الناس، وكان رجلاً واحداً ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ يعني: أبا سفيان وأصحابه ﴿فاخشوهم﴾ يعني: ولا تخرجوا إليهم ﴿فزادهم إيماناً﴾ يعني: تصديقاً، ويقيناً، وجرأة على القتال ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ يعني: ثقتنا بالله، وأيقنوا أن الله لا يخذل محمداً ﷺ ﴿ونعم الوكيل﴾ أي: ونعم الثقة لنا. ﴿فانقلبوا﴾ أي انصرفوا ﴿بنعمة من الله﴾ يعني: بأجر من الله ﴿وفضل﴾ يعني: ما تسوقوا به من السوق، واشتروا الأشياء بسعر رخيص ﴿لم يمسسهم سوء﴾ يعني: قتال ﴿واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ يعني: ذو مَنٍّ عظيم. وقال في رواية الضحاك: كان ذلك يوم أحد، لما انهزمت قريش ونزلت في مواضع، وكثرت الجراحات في أصحاب محمد ﷺ، فهمّ رسول الله ﷺ بالخروج إليهم، فأجابه سبعون رجلاً، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه**﴾ يعني: نعيم بن مسعود، لأن كل عاتٍ متمرد شيطان يخوف أولياءه، يعني: بأوليائه الكفار. ويقال: يخوف أشكاله. وقال الزجاج: ﴿**إنما ذلكم الشيطان**﴾ يعني: ذلك التخويف عمل الشيطان، يخوفكم بأوليائه. وقال القتبي: ﴿يخوف أولياءه﴾ يعني: بأوليائه، كما قال: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢] أي لينذركم ببأس شديد.

ثم قال تعالى: ﴿**فلا تخافوهم**﴾ في الخروج ﴿**وخافون**﴾ في القعود ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ أي مصدقين. قال الزجاج: معناه، إن كنتم مصدقين، فقد أعلمتكم أني أنصركم عليهم.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾ قال الكلبي: يعني به المنافقين ورؤساء اليهود، كتموا صفة محمد ﷺ في الكتاب فنزل: ﴿**ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾. ويقال: إن أهل الكتاب لما لم يؤمنوا، شق ذلك على رسول الله ﷺ، لأن الناس ينظرون إليهم ويقولون: إنهم أهل الكتاب، فلو كان قوله حقاً لاتبعوه. فنزلت هذه الآية. ويقال: نزلت في مشركي قريش لأنهم كانوا أقرباءه، والناس يقولون: لو كان قوله حقاً لاتبعه أقرباؤه، فشق ذلك عليه فنزلت ﴿**ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾ يعني: يبادرون في

Marfat.com

الكفر ولا يصدقونك ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ يعني: لن ينقصوا من ملك الله وسلطانه شيئاً بكفرهم وهذا كما روى أبو ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قَالَ الله لَو أنَّ أوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وَجِنَّكُمْ وَإنسَكُمْ كَانُوا عَلَى أتقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنكُمْ، مَا زَادَ ذٰلِكَ فِي مُلْكِ الله شَيئاً، وَلَوْ كَانَ أوَّلُكُم وَآخِرُكُمْ وَجِنُّكُمْ وَإنسُكُمْ كَانُوا عَلَى أفجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنكُمْ، مَا نَقَصَ مِنْ مُلْكِ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ».

ثم قال تعالى: ﴿يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ يعني: نصيباً في الجنة ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ في الآخرة. وقرأ نافع: ﴿ولا يُحزِنك﴾ بضم الياء وكسر الزاي، وكذلك ما كان نحو هذا في جميع القرآن إلا في قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وقرأ الباقون بنصب الياء وضم الزاي، وهما لغتان وتفسيرهما واحد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين اشتروا﴾ يعني: اختاروا ﴿الكفر﴾ على الإيمان ﴿لن يضروا الله شيئاً﴾ يقول: لن ينقصوا من ملك الله شيئاً، وإنما أضروا بأنفسهم حيث استوجبوا لأنفسهم العذاب، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ يعني: لا يظنَّنَّ الكفار أن الذي نملي لهم ونمهلهم خير لهم، ويقال: ما نعطيهم من المال والولد لا يظنن أن ذلك خير لهم في الآخرة، يعني: إنما نعطيهم المال والولد لأجل ذلك استدراجاً، بل هو شر لهم في الآخرة. ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾ أي يهانون فيه. ويقال: ﴿إنما نملي لهم﴾، أي ونؤخر العذاب عنهم ليزدادوا إثماً، أي جرأة على المعاصي، وإنما كان ذلك مجازاة لكفرهم وخبث نياتهم. ويقال: إنما نملي لهم ما أصابوا من الظفر يوم أحد، لم يكن ذلك خيراً لأنفسهم، وإنما كان ذلك ليزدادوا عقوبة. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «ما من أحدٍ بر ولا فاجر إلا والموت خير له، لأنه إن كان براً فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وإن كان فاجراً فقد قال الله تعالى: ﴿إنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إثْماً﴾ قرأ حمزة بن عامر: ﴿لا تحسبن﴾ بالتاء وقرأ الباقون بالياء كذلك الذي بعد هذا.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ قال الكلبي: وذلك أن قريشاً من أهل مكة من المشركين، قالوا: يا رسول الله إنك تزعم أنّ الرجل منا في النار، وإذا ترك ديننا واتبع دينك، قلت: هو من أهل الجنة، فأخبرنا عن هذا من أين هو؟ وأخبرنا مَن يأتيك منا، ومن لا يأتيك منّا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ من الكفر والنفاق. ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ يقول: حتى يخلّص الكافر من المؤمنين ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ يعني: ليبين لكم المؤمن من الكافر قبل أن يؤمن. قال الفراء: لم يكن الله ليُعلم أو يُطلع على غيبه. ﴿ولكن الله يجتبي﴾ يقول: يصطفي ﴿من رسله من يشاء﴾ للنبوة والرسالة من خلقه، فيوحي إليه بإذنه. قال في رواية الضحاك: إن المنافقين أعلنوا الإسلام وأسروا الكفر، وصلوا وجاهدوا مع المؤمنين، فأحب الله أن يميز بين الفريقين، وأن يدل رسوله على سرائر المنافقين فقال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ يعني: المنافق من المؤمن ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ ولكنّ الله يُطلع أنبياءه ورسله يعني: أن المؤمنين لا يعلمون سر المنافقين، ولكن الله يبين ذلك للنبي ﷺ. ويقال: ﴿ما كان الله ليذر﴾، يعني: ليترك من علم أنه من أهل الإيمان على ما أنتم عليه من الكفر حتى يوفقه للإيمان، ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ ولكن الله يطلع أنبياءه ورسله بالوحي، حتى يكون ذلك علامة لنبوتهم.

ثم قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا﴾ بالله ورسله ﴿وتتقوا﴾ الشرك والمعصية ﴿فلكم أجر عظيم﴾ يعني: ثواب في الجنة. ويقال: إن الكفار لما سألوا رسول الله ﷺ أن يبيّن لهم من يؤمن منهم، فنزل: ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ يعني: لا تشتغلوا بما لا يعنيكم، واشتغلوا بما يعنيكم، وهو الإيمان بالله ورسله، فإنكم إن فعلتم ذلك فلكم أجر عظيم. قرأ حمزة والكسائي: ﴿حتى يُمَيِّز﴾ بضمّ الياء ونصب الميم وكسر الياء مع التشديد. وقرأ الباقون بنصب الياء وكسر الميم بغير تشديد، وتفسيرهما واحد إلا انك إذا قرأت بالتشديد قد يكون عبارة عن الكثرة والمبالغة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ يعني: بما أعطاهم الله من المال، يبخلون ويمنعون الزكاة والصدقة، وصلة الأرحام، فلا تظنوا أن ذلك ﴿هو خير لهم

Marfat.com

بل هو شر لهم﴾يعني: البخل شر لهم. ويقال: الفضل شر لهم ﴿سيطوقون﴾يقول: سيوثَّقون ﴿ما بخلوا به﴾من الزكاة كهيئة الطوق. وروي عن ابن عباس أنه قال: «يأتي كنز أحدهم شجاعاً أقرع له زبيبتان طوقا في عنقه، تلدغ خديه ويقول: أنا الزكاة التي بخلت بي في الدنيا» وروي عن رسول الله ﷺ نحو هذا[1] فذلك قوله تعالى: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ويقال: هو طوق من نار في عنقه. ويقال: هو على وجه المثل، يعني: وبال ذلك في عنقهم كما قال في آية أخرى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]

ثم قال: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾يعني: إذا هلك الخلق كلهم أهل السموات من الملائكة، وأهل الأرض من الإنس والجن وسائر الخلق، ويبقى رب العالمين ثم يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فلا يجيبه أحد، فيرد على نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [يوسف: ٣٩ وغيرها]فذلك قوله: ﴿ولله مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضِ﴾يعني: يهلك أهل السموات والأرض ولم يبق لأحد ملك. وإنما سمي ميراثاً على وجه المجاز، لأن القرآن بلغة العرب، وكانوا يعرفون أن من رجع الملك إليه يكون ميراثاً على وجه المجاز، وأما في الحقيقة فليس بميراث، لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئاً لم يكن يملكه من قبل، والله عز وجل مالكهما، وكانت السمواتُ وما فيها والأرض وما فيها له، وإنما كانت الأموال عارية عند أربابها، فإذا ماتوا رجعت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل. ومعنى الآية: أن الله تعالى أمر عباده أن ينفقوا ولا يبخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا المال ميراثاً لله تعالى، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا.

ثم قال تعالى: ﴿والله بما تعملون خبير﴾يعني: عالم بمن يؤدي الزكاة وبمن يمنعها، فيجازي كل نفس بما عملت. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يعملون﴾بالياء، والباقون بالتاء على وجه المخاطبة.

قوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ وقال في رواية الضحاك: لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥ والحديد: ١١]قالت الفجرة من كفرة اليهود: أفقير ربنا فيستقرضنا؟ قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، فنزلت هذه الآية. ويقال إن النبي ﷺ بعث أبا بكر إلى اليهود ليأمرهم بالإسلام، وأن يعطوا الصدقة ويؤمنوا، فلما انتهى إليهم أبو بكر قال فنحاص بن عازورا: أيسأل الله منا الصدقة فهو فقير ونحن أغنياء؟ فنزلت هذه الآية ﴿سنكتب ما قالوا﴾يعني: نحفظ قولهم ونجازيهم ويقال: ﴿سنكتب ما قالوا﴾يعني: يكتب عليهم الكرام الكاتبون، ويؤاخذون به في الآخرة ﴿وقتلهم﴾يعني: نكتب قتلهم ﴿الأنبياء بغير حق﴾بلا جرم ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (١٤٠٢) و(٤٦٥٩) و(٦٩٥٧) ومسلم (٩٨٧) (٢٦) (٢٧) وأحمد ٢/ ٢٦٢، و٢٧٦ وأبو داود (١٦٥٨) (١٦٥٩) والبيهقي ٤/ ٨١، ١١٩ والنسائي ٥/ ١٣ وابن ماجة (١٧٨٦).

Marfat.com

يعني: تقول لهم خزنة جهنم في الآخرة ذلك. قرأ حمزة: ﴿سيُكتَب﴾ بضم الياء ونصب التاء، ﴿وقتلُهم الأنبياء﴾ بضم اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله، يعني: يكتب قتلهم الأنبياء، ويقول بالياء. والباقون ﴿سنَكتب﴾ بالنون مع فتحها وضمّ التاء، ﴿وقتلَهم﴾ بنصب اللام، ونقول بالنون. وقوله: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْ أَنَّ شَرَارَةً وَقَعَتْ بِالمَشْرِقِ لَغَلَتْ مِنْهَا جَمَاجِمُ قَوْمٍ بِالمَغْرِبِ، وَلَوْ أَنَّ حَلْقَةً مِنْ سَلَاسِلِ أهل النَّارِ وُضِعَتْ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ لأَحْرَقَتْ إلى سَبْعِ أَرَضِينَ» فهذا معنى قوله: ﴿عَذَابَ الحرِيقِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ذلك بما قدمت﴾ يعني: يقال لهم: ذلك العذاب بما قدمت ﴿أيديكم﴾ من الكفر والتكذيب، يعني: بما قدمتم. وذكر الأيدي على معنى الكناية.

ثم قال تعالى: ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ يعني: لا يعذب أحداً بغير ذنب.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الذين قالوا﴾ يعني: كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف وغيرهما من رؤساء اليهود: قالوا: ﴿إن الله عهد إلينا﴾ يعني: أمرنا في التوراة ﴿أن لا نؤمن﴾ يعني: أن لا نصدق ﴿لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ تجيء نار من السماء فتأكل القربان، فإن جئتنا بها صدقناك.

قال الله تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم﴾ يعني: بالآيات والعلامات ﴿وبالذي قلتم﴾ يعني: قد جاءكم الرسول بالذي قلتم من أمر القربان ﴿فلم قتلتموهم﴾ يعني: زكريا ويحيى وغيرهما ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تقولون.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فإن كذبوك﴾ بما تقول لهم ﴿فقد كذب رسل من قبلك﴾ فالله تعالى يعزي نبيه ليصبر على تكذيبهم، ﴿جاؤوا بالبينات﴾ بالآيات والعلامات ﴿والزبر﴾ قال الكلبي: يعني بأحاديث الأنبياء من قبلهم بالنبوة على ما يكون ﴿والكتاب المنير﴾ يعني: الحلال والحرام. وقال الزجاج: ﴿الزبر﴾ جماعة الزبور وهو الكتاب يقال: زَبَرْتُ أي كتبت، ويقال: زبرْتُ أي قرأت، ﴿والكتاب المنير﴾ يعني: المضيء بالحلال والحرام. قرأ ابن عامر ﴿بالزبر﴾ بالباء، وقرأ الباقون: ﴿والزبر﴾ بغير الباء.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ

Marfat.com

وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ قال الكلبي: لما نزل قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فلما نزل: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أيقنت الملائكة أنها تهلك معهم.

ثم قال: ﴿وإنما توفون أجوركم﴾ يعني: توفون ثواب أعمالكم ﴿يوم القيامة فمن زحزح عن النار﴾ يعني: بُعِّد ونُحِّي عنها ﴿وأُدخل الجنة فقد فاز﴾ يعني: نجا وسعد في الجنة.

حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدثنا المسيب، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن عن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(١).

قوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ قال ابن عباس: ﴿متاع الغرور﴾ مثل الكوز والقارورة والسكرجة ونحو ذلك، لأن ذلك لا يدوم، وكذلك الدنيا تزول وتفنى ولا تبقى. ويقال: هو مثل الزجاج الذي يسرع الكسر إليه، ولا يصلحه الجبر. ويقال: كزاد المسافر، يسرع إليه الفناء، فكذلك الدنيا.

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾ يقول: لتختبرُنَّ في أموالكم بالنقصان والذهاب، ويقال: بوجوب الحقوق فيها وفي ﴿أنفسكم﴾، بالأمراض والأوجاع والقتل ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] ﴿ومن الذين أشركوا﴾ يعني: مشركي العرب ﴿أذى كثيراً﴾ باللسان والفعل، ويقال: نزلت الآية في شأن أبي بكر رضي الله عنه، فكانوا يهددونه ويشتمونه ويقولون: ما يفعله محمد ﷺ إنما يفعله بمشاورته، فأمره الله تعالى بأن يصبر على أذاهم. ثم قال: ﴿وإن تصبروا﴾ على أذاهم ﴿وتتقوا﴾ المكافأة ويقال: وتتقوا معاصيه ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ يعني: من حقائق الأمور. ويقال: إن ذلك الصبر من خير الأمور.

---

(١) هو جزء من حديث عبد الله بن عمرو. أخرجه مسلم (١٨٤٤) (٤٦) وأبو داود (٤٢٤٨) والنسائي ٧/ ١٥٤ وابن ماجة (٢٩٥٦) وأحمد: ٢/ ١٦١، ١٩١.

Marfat.com

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني: أخذ عليهم الميثاق حين أخرج ذرية آدم من ظهورهم. ويقال: أخذ عليهم الميثاق بالوحي في كتب الأنبياء **﴿لتبيننه للناس﴾** يعني: نعت محمد ﷺ وصفته **﴿ولا تكتمونه﴾** عنهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿ليبيننه للناس ولا يكتمونه﴾، كلاهما بالياء. وقرأ الباقون بالتاء، فمن قرأ بالياء فمعناه: أخذ عليهم الميثاق لكي يبينوه ولا يكتموه، وأمّا من قرأ بالتاء فمعناه: أخذ عليهم الميثاق، وقال لهم: لتبيننه للناس ولا تكتمونه.

ثم أخبر عن سوء معاملتهم ونقضهم الميثاق فقال: **﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾** يعني: طرحوه خلف ظهورهم، يعني: تركوا الميثاق ولم يعملوا به **﴿واشتروا به﴾** بكتمان نعت محمد ﷺ وصفته **﴿ثمناً قليلاً﴾** يعني: عَرضاً يسيراً من متاع الدنيا **﴿فبئس ما يشترون﴾** يعني: بئس ما يختارون لأنفسهم الدنيا على الآخرة.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿لا تحسبن﴾ يقول: لا تظنن يا محمد **﴿الذين يفرحون بما أوتوا﴾** يقول: يعجبون بما أوتوا، يعني: بما غيّروا من نعته وصفته، وهذا قول الكلبي. وقال الضحاك: إن اليهود كانوا يقولون للملوك: إنا نجد في كتابنا أن الله يبعث نبياً في آخر الزمان يختم به النبوة، فلما بعثه الله سألهم الملوك: أهو هذا الذي تجدونه في كتابكم؟ فقالت اليهود طمعاً في أموال الملوك: هو غير هذا، فأعطاهم الملوك مالاً فقال الله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا﴾ يعني: بما أعطاهم الملوك.

ثم قال تعالى: ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ لأنهم كانوا يقولون: نحن على دين إبراهيم عليه السلام ولم يكونوا على دينه. ويقال: كانوا يقولون نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب، ويريدون أن يحمدوا بذلك. يقول الله تعالى: **﴿فلا تحسبنهم﴾** يقول: فلا تظنهم **﴿بمفازة من العذاب﴾** معناه: لا تظنن أنهم ينجون من العذاب بذلك **﴿ولهم عذاب أليم﴾** يعني: عذاب دائم لا يخرجون منه أبداً.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

ثم قال تعالى ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ يعني: خزائن السموات المطر، وخزائن

Marfat.com

الأرض النبات. ويقال: جميع من في السموات والأرض عبيده وفي ملكه ﴿والله علي كل شيء قدير﴾ من النبات وغيره. ويقال: هذا معطوف على أول الكلام أنهم لا ينجون من عذابه، يأخذهم متى شاء لأنه على كل شيء قدير.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآية لصحة دعواه، لأنه كان يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فنزل ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي: خلقين عظيمين. ويقال: فيما خلق في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وما خلق في الأرض من الجبال والبحار والأشجار ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ يعني: ذهاب الليل ومجيء النهار، ويقال اختلاف لونيهما ﴿لآيات﴾ لعبرات ﴿لأولي الألباب﴾ لذوي العقول.

قوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً﴾ يعني: يصلون لله قياماً إن استطاعوا على القيام، وقعوداً إن لم يستطيعوا القيام ﴿وعلى جنوبهم﴾ إن لم يستطيعوا القعود لزمانة بهم، ويقال: معناه الذين يذكرون الله في الأحوال كلها، في حال القيام والقعود والاضطجاع، كما قال في آية أخرى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

ثم قال تعالى: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ يعني: يعتبرون في خلقهما. قال: **حدثنا** الخليل بن أحمد، قال: **حدثنا** السراج، قال: **حدثنا** قتيبة، قال: **حدثنا** ابن زرارة الحلبي، عن أبي حباب، عن عطاء بن أبي رباح قال: دخلت مع ابن عمر وعبيد بن عمير على عائشة، فسلمنا عليها فقالت: «من هؤلاء؟» فقلت: عبد الله بن عمر، وعبيد الله بن عمير. فقالت: مرحباً بك يا عبيد بن عمير، ما لك لا تزورنا؟ فقال عبيد: «**زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً**» فقال ابن عمر: «دعونا من هذا، حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ»، فبكت بكاء شديداً ثم قالت: «كل أمره عجب، أتاني في ليلتي، فدخل في فراشي حتى ألصق جلده بجلدي، فقال: «**يا عَائِشَةُ أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَعْبُد لِرَبِّي**» فقلت: والله إني أحبُ قربك، وإني لأحب هواك. فقام إلى قربة ماء فتوضأ منها، ثم قام فبكى وهو قائم حتى روت الدموع حجره، ثم اتكأ على شقه الأيمن، ووضع يده اليمنى تحت خده الأيمن، فبكى حتى روت الدموع الأرض. ثم أتاه بلال بعدما أذن للفجر، فلما رآه يبكي قال: أتبكي يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**يا بِلالُ أفلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً، وَمَا لِي لا أَبْكِي وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ ﴿إِنَّ**

Marfat.com

﴿فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ﴾ . . - إلى قوله - ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»[١]. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تفكَّرُوا فِي الخَلْقِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الخَالِقِ»[٢]. وقال ﷺ: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ»[٣].

ثمّ قال تعالى: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ يعني: يتفكرون ويقولون: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ عبثاً بغير شيء، ولكن خلقتهما لأمر هو كائن ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾ يعني: ادفع عنا عذاب النار. وقال الزجاج: معنى ﴿سبحانك﴾ أي: تنزيهاً لك من أن تكون خلقتهما باطلاً ﴿فقنا عذاب النار﴾ أي صدّقنا رسلك، وسلّمنا أن لك جنة وناراً ﴿فقنا عذاب النار﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ربنا إنك من تدخل النار﴾ يعني: ويقولون ﴿بنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ يعني: أهنته وفضحته ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ يعني: ما للمشركين من مانع يمنعهم من العذاب إذ أنزل بهم، ويقولون أيضاً: ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ يعني: محمداً ﷺ يدعو إلى التصديق ﴿أن آمنوا بربكم﴾ يعني: صدقوا بتوحيد ربكم، ﴿فآمنا﴾ يعني: صدقنا. وقال محمد بن كعب القرظي: ليس كل الناس لقي رسول الله ﷺ، ولكن المنادي هو كتاب الله يدعو إلى الإيمان بشهادة أن لا إله إلا الله وأن آمنوا بربكم فآمنا ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا﴾ وقال الكلبي: الذنوب الكبائر دون الصغاير، والسيئات الشرك. وقال الضحاك: ﴿ذنوبنا﴾ يعني: ما عملوا في حال الجاهلية، ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾، يعني: ما عملوا في حال الإسلام. ويقال: الذنوب والسيئات بمعنى واحد. ويقال: الذنوب هي الكبائر، والسيئات ما دون الكبائر التي تكفر من الصلاة إلى الصلاة.

---

(١) عزاه السيوطي: ٢/٤٠٩ إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه، والأصبهاني في الترغيب، وابن عساكر.

(٢) عزاه السيوطي: ٢/٤٠٨ إلى ابن أبي الدنيا والأصبهاني في الترغيب، وأبي نعيم في الحلية من حديث ابن عباس.

(٣) عزاه السيوطي إلى الديلمي، وأبي الشيخ.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ يعني: مع المطيعين والصالحين، ويقال: اجعل أرواحنا مع أرواح المطيعين والصالحين. ويقولون أيضاً: ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ يعني: أعطنا ما وعدتنا من الخير والجنة على لسان رسلك. ويقال: هو ما ذكر من استغفار الأنبياء والملائكة للمؤمنين، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] وما ذكر من دعاء نوح وإبراهيم عليهما السلام للمؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ يعني: لا تعذبنا، ويقال: لا تخذلنا يوم القيامة ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ يعني: ما وعدت من الخير والثواب للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ فأخبر الله عن فعلهم، وذكر ما أجابهم به وأنجز لهم موعده، وبيّن لهم ثوابه وهو قوله: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾. روي عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: «من دعا الله تعالى بهذه الدعوات فإنه يستجاب له، لأنه قال لهم: ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم﴾ يعني: لا أبطل ثواب عمل عامل في طاعتي ﴿من ذكر أو أنثى﴾ يعني: رجلاً أو امرأة.

قال: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا الديبلي، قال: حدثنا أبو عبيد الله، قال: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن رجل من ولد أم سلمة يقال له سلمة بن الأكوع، عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله إني أسمع الله ذكر الهجرة، فذكر فيها الرجال ولم يذكر فيها النساء فأنزل الله تعالى: ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾. ويقال: إنَّ امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنّ الله خلق الرجال والنساء، وقد آمن به النساء كما آمن به الرجال، فما بالهنَّ لم يُذْكرْنَ كما يذكر الرجال؟ فنزل قوله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ الآية. ونزل: ﴿إني لا أضيّع عمل عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى﴾.

ثم قال تعالى: ﴿بعضكم من بعض﴾ قال الكلبي: يعني: بعضكم أولياء بعض في الدين. وقال الضحاك: يعني يشبه بعضكم بعضاً في الطاعة. ويقال: بعضكم على أثر بعض، ويقال: بعضكم على دين بعض.

ثم قال تعالى: ﴿فالذين هاجروا﴾ من مكة إلى المدينة ﴿وأخرجوا من ديارهم﴾ يعني: أن أهل مكة أخرجوا مؤمنيهم من مكة ﴿وأوذوا في سبيلي﴾ يعني: عُذبوا في طاعتي ﴿وقاتلوا﴾ مع رسول الله ﷺ المشركين ﴿وقُتلوا﴾ يعني: قتلهم المشركون. قرأ حمزة والكسائي: وقُتِلوا وقاتلوا على معنى التقديم والتأخير كقوله تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقرأ الباقون: وقاتلوا وقُتِلوا، إلا ابن كثير وابن عامر قرآ وقتّلوا بالتشديد على معنى التكثير والمبالغة، فذكر الله فعلهم، ثم ذكر ثوابهم فقال: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾ يعني: لأمحونّ عنهم ذنوبهم ﴿ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ يعني: من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿ثواباً من عند الله﴾ يعني: الجنات جزاء لأعمالهم من عند الله تعالى. وقال الزجاج: إنما صار نصباً

Marfat.com

لأنه مصدر مؤكد، معناه: لأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ولأثيبنهم ثواباً. وروي عن الفراء أنه قال: إنما صار نصباً على التفسير.

ثم قال تعالى: ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ يعني: حسن الجزاء وهو الجنة. ويقال: حسن المرجع في الآخرة خير من الدنيا.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ يقول: لا يحزنك يا محمد ذهابهم ومجيئهم في تجاراتهم ومكاسبهم في الأرض. ويقال: هذا الخطاب للمؤمنين، ومعناه: لا يغرّنكم تجارات الكفار وتصرفهم في أموالهم، لأن ذلك **﴿متاع قليل﴾** لأن الكفار كانوا في رخاء وعيش، وكانت لهم رحلة الشتاء والصيف، وكان المؤمنون في ضيق وشدة، فأخبر الله تعالى بمرجع الكفار في الآخرة، وبمرجع المؤمنين فقال: **﴿لا يغرنك﴾** ما هم فيه من العيش والسعة، فإنما هو ﴿متاع قليل﴾ يعني: بعد وقت قريب.

ثم قال تعالى: ﴿ثم مأواهم جهنم﴾ يعني: مصيرهم إلى جهنم **﴿وبئس المهاد﴾** يعني: بئس موضع القرار في النار، وبئس المصير إليها، فما ينفعهم تجاراتهم وأموالهم.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

ثم ذكر مرجع المؤمنين ومصيرهم فقال: **﴿لكن الذين اتقوا﴾** اتقوا الشرك والفواحش، ووحّدوا **﴿ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾** أبداً لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها أبداً **﴿نزلاً من عند الله﴾** يقول: ثواباً من عند الله للمؤمنين الموحدين خاصة **﴿وما عند الله﴾** أي الجنة **﴿خير﴾** من الدنيا **﴿للأبرار﴾** يعني: للمؤمنين المطيعين.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب، معناه: من أهل الكتاب من آمن بالله فصدق **﴿وما أنزل إليكم﴾** من القرآن وصدق بما **﴿وما أنزل إليهم﴾** من التوراة والإنجيل، يعني: على أنبيائهم، فذكر حالهم وبيّن ثوابهم لكي يرغب غيرهم من أهل الكتاب ليؤمنوا إذا علموا بثوابهم.

ثم نعتهم فقال: ﴿خاشعين لله﴾ يعني: متواضعين لله، والخشوع أصله التذلل وكذلك الخضوع، وقد فرّق بعض أهل اللغة بين الخشوع والخضوع، فقال: الخضوع في البدن خاصة،

Marfat.com

والخشوع: يكون في البدن والبصر والصوت والقلب. قال الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] وقال: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾[القلم: ٤٣المعارج: ٤٤].

ثم قال تعالى: ﴿**لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً**﴾ يعني: عرضاً يسيراً كفعل اليهود ﴿**أولئك لهم أجرهم**﴾ يعني: ثوابهم﴿**عند ربهم**﴾ الجنة﴿**إن الله سريع الحساب**﴾ يعني: شديد العقوبة، ويقال: سريع الحفظ والتعريف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا**﴾ على البلاء والجهاد وأداء الفرائض، وعن المعاصي﴿**وصابروا**﴾ مع نبيكم ﷺ على عدوكم حتى يدعوا دينهم إلى دينكم، يعني: يتركوا الشرك ويدخلوا في الإيمان﴿**ورابطوا**﴾ مع عدوكم ما أقاموا، وهذا قول الكلبي. وقال عكرمة: ﴿اصبروا﴾ على البلاء وعلى طاعة الله، ﴿وصابروا﴾ أهل الضلالة، ﴿ورابطوا﴾ الخيول. وقال الزجاج: ﴿اصبروا﴾ على دينكم﴿وصابروا﴾ على عدوكم، ﴿ورابطوا﴾ أي: أقيموا على جهادكم بالحرب وقيل: ﴿اصبروا﴾ بأبدانكم، ﴿وصابروا﴾ بقلوبكم، ﴿ورابطوا﴾ بأرواحكم. ﴿**واتقوا الله**﴾ في جميع ما أمركم ونهاكم. وقال القتبي: أصل المرابطة، أن يربطوا خيولهم في الثغر.

ثم قال تعالى: ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ يقول: تفوزون وتأمنون النار وتنجون منها. ويقال: أصل الفلاح البقاء في النعمة، ويقال: الفلاح أن يبلغ الإنسان نهاية ما يأمله. ـ والله سبحانه وتعالى أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم تسيماً كثيراً إلى يوم الدين، آمين[١] ـ.

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

سورة النساء
مدنية وهي مائة وست وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾ «يعني: الناس عامة، وقد يكون ﴿يا أيها الناس﴾ خاصاً لأهل مكة، وفي هذا الموضع عام لجميع الناس» ﴿اتقوا ربكم﴾ يعني: اخشوا ربكم، ويقال: أطيعوا ربكم، ويقال: احذروا المعاصي لكي تنجوا من عقوبة ربكم. ويقال: وحّدوا ربكم ولا تشركوا به شيئاً.

ثم دل على وحدانيته ونفسه بصنعه فقال: **﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾** يعني: آدم **﴿وخلق منها زوجها﴾** يعني: من نفس آدم زوجها حواء، وذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأسكنه الجنة، ألقى عليه النوم، فكان آدم بين النائم واليقظان، فخلق من ضلع من أضلاعه اليسرى حواء، فلما استيقظ قيل له: من هذه يا آدم؟ قال: إمرأة لأنها خلقت من المرء، فقيل: ما اسمها؟ قال: حواء لأنها خلقت من حيّ. وقد قيل: إنما سميت حواء لأنه كان على شفتيها حوة، وقيل: لأن لونها كان يضرب إلى السمرة فسميت حواء من قولك: أحوى، كقوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٥].

ثم قال تعالى: ﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ يعني: خلق منهما أي من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساءً كثيرة. قال مقاتل: يعني: خلق منهما ألف ذرية من الناس. يعني: من صلبه.

ثم قال: ﴿واتقوا الله﴾ يعني: أطيعوا الله **﴿الذي تساءلون به﴾** قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، وأبو عمرو في رواية هارون: ﴿تسألون﴾ بغير تشديد. وقرأ الباقون بالتشديد، فمن قرأ بالتشديد لأن أصله تتساءلون، فأدغم إحدى التاءين في السين وأقيم التشديد مقامه. ومن قرأ بالتخفيف فالأصل أيضاً تتساءلون، فحذف إحدى التاءين لاجتماع الحرفين من جنس واحد للتخفيف.

ثم قال تعالى: ﴿والأرحام﴾ قرأ حمزة: بكسر الميم، والباقون بنصب الميم، ومعناه: واتقوا الله الذي تسألون به الحاجات، يعني: الذي يسأل الناس بعضهم بعضاً، فيقول الرجل للرجل: أسألك بالله، وأنشدك بالله ﴿والأرحام﴾ . يقول: واتقوه في ذوي الأرحام، فصلوها ولا

Marfat.com

نقطعوها. وأما من قرأ بالكسر معناه: أسألك بالله وبالرحم أن تعطيني شيئاً. وقال الزجاج: من قرأ بالخفض فخطأ في العربية وفي أمر الدين، أما الخطأ في العربية لأن الاسم يعطف على الاسم المفصح به ولا يعطف على المكنى به إلا في اضطرار الشعر، كقول القائل:

قدْ كُنْتَ من قبلُ تهجُونا وتَفْضَحُنا فـمـا لـنـا بـكَ والأيـام مـن عـجـب

وأما في غير الشعر فلا يستعمل، وأما الخطأ الذي في الدين، لأن النبي ﷺ قال: **«لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فمن حلف فليحلف بالله أو ليذر»**[1]. فالسؤال بالأرحام أمر عظيم لأنه تحليف بها. ولكن روي عن إبراهيم النخعي أنه كان يقرأ أيضاً بالخفض أيضاً.

ثم قال: **﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾** يعني: حفيظاً لأعمالكم يسألكم عنها فيما أمركم به. وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«مَا مِنْ عَمَلِ حَسَنَةٍ أَسْرَعُ ثَوَاباً مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ، وَمَا مِنْ عَمَلِ سَيِّئَةٍ أَسْرَعُ عُقُوبَةً مِنَ الْبَغْيِ، وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةِ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاقِعَ»** وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الرَّحِمَ قَالَ لَهُ: صِلْ مَنْ وَصَلَكَ وَاقْطَعْ مَنْ قَطَعَكَ»**[2]. ويقال: الرحم مشتق من الرحمة، فمن قطعها فليس له من رحمة الله تعالى نصيب. وقال ﷺ: **«الرحمُ معلّقٌ بالعرشِ، فمنْ قَطَعَها قطعني، ومَنْ وصلها وصلني»**[3].

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ يقول للأولياء: أعطوا اليتامى أموالهم التي عندكم إذا بلغوا النكاح، يعني: الحلم **﴿ولا تتبدلوا الخبيث﴾** يعني: الحرام **﴿بالطيب﴾** يعني: بالحلال من أموالكم يقول: لا تذروا أموالكم الحلال، وتأكلوا الحرام من أموال اليتامى. ويقال: لا تخلطوا الخبيث بالطيب. ويقال: لا تخلطوا من مالكم الرديء، وتأخذوا الجيد من مال اليتيم. يعني: أن يرسل شاة عجفاء في غنمه ويأخذ مكانها شاة سمينة، وفي الحبوب كذلك. ويقال: لا تجعلوا أموالهم وقاية لأموالكم.

ثم قال تعالى ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ يعني: مع أموالكم **﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾** يعني: إثماً عظيماً. قرأ الحسن ﴿حَوباً﴾ بنصب الحاء. قال مقاتل: هو بلغة الحبش.

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه أبو داود (٤٨ ـ ٣٢) والنسائي: ٧/ ٥ والبيهقي: ١٠/ ٢٩ ومنه حديث ابن عمر أخرجه مالك: ٢/ ٤٨٠ والبخاري (٢٦٧٩) و(٦٦٤٦) ومسلم (١٦٤٦) (٣) (٤) والترمذي (١٥٣٤) وأبو داود (٣٢٤٩).

(٢) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٤٨٣١) و(٧٥٠٢) ومسلم (٢٥٥٤).

(٣) الحديث ساقط من النسخة «أ». وهو حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٥ ـ ٣٨٣. والبخاري في الأدب المفرد (٥٩٨٨)

Marfat.com

قال القتبي: الحُوب والحَوْب واحد، وهو الإثم. وقال مقاتل: نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخيه، فلما بلغ اليتيم طلب، ماله فمنعه العم، فنزلت الآية، فقرأها عليه رسول الله ﷺ فقال الرجل: أطعنا الله ورسوله، ونعوذ بالله من الحوب الكبير، فدفع إليه ماله، فلما قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «**لَقَدْ أَصَابَ الأَجْرَ وَبَقِيَ الوِزْرُ**» فقالوا: كيف بقي الوزر وقد أنفقه في سبيل الله؟ فقال: «**أَصَابَ الغُلَامُ الأَجْرَ وَبَقِيَ الوِزْرُ عَلَى وَالِدِهِ**».

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ يعني: ألا تعدلوا في أموال اليتامى، يقال في اللغة: أقسط الرجل إذا عدل، وقسط إذا جار. وقال ﷺ: «**المُقْسِطُونَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[1]. يعني العادلون. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] يعني: الجائرون.

ثم قال تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم﴾ وذلك أنهم كانوا يسألون عن أمر اليتامى ويخافون ألا يعدلوا، وكانوا يتزوجون من النساء ما شاؤوا، فنزلت هذه الآية ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم﴾ **﴿من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم إلا تعدلوا﴾** يعني: فكما خفتم ألا تعدلوا في اليتامى، فخافوا في النساء إذا اجتمعن عندكم ألا تعدلوا بينهن. وروى عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان الناس يتزوجون اليتامى ولا يعدلون بينهن، ولم يكن لهنّ أحد يخاصم عنهن، فنهاهم الله عن ذلك فقال: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ الآية[2]. ويقال: إنهم كانوا يتزوجون امرأة لها أولاد أيتام، وكانوا لا يحسنون النظر إليهم، فنزل ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم﴾ يعني: بغير ولد ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا﴾ في القسم بين النساء والنفقة **﴿فواحدة﴾** يقول: تزوجوا امرأة واحدة، وإن خفتم ألا تعدلوا في الواحدة **﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾** يعني: الإماء. ويقال: إن خفتم ألا تعدلوا في القسم بين النساء فواحدة، أي واشتروا الإماء لأن الواحدة لا تحتاج إلى القسمة، والإماء لا يحتاج فيهن إلى القسمة. وقال بعض الروافض بظاهر هذه الآية:

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو: أخرجه مسلم (١٨٢٧) والنسائي: ٨/ ٢٢١ وأحمد ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠ والبيهقي ١٠/ ٨٨ والبغوي (٢٤٧٠) والحاكم ٤/ ٨٨.

(٢) عزاه السيوطي ٢/ ٤٢٧ إلى البخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه.

Marfat.com

أنه يجوز نكاح تسع نسوة، لأنه قال: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾، فيكون ذلك تسعاً. ولكن أجمع المفسرون أن المراد به: التفصيل، لا الاجتماع، لأن الواو للبدل الجمع، ومعناه: مثنى أو ثلاث أو رباع، وبذلك جاءت الآثار، وهو حديث غيلان بن سلمة: «أنه أسلم ومعه عشر نسوة، فخيّره النبي ﷺ فاختار أربعاً وفارق البواقي»[(١)]. وروي الكلبي ومقاتل: أن قيس بن الحارث كان عنده ثمان نسوة حرائر، فلما نزلت هذه الآية «أمره رسول الله ﷺ أن يطلق أربعاً ويمسك أربعاً»[(٢)]. وروى محمد بن الحسن في كتاب «السير الكبير»: أن في ذلك كان الحارث بن قيس الأسدي، وهذا هو المعروف عند الفقهاء.

ثم قال تعالى: ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ يعني: واحدة أحرى ألا تميلوا ولا تجوروا ولا تظلموا.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ يعني: أعطوا النساء مهورهن فريضة. ويقال: ديانة، كما يقال: فلان ينتحل مذهب كذا، أي: يدين بكذا. ويقال: نحلة أي صدقة وهبة، لأن المهر نحلة من الله تعالى للنساء حيث لم يوجب عليهن وأوجب لهن. وقال في رواية الكلبي: إن أهل الجاهلية كان الولي إذا زوّجها، فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها قليلاً ولا كثيراً، وإن كانت غريبة حملوها على بعير إلى زوجها ولا يعطونها من مهرها غير ذلك البعير شيئاً، فنزل قوله تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن﴾ يعني به: الأولياء، يعني: أعطوهن مهورهن نحلة. يقول: عطية لهن. وقال في رواية مقاتل: كان الرجل يتزوج بغير مهر، ويقول: أرثك وترثيني، فنزلت الآية ﴿وآتوا النساء﴾ يعني: الأزواج ﴿صدقاتهن نحلة﴾ يعني: مهور النساء ﴿نحلة﴾ يعني: فريضة. ﴿فإن طبن لكم﴾ يا معشر الأزواج، أي إنْ أحللن لكم ووهبن لكم. وقال في رواية الكلبي: يعني إذا وهبت المرأة المهر للولي فذلك قوله ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ أي طيباً لا إثم منه ﴿مريئاً﴾ أي لا أذى فيه. ﴿مريئاً﴾ لا داء فيه، ويقال: ﴿هنيئاً مريئاً﴾ يعني: حلالاً طيباً. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «إذا كان أحدكم مريضاً فليسأل من امرأته درهمين من مهرها، حتى تهب له بطيبة نفسها،

---

(١) حديث ابن عمر: أخرجه الترمذي (١١٢٨) وقال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: هذا حديث غير محفوظ، والعمل عليه عند أصحابنا: الشافعي وأحمد وإسحق. وأخرجه ابن ماجة (١٩٥٣) والبيهقي: ٧/ ١٨ ـ ١٩ وصححه الحاكم ٢/ ١٩٢ وأحمد: ٢/ ٤.

(٢) حديث الحرث بن قيس: أخرجه أبو داود (٢٢٤١) (٢٢٤٢) وابن ماجة (١٩٥٢) والبيهقي: ٧/ ١٩.

Marfat.com

فيشتري بذلك عسلاً فيشربه مع ماء المطر، وقد اجتمع الهنيء والمريء، والشفاء والماء المبارك»، يعني: أن الله تعالى سمى المهر هنيئاً مريئاً إذا وهبت، وسمى العسل شفاء، وسمى ماء المطر مباركاً، فإذا اجتمعت هذه الأشياء يرجى له الشفاء.

قوله تعالى: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم**﴾ يعني: النساء والأولاد الصغار، يعني: لا يجعل الرجل ماله في يدي امرأته وأولاده، ثم يدع نفسه محتاجاً إليهم، فلا يدفعون إليه عند حاجته. ويقال: لا تدفعوا أموالكم مضاربة، ولا إلى وكيل لا يحسن التجارة. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من لم يتفقه فلا يتجر في سوقنا». فذلك قوله تعالى ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ يعني: الجهال بالأحكام. ويقال: لا تدفعوا إلى الكفار، ولهذا كره علماؤنا أن يوكل المسلم ذمياً بالبيع والشراء، أو يدفع إليه مضاربة.

ثم قال تعالى: ﴿**التي جعل الله لكم قياماً**﴾ يعني: الأموال التي جعل الله قواماً لمعاشكم. ثم قال: ﴿**وارزقوهم فيها**﴾ يعني: الأولاد الصغار أطعموهم ﴿واكسوهم﴾ من أموالكم، وكونوا أنتم القوّام على أموالكم ﴿**وقولوا لهم قولاً معروفاً**﴾ يعني: إذا طلبوا منكم النفقة ولم يكن عندكم في ذلك الوقت شيء، فعدوا لهم عدة حسنة، يقول: سأفعل ذلك.

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

ثم قال: ﴿**وابتلوا اليتامى**﴾ يقول: اختبروا اليتامى وجربوا عقولهم، ﴿**حتى إذا بلغوا النكاح**﴾ يعني: الحلم، ويقال: مبلغ الرجال ﴿**فإن آنستم منهم رشداً**﴾ يقول: إذا رأيتم منهم رشداً وصلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم ﴿**فادفعوا إليهم أموالهم**﴾ التي معكم ﴿**ولا تأكلوها إسرافاً**﴾ في غير حق ﴿**وبداراً**﴾ يعني: مبادرة في أكله ﴿**أن يكبروا**﴾ يعني: مخافة أن يكبروا فيأخذوا أموالهم منكم.

ثم قال: ﴿**ومن كان غنياً فليستعفف**﴾ يعني: ليحفظ نفسه عن مال اليتيم ﴿**ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف**﴾. وقد اختلف الناس في تأويل هذه الآية، وقالوا: فيها ثلاثة أقوال. قال بعضهم: يجوز للمعسر أن يأكل على قدر قيامه عليه. وقال بعضهم: لا يجوز أن يأكل إلا على وجه القرض، فيردّ عليه إذا كبر. وقال بعضهم: لا يجوز في الأحوال كلها.

فأما من قال: إنه يجوز أكله على قدر قيامه عليه، فإنه احتج بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إني أنزلتُ مال الله مني بمنزلة مال اليتيم، ﴿**فمن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف**﴾. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رجلاً سأله فقال: يا ابن عباس إن عندي مواشي أيتام، فهل عليّ جناح إن أصبت من رسل مواشيهم؟ قال ابن

Marfat.com

عباس: «إن كنت تبغي ضالتها وتهنأ جرباها وتلوط حياضها ولا تفرط لها يوم وردها، فلا جناح عليك إن أصبت من رسلها». وقال مجاهد كان يقول: «من أدركت من أصحاب النبيّ الله ﷺ أن للوصي أن يأكل بالمعروف مع اليتيم، فإنه يحلب غنمه، ويقوم على ماله ويحفظه».

وأما من قال إنه يجوز أكله على وجه القرض، احتج بما روي عن محمد بن سيرين أنه قال: سألت عبيدة السلماني عن قوله تعالى ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ قال: هو قرض ثم يرد عليه إذا كبر. فقال: ألا ترى أنه قال في سياق الآية ﴿**فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم**﴾؟ وقال أبو العالية: ما أكل فهو دين عليه. وقال الشعبي مثله.

وأما من قال إنه لا يجوز أكله لأن الله تعالى قال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠] وتلك الآية محكمة وهذه من المتشابهة، لأنه يحتمل التأويل: أنهم يأكلون على وجه القرض أو على وجه الإباحة، فيرد حكم المتشابه إلى المحكم. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة بتلك الآية. قال الفقيه رحمه الله: إذا كان الوصي فقيراً، فأكل من مال اليتيم مقدار قيامه عليه، أرجو أن لا بأس به، لأن كثيراً من العلماء أجازوا ذلك والاحتراز عنه أفضل.

قرأ نافع وابن عامر ﴿التي جعل الله لكم قِيَماً﴾ بكسر القاف ونصب الياء بغير ألف، والباقون بالألف ومعناهما قريب. وقال أهل اللغة: قياماً وقواماً وقيماً بمعنى واحد.

وقال تعالى ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم﴾ يعني: إذا أدرك اليتامى ودفعتم إليهم أموالهم ﴿فأشهدوا عليهم﴾ ذلك، وإنما الإشهاد على معنى الاستحباب لنفي التهمة عن نفسه، ولو لم يشهد على ذلك لجاز كقوله تعالى ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ ثم قال: ﴿**وكفى بالله حسيباً**﴾ يعني: شهيداً في أمر الآخرة، وأما في أمر الدنيا فينبغي أن يشهد العدول على ذلك ليدفع القالة عن نفسه، لأن الله تعالى لا يشهد له في الدنيا.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون النساء وإنما يورثون الرجال من كان يقاتل ويحوز الغنيمة، حتى مات أوس بن ثابت الأنصاري وترك ثلاث بنات، وترك امرأة يقال لها: أم كُجّة، فقام ابن عمه وأخذ ماله، فجاءت المرأة إلى النبي ﷺ وذكرت له القصة. ويقال: مات رفاعة وترك ابنه وابنته، فأخذ الابن ميراثه

Marfat.com

كله، فجاءت المرأة إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك فنزل قوله: ﴿للرجال نصيب﴾ يقول: حظ ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾ ﴿وللنساء نصيب﴾ يعني: حظ ﴿مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه﴾ يعني: قل المال ﴿أو كثر نصيباً مفروضاً﴾ يعني: حظاً معلوماً لكل واحد منهم من الميراث، فبيّن في هذه الآية أن للرجال نصيباً وللنساء نصيباً، ولكن لم يبين مقدار نصيب كل واحد منهم. ثم بيّن في الآية التي بعدها فقال: ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى﴾ قال مقاتل: فيها تقديم وتأخير، معناه إذا حضر أولو القربى قسمة الميراث، ﴿فارزقوهم منه﴾ يعني: أعطوهم من الميراث. قال مقاتل: وهذا كان قبل قسمة الميراث.

وقال تعالى: ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ يعني: إذا كانت الورثة كباراً، يعطون من الميراث لذوي القربى، وإن كانت الورثة صغاراً فقولوا لهم ﴿قولاً معروفاً﴾ يعني: عدوا لهم عدة حسنة. تقول لهم الأولياء: إذا أدرك الصغار أمرناهم حتى يعطوكم شيئاً ويعرفوا حقكم. وقال القتبي: ﴿إذا حضر القسمة﴾ فيه قولان: أحدهما: أن تكون قسمة الوصية إذا حضرها أقرباؤكم، فاجعلوا لهم حظاً من الثلث. ووجه آخر: أن تكون قسمة الميراث فارضخوا لهم منها.

قوله تعالى: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم﴾ يقول: وليخش على أولاد الميت الضياع، كما أنكم لو تركتم أولاداً ﴿ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾ يقول: عجزة صغاراً، يعني: الذي يحضره الموت لا يقال له قدم لنفسك وأوص بكذا وكذا حتى يوصي بعامة ماله، فليخش على ذرية الميت كما يخشى على ذرية نفسه. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إذا حضر الرجل الوصية، فلا ينبغي أن يقول له أوص بمالك؛ فإن الله تعالى رازق أولادك، ولكن يقول: له قدِّمْ لنفسك واترك لولدك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ يعني: يقولوا للميت قولاً عدلاً ويقال: وليقولوا قولاً سديداً، وهو أن يلقنه لا إله إلا الله ولا يأمره بذلك، ولكن يقول ذلك في نفسه حتى يسمعه منه ويتلقن. وهكذا قال النبي ﷺ «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لا إِلَهَ إلاَّ الله»(1). ولم يقل مروهم بذلك لأنه لو أمر بذلك، فلعله يغضب ويجحد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ يعني: بغير حق ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ يعني: حراماً، لأن الحرام يوجب النار، فسماه الله باسمها. ويقال: إنه يلقم من النار إذا صار إلى جهنم، فذلك قوله تعالى: ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾. وروي في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال في بعض قصة المعراج أنه قال: «رَأَيْتُ أَقْوَاماً بُطُونُهُمْ كَالجبالِ فِيهَا

(1) حديث أبي سعيد: أخرجه مسلم (٩١٦) وأبو داود (٣١١٧) والنسائي: ٤/ ٥ والترمذي (٩٧٦) وأحمد: ٣/ ٣ وابن ماجة (١٤٤٥) والبيهقي: ٣/ ٣٨٣.

Marfat.com

الحيَاتُ وَالعقَارِبُ، فَقُلْتُ: مَنْ هٰؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً»، ﴿وسيصلون سعيراً﴾ يعني: سيدخلونها في الآخرة.

قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (وسيُصلون) بضم الياء على فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون بنصب الياء، وهذا كقوله: ﴿سيدخلون جهنم﴾. وسيدخلون وقال القتبي في قوله: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم﴾ معناه: وليخش الذين يكفلون اليتامى، وليفعل بهم ما يحب أن يفعله بولده من بعده.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ يعني: يبين الله لكم ميراث أولادكم كما بيّن قسمة المواريث، يعني: إذا مات الرجل أو المرأة وترك أولاداً ذكوراً وإناثاً، فـ ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ يعني: لكل ابن سهمان، ولكل بنت سهم. وروى ابن أبي نجيح عن عطاء قال: «كان ابن عباس يقول: كان الميراث للولد، وكانت الوصية للوالدين والأقربين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للوالدين لكل واحد منهما السدس، وللمرأة الثمن أو الربع، وللزوج النصف أو الربع».

ثم قال تعالى: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين﴾ يعني: إذا ترك الميت بناتاً ولم يترك أبناء، فللبنات إن كن اثنتين فصاعداً ﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾ من الميراث، ولم يذكر في الآية حكم البنتين، ولكن أجمع المسلمون ما خلا رواية عن عبد الله بن عباس أنه قال: «للاثنتين النصف، كما كان يكون للإبنة الواحدة وللثلاث بنات الثلثان» وأما سائر الصحابة فقد قالوا: «إن للاثنتين الثلثين»، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ. روى جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها إلى النبيّ ﷺ، فقالت: يا رسول الله ﷺ، هاتان ابنتا سعد قد قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما ولم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلا ولهما مال». فقال النبي ﷺ: «**سَيَقْضِي الله في ذٰلِكَ**» فأنزل الله آية الميراث، فبعث النبي ﷺ إلى عمهما وقال: «**أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ وَالبَاقِي لَكَ**»[1].

---

(١) حديث جابر: أخرجه الترمذي (٢٠٩٢) وقال: حديث صحيح وأبو داود (٢٨٩٢) وابن ماجه (٢٧٢٠) وصححه الحاكم ٣٤١/٤ ووافقه الذهبي.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾يعني: إن ترك الميت بنتاً واحدة فلها النصف من الميراث، والباقي للعصبة بالخبر. قرأ نافع: ﴿وإن كانت واحدةٌ﴾بالرفع على اسم كانت، وقرأ الباقون بالنصب على معنى الخبر، ويكون الاسم فيه مضمراً.

ثم قال تعالى: ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك﴾الميت من المال ﴿إن كان له ولد﴾يعني: إن كان له ولد ذكر أو أنثى، أو ولد الابن ﴿فإن لم يكن له﴾للميت ﴿ولد﴾ولا ولد ابن ﴿وورثه أبواه﴾يعني: إن لم يكن للميت وارث سوى الأبوين ﴿فلأمه الثلث﴾يعني: للأم ثلث المال والباقي للأب. قرأ حمزة والكسائي: ﴿فلإمه﴾بكسر الألف لكسر ما قبله، وقرأ الباقون ﴿فلأمه﴾بضمّ الألف.

ثم قال تعالى: ﴿وإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾يعني: إذا كان للميت إخوة، وقد اتفق أصحاب رسول الله ﷺ أن اسم الإخوة يقع على الاثنين فصاعداً، إلا في قول ابن عباس: «ثلاثة فصاعداً»، واتفقوا أن الذكور والإناث فيه سواء، فيكون للأم السدس، والباقي للأب.

ثمّ قال تعالى: ﴿من بعد وصية﴾يعني: قسمة الميراث من بعد وصية ﴿يوصى بها﴾ الميت ﴿أو دين﴾يعني: بعد قضاء الدين وإنفاذ الوصية. وروى الحارث عن علي رضي الله عنه قال: «قضى رسول الله ﷺ بالدين قبل الوصية، وأنتم تقرؤون ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾يعني: في الآية تقديم وتأخير[1]، وروي عن ابن عباس هكذا. قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم ﴿يُوصى بها﴾على فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون ﴿يوصي بها﴾يعني: الميت إن كان يوصي بها، أو عليه دين.

ثم قال تعالى: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾يعني: في الآخرة، إذا كان أحدهما أرفع درجة من الآخر، يسأل الله تعالى حتى يرفع إليه الآخر لتقر عينه به فقال: ﴿لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾يعني: أيهم أرفع درجة، فيلحق به صاحبه. ويقال: معناه أن الله علّمكم قسمة المواريث، وأنكم لا تدرون ﴿أيهم أقرب لكم نفعاً﴾يعني: حياً حتى تعطوه حصته، ويقال: ﴿لا تدرون أيهم أقرب﴾موتاً فيرث منه الآخر.

ثم قال تعالى: ﴿فريضة من الله﴾يعني: بيان قسمة المواريث من الله تعالى، ويقال: القسمة فريضة من الله تعالى لا يجوز تغييرها عما أمر الله بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿إن الله كان عليماً﴾بقسمة بالمواريث ﴿حكيماً﴾حكم قسمتها وبيّنها لأهلها. وقال الزجاج: معناه، كان الله ﴿عليماً﴾بالأشياء قبل خلقها، ﴿حكيماً﴾فيما يقدّر ويدبّر منها. وقال بعضهم: لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال، فالخبر منه بالماضي كالخبر

---

(١) حديث علي: أخرجه الترمذي (٢١٢٢) وقال: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم: أنه يبدأ بالدين قبل الوصية. وأبو داود (٢٠٩٥) وابن ماجة (٢٧١٥) وصححه الحاكم ٤/٣٨٨ وأحمد ١/٧٩.

Marfat.com

بالاستقبال. وقال سيبويه: كأن القوم شاهدوا علماً وحكماً، فقيل لهم: إن الله تعالى كان كذلك، أي: لم يزل على ما شاهدتم.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ولكن نصف ما ترك أزواجكم﴾ يعني: إذا ماتت المرأة وتركت زوجاً، فللزوج النصف ﴿إن لم يكن لهن ولد﴾ ذكر أو أنثى أو ولد ابن ﴿فإن كان لهن ولد﴾ أو ولد ابن ﴿فلكم الربع﴾ أي للزوج الرُّبع ﴿ممّا تركن﴾ يعني: مما تركت المرأة ﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ولهن الربع ممّا تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهنّ الثمن ممّا تركتم من بعد وصية يوصون بها أو دين﴾ يعني: إذا مات الزوج وترك امرأة، فللمرأة الربع ﴿إن لم يكن لكم ولد﴾ ولا ولد ابن ﴿فإن كان لكم ولد﴾ فإن كان للميت أي الزوج ولد أو ولد ابن ﴿فلهن الثمن﴾ سواء كان له امرأة واحدة أو أربع نسوة فلهن الربع بغير الولد، والثمن مع الولد لأنه قال: ﴿ولهن الربع﴾ فجعل حصتهنّ الربع أو الثمن. ثم قال: ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ والكلالة: ما خلا الوالد والولد، ويقال: هو اسم الميت الذي ليس له ولد ولا والد. قال أبو عبيدة: هو مصدر من تكلّله النسب أي أحاط به، والأب والابن طرفا الرجل، فسمّي لذهاب طرفيه كلالة. وقرأ بعضهم: ﴿يورِث﴾ بكسر الراء. قال أبو عبيدة: من قرأ ﴿يورث﴾ بكسر الراء جعل الكلالة الورثة، ومن قرأ بنصب الراء جعل الكلالة الميت.

وروى الشعبي عن أبي بكر وعمر أنهما قالا: «الكلالة من لا ولد ولا والد». وروي عنهما

Marfat.com

أيضاً أنهما قالا: «الكلالة ما سوى الولد والوالد». وقال: ﴿أو امرأة﴾ يعني: إن كانت الكلالة هي امرأة.

ثم قال تعالى: ﴿**وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس**﴾ من الميراث ﴿**فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث**﴾ يعني: الإخوة من الأم. وقد أجمع المسلمون أن المراد ها هنا: الإخوة من الأم. لأنه ذكر في آخر السورة: أن للأختين الثلث، ففهموا أن المراد ههنا الأخوة من الأم ﴿**من بعد وصية يوصى بها أو دين**﴾ وقد ذكرناه.

ثم قال تعالى: ﴿**غير مضار وصية من الله**﴾ يعني: غير مضار للورثة، فيوصي بأكثر من الثلث ﴿وصية من الله﴾ يعني: تلك القسمة فريضة من الله ﴿**والله عليم حليم**﴾ يعني: ﴿عليم﴾ بأمر الميراث ﴿**حليم**﴾ على أهل الجهل منكم، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ قطع ميراثاً فرضه اللهُ، قطعَ اللهُ ميراثَهُ في الجنة**»[1] وقرأ بعض المتقدمين: ﴿والله عليم حكيم﴾ يعني: حكم بقسمة الميراث والوصية وقضاء الدين.

ثم قال تعالى: ﴿**تلك حدود الله**﴾ يعني: هذه فرائض الله فيما أمركم به من قسمة المواريث، ويقال: تلك أحكام الله، ويقال: ﴿تلك﴾ بمعنى هذه، يعني: هذه أحكام الله قد بيّنها لكم لتعرفوها وتعملوا بها.

قوله: ﴿**ومن يطع الله ورسوله**﴾ في قسمة المواريث فيقر بها، ويعمل بها كما أمره الله ﴿**يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم**﴾ يعني: ذلك الثواب هو النجاة الوافرة.

قال تعالى: ﴿**ومن يعص الله ورسوله**﴾ في قسمة المواريث، فلم يقسمها ولم يعمل بها كما أمر الله ﴿**ويتعد حدوده**﴾ يعني: يخالف أمره ﴿**يدخله ناراً خالداً فيها**﴾ لأنه إذا جحد صار كافراً ﴿**وله عذاب مهين**﴾ يهان فيه. قرأ نافع وابن عامر: ﴿ندخله جناتٍ﴾ ﴿ندخله ناراً﴾ كلاهما بالنون على معنى الإضافة إلى نفسه، وقرأ الباقون كلاهما بالياء، لأنه سبق ذكر اسم الله تعالى.

﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم**﴾ يعني: الزنى، وهي المرأة الثيب إذا زنت ﴿**فاستشهدوا عليهن**﴾ يعني: اطلبوا عليهن ﴿**أربعة**﴾ من الشهود ﴿**منكم**﴾ يعني: من أحرار

---

(١) ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

المسلمين عدولاً ﴿فإن شهدوا﴾ عليهن بالزنى ﴿فأمسكوهن في البيوت﴾ يعني: احبسوهن في السجن ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ يعني: يمتن في السجن ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ يعني: محيصاً ومخرجاً من الحبس، ثم نسخ فصار حدهن الرجم لما روي عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: «**خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ بِالحِجَارَةِ**»(١).

ثم ذكر في الآية حد البكرين فقال: ﴿واللذان﴾ لم يحصنا ﴿يأتيانها﴾ الفاحشة ﴿منكم﴾ يعني: الأحرار المسلمين ﴿فآذوهما﴾ باللسان، يعني: بالتعيير بما فعلا ليندما على ما فعلا ﴿فإن تابا﴾ من بعد الزنى ﴿وأصلحا﴾ العمل ﴿فأعرضوا عنهما﴾ يعني: فلا تسمعوهما الأذى بعد التوبة ﴿إن الله كان تواباً﴾ يعني: متجاوزاً ﴿رحيماً﴾ بهما. ثم نسخ الحبس والأذى بالرجم والجلد، وإنما كان التعيير في ذلك الزمان لأن التعيير حل محل الجلد، وأما اليوم فلا ينفعهم التعيير. وروي ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة﴾ ﴿واللذان يأتيانها منكم﴾ كان ذلك في أول الأمر، ثم فنسختها الآية التي في سورة النور. قرأ ابن كثير: ﴿واللذانّ﴾ بتشديد النون، لأن الأصل واللذيان. فحذف الياء وأقيم التشديد مقامه، وقرأ الباقون بالتخفيف.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله﴾ يعني: قبول التوبة على الله، ويقال: توفيقه على الله، ويقال: إنما التجاوز من الله ﴿للذين يعملون السوء بجهالة﴾ قال ابن عباس: «كل مؤمن يذنب فهو جاهل في فعله»، ويقال: إنما الجهالة إنهم يختارون اللذة الفانية على اللذة الباقية، وذلك الجهل لا يسقط عنهم العذاب إلا أن يتوبوا.

ثم قال تعالى: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ قال ابن عباس: «كل من تاب قبل موته فهو قريب» ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ يعني: يقبل توبتهم ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ يعني: ﴿عليماً﴾ بأهل التوبة ﴿حكيماً﴾ حكمَ بالتوبة. وقال مقاتل: نزلت الآية في رجل من قريش سكر وذكر فيه شعراً، وذكر اللات والعزى وأنكر البعث، فلما أصبح أخبر بذلك فندم على ذلك ثم استرجع، فنزلت الآية ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ يعني: قبل الموت.

---

(١) حديث عبادة: أخرجه مسلم (١٦٩٠) (١٢) (١٣) (١٤) وأبو داود (٤٤١٦) والترمذي (١٤٣٤) والدارمي ٢/١٨١ وأحمد: ٥/٣١٣، ٣٣٠ والبيهقي ٨/٢١٠.

Marfat.com

قال: حدّثنا محمد بن الفضل، قال: حدّثنا محمد بن جعفر، قال: حدّثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدّثنا أبو حفص، عن صالح المري، عن الحسن قال: «من عيّر أخاه بذنب قد تاب إلى الله فيه ابتلاه الله به». وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[1]. وقال الحسن: «إن إبليس لما أهبط من الجنة، قال: بعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام الروح في جسده. قال الله تعالى: فبعزتي لا أحجب التوبة عن ابن آدم ما لم يغرغر بنفسه». قال أبو العالية الرياحي: نزلت أول الآية في المؤمنين، والوسطى في المنافقين، والأخرى في الكافرين. فأما توبة المؤمنين فذكرها قد مضى. وأما ذكر توبة المنافقين فقوله تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ الآية. يعني: ليس قبول التوبة للذين أصروا على فعلهم ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ يعني: الشرق والنزع ومعاينة ملك الموت ﴿قال إني تبت الآن﴾ فليس لهذا توبة. ثم ذكر توبة الكفار فقال: ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ يعني: وجيعاً دائماً.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قال ابن عباس: «كانوا في الجاهلية وفي أول الإسلام، إذا مات الرجل وله امرأة، وله ولد من غيرها، أو وارث غير الابن، فألقى ثوبه عليها وورث نكاحها بالصداق الأول، ويقول: أنا وليّ زوجك فورثتُكِ. فإن كانت جميلة أمسكها، وإن لم تكن جميلة طوّل عليها لتفتدي منه، فنزلت هذه الآية». وقال في رواية الضحاك: «كان الرجل عنده عجوز ونفسه تتوق إلى الشابة، فيكره فراق العجوز لمالها، فيمسكها ولا يقرَبُها حتى تفتدي منه بمالها أو تموت، فيرث مالها، فنزلت هذه الآية». وأمر الزوج بأن يطلقها إن كره صحبتها فلا يمسكها كرهاً. فذلك قوله تعالى. ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قرأ عاصم وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ونافع: ﴿كَرهاً﴾ بنصب الكاف. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿كُرها﴾ بالضم. قال القتبي: الكره بالنصب بمعنى الإكراه، والكُره المشقة، ويقال: ليفعل ذلك طوعاً أو كرْهاً، يعني: طائعاً أو مكرهاً.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تعضلوهن﴾ يعني: لا تمنعوهن من الأزواج ﴿لتذهبوا ببعض ما

(١) حديث ابن عمر: أخرجه الترمذي (٣٥٣٨) وقال: حسن غريب وابن ماجه (٤٢٥٣) وأحمد ٢/ ١٣١ وصححه الحاكم ٤/ ٢٥٦ والدر المنثور ٢/ ٤٦٠.

Marfat.com

آتيتموهن﴾ من المهر ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبيِّنة﴾ وهي المعصية في النشوز على زوجها، فيحل له ما أخذ منها. ويقال: إلا أن تزني فيحل له أن يفتديَ منه، يعني: إذا كانت بطيبة نفسها. قرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر ﴿بفاحشة مُبيَّنة﴾ بنصب الياء، وقرأ الباقون بكسر الياء. فمن قرأ بالكسر يكون الفعل للفاحشة يعني: فاحشة ظاهرة تبين منها نفسها. ومن قرأ بالنصب يكون بمعنى المفعول. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في محصن بن قيس، وامرأته هند بنت المغيرة وفي جماعة. وقال الكلبي: نزلت في حُصين بن أبي قيس وامرأته كبشة بنت معن.

ثم قال تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ يقول: صاحبوهن بالجميل ﴿فإن كرهتموهن﴾ يعني: كرهتم صحبتهن ﴿فعسى﴾ يقول: فلعل ﴿أن تكرهوا شيئاً﴾ من صحبتكم إياهن ﴿ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ يعني: في صحبتهنَّ يرزق لكم ولداً صالحاً، وهذا كقوله عز وجل ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ ويقال ﴿ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ يعني: لعله إن أمسكها فيعطفه الله عليها من بعد ذلك، وأما أن يخلي سبيلها فيزوجها الله زوجاً غيره، فيرزقها الله منه الولد.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج﴾ يعني: تغيير زوج ﴿مكان زوج﴾ يعني: إذا أراد أن يطلق امرأته ولم يكن منها نشوز، وأراد أن يتزوج غيرها ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ من المهر من ذهب. قال مجاهد: القنطار سبعون ألف دينار. وقال عطاء: سبعة آلاف دينار. وقال الحسن: ألف دينار أو إثنا عشر ألف درهم. وقال قتادة: يقال القنطار مائة رطل من ذهب، أو ثمانون ألفاً من وَرِقٍ. وروي عن عبد الوهاب بن عطاء عن الكلبي قال: كل ما لم أسنده لكم فهو كله عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: «القنطار ألف مثقال مما كان من ذهب أو فضة».

ثم قال تعالى: ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ يقول: فلا تستحلوا أن تأخذوا مما أعطيتم شيئاً إذا لم يكن النشوز من قبلها. ثم قال: ﴿أتأخذونه بهتاناً﴾ يقول: أتستحلون أخذه ظلماً ﴿وإثماً مبيناً﴾ يعني: ذنباً ظاهراً.

ثم قال تعالى: ﴿وكيف تأخذونه﴾ يقول: كيف تستحلون أخذه، يعني: أخذ مهورهن ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ يقول: قد اجتمعا في لحاف واحد. قال الفراء: الإفضاء أن يخلو الرجل والمرأة وجامعها، أو لم يجامعها إذا كان معها في لحاف واحدٍ، جامعها أو لم يجامعها فقد وجب المهر. وقال الكلبي: الإفضاء إذا كان معها في لحاف واحد، جامعها أو لم يجامعها، فقد وجب المهر. وروى عوف الأعرابي عن زرارة بن أبي أوفى قال: «قضى الخلفاء الراشدون المهديون أن من أغلق باباً وأرخى ستراً، فقد وجب المهر والعدة». وقال مقاتل:

Marfat.com

الإفضاء الجماع. وبهذا القول قال بعض الناس. وأما علماؤنا رحمهم الله قالوا: إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والعدة، دخل بها أو لم يدخل بها.

ثم قال: ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ يقول: أوجبن عليكم عهداً وثيقاً بالنكاح. وهو قوله ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] فصار ذلك على الرجال ميثاقاً غليظاً من النساء، ثم بيّن ما يحل للرجال من النساء وما لا يحل فقال:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

فقال تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ يعني: لا تتزوجوا من قد تزوج آباؤكم من النساء، ويقال: اسم النكاح يقع على الجماع والتزوج، فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح، حرمت على ابنه. ثم قال: **﴿إلا ما قد سلف﴾** يقول: لا تفعلوا سوى قد فعلتم في الجاهلية، وكان الناس يتزوج الرجل منهم امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ حتى نزلت الآية ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ الآية. فصار حراماً في الأحوال كلها. ويقال: ﴿إلا ما قد سلف﴾ يعني: ولا ما قد سلف كقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢] يعني: ولا خطأ. وقد قيل: إن في الآية تقديماً وتأخيراً، ومعناه: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء، ﴿إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾ إلا ما قد سلف. وقد قيل: إن في الآية إضماراً يقول: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ فإنكم إن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون ﴿إلا ما قد سلف﴾. ثم قال: ﴿إنه كان فاحشةً﴾ أي: معصية ﴿ومقتاً﴾ أي: بغضاً ﴿وساء سبيلاً﴾ أي بئس المسلك.

ثم قال تعالى: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ يعني: نكاح أمهاتكم، فذكر الأمهات والمراد منه: الأمهات والجدات.

ثم قال تعالى: ﴿وبناتكم﴾ ذكر البنات، والمراد به البنات والحفيدات، أي: بنات الأولاد.

ثم قال تعالى: ﴿وأخواتكم﴾ يعني: من النسب إلى قوله: ﴿وأخواتكم من الرضاعة﴾ ﴿وعماتكم﴾ يعني: أخوات أبيكم. ﴿وخالاتكم﴾ يعني: أخوات أمكم ﴿وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وأمهات نسائكم﴾ يعني: نكاح أمهات نسائكم حرام عليكم، سواء دخل بالابنة أو لم يدخل بها، هكذا روي عن ابن عباس وعن جماعة من الصحابة أنهم قالوا ذلك.

ثم قال: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ يعني: حرام عليكم نكاح بنات نسائكم﴿اللاتي في حجوركم﴾ يعني: التي يربيها في حجره، إذا دخل بأمها﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ يعني: إن لم يكن دخل بأمها فهي حلال له أن يتزوجها، وقد اتفقوا على أن كونها في الحجر ليس بشرط، غير قول روي عن بعض المتقدمين، وإنما ذكر الحجر لتعارفهم فيما بينهم، وتسميتهم بذلك الاسم.

ثم قال تعالى: ﴿وحلائل أبنائكم﴾ يعني: حرام عليكم نساء أبنائكم﴿الذين من أصلابكم﴾ يقال: إنما اشترط كون الأبناء الأصلاب لزوال الاشتباه، لأن القوم كانوا يتبنون في ذلك الوقت ويجعلون الابن المتبنى بمنزلة ابن الصلب في الميراث والحرمة. وتبنى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، فتزوج زيد بن حارثة امرأة ثم طلقها، فتزوجها رسول الله ﷺ، فعيّره المشركون بذلك وقالوا: تزوج امرأة ابنه، فنزل قوله تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وذكر في هذه الآية فقال: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ لكي لا يظن أحد أن امرأة الابن المتبنى تحرم عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾ يعني: حرام عليكم أن تجمعوا بين الأختين في النكاح في حالة واحدة، ثم قال: ﴿إلا ما قد سلف﴾ يقول: إلا ما قد مضى في الجاهلية. وروى هشام بن عبيدالله، عن محمد بن الحسن أنه قال: «كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات كلها التي ذكر في هذه الآية إلا اثنتين، أحدهما: نكاح امرأة الأب، والثانية: الجمع بين الأختين. ألا ترى أنه قال: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾. ويقال: ﴿إلا ما قد سلف﴾، يعني: دع ما قد مضى ﴿إن الله كان غفوراً﴾ لما كان في الجاهلية﴿رحيماً﴾ بما كان في الإسلام لمن تاب من ذلك.

﴿۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)﴾

ثم قال تعالى: ﴿والمحصنات من النساء﴾ قال في رواية الكلبي وفي رواية الضحاك: يعني ذوات الأزواج حرام عليكم﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ من السبايا، فإذا ملك الرجل امرأة لها زوج في دار الحرب واستبرأ رحمها بحيضة، فهي حلال له. وهذا موافق لما روي عن أبي سعيد الخدري: «أن المسلمين أصابوا يوم أوطاس سبايا لهن أزواج من المشركين، فتأثم المسلمون منهن وقالوا: لهن أزواج، فأنزل الله تعالى﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾

Marfat.com

يقول: ما أفاء الله عليكم من ذلك. وإن كان لهن أزواج من المشركين، فلا بأس بأن يأتيها الرجل إذا استبرأ رحمها. وقال في رواية مقاتل: ﴿والمحصنات من النساء﴾ يعني: كل امرأة ليست تحتكم، فهي حرام عليكم. ثم استثنى من المحصنات فقال: ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ يعني: إلا ما قد تزوجتم من النساء مثنى وثلاث ورباع.

ثم قال تعالى: ﴿كتاب الله عليكم﴾ يقول: هذا ما حرم عليكم في الكتاب، ويقال: ﴿كتاب الله عليكم﴾ معناه: هذا الذي يقرأ عليكم هو كتاب الله تعالى، فاتبعوه ولا تخالفوه. وقال الزجاج: ﴿كتاب الله عليكم﴾ منصوب على التأكيد، محمول على المعنى، لأن معناه: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ كتب الله عليكم هذا كتاباً. ويجوز أن يكون منصوباً على جهة الأمر، كأنه قال: الزموا كتاب الله، ويكون ﴿عليكم﴾ تفسيراً له.

ثم قال تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ يقول: رخص لكم ما سوى ذلكم، فالله تعالى قد ذكر ما حرم في هذه الآية من قوله ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ أربع عشرة من المحرمات، سبع بالنسب وسبع بالسبب. ثم بيّن المحللات فقال: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ يعني: ما سوى هذه الأربع عشرة التي ذكر في هذه الآية، فلو كان الأمر على ظاهر هذه الآية، لكان يجوز ما سوى ذلك، إلا أنه قد جاء الأثر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»[1] وقال: «**لا تُنْكَحُ المَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلا عَلَى خَالَتِهَا ولا تُنْكَحُ الأمةُ على الحُرَةِ**»[2]. فوجب اتباعه لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿وأحل لكم﴾ بضم الألف وقرأ الباقون بالنصب، فمن قرأ بالضم لأنه عطف على قوله ﴿حرمت عليكم﴾. ومن قرأ بالنصب لأنه نسق على قوله ﴿كتاب الله عليكم﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أن تبتغوا بأموالكم﴾ يعني: أن تتزوجوا بأموالكم، ويقال: تشتروا بأموالكم الجواري ثم قال: **﴿محصنين غير مسافحين﴾** يقول: كونوا متعففين من الزنى غير زانين.

ثم قال: ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ قال مقاتل: يعني به المتعة، أي فما استمتعتم منهن إلى أجل مسمى ﴿فآتوهن أجورهن﴾ يعني: أعطوهن ما شرطتم لهن من المال. وإنما كانت إباحة المتعة في بعض المغازي، ثم نهي عن ذلك. وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿فما استمتعتم

---

(١) حديث عائشة: أخرجه البخاري (٥٠٩٩) و(٥٢٣٩) ومسلم (١٤٤٤) (١) (٢) وأحمد: ٦/ ٣٨، ١٩٤.

(٢) حديث أبي هريرة: أخرجه مالك ٢/ ٥٣٢ والبخاري (٥١٠٩) ومسلم (١٤٠٨) (٣٣) والنسائي ٦/ ٩٦، ٩٧ والبيهقي ٧/ ١٦٥ وأحمد ٢/ ٤٦٢. وحديث جابر: في البخاري (٥١٠٨) والنسائي ٦٠/ ٩٨ وأحمد ٣/ ٣٣٨.

Marfat.com

به منهن﴾ إلى أجل مسمى. وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال: «ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها هذه الأمة، ولولا نهي عمر عنها ما زنى إلا شقي»[١]. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «إنما رخص في المتعة في بعض المغازي، ثم نسختها آية الطلاق والميراث والعدة»[٢]. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ قال: النكاح، يعني: إن تمتعتم ﴿فآتوهن أجورهن﴾ يعني مهورهن. وقال في رواية الكلبي: ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ بعد النكاح فآتوهن أجورهن، يعني: مهورهن ﴿فريضة﴾ لهن عليكم. وقال الضحاك: ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ يعني: فما تزوجتم بهن فأعطوهن مهورهن.

ثم قال تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ قال بعضهم: يعني المتعة قبل أن تنسخ، أجاز لهما أن يتراضيا على زيادة الأجل والمال. وقال بعضهم: يعني المهر، لا جناح على الزوجين أن يتراضيا بعد النكاح على زيادة المهر **﴿إن الله كان عليماً﴾** فيما رخص لكم من نكاح الأجانب **﴿حكيماً﴾** فيما حرم عليكم من ذوات المحارم.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥)﴾

ثم قال تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ أي غنى، يقول: من لم يجد منكم سعة في المال **﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾** يعني: الحرائر، فليتزوج **﴿فمن ما ملكت أيمانكم﴾** من الإماء. ويقال: ﴿من لم يستطع منكم طولاً﴾، يعني: من لم تكن له مقدرة على الحرة، فليتزوج الأمة، يعني: إذا لم يكن له امرأة حرة. وقد قال بعض الناس: إذا كان للرجل من المال مقدار ما يمكنه أن يتزوج بالحرة، لا يجوز له أن يتزوج الأمة. وفي قول علمائنا: يجوز إذا لم يكن عنده امرأة حرة، لأنه لو صرف إلى ذلك الوجه لا يضر، لأن كل مال يمكن أن يتزوج به الأمة يمكن أن يتزوج به الحرة، ولكن معناه: كون الحرة عنده أفضل.

ثم قال تعالى: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ يعني: يتزوج الأمة المسلمة. وقال بعض الناس: لا يجوز أن يتزوج أمة يهودية أو نصرانية، لأن الله تعالى قال ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾. وفي

---

(١) عزاه السيوطي ٢/ ٤٨٦ إلى عبد الرزاق وابن المنذر والبيهقي.

(٢) عزاه السيوطي ٢/ ٢٨٧ إلى عبد الرزاق وابن المنذر.

Marfat.com

قول علمائنا: يجوز نكاح الأمة اليهودية والنصرانية، وذكر المؤمنات ليس بشرط أنه لا يجوز غيرها، وهذا بمنزلة قوله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣] فإن خاف ألا يعدل فيتزوج أكثر من واحدة جاز، ولكن الأفضل أن لا يتزوج، فكذلك ها هنا الأفضل أن لا يتزوج الأمة، إلا المؤمنة ولو تزوج غير المؤمنة جاز.

ثم قال تعالى: ﴿والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض﴾ في الحقيقة، وأنتم تعرفون الظاهر وليس عليكم أن تبحثوا عن الباطن. وقال مقاتل: في الآية تقديم وتأخير، ومعناه: فما ملكت أيمانكم ﴿بعضكم من بعض﴾ يعني: يتزوج هذا وليدة هذا، وهذا وليدة هذا. ثم قال: ﴿والله أعلم بإيمانكم﴾، يعني: بعضكم من بعض في النسب، يعني: كلكم ولد آدم ولا فخر فيما بينكم. ويقال: دينكم واحد، يعني: بعضكم على دين بعض.

ثم قال تعالى: ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ يعني: الولائد بإذن أربابهن **﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾** يقول: أعطوهن مهورهن ﴿بالمعروف﴾، يقول: مهراً غير مهر البغي، بعدما أطلق ذلك.

ثم قال: ﴿محصنات﴾ يقول: عفائف **﴿غير مسافحات﴾** يقول: غير زواني، ويقال: غير معلنات بالزنى **﴿ولا متخذات أخدان﴾** يعني: أخلاء في السر، لأن أهل الجاهلية كان فيهن زواني في العلانية، ولهن رايات منصوبة وبعضهن اتخذن أخداناً يعني: أخلاء في السر، ولا يفعلن بالعلانية، فنهى الله عن نكاح الفريقين جميعاً. فقال: تزوجوا محصنات غير معلنات بالزنى ولا في السر. قرأ الكسائي: ﴿مُحصِنات﴾ بكسر الصاد في جميع القرآن إلا في قوله ﴿والمحصناتُ من النساء﴾ وقرأ الباقون في جميع القرآن بالنصب.

وقوله عز وجل: ﴿فإذا أحصن﴾ يعني: أسلمن. ويقال: إذا أعففن. قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿فإذا أحصنَ﴾ بالنصب. وقرأ الباقون ﴿فإذا أُحصن﴾ بضمّ الألف. وروي عن ابن مسعود: أنه كان يقرأ بالنصب، ومعناه: إذا أسلمن. وقرأ ابن عباس بالضم، يعني: أحصن بالأزواج. **﴿فإن أتين بفاحشة﴾** يعني: الزنى **﴿فعليهن﴾** يعني: وجب عليهن **﴿نصف ما على المحصنات من العذاب﴾** يعني: إذا زنت الأمة فحدّها نصف حدّ الحرة، خمسون جلدة. والفائدة في نقصان حدهن والله أعلم: أنهن أضعف من الحرائر، فجعل عقوبتهن أقل. ويقال: لأنهن لا يصلن إلى مرادهن كما تصل الحرائر إلى مرادهن. ويقال: لأن العقوبة تجب على قدر النعمة، ألا ترى أن الله تعالى قال لأزواج النبي ﷺ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٠] فلما كانت نعمتهن أكثر جعل عقوبتهن أشد، فكذلك الأمة لما كانت نعمتها أقل كانت عقوبتها أدنى. وذكر في الآية حد الإماء خاصة ولم يذكر حد العبيد، ولكن حد العبيد والإماء سواء: خمسون جلدة في الزنى، وفي حد القذف وشرب الخمر: أربعون جلدة. لأن حد الأمة إنما نقص لنقصان الرق، وذلك في العبد موجود،

Marfat.com

ألا ترى أنه روي. وروي عن عمر بن الخطاب وعليّ رضي الله عنهما أنهما قالا: «حدّ العبد نصف حد الحر».

ثم قال تعالى: ﴿**ذلك**﴾ أي: هذا الذي ذكر في الآية، وهو رخصة نكاح الأمة ﴿**لمن خشي العنت منكم**﴾ يعني: الإثم في دينه. ويقال: الزنى والفجور. قال القتبي: أصله الضرُّ والإفساد.

ثم قال تعالى ﴿**وأن تصبروا**﴾ يعني: عن نكاح الإماء ﴿**خير لكم**﴾ من تزوجهن، لأنه لو تزوج الأمة يصير ولده عبداً. وروي عن عمر أنه قال: «أيما حر تزوج بأمة فقد أرق نصفه»، يعني: يصير ولده رقيقاً، فالصبر عن ذلك أفضل لكيلا يرق ولده. وقال مجاهد: ﴿**وأن تصبروا**﴾ على نكاح الأمة ﴿**خير لكم**﴾ من أن تقعوا في الفجور. ﴿**والله غفور**﴾ لما أصبتم منهن قبل تحليله ﴿**رحيم**﴾ حين رخص في نكاح الأمة. ويقال: ﴿**رحيم**﴾ إذ لم يعجل العقوبة.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**يريد الله ليبين لكم**﴾ يعني: بيّن لكم أن الصبر خير لكم من نكاح الإماء، ويقال: يبين لكم إباحة نكاح الأمة عند العذر. ثم قال: ﴿**ويهديكم سنن الذين من قبلكم**﴾ يعني: شرائع الذين من قبلكم بأنه لم يحل لهم تزوج الإماء، وقد أحل لكم ذلك. وقال مقاتل: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ حلاله وحرامه من النساء، ﴿ويهديكم﴾ أي: يبين لكم شرائع من كان قبلكم. ﴿**ويتوب عليكم**﴾ يعني: يتجاوز عنكم ما فعلتم قبل التحريم ﴿**والله عليم**﴾ بمن فعله منكم بعد التحريم ﴿**حكيم**﴾ فيما نهاكم عن نكاح الاماء يعني: لمن لم يجد طولاً. والنهي نهي استحباب لا نهي الوجوب. ويقال: إن هذا ابتداء القصة، ﴿يريد الله أن يبين لكم﴾ كيفية طاعته ﴿ويهديكم﴾ يعني: يعرفكم ﴿سنن الذين من قبلكم﴾، أي: أنهم لما تركوا أمري فكيف عاقبتهم؟ وأنتم إذا فعلتم ذلك لا أعاقبكم، ولكني أتوب عليكم ﴿والله عليم﴾ بمن تاب ﴿حكيم﴾ حكم بقبول التوبة.

ثم قال تعالى: ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾ يعني: يتجاوز عنكم ما كان منكم قبل التحريم، ويقال: ويتجاوز عنكم الزلل والخطايا ﴿**ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً**﴾ يعني أن تخطئوا خطأ عظيماً، لأن بعض الكفار كانوا يجيزون نكاح الأخت من الأب، ويقال: إن اليهود يريدون أن يقفوا منكم على الزلل والخطايا، يعني: أن الله قد بين لكم لكي لا يقفوا منكم على الزنا والخطايا.

ثم قال: ﴿**يريد الله أن يخفف عنكم**﴾ يقول: يهون عليكم الأمر، إذ رخص لكم في نكاح

Marfat.com

الأمة، ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ يعني: لا يصبر على النكاح. وقال الضحاك: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ يريد: أن يضع عنكم أوزاركم، ويضع عنكم آثامكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ يعني: بالظلم باليمين الكاذبة ليقطع بها مال أخيه في تجارته. ثم استثنى ما استفضل الرجل من مال أخيه في تجارته: أنه لا بأس به فقال: ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ ويقال: إلا ما كان بينهما تجارة، وهو أن يكون مضارباً له، فله أن يأكل من مال المضاربة إذا خرج إلى السفر. ويقال: إلا ما يأكل الرجل شيئاً عند الشراء ليذوقه. وقد قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿تجارة﴾ بنصب الهاء على معنى خبر تكون. وقرأ الباقون بالضم على معنى الاسم.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ يعني: لا يقتل بعضكم بعضاً، فإنكم أهل دين واحد. وقيل ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ يعني أن يوجب الرجل على نفسه قتل نفسه، فإيجابه باطل. وقال القتبي: ﴿ولا تأكلوا أموالكم﴾ يعني: لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، ولا يقتل بعضكم بعضاً كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١١] أي: لا تعيبوا إخوانكم. ويقال: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ يعني: لا تقتلوها بالكسل والبخل ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾ إذ نهى عن القتل وعن أخذ الأموال بالباطل.

قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً﴾ يعني: اعتداء، ويقال: مستحلاً ﴿وظلماً﴾ وجوراً ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ هذا وعيد لهم من الله تعالى، يعني: يدخله في الآخرة النار ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ يعني: عذابه هين على الله.

قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ قال مقاتل: يعني ما نهي عنه من أول هذه السورة إلى هذه الآية. وقال في رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه. ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ الكبائر: كل شيء سمى الله فيه النار لمن عمل بها، أو شيء نزل فيه حدّ في الدنيا»، فمن اجتنب من هذا وهو مؤمن كفّر الله عنه ما سواه من الصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، وشهر رمضان إلى شهر رمضان إن شاء الله تعالى.

قال: حدّثنا محمد بن الفضل، قال: حدّثنا محمد بن جعفر، قال: حدّثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدّثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي الضحاك، عن مسروق، عن ابن مسعود

Marfat.com

قال: «الكبائر من أول السورة إلى قوله ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾. وروي عن ابن مسعود أنه قال: «الكبائر أربعة: الإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، والشرك بالله». وروى عامر الشعبي عن النبي ﷺ أنه قال: **«ألا أُنبئكُم بأكبرِ الكَبائِرِ: الإشْرَاكُ باللهِ، وَعُقوقُ الوَالِدَيْنِ واستحلاله حرمة بيت الله الحرام، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ»**. - وقال ابن عمر: «الكبائر تسعة: الشرك بالله، وقتل المؤمن متعمداً، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والسحر، وعقوق الوالدين، واستحلال حرمة البيت الحرام.»[1] - ويقال: الكبائر ما أصر عليها صاحبها. ويقال: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

ثم قال تعالى: ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ يقول: نمحو عنكم ذنوبكم ما دون الكبائر ﴿وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ في الآخرة وهي الجنة. قرأ نافع: ﴿مدخلاً﴾ بنصب الميم، والباقون بالضم. فمن قرأ بالنصب فهو اسم الموضع وهو الجنة، ومن قرأ بالضم فهو المصدر والموضع جميعاً.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ قال ابن عباس: «يعني لا يتمنى الرجل مال أخيه، ولا امرأته، ولا دابته، ولكن ليقل: اللهم ارزقني مثله». وقال الكلبي مثله. وفيها وجه آخر وهو: أن الرجال قالوا: إن الله فضلنا على النساء، فلنا سهمان ولهن سهم، ونرجو أن يكون لنا أجران في الأعمال». وقالت أم سلمة: «ليت الجهاد كتب على النساء.» فنزلت هذه الآية ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ **﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾** ويقال: إن النساء قلن: كما نقص سهمنا في الميراث، كذلك ينقص من أوزارنا، ويكون الإثم علينا أقل من الرجال، فنزلت الآية ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا﴾ ولا يتمنى أحدكم أكثر مما عمل ﴿وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ من الشر ولا ينقص منهن شيء مما عملن من الإثم.

قوله: ﴿واسألوا الله﴾ جميعاً الرجال والنساء **﴿من فضله﴾** أي من رزقه **﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾** فيما يصلح لكل واحد منهم من السهام، وبمن يصلح للجهاد. قرأ ابن كثير

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

والكسائي ﴿وَسَلوا الله﴾ بغير همز في جميع القرآن. وقرأ الباقون ﴿واسألوا الله﴾ بالهمز وأصله الهمز، إلا أنه حذف الهمز للتخفيف.

قوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ يعني: بينا موالي، يعني الورثة من الولد والإخوة وابن العم. ويقال: الموالي العصبة: العم، وابن العم، وذوو القربى كقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ [سورة مريم: ٥] معناه: ولكل واحد منكم جعلنا الورثة لكي يرث ﴿مما ترك﴾ وهم ﴿الوالدان والأقربون﴾.

ثم قال: ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ قال الكلبي ومقاتل: كان الرجل يرغب في الرجل، فيحالفه ويعاقده على أن يكون في ميراثه كبعض ولده ثمّ قال: ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ يعني: أعطوهم حظهم الذي سميتم لهم من الميراث هكذا قال مجاهد ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [سورة الأنفال: ٧٥] ويقال: إنهم كانوا يوصون لهم بشيء من المال، فأمرهم بأن يؤتوا نصيبهم من الثلث. ويقال: أراد به مولى الموالاة كانوا يورّثون السدس.

ثم قال تعالى: ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ يعني: شاهداً إن أعطيتم أو لم تعطوهم. قرأ أهل الكوفة حمزة والكسائي وعاصم: ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ بغير ألف، والباقون بالألف. قال أبو عبيدة: والاختيار ﴿عاقدت﴾ بالألف لأنه من معاقدة الحلف، فلا يكون إلا بين اثنين. ومن قرأ ﴿عقدت﴾ معناه: عقدت لهم أيمانكم فأضمر فيها لهم.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ نزل في سعد بن الربيع، لطم امرأته بنت محمد بن مسلمة، فجاءت إلى رسول الله ﷺ، فأمرها رسول الله ﷺ بالقصاص، فنزل عليه جبريل عليه السلام من ساعته بهذه الآية ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ يعني: مسلطون في أمور النساء وتأديبهنّ **﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾** وذلك أن الرجل له الفضل على امرأته في إنفاقه عليها، ودفع الحق إليها. ويقال: إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير، فجعل لهم حق القيام عليهن بما لهم من زيادة عقل، ليس ذلك للنساء. ويقال: للرجال زيادة قوة في النفس والطبع ما ليس للنساء، لأن طبع الرجال غلب عليه الحرارة واليبوسة، فيكون فيه قوة وشدة، وطبع النساء غلبت عليهنّ الرطوبة والبرودة، فيكون فيها معنى اللين والضعف، فجعل لهم حق القيام عليهن بذلك.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ يعني: فضلوا على النساء بما أنفقوا من أموالهم عليهن من المهر والنفقة. ثم قال: **﴿فالصالحات قانتات﴾** يعني: المحصنات من النساء في الدين، ﴿قانتات﴾ أي: مطيعات لله تعالى ولأزواجهن. ويقال: ﴿الصالحات﴾ يعني: المحسنات إلى أزواجهن ﴿قانتات﴾ يعني: مطيعات لله عز وجل ولأزواجهن. ويقال: الصالحات يعني الموحدات ﴿قانتات﴾ يعني: قائمات بأمور أزواجهن **﴿حافظات للغيب﴾** يعني: لغيب أزواجهن في فروجهن، وفي أموال الأزواج **﴿بما حفظ الله﴾** يقول: يحفظ الله إياهن. قال مقاتل: وما صلة، يعني: يحفظ الله لهن.

ثم قال عز وجل: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾ يعني: تعلمون عصيانهن **﴿فعظوهن﴾** بالله، يعني: يقول لها: اتقي الله، فإن حق الزوج عليك واجب فإنْ لم تقبل ذلك، فقوله تعالى: ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ قال الكلبي: يعني: يسبُّها وذلك هو الهجر، ويقال: لا يقرب فراشها، لأن الزوج إذا أعرض عن فراشها، فإن كانت محبة للزوج يشق عليها فترجع إلى الصلاح، وإن كانت مبغضة فتظهر السرور، فيتبين أن النشوز من قبلها. وقال الضحاك: ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ يعني: يعرض عنها، فإن ذلك يغيظها، فإن لم ينفعها ذلك ﴿واضربوهن﴾ يعني: ضرباً غير مبرح **﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾** يقول: لا تطلبوا عليهن عللاً، ولا تكلفوهن من الحب لكم، فإن الحب أمر القلب وليس ذلك بيدها **﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾** يعني: رفيعاً علا فوق كل كبير، فلا يطلب من عباده الحب، ولا يكلفهم ما لا يطيقون، ويطلب منهم الطاعة، فأنتم أيضاً لا تكلفوهن. ويقال: إن الله مع علوه يتجاوز عن عباده، فأنتم أيضاً تجاوزوا ولا تطلبوا العلل.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ، وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

ثم قال تعالى للأولياء ﴿وإن خفتم شقاق بينهما﴾ يقول: إن علمتم خلافاً بين الزوجين، ويقال: إن خفتم الفراق بينهما ولا تدرون من قبل أيهما يقع النشوز **﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾** يعني: رجلاً عدلاً من أهل الزوج له عقل وتمييز، يذهب إلى الرجل ويخلو به، ويقول له: أخبرني ما في نفسك، أتهواها أم لا حتى أعلم بمرادك؟ فإن قال: لا حاجة لي بها، خذ مني لها ما استطعت وفرّق بيني وبينها، فيعرف أن من قبله جاء النشوز. وإن قال: فإني أهواها فأرضيها من مالي بما شئت ولا تفرق بيني وبينها، فيعرف أنه ليس بناشز. ويخلو ولي المرأة بها ويقول: أتهوين زوجك أم لا؟ فإن قالت: فرّق بيني وبينه وأعطه من مالي ما أراد، علم أن النشوز من قبلها. وإن قالت: لا تفرق بيننا ولكن حثه حتى يزيد في نفقتي ويحسن إلي،

Marfat.com

علم أن النشوز ليس من قبلها. فإذا ظهر لهما الذي كان النشوز من قبله يقبلان عليه بالغلظة والزجر والنهي، وذلك قوله تعالى ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ ﴿إن يريدا إصلاحاً﴾ يعني: عدلاً فينظران في أمرهما بالنصيحة والموعظة ﴿يوفق الله بينهما﴾ بالصلاح ويقال: كل اثنين يقومان في الإصلاح بين اثنين بالنصيحة، يقع الصلح بينهما لقوله تعالى ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾.

ثم قال: ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ يعني: ﴿عليماً﴾ بهما، ﴿خبيراً﴾ بنصيحتهما. وفي هذه الآية دليل على إثبات التحكيم، وليس كما يقول الخوارج: إنه ليس الحكم لأحد سوى الله تعالى، فهذه كلمة حق ولكن يريدون بها الباطل.

﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿واعبدوا الله﴾ قال بعضهم: هذا الخطاب للكفار، ﴿واعبدوا الله﴾ يعني: وحدوا الله ﴿ولا تشركوا به شيئاً﴾ يعني: لا تثبتوا على الشرك. ويقال: الخطاب للمؤمنين ﴿اعبدوا الله﴾ يعني: اثبتوا على التوحيد ولا تشركوا به. ويقال: ﴿اعبدوا الله﴾ يعني: أطيعوا الله فيما أمركم به، وأخلصوا له الأعمال، ﴿ولا تشركوا به شيئاً﴾. ويقال: هذا الخطاب للمؤمنين وللمنافقين وللكفار، فأمر المؤمنين بالطاعة، والمنافقين بالإخلاص، والكفار بالتوحيد. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «كل عبادة في القرآن إنما يعني بها التوحيد». ويقال: هذه الآيات محكمات في جميع الكتب، وذكر فيها أحكاماً كانت تعرف تلك من طريق العقل، وإن لم ينزل به القرآن وهو قوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ يعني: أحسنوا إلى الوالدين ﴿وبذي القربى﴾ يعني: صلوا القرابات. ﴿واليتامى﴾ يعني: أحسنوا إلى اليتامى. ويقال: هذا أمر للأوصياء بالقيام على أموالهم. ثم قال: ﴿والمساكين﴾ يعني: عليكم بإطعام المساكين. ثم قال: ﴿والجار ذي القربى﴾ أي: عليكم بالإحسان إلى الجار الذي بينك وبينه قرابة، فله ثلاثة حقوق. هكذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الجِيرَانُ ثَلاثَةٌ: جَارٌ لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ، وَجَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ. فَأَمَّا الجَارُ الَّذِي لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ فَالجَارُ القَرِيبُ المُسْلِمُ، فَلَهُ حَقُّ الجِوَارِ، وَحَقُّ القَرَابَةِ، وَحَقُّ الإِسْلامِ. وَالجَارُ الَّذِي لَهُ حَقَّانِ: وَهُوَ الجَارُ المُسْلِمُ الأَجْنَبِيّ، فَلَهُ حَقُّ الإِسْلامِ، وَحَقُّ الجِوَارِ. وَالجَارُ الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ هُوَ الجَارُ الكَافِرُ لَهُ حَقُّ الجِوَارِ**».

ثم قال تعالى: ﴿والجار الجنب﴾ يعني: الجار الذي لا قرابة بينهما، وهو من قوم آخرين

Marfat.com

﴿والصاحب بالجنب﴾ يعني: الرفيق في السفر. وروي عن معاذ بن جبل أنه قال: «الصاحب بالجنب يعني المرأة»(١). ثم قال: ﴿وابن السبيل﴾ يعني: الضيف، ينزل عليكم فأحسنوا إليه، وحقه ثلاثة أيام، وما زاد على ذلك فهو صدقة. ثم قال: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ من الخدم أحسنوا إليهم. وقد روي في الخبر «أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ مَا لا يُطِيقُونَ، فإنهم لَحْمٌ وَدَمٌ وَخَلْقٌ أَمْثَالُكُمْ»(٢). رواه علي عن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الله الله فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»(٣). وذكر الحديث.

وروي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ، وَمَا زَالَ يُوصِينِي بِالنِّساءِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُحَرِّمُ طَلاقَهُنَّ، وَمَا زَالَ يُوصِينِي بِالمَمالِيكِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْعَلُ لَهُمْ مُدَّةً إِذَا انْتَهَوْا إِلَيها أُعتِقُوا، وَمَا زَالَ يُوصِينِي بِالسِّوَاكِ حَتَّى خشيتُ أن يُحْفِي فَمِي عن الأسنانِ، وَمَا زَالَ يُوصِينِي بِقِيَامِ اللَّيلِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ خِيَارَ أُمَّتِي لا ينامُون لَيلاً»(٤).

ثم قال تعالى: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ يعني: من كان ﴿مختالاً﴾ في مشيه، ﴿فخوراً﴾ على الناس، وهذا قول الكلبي. وقال القتبي: المختال ذو الخيلاء والكبر، وهذا قريب من الأول. ويقال: ﴿فخوراً﴾ في نعم الله، لا يشكره ويتكبر على الناس.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿الذين يبخلون﴾ وقال مجاهد ومقاتل: نزلت في اليهود، يبخلون بكتمان صفة محمد ﷺ في كتابهم ﴿ويأمرون الناس بالبخل﴾ يعني: أمروا قومهم أن يكتموا صفته ﷺ ﴿ويكتمون ما آتاهم من فضله﴾ في التوراة. ويقال: أبخل الناس الذي يبخل بعلمه. ويقال: ﴿الذين يبخلون﴾ يعني: في المال، لأن رؤساءهم كانوا لا يعطون أحداً من أموالهم شيئاً، لأن عادتهم كان الأخذ والمنع، وكانوا أيضاً يأمرون بالبخل، لأن من كان في معصية فإنه يأمر غيره

(١) عزاه السيوطي ٢/ ٥٣٢ إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي، وابن مسعود، وابن عباس.

(٢) عزاه السيوطي ٢/ ٥٣٢ إلى البخاري في الأدب من حديث جابر بلفظ أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم من لبوسكم ولا تعذبوا خلق الله».

(٣) حديث عائشة. أخرجه البخاري (٦٠١٤) ومسلم (٢٦٢٤) وأحمد ٦/ ٢٣٨ والترمذي (١٩٤٣) وأبو داود (٥١٥١) وعن ابن عمر عند مسلم (٢٦٢٥).

(٤) عزاه السيوطي ٢/ ٥٣٢ إلى البخاري في الأداب المفرد والبيهقي.

Marfat.com

بذلك لكي لا يظهر عيبه ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ يعني: لا يشكرون على ما أعطاهم الله من نعمته، ولا يخرجون الزكاة.

ثم قال تعالى: **﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾** يعني: شديداً. قرأ حمزة والكسائي: ﴿بالبَخَل﴾ بنصب الباء والخاء وهي لغة الأنصار، وقرأ الباقون ﴿بالبُخْل﴾ بضم الباء وجزم الخاء. وقال بعض أهل اللغة: ها هنا أربع لغات: بَخَلَ، وبَخْلَ، وبُخُلَ، وبُخْلَ إلا أنه قرىء بحرفين ولا يقرأ بالحرفين الآخرين.

قوله تعالى: ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾ قال مقاتل: يعني اليهود. وقال الضحاك: يعني المنافقين، ينفقون أموالهم مراءاة للناس ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ يعني: ولا يصدقون في السر. ويقال: نزلت في مطعمي يوم بدر وهم رؤساء مكة، أنفقوا على الناس ليخرجوا إلى بدر.

ثم قال: **﴿ومن يكن الشيطان له قريناً﴾** ففي الآية مضمر فكأنه قال: ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقرينهم الشيطان ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ يعني: قرينهم الشيطان في الدنيا والشيطانُ، يأمرهم بالبخل. ويقال: قرينه في النار في السلسلة.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

ثم قال تعالى: **﴿وماذا عليهم﴾** يعني: وما كان عليهم **﴿لو آمنوا بالله﴾** مكان الكفر **﴿وأنفقوا مما رزقهم الله﴾** مكان البخل في غير رياء. ويقال: ﴿وماذا عليهم﴾ يعني: لم يكن عليهم شيء من العذاب ﴿لو آمنوا بالله واليوم الآخر﴾ وأنفقوا مما رزقهم الله من الأموال، وهي الصدقة، **﴿وكان الله بهم عليماً﴾** أنهم لم يؤمنوا. ويقال: إن الله عليم بثواب أعمالهم، ولا يظلمهم شيئاً من ثواب أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ يعني: لا ينقص من ثواب أعمالهم وزن الذرة. قال الكلبي: وهي النملة الحمراء الصغيرة. ويقال: هو الذي يظهر في شعاع الشمس. - ويقال: ﴿لا يظلمُ مثقال ذرة﴾ أي لا يزيد عقوبة الكافر مثقال ذرة، ولا ينقص من ثواب المؤمن مثقال ذرة.

ثم قال تعالى: **﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾** قرأ نافع وابن كثير: ﴿وإن تك حسنةٌ﴾ بضم الهاء لأنه اسم تك بمنزلة اسم كان. قرأ الباقون: ﴿حسنةً﴾ بالنصب، وجعلوه خبر تك والاسم فيه مضمر ومعناه: وإن يكن الفعل حسنة يضاعفها، يعني: إذا زاد على حسناته مثقال ذرة من

Marfat.com

حسنة يضاعفها الله تعالى حتى يجعلها مثل أحد ويوجب له الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ يعني: الجنة. وروى عبد الله بن مسعود أنه قال: «خمس آيات في سورة النساء أحب إلي من الدنيا وما فيها: قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [سورة النساء: ٣١] الآية. وقوله: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية. وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨] الآية. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [سورة النساء: ٦٤] الآية. وقوله: و﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء: ١٢٣] الآية.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ يعني: فكيف يصنعون؟ وكيف يكون حالهم إذا جئنا من كل أمة بشهيد؟ يعني: بنبيها هو شهيدها شاهد بتبليغ الرسالة من ربهم ﴿وجئنا بك﴾ يا محمد ﴿على هؤلاء شهيداً﴾ يعني: على أمتك شهيداً بالتصديق لهم، لأن أمته يشهدون على الأمم المكذبة للرسالة، وذلك أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للأمم الخالية: هل بلغكم الرسل رسالاتي؟ فيقولون: لا. فتقول الرسل: قد بلغنا ولنا شهود، فيقول عز وجل: ومن شهودكم؟ فيقولون: أمة محمد ﷺ، فيؤتى بأمة محمد فيشهدون بتبليغ الرسالة، بما أوحي إليهم من ربهم في كتابهم في قصة الأمم الخالية. فتقول الأمم الخالية: إن فيهم زواني وسراقاً، فلا تقبل شهادتهم، فيزكيهم النبي ﷺ فيقول المشركون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٢٣] فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، فذلك قوله تعالى ﴿يومئذٍ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض﴾ يعني: تخسف بهم الأرض. ويقال: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ الرسل يشهدون على قومهم بتبليغ الرسالة، ويشهد النبي ﷺ على أمته بتبليغ الرسالة لمن قبل ولمن لم يقبل.

قال الفقيه: حدّثنا الخليل بن أحمد، قال: حدّثنا أبو منيع، قال: حدّثنا أبو كامل، قال: حدّثنا فضيل، عن يونس بن محمد بن فضالة، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ أتاهم في بني ظفر، فجلس على الصخرة التي في بني ظفر، ومعه ابن مسعود ومعاذ وأناسٌ من الصحابة، فأمر قارئاً فقرأ حتى إذا أتى على هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ بكى رسول الله ﷺ حتى اخضلَّتْ وجنتاهُ فقال: «يا رَبِّ هٰذا عِلْمِي بِمَنْ أَنا بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ أَرَهُمْ؟».

ثم قال تعالى: ﴿يومئذٍ يود الذين كفروا﴾ يعني: الكفار ﴿وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض﴾ يعني: يكونون تراباً يمشي عليهم أهل الجمع ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ وهو قولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾. قال الزجاج: قال بعضهم: ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ مستأنف، لأن ما عملوا ظاهر عند الله تعالى لا يقدرون على كتمانه. وقال بعضهم: هو كلام بناء يعني: يودون أن الأرض سويت بهم، وأنهم لم يكتموا الله حديثاً لأنه أظهر كذبهم. قرأ حمزة والكسائي ﴿تسوَّى﴾ بنصب التاء وتخفيف السين وتشديد الواو يعني: تخسف بهم الأرض، وقرأ

Marfat.com

عاصم وابن كثير وأبو عمرو ﴿تُسوى﴾ بضم التاء على فعل سالم يسمَّى فاعله. يعني: فتسوَّى، أي يصيرون تراباً فتسوَّى بهم الأرض. وقرأ نافع وابن عامر: ﴿تَسَّوَّى﴾ بنصب التاء وتشديد السين والواو، لأن أصله تتسوَّى فأدغم إحدى التاءين في السين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ قال مقاتل: وذلك أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً، فدعا أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً، وسعداً رضي الله عنهم، فأكلوا وسقاهم خمراً، فحضرت صلاة المغرب فأمَّهم علي فقرأ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [سورة الكافرون: ١] على غير الوجه، فنزل **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾** وكان ذلك قبل تحريم الخمر. ويقال ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ يعني: موضع الصلاة، وهو المسجد ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ ويقال: حتى تصيروا بحال تعلمون ما تقولون، فحينئذٍ تقربوا المسجد لأنهم إذا لم يعلموا ما يقولون فلا يعرفون الحرمة.

ثم قال: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ يقول: ولا تقربوا الصلاة جنباً ﴿إلا عابري سبيل﴾ يعني: إلا أن يكون مسافراً فلا يجد الماء، فيتيمم ويصلي وإن كان جنباً. وقال الزجاج: وحقيقته ألا تصلوا إذا كنتم جنباً ﴿حتى تغتسلوا﴾ إلا أن لا تقدروا على الماء. وقال القتبي: ﴿لا تقربوا الصلاة﴾، يعني: لا تقربوا المساجد وأنتم جنباً إلا مجتازين. وقال بعضهم: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ من النوم. وروى السدي عمن حدثه، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ قال: «في السفر يتيمم ويصلي». ويقال: إلا أن تكون في المسجد عين، فيدخل ليغترف الماء.

ثم قال تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ نزلت في عبد الرحمن بن عوف، أصابته جنابة وهو جريح، فرخص له بأن يتيمم، ثم صارت الآية في جميع الناس. وروي عن عبد الله بن عباس وجابر بن سمرة وغيرهما من الصحابة: أن رجلاً كان به جدريّ على عهد رسول الله ﷺ، فأصابته جنابة فغسلوه فمات من ذلك، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله فهلاً يَمَّمُوهُ**»(١). وروي عن ابن عباس أنه قال: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ قال: «فإنما هو للمجذوم، والمجدور، والمقروح».

---

(١) حديث ابن عباس: أخرجه أبو داود (٣٣٧) وزاد فيه «ألم يكن شفاء العيّ السؤال» ومن طريق جابر (٣٣٦).

Marfat.com

ثم قال: ﴿أو على سفر﴾ يعني: إذا كنتم مسافرين ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ والغائط في اللغة: اسم المكان المطمئن من الأرض، وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة. ثم قال: ﴿أو لامستم النساء﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿أو لمستم﴾ وقرأ الباقون ﴿لامستم﴾ من الملامسة. قال ابن عباس: «يعني الجماع». وقال بعضهم: هو المس باليد ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ يعني: إذا أصابكم الحدث أو الجنابة، ولم تجدوا ماء ﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾ يعني: تراباً نظيفاً. ويقال: الصعيد هو ما علا وجه الأرض ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ قال بعضهم: الوجه والكفين، وهو قول الأعمش والأوزاعي. وقال بعضهم: إلى المنكبين، وهو قول الزهري. وقال عامة أهل العلم: الوجه واليدين إلى المرفقين، وبذلك جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ وعن عامة الصحابة رضوان الله عليهم اعتباراً بالوضوء.

ثم قال تعالى: ﴿إن الله كان عفواً﴾ يعني: ذو الفضل والعفو حين أجاز لكم التراب مكان الماء، ﴿غفوراً﴾ لتقصيركم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يعني: أعطوا حظاً من علم التوراة ﴿يشترون الضلالة﴾ يعني: يختارون الكفر على الإسلام. قال القتبي: وهذا من الاختصار، ومعناه ﴿يشترون الضلالة﴾ بالهدى، يعني: يستبدلون هذا بهذا، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٤] يعني: مسؤولاً عنه.

ثم قال: ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ يعني: تتركوا طريق الهدى، وهو طريق الإسلام ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ يعني: يعلم بعداوتهم إياكم، يعني: هو يعلم بالحقيقة وأنتم تعلمون الظاهر. ويقال: هذا وعيد لهم، فكأنه يقول: هو أعلم بعذابهم كما قال في آية أخرى ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٨] يعني: عليم بعقوبتهم ومجازاتهم.

ثم قال: ﴿وكفى بالله ولياً﴾ يعني: ناصراً لكم، ومعيناً لكم ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ يعني: مانعاً لكم.

قوله تعالى ﴿من الذين هادوا﴾ يعني: مالوا عن الهدى. قال الزجاج: ﴿من الذين هادوا﴾ فيه قولان: فجائز أن يكون ﴿من﴾ صلة، والمعنى: ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب الذين هادوا، ويجوز أن يكون معناه: من الذين هادوا قوم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ يعني:

Marfat.com

يحرفون نعته عن مواضعه، وهو نعت محمد ﷺ ﴿ويقولون سمعنا﴾ قولك ﴿وعصينا﴾ أمرك ﴿واسمع غير مسمع﴾ يعني: غير مسمع منك ﴿وراعنا ليّاً بألسنتهم﴾ يعني: يلوون ألسنتهم بالسبِّ ﴿وطعناً في الدين﴾ يعني: في دين الإسلام. وقال القتبي: كانوا يقولون للنبي ﷺ إذا حدثهم وأمرهم: يقولون سمعنا، ويقولون في أنفسهم: وعصينا أمرك، وإذا أرادوا أن يكلموه بشيء قالوا: اسمع يا أبا القاسم. ويقولون في أنفسهم: لا سمعت. ويقولون: ﴿راعنا﴾ يوهمونه في ظاهر اللفظ أنهم يريدون انظرنا حتى نكلمك بما تريد، ويريدون به السبَّ بالرعونة ﴿ليّاً بألسنتهم﴾ أي قلباً للكلام بها ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا﴾ مكان سمعنا وعصينا ﴿واسمع﴾ مكان اسمع لا سمعت ﴿وانظرنا﴾ مكان قولهم راعنا ﴿لكان خيراً لهم وأقوم﴾ يعني: وأصوب من التحريف والطعن.

ثم قال تعالى: ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم﴾ يعني: خذلهم الله وطردهم، مجازاة لهم بكفرهم ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ يعني: لا يؤمنون إلا بالقليل، لأنهم لا يؤمنون بالقرآن، ولا يؤمنون بجميع ما عندهم، ولا بسائر الكتب، وإنما يصدقون ببعض ما عندهم. ويقال: لا يؤمنون إلا القليل منهم، وهم مؤمنو أهل الكتاب. ويقال: إنهم لا يؤمنون وهم بمنزلة رجل يقول: فلان قليل الخير، يعني: إنه لا خير فيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

ثم خوفهم فقال: ﴿يا أيها الذين آتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا﴾ يعني: صدقوا بالقرآن ﴿مصدقاً لما معكم﴾ يعني: موافقاً للتوراة في التوحيد وبعض الشرائع ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾ وطمسها: أن يردها على بصائر الهدى، ويقال: طمسها أن يحول الوجوه إلى الأقفية. ويقال: يخسف الأنف والعين فيجعلها طمساً، ويقال: من قبل أن يسود الوجوه. قال بعضهم: يعني به في الآخرة. ويقال: هذا تهديد لهم في الدنيا. وذكر أن عبد الله بن سلام قدم من الشام، فلم يأتِ أهله حتى أتى رسول الله ﷺ، وقال: ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهي في قفاي. ـ ويقال: ﴿من قبل أن نطمس وجوها﴾ يعني: وجه القلب وهو كناية عن القسوة[1] ـ. وقال مقاتل: يعني من قبل أن تحول القبلة كقوله ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [سورة البقرة: ١٤٨] ثم قال: ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ يعني:

(١) ما بين معقوفتين زيادة في «ب».

Marfat.com

نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت القردة. ثم قال ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ يعني: كائناً، وهذا وعيد من الله تعالى لهم ليعتبروا ويرجعوا.

قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك**﴾ يعني: دون الشرك ﴿**لمن يشاء**﴾ يعني: لمن مات موحداً. نزلت الآية في شأن الوحشي قاتل حمزة، وذلك أن الناس لما التقوا يوم أحد وقد جعل الوحشي حراً إن قتل حمزة، فقتله، لم يوف له، فلما قدم مكة ندم على صنيعه الذي صنع هو وأصحابه معه، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ كتاباً: إنا قد ندمنا على صنيعنا، وإنه ليس يمنعنا من الدخول في الإسلام معك إلا أنا سمعناك تقول إذ كنت عندنا بمكة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [سورة الفرقان: ٦٨] إلى قوله ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الفرقان: ٦٩] وقد دعونا مع الله إلهاً آخر، وقتلنا النفس، وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزل ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سورة مريم: ٦٠] الآية. فبعث رسول الله ﷺ بهذه الآية إلى الوحشي وأصحابه، فلما قرؤوا كتبوا إليه أن هذا شرط شديد، نخاف ألا نعمل عملاً صالحاً فلا نكون من أهل هذه الآية. فنزل ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فبعث إليهم فقرؤوها، فبعثوا إليه: إن في هذه الآية شرطاً أيضاً نخاف ألا نكون من أهل مشيئته، فنزل قوله ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [سورة الزمر: ٥٣] الآية فبعثها إليهم، فلما قرؤوها وجدوها أوسع مما كان قبلها، فدخل هو وأصحابه في الإسلام. وروي عن ابن عمر أنه قال: «كنا إذا مات الرجل منا على كبيرة، شهدنا أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فأمسكنا عن الشهادة». وهذه الآية رد على من يقول: إن من مات على كبيرة يخلد في النار، لأن الله تعالى قد ذكر في آية أخرى ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [سورة هود: ١١٤] يعني: ما دون الكبائر، فلم يبق لهذه المشيئة موضع سوى الكبائر، ثم قال تعالى: ﴿**ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً**﴾ يعني: اختلق على الله كذباً عظيماً. ويقال: فقد أذنب ذنباً عظيماً.

﴿**أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾**﴾

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ يقول: يبرئون أنفسهم من الذنوب، وذلك أن رؤساء اليهود كانوا يقولون: هل على أولادنا من ذنب، فما نحن إلا كهيئتهم؟ فهذا الذي زكوا به أنفسهم، قال الله تعالى: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ يعني: يصلح ويبرىء من يشاء من الذنوب. ويقال: يكرم من يشاء بالإسلام ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ قال الكلبي ومقاتل: الفتيل الذي يكون في شق النواة وهو الأبيض، ويقال: هو ما فتلته بين أصبعيك من الوسخ، إذا مسحت إحداهما بالأخرى، يعني: لا ينقصون من ثواب أعمالهم بذلك المقدار.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ يعني: يختلقون على الله الكذب ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ يعني: ذنباً مبيناً. روى مقاتل عن الضحاك قال: الفتيل، والنقير، والقطمير كلها في النواة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يعني: أعطوا حظاً من علم التوراة ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ الجبت: حيي بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف. وقال القتبي: كل معبود من حجر أو صورة أو شيطان فهو جبت وطاغوت. ويقال: الجبت السحر والسحرة، والطاغوت الكهنة. وقيل: الجبت في هذه السورة رجلان من اليهود، وإيمانهم بهما تصديقهم إياهما وطاعتهم إياهما.

ثم قال تعالى: ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ يعني: لمشركي مكة ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ وذلك أن رؤساء اليهود قدموا مكة بعد قتال أُحد، ونقضوا العهد، وبايعوا المشركين وقالوا: أنتم أهدى سبيلاً من المسلمين.

حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا الدبيلي، قال: حدثنا أبو عبيد الله، قال: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، قال: جاء كعب بن الأشرف وفي رواية أخرى: عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب إلى مكة فأتيا قريشاً، فقالت لهما قريش: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنّا وعن ديننا القديم ودين محمد الحديث، ونحن نصل الرحم، ونسقي الحجيج، ونفك العاني، ومحمد ﷺ صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج بنو غفار، فنحن أهدى أم هو؟ قالا: بل أنتم أهدى سبيلاً منهم. فأنزل الله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ إلى قوله ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ يعني أهدى ديناً منهم، أي: من المهاجرين والأنصار.

قوله تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ يعني: خذلهم وطردهم الله من رحمته، ويقال: عذبهم بالجزية ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾ يعني: مانعاً.

قوله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ يقول: لو كان لهم، يعني لليهود حظ من الملك ﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ يعني: لا يعطون أحداً من بخلهم وحسدهم نقيراً، والنقير: النقطة

Marfat.com

التي على ظهر النواة ﴿أم يحسدون الناس﴾ يعني: أيحسدون الناس. ويقال: بل يحسدون الناس يعني به محمداً ﷺ ﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾ من النبوة والرسالة وكثرة تزوجه النساء، ويقولون: لو كان نبياً لشغلته النبوة عن كثرة النساء، فيحسدونه بذلك.

قال الله تعالى ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾ يعني: النبوة والعلم والفهم ﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ فكان يوسف عليه السلام ملكاً على مصر، وكان سليمان بن داود عليهما السلام ملكاً، وكانت له ثلاثمائة امرأة حرّة سوى السرية، هكذا قال مقاتل وقال الكلبي: كانت له سبعمائة امرأة سوى ثلاثمائة سرية، وكان لداود عليه السلام مائة امرأة، فلم يكن تمنعهم النبوة عن ذلك. ويقال: الفائدة في كثرة تزوجه أنه كانت له قوة أربعين نبياً، وكل من كان أقوى فهو أكثر نكاحاً. ويقال: إنه أراد بالنكاح كثرة العشيرة، لأن لكل امرأة قبيلتين: قبيلة من قبل الأب، وقبيلة من قبل الأم، فكلما تزوج امرأة صرف وجوه القبيلتين إلى نفسه، فيكونون عوناً له على أعدائه. ويقال: إن كل من كان أتقى كانت شهوته أشد، لأن الذي لا يكون تقياً إنما يتفرَّج بالنظر والمسّ، ألا ترى إلى ما روي في الخبر «العَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ». فإذا كان في النظر وفي المس نوع من قضاء الشهوة، فلا ينظر التقي ولا يمس، فتكون الشهوة مجتمعة في نفسه، فيكون أكثر جماعاً. وقال أبو بكر الوراق: كل شهوة تُقسِي القلب إلا الجماعَ، فإنه يصفي القلب، ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام يفعلون ذلك.

قوله تعالى: ﴿فمنهم من آمن به﴾ يعني: من اليهود من آمن بالكتاب الذي أنزل على إبراهيم وآمن بالكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، ﴿ومنهم من صدّ عنه﴾ يعني: أعرض عنه مكذباً، وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: ﴿فمنهم من آمن به﴾ يعني: من آل إبراهيم ﴿من آمن به﴾ يعني: بالكتاب الذي جاء به ﴿ومنهم من صدّ عنه﴾ يعني: لم يؤمن به. وقال الضحاك: ﴿أم يحسدون الناس﴾ يعني: اليهود يحسدون قريشاً لأن النبوة كانت فيهم ﴿فقد آتينا إبراهيم الكتاب﴾ يعني: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط. ﴿الكتاب﴾ يعني: التنزيل ﴿والحكمة﴾ يعني: السنة ﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ يعني: قريشاً وبني هاشم ﴿ملكاً عظيماً﴾ يعني: الخلافة لا تصلح إلا بقريش ﴿فمنهم من آمن به﴾ يعني: بمحمد ﷺ ﴿ومنهم من صدّ عنه﴾ أي: كفر به. ثم قال تعالى: ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ يعني: وقوداً لمن كفر به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

ثم بيّن مصير من كذّب به، وموضع من آمن به، فقال عز وجل: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا﴾ يعني: بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿سوف نصليهم ناراً﴾ يعني: ندخلهم ناراً في الآخرة. ويقال:

Marfat.com

صَلِيَ إذا دخل النار لأجل شيء، وأصلاه إذا أدخله للاحتراق، والاصطلاء بالنار: الاستدفاء. ثم قال: ﴿كلما نضجت جلودهم﴾ يقول: كلما احترقت جلودهم ﴿بدلناهم﴾ يعني: جدَّدنا لهم ﴿جلوداً غيرها﴾ لأنهم إذا احترقوا خبت عنهم النار ساعة، فبدلوا خلقاً جديداً، ثم عادت تحرقهم، فهذا دأبهم فيها. وقال مقاتل: تجدد في كل يوم سبع مرات. وقال الحسن: بلغني أنه ينضج كل يوم سبعين ألف مرة. وقال الضحاك: سبعين جلداً في كل يوم. وقد طعنت الزنادقة في هذا وقالوا: إن الذي يبدَّل الجلد لم يذنب، فكيف يستحق العقوبة والعذاب؟ قيل لهم: إن ذلك الجلد هو الجلد الأول، ولكنه إذا أحرق أعيد إلى الحال الأول، كالنفس إذا صارت تراباً وصارت لا شيء ثم أحياها الله تعالى، فكذلك هاهنا. وقوله تعالى: ﴿جلوداً غيرها﴾ على وجه المجاز، كما قال في آية أخرى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٨] قال ابن عباس: «يعني: يزاد في سعتها، وتسوى جبالها وأوديتها».

وقوله تعالى: ﴿ليذوقوا العذاب﴾ يعني: لكي يجدوا مس العذاب ﴿إن الله كان عزيزاً﴾ في نقمته ﴿حكيماً﴾ في أمره، حكم عليهم بالنار، ثم بيّن مصير الذين صدَّقوا به فقال عز وجل: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني: آمنوا بمحمد ﷺ، وبالقرآن ﴿وعملوا الصالحات﴾ يعني: الطاعات التي أمرهم الله تعالى ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ يعني: مقيمين فيها ﴿أبداً لهم فيها أزواج مطهرة﴾ في الخُلق والخَلْق ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ قال الضحاك: يعني: ظلال أشجار الجنة، وظلال قصورها. وقال الكلبي: ﴿ظلاً ظليلاً﴾ يعني: دائماً. وقال مقاتل: ﴿ظلاً﴾ يعني: أكناف القصور ﴿ظليلاً﴾ يعني: لا خلل فيها.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ وذلك أن مفتاح الكعبة كان في يد بني شيبة، وكانت السقاية في يد بني هاشم، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة وقال له: «هات المفتاح». فخشي عثمان أن يعطيه إلى عمه العباس، فجاء بالمفتاح وقال لرسول الله ﷺ: خذه بأمانة الله: فدخل رسول الله ﷺ البيت، فإذا فيه تمثال إبراهيم عليه السلام مصور على الحائط وفي يده قداح، وعنده إسماعيل عليه السلام والكبش مصوران، فقال رسول الله ﷺ: «قَاتَلَ اللهُ الكُفَّارَ مَا لإِبْرَاهِيمَ والقِدَاحِ» فأمر بالصور فمحيت، فقضى حاجته من البيت ثم خرج، فطلب منه عمُّه العباس بأن يدفع إليه المفتاح، فنزلت هذه الآية ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ ودفع المفتاح إلى عثمان بن طلحة[1]، ثم صارت الآية عامة

---

(١) عزاه السيوطي ٢/٥٧ إلى ابن مردوية وابن جرير وابن المنذر.

Marfat.com

لجميع الناس برد الأمانات إلى أهلها. ويقال: نزلت في شأن اليهود، حيث كتموا نعت محمد ﷺ، وكانت أمانة عندهم فمنعوها. ويقال: هذا أمر لجميع المسلمين بأداء الفرائض وجميع الطاعات، لأنها أمانة عندهم كقوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ على السموات﴾ - إلى قوله - ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا حكمتم بين الناس﴾ يعني: بين القوم **﴿أن تحكموا بالعدل﴾** يقول: بالحق، وقال الضحاك: ﴿بين الناس﴾ يعني: بين الخصوم ﴿أن تحكموا بالعدل﴾ يعني: بالبينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه **﴿إن الله نِعِمّا يعظكم به﴾** يعني: يأمركم بالعدل والنصيحة، والاستقامة، وأداء الأمانة **﴿إن الله كان سميعاً﴾** بمقالة العباس **﴿بصيراً﴾** بردِّ المفتاح إلى أهله. قرأ ابن عامر والكسائي وحمزة ﴿نَعِمّا﴾ بنصب النون وكسر العين والاختلاف فيه كالاختلاف الذي في سورة البقرة، وذلك قوله: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله﴾ يعني: في الفرائض **﴿وأطيعوا الرسول﴾** يعني: في السنن. ويقال: ﴿أطيعوا الله﴾ فيما فرض، ﴿وأطيعوا الرسول﴾ فيما بيّن. ويقال ﴿أطيعوا الله﴾ بقول لا إله إلا الله، ﴿وأطيعوا الرسول﴾ بقول محمد رسول الله. **﴿وأولي الأمر منكم﴾**. قال الكلبي ومقاتل: يعني، أمراء السرايا. وقال الضحاك: يعني، الفقهاء والعلماء في الدين. ويقال: الخلفاء والأمراء، يجب طاعتهم ما لم يأمروا بالمعصية.

ثم قال: ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ من الحلال والحرام والشرائع **﴿فردّوه إلى الله والرسول﴾** يعني: إلى أمر الله فيما يأمر بالوحي، وإلى أمر الرسول فيما يخبر عن الوحي، ثم بعد النبي ﷺ لما انقطع الوحي يرد إلى كتاب الله تعالى، وإلى سنة رسوله ﷺ. ويقال: معناه إذا أشكل عليكم شيء، فقول: الله ورسوله أعلم، وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل». وقال الخليل بن أحمد البصري: «الناس أربعة: رجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فهذا أحمق فاجتنبوه. ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فهذا جاهل فعلّموه. ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فهذا نائم فأيقظوه. ورجل يدري ويدري أنه يدري، فهذا عالم فاتبعوه».

ثم قال تعالى: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ يعني: إن كنتم تصدقون بالله وبالبعث بعد الموت **﴿ذلك خير﴾** يعني: الرد إلى كتاب الله تعالى، وإلى سنة الرسول ﷺ خير من الاختلاف **﴿وأحسن تأويلاً﴾** يعني: وأحسن عاقبة. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «حق على الإمام أن يحكم بالعدل، ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك وجب على

Marfat.com

المسلمين أن يطيعوه، فإن الله تعالى أمرنا بأداء الأمانة والعدل، ثم أمرنا بطاعتهم». وقال مجاهد: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ العلماء والفقهاء، وهكذا روي عن جابر.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾ وذلك أنَّ منافقاً يقال له بشر، كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: انطلق بنا إلى محمد ﷺ وكانت تلك الخصومة في حكم الإسلام على المنافقين، وفي حكم اليهود على اليهود. فقال اليهودي: نأتي محمداً ﷺ يحكم بيننا وقال المنافق: بل نأتي كعب بن الأشرف حتى يحكم بيننا. فكانا في ذلك إذ سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قولهما، فقال: ما شأنكما؟ فأخبراه بالقصة. فقال عمر: «أنا أحكم بينكما». فأجلسهما، ثم دخل البيت وخرج بالسيف، وقتل المنافق، فنزلت الآية ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾ يعني: القرآن ﴿وما أنزل من قبلك﴾ يعني: سائر الكتب المنزلة ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ وهو كعب بن الأشرف ﴿وقد أمروا أن يكفروا به﴾ يعني: أمروا بتكذيبه. وقال الضحاك: نزلت الآية في شأن المنافقين، لأنهم آمنوا بلسانهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، وركنوا إلى قول اليهود ومالوا إلى خلاف النبي ﷺ، فذلك قوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ يعني: إلى كهنة اليهود وسحرتهم.

ثم قال: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم﴾ عن الهدى وعن الحق ﴿ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق ثم قال: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ يعني: إلى ما أمر الله في كتابه، وإلى ما أمر الرسول ﴿رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾ يعني: يعرضون عنك إعراضاً. ويقال: صدّ يصد، يكون لازماً ويكون متعدياً، وإنما يتبين ذلك بالمصدر. ويقال: صد يصد صداً إذا صرف غيره. كقوله تعالى ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [سورة النمل: ٢٤] وصد يصد صُدوداً، إذا أعرض بنفسه كقوله تعالى ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [سورة النساء: ٥٥] وكقوله ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [سورة النساء: ٦١].

قوله تعالى: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة﴾ يقول: فكيف يصنعون إذا أصابتهم عقوبة ﴿بما قدمت أيديهم﴾ يعني: بما عملت أيديهم ﴿ثم جاؤوك يحلفون بالله﴾ قال في رواية الكلبي:

Marfat.com

نزلت في شأن ثعلبة بن حاطب، كانت بينه وبين الزبير بن العوام خصومة، فقضى رسول الله ﷺ للزبير، فخرجا من عنده، فمرا على المقداد بن الأسود، فقال المقداد لمن كان القضاء يا ثعلبة؟ فقال ثعلبة: قضى لابن عمته الزبير، ولوى شدقه على وجه الاستهزاء، فنزلت هذه الآية ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ أي يليه شدقه، فلما نزلت هذه الآية أقبل إلى رسول الله ﷺ يعتذر إليه ويحلف. وهو قوله: ﴿ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً﴾ يعني: ما أردنا إلا الإحسان في المقالة ﴿وتوفيقاً﴾ يقول: صواباً. وقال الضحاك ومقاتل: نزلت في شأن الذين بنوا مسجد الضرار، فلما أظهر الله تعالى نفاقهم وأمر بهدم المسجد، حلفوا للرسول ﷺ دفعاً عن أنفسهم: ما أردنا ببناء المسجد إلا طاعة الله تعالى وموافقة الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ من الضمير. وقال الزجاج: معناه قد علم الله أنهم منافقون، والفائدة لنا أن اعلموا أنهم منافقون. قال: ومعنى قوله: ﴿وتوفيقاً﴾ أي طلباً لما وافق الحق.

ثم قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم﴾ ولا تعاقبهم ﴿وعظهم﴾ بلسانك ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ يعني: خوّفهم وهدِّدهم إن فعلتم الثانية عاقبتكم. وقال مقاتل: تقدم إليهم تقديماً وثيقاً، ثم نسخ بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: ٧٣].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول﴾ و﴿من﴾ صلة، فكأنه قال: وما أرسلنا رسولاً ﴿إلا ليطاع بإذن الله﴾ لكي يطاع بأمر الله. ثم قال ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ بصنيعهم ﴿جاؤوك﴾ بالتوبة ﴿فاستغفروا الله﴾ لذنوبهم ﴿واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ متجاوزاً.

قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ كقول القائل: لا والله لا يؤمنون ﴿حتى يحكموك﴾ يعني: حتى يقروا ويرضوا بحكمك يا محمد ﴿فيما شجر بينهم﴾ يعني: فيما اختلفوا فيه. ويقال: تشاجرا أي اختلفا. ويقال: فيما التبس عليهم.

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا الديبلي، قال: حدثنا أبو عبيد الله، عن سفيان، عن عمرو، عن رجل من ولد أم سلمة، عن أم سلمة أنها قالت: كان بين الزبير بن العوام وبين رجل خصومة، فقضى النبي ﷺ للزبير، فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته.

Marfat.com

فأنزل الله تعالى ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾[1] ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم﴾ يعني: في قلوبهم ﴿حرجاً﴾ أي شكاً ﴿مما قضيت﴾ أنه الحق ﴿ويسلموا تسليماً﴾ يعني: ويخضعوا لأمرك في القضاء خضوعاً. قال الزجاج: ﴿تسليماً﴾ مصدر مؤكد، فإذا قلت ضربه ضرباً، فكأنك قلت: لا شك فيه، كذلك ﴿ويسلموا تسليماً﴾ أي ويسلمون لحكمك تسليماً لا يدخلون على أنفسهم شكاً.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم﴾ يعني: لو فرضنا عليهم القتل ﴿**أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم**﴾ والقليل منهم: عمار بن ياسر، وابن مسعود، وثابت بن قيس، قالوا: لو أن الله تعالى أمرنا أن نقتل أنفسنا أو نخرج من ديارنا لفعلنا، فقال النبي ﷺ: «**الإيمانُ أثبتُ في قُلوبِ الرجَالِ مِنَ الجِبالِ الرَّواسِي**» قرأ ابن عامر: ﴿إلا قليلاً منهم﴾ بالألف وهكذا في مصاحف أهل الشام. وقرأ الباقون ﴿إلا قليلٌ منهم﴾ بالضم. فمن قرأ بالضم فمعناه: ما فعلوه، ويفعله قليل منهم على معنى الاستئناف. ومن قرأ بالنصب على معنى: أنه خلاف الأول للاستثناء. كقوله تعالى ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [النساء: ٩٨].

ثم قال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ يعني: ما يؤمرون به ﴿**لكان خيراً لهم**﴾ في الآخرة في الثواب ﴿**وأشد تثبيتاً**﴾ يعني: تحقيقاً في الدنيا.

قوله تعالى ﴿وإذاً لآتيناهم﴾ يقول: حينئذٍ لأعطيناهم ﴿**من لدنا**﴾ يعني: من عندنا ﴿**أجراً عظيماً**﴾ في الآخرة يعني: الجنة ﴿**ولهديناهم صراطاً مستقيماً**﴾ يعني: ديناً قيماً يرضاه لهم.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ قال في رواية الكلبي: نزلت الآية في شأن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب له، وكان قليل الصبر عنه، حتى تغير لونه ونحل جسمه، فقال له رسول الله ﷺ: «**مَا غَيَّرَ لَوْنَكَ**»؟ فقال: ما بي من مرض، ولكني إذا لم أرك استوحشت وحشة عظيمة حتى ألقاك، وأذكر الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك. فنزل ﴿ومن يطع

---

(1) حديث عبد الله بن الزبير: أخرجه البخاري (٢٣٥٩) (٢٣٦٠) (٢٣٦١) ومسلم (٢٣٥٧) والترمذي (١٣٦٣) والنسائي ٨/ ٢٤٥ وأحمد ٤/ ٥.

Marfat.com

الله والرسول﴾ ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ في الجنة. وقال في رواية الضحاك: وذلك أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا نبيَّ الله، وإن صرنا إلى الجنة فإنك تفضلنا بدرجات النبوة فلا نراك، فنزل ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ الآية.

قال: حدّثنا الخليل بن أحمد، قال: حدّثنا أبو العباس، قال: حدّثنا قتيبة، قال: حدّثنا جهضم، عن عطاء بن السائب، عن الشعبي، أن رجلاً من الأنصار أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي وولدي وأهلي ومالي، فلولا أني آتيك فأراك لا ريب أني سوف أموت. قال: وبكى الأنصاري. فقال: «مَا أَبْكَاكَ؟» قال: ذكرت أنك تموت ونموت وترفع مع النبيين، ونكون نحن وإن دخلنا الجنة دونك، فلم يجبه بشيء، فأنزل الله تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ ﴿من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ يعني: من المسلمين.

ثم قال: ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ في الجنة، يعني: رفقاء كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥] أي أطفالاً، وكقوله ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤] يعني: الأعداء ﴿ذلك الفضل من الله﴾ يعني: المنّ والعطية من الله ﴿وكفى بالله عليماً﴾ بالثواب في الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ يعني: عدتكم من السلاح ﴿فانفروا ثبات﴾ يعني عُصَباً سرايا ﴿أو انفروا جميعاً﴾ مع النبي ﷺ بأجمعكم. قال الزجاج: الثبات الجماعة المتفرقة، فتأويله: انفروا جماعاتٍ متفرّقة، أو انفروا مجتمعاً بعضكم إلى بعض.

قوله تعالى: ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ فاللام الأولى زيادة للتأكيد، واللام الثانية للقسم. يعني: وإن منكم من يتثاقل ويتخلف عن الجهاد، يعني: المنافقين، فهذا الخطاب للمؤمنين، فكأنه يقول: إن فيكم منافقين يتثاقلون ويتخلفون عن الجهاد ﴿فإن أصابتكم﴾ يا معشر المسلمين ﴿مصيبة﴾ يعني: نكبة وشدة وهزيمة من العدو ﴿قال﴾ ذلك المنافق الذي فيكم وتخلف عن الجهاد: ﴿قد أنعم الله عليّ﴾ بالجلوس ﴿إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ يعني: حاضراً في تلك الغزوة.

قوله تعالى: ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ يعني: الفتح والغنيمة ﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ يعني: معرفة ووداً في الدين ﴿يا ليتني كنت معهم﴾ في تلك الغزوة ﴿فأفوز فوزاً عظيماً﴾ فأصيب غنائم كثيرة. وقال مقاتل: في الآية تقديم وتأخير، ومعناه: فإن أصابتكم مصيبة قال: قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً، كأن لم يكن بينكم وبينه مودة في الدين

Marfat.com

ولا ولاية. قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص: ﴿كأن لم تكن﴾ بالتاء لأن المودة مؤنثة، وقرأ الباقون بالياء لأن تأنيثه ليس بحقيقي.

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

ثم أمر المنافقين بأن يقاتلوا لوجه الله تعالى، فقال عز وجل: ﴿فليقاتل في سبيل الله﴾ يعني: فليقاتل الذين معكم في طاعة الله ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا﴾ يعني: يختارون الدنيا على الآخرة. ويقال: هذا الخطاب للمؤمنين، فكأنه يقول: فليقاتل في سبيل الله الكفار الذين يشرون الحياة الدنيا ﴿بالآخرة﴾.

ثم قال: ﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ يعني: في طاعة الله ﴿فيقتل﴾ يقول: فيستشهد، ﴿أو يغلب﴾ يعني: يقتل العدو ويهزمهم ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ يعني: ثواباً عظيماً في الجنة، فجعل ثوابهما واحداً، يعني: إذ غَلب أو غُلب يستوجب الثواب في الوجهين جميعاً، وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ قال: ومن قاتل في سبيل الله فواق ناقة، غفرت له ذنوبه ووجبت له الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي: ثواباً عظيماً في الجنة.

ثم حث المؤمنين على القتال فقال تعالى: **﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾** يعني: وعن المستضعفين **﴿من الرجال والنساء والولدان﴾** ويقال: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وسبيل المستضعفين. ويقال: **﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾** وفي خلاص المستضعفين. وقال الضحاك: وذلك أن كفار قريش أسروا سبعة نفر من المسلمين وكانوا يعذبونهم، فأمر الله بقتال الكفار ليستنقذوا الأسرى من أيديهم **﴿الذين يقولون﴾** يعني: المستضعفين الذين بمكة، يدعون الله تعالى ويقولون: **﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾** يعني: مكة **﴿الظالم أهلها﴾** بالشرك **﴿واجعل لنا من لدنك وليّاً﴾** يعني: من عندك وليّاً حافظاً يحفظنا **﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾** يعني: مانعاً يمنعنا منهم. قال الكلبي: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، جعل الله لهم النبي ﷺ وليّاً وهو عتاب بن أسيد نصيراً، وكان عتاب بن أسيد ينصف الضعيف من الشديد، فنصرهم الله به وأعانهم، وكانوا أعز من بمكة من الظلمة قبل ذلك، أي صار المسلمون الضعفاء أعزاء كما كان الكفار قبل ذلك.

Marfat.com

ثم مدح الله المؤمنين بقتالهم لوجه الله تعالى، فقال: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾ أي في طاعة الله تعالى وإعزاز الدين. وذم المشركين المنافقين، وبيّن أن قتالهم للشيطان، فقال: ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ يعني: في طاعة الشيطان.

ثم حرض المؤمنين على القتال فقال: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ يعني: جند الشيطان وهم المشركون ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ يعني: مكر الشيطان كان واهياً. ويقال: أراد به يوم بدر حيث قال لهم الشيطان يعني: للكفار: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه. ويقال: ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ يعني: مكروهاً ضعيفاً لا يدوم، وهذا كما يقال: للحق دولة وللباطل جولة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم﴾ يعني: ألم تخبر عنهم، ويقال: معناه ألا ترى إلى هؤلاء، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ حين كانوا بمكة استأذنوا في قتل كفار مكة سراً، لما كانوا يلقون منهم من الأذى، فقال لهم النبي ﷺ: «مهلاً» ﴿كفوا أيديكم﴾ عن قتالهم ﴿وأقيموا الصلاة﴾ «فإني لم أؤمر بقتالهم». فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أمره الله تعالى بالقتال، فكره بعضهم، فنزلت هذه الآية[١]: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ عن القتل ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي أتموها ﴿وآتوا الزكاة﴾ يعني: أقروا بها وأعطوها إذا وجبت عليكم ﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ يعني: فرض عليهم القتال بالمدينة ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس﴾ يعني: يخشون عذاب الكفار ﴿كخشية الله﴾ يقول: كخشيتهم من عذاب الله ﴿أو أشد خشية﴾ يعني: بل أشد خشية، ويقال: معناه وأشد خشية، يعني: أكثر خوفاً ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ يقول: لم فرضت علينا القتال ﴿لولا أخرتنا﴾ أي: يقولون هلاّ أجلتنا ﴿إلى أجل قريب﴾ وهو الموت، فبيّن الله تعالى لهم أن الدنيا فانية فقال: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ يقول: منفعة الدنيا قليلة لأنها لا تدوم. وقال النبي ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

ثم قال تعالى: ﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾ ثواب الآخرة أفضل لمن اتقى الشرك والمعاصي ﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾ وقد ذكرناه. قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير: ﴿ولا تظلمون﴾ بالتاء على معنى المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء على معنى الخبر، يعني: المتقين.

---

(١) عزاه السيوطي ٢/ ٥٩٤ إلى النسائي وابن جرير ـ وصححه الحاكم والبيهقي في سننه.

Marfat.com

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾

قوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ يعني: في أي موضع يأتيكم الموت ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ يعني: في القصور الطوال المشيدة المبنية إلى السماء، حتى لا يخلص إليه أحد من بني آدم. وقال القتبي: «البروج»: الحصون، و «المشيدة»: المطولة، وذلك أنهم لما تثاقلوا عن الخروج إلى الجهاد مخافة الموت، فأخبرهم الله تعالى أنهم لا يموتون قبل الأجل، إذا جاء أجلهم لا ينجون من الموت، وإن كانوا في موضع حصين. وهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

ثم أخبر عن المنافقين فقال: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ يعني: الفتح والغنيمة والخصب ﴿يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة﴾ يعني: نكبة وهزيمة ﴿يقولوا هذه من عندك﴾ يعني: من شؤمك، يعني: أصابتنا بسببك، أنت الذي حملتنا على هذا. ﴿قل كل من عند الله﴾ يقول: الرخاء والشدة من الله، ويقال: القدر خيره وشره من الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿فما لهؤلاء القوم﴾ يعني: ما للمنافقين ﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ يعني: لا يفهمون قولاً: إن الشدة والرخاء من الله تعالى، لا يسمعون ولا يفقهون ما أتاهم ربهم في القرآن.

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)﴾

قوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة﴾ يعني: النعمة، وهو الفتح والغنيمة ﴿فمن الله﴾ أي: بفضله ﴿وما أصابك من سيئة﴾ يعني: البلاء والشدة من العدو أو الشدة في العيش ﴿فمن نفسك﴾ يعني: فبذنبك، وأنا قضيته عليك. ويقال: ﴿ما أصابك من حسنة﴾ يوم بدر فمن الله، ﴿وما أصابك من سيئة﴾ يوم أحد فمن نفسك، يعني: بذنب أصحابك، يعني بتركهم المركز. ويقال: ﴿ما أصابك من حسنة﴾ يعني: الدلائل والعلامات لنبوتك فمن الله، ﴿وما أصابك من سيئة﴾ يعني: انقطاع الوحي فمن نفسك، يعني: بترك الاستثناء، حيث انقطع عنك جبريل عليه السلام أياماً بترك استثنائك به. ويقال: ﴿ما أصابك من حسنة﴾ يعني: تكثير الأمة فمن الله ﴿وما أصابك من سيئة﴾ يعني: من أذى الكفار فبتعجيلك كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا

Marfat.com

مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ويقال: فيه تقديم وتأخير ومعناه ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] ويقولون: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

ثم قال تعالى: ﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ يعني: ليس عليك سوى تبليغ الرسالة ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ على مقالتهم وفعلهم.

ثم قال تعالى: ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ يعني: من يطع الرسول فيما أمره فقد أطاع الله، لأن النبي ﷺ كان يدعوهم بأمر الله تعالى، وفي طاعته طاعة الله تعالى، ويقال: إن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ الله وَمَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله»(١) فقال المنافقون: إن هذا الرجل يريد أن نتخذه حناناً، فأنزل الله تعالى تصديقاً لقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ومن تولى﴾ يعني: أعرض عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي: رقيباً، وكان ذلك قبل الأمر بالقتال.

ثم أخبر عن أمر المنافقين فقال: ﴿ويقولون طاعة﴾ يعني: يقولون بحضرتك: قولك طاعة، وأمرك معروف، فمرنا بما شئت فنحن لأمرك نتبع ﴿فإذا برزوا﴾ يقول: خرجوا ﴿من عندك بيت﴾ يقول: ألغت ويقال: غيّرت ﴿طائفة منهم غير الذي تقول﴾ وقال الزجاج: يقال لكل أمر قضي بليل قد بيت، قرأ أبو عمرو وحمزة ﴿بيت طائفة﴾ بالإدغام لقرب مخرج التاء من الطاء، وقرأ الباقون بالإظهار لأنهما كلمتان.

ثم قال تعالى: ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ يعني: يحفظ عليهم ما يغيرون. وقال الزجاج: ﴿والله يكتب﴾ له وجهان، يجوز: أن يكون ينزله إليك في كتابه، وجائز أن يكون: يحفظ ما جاؤوا به.

ثم قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم﴾ يعني: اتركهم ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ يعني: شهيداً. ويقال: ﴿وتوكل على الله﴾ يعني: ثق بالله ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ يعني: ثقة لك. ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا
جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ
الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ

---

(١) حديث أبي هريرة في الصحيحين: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله» أخرجه البخاري (٢٩٥٧) ومسلم (١٨٣٥) (٣٢/وأحمد ٢/ ٢٤٤ والبغوي (٢٤٧٧) والبيهقي ٨/ ١٥٥.

Marfat.com

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ يعني: أفلا يتفكرون في مواعظ القرآن ليعتبروا بها، ويقال: أفلا يتفكرون في معاني القرآن فيعلمون أنه من عند الله تعالى؟ لأنه **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** يعني: تناقضاً كثيراً، ويقال: أباطيل وكذباً كثيراً لأن الاختلاف في قول الناس، وقول الله تعالى لا اختلاف فيه، فلهذا قال أهل النظر: إن الإجماع حجة، لأن الإجماع من الله تعالى، ولو لم يكن من الله تعالى لوقع فيه الاختلاف. ولهذا قالوا: إن القياس إذا انتقض سقط الاحتجاج به، لأنه لو كان حكم الله تعالى لم يرد عليه نقض.

قوله تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن﴾ يعني: المنافقين إذا جاءهم خبر من أمر السرية بالفتح والغلبة على العدو، سكتوا وقصروا عما جاءهم من الخبر ﴿أو الخوف﴾ يعني: وإن جاءهم خبر من السرية ببلاء وشدة نزلت بالمؤمنين **﴿أذاعوا به﴾** يعني: أفشوه **﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم﴾** قال الكلبي: لو سكتوا عن إفشائه حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يفشيه ﴿وأولو الأمر﴾ منهم مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم **﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾** يقول: يتبعونه منهم فيكون هؤلاء الذين يسمعونه ويفشونه ويعلمونه ﴿إلا قليلاً منهم﴾.

قال الله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ يعني: لولا منَّ الله عليكم ونعمته **﴿لاتبعتم الشيطان﴾** فيه تقديم وتأخير. وقال مقاتل: أذاعوا به يعني: أفشوه **﴿إلا قليلاً﴾** منهم لا يفشون الخبر. وقال الزجاج: ﴿أذاعوا به﴾ يعني: أظهروه. ومعنى ﴿يستنبطونه منهم﴾ يعني: يستخرجونه، وأصله من النبط، وهو أول الماء الذي يخرج من البئر إذا حفرت، ولو ردوا ذلك إلى أن يأخذوا من قبل الرسول ومن قبل أولي الأمر منهم، لعلمه هؤلاء الذين أذاعوا به من ضعف المؤمنين وعلموا من النبي ﷺ وذوي العلم، وكانوا يعلمون مع ذلك. وقال عكرمة: لعلمه الذين يخوضون فيه ويسألون عنه. وقال أبو العالية: يعني الذين يتجسّسونه منهم. وقال الضحاك: ولو ردوا أمرهم في الحلال والحرام إلى الرسول في التصديق به والقبول منه، ﴿وإلى أولي الأمر منهم﴾ يعني: حملة الفقه والحكمة، ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ يعني: يتفحصون عن العلم. **﴿ولولا فضل الله عليكم﴾** بالنبي ﷺ **﴿ورحمته﴾** بالقرآن **﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾** وهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى. وفي هذه الآية دليل على جواز الاستنباط من الخبر والكتاب، لأن الله تعالى قد أجاز الاستنباط من قبل الرسول وأهل العلم.

قوله تعالى: ﴿فقاتل في سبيل الله﴾ يعني: في طاعة الله **﴿لا تكلف إلا نفسك﴾** قال مقاتل: يعني ليس عليك ذنب غيرك. وقال الزجاج: أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالجهاد وإن قاتل

Marfat.com

وحده، لأنه قد ضمن له النصرة. وقال أبو بكر رضي الله عنه في أهل الردة: «لو خالفتني يميني لجاهدت بشمالي». ويقال: واعد رسول الله ﷺ أبا سفيان بأن يخرج إلى بدر الصغرى، فكره المسلمون الخروج، فأمره الله تعالى بأن يخرج وإن كان وحده. فقال: ﴿وحرِّض المؤمنين﴾ على القتال، يعني: على الجهاد بقتال أعداء الله تعالى ﴿عسى الله أن يكف﴾ يعني: يمنع ﴿بأس الذين كفروا﴾ يعني: قتال الذين كفروا. والبأس هو القتال، كما قال في آية أخرى ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ثم قال تعالى: ﴿والله أشد بأساً﴾ يعني: عذاباً ويقال: قوةً ﴿وأشد تنكيلا﴾ يعني: أشدّ عقوبة في الآخرة من عقوبة الكفار في الدنيا.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيبٌ منها﴾ قال الضحاك: يعني من سنّ سنة حسنة في الإسلام، فله أجرها وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ يعني: من سنّ سنة قبيحة محدثة في الإسلام فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. وقال الكلبي: ﴿من يشفع شفاعة حسنة﴾ يعني: يصلح بين اثنين يكن له أجر منها ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾ يعني: بالنميمة والغيبة، ﴿يكن له كفل منها﴾ يعني: إثم منها. وقال مجاهد: إنما هي شفاعة في الناس بعضهم لبعض، يعني: يشفع لأخيه المسلم في دفع المظلمة عنه. وروى سفيان عن عمرو بن دينار أن النبي ﷺ قال: «**اشْفَعُوا إلَيَّ تُؤْجَرُوا فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنكُمْ يَسْأَلُنِي الأَمْرَ فَأَمْنَعُهُ كَيْ مَا تَشْفَعُوا فَتُؤْجَرُوا**»(١). وقال الحسن: «الشفاعة تجري أجرها لصاحبها ما جرت منفعتها». والكفل في اللغة: النصيب. كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ والمقيت المقتدر. يقال: أقات على الشيء، يعني اقتدر. ويقال: المقيت الشاهد على الشيء، الحافظ له، ويقال: ﴿مقيتاً﴾ يعني: بيده الرزق وعليه قوت كل دابة، كقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية﴾ يعني: إذا سلم عليكم ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ يعني: ردوا جوابها بأحسن منها ﴿أو ردوها﴾ يعني: مثلها. فأمر الله تعالى المسلمين برد السلام، بأن

---

(١) حديث أبي موسى أخرجه النسائي ٥/٧٨ وأخرجه أيضاً من حديث معاوية: ٥/٧٨.

Marfat.com

يردوا بأحسن منها، وهو أن يقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أو يرد مثله، فيقول: وعليكم السلام. وقال قتادة: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ للمسلمين، ﴿أو ردوها﴾ لأهل الذمة، فيقول لهم: وعليكم، وروي عن رسول الله ﷺ: أن رجلاً دخل عليه، وقال: السلام عليكم، فقال له: «وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ فَلَكَ عَشْرُ حَسَنَاتٍ» ودخل آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فقال: «لَكَ عِشْرُونَ حَسَنَةً». ودخل آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فقال: «لَكَ ثَلاثُونَ حَسَنَةً»(١). وروي عنه: «أنه نهى أن ينقص الرجل من سلامه أو من رده» وهو أن يقول: السلام عليك، ولكن ليقل: السلام عليكم. ويقال: إنما ذلك للمؤمنين، لأن المؤمن لا يكون وحده ولكن يكون معه الملائكة. وفي هذه الآية دليل أن السلام سنة، والرد واجب لأن الله تعالى أمر بالرد، والأمر من الله تعالى واجب. ويقال: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ يعني: إذا أهدي إليكم بهدية، فكافئوا بأفضل منها أو مثلها، وهذا التأويل ذكر عن أبي حنيفة رحمه الله ثم قال: ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ يعني: مجازياً.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ نزلت في شأن الذين شكوا في البعث، فأقسم الله تعالى بنفسه ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ وهذه لام القسم، وكل لام بعدها نون مشددة فهي لام القسم. وقال بعضهم: ﴿إلى﴾ صلة في الكلام، معناه: ليجمعنكم يوم القيامة. ويقال: ليجمعنكم في الموت، وفي قبوركم إلى يوم القيامة، ثم يبعثكم ﴿لا ريب فيه﴾ يعني: لا شك فيه، وهو البعث. يعني: لا شك فيه عند المؤمنين، ويقال: لا ينبغي أن يشك فيه.

ثم قال تعالى: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ يعني: من أوفى من الله قولاً وعهداً. قرأ حمزة والكسائي: (ومن أزدق) بالزاي. وقرأ الباقون: ﴿أصدق﴾ وأصله الصاد، إلا أنه لقرب مخرجيهما يجعل مكانه الزاي.

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ

(١) عزاه السيوطي إلى أحمد والدارمي وأبي داود والترمذي وحسنه والنسائي والبيهقي، عن عمران بن حصين.

Marfat.com

أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ نزلت في تسعة نفر ارتدوا عن الإسلام، فخرجوا من المدينة وانطلقوا إلى مكة ثمّ أنهم خرجوا تجاراً إلى الشام فقال بعض المسلمين: نخرج إلى هؤلاء ونقتلهم ونأخذ أموالهم. وقال بعضهم: هم مسلمون، فلا يجوز أخذ أموالهم. ويقال: كان قوم من المنافقين بمكة، خرجوا إلى الشام، فاختلف المسلمون في أمرهم، فبيّن الله تعالى للمسلمين نفاقهم، فقال تعالى: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ يعني: صرتم في أمر المنافقين فئتين، يعني: فريقين تختصمون في أمرهم ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ يعني: أذلهم، ويقال: أهلكهم. ويقال: ﴿أركسهم﴾ يعني: ردهم إلى كفرهم. ويقال: ركست الشيء وأركسته إذا رددته إلى الحال الأول.

ثم قال تعالى: ﴿أتريدون أن تهدوا من أضلّ الله﴾ يعني: ترشدون إلى الهدى من أضله الله تعالى: ﴿ومن يضلل الله﴾ عن الهدى ﴿فلن تجد له سبيلا﴾ يعني: ديناً. ويقال: مخرجاً.

ثم قال تعالى: ﴿ودُّوا لو تكفرون﴾ يعني: لو ترجعون عن هجرتكم ﴿كما كفروا﴾ يعني: كما رجعوا ﴿فتكونون سواء﴾ يعني: فتكونون أنتم وهم على الكفر سواء. ومن هذا يقال في المثل: «إن من أحرق يوماً كدسه يتمنى حرق أكداس الناس». فكذلك الكفار كانوا يتمنون أن يكون الناس كلهم كفاراً، حتى يحترقوا معهم.

قال الله تعالى: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ في الدين والنصرة ﴿حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ يعني: حتى يتوبوا ويرجعوا إلى دار الهجرة بالمدينة ﴿فإن تولوا﴾ يعني: أبوا الهجرة ﴿فخذوهم﴾ يعني: فأسروهم ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ يعني: أين وجدتموهم من الأرض ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾ في العون.

ثم استثنى الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد فقال: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ وهم خزاعة، وبنو مدلج، وبنو خزيمة، وهلال بن عويمر الأسلمي وأصحابه، صالحهم رسول الله ﷺ على أن كل من أتاهم من المسلمين فهو آمن، ومن جاء منهم إلى النبي ﷺ فهو آمن. وفي هذه الآية إثبات الموادعة بين أهل الحرب وأهل الإسلام، إذا كانت الموادعة مصلحة للمسلمين.

ثم قال تعالى: ﴿أو جاؤوكم حصرت صدورهم﴾ يعني: ضاقت قلوبهم ﴿أن يقاتلوكم﴾

Marfat.com

من قبل العهد ﴿أو يقاتلوا قومهم﴾ معكم من قبل القرابة. ثم قال: ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ ذكر منّته على المؤمنين: أنه يدفع عنهم البلاء ومنعهم عن قتالهم.

ثم قال تعالى ﴿فإن اعتزلوكم﴾ في القتال ﴿فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم﴾ يعني: الصلح، معناه: أنهم لو ثبتوا على صلحهم فلا تقاتلوكم، فذلك قوله: ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ يعني: حجة وسلطاناً في قتالهم.

ثم قال تعالى: ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ وهم أسد وغطفان، كانوا إذا أتوا إلى النبي ﷺ يقولون: آمنا بك. وإذا رجعوا إلى قومهم قالوا: آمنا بالعقرب والخنفساء. يقول: إنهم لم يريدوا بذلك تصديق النبي ﷺ، وإنما أرادوا به الاستهزاء. وقال مجاهد: هم ناس من أهل مكة، كانوا يأتون النبي ﷺ ويسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون بالأوثان، ويريدون أن يأمنوا ها هنا وها هنا. فذلك قوله تعالى: ﴿كلما ردوا إلى الفتنة اركسوا فيها﴾ يقول: كلما دُعوا إلى الشرك عادوا إليه ودخلوا فيه ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ في القتال ﴿ويلقوا إليكم السلم﴾ يعني: لم يلقوا إليكم الصلح ﴿ويكفوا أيديهم﴾ عن قتالكم، يعني: إن لم يكفوا أيديهم ﴿فخذوهم﴾ يعني: أسروهم ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ يعني: حيث أدركتموهم ووجدتموهم ﴿وأولئكم﴾ يعني: أهل هذه الصفة ﴿جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ يعني: حجة مبينة في القتال.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)﴾

قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ يقول: وما جاز لمؤمن أن يقتل مؤمناً متعمداً إلا خطأ، بغير قصد منه. ويقال: معناه: ولا خطأ، يعني: ما جاز له يقتل عمداً ولا خطأ. ثم قال: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ نزلت الآية في شأن عياش بن أبي ربيعة حين قتل الحارث بن زيد، وذلك أن عياشاً هاجر إلى المدينة مؤمناً، فجاءه أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام، وهما أخواه لأمه، ومعهما الحارث بن زيد فقالوا له: إن أمك تناشدك بحقها ورحمها أن ترجع إليها وأنك أحب الأولاد إليها، وقد حلفت ألا يظلها بيت ولا تأكل طعاماً، ولا تشرب شراباً حتى ترجع إليها، فارجع إليها وكن على دينك. فخرج معهم، فلما خرج من المدينة أوثقوه بحبل وضربوه، وحملوه إلى مكة، وألقوه في الشمس، وحلفت أمه بأن

Marfat.com

لا يحله أحد ما لم يكفر بالله، فتركوه على حاله حتى أعطاهم الذي أرادوه، فحلُّوه من الوثاق فقال له الحارث بن زيد. إن كان الذي كنت عليه هدى فقد تركته، وإن كان ضلالة، فقد كنت في ضلالة، فحلف عياش بأن يقتل الحارث بن زيد إذا لقيه خالياً. ثم إن عياشاً خرج إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ فأسلم، ثم أسلم الحارث بن زيد بعد ذلك، فلقيه عياش في بعض سكك المدينة ولم يعلم بإسلامه فقتله، ثم علم بإسلامه فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بالأمر الذي كان منه، فنزلت هذه الآية فيه[1]، وصارت الآية عامة لجميع الناس. وهو قوله: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة﴾ يعني: فعليه عتق رقبة مؤمنة، ولو أعتق رقبة كافرة لم يجز بالإجماع ﴿ودية مسلمة إلى أهله﴾ يعني: وعليه دية مسلمة إلى أهل القتيل، والدية: مائة من الإبل ﴿إلا أن يصدقوا﴾ وأصله: أن يتصدقوا، فأدغم التاء في الصاد، وأقيم التشديد مقامه. ومعناه: إلا أن يعفو عنه أولياء القتيل، ولا يأخذوا منه شيئاً.

ثم قال تعالى: ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن﴾ يعني: إن كان القتيل من أهل الحرب وقد أسلم في دار الحرب، فقتله رجل في دار الحرب، فعلى القاتل الكفارة: عتق رقبة مؤمنة، ولا دية عليه وهذا بالإجماع. وقد نزلت الآية في شأن أسامة بن زيد، قتل رجلاً يقال له مرداس وكان مسلماً، فنزلت هذه الآية. وروي عن عطاء بن السائب عن أبي عياض أنه قال: «كان الرجل يأتي ويسلم، ثم يأتي قومه وهم مشركون فيقيم فيهم فيغزوهم الجيش من جيوش رسول الله ﷺ فيقتل الرجل، فنزلت هذه الآية ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن﴾ ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ وليس عليه دية.

ثم قال تعالى: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ يعني: إن كان المقتول من أهل الذمة ﴿فدية مسلمة﴾ يعني: فعليه دية مسلمة ﴿إلى أهله﴾ ﴿و﴾ عليه أيضاً ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾ وروي عن عبد الله بن عباس: «أن مستأمنين دخلا على رسول الله ﷺ، فكساهما وحملهما، فلما خرجا من عنده لقيهما عمرو بن أمية الضمري فقتلهما، ولم يعلم أنهما مستأمنان، ففداهما رسول الله ﷺ بدية حرّين مسلمين»، فنزلت هذه الآية ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾ ولهذا قال علماؤنا: إن دية الذمي والمسلم سواء. وهكذا روي عن أبي بكر، وعمر، وعثمان: «أن دية الذمي والمسلم سواء، مائة من الإبل».

ثم قال تعالى: ﴿فمن لم يجد﴾ يعني: قاتل الخطأ، إذا لم يجد رقبة مؤمنة ﴿فصيام شهرين﴾ يعني: فعليه صيام شهرين ﴿متتابعين توبة من الله﴾ يعني: تلك الكفارة توبة للقاتل من الله تعالى، ويقال سبب للتجاوز من الله تعالى: ﴿وكان الله عليماً﴾ بالقاتل ﴿حكيماً﴾ يعني: حكم بالكفارة على من قتل خطأ.

---

(١) عزاه السيوطي ٢/ ٦١٥ إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي.

Marfat.com

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ روي عن سالم بن أبي الجعد قال: كنت عند عبد الله بن عباس بعدما كفّ بصره، فجاءه رجل فناداه: ما تقول فيمن قتل مؤمناً متعمداً؟ فقال: ﴿جزاؤه جهنم خالداً فيها﴾. ﴿وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾ فقال: أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال: وأنى له الهدى، سمعت نبيكم ﷺ يقول: «يَأْتِي قَاتِلُ المُؤْمِنِ مُتَعَمِّداً وَيَتَعَلَّقُ بِهِ المَقْتُولُ عِنْدَ عَرْشِ الرَّحْمٰنِ، فَيَقُولُ يا رَبِّ سَلْ هٰذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟» فوالذي نفسي بيده في هذا نزلت هذه الآية، فما نسختها آية بعد نبيكم، وما نزل بعده من برهان»[1]. وروي عن ابن عمر وأبي هريرة أنهما قالا: «لا توبة له». وقال غيرهما: «له التوبة» لأن الله تعالى ذكر الشرك والقتل والزنى ثم قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ إلى قوله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] ويقال: معنى: ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾، يعني: داخلاً فيها، لأنه لم يذكر فيها الأبد، كما أن الرجل يقول: خلدت فلاناً في السجن يعني: أدخلته. ويقال معناه: ﴿فجزاؤه جهنم﴾ أي إن جازاه. وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا وَعَدَ اللهُ لِعَبْدِهِ ثَوَاباً فَهُوَ مُنْجِزُهُ، وَإِنْ أَوْعَدَ لَهُ العُقُوبَةَ فَلَهُ المَشِيئَةُ إِنْ شَاءَ عاقبه وإن شاء عَفَا عَنْهُ». ويقال: معناه ﴿من يقتل مؤمناً متعمداً﴾ يعني: مستحلاً لقتله ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ لأنه كفر باستحلاله. ويقال: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ متعمداً لأجل إيمانه، كما روي في الأثر: «أنّ بغضَ الأنصار كفر، إن كان بغضهم لأجل نصرتهم رسول الله ﷺ، فكذلك ها هنا إذا قتله لأجل إيمانه صار كافراً. ويقال هو منسوخ بقوله تعالى ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ويقال: معناه فجزاؤه جهنم بقتله خالداً فيها بارتداده، لأن الآية نزلت في شأن رجل قتل مؤمناً متعمداً ثم ارتد عن الإسلام، وهو مقيس بن ضبابة الكناني، وجد أخاه هشام بن ضبابة قتيلاً في بني النجار، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فبعث معه رسول الله ﷺ رجلاً من بني فهر إلى بني النجار، وأمره بأن يقرئهم السلام ويأمرهم بأن يطلبوا قاتله، فإن وجدوه قتلوه، وإن لم يجدوه حلفوا خمسين يميناً وغرموا الدية، فلما أتاهم مقيس بن ضبابة ورسولُ رسول الله ﷺ معه بلّغهم الرسالة، فقالوا: سمعاً وطاعة لأمر الله ورسوله. وقالوا: ما نعرف قاتله، فحلفوا وغرموا الدية. فلما رجع مقيس بن ضبابة قال في نفسه: إني بعت دم أخي بمائة من الإبل. ودخلت فيه حمية الجاهلية، وقال: أقتل هذا الفهري مكان أخي، وتكون الدية فضلاً لي. فقتله وتوجه إلى مكة وقال في ذلك شعراً.

---

(١) عزاه السيوطي ٢/٦٢٣ إلى أحمد وسعيد بن منصور والنسائي وابن ماجة وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر. وقال: أخرجه الترمذي وحسّنه من طريق عمرو بن دينار، عن ابن عباس.

Marfat.com

قتلْتُ به فِهْراً وحملتُ عقلَهُ سَراةَ بني النَّجَّارِ أربابَ فارعِ
فأدركْتُ ثأري واضطجعْتُ تَوسُّداً وكنتُ إلى الأوثانِ أوّلَ راجعِ

فنزلت هذه الآية في شأنه: إن جزاؤه جهنم خالداً فيها، وكل من يعمل مثل عمله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله﴾ يقول: إذا خرجتم وضربتم في الجهاد ﴿فتبينوا﴾ نزلت الآية في شأن أسامة بن زيد، لقي رجلاً يقال له مرداس، فقال له مرداس: قال: السلام عليكم وقال: إني مؤمن وقال: لا إله إلا الله، فقتله أسامة ولم يصدقه بأنه مسلم، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: **«أَقتلْتَ رَجُلاً يقولُ لا إِلَهَ إِلاَّ الله»**؟ فقال أسامة: إنه قال بلسانه دون قلبه فقال ﷺ: **«هَلاَّ شَقَقْتَ عنْ قَلْبِهِ»** فقال أسامة: استغفر لي فقال له: **«فَكَيْفَ استغفر لَكَ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله»**. ثلاث مرات، ثم استغفر له الرابعة، وأمره بأن يعتق رقبة»[(١)]. وروى شهر بن حوشب عن جندب بن سفيان، عن رجل من بجيلة قال: كنت عند رسول الله ﷺ إذ جاءه بشير من السرية فأخبره بالفتح وقال: يا رسول الله ﷺ، بينما نحن نطلب القوم وقد هزمهم الله، فقصدت رجلاً بالسيف، فلما أحس أن السيف واقع به فقال: إني مسلم فقتلته، فقال له رسول الله ﷺ: **«أَقَتَلْتَ مُسْلِماً!»** فقال: يا رسول الله؛ إنه قال متعوّذاً فقال ﷺ: **«أفلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ!»** فقال يا رسول الله: استغفر لي فقال: **«لاَ أَسْتَغْفِرُ لَكَ»**. فمات الرجل فدفنوه، ثم أصبح على وجه الأرض ثم دفنوه، فأصبح على وجه الأرض ثلاث مرات، فلما رأى ذلك قومه استحيوا منه وحزنوا، فحملوه وألقوه في شعب من تلك الشعاب فنزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ يعني: قفوا وانظروا من تقتلون. قرأ حمزة والكسائي ﴿فتثبتوا﴾ بالثاء، وقرأ الباقون ﴿فتبينوا﴾ بالباء، فمن قرأ بالثاء فهو من التثبت وهو التأني، يعني: قفوا ولا تعجلوا في الأمر حتى يتبين لكم الكافر من المسلم. ومن قرأ بالباء فهو من التبين، ومعناهما قريب.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وابن كثير والكسائي: ﴿السَّلام﴾ بالألف. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة ﴿السلم﴾ بغير ألف. وأما من قرأ ﴿السلام﴾ فلأن مرداساً قال لهم: السلام عليكم. وأما من قرأ ﴿السلم﴾ فهو الدخول في

---

(١) حديث أسامة بن زيد: أخرجه البخاري (٤٢٦٩) و(٦٨٧٢) ومسلم (١٥٩) (٩٦) وأبو داود (٢٦٤٣) وأحمد ٥/٢٠٠.

Marfat.com

الانقياد والمتابعة، يعني: إن انقاد لكم وتابعكم فلا تقولوا له: ﴿لست مؤمناً﴾، وأسلم واستسلم بمعنى واحد، أي: دخل في الانقياد. كما تقول: أشتى الرجل إذا دخل في الشتاء، وأربع إذا دخل في الربيع. ثم قال: ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ وذلك أن الرجل كانت معه غنيمة حين قتلوه، وأخذوا ما معه من الغنيمة، فعيّرهم الله تعالى بطمعهم في المال. ثم قال: ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ يعني: عند الله ثواب كثير في الآخرة لمن اتقى، ويقال: غنائم كثيرة في الدنيا، فاطلبوا من حيث أُذِن لكم وأُبيح لكم.

ثم قال تعالى: ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ يعني: هكذا كنتم من قبل الهجرة بمنزلة مرداس، تأمنون في قومكم بالتوحيد من أصحاب رسول الله ﷺ وتعصم دماؤكم وأموالكم، ولا تخيفون أحداً، وكنتم تأمنون بمثله قبل هجرتكم ﴿فمن الله عليكم﴾ بالهجرة ويقال: هكذا كنتم يعني: كنتم تكتمون إيمانكم من قبل، ويقال: أي كنتم كفاراً، فمنَّ الله عليكم بالإسلام. ثم قال: ﴿فتبينوا﴾ يعني: قفوا وانظروا في أمركم لكيلا تقتلوا مؤمناً، فصارت الآية عامة لجميع السرايا إذا دخلوا دار الحرب، ينبغي أن يتبينوا لكي لا يقتلوا مؤمناً. ثم قال: ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ يعني: عالماً بكم وبأعمالكم.

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ يعني: القاعدين عن الجهاد، لا يكون حالهم مثل حال الذين يجاهدون في الثواب والأجر ﴿غير أولي الضرر﴾ يعني: القاعدين الذين لا عذر لهم، ومن كان له عذر فهو خارج من هذا. قال ابن عباس: «يعني ابن أم مكتوم ومحمد بن جحش. ويقال: عبد الله بن جحش. فقالا: إنا أعميان فهل لنا من رخصة؟ فنزلت ﴿غير أولي الضرر﴾.

حدثنا أبو الفضل بن أبي حفص، قال: **حدثنا** أبو جعفر الطحاوي، قال: **حدثنا** إبراهيم بن داود، قال: **حدثنا** عبد العزيز بن عبد الله الأوسي، قال: **حدثنا** إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، عن سهل بن سعد الساعدي قال: رأيت مروان بن الحكم جالساً في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أملى عليه ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾ ﴿والمجاهدون في سبيل الله﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليَّ، فقال: يا رسول الله لو أني أستطيع الجهاد لجاهدت. وكان رجلاً أعمى، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت عليَّ

Marfat.com

حتى خفت أن يرضَّ فخذي، ثم سُري عنه، فأنزل الله تعالى: ﴿غيرَ أولي الضرر﴾ يعني: إلا أن يكون أولي الضرر.

قرأ نافع والكسائي وابن عامر: ﴿غيرَ أولي الضرر﴾ بنصب الراء، وقرأ حمزة وعاصم وابن كثير وأبو عمرو ﴿غيرُ أولي الضرر﴾ بالضم. وقرأ بعضهم ﴿غيرِ أولي الضرر﴾ بالكسر. فمن قرأ بالضم جعله نعتاً لـ﴿القاعدون﴾، يعني: لا يستوي القاعدون غيرُ أولي الضرر. ومن قرأ بالنصب فهو على معنى الاستثناء، ويقال: هو نصب على الحال. ومن قرأ بالكسر فلحرف الكسر ﴿المؤمنين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين﴾ يعني: بغير عذر **﴿درجة﴾** يعني: فضيلة في الآخرة **﴿وكلاً﴾** يعني: المجاهدين والقاعدين والمعذورين **﴿وعد الله الحسنى﴾** يعني: وعد الله لهم الثواب وهو الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين﴾ يعني: بغير عذر **﴿أجراً عظيماً﴾**، ثم بيّن الأجر فقال: **﴿درجات منه﴾** يعني: فضائل من الله تعالى في الجنة يعني: سبعين درجة. روى هشام بن حسان، عن جبلة بن عطية، عن ابن محيريز قال: «ما بين الدرجتين حضر الفرس أو الجواد سبعين عاماً». ثم قال: **﴿ومغفرة﴾** يعني: مغفرة لذنوبهم **﴿ورحمة﴾** يعني: نعمة في الجنة **﴿وكان الله غفوراً﴾** لمن جاهد **﴿رحيماً﴾** إذ سوّى بين من له عذر بالفضل مع غيره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ يعني: ملك الموت يقبض أرواحهم **﴿ظالمي أنفسهم﴾** يعني: الذين أسلموا بمكة، وتخلفوا عن الهجرة، وخرجوا مع المشركين إلى بدر، فلما رأوا قلة المؤمنين شكوا وكفروا، فقتل بعضهم، فأخبر الله تعالى عن حالهم فقال: **﴿قالوا فيم كنتم﴾** يعني: الملائكة تقول لهم: في أي شيء كنتم؟ ويقال: أين كنتم عن الهجرة؟ **﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾** يقولون: كنا مقهورين في أرض مكة، لا نقدر أن نظهر الإيمان **﴿قالوا﴾** يعني: قالت لهم الملائكة عليهم السلام **﴿ألم تكن أرض الله واسعة﴾** يعني: المدينة مطمئنة رحبة **﴿فتهاجروا فيها﴾** يعني: إليها. فقال الله تعالى لمحمد ﷺ: **﴿فأولئك مأواهم جهنم﴾** أي منزلهم ومصيرهم إلى النار **﴿وساءت مصيراً﴾** يعني: بئس المصير صاروا إليها.

Marfat.com

حدّثنا أبو الفضل بن أبي حفص، قال: حدّثنا الطحاوي[1] قال حدّثنا إبراهيم بن مرزوق، قال: حدّثنا أبو عبد الرحمن المقري، عن حيوة بن شريح، عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «كان ناس من المسلمين مع المشركين، يكثرون سواد المشركين يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، فأنزل الله تعالى ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ الآية.

ثم استثنى أهل العذر فقال: ﴿إلا المستضعفين﴾ يعني: المقهورين ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾ فليس مأواهم جهنم، وهم الذين ﴿لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾ يعني: لا يجدون سعة الخروج عنهم إلى المدينة، ولا يعرفون طريقاً إلى المدينة ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ أي يتجاوز عنهم، و﴿عسى﴾ من الله تعالى واجب ﴿وكان الله عفواً﴾ عنهم ﴿غفوراً﴾ لهم فلا يعاقبهم، فقال عبد الله بن عباس: «أنا ممن استثنى الله يومئذٍ، كنت غلاماً صغيراً وكان ذلك قبل نسخ الهجرة، ثم نسخت الهجرة بعد فتح مكة».

حدّثنا أبو الفضل بن أبي حفص، قال: حدّثنا الطحاوي، قال: حدّثنا أبو أمية قال: حدّثنا محمد بن إبراهيم، قال: حدّثنا عبيد الله بن موسى، قال: حدّثنا إبراهيم بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن الحارث، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده[2]، قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة، خطب الناس، فقال في خطبته: «وَلَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ» وروى طاوس عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال يوم الفتح: «إِنَّهُ لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُم فَانْفِرُوا»[3]

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله﴾ يقول: في طاعة الله إلى المدينة ﴿يجد في الأرض مُراغماً كثيراً﴾ يقول: ملجأ متحولاً من الكفر إلى الإيمان ﴿وسعة﴾ في الرزق. وقال القتبي: المراغم والمهاجر واحد. ويقال: راغمت وهاجرت، لأنه إذا أسلم خرج مراغماً لأهله، أي مغايظاً لهم، والمهاجر المنقطع. وقيل للذاهب إلى النبي ﷺ مهاجر مراغم، لأنه إذا خرج هجر قومه. وروي عن معمر عن قتادة قال: لما نزلت ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ الآية. فقال رجل من المسلمين وهو مريض: والله مالي من أني أجد الدليل في الطريق

---

(١) ساقط من النسخة «ب».

(٢) في نسخة «ب» عن ابن عباس. وأخرجه البخاري (٣٠٨٠) و(٣٩٠٠) و(٤٣١٢) ومسلم (١٨٦٤) من حديث عائشة.

(٣) حديث ابن عباس: أخرجه البخاري (١٨٣٤) و(٢٧٨٣) ومسلم (١٣٥٣) والترمذي (١٥٩٠) وأحمد ١/ ٢٢٦ و٣١٥.

Marfat.com

وإني لموسر فاحملوني، فحملوه، فأدركه الموت في الطريق، فقال أصحاب النبي ﷺ: لو بلغ إلينا لتمّ أجره وقد دفن بالتنعيم، وجاء بنوه إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بالقصة، فنزلت هذه الآية: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت﴾ يعني مات في الطريق ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ يعني: ثوابه على الله الجنة ﴿وكان الله غفوراً﴾ لما كان منه في الشرك ﴿رحيماً﴾ حين قبل توبته، وكان اسمه جُنْدَعْ بن ضَمْرَة[1].

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ يعني: إذا خرجتم إلى السفر ﴿فليس عليكم جناح﴾ ويقول: لا إثم ولا حرج عليكم ﴿أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ يعني: يقتلكم. والفتنة في أصل اللغة: الاختبار، ثم سمي القتل فتنة، لأن فيه معنى الاختبار كما قال ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ﴾ [يونس: ٨٣] يعني: يقتلهم. فالله تعالى قد أباح قصر الصلاة عند الخوف، ثم صار ذلك عاماً لجميع المسافرين أن يقصروا من الصلاة، خافوا أو لم يخافوا. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ الله عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»[2].

ثم قال تعالى: ﴿إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾ يعني: ظاهر العداوة، ومعناه: كونوا بالحذر منهم.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ يعني: بالمؤمنين، ومعناه: إذا كنت

---

(١) في نسخة «ب». وكان اسمه ضمرة بن جندب، ويقال: جندب بن ضمرة.

(٢) أخرجه مسلم (٦٨٦) والترمذي (٣٠٣٤) وأبو داود (١١٩٩) (١٢٠٠) وأحمد ١/ ٢٥ وابن خزيمة (٩٤٥) والبيهقي ٣/ ١٣٤.

Marfat.com

بحضرة العدو وحضرت الصلاة ﴿**فلتقم طائفة منهم**﴾ يعني: جماعة منهم ﴿**معك**﴾ في الصلاة ﴿**وليأخذوا أسلحتهم**﴾ يعني: الذين يصلون معك، ويقال: ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ الذين هم بإزاء العدو ﴿**فإذا سجدوا**﴾ يعني: إذ صلوا الذين خلف الإمام ركعة واحدة ﴿**فليكونوا من ورائكم**﴾ يعني: ينصرفون إلى موضع العدو، ويقفون هناك ﴿**ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا**﴾ يعني: الذين كانوا بإزاء العدو ﴿**فليصلوا معك**﴾ ركعة أخرى، ولم يذكر في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة، ولكن روي في الخبر عن عبد الله بن عمر وغيره: «أن النبي ﷺ حين صلى صلاة الخوف، صلى بالطائفة الأولى ركعة، وبالطائفة الأخرى ركعة» كما ذكر في الآية، ثم جاءت الطائفة الأولى، وذهبت هذه الطائفة إلى موضع العدو، حتى قضت الطائفة الأولى الركعة الأخرى وسلموا، ثم جاءت الطائفة الأخرى، وقضوا الركعة الأولى وسلموا، حتى تمَّ لكل طائفة ركعتان. وهذا اختيار أصحابنا في صلاة الخوف.

ثم قال تعالى: ﴿**ودَّ الذين كفروا**﴾ يقول: تمنى الذين كفروا ﴿**لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم**﴾ يعني: أمتعة الحرب ﴿**فيميلون عليكم ميلة واحدة**﴾ يعني: يحملون عليكم حملة واحدة، وإنما حذَّرهم لكي يكونوا بالحذر منهم.

ثم قال تعالى: ﴿**ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم**﴾ وذلك أن النبي ﷺ كان في غزوة أنمار، فهزمهم وسبى ذريتهم، فلما رجعوا أصابهم المطر، فنزلوا وادياً تحت الأشجار، فوضع النبي ﷺ سلاحه وذهب إلى الجانب الآخر من الوادي وحده، فجاء السيل، فحال بينه وبين أصحابه. وكان بعض المشركين على ذلك الجبل، فرآه حين حال السيل بينه وبين أصحابه، فجاءه واحد منهم يقال له: حويرث بن الحارث وقال: أنا أقتله، فأتاه وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال: «**الله تعالى يَمْنَعُنِي مِنكَ**» فسلَّ سيفه وأراد أن يضربه، فدفع النبي ﷺ الكافر في صدره دفعة، فسقط السيف من يده. فوثب رسول الله ﷺ وأخذ سيفه وقال: «**مَنْ يُخَلِّصُكَ مِنِّي؟**» فقال: لا أحد. فقال له: «**إِنْ أَسْلَمْتَ أَرُدَّ عَلَيْكَ سَيْفَكَ**» فقال: لا أسلم. ولكن أعاهد الله تعالى ألا أكون عليك ولا لكَ أبداً، فرد عليه سيفه فقال الرجل: يا محمد أنت خير مني، لأنك قدرت على قتلي فلم تقتلني، فرجع الكافر إلى أصحابه، فأخبرهم بالقصة فآمن بعضهم ثم انقطع السيل. وجاء النبي عليه السلام إلى أصحابه وأخبرهم بالقصة، وقرأ عليهم هذه الآية ﴿**ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى**﴾ يعني: أصابتكم الجراحات ﴿**أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم**﴾ من العدو، يعني: كونوا بالحذر منهم. وقال الضحاك: ﴿**وخذوا حذركم**﴾ يعني: تقلدوا سيوفكم، فإنما ذلك هيبة الغزاة. ثم قال تعالى: ﴿**إن الله أعد للكافرين**﴾ في الآخرة ﴿**عذاباً مهيناً**﴾ يهانون فيه.

ثم قال تعالى: ﴿**فإذا قضيتم الصلاة**﴾ قال بعضهم: فإذا فرغتم من الصلاة ﴿**فاذكروا الله**﴾ بالقلب واللسان على أي حال كنتم ﴿**قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**﴾ ويقال: ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾

Marfat.com

قال بعضهم: إذا فرغتم من الصلاة، أي صلاة الخوف. ﴿فاذكروا الله﴾ بالقلب واللسان أي حال كنتم ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ يقول: فصلوا لله صلاة الصحيح قياماً، أو المريض قاعداً، أو على جنوبكم إذا كان المرض أشد من ذلك كما قال في آية أخرى ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾. ويقال: ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ أي فرغتم من صلاة الخوف ﴿فاذكروا الله﴾ أي فصلّوا صلاة الصحيح قائماً، أو المريض قاعداً، أو على جنوبكم. إن كان المرض أشدّ من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿فإذا اطمأننتم﴾ يقول: أمنتم ورجعتم إلى منازلكم ﴿فأقيموا الصلاة﴾ يعني: فأتموا الصلاة أربعاً. وهذا كقوله ﴿يمشون مطمئنين﴾ أي مقيمين.

ثم قال تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ يعني: فرضاً مفروضاً معلوماً، للمسافر ركعتان، وللمقيم أربع. وقال مقاتل: ﴿كتاباً موقوتاً﴾ يعني فريضة معلومة كقوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ [البقرة: ١٧٨ وغيرها] يعني: فرض عليكم. وقال الزجاج: ﴿كتاباً موقوتاً﴾ أي مفروضاً موقوتاً فرضه.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿ولا تهنوا﴾ يقول: لا تضعفوا ﴿في ابتغاء القوم﴾، يعني: في طلب المشركين أبي سفيان وأصحابه بعد يوم أحد، وذلك أن المسلمين لما أصابتهم الجراحات يوم أحد، فكانوا يضعفون عن الخروج إلى الجهاد، فأمرهم الله تعالى بأن يظهروا من أنفسهم الجد والقوة، وهذا الخطاب لهم، ولجميع الغزاة إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿إن تكونوا تألمون﴾ قال عكرمة: الألم الوجع، وكذلك قال الضحاك والسدي يعني: إن أصابكم الوجع والجراحات في الحرب ﴿فإنهم يألمون كما تألمون﴾ يعني: يصيبهم الوجع مثل ما يصيبكم، ولكم زيادة ليست للمشركين، وذلك قوله تعالى: ﴿وترجون من الله ما لا يرجون﴾ يعني: الثواب في الآخرة ﴿وكان الله عليماً﴾ بما كان ﴿حكيماً﴾ بما يكون.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ يعني: أنزلنا عليك جبريل عليه السلام، ليقرأ عليك القرآن بالعدل والأمر والنهي ﴿لتحكم بين الناس بما أراد الله﴾ يعني: بما أعلمك الله وألهمك بما أوحي إليك ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ يعني: ولا تكن للسارقين معيناً.

وروى محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر، عن جده قال: عن قتادة بن النعمان، قال: كان بنو أبيرق ثلاثة: بشر، وبشير، ومبشِّر. فكان بشر يكنى أبا طُعمة، وكان شاعراً، وكان منافقاً، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب النبي ﷺ ثم يقول: قاله فلان. وكان لعمّي رفاعة بن زيد عليّة فيها طعام وسلاح، فطرقه بشير من الليل، فأخذ ما فيها من الطعام والسلاح. فلما أصبح عمي دعاني وقال لي: إنه أُغِير علينا الليلة فقلت: من فعله؟ فقال: بشير وأخواه. فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته أن بشيراً قد سرق من عمي الطعام والسلاح. فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، وأما السلاح فليردوه علينا. فجاء قومه وكانوا أهل لسان وبيان فقالوا: إن رفاعة وابن أخيه عمدوا إلى أهل بيت منا يتهمونهم بالسرقة، فوقع قولهم عند النبي ﷺ موقعاً، فبين الله خيانتهم فنزل: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ وهو طعمة. وقال الضحاك: سرق طعمة بن أبيرق اليهودي درعاً للزبير بن العوام، فاختصما إلى النبي ﷺ فقال للزبير: «لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ أنْ تَأْتِيَ عَلَى ذٰلِكَ بِحُجَّةٍ قَيِّمَةٍ وَشَهَادَةٍ صَحِيحَةٍ». فأنزل الله تعالى تصديقاً لقول الزبير: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾. وقال مقاتل: سرق طعمة المنافق ابن أبيرق درعاً من يهودي، فلما جاؤوا إلى بيته بالأثر، رمى الدرع في دار رجل من الأنصار وأنكر، فجاء قومه ليبرئوه من السرقة فنزلت هذه الآية. وقال الكلبي: سرق طعمة بن أبيرق درعاً من جار له يقال له قتادة بن النعمان، فوضعه عند رجل من اليهود يقال له زيد بن الشخير، وأنكر السرقة فجاء قومه يخاصمون عنه، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿واستغفر الله﴾ يعني: استغفر عند جدالك عن طعمة حين جادلت ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ يقول: ولا تخاصم عن الذين يضرون أنفسهم بالسرقة ﴿إن الله لا يحبّ من كان خواناً أثيماً﴾ يعني: خائناً بالسرقة فاجراً برميه على غيره.

ثم قال تعالى: ﴿يستخفون من الناس﴾ قال الضحاك: لما سرق الدرع اتخذ حفرة في بيته، وجعل الدرع تحت التراب فنزل ﴿يستخفون من الناس﴾ بالتراب ﴿ولا يستخفون من الله﴾ يقول: لا يخفى مكان الدرع على الله ﴿وهو معهم﴾ عالم بهم وبخيانتهم. ويقال: ﴿يستخفون﴾ يعني: يستترون من الناس وهم قوم طعمة، ﴿ولا يستخفون﴾ من الله يقول: ولا يقدرون أن يستتروا من الله تعالى ﴿وهو معهم﴾ يعني: عالماً بهم وبخيانتهم ﴿إذ يبيتون﴾ يقول: إذ يؤلفون ويغيرون ﴿ما لا يرضى﴾ الله ﴿من القول﴾ يقول: ما لا يرضوا لأنفسهم من القول وهم سرقوا،

Marfat.com

ويقال: ما لا يرضى الله تعالى ولا يحبه. ثم قال: ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ يعني: عالماً بهم وبخياناتهم.

ثم أقبل على قوم طعمة فقال: ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ يقول: أنتم يا هؤلاء ﴿جادلتم﴾ أي خاصمتم ﴿عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ يقول: فمن يخاصم الله عنهم ﴿يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ يعني: كفيلاً، ويقال خصيماً.

وقال الضحاك: أراد النبي ﷺ أن يقيم الحد على طعمة بن أبيرق، وكان طعمة مطاعاً في اليهود، فجاءت اليهود شاكين في السلاح، وهرَّبوا بطعمة وجادلوا عنه، فنزل ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ يعني اليهود الآية.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ قال الضحاك: نزلت الآية في شأن وحشيّ قاتل حمزة، أشرك بالله وقتل حمزة رضي الله عنه، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني لنادم، فهل لي من توبة؟ فنزل ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ ﴿ثم يستغفر الله﴾ الآية. وقال الكلبي: نزلت في شأن طعمة ﴿ومن يعمل سوءاً﴾ بسرقة الدرع أو يظلم نفسه برميه غيره وجحوده، ثم يستغفر الله يعني: يتوب إلى الله ﴿يجد الله غفوراً﴾ متجاوزاً ﴿رحيماً﴾ لمن اتقى الشرك. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ نفعني الله به ما شاء، وإذا سمعته من غيره حلفته. وحدثني أبو بكر الصديق، وصدق أبو بكر قال: قال رسول الله ﷺ **«ما من عبدٍ يُذنِبُ ذنباً ثم يتوضأُ ويُصلّي رَكْعتَيْنِ، ويستغفرُ الله تعالى إلا غفر الله له»**[(1)]. وتلا هذه الآية ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ الآية صدق أبو بكر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ومن يكسب إثماً﴾ يعني: الشرك بالله تعالى ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ أي يضر بنفسه ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾.

ثم قال: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ يعني: عمل بالمعصية ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ قال

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٠٦) وقال: حديث حسن والدرامي: ١/ ٣٨٢ وأحمد: ١/ ٢.

Marfat.com

مقاتل: وهو طعمة حين رمى بالدرع في دار الأنصاري واتهمه به، وهو قوله ﴿ثم يرم به بريئاً﴾. وقال الضحاك: يعني به المنافقين حيث قالوا في عائشة رضي الله عنها قولاً عظيماً، فقال: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ بالمعاصي ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ يعني: عائشة وصفوان ثم قال الله تعالى: ﴿فقد احتمل بهتاناً﴾ يقول: فقد قال كذباً ﴿وإثماً مبيناً﴾ يعني ذنباً ظاهراً.

قوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ يعني: لولا فضل الله عليك بالنبوة، ورحمته بالوحي ﴿لهمت طائفة منهم﴾ يعني: جماعة ﴿أن يضلوك﴾ يعني: يخطئوك في الحكم ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ يعني: وما يرجع وبال ذلك إلا على أنفسهم ﴿وما يضرونك من شيء﴾ وإنما يضرون بأنفسهم. قال الضحاك: نزلت في وفد ثقيف، قدموا على رسول الله ﷺ وقالوا: جئناك لنبايعك على أن لا تكسر أصنامنا ولا تعشرنا، فلم يجبهم رسول الله ﷺ، فنزلت ﴿لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ وقال الكلبي: يعني قوم طعمة.

ثم قال تعالى: ﴿وأنزل عليك الكتاب﴾ يعني: القرآن ﴿والحكمة﴾ يعني: القضاء والمواعظ ﴿وعلمك﴾ بالوحي ﴿ما لم تكن تعلم﴾ قبل الوحي ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ بالنبوة.

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ وهو ما يتناجون فيما بينهم، ويقال: في كثير من أحاديثهم، وهم وفد ثقيف أو قوم طعمة ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ يقول: إلا نجوى من أمر بصدقة ﴿أو معروف﴾ يعني: القرض، كقوله ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦] ويقال: المعروف يعني القول بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿أو إصلاح بين الناس﴾ يعني: يذهب بالصلاح فيما بين اثنين ليصلح بينهما ﴿ومن يفعل ذلك﴾ يعني: الذي ذكرنا ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾ يعني: طلباً لمرضاة الله تعالى. ﴿فسوف نؤتيه﴾ يعني: في الآخرة ﴿أجراً عظيماً﴾ قرأ حمزة وأبو عمرو ﴿يؤتيه﴾ بالياء، يعني: يؤتيه الله تعالى. وقرأ الباقون ﴿نؤتيه﴾ بالنون، يعني: نحن نعطيه في الآخرة ﴿أجراً عظيماً﴾ أي: ثواباً عظيماً.

قوله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول﴾ يعني: يخالفه في التوحيد ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ يعني: من بعد ما تبين له التوحيد ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ يعني: يتبع ديناً غير دين المؤمنين، ويقال: يتبع طريقاً أو مذهباً غير طريق المؤمنين. وفي الآية دليل: أن الإجماع حجة، لأن من خالف الإجماع فقد خالف سبيل المؤمنين. وقال الضحاك: قدم نفر من قريش المدينة وأسلموا، ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين، فنزلت هذه الآية ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له

Marfat.com

الهدى﴾ يعني: دين الإسلام ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ ﴿نوله ما تولى﴾ يعني: نكله إلى الأصنام يوم القيامة، وهم لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً، ولا ينجونهم من عذاب الله تعالى. وقال مقاتل: ﴿نوله ما تولى﴾ أي نتركه وما اختار لنفسه. وقال الكلبي: نُوله في الآخرة ما تولى في الدنيا وهذا كما قال بعض الحكماء: من أراد أن يعلم كيف يعامل معه في الآخرة، فلينظر كيف يعامل هو مع الله في الدنيا. وقال الكلبي: «نزلت الآية في شأن طعمة، لما ظهر حاله وسرقته هرب إلى مكة وارتد، فنقب بمكة حائطاً لرجل، فسقط حجر فبقي في النقب حتى وجدوه على حاله، فأخرجوه من مكة، فخرج إلى الشام، فسرق بعض أموال القافلة فرجموه وقتلوه، فنزل قوله: ﴿نوله ما تولى﴾.

﴿ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ قرأ حمزة وعاصم وأبو عمرو ﴿نُولهْ ونصلهْ﴾ بجزم الهاء، وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ قال الضحاك: وذلك أن شيخاً من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني شيخ منهمك في الذنوب والخطايا، إلا أني لم أشرك بالله شيئاً مذ عرفته وآمنت به، ولم أتخذ من دونه ولياً، ولم أواقع المعاصي جرأة على الله تعالى، ولا مكابرة له، وإني لنادم وتائب مستغفر، فما حالي عند الله؟ فأنزل الله تعالى ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ويقال: نزل في شأن وحشيّ، وقد ذكرناه من قبل. ﴿ومن يشرك بالله﴾ يعني: من يعبد غير الله تعالى ﴿فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ يعني: فقد ضل عن الهدى ﴿ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق.

ثم إن الله تعالى ذم الكفار وبيّن جهلهم فقال: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾ يقول: ما يعبدون من دون الله إلا أصناماً أمواتاً، وهذا قول ابن عباس.

وعن الحسن أنه قال: ﴿إلا إناثاً﴾ الشيء الميت الذي ليس فيه روح. وقال السدي: سموها إناثاً: اللات والعزى ومناة. ثم قال: ﴿وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ وذلك أن الشيطان كان يدخل في الصنم ويكلمهم، وهم يعبدون الصنم وفيه الشيطان. ويقال: إبليس زين لهم

Marfat.com

عبادة الأصنام، فإذا عبدوا بإذنه فكأنهم عبدوا الشيطان. ثم قال: ﴿مريداً﴾ أي: مارداً مثل قدير وقادر، والمارد: العاتي. ويقال: كل فاسد مفسد يكون مريداً، يعني: يكون ﴿مريداً﴾ أي يكون فاسداً بنفسه ويفسد غيره.

ثم قال عز وجل: ﴿لعنه الله﴾ يعني: طرده الله من رحمته وهو إبليس، حيث لم يسجد لآدم. فلما لعنه ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ يعني: حظاً معلوماً، قال مقاتل: يعني من كل ألفٍ واحدٌ في الجنة، وسائرهم في النار، فهذا نصيب مفروض.

ثم قال عز وجل: ﴿ولأضلنهم﴾ يعني: عن الهدى والحق ﴿ولأمنينهم﴾ يعني: لأخبرنهم بالباطل، أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ وهي البحيرة، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يشقون آذان الأنعام ويسمونها بحيرة، وذكر قصتهم في سورة المائدة. ثم قال: ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ قال عكرمة: هو الخصاء، وهكذا روي عن ابن عباس وأنس بن مالك. وروي عن سعيد بن جبير قال: «هو دين الله»، وهكذا قال الضحاك ومجاهد. وقيل لمجاهد: إن عكرمة يقول: هو الخصاء فقال: ما له لعنه الله وهو يعلم أنه غير الخصاء. فبلغ ذلك عكرمة، فقال: هو فطرة الله. وقال الزجاج: إن الله تعالى خلق الأنعام ليركبوها فحرموها على أنفسهم، وخلق الشمس والقمر والحجارة مسخَّرة للناس فجعلوها آلهة يعبدونها، فقد غيروا خلق الله تعالى. ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً﴾ يعني: يعبد الشيطان ويطيعه ﴿من دون الله﴾ تعالى يعني: ترك أمر الله تعالى وطاعته ﴿فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ يعني: ضلّ ضلالاً ﴿مبيناً﴾ بيّناً عن الحق.

ثم قال تعالى: ﴿يعدهم﴾ يعني الشيطان، يخوفهم بالفقر حتى لا يصلوا رحماً ولا ينفقوا في خير ﴿ويمنيهم﴾ يعني: يخبرهم بالباطل أنه لا ثواب لهم في ذلك العمل ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ يعني: باطلاً.

قوله تعالى: ﴿أولئك مأواهم جهنم﴾ يعني: الذين يطيعون الشيطان مصيرهم إلى جهنم ﴿ولا يجدون عنها محيصاً﴾ يعني: مفراً ومهرباً.

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني: صدقوا بالله تعالى والرسول

Marfat.com

والقرآن، وأدوا الفرائض، وانتهوا عن المحارم ﴿**سندخلهم جنات**﴾ وهي البساتين ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ وهي أربعة أنهار: نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن، ونهر من خمر، ونهر من عسل مصفى. ﴿**خالدين فيها أبداً**﴾ يعني: مطمئنين فيها، لا يتغير بهم الحال. فهذا وعد من الله تعالى. ثم قال: ﴿**وعد الله حقاً**﴾ يعني: صدقاً وكائناً، أنجز لهم ما وعد لهم من أمر الجنة ﴿**ومن أصدق من الله قيلا**﴾ يعني: قولاً ووعداً.

قوله تعالى: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب﴾ وذلك أن أهل الكتاب قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. وقال المؤمنون: إنا أسلمنا لا تضرنا الذنوب فنزل: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب﴾ يقول: ليس لكم يا معشر المسلمين ما تمنيتم، ولا أهل الكتاب ما تمنوا ﴿**من يعمل سوءاً يجز به**﴾ يعني: من يعمل معصية دون الشرك يعاقب به. وقال الزجاج: معناه ليس ثواب الله بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، وقد جرى ما يدل على إضمار الثواب وهو قوله: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي إنما يدخل الجنة من آمن وعمل صالحاً، ليس كما تمنيتم ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ أي لا ينفعه تمنيه.

ويقال: لما نزلت هذه الآية ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ شق ذلك على المسلمين. وقال أبو بكر: كيف الفلاح بعد هذه الآية يا رسول الله؟ فقال ﷺ: **«أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تحزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللأْواءُ؟ أي الشدة فذَلِكَ كُلُّهُ جَزاؤُهُ»**(١).

حدثنا الخليل بن أحمد، قال: **حدثنا** العباس، قال: **حدثنا** الحسن بن صباح، قال: **حدثنا** عبد الوهاب الخفاف، عن زياد، عن علي بن زيد، عن مجاهد قال: مرّ ابن عمر على ابن الزبير وهو مصلوب، فنظر إليه فقال: «يغفر الله لك ثلاثاً، والله ما علمتك إلا كنت صوّاماً قوّاماً وصّالاً للرحم، أما والله إني لأرجو مع مساوىء ما أصبت أن لا يعذبك الله بعد هذا أبداً، ثم التفت فقال: سمعت أبا بكر الصديق يقول: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ فِي الدُّنيا»**(٢) **وروى** محمد بن قيس، عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿**من يعمل سوءاً يجز به**﴾ شق ذلك على المسلمين، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: **«قارِبُوا وَسَدِّدُوا فَكُلُّ مَا يُصِيبُ المُؤمِنَ كَفَّارَةٌ حَتَّى الشَّوْكَةُ تُشاكُهُ والنَّكْبَةُ تَنْكُبُهُ»**(٣) أي الشدّة. وقال الضحاك: السوء الكفر. وقال مجاهد: قالت قريش: لن نبعث ولن نعذب، فنزل: ﴿ليس بأمانيكم﴾ يعني: أماني كفار قريش ولا أماني أهل الكتاب ﴿**من يعمل سوءاً يجز به**﴾ يعني: يعاقب عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ يعني: الكافر لا يجد لنفسه

---

(١) عزاه السيوطي: ٦٩٦/٢ إلى ابن جرير عن عائشة عن أبي بكر.

(٢) عزاه السيوطي ٦٩٦/٢ إلى الترمذي الحكيم وابن المنذر والحاكم والبزار.

(٣) حديث أبي هريرة: أخرجه مسلم (٢٥٧٤) وأحمد: ٢٤٧/٦.

Marfat.com

﴿من دون الله﴾ أي من عذاب الله ﴿ولياً﴾ يمنعه ﴿ولا نصيراً﴾ ينفعه ويمنعه من العذاب.

ثم قال عز وجل: ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ يعني: يؤدي الفرائض وينتهي عن المحارم ﴿من ذكر أو أنثى﴾ أي: من رجل أو امرأة ﴿وهو مؤمن﴾ يعني: مصدق بالثواب والعقاب ﴿فأولئك يدخلون الجنة﴾ لا شك فيها ﴿ولا يظلمون﴾ أي لا ينقصون من ثواب أعمالهم ﴿نقيراً﴾ وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة. قرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿يُدخلون﴾ بضم الياء ونصب الخاء، على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون ﴿يَدخُلون﴾ بنصب الياء وضم الخاء، يعني: أنهم يدخلون الجنة بأعمالهم.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

ثمّ فضَّل دين الإسلام على سائر الأديان فقال تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه﴾ يعني: أخلص ﴿وجهه﴾ أي: دينه ﴿وهو محسن﴾ في عمله، وقيل: هو موحد ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ يعني: مستقيماً، ويقال: مائلاً إلى دين الإسلا.

ثم قال تعالى ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ وذلك أن إبراهيم عليه السلام كان يوسع على الضعفاء الطعام، فاحتاج في بعض الأوقات إلى الطعام، فبعث غلمانه مع الجمال إلى خليل له بمصر ليقرضه شيئاً من الطعام فيرد عليه إذا أدرك إنزاله، فلما انتهوا إليه فقال: إني أخاف أن أحتاج قبل إدراك الإنزال، فلم يدفع إليهم شيئاً فرجعوا، فاستحيا الغلمان أن يدخلوا في قرية إبراهيم والناس ينظرون إليهم وليس معهم شيء، فجعلوا الرَّمل في الجواليق وحملوا على الجمال، وجاؤوا إلى منزل إبراهيم عليه السلام وألقوا الأحمال وتفرقوا، وجاء واحد منهم وأخبر إبراهيم بالقصة فاغتمّ لذلك ودخل البيت ونام، فخرجت جواريه ونظرن إلى الأحمال فإذا الجواليق دقيق، فرفعن منها وجعلن يخبزن خبزاً، حتى إذا استيقظ إبراهيم عليه السلام وخرج وقال: من أين هذا الدقيق؟ فقلن: من عند خليلك المصري. فقال إبراهيم: ليس هذا من عند خليلي المصري ولكن من عند خليل السماء. فاتخذه الله تعالى خليلاً بذلك.

ويقال: لما دخلت عليه الملائكة عليهم السلام في شبْه الآدميين، وجاءهم بعجل سمين فلم يأكلوا منه، وقالوا: إنا لا نأكل شيئاً بغير ثمن. فقال لهم: أعطوني ثمنه وكلوه. فقالوا: وما ثمنه؟ قال: أن تقولوا في أوله بسم الله وفي آخره الحمد لله. فقالوا فيما بينهم: حقّ على الله أن يتخذه خليلاً، فاتخذه الله خليلاً.

ويقال: إنه أضاف رؤساء الكفار، وأهدى لهم هدايا وأحسن إليهم فقالوا له: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن تسجدوا لله سجدة، فسجدوا. فدعا الله تعالى وقال: اللهم إني قد فعلت ما

Marfat.com

أمكنني، فافعل أنت ما أنت أهل لذلك. فوفقهم الله تعالى للإسلام، فاتخذه الله خليلاً لذلك.

وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اتَّخَذَ الله إِبْراهِيمَ خَلِيلاً لإِطْعَامِهِ الطَّعَامَ وَإِفْشَائِهِ السَّلامَ وَصَلاتِهِ بِاللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ»(١).

ثم قال عز وجل: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ كلهم عبيده وفي ملكه، وحكمه نافذ فيهم ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ يعني: أحاط علمه بها.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ويستفتونك في النساء﴾ يعني: يسألونك عن ميراث النساء، نزلت في أم كجة التي ذكرنا في أول السورة ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾ يعني: يبين لكم ما لهن من الميراث ﴿وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ يعني: في كتاب الله تعالى يفتيكم بذلك ﴿في يتامى النساء﴾ يعني: في ميراث يتامى النساء ﴿اللاتي لا تؤتونهن﴾ لا تعطونهن ﴿ما كتب لهن﴾ يعني: ما فرض لهن من الميراث ﴿وترغبون﴾ يعني: وتزهدون ﴿أن تنكحوهن﴾ لدمامتهن.

وروى معمر عن إبراهيم قال: كان الرجل يكون عنده اليتيمة الدميمة ولها مال، فيكره أن يتزوجها من أجل دمامتها، ويكره أن يزوجها من غيره من أجل مالها، قال إبراهيم: وكان عمر رضي الله عنه يأمر الرجل إذا كانت عنده اليتيمة ولها مال، أن يتزوجها.»

وروى عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كانت يتيمة في حجر رجل، فأراد أن يتزوجها ولم يكمل صداق نسائها، فأمروا بإكمال الصداق.» وقال مجاهد: «كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان شيئاً، ويقولون: لا يغزون، ففرض الله تعالى لهم الميراث وأمر لليتيم بالقسط».

ثم قال تعالى: ﴿والمستضعفين﴾ يقول: يسألونك عن ميراث المستضعفين ﴿من الولدان﴾ ويقال: يفتيكم في المستضعفين من الولدان ﴿وأن تقوموا﴾ يعني: يفتيكم أن تقوموا ﴿لليتامى بالقسط﴾ أي: بالعدل ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ يجازيكم. وفي هذه الآية دليل على أن ما سوى الأب والجد إذا زوج اليتيمة جاز، وفيها دليل: أنه إذا زوج من نفسه جاز، إذا كانت غير ذي رحم محرم منه.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ

(١) عزاه السيوطي: ٢/٧٠٦ إلى البيهقي في الشعب.

Marfat.com

خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإن امرأة خافت﴾ يعني: علمت **﴿من بعلها﴾** يعني: من زوجها ﴿نشوزاً﴾ يعني: عصياناً في العشرة **﴿أو إعراضاً﴾** عنها وترك محادثتها. نزلت في ابنة محمد بن مسلمة وفي زوجها سعد بن الزبير تزوجها وهي شابة فلما أدبرت وعلاها الكبر تزوج عليها امرأة شابة وآثرها عليها، وجفا بنت محمد بن مسلمة، فأتت رسول الله ﷺ فشكت إليه فنزلت: **﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً﴾** يعني: ترك مجامعتها ﴿أو إعراضاً﴾ يعني: يعرض بوجهه عنها، ويقلّ مجالستها ومحادثتها **﴿فلا جناح عليهما﴾** يعني: لا إثم على الزوج والمرأة **﴿أن يصلحا بينهما صلحاً﴾** قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي ﴿أن يُصلحا﴾ بضم الياء، وهو من الصلح. وقرأ الباقون ﴿أن يصالحا﴾ بالألف وتشديد الصاد، لأن أصله: يتصالحا فأدغمت التاء في الصاد، وأقيم التشديد مكانه.

ثم قال تعالى: ﴿والصلح خير﴾ يعني: الصلح خير من الفرقة. ويقال: الصلح خير من النشوز، ويقال: الصلح خير من الخصومة والخلاف. وروي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً﴾ قال: قول الرجل لامرأته: أنتِ كبيرة، وإني أريد أن أستبدل بك شابة، فقري على ولدك ولا أقسم لك من نفسي شيئاً، ورضيت بذلك، فذلك الصلح بينهما. قال: وهذا قول أبي السنابل بن بعكك حين جرى بينهما هذا الصلح، ثم صارت الآية عامة في جواز الصلح الذي يجري فيما بين الناس، لقوله تعالى: ﴿والصلح خير﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ حملها على أن تدع نصيبها، ويقال: شحت المرأة بنصيبها من زوجها، أن تدعه للأخرى، وشحّ الرجل بنصيبه من الأخرى. وقال مقاتل: طمعها وحرصها يجرها إلى أن ترضى.

ثم قال تعالى: ﴿وإن تحسنوا﴾ يقول: تحسنوا إليهن **﴿وتتقوا﴾** الميل والجور **﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾** في الإحسان والجور.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ يقول: لن تقدروا أن تسووا بين النساء في الحب أي بين الشابة والكبيرة **﴿ولو حرصتم﴾** يعني: ولو جهدتم، ولكن اعدلوا في القسمة والنفقة **﴿فلا تميلوا كل الميل﴾** بالنفقة والقسمة إلى الشابة **﴿فتذروها كالمعلقة﴾** بغير قسمة كالمسجونة لا أيم ولا ذات بعل.

Marfat.com

وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ، فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ». وفي رواية أخرى «وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ». وروى أبو أيوب عن أبي قلابة قال: «كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل في القسمة ويقول: «اللَّهُمَ هٰذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ». يعني: الحب والجماع.

ثم قال تعالى: ﴿وإن تصلحوا﴾ يعني: تصلحوا بينهما بالسوية ﴿وتتقوا﴾ الجور والميل ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ حيث رخص لكم في الصلح.

ثم قال عز وجل: ﴿وإن يتفرقا﴾ يعني: الزوج والمرأة ﴿يغني الله كلاً من سعته﴾ يعني: من رزقه. وقال مجاهد: يعني الطلاق. وروي عن جعفر بن محمد: أن رجلاً شكا إليه الفقر، فأمره بالنكاح. فذهب الرجل وتزوج ثم جاء إليه فشكا إليه الفقر، فأمره بالطلاق، فسئل عن ذلك فقال: أمرته بالنكاح وقلت: لعله من أهل هذه الآية ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢] فلما لم يكن من أهل تلك الآية. قلت: فلعله من أهل هذه الآية (وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته) وروي عن أبيّ بن كعب أنه كان يقرأ ﴿فتذروها كأنها مسجونة﴾ ثم قال: ﴿وكان الله واسعاً﴾ يعني واسع الفضل ﴿حكيماً﴾ حكم فُرقتهما وتسويتهما.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

ثمّ قال تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا﴾ يعني: أمرنا ﴿الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ يعني: أهل التوراة والإنجيل ﴿وإياكم﴾ يعني: أمرناكم يا أمة محمد في كتابكم ﴿أن اتقوا الله﴾ فيما أوصاكم به في كتابكم من التوحيد، ثم من بعد التوحيد بالشرائع ﴿وإن تكفروا﴾ يقول: تجحدوا بما أوصاكم، وبوحدانية الله تعالى ﴿فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾ يعني: هو غني عن عبادتكم ﴿وكان الله غنياً﴾ عن إيمان الخلق وطاعتهم ﴿حميداً﴾ محموداً في أفعاله.

وقوله تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ يعني: كلهم عبيده وإماؤه، ويقال: هذا موصول بالأول، ﴿وكان الله غنياً حميداً﴾ في أفعاله، لأن له ما في السموات وما في الأرض، وهو رازقهم والمدبر في أمورهم. ثم قال: ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ يعني: حفيظاً ورباً.

ثم ذكر التهديد لمن رجع عن طاعته فقال: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس﴾ يعني: يهلككم

Marfat.com

إذا عصيتموه ﴿ويأتِ بآخرين﴾ يعني: يخلق خلقاً غيركم من هو أطوع لله منكم، وهذا كما قال في آية أخرى ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ثم قال تعالى: ﴿وكان الله على ذلك قديراً﴾ أي يذهبكم ويأتِ بغيركم. ويقال: في الآية تخويف وتنبيه لجميع من كانت له ولاية أو إمارة أو رئاسة فلا يعدل في رعيته، أو كان عالماً فلا يعمل بعلمه ولا ينصح الناس، أن يذهبه ويأتي بغيره.

قوله تعالى: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ يعني: من كان يطلب الدنيا بعمله الذي يعمل، ولا يريد به وجه الله تعالى، فليعمل على وجه التقديم لآخرته كما قال: ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ يعني الرزق في الدنيا، والثواب في الآخرة، وهو الجنة. ويقال: في الآية مضمر فكأنه يقول: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ نؤته منها، ﴿ومن يرد ثواب الآخرة﴾ نؤته منها ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾. وقال الزجاج: كان المشركون مقرين بأن الله تعالى خالقهم، وأنه يعطيهم خير الدنيا، فأخبر الله تعالى أن خير الدنيا والآخرة إليه. - وروي عن عيسى بن مريم أنه قال للحواريين: أنتم لا تريدون الدنيا ولا الآخرة، لأن الدنيا والآخرة لله تعالى، فاعبدوه، إما لأجل الدنيا وإما لأجل الآخرة[1] - وروي في بعض الأخبار: أن في جهنم وادياً تتعوذ منه جهنم، أعد للقراء المرائين.

ثم قال تعالى: ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ يعني عالماً بنية كل واحد. وروى سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «**نِيَّةُ المُؤمِنِ خَيرٌ مِن عَمَلِهِ، وَعَمَلُ المُنَافِقِ خَيرٌ مِن نِيَّتِهِ وكلٌّ يعملُ على نيّته**».

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾ يعني: كونوا قوامين بالعدل، وأقيموا الشهادة لله بالعدل، ومعناه: قولوا الحق ﴿ولو على أنفسكم﴾ وإذا كانت عندكم شهادة، فأدوا الشهادة ولو كانت الشهادة على أنفسكم ﴿أو الوالدين والأقربين﴾.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من «أ».

Marfat.com

ثم قال: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ يعني: أدوا الشهادة لا تكتموها، سواء كان لغني أو لفقير، ولا تميلوا إلى الغني لأجل غناه، ولا تكتموا الشهادة على الفقير لأجل فقره. ويقال: اشهدوا على الوالدين غنيين كانا أو فقيرين ﴿فالله أولى بهما﴾ يعني: بالغني وبالفقير. ويقال: أولى بالوالدين وأرحم بهما إن كانا غنيين أو فقيرين. ﴿فلا تتبعوا الهوى﴾ يعني: لا تشهدوا بهواكم، ولكن اشهدوا على ما أشهدتم عليه.

ثم قال تعالى: ﴿أن تعدلوا﴾ يعني: الله تعالى أولى بهما، أن تعدلوا على وجه التقديم والتأخير. ويقال: فلا تتبعوا الهوى أن لا تعدلوا. وقال مقاتل: يعني فلا تتبعوا الهوى للقرابة، واتقوا الله أن تعدلوا عن الحق إلى الهوى.

ثم قال تعالى: ﴿وإن تلووا﴾ يعني: تحرفوا الشهادة وتلجلجوا بها ألسنتكم، فلا تقيموها على الوجه لتبطل به الشهادة ﴿أو تعرضوا﴾ عنها فلا تشهدوا بها عند الحاكم. قرأ حمزة وابن عامر: ﴿وأن تَلُوا﴾ بواو واحدة من الولاية، يعني: أقيموا الشهادة إذا وُلّيتم. وقرأ الباقون: ﴿تلووا﴾ بواوين من التحريف ﴿فإن الله كان بما تعملون﴾ من كتمان الشهادة وإقامتها ﴿خبيراً﴾ يعني عالماً. فهذا تهديد للشهود لكيلا يقصروا في أداء الشهادة ولا يكتموا الشهادة. وقال النبي ﷺ «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُقِمْ شَهادَتَهُ عَلَى مَنْ كَانَتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِالله وَاليَومِ الآخِرِ فَلا يَجْحَد لِحَقٍّ هُوَ عَلَيْهِ وَلْيُؤدِّه، وَلاَ يُلْجِئهُ إِلَى السُّلْطَانِ والخُصُومَةِ». وقال النبي ﷺ: «أكرِمُوا الشُّهودَ فإنَّ الله يُحْيي بهم الحقوقَ».

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾ قال الضحاك: يعني اخبار أهل الكتابين الذين آمنوا بموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام، آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ. وقال الكلبي: نزلت في عبد الله بن سلام وأسيد وأسد ابني كعب، وثعلبة بن قيس وغيرهم، قالوا: يا رسول الله نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وبعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل. فقال لهم النبي ﷺ: «بَلْ آمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وبكتابِهِ القُرْآنِ، وَبِكُلِّ كِتَابٍ كَانَ مِنْ قَبْلُ»[1]. فنزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ ويقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خاطب به جميع المؤمنين، ﴿آمنوا بالله﴾ يعني: اثبتوا على الإيمان. ويقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يعني: يوم الميثاق ﴿آمنوا بالله ورسوله﴾ ويقال: نزلت في شأن أهل الكتاب لأنه علم أن فيهم من يؤمن، فلقربهم من الإيمان سماهم مؤمنين كما قال: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] وكانوا لم يغرقوا بعد. ويقال: إنهم كانوا يقولون نحن مؤمنون فقال لهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يعني: بزعمهم كما قال ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] يعني: بزعمه. قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي

(١) عزاه السيوطي ٢/٧١٦ إلى الثعلبي.

Marfat.com

﴿والكتاب الذي نَزّل﴾ بنصب النون والزاي ﴿والكتاب الذي أنزل﴾ بنصب الألف. وقرأ الباقون (نُزِّل) بضم النون وكسر الزاي، و﴿أُنزل﴾ بضم الألف على معنى فعل ما لم يسم فاعله.

ثم قال تعالى: ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر﴾ يعني: من يجحد بوحدانية الله تعالى وملائكته أنهم عبيده، وبرسله أنهم أنبياؤه وعبيده، وبالبعث بعد الموت ﴿فقد ضل﴾ عن الهدى ﴿ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا﴾ وقال مقاتل: يعني آمنوا بالتوراة وبموسى عليه السلام، ثم كفروا من بعد موسى، ﴿ثم آمنوا﴾ بعيسى عليه السلام والإنجيل، ﴿ثم كفروا﴾ من بعده ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن. ويقال: إن الذين آمنوا بموسى ثم كفروا بعيسى، ثم آمنوا بمحمد ﷺ من قبل أن يبعث، ثم كفروا به بعدما بعث، ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ يعني: ثبتوا على كفرهم. وقال في رواية الكلبي: آمنوا بموسى عليه السلام ثم كفروا به بعده، ثم آمنوا بعزير، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفراً يعني: بمحمد ﷺ. وقال في رواية الضحاك: نزلت في شأن أبي عامر الراهب، وهو الذي بنى مسجد الضرار، آمن بالنبي ﷺ ثم كفر، ثم آمن، ثم مات على كفره. وقال الزجاج: يجوز أن يكون محارباً آمن ثم كفر. ثم آمن ثم كفر، ويجوز أن يكون منافقاً أظهر الإيمان وأبطن الكفر، ثم آمن ثم كفر، ثم ازداد كفراً بإقامته على النفاق. فإن قيل: إن الله تعالى لا يغفر كفراً مرة واحدة فأيش الفائدة في قوله: ﴿آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا﴾؟ قيل له: لأن الكافر إذا أسلم فقد غفر له ما قد سلف من ذنبه، فإذا كفر بعد إيمانه لم يغفر الله له الكفر الأول، فهو مطالب بجميع ما فعل في كفره الأول، فذلك قوله عز وجل: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ يعني: إذا ماتوا على كفرهم ﴿ولا ليهديهم سبيلاً﴾ يعني: لا يوفقهم طريقاً.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿بشر المنافقين﴾ وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فقال المؤمنون: هذا هنيئاً لك، فما لنا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧] فقال المنافقون: فما لنا؟ فنزل قوله تعالى ﴿بشر المنافقين﴾ ﴿بأن لهم عذاباً أليماً﴾ يعني: في الآخرة.

ثم نعت المنافقين فقال: ﴿الذين يتخذون الكافرين﴾ يعني: اليهود ﴿أولياء﴾ في العون والنصرة ﴿من دون المؤمنين﴾ ثم عيّرهم بذلك فقال ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ يعني: يطلبون عندهم المنعة والظفر على محمد ﷺ وعلى أصحابه. العزة في اللغة: المنعة والغلبة كما يقال: «من عزّ بزّ»، أي من غلب سلب. ويقال: عز الشيء إذا اشتد وجوده.

ثم ذكر أنه لا نصرة لهم من الكفار، وإنما النصرة من الله تعالى، فقال: ﴿فإن العزة لله

Marfat.com

﴿جميعاً﴾ يعني: الظفر والنصر كله من الله تعالى، وهذا كما قال في آية أخرى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وقد نزّل عليكم في الكتاب﴾ وذلك أن المشركين بمكة كانوا يستهزئون بالقرآن، فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم، وهو قوله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] فامتنع المسلمون عن القعود معهم، فلما قدموا المدينة كانوا يجلسون مع اليهود والمنافقين، وكان اليهود يستهزئون بالقرآن، فنزل: ﴿فقد نزّل عليكُم في الكتاب﴾ يعني: في سورة الأنعام ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها﴾ يعني: يجحد بها ﴿ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم﴾ يعني: فلا تجلسوا معهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ يعني: حتى يأخذوا في كلام آخر.

ثم قال: ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ يعني: لو جلستم معهم كنتم معهم في الوزر. وفي هذه الآية دليل: أن من جلس في مجلس المعصية ولم ينكر عليهم، يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها، فإن لم يقدر بأن ينكر عليهم ينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية. وروى جويبر عن الضحاك أنه قال: «دخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة.» قرأ عاصم ﴿وقد نَزَّل عليكم﴾ بنصب النون والزاي، وقرأ الباقون بضم النون وكسر الزاي على معنى فعل ما لم يسم فاعله.

ثم قال تعالى: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ يعني: إذا ماتوا على كفرهم ونفاقهم، فبدأ بالمنافقين لأنهم أشدُّ من الكفار، وجعل مأواهم جميعاً النار. وقال في رواية الكلبي: قوله تعالى ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٦٩] وقال عامة المفسرين: إنها محكمة وليست بمنسوخة.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

Marfat.com

ثمّ أخبر عن المنافقين فقال عز وجل: ﴿الذين يتربصون بكم﴾ يعني: ينتظرون بكم الدوائر، وهو تغيُّر الحال عليكم ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ يعني: النصرة والغلبة على العدو ﴿قالوا ألم نكن معكم﴾ فأعطونا من الغنيمة ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ يعني: الظفر والغلبة على المؤمنين ﴿قالوا﴾ للكفار ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ يعني: ألم نخبركم بعورة المسلمين ونطلعكم على سرهم، ونخبركم عن حالهم؟ ويقال: ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ يعني: ألم نغلب عليكم بالموالاة؟ والاستحواذ: هو الاستيلاء على الشيء، كقوله ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة: ١٩] ثم قال: ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ يعني: نجادل المؤمنين عنكم ونجنبهم عنكم.

قال الله تعالى: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ يعني: بين المؤمنين والمنافقين والكافرين ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ بأنهم يسلطون علينا. ويقال: دولة دائمة، يعني: لا تدوم دولتهم. وروي عن علي رضي الله عنه، أنه سئل عن قوله عز وجل: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ وهم يسلطون علينا ويغلبوننا، فقال: «لا يسلط الكافر على المؤمن في الآخرة في يوم القيامة».

ثم بين حال المنافقين في الدنيا وخداعهم، فقال عز وجل: ﴿إن المنافقين يخادعون الله﴾ يعني: يظنون أنهم يخادعون الله ﴿وهو خادعهم﴾ يعني: يجازيهم جزاء خداعهم، وهو أنهم يمشون مع المؤمنين على الصراط يوم القيامة، ثم يسلبهم النور، فيبقون في ظلمة. ثم قال: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة﴾ يعني المنافقين ﴿قاموا كسالى﴾ يعني: متثاقلين ﴿يراؤون الناس﴾ يعني: لا يرونها حقاً، ويصلون مراءاة للناس وسُمعة ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ قال ابن عباس: لو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيراً وتقبل منهم، ولكن لم يريدوا به وجه الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿مذبذبين بين ذلك﴾ يعني: مترددين. ويقال: متفحّصين بين ذلك ﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ يعني: ليسوا مع المؤمنين في التصديق، ولا مع اليهود في الظاهر ﴿ومن يضلل الله﴾ يعني: من يخذله الله عن الهدى ﴿فلن تجد له سبيلاً﴾ يعني: مخرجاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أي صدّقوا قال مقاتل: الذين آمنوا بزعمهم وهم المنافقون ﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ ويقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في الظاهر وأسروا النفاق. ويقال: يعني المؤمنين المخلصين، كانت بينهم وبين اليهود صداقة، وكانوا يأتونهم فنهاهم الله تعالى عن ذلك، فقال: ﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾. ثم قال: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ يعني: حجة بيِّنة في الآخرة.

Marfat.com

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

ثم بيّن مأوى المنافقين في الآخرة فقال: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ المنافق في اللغة: اشتقاقه من نافقاء اليربوع، ويقال: لليربوع جحران أحدهما نافقاء، والآخر قاصعاء، فيظهر نفسه في أحدهما، ويخرج من الآخر، ولهذا يسمى المنافق منافقاً لأنه يظهر من نفسه أنه مسلم، ويخرج عن الإسلام إلى الكفر. قرأ أهل الكوفة وحمزة والكسائي وعاصم ﴿الدرك﴾ بجزم الراء، وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان: الدَّرْك والدَّرَك، وجمعهما أدراك، وهي المنازل بعضها أسفل من بعض، فأعد للمنافقين الدرك الأسفل من النار وهي الهاوية. ثم قال: ﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾ يعني: مانعاً يمنعهم من العذاب.

ثم قال عز وجل: ﴿إلا الذين تابوا﴾ من النفاق ﴿وأصلحوا﴾ أعمالهم ﴿واعتصموا بالله﴾ يعني: تمسكوا بدين الله تعالى وبتوحيده ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾ يعني: بتوحيدهم لله بالإخلاص، فإن فعلوا ذلك ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ يعني: المصدقين على دينهم، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم.

ثم قال: ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين﴾ يعني: يعطي الله المؤمنين ﴿أجراً عظيماً﴾ يعني: ثواباً عظيماً في الآخرة. وفي هذه الآية دليل أن المنافقين هم أشر خلق الله تعالى، لأنه أوعد هم الدرك الأسفل من النار. ثم استثنى لهم أربعة أشياء: التوبة، والإخلاص، والإصلاح، والاعتصام. ثم قال بعد هذا كله: ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ ولم يقل هم المؤمنون. ثم قال: ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين﴾ ولم يقل: سوف يؤتيهم الله، بغضاً لهم وإعراضاً عنهم. والمنافقون هم: الزنادقة والقرامطة الذين هم بين المؤمنين، يظهرون من أنفسهم الإسلام وإذا اجتمعوا فيما بينهم يسخرون بالإسلام وأهله، فهم من أهل هذه الآية، ومأواهم الهاوية.

قوله تعالى: ﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾ يعني: ما يصنع الله بعذابكم ﴿إن شكرتم﴾ يعني: إن آمنتم بالله تعالى ووحّدتموه، ويقال: معناه ما حاجة الله إلى تعذيبكم لو كنتم موحدين شاكرين له ﴿وآمنتم﴾ به وصدقتم رسله. ثم قال: ﴿وكان الله شاكراً﴾ يعني: ﴿شاكراً﴾ للقليل من أعمالكم، ﴿عليماً﴾ بأعمالكم وثوابكم. ويقال: ﴿شاكراً﴾ يقبل اليسير ويعطي الجزيل، ﴿عليماً﴾ بما في صدوركم. ويقال: ﴿عليماً﴾ بمن شكر وآمن فلا يعذب شاكراً ولا مؤمناً.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول﴾ يعني: لا يحب أن يذكر بالقول القبيح أحد من الناس ﴿إلا من ظلم﴾ فيقتص من القول بمثل ما ظلم، فلا حرج عليه. نزلت الآية في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، شتمه رجل فسكت أبو بكر مراراً، ثم ردّ عليه، ويقال: ﴿إلا من ظلم﴾ فيدعو الله تعالى على ظالمه. وقال الفراء: ﴿إلا من ظلم﴾ يعني: ولا من ظلم. وقال السدي: قوله: ﴿إلا من ظلم﴾ فانتصر بمثل ما ظلم، فليس عليه جناح. وقال الضحاك: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء﴾ أي لا يحب لكم أن تنزلوا برجل، فإذا ارتحلتم عنه تذمون طعامه، إلا رجلاً أردتم النزول عليه عند حاجتكم فمنعكم. وقال مجاهد: هو في الضيافة إذا دخل الرجل المسافر إلى القوم، يريد أن ينزل عليهم فلم يضيفوه، فقد رخص له أن يذكر كلاماً عنهم ويقول فيهم. ويقال: يعني يسبه بمثل ما سبه، ما لم يكن كلاماً فيه حد أو كلمة لا تصلح، ولو لم يقل لكان أفضل. وقرأ بعضهم: ﴿إلا من ظلم﴾ بالفتح متصل بقوله: ﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾ ﴿إلا من ظلم﴾ يعني: إلا من أشرك بالله، وهو شاذ من القراءة ثم قال: ﴿وكان الله سميعاً﴾ يعني: دعاء المظلوم، ﴿عليماً﴾ بعقوبة الظالم.

ثم أخبر عن التجاوز أنه خير من الانتصار، فقال عز وجل: ﴿إن تبدوا خيراً﴾ يعني: إن تظهروا حسنة ﴿أو تخفوه﴾ يعني: الحسنة ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ يعني: يتجاوز عن ظالمه ولا يجهر بالسوء عنه، فهذا أفضل لأن الله تعالى قادر على عباده فيعفو عنهم، وهو قوله ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ يعني: أن الله قادر على العقوبة لكم، فيعفو عنكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ قال ابن عباس: نزلت الآية في أهل الكتاب، يؤمنون بموسى وعيسى عليهما السلام ويكفرون بغيرهما، وهو قوله: ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ يعني: يريدون أن يتخذوا ديناً لم يأمر به الله ورسوله به. قوله: ﴿ويقولون نؤمن ببعض﴾ بموسى وعزير والتوراة ﴿ونكفر ببعض﴾ بمحمد ﷺ والقرآن وبعيسى والإنجيل ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ يعني بين اليهودية والإسلام.

قوله تعالى: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ حين كفروا ببعض الرسل ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ يهانون فيه.

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ يعني أقروا بوحدانية الله تعالى وصدقوا بجميع

Marfat.com

الرسل ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ في الإيمان والتصديق، يعني: لم يكفروا ولم يجحدوا بأحد من الأنبياء والرسل عليهم السلام، ويصدقون بجميع الكتب ﴿أولئك﴾ يعني: أهل هذه الصفة ﴿سوف نؤتيهم أجورهم﴾ يعني: سنعطيهم ثوابهم في الجنة ﴿وكان الله غفوراً﴾ لذنوبهم ﴿رحيماً﴾ لما كان منهم في الشرك. قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿يؤتيهم﴾ بالياء، وقرأ الباقون ﴿نؤتيهم﴾ بالنون.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ يعني: جملة واحدة كما جاء به موسى عليه السلام. ويقال: إن كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء وأصحابهما قالوا: لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً تحمله الملائكة إلينا فتقرؤه. قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ يعني: إن هؤلاء من أصل أولئك القوم الذين ﴿فقالوا﴾ لموسى عليه السلام ﴿أرنا الله جهرة﴾ يعني: عياناً، وهم القوم الذين ساروا مع موسى عليه السلام إلى طور سيناء ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ يعني: أحرقتهم النار ﴿بظلمهم﴾ يعني: بقولهم وسؤالهم ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ يعني: ومع ذلك قد عبدوا العجل، وهم قوم موسى عليه السلام في حال غيبته ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ يعني: جاءهم موسى عليه السلام بالآيات والعلامات ﴿فعفونا عن ذلك﴾ كله ولم نستأصلهم ﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ يعني: حجة بينة، وهي اليد والعصا ﴿ورفعنا فوقهم﴾ يقول: رفعنا فوقهم الطور ﴿الطور بميثاقهم﴾ يعني: بإقرارهم بما في التوراة حتى أبوا أن يقبلوا الشرائع ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ يعني: باب أريحة منحنية أصلابهم ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ يقول: لا تستحلوا أخذ السمك في يوم السبت. قرأ نافع في رواية ورش ﴿لا تعدّوا﴾ بالتشديد، لأن أصله: لا تعتدوا، فأدغم التاء في الدال وأقيم التشديد مقامه. وقرأ الباقون ﴿لا تعدوا﴾ بالتخفيف من عدا يعدو عدواناً.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ يعني: إقراراً وثيقاً شديداً في التوراة. يعني. تركوا هذه الأشياء كلها ونقضوا الميثاق.

ثم قال عز وجل: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ ولم يذكر في هذه الآية جوابهم، والجواب فيه مضمر فكأنه قال: وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً فنقضوا الميثاق، فبنقضهم الميثاق لعنهم الله تعالى وخذلهم كقوله ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] ثم قال: ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ يعني: بكفرهم بآيات الله لعنهم الله وخذلهم. ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ يعني: بغير جرم ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ يعني: ذات أغلفة فلا نفقه حديثك. وقرأ بعضهم: ﴿غلُف﴾ بضم اللام وهو جمع الغلاف يعني: أن قلوبنا أوعية لكل علم ولا نفقه حديثك.

قال الله تعالى: ﴿بل طبع الله عليها﴾ يعني: ختم الله على قلوبهم ﴿بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ يعني: لا يؤمنون إلا القليل منهم، ويقال: لا يؤمنون إلا بالقليل، لأنهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقال مقاتل: يعني ما أقل ما يؤمنون، يقول: بأنهم لا يؤمنون البتة.

ثم قال تعالى: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ وذلك أن مريم كانت متعبدة ناسكة، اصطفاها الله تعالى بولد بغير أب، فعيرها اليهود واتهموها وقذفوها بيوسف بن ماثان، وكان يوسف خادم بيت المقدس ويقال: كان ابن عمها، فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم وبيّن بهتانهم فقال: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ يعني: لعنهم الله وخذلهم بذلك ﴿وقولهم﴾ يعني: وبقولهم ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ هذا قول الله لا قول اليهود، وقول اليهود: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم. ثم قال الله تعالى ﴿رسول الله﴾ يعني: الذي هو رسول الله تعالى. وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتله، هرب منهم ودخل في بيت، فأمر ملك اليهود رجلاً يدخل البيت يقال له يهوذا، ويقال: ططيانوس، فجاء جبريل عليه السلام ورفع عيسى عليه السلام إلى السماء، فلما دخل الرجل إلى البيت لم يجده، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه، فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه. ثم قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فاختلفوا فيما بينهم، فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم فقال: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ يعني: ألقي شبه عيسى على غيره فقتلوه.

ثم قال تعالى: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه﴾ من قتله ﴿ما لهم به من علم﴾ يعني: لم يكن عندهم علم يقين أنه قتل أو لم يقتل ﴿إلا اتباع الظن﴾ يعني: قالوا قولاً بالظن ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ يعني: لم يستيقنوا بقتله، ويقال: ﴿ما قتلوه﴾ يعني: يقيناً أنهم لم يقتلوه ﴿بل رفعه الله إليه﴾ وقال مقاتل: بل رفعه الله إلى السماء في شهر رمضان ليلة القدر. وقال الضحاك: رفعه الله إلى السماء في يوم عاشوراء بين الصلاتين، يعني: بين المغرب والعشاء. ثم قال: ﴿وكان الله عزيزاً﴾ يعني منيعاً حين منع عيسى من القتل ﴿حكيماً﴾ حين حكم رفعه إلى السماء.

Marfat.com

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ يقول: وما من أهل الكتاب ﴿إلا ليؤمنن به﴾ يعني: بعيسى عليه السلام ﴿قبل موته﴾ وذلك أن اليهودي إذا حضرته الوفاة وعاين أمر الآخرة، ضربته الملائكة وقالت له: يا عدو الله، أتاك عزير فكذبته، ويقال للنصراني: يا عدو الله أتاك عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام، فزعمت أنه ابن الله، فيؤمن عند ذلك ويقر أنه عبد الله ورسوله، ولا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت، ويكون إيمانهم عليهم شهيداً يوم القيامة. وروي عن مجاهد أنه قال: «ما من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام قبل موته، فقيل له: وإن غرق أو احترق أو أكله السبع يؤمن بعيسى عليه السلام ؟ فقال: نعم. وروي أن الحجاج بن يوسف سأل شهر بن حوشب عن هذه الآية فقال: إني لأوتى بالأسير من اليهود والنصارى، فآمر بضرب عنقه، وأنظر إليه في ذلك الوقت فلا أرى منه الإيمان، فقال له شهر بن حوشب: إنه حين عاين أمر الآخرة يقر بأن عيسى عبد الله ورسوله، فيؤمن به ولا ينفعه. فقال له الحجاج: من أين أخذت هذا؟ قال: أخذته من محمد بن الحنفية. فقال له الحجاج: أخذت من عين صافية. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: ﴿قبل موته﴾ يعني: قبل موت عيسى عليه السلام هكذا قال الحسن.

قال الفقيه: **حدثنا** عمر بن محمد، قال: **حدثنا** أبو بكر الواسطي، قال: **حدثنا** إبراهيم بن يوسف، قال: **حدثنا** يزيد بن زريع، عن رجل، عن الحسن في قوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: قبل موت عيسى، والله إنه لحي عند الله الآن، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. وروي عن ابن عباس أنه قال: «يمكث عيسى عليه السلام في الأرض أربعين سنة نبياً إماماً مهدياً، ثم يموت وتصلي عليه هذه الأمة». وقال الضحاك: «يهبط عيسى عليه السلام من السماء إلى الأرض بعد خروج الدجال، فيكون هبوطه على صخرة بيت المقدس، ثم يقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويهدم البيع والكنائس، ولا يبقى على وجه الأرض يهودي ولا نصراني إلا آمن بالمسيح ودخل في الإسلام».

ثم قال تعالى: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يعني: يكون عليهم عيسى عليه السلام شهيداً، بأنه قد بلغهم الرسالة.

قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ يعني: بشركهم حرمنا عليهم أشياء كانت حلالاً لهم، وهو كل ذي ظفر، وشحوم البقر والغنم أحلت لهم **﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾** يعني: بصرفهم كثيراً من الناس عن دين الله على وجه التقديم

Marfat.com

﴿وأخذهم الربا﴾ يعني: حرم عليهم الحلال بكفرهم، وبصرف الناس عن دين الله تعالى، وبأخذهم الربا ﴿وقد نهوا عنه﴾ يعني: عن أخذ الربا في التوراة ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ وهو أخذ الرشوة في الحكم ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ يعني: هيأنا لهم عذاباً وجيعاً دائماً.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ يعني: المبالغون في العلم، الذين أدركوا علم الحقيقة، وهم مؤمنو أهل الكتاب. وذلك أن اليهود أنكروا وقالوا: هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل وأنت تحلها، ولم تكن حرمت بظلمنا، فنزل ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ يصدقون بما أنزل إليك أنه الحق، ويقال: إن مؤمني أهل الكتاب يعلمون أن الذي أنزل إليك من القرآن هو الحق، وأنك نبي مبعوث وهو مكتوب عندهم.

ثم قال: ﴿والمؤمنون﴾ يعني: أصحاب النبي ﷺ ﴿يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ يعني: يصدّقون بالقرآن وبالكتب التي أنزلت قبل القرآن.

ثم وصفهم فقال: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ قال بعض الجهال: هذا غلط من الكاتب حين كتب مصحف الإمام، كان ينبغي أن يكتب: والمقيمون، فأوهم وكتب: والمقيمين. واحتج بما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ثلاثة أحرف في المصحف غلط من الكاتب: قوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ وقوله ﴿والصابئون والنصارى﴾ وقوله ﴿إن هذان لساحران﴾ وروي عن عثمان أنه نظر في المصحف فقال: أرى فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها، ولكن هذا بعيد عند أهل العلم والخبر، لم يثبت عن عثمان ولا عن عائشة، لأن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا حماة الدين والقدوة في الشرائع والأحكام، فلا يظن بهم أنهم تركوا في كتاب الله تصحيفاً يصلحه غيرهم، وهم أخذوه عن رسول الله ﷺ. والمعنى في قوله ﴿والمقيمين الصلاة﴾ قال بعضهم: يؤمنون بما أنزل إليك وبالمقيمين الصلاة، يعني بالنبيين المقيمين الصلاة. وقال بعضهم: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون﴾ ومن المقيمين الصلاة ﴿يؤمنون بما أنزل إليك﴾.

ثم قال تعالى: ﴿والمؤتون الزكاة﴾ يعني: الذين يعطون الزكاة المفروضة ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ يعني: المقرون بوحدانية الله تعالى، وبالبعث بعد الموت. ثم قال: ﴿أولئك﴾ يعني: أهل هذه الصفة ﴿سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ يعني: يعطيهم الله في الآخرة ثواباً عظيماً هو الجنة. قرأ حمزة ﴿سيؤتيهم﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالنون.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ

Marfat.com

﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك﴾ يعني: أرسلنا إليك جبريل **﴿كما أوحينا إلى نوح﴾** يعني: كما أرسلنا إلى نوح عليه السلام، ويقال: ﴿أوحينا إليك﴾ بأن تثبت على التوحيد وتأمر الناس بالتوحيد، ﴿كما أوحينا إلى نوح﴾ بأن يثبت على التوحيد، ويدعو الناس إلى التوحيد **﴿والنبيين من بعده﴾** يعني: أوحينا إليهم بذلك **﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق﴾** وهما ابنا إبراهيم عليهم السلام **﴿ويعقوب﴾** وهو ابن إسحاق **﴿والأسباط﴾** وهم أولاد يعقوب عليه السلام، كانوا اثني عشر سبطاً، أوحينا إلى أنبيائهم بأن يثبتوا على التوحيد، ويدعوا الناس إلى ذلك **﴿و﴾** أوحينا إلى **﴿عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾** قرأ حمزة: ﴿زُبوراً﴾ بضم الزاي، وقرأ الباقون بالنصب في جميع القرآن، ومعناهما واحد، وهو عبارة عن الكتاب.

ثم قال عز وجل: ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل﴾ يعني: قد سميناهم لك من قبل، يعني بمكة **﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾** يعني: لم نسمهم لك، وقد أرسلناك كما أرسلنا هؤلاء. وروي عن كعب الأحبار أنه قال: كان الأنبياء عليهم السلام ألفي ألف ومائتي ألف. وقال مقاتل: كان الأنبياء ألف ألف، وأربعمائة ألف، وأربعة وعشرين ألفاً. وروي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«بُعِثْتُ عَلَى أَثَرِ ثَمَانِيَةِ آلافٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلافٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»**.

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: **حدثنا** الفقيه أبو جعفر، قال: **حدثنا** أحمد بن محمد القاضي، قال: **حدثنا** إبراهيم بن خُشيش البصري، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن الحارث الأعور، عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله كم كانت الأنبياء عليهم السلام، وكم كان المرسلون؟ فقال ﷺ: **«كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ مِائَةَ أَلْفِ نَبِيٍّ وَأَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفَ نَبِيٍّ، وَكَانَ المُرْسَلُونَ ثَلاثَمِائَةٍ وَثَلاثَةَ عَشَرَ»**.

ثم قال تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ قال بعضهم: معناه أنه قد أوحى إليه، وإنما سماه كلاماً على وجه المجاز كما قال في آية أخرى ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ [الروم: ٣٥] يعني: يستدلون بذلك، والعرب تقول: قال الحائط كذا وكذا. وقال عامة المفسرين وأهل العلم: إن هذا كلام حقيقة لا مجازاً، لأنه قد أكده بالمصدر حيث قال: ﴿وكلم الله موسى

Marfat.com

تكليماً﴾ والمجاز لا يؤكد لأنه لا يقال: قال الحائط قولاً، فلما أكده بالمصدر نفى عنه المجاز، وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وقد أكده بالتكرار ونفى عنه المجاز. وقال في موضع آخر ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] يعني: الأنبياء الذين لم يكونوا مرسلين، فأراهم في المنام أو من وراء حجاب بكلمةٍ مثل ما كلم موسى، أو يرسل رسولاً وهو رسالة جبريل عليه السلام إلى المرسلين.

ثم قال عز وجل: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين﴾ يعني: أرسلنا رسلاً مبشرين بالجنة ومنذرين بالنار **﴿لئلا يكون﴾** يقول: **﴿لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** يعني: بعد إرسال الرسل، كي لا يقولوا يوم القيامة إنك لم ترسل إلينا رسولاً. ولو أن الله تعالى لم يرسل رسولاً كان ذلك عدلاً منه إذ أعطى كل واحد من خلقه من العقل ما يعرفه، ولكن أرسل تفضلاً منه، ولكي يكون زيادة في الحجة عليهم. ثم قال تعالى: **﴿وكان الله عزيزاً﴾**. بالنقمة لمن يجحده **﴿حكيماً﴾** حكم إرسال الرسل والأنبياء عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ قال ابن عباس: وذلك أن رؤساء مكة أتوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سألنا اليهود عن صفتك ونعتك، فزعموا أنهم لا يعرفونك في كتابهم، فأتِنا بمن يشهد لك بأنك نبي مبعوث ويظهر نبوتك فنزل: **﴿لكن الله يشهد﴾** يعني: إن لم يشهد لك أحد منهم، فالله تعالى أعظم شهادة من خلقه، هو يشهد لك بأنك نبيّ ويظهر نبوتك. قال القتبي: هذا من الاختصار، لأنه لما نزل ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [سورة النساء: ١٦٣] قال المشركون: لا نشهد لك بهذا فمن يشهد لك؟ فنزلت هذه الآية حكاية قولهم. فقال تعالى ﴿لكن الله يشهد﴾ **﴿بما أنزل إليك﴾** لأن كلمة ﴿لكن﴾ إنما تجيء بعد نفي شيء، فوجب ذلك الشيء بها.

ثم قال تعالى: ﴿أنزله بعلمه﴾ يعني: بأمره. ويقال: أنزل القرآن الذي فيه علمه. ثم قال: **﴿والملائكة يشهدون﴾** أيضاً على شهادتك بالذي شهدت أنه حق **﴿وكفى بالله شهيداً﴾** فلا أحد أفضل من الله تعالى، بأنه أنزل القرآن عليك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ يعني: صرفوا الناس عن دين الله **﴿قد ضلوا﴾** عن الحق ﴿ضلالاً بعيداً﴾ يعني: بعيداً عن الحق.

ثم قال عز وجل: ﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾ يعني: جحدوا وأشركوا **﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾** يعني: ما داموا على شركهم **﴿ولا ليهديهم طريقاً﴾** يعني: لا يوفقهم لطريق الإسلام **﴿إلا**

Marfat.com

طريق جهنم﴾ يعني: يتركهم ويخذلهم في طريق الكفر عقوبة لكفرهم ولجحودهم، وهو طريق جهنم. ويقال: إلا العمل الذي يجرّهم إلى جهنم. وقال الضحاك: لا يهديهم طريقاً يوم القيامة، يعني: لا يُرفع لهم إلا طريق جهنم. وذلك أن اليهود أهل الإيمان يرفع لهم في الموقف طريق تأخذ بهم إلى الجنة، ويرفع لأهل الكفر طريق ينتهي بهم إلى النار.

ثم قال: ﴿خالدين فيها أبداً﴾ يعني: دائمين فيها ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ يعني: خلودهم وعذابهم في النار هيّن على الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾ قال ابن عباس: «يعني يا أهل مكة» ﴿قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾ أي بشهادة أن لا إله إلا الله، ويقال: ببيان الحق. ويقال: بالحق، يعني: بالفرض والحجة. وقوله: ﴿قد جاءكم﴾ على وجه المجاز، لأن رسول الله ﷺ قد كان فيهم، ولكن معناه: أنه قد ظهر فيكم رسول الله ﷺ كما قال في آية أخرى ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨] أي ظهر فيكم ثم قال: ﴿فآمنوا خيراً لكم﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى، والقرآن الذي جاءكم به محمد ﷺ خير لكم من عبادة الأوثان، لأن عبادة الأوثان لا تغنيكم شيئاً.

ثم قال تعالى: ﴿وإن تكفروا﴾ يعني: إن تجحدوا بالله وبمحمد ﷺ، فإن الله غنيٌّ عنكم ﴿فإن لله ما في السموات والأرض﴾ كلهم عبيده وإماؤه ﴿وكان الله عليماً﴾ بخلقه ﴿حكيماً﴾ في أمره.

ثم قال عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ قال الضحاك: يعني: لا تكذبوا في دينكم. وقال بعض أهل اللغة: الغلو مجاوزة القدر في الظلم. ويقال: الغلو أن تتجاوز لما حدَّ لك. وقال القتبي: لا تفرطوا في دينكم، فإن دين الله بين المقصر والغالي. وغلا في القول إذا تجاوز المقدار. وقال ابن عباس: «وذلك أن اليعقوبية وهم صنف من النصارى قالوا: عيسى هو الله. وقالت النسطورية: هو ابن الله. وقالت المرقوسية: هو ثالث ثلاثة، فنزل ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾. قال مقاتل: الغلو في الدين أن يقول على الله غير الحق. ويقال: لا تتعمقوا في دينكم.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ يعني: لا تصفوا بالله بما لا يليق بصفاته، فإن الله تعالى واحد لا شريك له، ولا ولد له.

ثم قال تعالى: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ وهو قوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: ٤٠] ثم قال: ﴿وروح منه﴾ قال ابن عباس في رواية الكلبي: «يعني أمر منه» فأتاها جبريل، فنفخ في جيب درعها فدخلت تلك النفخة بطنها، فحملت بعيسى، ثم وصل إلى عيسى ابن مريم فتحرك في بطنها وأمه أمة الله تعالى.

ثمّ قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى وبما جاءكم به الرسل من الله تعالى ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ يعني: لا تقولوا إن الله ثالث ثلاثة ثم قال: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ يقول: توبوا إلى الله تعالى من مقالتكم، فالتوبة خيرٌ لكم من الإصرار على الكفر.

ثم قال تعالى: ﴿إنما الله إله واحد﴾ ثم نزّه نفسه عما قال الكفار فقال: ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾. ثم قال: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ من الخلق ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ يعني: كفيلاً ويقال: شاهداً ولا شاهد أفضل من الله تعالى.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح﴾ يعني: لن يتعظم ولن يأنف ولن يتكبر. ويقال: لن يحتشم ﴿أن يكون عبداً لله﴾. وذلك أن وفد نجران أتوا رسول الله ﷺ وناظروه في أمر عيسى عليه السلام، فقال لهم النبي ﷺ: «كانَ عبدَ الله ورسوله»، فقالوا: لا تقل هكذا فإن عيسى يأنف عن هذا القول، فنزل تكذيباً لقولهم ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ يعني: كان عيسى مقرّاً بالعبودية. ثم قال: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ يعني: حملة العرش لم يأنفوا عن الإقرار بالعبودية. وقال مقاتل: الملائكة المقربون أقرب إليه، فلم يأنفوا عن عبادته، فكيف يأنف عيسى عليه السلام عن عبادته وهو عبد من عباده؟

ثم قال تعالى: ﴿ومن يستنكف﴾ يعني: يتعظم ﴿عن عبادته ويستكبر﴾ والاستكبار هو الاستنكاف، يقال: استنكف واستكبر يعني: استكبر عن طاعته ﴿فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ يأمر بهم إلى النار.

ثم قال عز وجل: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني: الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ يعني: يوفر لهم ثواب أعمالهم ﴿ويزيدهم من فضله﴾ يعني من رزقه في الجنة.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ عن عبادة الله تعالى ﴿فيعذبهم عذاباً أليماً﴾ وجيعاً دائماً ﴿ولا يجدون لهم من دون الله﴾ يعني: من عذاب الله ﴿ولياً﴾ يعينهم ﴿ولا نصيراً﴾ يعني: مانعاً يمنعهم من عذاب الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

ثمّ قال عز وجل: ﴿يا أيها الناس﴾ يعني: يا أهل مكة ﴿قد جاءكم برهان من ربكم﴾ يعني: بياناً من ربكم وحجة من ربكم، وهو محمد ﷺ والقرآن ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ يعني: بياناً من العمى وبيان الحلال من الحرام، وهو القرآن.

قوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿واعتصموا به﴾ يعني: تمسكوا بدينه ﴿فسيدخلهم في رحمة منه﴾ يعني الجنة ﴿وفضل﴾ يعني: الثواب ﴿ويهديهم إليه﴾ يعني: يرشدهم إلى دينه، ويوفقهم لذلك. وفي الآية تقديم وتأخير، فكأنه يقول: يهديهم في الدنيا ﴿صراطاً مستقيماً﴾ يعني: ديناً لا عوج فيه، ويثيبهم على ذلك، ويدخلهم في الآخرة في رحمة منه وفضل، وهو الجنة والكرامة.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يستفتونك﴾ يعني: يسألونك عن حكم الميراث ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ روي عن قتادة أنه قال: «الكلالة من لا ولد له ولا والد»، وكذلك قال ابن عباس وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «إني قد رأيت رأياً فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمن نفسي ومن الشيطان: الكلالة ما عدا الوالد والولد»[1]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «ثلاث لئن يكون رسول الله ﷺ بيّنهنّ لنا كان أحب إليّ من الدنيا وما فيها: الكلالة، والخلافة، وأبواب الربا»[2]. وروي عن النبي ﷺ أنه سئل عن الكلالة فقال: «أَلَمْ تَرَ الآيَةَ الَّتِي أُنْزِلَتْ فِي النِّسَاءِ ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾» يعني: هذا تفسير الكلالة.

---

(١) عزاه السيوطي ٢/٧٥٦ إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور والدارمي، وابن جرير وابن المنذر والبيهقي.

(٢) حديث عمر: أخرجه البخاري (٥٥٨١) و(٥٥٨٨) ومسلم (٣٠٣٢) (٣٣) والترمذي (١٨٧٤) والنسائي ٨/٢٩٥ وأبو داود (٣٦٦٥).

Marfat.com

وهذه الآية نزلت في شأن جابر بن عبد الله، سأل رسول الله ﷺ فقال: إن لي أختاً فما لي من ميراثها؟ فنزلت هذه الآية، فبيّن ميراث جابر أولاً ثم ميراث أخته، فصارت الآية عامة لجميع الناس(١).

قال تعالى: ﴿إن امرؤ هلك﴾ يعني: إن مات رجل **﴿ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك﴾** من المال **﴿وهو يرثها﴾** يعني: إذا ماتت الأخت والأخ حيّ ورثها **﴿إن لم يكن لها ولد﴾** وقد ذكرت الآية حكم الأخ والأخت إذا لم يكن لهما ولد، ولم يبين أنه لو كان لأحدهما ولد فمات أحدهما فما حكمه؟ ولكن بيّن على لسان رسوله ﷺ أن الأخ إذا مات وترك ابنةً وأختاً أن للابنة النصف، وما بقي فللأخت. وإن كانت الأخت هي التي ماتت وتركت ابنة وأخاً، فللابنة النصف وما بقي فللأخ. وفي هذا إجماع وفي الأول اختلاف. قال ابن عباس رضي الله عنه: «لا ترث الأخت مع الابنة شيئاً»، وخالفه جميع الصحابة رضي الله عنهم وقالوا كلهم: الأخت مع البنات عصبة.

ثم قال تعالى: ﴿فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾ يعني: إذا كان للميت أختان أو أكثر فلهما الثلثان إذا كانتا اثنتين، وإن كنَّ أكثر من ذلك فلهنَّ الثلثان أيضاً بالإجماع. ثم قال: **﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء﴾** يعني: إخوة وأخوات **﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾** يعني: لكل أخٍ سهمان ولكل أخت سهم، هذا إذا كانت الإخوة والأخوات من الأب والأم، أو من الأب خاصة، فأما إذا كانوا من قبل الأم، فهم شركاء في الثلث، ليس لهم أكثر من ذلك كما ذكر في أول السورة، وهذا بالإجماع.

ثم قال تعالى: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ يعني: يبين الله لكم قسمة المواريث لكي لا تضلوا ولا تخطئوا في قسمتها. وقد يحذف لا فيراد به إثباته كقوله ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [سورة لقمان: ١٠] يعني: أن لا تميد بكم، وقد يثبت ويراد به حذفه كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢] يعني: أن تسجد وكقوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ [سورة القيامة: ١] يعني: أقسم ثم قال: **﴿والله بكل شيء عليم﴾** من قسمة المواريث وغيره، يعني: اتبعوا ما أنزل الله تعالى وبيّن لكم في كتابه والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) عزاه السيوطي والبيهقي ٢/ ٧٥٤ إلى مسلم وابن جرير والبيهقي. وكذلك إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبيهقي.

Marfat.com

سورة المائدة

مدنية وهي مائة وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقيه الزاهد أبو الليث السمرقندي حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا السراج، قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، قال: حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فقالت: «هل تقرأ سورة المائدة؟» فقلت: نعم. قالت: «فإنها من آخر ما أنزل الله تعالى على نبيه، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلُّوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرِّمُوه»(١). وقال الشعبي: لم ينسخ من هذه السورة غير قوله ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ [سورة المائدة: ٢] الآية. وقال بعضهم: نسخ منها قوله ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ [سورة المائدة: ١٠٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ فهذا نداء مدح، والنداء في القرآن على سبع مراتب: نداء المدح، مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ﴿يا أيها الرسل﴾. ونداء الذم، مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين كفروا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ [سورة الجمعة: ٦]. ونداء التنبيه، مثل قوله: ﴿يا أيها الناس﴾. ونداء الإضافة، مثل قوله: ﴿يا عبادي﴾ ونداء النسبة، مثل قوله: ﴿يا بني آدم﴾ ﴿يا بني إسرائيل﴾. ونداء الاسم، مثل قوله: ﴿يا إبراهيم﴾ ﴿يا داود﴾. ونداء التعبير، مثل قوله: ﴿يا أهل الكتاب﴾ فهاهنا نداء المدح: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وهو من جوامع الكلم، لأنه قال ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يعني صدقوا، ولم يقل بأي شيء صدقوا، معناه: الذين صدقوا بوحدانية الله تعالى، وصدقوا بمحمد ﷺ وبالقرآن، وصدقوا بجميع الرسل، وبالبعث، والحساب، والجنة، والنار. وقال عبد الله بن مسعود: «كل مؤدب يحب أن يؤتى أدبه وإن أدب الله القرآن، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك فإنه خير مأمور به أو شر منهي عنه»، ويقال: جميع ما في القرآن ﴿يا أيها الذين

(١) عزاه السيوطي ٣/٣ إلى أحمد وأبي عبيد في فضائله، والنحاس، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

Marfat.com

آمنوا﴾ نزل بالمدينة، وكل ما يقال في القرآن ﴿يا أيها الناس﴾ نزل أكثره بمكة، وقد قيل: نزل بالمدينة أيضاً. ويقال: كل ما في القرآن ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ذكر في الإنجيل: يا أيها المساكين.

ثم قال: ﴿أوفوا بالعقود﴾ يعني: أتموا الفرائض التي ذكر الله تعالى في القرآن، وعقد على عباده ما أحل لهم وحرم عليهم أن يوفوا بها. وقال مقاتل: ﴿أوفوا بالعقود﴾ يعني: بالعهود التي بينكم وبين المشركين. ويقال: جميع العقود التي بينه وبين الناس، والتي بينه وبين الله تعالى، وهذا من جوامع الكلم، لأنه اجتمع فيه ثلاثة أنواع من العقود، أحدها: العقود التي عقدها الله تعالى على عباده من الأوامر والنواهي. والنوع الثاني: العقود التي يعقدها الإنسان بينه وبين الله تعالى من النذور والأيمان، وغير ذلك. والنوع الثالث: العقود التي بينه وبين الناس، مثل البيوع والإجارات وغير ذلك، فوجب الوفاء بهذه العقود كلها.

ثم قال تعالى: ﴿أُحلَّتْ لَكُمْ﴾ يعني: رخصت لكم ﴿بَهِيمَةُ الأنْعامِ﴾ والأنعام: تشتمل على الإبل والبقر والغنم والوحش، دليله على قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [سورة الأنعام: ١٤٢] ثم قال تعالى: ﴿ثمانية أزواج﴾ وأما البهيمة فهي كل حيّ لا يميز، وإنما قيل لها بهيمة، لأنها أبهمت من أن تميز.

ثم قال: ﴿إلاّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني: رخصت لكم الأنعام كلها إلا ما حرم عليكم في هذه السورة، وهي: الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك. وذلك أنهم كانوا يحرمون السائبة والبحيرة، فأخبر الله تعالى أنهما حلالان ﴿إلاّ ما يتلى عليكم﴾ يعني: إلا ما بيَّن لكم في هذه السورة.

ثم قال: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ يعني: أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون. ثم قال: ﴿إن الله يحْكُمُ ما يُريدُ﴾ يعني: يحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، لأنه أعرف بصلاح خلقه وما يصلحهم وما لا يصلحهم، وليس لأحد أن يدخل في حكمه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: ٢٦] وقال ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا لاَ تُحِلُّوا شعائرَ الله﴾ الشعائر: ما جعله الله تعالى علامات

Marfat.com

الطاعات، واحدها شعيرة، ومعناه: لا تستحلوا شيئاً من ترك المناسك كلها مما أمر الله تعالى من أمر الحج، وهو: السعي بين الصفا والمروة، والخروج إلى عرفات، ورمي الجمار، والطواف، واستلام الحجر وغير ذلك. وذلك أن الأنصار كانوا لا يسعون بين الصفا والمروة، وكان أهل مكة لا يخرجون إلى عرفات، وكان أهل اليمن يرجعون من عرفات، فأمر الله تعالى في هذه السورة بأن لا يتركوا شيئاً من أمور المناسك.

ثم قال: ﴿وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعني لا تستحلوا القتل في الشهر الحرام ﴿وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ﴾ يقول: لا تتعرضوا له ولا تستحلوه. وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا خرجوا إلى مكة، وكانوا إذا قلدوا الهدي أَمنوا بذلك، ومن يكن له هدي جعل في عنق راحلته قلادة، ومن لم يكن معه راحلة جعل في عنقه قلادة من شعر أو وبر فيأمن بذلك، فإذا رجع من مكة جعل شيئاً من لحاء شجر مكة في عنق راحلته، فيأمن بذلك ليعرف أنه كان حاجاً، فأمرهم الله تعالى بأن لا يستحلوا ذلك، يعني: من فعل ذلك لا يتعرض له.

ثم قال: ﴿وَلاَ آمِّينَ﴾ يقول: ولا تستحلوا قاصدين ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ نزلت في «شُرَيْح بن ضُبَيْعة بن شُرَحْبِيل اليماني» دخل على النبي ﷺ وكلمه، فلما خرج من عنده مَرَّ بسرح لأهل المدينة فساقها، وانتهى إلى اليمامة، ثم خرج من هناك نحو مكة ومعه تجارة عظيمة، فهمَّ أصحاب رسول الله ﷺ بأن يخرجوا إليه ويغيروا على أمواله، فنزل ﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ ﴿يبتغون فضلاً من ربهم﴾ يعني: الربح في المال ﴿وَرِضْوَاناً﴾ يعني: يطلبون بحجهم رضوان ربهم، فلا يرضى عنهم حتى يؤمنوا. ثم نسخ بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٥] ولم ينسخ قوله ﴿لا تحلوا شعائر الله﴾ ولكنها محكمة، فوجب إتمام أمور المناسك، ولهذا قال أصحابنا: إن الرجل إذا دخل في الحج ثم أفسده، فعليه أن يأتي بجميع أفعال الحج، ولا يجوز أن يترك شيئاً منها، ثم عليه القضاء في السنة الثانية. ونسخ قوله ﴿ولا الشهر الحرام﴾ فيجوز القتال في الشهر الحرام بقوله ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [سورة التوبة: ٣٦] وقوله تعالى ﴿ولا الهدي ولا القلائد﴾ فهو محكم أيضاً، ولم ينسخ، فكل من قلد الهدي وتوجه إلى مكة ونوى الإحرام، صار محرماً، ولا يجوز له أن يحل بدليل هذه الآية. فهذه الأحكام معطوفة بعضها على بعض، بعضها منسوخة وبعضها محكمة، فإن قيل: قد قال: ﴿يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ فأخبر أنهم يطلبون رضوان ربهم، ولم يذكر أن طلبهم كان باطلاً؟ قيل له: لأنه لم يذكر في لفظ الآية أمر الكفار، وإنما بيَّن النهي عن التعرض للذين يقصدون البيت، فإن كان الذي قصد كافراً فقد بيَّن في آية أخرى أنه لم يقبل منه، وإن لم يذكر ها هنا وهو قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [سورة المائدة: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ يعني: إذا حللتم من إحرامكم فاصطادوا إن شئتم، فهذه رخصة بلفظ الأمر كقوله ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الجمعة: ١٠]

Marfat.com

وكقوله ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧] الآية. وقال الضحاك ﴿وإذا حللتم﴾ يعني: إذا خرجتم من إحرامكم أو خرجتم من حرم الله تعالى وأمنه، فاصطادوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شنآن قَوْمٍ﴾ يقول: ولا يحملنكم عداوة كفار مكة ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني: عام الحديبية ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ على حجاج اليمامة من المشركين فتستحلوا منهم. وفي الآية دليل: أن المكافأة لا تجوز من غير جنس الذي فعل به، وتكون تلك المكافأة اعتداء، لأن الله تعالى قال: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم﴾ يعني: بغض قوم وعداوتهم ﴿أن تعتدوا﴾ يعني: أن تجاوزوا الحد في المكافأة. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿شنآن﴾ بجزم النون. وقرأ الباقون ﴿شنآن﴾ بالنصب. وقال القتبي: لا يقال في المصادر فعلان، وإنما يقال ذلك في الصفات مثل عطشان وسكران، وفي المصادر يقال: فعلان مثل طيران ولهفان وشنآن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿إن صدوكم﴾ بكسر الألف على معنى الابتداء. وقرأ الباقون ﴿أن صدوكم﴾ بالنصب على معنى البناء.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ يعني: تحاثوا على أمر الله تعالى واعملوا به. وروي عن ابن عباس: «البرُّ ما أمر الله تعالى به، والتقوى ما نهى الله عنه» يقول: تحاثوا على أمر الله واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله تعالى عنه، وامتنعوا عنه. وهذا موافق لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**». وقد قيل: الدالُّ على الشر كصانعه.

ثم قال: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ قال القتبي: العدوان على وجهين: عدوان في السبيل كقوله ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٣] وكقوله ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ [سورة القصص: ٢٨] والثاني عدوان في الظلم كقوله ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ﴾ [سورة المجادلة: ٩] وكقوله ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [سورة المائدة: ٢] يعني به: حجاج أهل اليمامة، وصارت الآية عامة في جميع الناس. ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ يعني: واخشوا الله وأطيعوه فيما أمركم به ﴿إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يعني: إذا عاقب.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ يعني: حرم عليكم أكل الميتة، والميتة: كل ما مات حتف أنفه بغير ذكاة فهو حرام، إلا الجراد والسمك، فقد أباحهما على لسان رسول الله حيث

Marfat.com

قال ﷺ: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ ودَمَانِ: السَّمَكُ والجَرَادُ وَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ» ثم قال ﴿وَالدَّمُ﴾ يعني: حرم عليكم أكل الدم وشربه، وهو الدم المسفوح كما قال في آية أخرى ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] وأما الدم الذي بقي بعد الإنهار فهو مباح، مثل الطحال والكبد والصفرة التي بقيت في اللحم. ثم قال: ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ يعني: أكل لحم الخنزير، فذكر اللحم والمراد به: اللحم والشحم وغير ذلك، وهذا حرام بإجماع المسلمين.

ثم قال: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ يعني: حرم عليكم أكل ما ذبح لغير الله، وأصل الإهلال: رفع الصوت، ومنه استهلال الصبي، وإهلال الحج، وإنما سمي الذبح إهلالاً لأنهم كانوا يرفعون الصوت عند الذبح بذكر آلهتهم، فحرم الله تعالى ذلك.

ثم قال: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي الشاة التي تخنق فتموت، وكان بعض أهل الجاهلية يستحلون ذلك ويأكلونها.

ثم قال: ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ يعني: حرم عليكم أكل الموقوذة: وهي التي تضرب بالخشب فتموت، وأصله في اللغة: هو الإشراف على الهلاك، فإذا ضرب بالخشب حتى يشرف على الموت ثم يتركه، يقال: موقوذة، ويقال: فلان وقيذ، وقذته العبادة أي: ضعف وأشرف على الهلاك.

ثم قال: ﴿والمتردية﴾ وهي الشاة التي تخر من الجبل، أو تتردى في بئر فتموت.

ثم قال: ﴿والنطيحة﴾ وهي الشاة التي تنطح صاحبها فيقتلها.

ثم قال: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ وهي فريسة السبع، فحرم الله تعالى أكل هذه الأشياء كلها على المؤمنين، ثم استثنى فقال: ﴿إِلاَّ ما ذَكَّيْتُم﴾ يعني: إلا ما أدركتم ذكاته فذكيتموه قبل أن يموت، فلا بأس بأكله.

قال القتبي: أصل الذكاة من التوقد، يقال: ذكيت النار، إذا ألقيت عليها شيئاً من الحطب، وإنما سميت الذكية ذكية لأنها صارت بحال ينتفع بها. وقال الزجاج: أصل الذكاة تمام الشيء. وقوله: ﴿إلا ما ذكيتم﴾ يعني: ما أدركتم ذبحه على التمام.

ثم قال: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ قال القتبي: النصب هو حجر أو صنم منصوب، كانوا يذبحون عنده وجمعه أنصاب، ويقال: كانوا يذبحون لأعيادهم باسم آلهتهم.

ثم قال: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ﴾ والأزلام القداح، واحدها زلم على ميزان قلم وأقلام، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يجتمعون عشرة أنفس ويشترون جزوراً، ويجعلون لحمه على تسعة أجزاء، ويعطى كل واحد منهم سهماً من سهامه، ويجمعون السهام عند واحد منهم أو شيء من الأحجار، ثم يخرج هذا الرجل واحداً من السهام، فكل من خرج سهمه يأخذ جزءاً من ذلك اللحم، فإذا خرج تسعة من السهام لا يبقى شيء من اللحم، ولا يكون للذي بقي اسمه آخراً شيء من اللحم، وكان ثمن الجزور كله عليه.

Marfat.com

وكان نوع آخر: أنهم كانوا يجعلون عشرة من القداح، وكان لكل واحد منها سهم، ولم يكن لثلاثة منها نصيب من اللحم، وهو السفيح والمنيح والوعيد، وكان للسبعة لكل سهم نصيب وهو: القذ، والتوأم، والرقيب، والمعلّى، والحِلس، والنّافِس، والمُسْبل. ويقال: كان إذا أراد واحد منهم السفر أخرج سهمين من القداح، في أحدهما مكتوب: أمرني ربي، وفي الآخر: نهاني ربي، فيخرج أحدهما، فإن خرج باسمه أمرني ربي وجب عليه الخروج، ولم يسعه التخلف، وإن خرج الآخر لا يسعه الخروج، فنهى الله تعالى عن ذلك كله وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ يعني: هذه الأفعال معصية وضلالة واستحلالها كفر.

ثمّ قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ**﴾ يعني: كفار العرب أن تعودوا كفاراً، حين حج النبي ﷺ حجة الوداع وليس معهم مشرك. وقال الضحاك: نزلت هذه الآية حين فتح مكة، وذلك أن رسول الله ﷺ فتح مكة لثمان بقين من رمضان سنة تسع، ويقال: سنة ثمان. ودخلها ونادى منادي رسول الله ﷺ: «ألا من قال لا إله إلا الله فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن». فانقادت قريش لأمر الله تعالى، ورفعوا أيديهم وأسلموا.

قال الله تعالى: ﴿**فَلَا تَخْشَوْهُمْ**﴾ يقول: فلا تخشوا صولة المشركين فأنا معكم وناصركم ﴿**وَاخْشَوْنِ**﴾ في ترك أمري.

ثم قال: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ يعني: أتممت لكم شرائع دينكم، وذلك أن النبي ﷺ حيث كان بمكة لم يكن إلا فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام، فنزلت هذه الآية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ يعني دينكم: حلالكم وحرامكم. وروى حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار أنّ ابن عباس، أنه قرأ ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فقال له يهودي: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. فقال ابن عباس: «فإنها نزلت في يوم عيدين: في يوم الجمعة، وكان يوم عرفة».

قال الفقيه: **حدّثنا** الخليل بن أحمد، قال: **حدّثنا** ابن صاعد، قال: **حدّثنا** يعقوب بن إبراهيم الدورقي، **حدّثنا** عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن قيس بن مسلم، عن طارق أن اليهود قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنكم لتقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾. فقال عمر رضي الله عنه: «إني لأعلم حيث أنزلت، وفي أي يوم أنزلت، أنزلت بيوم عرفة ورسول الله ﷺ واقف بعرفة»(١). فإن قيل: في ظاهر هذه الآية دليل أن الدّين يزيد وينقص حيث قال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾. قيل له: ليس فيها دليل، لأنه أخبر أنه أكمل في ذلك اليوم، وليس فيها دليل أنه لم يكمل قبل ذلك. ألا ترى أنه قال في

(١) عزاه السيوطي ٣/١٧ إلى الحميدي والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان وابن جرير وابن المنذر والبيهقي.

Marfat.com

سياق الآية ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ ليس فيه دليل أنه لم يرض قبل ذلك، ولكن معناه: أنه قد أظهر وقرر، كما جاء في الخبر: «أن رجلاً أعتق ستة أعبد له في مرضه، فأعتق رسول الله ﷺ اثنين منهم» يعني: أظهر عتقهما، وقرر ولم يرد به الابتداء. وقال مجاهد: معناه اليوم أتممت لكم ظهور دينكم وغلبة دينكم ونصرته. وقال قتادة: معناه أخلص لكم دينكم.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ يعني: منتي، فلم يحج معكم مشرك ﴿وَرَضِيتُ﴾ يعني اخترت ﴿لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾ وروي في الخبر: «أن النبي ﷺ عاش بعد نزول هذه الآية إحدى وثمانين ليلة، ثم مضى لسبيله صلوات الله عليه». وقال الزجاج: ﴿اليوم﴾ صار نصباً للظرف، ومعناه: في اليوم أكملت لكم دينكم. ـ وقال معاذ بن جبل: «النعمة لا تكون إلا بعد دخول الجنة، فصار كأنه قال: رضيت لكم الجنة، لأنه لا تكون النعمة تماماً إلا حتى يضع قدميه فيها[1] ـ.

ثم رجع إلى أول الآية فقال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ وذلك أنه لما بيّن المحرمات علم أن بعض الناس اضطروا إلى أكله، فأباح لهم أكله عند الضرورة فقال: ﴿فمن اضطر﴾ يعني: أجهد إلى شيء مما حرم الله تعالى عليه ﴿في مخمصة﴾ يعني: في مجاعة، وأصل الخمص: ضمور البطن ودقته، فإذا جاع فقد خمص بطنه. ثم قال: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ يعني: غير متعمد المعصية لأكله فوق الشبع، وأصل الجنف: الميل. وقال الزجاج: يعني غير متجاوز للحد، وغير آكل لها على وجه التلذذ، فلا إثم عليه في أكله. وقال أهل المدينة: المضطر يأكل حتى يشبع. وقال أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله: إنه يأكل مقدار ما يأمن به الموت، وكذلك قال الشافعي رحمه الله. ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: ﴿غفور﴾ فيما أكل، ﴿رحيم﴾ حين رَخَّص له في أكله عند الاضطرار. قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو ﴿فمنِ اضطر﴾ بكسر النون لاجتماع الساكنين، وقرأ الباقون بالضم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ نزلت الآية في شأن عديّ بن حاتم الطائي قال:

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

قلت: يا رسول الله ﷺ إنا قوم نتصيّد بهذه الكلاب والبزاة فما يحل لنا منها؟ فقال ﷺ: «ما عَلَّمْتَ مِنْ كَلْبٍ أَوْ بَازِيٍّ ثُمَّ أَرْسَلْتَهُ وَذَكَرْتَ اسْمَ الله تَعَالَى عَلَيْهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ». فقلت: وإن قتله؟ قال: «إِنْ قَتَلَهُ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئاً فَكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ. وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ شَيْئاً فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ». قلت: فإذا خالط كلابنا كلابٌ أخرى حين ترسلها؟ قال: «لا تَأْكُلْ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ كَلْبَكَ هُوَ الَّذِي أَمْسَكَ عَلَيْكَ»[1]. ونزلت هذه الآية ﴿يسألونك ماذا أحلَّ لهم﴾ يعني: ماذا رخص لهم من الصيد. ويقال: لما نزل قوله تعالى ﴿حرمت عليكم﴾ قالوا: إن الله تعالى حرم هذه الأشياء، فأي شيء لنا حلال يا رسول الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُم الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني رخص لكم الحلالات من الذبائح ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ يعني: وأحلّ لكم صيد ما علمتم ﴿من الجوارح﴾ يعني: من الطير والكلاب الكواسب. ويقال: الجوارح الجارحات.

ثم قال: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بكسر اللام، وقرأ بعضهم بالنصب، فمن قرأ بالكسر يعني به: أصحاب الكلاب المعلِّمين للكلاب، ومن قرأ بالنصب أراد به: الكلاب، يعني الكلاب المعلَّمة. ﴿مكلبين﴾ يعني معلمين. ثم قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ يعني: تؤدبونهن في طلب الصيد ﴿مِمَّا عَلَّمَكُم الله﴾ يقول: كما أدبكم الله تعالى. وروي عن مجاهد أنه سئل عن الصقر والبازي والفهد، قال: «هذه كلها جوارح ولا بأس بصيده إذا كان معلماً».

ثم قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: حبسن لكم ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهِ﴾ إذا أرسلتم الكلاب على الصيد. وفي هذه الآية دليل أن الكلب إذا كان أكل من الصيد، لا يؤكل لأنه أمسك لنفسه، وفيها دليل: أنه لا يجوز الأكل إلا بالتسمية لأنه قد أباح على شرط التسمية، وعلى شرط أن يمسك لصاحبه. وفيها دليل أيضاً: أن الكلب إذا كان غير معلَّم لا يجوز أكلُ صيده، وفيها دليل أيضاً: أن العالِم له من الفضيلة ما ليس للجاهل، لأن الكلب إذا عُلِّم تكون له فضيلة على سائر الكلاب، وأن الإنسان إذا كان له علم أولى أن يكون له فضل على سائر الناس وهذا كما روي عن عليّ كرم الله وجهه أنه قال: «لكل شيء قيمة وقيمة المرء ما يُحْسِنه».

ثم خَوَّفهم فقال: ﴿واتَّقُوا الله﴾ يعني: اخشوا الله ولا تأكلوا الميتة، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] ﴿إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يعني: سريع المجازاة.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني: المذبوحات من الحلال، يعني: اليوم أظهر وبيّن حله، ثم قال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني: ذبائح أهل الكتاب ﴿حِلٌّ لَكُمْ﴾ يعني حلال لكم أكله ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ يعني: ذبائحكم وطعامكم رخص لهم أكله. وقال

(١) حديث عدي بن حاتم: أخرجه البخاري (٥٤٧٥) (٥٤٨٣) - (٥٤٨٤) (٥٤٨٧) ومسلم (١٩٢٩) (٦) (٧) والترمذي: (١٤٦٩) (١٥٦٠) (١٧٩٦) وأبو داود (٢٨٤٩) (٢٨٥٠) والنسائي ٧/ ١٨٠ - ١٨٢ والبيهقي ٩/٢٣٦ - ٢٣٩ وأحمد: ٤/١٩٣ - ١٩٤، ٣٧٧.

Marfat.com

الزجاج: تأويله أحل لكم أن تطعموهم، لأن الحلال والفرائض إنما تعقد على أهل الشريعة.

ثم قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني: أحل لكم تزوج العفائف من المؤمنات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني: العفائف من أهل الكتاب ﴿مِنْ قَبْلِكُم﴾ يعني: أعطوا الكتاب من قبل كتابكم، وهو التوراة والإنجيل. واختلفوا في نكاح الصابئة، وقد ذكرناه في سورة البقرة.

ثم قال: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: أعطيتموهن مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ غير مسافحين﴾ يقول: كونوا متعففين عن الزنى غير معلنين بالزِّنا ﴿وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ يقول: لا تتخذوا خِدْناً فتزنوا بها سراً، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يعيِّرون من يزني في العلانية ولا يعيرون من يزني سراً، فحرم الله زنى السر والعلانية، فلما نزلت هذه الآية قلن نساء أهل الكتاب: لولا أن الله تعالى قد رضي بديننا لم يبح للمسلمين نكاحنا، فنزل ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي: بطل ثواب عمله، ويقال: لمّا نزل قوله ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ثم رخص من حال الاضطرار، فقال بعضهم: لا نأخذ الرخصة في الاضطرار فنزل ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾ ويقال: هذا ابتداء خطاب، وهو لجميع المسلمين فقال: ﴿ومن يكفر بالإيمان﴾ قال ابن عباس: «يعني: من يكفر بالتوحيد بشهادة أن لا إله إلا الله فقد حبط عمله». وقال مجاهد: معناه، ومن يكفر بالإيمان بالله ﴿فقد حبط عمله﴾ يعني: بطل ثواب عمله. ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني من المغبونين في العقوبة، ولهذا قال أصحابنا رحمهم الله: إن الرجل إذا صلى ثم ارتد ثم أسلم في وقت تلك الصلاة، وجب عليه إعادة تلك الصلاة، ولو كان حج حجة الإسلام فعليه أن يعيد الحج لأنه قد بطل حجّه وما فعل قد بطل قبل ارتداده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قُمتم إلى الصَّلاةِ﴾ يعني: إذا أردتم أن تقوموا إلى الصلاة وأنتم محدثون، ويقال: إذا قمتم من نومكم إلى الصلاة وأنتم محدثون ﴿فاغسِلُوا وُجوهَكم وأيدِيَكم إلى المَرافِقِ﴾ يعني: مع المرافق ﴿وامسَحُوا بِرُؤوسِكُمْ وأرجُلَكُم إلى الكَعْبَيْنِ﴾ يعني: مع الكعبين. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم، في رواية أبي بكر

Marfat.com

﴿وأرجلِكم﴾ بكسر اللام وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالنصب، فإنه جعله مفعولاً نصباً لوقوع الفعل عليه وهو الغسل، يعني: واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين. ومن قرأ بالكسر جعله كسراً لدخول حرف الخفض عليه وهو الباء، فكأنه قال: وامسحوا برؤوسكم وبأرجلكم، يعني: إذا كان عليه خفان، وقد ثبت ذلك بالسنة. ويقال: صار كسراً بالمجاورة كما قال في آية أخرى ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢] قرأ بعضهم بالكسر بالمجاورة، فهذه الأربعة التي ذكرت في الآية من فرائض الوضوء، وما سوى ذلك آداب وسنن. فإن قيل: الآية إذا قرئت بقراءتين فالله تعالى قال بهما جميعاً أو بإحداهما؟ قيل له: هذا على وجهين: إن كان لكل قراءة معنى غير المعنى الآخر، فالله تعالى قال بهما جميعاً، وصارت القراءتان بمنزلة الآيتين، وإن كانت القراءتان معناهما واحد، فالله تعالى قال بأحداهما، ولكنه رخص بأن يقرأ بالقراءتين جميعاً.

ثم قال تعالى: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ قال القتبي: قد يوصف الجمع بصفة الواحد كقوله ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُباً﴾ وكقوله: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] قوله: ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ معناه: فتطهروا، إلا أن التاء أدغمت في الطاء لأنهما من مكان واحد، فإذا أدغمت فيها سُكِّنَ أولُ الكلمة وزيدت ألف الوصل للابتداء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ يعني: من الصعيد وقد ذكرناه.

ثم قال: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ يقول: لا يكلفكم في دينكم من ضيق ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ يعني: يطهركم من الأحداث والجنابة ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما أنعم عليكم من الرخص ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا الله لما رخص لكم ولم يضيق عليكم.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: احفظوا منة الله عليكم بإقراركم بوحدانية الله تعالى ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ يعني: يوم الميثاق حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] هكذا قال في رواية الكلبي ومقاتل والضحاك. وقال بعضهم: هو ميثاق الجبلة والإدراك، فكل من أدرك فقد أخذ عليه الميثاق، وشهدت له خلقته وجبلته، فصار ذلك كالإقرار منه، ثم قال ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يوم الميثاق، قلتم سمعنا قولك يا ربنا، وأطعنا أمرك. ثم قال: ﴿واتقوا الله﴾ في نقض العهد والميثاق ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، يعني: عالم بسرائركم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

Marfat.com

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ يعني: كونوا قوّالين بالحق. ثم قال: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنَ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لاَ تَعْدِلُوا﴾ وذلك أن الله تعالى لما فتح عليهم مكة، أمر الله المسلمين أن لا يكافئوهم بما سلف، وأن يعدلوا في القول والحكم و النصفة. وذلك قوله ﴿اعْدِلُوا﴾ يعني: قولوا بالحق والعدل ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ يعني: فإنه أقرب للطاعة. ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا الله﴾ يقول: واخشوا الله فيما أمركم به ﴿إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة وغيرها.

ثم بيّن ثواب من عمل بطاعته فقال: ﴿وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني ثواب عظيم في الجنة. ويقال: إن أهل مكة قالوا بعدما أسلموا: ما لنا في الآخرة وقد أخرجناك وأصحابك من مكة فنزل ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ بالله وبمحمد ﷺ ﴿وعملوا الصالحات﴾ بعد الإسلام ﴿لهم مغفرة﴾ لما فعلوا في حال الشرك ﴿وأجر عظيم﴾ في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: جحدوا وكذبوا بمحمد ﷺ والقرآن، وماتوا على ذلك ﴿أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني مقيمين فيها أبداً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ﴾ وذلك أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وصالح بني قريظة والنضير، وهما قبيلتان بقرب المدينة من اليهود، وأخذ منهم الميثاق بأن لا يكون بينهم القتال، ويتعاونون فيما بينهم على الديات، فدخل مستأمنان على رسول الله ﷺ فخرجا من عنده فقتلهما «عمرو بن أمية الضمري»، ولم يعلم بأنهما مستأمنان، فوداهما رسول الله ﷺ بدية حُرّين مسلمين، فخرج رسول الله ﷺ مع أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم إلى بني النضير ليستعين بهم في ديتهما، فقالوا: مرحباً حتى نستأذن إخواننا من بني قريظة. وقال في رواية الكلبي: خرج إلى بني قريظة فقالوا: حتى نستأذن إخواننا من بني النضير، وفي رواية مقاتل: خرج إلى بي النضير فقالوا حتى نستأذن أخواننا من بني قريظة، وأدخلوهم داراً وأجلسوهم في صفّة، وجعلوا يجمعون السلاح، وهموا بقتل رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا ينتظرون كعب بن الأشرف وكان غائباً، فنزل جبريل عليه السلام وأخبر النبي ﷺ بالقصة فقام النبي ﷺ وخرج، فلما أبطأ الرجوع قام أبو بكر فخرج، ثم خرج عمر، ثم خرج علي رضي الله عنهم فنزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ يقول: أرادوا وتمنوا أن يمدوا أيديهم إليكم بالقتل ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ بالمنع عنكم.

Marfat.com

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: حدثنا الفقيه أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا نصير بن يحيى، قال: حدثنا أبو سليمان، عن محمد بن الحسن، عن محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك: «أن رسول الله ﷺ خرج إلى بني النضير ليستعين بهم في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، فهمّ بنو النضير بقتل النبي ﷺ، فبلغ النبي ﷺ فسار إليهم فحاصرهم، وأمر بقطع النخيل وحاصرهم حتى قالوا: أتؤمننا على دمائنا وذرارينا وعلى ما حملت الإبل إلا الحلقة يعني: السلاح؟ قال: «نعم» ففتحوا الحصون، وأجلاهم إلى الشام. فهذا الخبر موافق رواية مقاتل: أنه خرج إلى بني النضير.

وقال الضحاك: كان سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ خرج ذات ليلة إلى البقيع إلى قبور الشهداء وحده، فأتاه رجل من اليهود شديد محارب، فقال: إن كنت نبياً كما تزعم فأعطني سيفك هذا، فإن الأنبياء لا يبخلون، فأعطاه سيفه فشهر اليهودي السيف وهزه ليضربه به. فلم يجترىء للرعب الذي قذفه الله تعالى في قلبه، ثم ردّ عليه السيف فنزل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله ويثقوا بالنصرة لهم. ففي الآية إضمار، فكأنه قال: فاتقوا الله وتوكلوا على الله، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يعني: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله.

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: في التوراة، من الإيمان بالله تعالى وبأنبيائه، وأن يعملوا بما في التوراة، ثم قال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ قال مقاتل: يعني: شهداء على قومهم، بعث الله تعالى من كل سِبْطٍ منهم رجلاً، ليأخذ كل رجل منهم على سبطه الميثاق، ويكونوا شهداء على قومهم. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ قال: من كل سبط من بني إسرائيل رجلاً، أرسلهم موسى عليه السلام إلى الجبارين، فوجدوهم يدخل في كُمّ أحدهم اثنان منهم، ولا يحمل عنقود عنبهم إلا خمسة منهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبة منه خمسة أنفس أو أربعة، فرجع النقباء كلهم ينهون سبطهم عن القتال إلا يوشع بن نون، وكالوب بن يوقنا، أمرا قومهما بالقتال. وقال القتبي: النقيب

Marfat.com

الكفيل عن القوم، والنقابة والنكابة: شبيه بالعرافة. ويقال: نقيباً يعني: أميناً. وقال ابن عباس: «نقيباً يعني ملكاً»، حين بعثهم موسى إلى بيت المقدس جعل عليهم اثني عشر ملكاً، على كل سبط منهم ملك ﴿وَقَالَ اللهُ﴾ تعالى للنقباء: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ويقال: ﴿وقال الله﴾ لبني إسرائيل حين أخذ عليهم الميثاق في التوراة: ﴿إني معكم﴾ أي: معينكم وحافظكم وناصركم ﴿لَئِنْ أَقَمْتُم الصَّلاَةَ﴾ يعني: ما دمتم أقمتم الصَّلاة ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ يعني: صدقتم برسلي ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ يعني: أعنتموهم. وقال القتبي: أي عظمتموهم، والتعزير: التعظيم. وقال السدي: يعني نصرتموهم بالسيف. وقال الأخفش: يعني وقَّرتموهم وقَوَّيتموهم. وقال الضحاك: شرفتموهم بالنبوة كما شرفهم الله تعالى. ويقال: ﴿آمنتم برسلي﴾ أي أمرتم قومكم، حتى يؤمنوا برسلي ﴿وعزرتموهم﴾ أي: نصرتموهم ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ أي: تأمرون قومكم بذلك.

ثم بيّن جزاءهم وثوابهم إن فعلوا ذلك فقال تعالى: ﴿لأُكَفِّرَنَّ﴾ أي: لأمحونَّ ﴿عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يعني: ذنوبكم ﴿وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ﴾ ثم قال: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العهد والميثاق ﴿مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ يعني: أخطأ قصد الطريق.

ثم قال عز وجل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ﴾ يعني: لما أخذ الله عليهم الميثاق نقضوا الميثاق، فبنقضهم ميثاقهم ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ يعني: لعنهم الله وطردهم من رحمته. ويقال: ﴿لعناهم﴾ يعني: عذبناهم بالمسخ. ويقال: بالجزية. ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ يعني: يابسة، ويقال: خالية عن حلاوة الإيمان. قرأ حمزة والكسائي ﴿قسية﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون ﴿قاسية﴾ ومعناهما واحد ويقال: قست فهي قاسية وقسية.

ثم قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ والكلم جمع كلمة، يعني: يغيرون صفة محمد ﷺ ﴿عن مواضعه﴾ يعني: في كتابهم أي من بعدما وافق القرآن يعني: عن صفة رسول الله ﷺ في كتابهم، ويقال: استحلوا ما حرم الله تعالى عليهم ولم يعملوا به، فكان ذلك تغيير الكلم عن مواضعه. ثم قال: ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ يعني: تركوا نصيباً ﴿مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: مما أمروا به في كتابهم ﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ يعني: لا يزال تظهر لك منهم الخيانة ونقض العهد.

وقال القتبي عن أبي عبيدة: إن العرب تضع لفظ الفاعل في موضع المصدر، كقولهم: للخوان مائدة، وإنما يميد بهم ما في الخوان، فيجوز أن يكون صفة للخائن، كما يقال رجل طاغية وراوية للحديث. ثم قال: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ يعني: مؤمنيهم لم ينقضوا العهد ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ يعني: اتركهم فلا تعاقبهم ﴿وَاصْفَحْ﴾ عنهم يعني: أعرض عنهم ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يعفون عن الناس، وهذا قبل الأمر بقتال أهل الكتابين.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا

Marfat.com

﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وذلك أن الله تعالى لما ذكر حال اليهود ونقضهم الميثاق، فقال على أثر ذلك: إن النصارى لم يكونوا أحسن معاملة من اليهود، ثم بيّن معاملتهم فقال: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ في الإنجيل، بأن يتبعوا قول محمد ﷺ ﴿فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: تركوا نصيباً مما أمروا به في الإنجيل من اتباع قول محمد ﷺ، ويقال: نقضوا العهد كما نقض اليهود، ويقال: إنما سموا أنفسهم النصارى لأنهم نزلوا قرية يقال لها «ناصرة»، نزل فيها عيسى عليه السلام فنزلوا هناك وتواثقوا بينهم، ويقال: إنما سموا النصارى لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢، والصف: ١٤].

ثم قال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ يعني: ألقينا، الإغراء في أصل اللغة: الإلصاق، يقال: أغريت الرجل إغراء إذا ألصقت به. ويقال: إن ﴿العداوة﴾ ألقاها بينهم إنسان يقال له «بولس»، كان بينه وبين النصارى قتال، وكان يهودياً، فقتل منهم خلقاً كثيراً، فأراد أن يحتال بحيلة يلقي بينهم القتال ليقتل بعضهم بعضاً، فجاء إلى النصارى وجعل نفسه أعور وقال لهم: أتعرفوني؟ فقالوا: أنت الذي قتلت منا وفعلت ما فعلت، فقال: قد فعلت ذلك كله وأنا تائب، لأني رأيت عيسى ابن مريم في المنام نزل من السماء، فلطم وجهي لطمة وفقأ عيني. فقال: لي أي شيء تريد من قومي؟ فقبّلت يده فتبت على يده، وإنما جئتكم لأكون بين أظهركم، وأعلمكم شرائع دينكم، كما علمني عيسى عليه السلام في المنام. فاتخذوا له غرفة، فصعد تلك الغرفة وفتح كوة إلى الناس في الحائط، وكان يتعبد في الغرفة، وربما كانوا يجتمعون إليه ويسألونه ويجيبهم من تلك الكوة، وربما يأمرهم حتى يجتمعوا فيناديهم من تلك الكوة، ويقول لهم قولاً كان في الظاهر منكراً وينكرون عليه، فكان يفسر ذلك القول بتفسير يعجبهم ذلك، فانقادوا كلهم له وكانوا يقبلون قوله بما يأمرهم به. فقال يوماً من الأيام: اجتمعوا فإنه قد حضرني علم، فاجتمعوا، فقال لهم: أليس قد خلق الله تعالى هذه الأشياء في الدنيا كلها لمنفعة بني آدم؟ قالوا: نعم، فقال لم تحرمون على أنفسكم هذه الأشياء؟ يعني: الخمر والخنزير، وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً؟ فأخذوا بقوله واستحلوا الخمر والخنزير، فلما مضى على ذلك أيام دعاهم وقال: حضرني علم، فاجتمعوا وقال لهم: من أي ناحية تطلع الشمس؟ فقالوا: من قبل المشرق. فقال: ومن أي ناحية يطلع القمر والنجوم؟ فقالوا: من قبل المشرق. فقال: ومن يرسلهم من قبل المشرق؟ قالوا: الله تعالى: فقال: فاعلموا أن الله من قبل المشرق فإن صليتم له فصلوا إليه، فحول صلاتهم إلى المشرق، فلما مضت على ذلك أيام دعا طائفة منهم وأمرهم بأن يدخلوا عليه في الغرفة. وقال لهم: إني أريد أن أجعل نفسي الليلة قرباناً لأجل عيسى، وقد

Marfat.com

حضرني علم وأنا أريد أن أخبركم في السر لتحفظوا عني وتدعوا الناس إلى ذلك. ويقال أيضاً: إنه أصبح يوماً وفتح عينه الأخرى ثم دعاهم وقال لهم: جاءني عيسى عليه السلام الليلة، وقال: قد رضيت عنك، فمسح يده على عيني فبرئت، فالآن أريد أن أجعل نفسي قرباناً. ثم قال لهم: هل يستطيع أحد أن يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص إلا الله تبارك وتعالى؟ فقالوا: لا. فقال: إن عيسى عليه السلام قد فعل هذه الأشياء، فاعلموا بأنه هو الله، فخرجوا من عنده. ثم دعا طائفة أخرى فأخبرهم بذلك أيضاً، وقال: إنه كان ابنه، ثم دعا بالطائفة الثالثة وأخبرهم بأنه ثالث ثلاثة، وأخبرهم بأنه يريد أن يجعل نفسه الليلة قرباناً، فلما كان في بعض الليل خرج من بين ظهرانيهم، فأصبحوا وجعلوا كل فريق منهم يقول: قد علمني كذا وكذا. وقال الفريق الآخر: أنت كاذب بل علمني كذا وكذا، فوقع بينهم القتال فاقتتلوا، وقتلوا خلقاً كثيراً وبقيت العداوة بينهم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهم ثلاث فرق: فرقة منهم النسطورية قالوا: المسيح ابن الله. وصنف منهم يقال: لهم الماريعقوبية قالوا: إن الله هو المسيح. وصنف منهم يقال لهم: الملكانية، قالوا: إن الله ثالث ثلاثة: المسيح، وأمه، والله. فأغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. ويقال: ألقى بينهم العداوة بالجدال والخصومات في الدين. وقال معاوية بن قرة: إياكم وهذه الخصومات في الدين، فإنها تحبط الأعمال. ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني: ينبئهم في الآخرة الذي هو على الحق.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾

ثمّ قال عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني؛ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: تكتمون ما بيِّن في التوراة، وذلك أنهم كتموا آية الرجم وتحريم الخمر وأكل الربا ونعت محمد ﷺ ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ يعني: يتجاوز عن كثير ولا يخبركم به. وذكر أن رجلاً من أحبارهم جاء إلى النبي ﷺ، فسأله فقال: ما هذا الذي عفوت عنا؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ ولم يبين، وإنما أراد اليهودي أن يظهر مناقضة كلامه أنه لم يترك شيئاً، الا وقد بينه كله، فلما لم يبين له رسول الله ﷺ قام من عنده وذهب، وقال لأصحابه: أرى أنه صادق فيما يقول، لأنه كان وجد في كتابه أنه لا يبين له ما سأله.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ﴾ يعني: ضياء من الضلالة، وهو محمد ﷺ والقرآن، والنور هو الذي يبين الأشياء ويري الأبصار حقيقتها، فيسمى القرآن نوراً لأنه يقع في

Marfat.com

القلوب مثل النور، لأنه إذا وقع في قلبه يبصر به. ثم قال: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يعني: القرآن يبين لكم الحق من الباطل.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ﴾ يعني: بالقرآن ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ يعني: مَنْ طلب الحق ورغب فيه ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ يعني: دين الله الإسلام، والسبل: جماعة السبيل، وهو الطريق، يعني به: طريق الهدى، والسلام: اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، يعني: هو دين الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ يعني: يخرج من قلوبهم حلاوة الكفر، ويدخل فيها حلاوة الإيمان، ويوفقهم لذلك ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: يوفقهم إلى دين الإسلام.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ثم قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ يقول: من يقدر أن يمنع من عذاب الله شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ يعني: لو أراد الله أن يهلك عيسى وأمه وجميع الخلق، لا يقدر عيسى على ردّ ذلك، فكيف يكون إلهاً وهو لا يقدر على دفع الهلاك عن نفسه؟.

ثم قال: ﴿ولله مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني: خزائن السموات والأرض، وجميع الخلق عبيده وإماؤه، وحكمه نافذ فيهم. ثم قال: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لأن نصارى أهل نجران كانوا يقولون: لو كان عيسى عليه السلام بشراً كان له أب، فأخبرهم الله تعالى أنه قادر على أن يخلق خلقاً بغير أب ﴿والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من خلق عيسى وغيره.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُه﴾ يعني: نحن من الله تعالى بمنزلة الأبناء من الآباء في المنزلة والمحبة والكرامة، والوالد إذا سخط على ولده في وقت يرضى عنه في وقت آخر. ويقال: معناه نحن أبناء أنبياء الله وأحباؤه.

Marfat.com

قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ يعني: يحرقكم، لأنهم كانوا مقرّين بأنه يحرقهم أربعين يوماً أياماً معدودة، قل لهم: فهل رأيتم والداً يحرق ولده أو يحرق مُحِبَّه؟ ففي الآية دليل أن الله تعالى إذا أحب عبده يغفر ذنوبه، ولا يعذبه بذنوبه، لأنه احتج عليهم فقال: ﴿فلم يعذبكم﴾ إن كنتم أحباء الله تعالى؟ وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ففيها دليل على أنه لا يعذب التوابين بذنوبهم، ولا المجاهدين الذين يجاهدون لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] ثم قال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ يعني: أنتم لستم بأبناء الله ولا أحبائه، ولكن أنتم خلق كسائر خلق الله تعالى.

ثم قال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: يتجاوز عمن يشاء فيهديه لدينه ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ فيهينه ويتركه على الكفر ﴿ولله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني: إليه المرجع، فيجزيهم بأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: يا أهل التوراة والإنجيل، وإنما أضافهم إلى الكتاب والله أعلم على وجه التعيير، يعني: أنتم أهل الكتاب فلم لا تعملون بكتابكم؟ كقوله: يا عاقل لم لا تفعل كذا وكذا؟ وإنما تذكر العقل على معنى التعيير، أي أنك لا تعمل عمل العقلاء.

ثم قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الدين والأحكام والشرائع ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ يعني: بعد انقطاع من الرسل والوحي. وقال مقاتل: في الآية تقديم وتأخير ومعناه: قد جاءكم رسولنا ﴿على فترة من الرسل﴾ يبين لكم، وإنما سمي ﴿فترة﴾ لأن الدين يفتر ويندرس عند انقطاع الرسل، يعني: بين عيسى ومحمد عليهما السلام وقال قتادة: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام خمسمائة وستون سنة. وقال الكلبي: خمسمائة وأربعون سنة. وقال الضحاك ومقاتل: كان بينهما ستمائة سنة. وقال وهب: كان بينهما ستمائة وعشرون سنة.

ثم قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ يعني: لكي لا تقولوا: ما جاءنا من رسول بعد ما دُرس الدين ليبشرنا وينذرنا ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ محمد ﷺ ﴿بَشِيرٌ﴾ بالجنة ﴿وَنَذِيرٌ﴾ من النار ﴿والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المغفرة والعذاب وبعث الرسل

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟

Marfat.com

عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ﴾ يعني: احفظوا منة الله عليكم ونعمته ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ قال في رواية الكلبي: يعني، السبعين سوى موسى وهارون عليهما السلام، وهم الذين اختارهم موسى فانطلقوا معه إلى الجبل. ويقال: ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ يعني: في بني إسرائيل، فكان فيهم أربعة آلاف نبي عليهم السلام.

ثم قال: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾ يعني: بعد العبودية لفرعون. قال ابن عباس: «إن الرجل إذا لم يدخل عليه أحد في بيته إلا بإذنه فهو ملك». وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ أي جعل لكم أزواجاً وخدماً وبيوتاً وبنين. ويقال: من استغنى عن غيره فهو ملك. وهذا كما قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، وَلَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا**» أي بجميعها. ثم قال تعالى: ﴿وآتاكُم مَا لَمْ يؤت أحداً من الْعَالَمِينَ﴾ يعني: أعطاكم ما لم يعط أحداً من الخلق، وهو: المن والسلوى والغمام وغير ذلك.

ثم قال عز وجل: ﴿يا قَوْمِ ادْخُلُوا الأرْضَ المُقَدَّسَةَ﴾ يعني: المطهرة، والمقدسة في اللغة: هو المكان الذي يتطهر فيه، فتأويله: البيت الذي يتطهر فيه الإنسان من الذنوب. ثم قال: ﴿التي كَتَبَ الله لَكُمْ﴾ يعني: التي أمركم الله تعالى أن تدخلوها. ويقال: التي وعد لإبراهيم أن يكون ذلك له ولذريته. وذلك أن الله تعالى وعد لإبراهيم أن يكون له مقدار ما يمد بصره، فصار ذلك ميراثاً منه حين عُرِج إبراهيم، فقال له جبريل: انظر يا إبراهيم، فنظر فقال: «يعطي الله تعالى لك ولذريتك مقدار مد بصرك من الملك. وهو أرض فلسطين وأردنّ وما حولهما. فقال موسى لقومه: ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ يعني: التي جعل لأبيكم إبراهيم عليه السلام ولكم ميراث منه

وقال القتبي: أصل الكتاب، ما كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ، ثم يتفرع منه المعاني. ويقال: كتب بمعنى قضى، كما قال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] ويقال: كتب أي فرض كما قال: ﴿كتب عليكم الصيام﴾ ويقال: كتب أي جعل، كما قال: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ ويقال: كتب أي أمر. كما قال: ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ يعني: أمر الله لكم بدخولها. قال: ويقال كتب هاهنا بمعنى جعل.

ثم قال تعالى: ﴿ولا ترتدُّوا علَى أدْبارِكُمْ﴾ يعني: لا ترجعوا عما أمرتم به من الدخول

Marfat.com

﴿فَتَنقَلِبُوا﴾ أي: فتصيروا ﴿خَاسِرِينَ﴾ بفوات الدرجات ووجوب الدركات، أي: مغبونين في العقوبة، فبعث موسى عليه السلام اثني عشر رجلاً من كل سبط رجلاً يأتيهم بخبر الجبارين، فلما أتوهم لقيهم بعض أصحاب تلك المدينة، فجاؤوا وأخذوا أصحاب موسى عليه السلام، فجعل كل رجلين من أصحاب موسى عليه السلام في كمّ رجل من الجبارين، حتى جاؤوا بهم إلى الملك. ويقال: لقيهم رجل واحد اسمه «عوج»، فاحتملهم في ثوبه وأتى بهم حتى ألقاهم بين يدي الملك؛ فنظر إليهم وقال: هؤلاء يريدون أن يأخذوا مدينتنا؟ فأراد قتلهم، فقالت امرأته: أيش تصنع بقتل هؤلاء الضعفاء؟ ويكفيهم ما رأوا من أمر القوم وأمر هذه البلدة. فأنعِم عليهم ودعهم حتى يرجعوا ويذهبوا إلى موسى وقومه بالخبر. فأرسلهم الملك، وأعطاهم عنقوداً من العنب، فحملوه على عمودين، فرجعوا إلى موسى عليه السلام وقالوا فيما بينهم: لا تخبروا قوم موسى بهذا الخبر، فإنهم يجبنون عن القتال، والله تعالى قد وعد لموسى بأن يفتح عليهم هذه البلدة، ولا تخبروا أحداً سوى موسى. فلما رجعوا، أخبروا بخبرهم القوم إلا اثنين منهم وهما: يوشع بن نون وكالوب بن يوقنا.

فلما أمر موسى قومه بدخول البلدة ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِن فِيهَا قَوماً جَبَّارِينَ﴾ قال مقاتل: يعني طول كل رجل منهم ستة أذرع ونصف. وقال الكلبي: طول كل رجل منهم ثمانون ذراعاً. وقال الزجاج: الجبار من الآدميين العاتي، وهو الذي يجبر الناس على ما يريد. ثم قال: ﴿وإنَّا لَن نَدخُلَهَا حَتَّى يَخرجُوا مِنهَا﴾ يعني: من تلك البلدة، وهي الأرض المقدسة، واسمها إيلياء. ويقال: مدينة أخرى يقال لها أريحا ﴿فَإِن يَخرُجُوا مِنها فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ يعني: يوشع بن نون وكالوب ابن يوقنا ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالى ﴿أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِمَا﴾ بالإسلام، ويقال: من الذين يخافون الجبارين ﴿أنعم الله عليهما﴾ فلم يخافا وصدقا في مقالتهما ﴿ادخُلُوا عَلَيهِمُ البَابَ﴾ وهي: أريحا أو إيلياء ﴿فَإِذَا دَخَلتُمُوهُ فَإِنَّكُم غَالِبُونَ﴾ يعني: أن القوم إذا رأوا كثرتكم انكسرت قلوبهم وانقطعت ظهورهم، فتكونوا غالبين ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوكلوا﴾ يعني فثقوا بأنه ناصركم ﴿إِن كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين بوعد الله تعالى.

فقال لهم موسى: ادخلوا عليهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ أتصدق الاثنين وتكذب العشرة؟ ﴿إِنَّا لَن نَدخُلَها أَبداً مَا دامُوا فِيهَا فَاذهَب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا﴾ يعني: قل لربك أن ينصرك عليهم كما نصرك على فرعون. وقال أبو عبيدة: يعني اذهب فقاتل، وليقاتل معك ربك، وليتم أمرك كما أتم قبل ذلك، فهو يعينك فإنا لا نستطيع قتال الجبارين. ويقال: ﴿اذهب أنت وربك﴾ يعني: أنت وسيدك هارون، لأن هارون كان أكبر منه بسنتين أو بثلاث سنين ﴿فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فغضب موسى عليه السلام من قولهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَملِكُ إِلاَّ نَفسِي وَأَخِي﴾ هارون. وقال الزجاج: ﴿لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ يحتمل معنيين. أي: لا أملك إلا نفسي وأخي لا يملك إلا نفسه ويحتمل: لا أملك إلا نفسي وأخي، لأن أخاه كان مطيعاً له، فهو يملك طاعته. ثم

Marfat.com

قال: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني: اقضِ بيننا وبين القوم العاصين.

قَالَ الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: الأرض المقدسة، دخولها محرم عليهم ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ثم قال: ﴿يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ ضلالاً يعني: يتحيرون فيها ولا يعرفون وجه الخروج منها ضلالاً في التيه. ويقال: ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ وتم الكلام. ثم قال: ﴿أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ فغمَّ عليهم السبيل، فحبسهم بالنهار وسيّرهم بالليل، يسهرون ليلتهم ويصبحون حيث أمسوا. وكان التيه بين فلسطين وأيلة ست فراسخ في اثني عشر فرسخاً، فمكثوا فيها أربعين سنة لم يقدروا على الخروج منها. قال بعضهم: لم يكن موسى وهارون عليهما السلام في التيه، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يعذبون. وقال بعضهم: كانا فيه وسهل الله تعالى عليهما كما سهل على إبراهيم عليه السلام النار، وجعلها برداً وسلاماً. ويقال: إن موسى وهارون قد ماتا في التيه، وهلكت تلك العصابة ولم يبقَ منهم إلا يوشع بن نون وكالوب، فخرج يوشع بذرياتهم إلى تلك المدينة، وفتحوها عند غروب الشمس. وذكر في الخبر: أن يوشع دعا بأن ترد الشمس، فردت ثلاث ساعات حتى فتحوا البلدة، فاختلطت النجوم عن مجاريها من ذلك اليوم، فخفي على المنجمين، فلما بقوا في التيه ندم موسى عليه السلام على دعائه، فأوحى الله تعالى إليه ﴿فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني: لا تحزن على قوم سميتهم فاسقين. وقال بعضهم: هذا الخطاب لمحمد ﷺ: لا تحزن على قومك إن لم يؤمنوا. ويقال: ﴿أربعين سنة﴾ صار نصباً بمعنى: يتيهون لأن في التفسير: إن دخلوها لم يكن محرم عليهم أبداً. فكانوا يتيهون أربعين سنة.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اقرأ على قومك ﴿نَبَأ ابْنَيْ آدمَ بِالْحَقّ﴾ يعني: خبر ابني آدم عليه السلام بالصدق ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً﴾ وذلك أن حواء عليها السلام ولدت غلاماً وجارية في بطن واحد، قابيل وأخته إقليما، ثم ولدت في بطن آخر هابيل وأخته ليوذا، فلما كبروا، أمر الله تعالى آدم بأن يزوج كل واحد منهما أخت صاحبه، وكانت أخت قابيل أحسن، فأبى قابيل وقال: بل زوِّج كل واحد منا أخته، فقال آدم: إن الله تعالى أمرني بذلك. فقال له قابيل: إن الله

Marfat.com

تعالى لم يأمرك بهذا، ولكنك تميل إلى هابيل. فأمرهما بأن يقرّبا قرباناً، فأيكما تقبل قربانه كان أحق بها، فعمد قابيل وكان صاحب زرع إلى شر زرعه ووضعه عند الجبل، وعمد هابيل وكان صاحب المواشي إلى خير غنمه فوضعها عند الجبل، وكان قابيل يضمر في قلبه: أنه إن تقبل منه أو لم يتقبل أن لا يسلم إليه أخته، فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل، وكان ذلك علامة القبول، وتركت قربان قابيل فذلك قوله: ﴿إذ قربا قرباناً﴾ يعني: وضعا قرباناً. ﴿فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا﴾ يعني: هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر﴾ يعني: قابيل فـ﴿قَالَ﴾ قابيل لهابيل ﴿لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ﴾ ولم؟ قال: لأن الله تعالى قد قبل قربانك ورد عليّ قرباني. فقال له هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ولم يكن الذنب مني، وإنما لم يتقبل منك لخيانتك وسوء نيتك. وقال بعض الحكماء: العاقل من يخاف على حسناته، لأن الله تعالى قال: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ والخاسر من يأمن من عذاب الله، لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿لئن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ يعني: إن هابيل قال لقابيل: لئن مددت إليّ يدك ﴿لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يعني: إني أريد أن ترجع ﴿بإثمي﴾ يعني: بقتلك إياي، وبإثمك الذي عملته قبل قتلي وهي الخيانة في القربان وغيره. ويقال: إني أريد أن ترجع بإثمي، يعني: أن لا أبسط يدي إليك لترجع أنت بإثمي وإثمك، ولا يكون عليَّ من الإثم شيء. ويقال: معناه إني أريد أن تؤخذ بإثمي وإثمك. ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يعني: لكي لا تكون من أصحاب النار ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ يعني: تابعت له نفسه هواها على قتل أخيه ويقال: انقادت له طاعة نفسه. وقال قتادة: زينت له نفسه بقتل أ﴿فَقَتَلَهُ﴾ قال بعضهم: إنه كان لا يدري كيف يقتله، حتى جاء إبليس فتمثل عنده برجلين، فأخذ أحدهما حجراً ولم يزل يضرب الآخر حتى قتله، فتعلم ذلك منه. وقال بعضهم: بل كان يعرف ذلك بطبعه، لأن الإنسان وإن لم ير القتل، فإنه يعلم بطبعه أن النفس فانية، ويمكن إتلافها. فأخذ حجراً وقتله بأرض الهند، فلما رجع إلى آدم عليه السلام قال له: ما فعلت بهابيل؟ فقال له قابيل: أجعلتني رقيباً على هابيل؟ فذهب حيث شاء، فبات آدم تلك الليلة محزوناً، فلما أصبح قابيل رجع إلى الموضع الذي فيه هابيل، فرأى غراباً، وقال بعضهم: كان يحمله على عاتقه أياماً لا يدري ما يصنع به، حتى رأى غراباً ميتاً، فجاء غراب آخر فبحث التراب برجله ودفن الغراب الميت في التراب، فذلك قوله تعالى ﴿فقتله فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسرين﴾ يعني: فصار من المغبونين في العقوبة.

قوله تعالى: ﴿فبعث الله غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ﴾ وقابيل ينظر إليه. وقال القتبي: هذا من

Marfat.com

الاختصار، ومعناه: بعث غراباً يبحث التراب على غراب الميت ليواريه ﴿لِيُرِيَهُ كيف يُواري سَوْأَةَ أخِيهِ﴾ يعني: كيف يغطي عورة أخيه ﴿قال﴾ قابيل عند ذلك: ﴿يَا وَيْلَتَا أعَجَزْتُ﴾ يعني: أضعفت حيلتي ﴿أنْ أكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فأُوَارِيَ سَوْأَةَ أخِي﴾ يعني: فأغطي عورة أخي ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على حمله حيث لم يدفنه حين قتله. قال ابن عباس: «ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة منه». ويقال: إن آدم وحواء أتيا قبره وبكيا أياماً عليه، ثم إن قابيل كان على ذروة جبل، فنطحه ثور، فوقع على السفح وقد تفرَّقت عروقه وأعضاؤه. ويقال: دعا عليه آدم فانخسفت به الأرض. وقال مقاتل: كان قبل ذلك، السباع والطيور تستأنس بآدم. فلما قتل قابيل أخاه هربوا، فحلقت الطيور بالهواء، والوحوش بالبرية، والسباع بالغياض. وتزوج شيث عليه السلام بإقليما. وروى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأنَّهُ كان أوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْلَ**»(١). وقال بعضهم: هذه القصة كانت في بني إسرائيل، وهما أخوان قتل أحدهما الآخر، ولكن هذا خلاف قول المفسرين.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿مِنْ أجْلِ ذَلِكَ﴾ يعني: من أجل جناية ابن آدم حين قتل أخاه ﴿كتبنا﴾ يعني: فرضنا ﴿عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ﴾ وغلظنا وشددنا في التوراة ﴿أنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يعني: قتل نفساً بغير أن يقتل نفساً ﴿أو فَسَادٍ في الأرْضِ﴾ يعني: بغير فساد في الأرض، وهو الشرك بالله ﴿فَكَأنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ يعني: إذا قتل نفساً بغير جرم واستحل قتله، فكأنه قتل الناس جميعاً، يعني: إذا قتل نفساً فجزاؤه جهنم خالداً فيها.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أحْيَاهَا﴾ يعني: نجاها من غرق أو حرق أو يعفو عن القتل ﴿فَكَأنَّمَا أحيا النَّاسَ جَميعاً﴾ يعني: له من الأجر كأنما أحيا الناس جميعاً، لأن في حياة نفس واحدة يكون منفعة لجميع الناس، لأنه يدعو لجميع الخلق.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالبيان في الأمر والنهي ﴿ثُمَّ إنَّ كَثِيراً مِنهم بعد ذلك﴾ البيان ﴿في الأرضِ لمسرِفُون﴾ يعني: لمشركون تاركون لأمر الله تعالى.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ

(١) حديث ابن مسعود: أخرجه البخاري (٣٣٣٥) و(٦٨٦٧) و(٧٣٢١) ومسلم (١٦٧٧) (٢٧).

Marfat.com

يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزاءُ الذين يحاربون الله ورسولهُ﴾ إن للتأكيد، وما صلة، ﴿يحاربون الله ورسوله﴾ يعني: يخالفون الله ورسوله، ويتركون أمر الله وأمر رسوله مجاهرة وعياناً ﴿وَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فَسَاداً﴾ بالقتل وأخذ المال ﴿أن يُقَتَّلوا أوْ يُصَلَّبُوا﴾ قال مقاتل: نزلت هذه الآية في سبعة نفر من بني عرينة، قدموا المدينة فاجتووها. فقال النبي ﷺ: «لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى إِبِلِنَا وَأَصَبْتُمْ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا» ففعلوا، فصحوا، ثم مالوا على الرعاة فقتلوهم، وساروا بالإبل وارتدوا عن الإسلام، فأرسل النبي ﷺ في آثارهم علياً، فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم بالحرّة حتى ماتوا. وهذا قبل أن تنزل آية الحدود[1]. وروى أسباط عن السدي قال: نزلت في سودان عُرينة، فأراد النبي ﷺ أن يمثل بهم فنهاه الله تعالى عن ذلك، وأمره أن يقيم فيهم الحد الذي أنزل عليه. وقال سعيد بن جبير: إنه مثل بهم ثم نزل بعد ذلك: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله﴾ الآية. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «وادعَ رسولُ الله ﷺ أبا بردة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن أتاه من المسلمين فهو آمن، ومن أتى المسلمين منهم فهو آمن، فمر أناس من بني كنانة يريدون الإسلام، فمروا بأصحاب أبي بردة ولم يكن أبو بردة حاضراً يومئذٍ، فخرج أصحابه إليهم فقتلوهم، وأخذوا أموالهم فنزلت هذه الآية: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ الآية. ثم صارت الآية عامة في جميع الناس».

واختلف العلماء في حكمهم وهم قطاع الطريق، وهم ثلاثة أصناف: صنف يأخذ المال ولا يقتل، وصنف يأخذ المال ويقتل، وصنف يقتل ولا يأخذ المال. قال بعضهم: إذا وجد صنف من هذه الأصناف، فللإمام أن يقيم عليه أي عقوبات شاء، لأن الله تعالى قال: ﴿أن يقتلوا أو يصلبوا﴾ فقد خُيِّر في عقوبتهم، وهو قول الحسن وعطاء. وقال بعضهم: لكل صنف عقوبة على حدة، والاختيار عند أصحابنا رحمهم الله: أنه إن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإن قتل ولم يأخذ المال قتل، وإن قتل وأخذ المال قطع وقتل عند أبي حنيفة. وعند أبي يوسف ومحمد رحمهما الله: يقتل ولا يقطع. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: إن قَتَل قُتل، وإن قَتل وأخذ المال قطعَ ثم صلب. وروي عن ابن عباس نحو هذا. ويكون ﴿أو﴾

(١) عزاه السيوطي: ٣/٦٦ إلى عبد الرزاق والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة، وابن جرير وابن المنذر.

Marfat.com

بمعنى الواو، فكأنه قال: إن يُقتلوا ويُصلبوا ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ وقال بعضهم: يقتل ثم يصلب على وجه النكال والعبرة، وقال بعضهم: يصلب حياً ثم يطعن في ليته، ويخضخض حتى يموت.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: يطرد حتى لا يجد قراراً في موضع. ويقال: ﴿ينفوا من الأرض﴾ يعني: يحبس فينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها، فصار كأنه نفي عن الأرض. واحتج هذا القائل بقول بعض أهل السجن في ذلك:

خَرَجْنا من الدُّنيا وَنَحْنُ مِنَ اهلِها ... فَلَسْنا من الأمواتِ فيها ولاَ الأحيا

إذا جاءنَا السَّجَّان يَوْماً لِحَاجَةٍ ... عَجِبْنَا وقلنا جَاءَ هذا من الدُّنيا

ويقال: ينفى إلى دار الحرب. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني: ذلك القتل والقطع لهم عذاب وعقوبة في الدنيا، ولا يكون ذلك كفارة لذنوبهم إن لم يتوبوا ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أشد مما كان في الدنيا، وهو عذاب النار.

ثم استثنى فقال: ﴿إلاَّ الذينَ تابُوا من قَبْلِ أن تقدِرُوا عَلَيهِم﴾ يعني: رجعوا عن صنيعهم قبل أن يؤخذوا ويردوا المال، فلا يعاقبون في الدنيا ولا في الآخرة، ويغفر الله تعالى ذنوبهم وهو قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رحيم﴾ حين قبل توبتهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ يعني: احذروا المعاصي لكي تنجوا من عذاب الله تعالى. ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ يعني: اطلبوا القربة والفضيلة بالأعمال الصالحة ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ يعني: في طاعته. ويقال: جاهدوا العدو ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لكي تنجوا من العقوبة وتنالوا الثواب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ كَفَرُوا لو أَنَّ لَهُمْ ما في الأرضِ جميعاً ومِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا به من عذابِ يوم القيامةِ﴾ يقول: إن الكافر إذا عاين العذاب ثم تكون له الدنيا جميعاً ومثلها معها فيقدر على أن يفتدي بها من العذاب لافتدى بها، يقول الله تعالى: لو كان ذلك لهم ففعلوه ﴿ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ ذلك الفداء ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ أي: وجيع.

ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هم بخارجين منها﴾ وذلك أنهم يريدون أن يخرجوا من الأبواب، فتستقبلهم الملائكة، فيضربونهم بمقامع من حديد ويردونهم إليها

Marfat.com

﴿ولهم عذابٌ مُقِيمٌ﴾ يعني: دائم أبداً. وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: إن قوماً يخرجون من النار بعدما يدخلونها، قيل له: سبحان الله، أليس الله تعالى يقول: ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها﴾؟ فقال جابر: اقرؤوا إن شئتم أول الآية ﴿إن الذين كفروا﴾ يعني هذا: للكفار خاصة دون العاصين من المؤمنين.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ والسَّارِقَةُ﴾ بدأ بالرجل لأن السرقة في الرجال أكثر، وقال في الزنى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ [سورة النور: ٢] بدأ بالنساء، لأن الزنى في النساء أكثر، وهنَّ المفتنات للرجال ﴿فَاقطَعُوا أيدِيَهُمَا﴾. روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ: «فاقطعوا أيمانهما» وغيره قرأ «أيديهما»، واتفقوا أن المراد به: اليمين من الكرسوع الزند. نزلت الآية في «طعْمَة بن أبَيْرق»، ثم صارت الآية عامة في جميع السُّرَّاق.

وقال بعضهم: إذا سرق قليلاً أو كثيراً يجب القطع، واحتج لظاهر الآية. روى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَعَنَ الله السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ»(١). وروي عن ابن الزبير: «أنه قطع في نعل ثمنه درهم، وقال: لو سرق خيطاً لقطعته»، وقال بعضهم: «لا يقطع في أقل من ثلاثة دراهم، أو ربع دينار فصاعداً».

والاختيار عند علمائنا رحمهم الله: أن اليد لا تقطع في أقلَّ من عشرة دراهم، وبه جاءت الآثار عن النبي ﷺ، وعن أصحابه رضي الله عنهم. قرأ بعضهم: ﴿السارقَ والسارقةَ﴾ بالنصب، وكذلك قوله: ﴿الزانيةَ والزانيَ﴾ بالنصب، وإنما جعله نصباً لوقوع الفعل عليه، وهو شاذ من القراءة، والقراءة المعروفة بالرفع.

وروي عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: رفعه بالابتداء، لأن القصد ليس إلى واحد من السراق والزناة بعينه، إنما هو كقولك: من سرق فاقطعوا يده، ومن زنى فاجلدوه، ثم قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ يعني: عقوبة لهما بما سرقا، ﴿نَكَالاً﴾ يعني: عقوبة، ﴿مِنَ اللهِ﴾ جزاء. صار نصباً لأنه مفعول له يعني: بجزاء فعلهما، ثم قال: ﴿والله عَزِيزٌ﴾ حكم على السارق بقطع اليد.

ثم قال عز وجل: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وأصلح﴾ يعني: من بعد سرقته، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل ﴿فَإِنَّ الله يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ يتجاوز عنه، ﴿إِنَّ الله غَفُورٌ﴾ لما سلف من ذنبه، ﴿رَحِيمٌ﴾ به بعد التوبة، يعني: إذا تاب ورد المال لا تقطع يده.

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٦٧٩٩) ومسلم (١٦٨٧) وأحمد ٢/ ٢٥٣ والنسائي ٨/ ٦٥ والبيهقي ٨/ ٢٥٣.

Marfat.com

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

ثمّ قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ﴾ يعني: خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض النبات. ويقال: ﴿له ملك السموات والأرض﴾ يحكم فيها ما يشاء، ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إذا أصرّ على ذنوبه، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ إذا تاب ورجع، ومعناه: أن السارق إذا تاب، ورد المال لا يقطع ويتجاوز عنه، وإن لم يتب قطعت يده. ألا ترى أن الله تعالى قال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ﴾ إذا لم يتب، ويتجاوز إذا تاب، فافعلوا أنتم مثل ذلك، لأن الله تعالى مع قدرته يتجاوز عن عباده، وهو قوله: ﴿والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المغفرة والعذاب.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الكُفرِ﴾ نزلت في شأن أبي لبابة بن عبد المنذر، وذلك أن النبي ﷺ لما حاصر بني قريظة فأشار إليهم أبو لبابة، وكان حليفاً لهم: إنكم إن نزلتم من حصونكم قتلكم فلا تنزلوا، فنزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ أي يبادرون ويقعون في الكفر، ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: يقولون ذلك بألسنتهم ﴿وَلَمْ تُؤمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ في السر. وقال الضحاك: نزلت الآية في شأن المنافقين، كانت علانيتهم تصديقاً، وسرائرهم تكذيباً.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يعني: قوالون للكذب، وقال القتبي: ﴿سَمَّاعُونَ﴾ أي: قابلون للكذب، لأن الرجل يسمع الحق والباطل، ولكن يقال: لا تسمع من فلان أي: لا تقبل، ومعنى آخر: إنهم يسمعون منك ليكذبوا عليك، لأنهم إنما جالسوه لكي يقولوا: سمعنا منه كذا وكذا، وإنما صار ﴿سماعون﴾ رفعاً لأن معناه: هم ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ يعني: أهل خيبر. وذلك أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا فكرهوا رجمهما، فكتبوا إلى يهود بني قريظة أن يذهبوا بهما إلى رسول الله ﷺ: فإن حكم بالجلد رضوا عنه بحكمه، وإن حكم بالرجم لم يقبلوا منه. وروى نافع عن ابن عمر: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وذكروا له أن رجلاً وامرأة زنيا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟». فقالوا: يحمّمان ويجلدان، يعني: تُسَوَّدُ وجوههما. فقال عبد الله بن سلام: كذبتم

Marfat.com

٤١٤

إن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة. فأتوا بها فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، وقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم. فقالوا: صدق عبد الله بن سلام، يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. قال ابن عمر: فرأيت الرجل يحنو على المرأة يقيها من الحجارة[1].

وروى الشعبي عن جابر بن عبد الله أنه قال: زنى رجل من أهل فَدَك، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن يسألوا محمداً ﷺ عن ذلك، فإن أمركم بالجلد فخذوه، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه، فسألوه، فدعا بابن صوريا وكان عالمهم، وكان أعور، فقال له رسول الله ﷺ: **«أنشدُكَ الله كَيفَ تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُم»**؟. فقال ابن صوريا: فأما إذا ناشدتني بالله، فإنا نجد في التوراة أن النظر زنية، والاعتناق زنية؛ والقبلة زنية، فإن شهد أربعة بأنهم رأوه كالميل في المكحلة فقد وجب الرجم. فقال النبي ﷺ: **«هُوَ ذاكَ»**[2].

وروي عن أبي هريرة قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، إذ جاء رجال من اليهود، وقد تشاوروا في صاحب لهم زنى بعدما أحصن، قالوا: فانطلقوا فلنسأل هذا النبي ﷺ، فإن أفتانا بفتوى فيها تخفيف، فاحتججنا عند الله تعالى بها، وإن أفتانا بما فُرض علينا في التوراة من الرجم تركنا ذلك. فقد تركنا ذلك في التوراة وهي أحق أن تطاع، فقالوا: يا أبا القاسم إنه زنى صاحبٌ لنا قد أحصن، فما ترى عليه من العقوبة؟. فقام رسول الله ﷺ، وقمنا معه، حتى أتى بيت مدارس اليهود، فوجدهم يتدارسون التوراة فقال لهم **«يا مَعْشَرَ اليَهُودِ، أَنْشُدُكُمُ الله الذي أَنزَلَ التَّورَاةَ عَلَى مُوسَى عَلَيهِ السَّلامَ مَا تَجِدُونَ فِي التَّورَاةِ مِنَ العُقُوبَةِ عَلَى مَنْ زَنَى وَقَد أَحْصَنَ»**؟. فقالوا: إنا نجد أن يجلد ويحمَّم، وسكت حبرهم وهو في جانب البيت؛ فأقبل النبي ﷺ ينشده، فقال له حبرهم: إذا ناشدتنا فإنا نجد عليه الرجم، فقال رسول الله ﷺ: **«كَا[ن] أَوَّلَ مَا تَرَخَّصْتُمْ بِهِ أَمرَ اللهِ تَعَالَى»**؟، فقال: إنه قد زنى رجل قد أحصن، وهو ذو قرابة لملك من ملوكنا فسجنه، وأُخِّر عنه الحد، وزنى رجل آخر، فأراد الملك رجمه، فجاء قومه وقالوا: لا ترجمه حتى تُرجم فلاناً، فاصطلحوا بينهم على عقوبة دون الرجم، فقال النبي ﷺ: **«فَإنّي أَقْضِي بَيْنَكُم بِمَا فِي التَّوْرَاةِ»**[3]، فنزل قوله تعالى: ﴿ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعو[ن] لقوم آخرين﴾ ﴿لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾. قال الزجاج: يعني: من بعد أ[ن] وضعه الله تعالى مواضعه، وأحل حلاله وحرم حرامه.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يعني: إن أمركم بالجلد فاقبلوه واعملوا به، ﴿وَإِن لَّ[م]

---

(١) حديث ابن عمر: أخرجه مالك ٨١٩/٢ والبخاري (٣٦٣٥) و(٦٨٤١) ومسلم (١٦٩٩) (٢٧).

(٢) عزاه السيوطي: ٧٨/٣ إلى الحميدي وأبي داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه.

(٣) عزاه السيوطي: ٧٨/٣ إلى ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي، وأحمد وابن أبي حاتم.

Marfat.com

تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ يقولون: إن لم يوافقكم على ما تطلبون، ويأمركم بالرجم فلا تقبلوا منه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ﴾ يعني: كفره وشركه، ويقال: فضيحته، ويقال: اختباره، ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً﴾ يقول: لن تقدر أن تمنعه من عذاب الله شيئاً.

ثم قال: ﴿أولئِكَ الذينَ لَمْ يُرِدِ الله أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر، ولم يرد أن يدخل حلاوة الإيمان في قلوبهم، وخذلهم مجازاة لكفرهم، ثمّ قال: ﴿لَهُمْ في الدُّنيا خِزْيٌ﴾ يعني: القتل، والسبي، والجزية، وهو قتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، ﴿وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عظيمٌ﴾ أعظم مما كان في الدنيا.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾

ثمّ قال تعالى: ﴿سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: قوّالون للكذب ﴿أكّالُونَ للسُّحتِ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي ﴿للسُّحُتِ﴾ بضم الحاء، وقرأ الباقون ﴿للسُّحْت﴾ بجزم الحاء، وهما لغتان السُّحُت والسُّحْت، وهو الاستئصال. يقال: أسحته وسَحَتَهُ، إذا استأصله، وكانوا يأكلون الرِّشا، وكان عاقبته الاستئصال، فسماه به كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠] أي: يأكلون ما عاقبتهم ناراً. وقال النبي ﷺ: «كُلّ لَحْم نَبَتَ بِالسُّحْتِ فَالنَّارُ أوْلَى بِهِ»، قالوا يا رسول الله وما السحت؟ قال: «الرِّشْوَةُ فِي الحُكْمِ». وقال عليه السلام: «لَعَنَ الله الرَّاشِي وَالمُرْتَشِي». وروي عن وهب بن منبه، أنه قيل له: الرشوة حرام في كل شيء؟. فقال: «لا، إنما يكره من الرشوة أن ترشوَ لتعطي ما ليس لك، أو تدفع حقاً قد لزمك. فأما أن ترشوَ لتدفع عن دينك ودمك ومالك، فليس بحرام». قال الفقيه أبو الليث: وبهذا القول نأخذ، لا بأس بأن يدفع الرجل عن نفسه وماله بالرشوة، وهذا كما روي عن عبد الله بن مسعود، أنه كان بالحبشة فرشى بدينارين، وقال: «إنما الإثم على القابض دون الدافع».

ثم قال تعالى: ﴿فَإنْ جاءوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أوْ أعرِضْ عَنهُمْ﴾، يعني: أهل الكتاب إذا خاصموا إليك فأنت بالخيار: إن شئت فاحكم بينهم، وإن شئت فأعرض عنهم، ولا تحكم بينهم.

ثم قال: ﴿وَإنْ تُعْرِضْ عَنهُمْ فَلَنْ يَضرُّوكَ شَيْئاً﴾ يعني: إنْ لم تحكم بينهم فإنهم لا يضرُّونك شيئاً ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ يعني: بالعدل، وهو الرجم، ولها وجه آخر: أن الصلح كان بينهم أن تكون جراحات بني قريظة نصفاً من جراحات بني النضير، وفي القتل كذلك، فأمر الله تعالى بأن يحكم بينهم بالعدل، وهو قوله عز وجل: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنَّ الله يُحِبُّ المُقْسِطينَ﴾ يعني: العادلين في الحكم. وروي عن عكرمة أنه

Marfat.com

قال: ﴿فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ نسختها آية أخرى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وقال مجاهد: لم ينسخ من المائدة إلا آيتان قوله: ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ نسختها ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وقوله: ﴿ولا تحلوا شعائر الله﴾ نسختها ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقال الزهري: مضت السنة أن يرد أهل الكتاب في حقوقهم ومواريثهم إلى أهل دينهم، إلا أن يأتوا راغبين حكم الله تعالى، فيحكم بينهم بكتاب الله تعالى، وهذا القول يوافق قول أبي حنيفة رضي الله عنه: أن لا يحكم بينهم ما لم يتراضوا بحكمنا.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وكَيفَ يُحَكِّمُونَكَ وعندهم التوراة﴾ يعني: كيف يرضون بحكمك، ويقال: كيف يقرّون بحكمك، ﴿وَعندَهُمُ التَّوْرَاةُ فيها حُكْمُ الله﴾ يعني: آية الرجم، وحكم الجراحات فلم يقرُوا بها، ولم يعملوا بها. ﴿ثُم يَتَولَّونَ مِنَ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني: يعرضون عن العمل به من بعد ما بيّن الله في كتابهم ثم قال: ﴿وَمَا أولَئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ليسوا بمصدقين بما عندهم، وهم يقولون: نحن نؤمن بالتوراة وهم كاذبون.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلنَا التَّوْرَاةَ فيها هُدًى﴾ من الضلالة، ﴿ونُورٌ﴾ يعني: بيان الشرائع والأحكام. يعني: حكم الرجم والجراحات، ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذينَ أَسْلَمُوا﴾ يعني: يقضي بها النبيون الذين صدقوا بالتوراة من لدن موسى عليه السلام إلى عيسى عليه السلام، وبينهما ألف نبي، ويقال: أربعة آلاف نبي. ويقال: أكثر من ذلك عليهم السلام، كانوا يحكمون بما في التوراة. ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني: كانوا يحكمون لهم وعليهم. ويقال: يحكم بها الأنبياء من لدن موسى إلى محمد عليهما الصلاة والسلام؛ ولهذا قضى رسول الله ﷺ بالرجم بحكم التوراة.

ثم قال تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ﴾ قال بعضهم: ﴿الربانيون﴾ العلماء، ﴿والأحبار﴾ القراء، ويقال: ﴿الربانيون﴾ الذين في العمل أكثر، وفي العلم أقل، ﴿والأحبار﴾: الذين في العلم أكثر وفي العمل أقل، مثل الفقهاء والعباد. ويقال: كالفقهاء والعلماء، وقال القتبي: كلاهما واحد وهما العلماء، ﴿بِمَا اسْتُحفِظُوا من كِتَابِ الله﴾ يعني: عُلّموا واستُودعوا من كتاب الله التوراة، ﴿وَكَانُوا عَلَيهِ شُهَدَاءَ﴾ بما في كتاب الله الرجم، وسائر الأحكام.

Marfat.com

ثم قال: ﴿فَلاَ تَخْشَوا النَّاسَ﴾ يعني: يهود أهل المدينة، لا تخشوا يهود خيبر، وأخبروهم بآية الرجم، ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ في كتمانه، ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتي ثَمناً قَليلاً﴾ يعني: عرضاً يسيراً.

ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أنزلَ الله﴾ يعني: إذا لم يقرُّوا، ولم يبيِّنوا، ﴿فأولئك هُمُ الكَافِرُونَ﴾ قال ابن عباس: «من يجحد شيئاً من حدود الله فقد كفر، ومن أقر ولم يحكم بها فهو فاسق». روى وكيع عن سفيان قال: قيل لحذيفة: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾، نزلت في بني إسرائيل: فقال حذيفة: «نعم الأخوة لكم، وبنو إسرائيل كانت لكم كل حلوة، ولهم مرة. لتسلكن طريقهم قدر الشراك». يعني: هذه الآية عامة فمن جحد حكم الله فهو من الكافرين.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٤٧)﴾

ثم بيّن الحكم الذي في التوراة فقال عز وجل: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيهِمْ فِيهَا﴾ يعني: فرضنا على بني إسرائيل في التوراة ﴿أنَّ النَّفسَ بالنَّفسِ﴾ إذا كان القتل عمداً، ﴿والعَينَ بالعَينِ﴾ إذا كان عمداً، ﴿والأنفَ بالأنفِ﴾ إذا كان عمداً، ﴿والأذنَ بالأذنِ﴾ إذا كان عمداً، ﴿والسِّنَّ بالسِّنِّ﴾ إذا كان عمداً، ﴿والجروحَ قصاصٌ﴾ إذا كان عمداً. وروى عكرمة عن ابن عباس: «أن بني النضير كان لهم شرف على بني قريظة، وكانت جراحاتهم على النصف، فحملهم على الحق، وجعل دم القرظي والنضيري سواء». فقال كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف: «لا نرضى بحكمك، لأنك تريد أن تصغّرنا بعداوتك»، فنزل ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. ثم صارت الآية عامة في جميع الناس في وجوب القصاص في النفس، وفي الجراحات.

قرأ عاصم وحمزة ونافع ﴿أن النفس بالنفس والعين بالعين﴾ والحروف الست كلها بالنصب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر كلها بالنصب، غير الجروح فإنهم يقرؤونها بالضم على معنى الابتداء. وقرأ الكسائي كلها بالضم إلا النفس.

ثم قال: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: عفا عن مظلمته في الدنيا، وترك القصاص، ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال القتبي: فهو كفارة للجارح وأجر للمجروح. وقال مجاهد: كفارة للجارح، وأجر للعافي. وقال بعضهم: هو كفارة للعافي، أي يكفر الله تعالى عنه بعفوه ما سلف من ذنوبه. ويقال: ﴿كفارة له﴾ أي للجارح، يعني: إذا ترك الولي حقه، يسقط القصاص عن الجارح.

Marfat.com

وروى محرز، عن أبي هريرة، عن رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُصِيبَ بِشَيْءٍ فِي جَسَدِهِ فَتَرَكَهُ لله تَعَالَى، كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ»[1]. وقال الحسن: «ينادي منادٍ يوم القيامة: من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا من قد عفا».

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: يظلمون أنفسهم. والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. فالذي عرض نفسه للعقوبة، فقد وضع الشيء في غير موضعه.

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ﴾ يعني: اتبعنا على أثر الرسل عيسى ابن مريم عليهم السلام، ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: موافقاً لما قبله، ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ يقال: إن عيسى مصدِّق التوراة.

ثم قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ من الضلالة، ﴿وَنُورٌ﴾ يعني: بيان الأحكام، ﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾، يعني: الإنجيل موافقاً للتوراة في التوحيد، وفي بعض الشرائع، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك، والفواحش.

ثم قال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنْجِيلِ﴾ قرأ حمزة ﴿وليحكمَ﴾ بكسر اللام ونصب الميم، وقرأ الباقون بالجزم، فمن قرأ بالكسر، فمعناه: وآتيناه الإنجيل، لكي يحكم أهل الإنجيل ﴿بِمَا أَنْزَلَ الله فِيهِ﴾ ومن قرأ بالجزم فهو على الأمر، والمراد به: الخبر عن أمر سبق لهم، يعني: أمرهم الله تعالى أن يحكموا بما في الإنجيل.

ثم قال: ﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُم بما أنزل الله﴾ يعني: في الإنجيل وكان حكمهم العفو، ﴿فأولئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ يعني: العاصين.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ﴾ يعني: أنزلنا إليك يا محمد الكتاب

(١) عزاه السيوطي ٣/٩٢ إلى ابن مردويه.

Marfat.com

﴿بالحق﴾، يعني: ببيان الحق. ويقال: بالعرض والحجة، ولم ينزله بغير شيء، ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ﴾ يعني: موافقاً للتوراة والإنجيل والزبور في التوحيد وفي بعض الشرائع.

ثم قال: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ يقول: شاهداً على سائر الكتب، بأن الكتب الأول من الله تعالى ويقال: ﴿مهيمناً عليه﴾ يعني: قاضياً عليه، ويقال: ناسخاً لسائر الكتب.

وروي عن ابن عباس أنه قال: «مؤتمناً على ما قبله». وقال القتبي: أميناً عليه. ويقال: ﴿ومهيمناً عليه﴾، في معنى مؤتمن، إلا أن الهاء أبدلت من الهمزة كما يقال: هَرَقْتُ الماء، وأرَقْتُه، وإياك، وهياك.

ثم قال: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ يعني: فاحكم بين الناس بما أنزل الله تعالى في القرآن، ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني: لا تعمل بأهوائهم ومرادهم، ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ﴾ يعني: لا تترك الحكم بما بيَّن الله تعالى في القرآن من بيان الحق الأحكام.

ثم قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ يقول: جعلنا لكل نبي شريعة، والإيمان واحد، ولم يختلف الرسل في الإيمان، وإنما اختلفوا في الشرائع. قال القتبي: الشرعة والشريعة واحد، يعني: السنة والمنهاج الطريق الواضح. وقال الزجاج: الشرعة الدين، والمنهاج الطريق، وقد قيل: هما شيء واحد، وهو الطريق، ويقال: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ معناه: فرضتُ على كل أمة ما علمتُ أن صلاحهم فيه.

ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: لجعلكم على شريعة واحدة، ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ يعني: ليختبركم، ﴿فيما آتاكم﴾ يعني: أمركم من السنن والشرائع المختلفة، ليتبين من يطيع الله فيما أمره ونهاه، ومن يعصيه.

ثم قال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ يعني: بادروا بالطاعات، والأعمال الصالحة، وإلى الصف المقدم، والتكبيرة الأولى.

ثم قال: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فيه تَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين والسنن يوم القيامة، فهذا وعيد وتهديد يعني: لتستبقوا الخيرات، ولا تتبعوا البدعة، ولا تخالفوا الكتاب.

ثم قال: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ وذلك أن يهود بني النضير قالوا فيما بينهم: اذهبوا بنا إلى محمد ﷺ لعلنا نفتنه عن دينه. وإنما هو بشر. فأتَوْه، فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم، وأنَّا إن اتبعناك اتبعك اليهود، ولن يخالفونا، وإنَّ بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، فنؤمن بك، فأبى النبي ﷺ ذلك. فنزلت هذه الآية ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ يعني: اقضِ بينهم بما في القرآن، ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أهواءهم﴾ في الحكم، ﴿واحذرهم أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ يعني: يصرفوك، ﴿عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.

وقال في رواية الضحاك: تزوج مجوسي ابنته، فجاءت إلى النبي ﷺ وطلبت نفقتها، فأمر

Marfat.com

الله تعالى رسوله أن يفرق بينهما بقوله: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾. وقال في رواية الكلبي: طلبوا منه بأن يحكم بينهم في الدماء على ما كانوا عليه في الجاهلية فنزل ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك﴾. قال القتبي: أصل الفتنة الاختبار، ثم يستعمل في أشياء، نستعمل في التعذيب كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠]، وكقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] وتكون الفتنة الشرك، كقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] وتكون الفتنة العبرة، كقوله: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] وتكون الفتنة الصد عن سبيل الله، كقوله: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾.

ثم قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: أبوا أن يرضوا بحكمك، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ الله أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني: يعذبهم في الدنيا. قال الكلبي: يعني: بالجلاء إلى الشام، والإخراج من دورهم. وقال الضحاك: يعني: يريد الله أن يأمر بهم إلى النار بذنوبهم.

ثم قال ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ يعني: رؤساء اليهود، ﴿لَفَاسِقُونَ﴾ يعني: لكافرون، والفاسق هو الذي يخرج عن الطاعة.

ثم قال: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يعني: يطلبون منك شيئاً لم ينزله الله إليك في حكم الزنى والقصاص كما يفعل أهل الجاهلية. قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام ﴿تبغون﴾ على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً﴾ يقول: ومن أعدل من الله قضاء، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بالقرآن.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِيَاءَ﴾ في العون والنصرة، وذلك أنه لما كانت وقعة أحد، خاف أناس من المسلمين أن يظهر عليهم الكفار، فأراد من كانت بينه وبين النصارى واليهود صحبة أن يتولوهم ويعاقدوهم. فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ يعني: معيناً وناصراً، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني: بعضهم

Marfat.com

على دين بعض، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ يعني: من اتخذ منهم أولياء، ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ يعني: على دينهم ومعهم في النار.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: لا يرشدهم إلى الحجة. ويقال لا يرشدهم ما لم يجتهدوا، أو يقصدوا الإسلام.

ثم بيّن حال المنافقين. فقال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: شرك ونفاق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ يقول: يبادرون في معاونتهم ومعاقدتهم وولايتهم، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ يعني: ظهور المشركين. ويقال: شدة وجدوبة فاحتجنا إليهم. ويقال: نخشى الدائرة على المسلمين، فلا نقطع عنهم.

قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ يعني: نصر محمد ﷺ الذي أيسوا منه ﴿أو أمر من عنده﴾ يعني: من قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير. ويقال: الفتح أي: فتح مكة ﴿أو أمر من عنده﴾ يعني: الخصب. وقال القتبي: الفتح أن يفتح المغلق، لأن النصرة يفتح الله بها أمراً مغلقاً، كقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٤١] وكقوله ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾ يعني: إظهار نفاقهم، ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من النفاق، ﴿نَادِمِينَ﴾ لأن المنافقين لما رأوا من أمر بني قريظة والنضير ندموا على ما قالوا.

ثم قال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: في ذلك الوقت الذي يظهر نفاقهم، ﴿هؤلاء الذين أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يقول: إذا حلفوا بالله فهو جهد اليمين ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ على دينكم.

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ﴿يقول الذين آمنوا﴾ بغير واو، ومعناه: إن الله تعالى لما بيّن حال المنافقين، بيّن على أثره حال المؤمنين. فقال: ﴿يقول الذين آمنوا﴾ يعني: قال الذين آمنوا بعضهم لبعض. وقرأ أهل الكوفة حمزة وعاصم والكسائي: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ بالواو وضم اللام ومعناه: عسى الله أن يأتي بالفتح، ويندم المنافقون، ويقول الذين آمنوا عند ذلك ﴿هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ وقرأ أبو عمرو ﴿ويقول﴾ بالواو ونصب اللام، عطفاً على قوله: ﴿عسى الله أن يأتي بالفتح﴾ وعسى أن يقول الذين آمنوا.

ثم قال: ﴿حبطت﴾ يعني: بطلت ﴿أعمالهم﴾ يعني: المنافقين الذين كانوا يحلفون أنهم مع المؤمنين وعلى دينهم، ولم يكونوا معهم ﴿حبطت أعمالهم﴾ فلا ثواب لهم في الآخرة ﴿فأصبحوا خاسرين﴾ يعني: صاروا خاسرين في الدنيا وفي الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ قرأ نافع وابن عامر بالدالين،

Marfat.com

وقرأ الباقون بالدال الواحدة مع التشديد. فأما من قرأ ﴿يرتدد﴾، فهو الأصل في اللغة، وروي عن أبي عبيدة أنه قال: رأيت في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، بالدالين. وأما من قرأ ﴿يرتد﴾ لأنه أدغم الدال الأولى في الثانية، فأسكن الأولى، ثم حرّك الثانية إلى النصب لالتقاء الساكنين.

قال ابن عباس: «نزلت هذه الآية في شأن أهل الردة الذين ارتدوا على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أن العرب ارتدوا وقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله ونشهدُ أن محمداً رسول الله ﷺ، فأما أن نعطي من أموالنا بعد رسول الله ﷺ فلا». ثمّ خرج مسيلمة الكذاب فغلب على اليمامة، وامتنعوا، فشاور أبو بكر رضي الله عنه أصحاب النبي ﷺ في قتالهم، فقال أصحاب النبي ﷺ: كيف نقاتل قوماً، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وقد قال النبي ﷺ: **«أمِرتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ، حَتَّى يَقولُوا لا إلَهَ إلاّ الله، فَإذا قَالُوها عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلاّ بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله تَعَالى»**، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: الزكاة من حقها. ثم قال: «والله لو منعوني عقالاً مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم عليه»[1]. فاتفقت الصحابة على قول أبي بكر، وجمعوا العسكر، وجاءهم من قبل اليمن سبعة آلاف رجل، واجتمع ثلاثة آلاف من أفتى الناس، فخرجوا وأميرهم خالد بن الوليد، وقاتلهم، وخرج مسيلمة الكذاب مع أهل اليمامة، واجتمع الأعراب معه، وكان بينهم قتال شديد، فقتل يومئذٍ من المسلمين مائة وأربعون رجلاً ومنهم: ثابت بن قيس بن شماس، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهما، فكاد المسلمون أن ينهزموا كلهم حتى نصرهم الله، وأظهرهم على أعدائه، وقُتل مسيلمة الكذاب وأصحابه، وتاب أهل الردة، فذلك قوله: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾** يعني: يحبون الله **﴿أذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾** يعني: رحيمة ليّنة على المؤمنين **﴿أعِزَّةٍ﴾** يقول: شديدة غليظة ﴿على الكافرين﴾ يعني: أهل اليمن.

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أتَاكُمْ أهْلُ اليَمَنِ هُمْ ألْيَنُ قُلُوباً، وَأرَقُّ أفْئِدَةً، الإيمانُ يَمانٍ، وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ»**[2]. وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ يعني: «بجندٍ من جنود الله، مدداً وعوناً للخليفة أبي بكر، يحبهم الله كحب الوالد لولده، ويحبونه كحب الولد لوالده، ﴿أذلة على المؤمنين﴾ كالعبد لسيده، و﴿أعزة على

---

(١) حديث ابن عمر أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢) والبغوي (٣٣). وهو من حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (١٣٩٩) و(٦٩٢٤) و(٧٢٨٤) أخرجه مسلم (٢١) (٣٤) (٣٣) وأبو داود (٢٦٤٠) والنسائي ٦/ ٧٠٦ وأحمد ٢/ ٣١٤، ٥٢٨ والترمذي (٢٦٠٧). وهو من حديث أنس عند البخاري (٣٩٢) (٣٩٣) وأحمد: ٣/ ١٩٩ والترمذي (٢٦٠٨) وأبو داود ٢٦٤.

(٢) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٤٣٨٨) ومسلم (٥٢) (٩١) وأحمد: ٢/ ٢٥٢.

Marfat.com

الكافرين﴾ كالسبع على فريسته. ويقال: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ هو أبو بكر وأصحابه، وقال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه. وقال الضحاك: هو أبو بكر وأصحابه، لما ارتدت العرب جاهدهم حتى ردهم إلى الإسلام، وهذا من كرامة أبي بكر، حيث اتفقت الصحابة على رأيه. وذلك أنه لما قبض النبي ﷺ، همَّ المنافقون أن يُظهروا كفرهم، وتحير أصحاب النبي ﷺ عند ذلك، حتى جاء عمر وصعد المنبر فقال: «من قال إن محمداً قد مات فأنا أفعل به كذا وكذا، بل هو حي حتى يخرج إليكم. وقد وعدنا الله تعالى أن يظهره على الدين كله. فجاء أبو بكر، فقال له: «انزل يا عمر»، فصعد أبو بكر، فقال: «من كان يعبد محمداً، فأنّ محمداً فقد مات ومن كان يعبد الله تعالى فإنّ الله حي لا يموت، ومن أراد أن يرجع عن دينه فليس بيننا وبينه إلا السيف». وفي رواية: «من كان يعبد ربّ محمد، فإنه حي لا يموت والسيف الذي أظهر الله به دينه بعث على عواتقنا، ومن شاء أن يبرز فليبرزه وقال ابن مسعود: كنّا مثل الثعالب، قال أبو بكر: إنّ كل واحدٍ منا كالأسد، فلما سمع المنافقون ذلك كتموا نفاقهم وقرأ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقرأ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فقال عمر: «كأني لم أكن سمعت هذه الآية». ثم اختلاف آخر: كان في دفنه، فقال أبو بكر: «يدفن حيث مات» فاتفقوا على قوله. ثم اختلاف آخر: كان في سقيفة بني ساعدة في أمر الخلافة، فاتفقوا على قوله، ثم اختلاف أهل الردة، وكلهم اتفقوا على قوله. فذلك قوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ يعني: في طاعة الله عز وجل: ﴿وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ يعني: لا يخافون ملامة الناس بما يعملون من الطاعات ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ﴾ يعني: ذلك توفيق الله ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يوفق به من يشاء. ويقال: ذلك دين الله الإسلام يهدي به من يشاء ﴿واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: ﴿واسع﴾ الفضل، ﴿عليم﴾ بمن يصلح للهدى.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ وذلك أن عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا للنبي ﷺ: إن اليهود أظهروا لنا العداوة، وحلفوا أن لا يخالطونا في شيء، ومنازلنا فيهم بعيدة من المسجد، ولا نجد مسجداً دون هذا المسجد، فنزلت هذه الآية ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾ يقول: حافظكم وناصركم الله ورسوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فقالوا: يا رسول الله رضينا بالله ورسوله، وبالمؤمنين. وقال الضحاك: إن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة، أتاه بنو أسد بن خزيمة، وهم سبعمائة رجالهم ونساؤهم. فلما قدموا المدينة. فقالوا: يا رسول الله اغتربنا وانقطعنا عن قبائلنا وعشائرنا فمن ينصرنا؟ فنزل ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن بلالاً لما

Marfat.com

أذن، وخرج رسول الله ﷺ، والناس في المسجد يصلون بين قائم وراكع وساجد، فإذا هو بمسكين يسأل الناس، فدعاه رسول الله ﷺ وقال: «هَلْ أَعْطَاكَ أَحَدٌ شَيْئاً؟» قال: نعم. قال: «مَاذَا»؟ قال: خاتم فضة. قال: «وَمَنْ أَعْطَاكَ؟». قال: ذلك المصلي. قال: «فِي أَيِّ حَالٍ أَعْطَاكَ»؟ قال: أعطاني وهو راكع. فنظر، فإذا هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقرأ رسول الله ﷺ على «عبد الله بن سلام» ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وَهُمْ رٰكِعُونَ﴾[(١)] يعني: يتصدقون في حال ركوعهم حيث أشار عليّ بخاتمه إلى المسكين حتى نزع من أصبعه، وهو في ركوعه. ويقال: يراد به جميع المسلمين: أنهم يصلون ويؤدون الزكاة.

ثم قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: يجعل الله ناصره ويجالس النبي ﷺ وأصحابه ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ﴾ يعني: جند الله ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾. قال محمد بن إسحاق: نزلت هذه الآية في «عبادة بن الصامت»، حين تبرأ من ولاية اليهود يعني: يهود بني قينقاع، وتولى الله ورسوله، فأخبر الله تعالى أن العاقبة لمن يتولى الله ورسوله، ﴿والذين آمنوا﴾ فإن الله ينصر أولياءه، ويبطل كيد الكافرين، فذلك قوله تعالى: ﴿فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾ يعني: هم القاهرون الظاهرون على أعدائه والعاقبة لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً﴾ يعني: الذين آمنوا بلسانهم، ولم يؤمنوا بقلوبهم. ويقال: أراد به المخلصين، نهاهم الله تعالى عن ولاية الكفار. وروى محمد بن إسحاق بإسناده، عن عبد الله بن عباس قال: «كان رفاعة بن زيد بن ثابت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فأنزل الله تعالى ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم﴾ الإسلام ﴿هزواً ولعباً﴾ يعني: سخرية وباطلاً ﴿من الَّذِين أُوتوا الْكتاب من قَبْلِكُمْ والكُفَّار﴾ يعني: مشركي العرب ﴿أولياء﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي ﴿والكفارِ﴾ بالخفض، وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالخفض فمعناه: من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الكفار أولياء. ومن قرأ بالنصب، فهو معطوف على قوله: ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم ولا تتخذوا الكفار أولياء﴾.

ثم قال: ﴿واتَّقوا الله إنْ كُنْتُم مُؤمِنين﴾ يعني: إن كنتم مؤمنين فلا تتخذوا الكفار أولياء.

---

(١) عزاه السيوطي ٣/ ١٠٥ إلى ابن مردويه.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ يعني: إذا أذن المؤذن للصلاة، وإنما أضاف النداء إلى جميع المسلمين، لأن المؤذن يؤذن لهم ويناديهم، فأضاف إليهم فقال: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة﴾ ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾ يعني: الكفار، إذا سمعوا الأذان استهزؤوا به. وإذا رأوهم ركعاً وسجداً ضحكوا واستهزؤوا بذلك. ﴿ذَلِكَ﴾ الاستهزاء ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: لا يعلمون ثوابه. وقال الضحاك: سأل النبي ﷺ جبريل عليه السلام، وقال: «من أتخذه مؤذناً؟». قال: «يا محمد عليك بالعبد الأسود، فإنه مشهور في الملائكة، وهو جهير الصوت، وأحب المؤذنين إلى الله تعالى». فدعا رسول الله ﷺ بلالاً، وعلمه الأذان، وأمره أن يصعد سطح المسجد ويؤذن. فلما أذن سخر منه أهل النفاق وأهل الشرك، وكذلك يوم فتح مكة، أمر رسول الله ﷺ أن يؤذن على ظهر الكعبة، فسخر منه كفار الأعراب وجهالهم، فنزل: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ يعني: المنافقين، واليهود، ومشركي العرب.

وروى أسباط عن السدي قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الله الكذاب. فدخلت خادمته ليلة من الليالي بنار وهم نيام، فسقطت شرارة في البيت فاحترق البيت، واحترق هو وأهله، واستجيب دعاؤه في نفسه. وروي عن ابن عباس هذه الحكاية نحو هذا، إلا أنه ذكر اليهودي.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾ يقول: هل تطعنون فينا وتعيبوننا، ﴿إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي سوى أنا قد آمنا بالله وآمنا بـ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني: من القرآن، ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: قبل القرآن، يعني: التوراة والإنجيل، ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: لم تؤمنوا لفسقكم وعصيانكم. وقال الزجاج: معناه ﴿هل تنقمون منا﴾ هل تكرهون منا إلا ايماننا، وبفسقكم إنما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنا على الحق، لأنكم فسقتم، ولم تثبتوا على دينكم لمحبتكم الرئاسة، ومحبتكم المال.

قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ قال مقاتل: وذلك أن اليهود قالوا للمؤمنين: ما نعلم أحداً من أهل هذه الأديان أقلّ حظاً في الدنيا ولا في الآخرة منكم، فنزل قوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم﴾ يعني: أخبركم بشر من ذلك ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللهِ﴾ يعني: ثواباً عند الله، فقالت اليهود: من هم؟ قال: ﴿مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فقال المسلمون

Marfat.com

لليهود: يا إخوة القردة والخنازير. فنكسوا رؤوسهم وخجلوا. ﴿ومثوبة﴾ صار نصباً للتمييز يعني: التفسير.

ثم قال: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قرأ حمزة ﴿وَعَبُدَ الطاغوتِ﴾ بنصب العين والدال وضم الباء، وكسر التاء، من الطاغوت، يعني: جماعة العبيد جعلهم عبيداً. وقال أبو عبيدة: لم يصح في اللغة. وإنما يقال: أعْبُد، ولا يقال: عبُد. وقرأ الباقون: ﴿وعَبَدَ الطاغوت﴾ يعني: وجعل منهم من عبد الطاغوت، ومعناه: خذلهم حتى عبدوا الشيطان، وروي عن ابن عباس أنه قرأ ﴿وعُبَّد الطاغوت﴾ بضم العين، ونصب الباء بالتشديد، يعني: جمع عابد. يقال: عابد وعُبَّد، مثل راكع وركَّع، وساجد، وسُجَّد. وقرأ ابن مسعود (وعبدوا الطاغوت) يعني: يعبدون الطاغوت، وقرأ بعضهم ﴿وعُبُدَ الطاغوت﴾ بضم العين والباء، ونصب الدال، وهو جماعة العبيد. ويقال: عبيد وعُبُد، على ميزان: رغيف ورُغُف، وسرير وسُرُر.

ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني: شر منزلة عند الله ﴿وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ يعني: أخطأ عن قصد الطريق وهو الهدى.

ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ وهم المنافقون من أهل الكتاب، قالوا: صدقنا ووجدنا نعتك. وأرادوا بذلك أن يمدحهم المسلمون، وهذا كقوله ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فأخبر الله تعالى عن حالهم فقال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ يعني: هم كافرون في الأحوال كلها، ولا ينفعهم ذلك القول: ﴿واللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ يعني: عليم بمجازاتهم، وهذا تهديد لهم.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ثم قال: ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ﴾ يعني: يبادرون في المعصية ﴿والعُدْوَانِ﴾ يعني: الظلم، وهو الشرك، ﴿وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ يعني: الرشوة في الأحكام، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: لبئس ما كانوا يتزودون من دنياهم لآخرتهم.

ثم قال: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ يعني: هلاَّ ينهاهم ﴿الربانيون﴾ يعني: علماؤهم وعبّادهم. وإنما شكا الله من علماء السوء الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ويجالسونهم، ويؤاكلونهم، وكل عالم لم يأمر بالمعروف، ويجالس أهل الظلم والمعصية، فإنه يدخل في هذه الآية، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ حين لم ينهوهم عن ﴿قولهم الإثم﴾، ﴿وأكلهم السحت﴾، ورضوا بفعلهم

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ

Marfat.com

وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك أن الله تعالى قد بسط عليهم الرزق، فلما عصوه وجحدوا نعمته، قتر عليهم الرزق، فقالوا عند ذلك: ﴿يد الله مغلولة﴾ أي: محبوسة عن البسط، فأمسك عنا الرزق.

قال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: أمسكت أيديهم عن الخير، ويقال: هذا وعيد لهم، غلت أيديهم في نار جهنم. ويقال: جُعِلوا بخلاء، فلا يعطون الناس شيئاً مما أعطاهم الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ يعني: عُذبوا وطُردوا من رحمة الله لقولهم ذلك.

ثم قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يقال: أمره ونهيه، ويقال: نعمتان، نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، ويقال: نعمتان: في السماء المطر وفي الأرض النبات، يعني: رزقه واسع باسط على خلقه **﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** يقول: يرزق لمن يشاء مقدار ما يشاء، فله خزائن السموات والأرض. وهذا كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**قَالَ الله تَعَالى: لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، وَإِنسَكُمْ، سَأَلَ كُلُّ رَجُلٍ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَتُهُ فَأَعْطَيْتُهُ، لَمْ يَنْقُصْ ذٰلِكَ مِنْ خَزَائِنِ مُلْكِي مِقْدَارَ مَا يُغْتَرَفُ مِنَ البَحْرِ بِرَأْسِ إِبْرَةٍ**».

ثم قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ﴾ يعني: من اليهود، **﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾** من القرآن، **﴿مِن رَبِّكَ طُغياناً﴾** يعني: تمادياً بالمعصي **﴿وَكُفراً﴾** وجحوداً بالقرآن يعني: كل ما نزل عليك شيء من القرآن كفروا به، فيزيد جحودهم في طغيانهم، وإنما نسب ذلك إلى ما أنزله، لأن ذلك سبب لطغيانهم وجحودهم. وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] يعني: أن ذلك سبب لخسرانهم.

ثم قال: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ يعني: جعلهم الله مختلفين في دينهم، متباغضين كما قال في آية أخرى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

ثم قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا الله﴾ يقول. كلما أجمعوا أمرهم على المكر بمحمد ﷺ وأصحابه فرقه الله تعالى، وأطفأ نار مكرهم، أي: سكته الله تعالى، ووهن أمرهم، وهذا على وجه الكناية كما قال: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي، كانت عليهم﴾. ثم قال: **﴿وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَسَاداً﴾** يعني: يعملون فيها بالمعاصي، ويدعون الناس إلى عبادة غير الله تعالى، **﴿والله لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾** يعني: لا يرضى بعمل الذين يعملون بالمعاصي، والله لا يحب أهل الفساد، ولا عملهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ

Marfat.com

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهلَ الكِتابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى، ﴿آمَنُوا﴾ يعني: صدقوا بتوحيد الله تعالى وبمحمد ﷺ والقرآن ﴿واتَّقَوا﴾ الشرك والمعاصي، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعني: لعفونا عنهم ذنوبهم، ﴿وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ يعني: أقرّوا بما فيهما، وبيّنوا ما كتموا فيها، ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني: بما أنزل إليهم من ربهم، في كتابهم، ويقال: القرآن. ﴿لأكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ﴾، يعني: يرزقهم الله تعالى المطر من فوقهم، في الوقت الذي ينفعهم ذلك، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني: ينبت النبات من الأرض، وقال الزجاج: هذا على وجه التوسعة. يقال: فلان في خير من فوقه إلى قدمه، يعني: لو أنهم فعلوا ما أمروا لأعطاهم الله الخير من فوقهم ومن تحت أرجلهم، يعني: صاروا في الخير في الدنيا والآخرة. وروى أبو موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيما رجلٍ من أهلِ الكتابِ آمنَ بنبيّهِ، وآمنَ بمحمدٍ فله أجران».

ثم قال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ يعني عصبة وجماعة عادلة، وهم مؤمنو أهل الكتاب من أهل التوراة والإنجيل ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وهم الذين لم يصدقوا ولم يؤمنوا.

﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وذلك أن اليهود لعنهم الله قالوا للنبي ﷺ حين دعاهم إلى الإسلام، فجعلوا يستهزئون به ويقولون: إنك تريد أن نتخذك حَنَاناً ربّاً كما اتخذت النصارى عيسى، فلما رأى ذلك سكت عنهم، فأمره الله أن يدعوهم إلى الإسلام ولا يمنعه عن ذلك تكذيبهم إياه فقال: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ من القرآن ﴿وإن لم تفعلْ﴾ يعني: إن لم تبلغ جميع ما أنزل إليك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني: كأنك لم تبلغ شيئاً من رسالته، لأنه أمره بتبليغ جميع الرسالة، فإذا ترك البعض صار بمنزلة التارك للكل. كما أن من جحد آية من كتاب الله تعالى، صار جاحداً للجميع، ويقال: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ يعني: فما بلغت المبلغ الذي تكون رسولاً. وروى سمرة بن جندب، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيها النَّاس إنَّما أنا بَشرٌ مِثْلُكم فإن كُنتُم تعلَمُون أني قد قصَّرْتُ عَنْ شيْءٍ مَن تَبليغ رِسالاتِ ربي فأخبِروني حتى أبلغ رِسالاتِ ربّي كَمَا ينبَغِي لها أن تُبلَّغَ» فقام الناس فقالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك. وروى مسروق، عن عائشة قالت:

Marfat.com

«من حدّثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي، فقد كذب» ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾(١) الآية.

ثم قال تعالى: ﴿والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني: اليهود ويقال: كيد الكفار. وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ يحرسه أصحابه بالليل، حتى نزلت هذه الآية فخرج إليهم وقال: «لا تَحْرُسُونِي فَإِنَّ الله قَدْ عَصَمَنِي مِنَ النَّاسِ»(٢).

ثم قال: ﴿إِنَّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: لا يرشدهم إلى دينه، ويقال: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «لا أُبَالِي مَنْ خَذَلَنِي مِنَ اليَهُودِ وَمَنْ نَصَرَنِي» قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر. ﴿فما بلَّغت رسالاته﴾ بلفظ الجماعة. وقرأ الباقون: بلفظ الوحدان لأن الواحد يغني عن الجماعة.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

ثم علّمه كيف يبلغ الرسالة فقال تعالى: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين ولا ثواب لأعمالكم ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ﴾ يعني: تعملوا بما في التوراة، والإنجيل ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: حتى تقروا بما أنزل على نبيكم محمد ﷺ من القرآن، تعملون به.

ثم قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وكفراً﴾ يعني: تمادياً بالمعصية، وكفراً بالقرآن. يعني: إنما عليك تبليغ الرسالة والموعظة، فإن لم ينفعهم ذلك فليس عليك شيء. ﴿فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ يعني: لا تحزن عليهم إن كذبوك.

وروى محمد بن إسحاق بإسناده عن ابن عباس أنه قال: «جاء رافع بن حارثة، وسلام بن مشكم، ومالك بن الضيف، وقالوا: يا محمد: ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله ﷺ: «بَلَى وَلَكِنَّكُمْ أَحْدَثْتُمْ، وَجَحَدْتُمْ ما فِيهَا مِمَّا أُخِذَ عَلَيْكُمْ مِنَ المِيثَاقِ، وَكَتَمْتُمْ مِنْهَا مَا أُمِرْتُمْ أَنْ تُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ فَبَرِئْتُ مِنْ أَحْدَاثِكُمْ». فقالوا: فإنا قد آمنا بما في أيدينا، وإنا على الهدى والحق، فلا نؤمن بك، فنزل ﴿يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ

---

(١) حديث عائشة: أخرجه البخاري (٤٦١٢) ومسلم (١٧٧) (٢٨٧).

(٢) وفي نسخة «ب» بلفظ: «لا تعصموني، فإن الله قد حرسني من الناس». وعزاه السيوطي ٣/ ١١٩ إلى عبد بن حميد، وابن جرير وابن مردويه.

Marfat.com

صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ آمَنُوا والذين هادوا﴾ قال في رواية الكلبي: هم قوم آمنوا بعيسى عليه السلام، ولم يؤمنوا بغيره، ولم يرجعوا. ويقال ﴿إن الذين آمنوا﴾ بألسنتهم وهم المنافقون. ويقال: في الآية تقديم يعني: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾ من آمن من اليهود والنصارى ﴿والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾ فلهم أجرهم عند ربهم. وقال: في هذه السورة ﴿والصابئون﴾ وقال في موضع آخر: ﴿والصابئين﴾ لأنه معطوف على خبر إن، وكل اسم كان معطوفاً على خبر إن، كان فيه طريقان: إن شاء رفع، وإن شاء نصب، كقوله: إن زيداً قادم وعمرو، إن شاء نصب الثاني، وإن شاء رفعه، كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] وقد قُرأ: ﴿ورسولَه﴾ ولكنه شاذ، وكذلك ها هنا جاز أن يقول: (والصابئين) ﴿والصابئون﴾، إلا أن في هذه السورة كتب بالرفع.

ثم قال: ﴿لاَ خوفٌ عَلَيهِمْ ولا هم يحزنون﴾ يعني: لمن آمن من هؤلاء الذين سبق ذكرهم فلهم ثواب عند ربهم الجنة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أخذنَا مِيثَاقَ بَنِي إسْرائيلَ﴾ يعني: عهدهم في التوراة، ﴿وَأرسَلْنَا إلَيهِمْ رُسلاً كُلَّمَا جاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهوَى أنْفُسُهُمْ﴾ يعني: بما لا يوافق هواهم، ﴿فَريقاً كَذَّبُوا﴾ مثل عيسى ومن سبق قبله، ﴿وَفَريقاً يقتُلُونَ﴾ مثل يحيى وزكريا، وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالله تعالى أمر النبي بتبليغ الرسالة، وأمره بأن لا يحزن عليهم إن لم يؤمنوا، لأنهم من أهل السوء الذين فعلوا هذه الأفعال.

ثم قال: ﴿وَحسِبُوا أن لاَ تَكُونَ فِتنَةٌ﴾ يعني: ظنوا أنهم لا يفتنون بتكذيبهم الرسل، وقتلهم الأنبياء، ويقال: ظنوا أن لا يعاقبوا، ولا يصيبهم البلاء والشدة والقحط. ويقال: ظنوا أن قتل الأنبياء لا يكون كفراً. ويقال: ظنوا أن لا تفسد قلوبهم بالتكذيب وقتل الأنبياء. قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو: ﴿أن لا تكونُ فتنةٌ﴾ بضم النون. وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالنصب، بمعنى أنْ. ومن قرأ بالضم بمعنى: حسبوا أنه لا تكون فتنة، معناه: حسبوا أن فعلهم غير فاتن لهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ يعني: عموا عن الحق، وصمّوا عن الهدى، فلم يسمعوه. ﴿ثُمَّ تَابَ الله عَلَيهِمْ﴾ يقول: تجاوز عنهم، ورفع عنهم البلاء، فلم يتوبوا ﴿ثُمَّ عَمُوا

Marfat.com

وصَمُّوا كثيرٌ مِنهُم﴾ ويقال: معناه تاب الله على كثير منهم، ﴿وعموا وصموا كثير منهم﴾ ويقال: ثم تاب الله عليهم، يعني: بعث محمداً ﷺ ليدعوهم إلى التوراة ﴿ثم عموا وصمّوا﴾ بتكذيب محمد ﷺ، ويقال: ﴿عموا وصمّوا﴾ حين عبدوا العجل، ثم تاب الله عليهم بعدما قتلوا سبعين ألفاً وهذا على جهة المثل. يعني: لم يعملوا بما سمعوا، ولم يعتبروا بما أبصروا، فصاروا كالأعمى والأصمّ.

ثم قال: ﴿والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم الرسل يعني: عليم بمجازاتهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله هُوَ الْمَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ﴾ وذلك أن نصارى أهل نجران يزعمون أنهم مؤمنون بعيسى، فأخبر الله تعالى أنهم كافرون بعيسى، وأنهم كاذبون في مقالتهم على المسيح، وأخبر أن المسيح دعاهم إلى توحيد الله تعالى، وأنهم كاذبون على المسيح. وهو قوله ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ: يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا الله﴾ يعني: وحدوا الله وأطيعوه، ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ يعني: خالقي وخالقكم، ورازقي ورازقكم. ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بالله﴾ يعني: إنه من يموت على شركه، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الجَنَّةَ﴾ أن يدخلها، ﴿ومَأْوَاهُ النَّارُ﴾ يعني: مصيره إلى النار، ﴿وما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ﴾ يعني: ليس للمشركين من مانع يمنعهم من العذاب.

ثم أخبر أن الفريق الآخر من النصارى هم كفار أيضاً، فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ فيه مضمر معناه: ثالث ثلاثة آلهة، ويقال: ثالث من ثلاثة آلهة، يعني: أباً وأماً وروحاً قدساً، يعني: الله ومريم وعيسى. قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿وما من إله إلا إله وَاحِدٌ﴾ يعني: هم كاذبون في مقالتهم، ثم أوعدهم الوعيد إن لم يتوبوا فقال: ﴿وإِنْ لَمْ ينتهوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني: إن لم يتوبوا، ولم يرجعوا عن مقالتهم، ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُمْ﴾ فهذا لام القسم، فكأنه أقسم بأنه ليصيبهم ﴿عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: إن أقاموا على كفرهم.

ثم دعاهم إلى التوبة فقال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلى الله﴾ من النصرانية، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ عن مقالتهم الشرك، ﴿وَالله غَفُورٌ﴾ للذنوب إن فعلوا ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول التوبة، ويقال: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾ لفظه لفظ الاستفهام والمراد به: الأمر، فكأنه قال: توبوا إلى الله،

Marfat.com

وكذلك كل ما يشبه هذا في القرآن، مثل قوله: (أتصبرون) يعني: اصبروا.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾

ثم بيّن الله تعالى أن المسيح عبده ورسوله، وبيّن الحجة في ذلك، فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ﴾ يعني: هو رسول كسائر الرسل، ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ وهو من جملة الرسل، ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ تشبه النبيين، وذلك حين صدقت جبريل حين قال لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩] والصِّدِّيق في اللغة: هو المبالغ في التصديق. وقال في آية أخرى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ [التحريم: ١٢] ثم قال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ يعني: المسيح وأمه كانا يأكلان ويشربان. ومن أكل وشرب، تكون حياته بالحيلة، والرب لا يأكل ولا يشرب. ويقال: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ كناية عن قضاء الحاجة، لأن الذي يأكل الطعام فله قضاء الحاجة. ومن كان هكذا لا يصلح أن يكون رباً.

ثم قال: ﴿انظُرْ كَيفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾ يعني: العلامات في عيسى ومريم أنهما لو كانا إلٰهين ما أكلا الطعام، ﴿ثُمَّ انظر أنى يُؤفكُون﴾ يقول: من أين يكذبون بإنكارهم بأني واحد. وقال القتبي: ﴿أنى يؤفكون﴾ يعني: أنى يصرفون عن الحق ويعدلون عنه. يقال: أفِك الرجل عن كذا، إذا عدل عنه.

ثم أخبر الله تعالى عن جهلهم، وقلة عقلهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿أتعْبُدُونَ مِن دُون الله﴾ يعني: عيسى وأمّه، ﴿مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ يقول: ما لا يقدر لكم، ﴿ضَرّاً﴾ في الدنيا ﴿ولاَ نفعاً﴾ في الآخرة، وتركتم عبادة الله، ﴿والله هُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم، ﴿العَلِيمُ﴾ بعقوبتكم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أهلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا في دِينِكُمْ غيرَ الحَقِّ﴾ يقول: لا تجاوزوا الحد والغلو: وهو الإفراط والاعتداء. ويقال: لا تتعمقوا.

ثم قال: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ وهم الرؤساء من أهل الكتاب، يعني: لا تتّبعوا شهواتهم، لأنهم آثروا الشهوات على البيان والبرهان، ﴿قَدْ ضَلُّوا مَن قَبْلُ﴾ وهم رؤساء النصارى ضلوا عن الهدى، ﴿وَأضَلُّوا كَثِيراً﴾ من الناس، ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ يعني: اخطؤوا قصد الطريق. وقال مقاتل: نزلت شأن في برصيصا العابد، حين جاءه الشيطان فقال له: قد فضلك الله على أهل زمانك لكي تحل لهم الحرام، وتحرم عليهم الحلال، وتسن لهم السنة،

Marfat.com

ففعل فاتبعه الناس بذلك، ثم ندم على فعله، فعمد إلى سلسلة فجعلها في ترقوته، فعلق نفسه فجاءه ملك فقال له: أنت تتوب، وكيف لك بمن تابعك؟ فذلك قوله: ﴿قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: اليهود، **﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾** وذلك أن الله تعالى مسخهم قردة، حيث اصطادوا السمك يوم السبت، **﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾** يعني: على لسان عيسى ابن مريم، حيث دعا عليهم فمسخهم الله تعالى خنازير. ويقال: ﴿لعن الذين كفروا﴾ أي: أُبعدوا عن رحمة الله، ﴿على لسان داود، وعيسى ابن مريم﴾. وقال الزجاج: يحتمل معنيين: أحدهما: أنهم مسخوا بلعنتهما، فجعلوا قردة وخنازير. وجائز أن يكون داود وعيسى لعنا من كفر بمحمد ﷺ، يعني: لعن الكفار الذين على عهد رسول الله ﷺ.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يعني: الذين أصابهم من اللعنة ﴿بما عصوا﴾ أي بعصيانهم واعتدائهم ﴿وكانوا يعتدون﴾ في دينهم.

ثم قال: ﴿كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ يعني: لم يمتنعوا عن قبيح من الأفعال، ورضوا به **﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾** حين لم ينهوهم عن المنكر.

ثم قال: ﴿تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ﴾ قال مقاتل: يعني: اليهود **﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** من مشركي العرب. وقال الكلبي: ﴿ترى كثيراً﴾ من المنافقين ﴿يتولون الذين كفروا﴾ يعني: اليهود، **﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾** معناه: لبئس الفعل الذي يستوجبون به السخط من الله تعالى، وتجب لهم العقوبة والعذاب **﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾** يعني: دائمون.

ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ﴾ محمداً ﷺ ﴿وما أنزل إليه﴾ يعني: القرآن **﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾** أي: لو كان إيمان المنافقين حقيقةً ما اتخذوا اليهود أولياء في العون والنصرة **﴿وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾** يعني: ناقضين للعهد.

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم

Marfat.com

مَوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

ثمّ قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ وهم يهود بني قريظة، وبني النضير، ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني: مشركي أهل مكة، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ قال بعضهم: إنما أراد به النصارى الذين كانوا في ذلك الوقت، لأنهم كانوا أقل مظاهرة على المؤمنين، وأسرع إجابة للإسلام. وقال أكثر المفسرين: إن المراد به النصارى الذين أسلموا، وفي سياق الآية دليل عليه، وهو قوله: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٨٥] وروى أسباط عن السدي، قال: بعث النجاشي إلى رسول الله ﷺ اثني عشر رجلاً من الحبشة، سبعة قسيسين، وخمسة رهبان ينظرون إليه ويسألونه، فلما لقوه وقرأ عليهم ما أنزل الله عليه، بكوا وآمنوا به ورجعوا إلى النجاشي. فهاجر النجاشي إلى رسول الله ﷺ معهم، فمات في الطريق، فصلى عليه رسول الله ﷺ والمسلمون واستغفروا له.

وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد، أنه سئل عن هذه الآية فقال: «هم الوفد الذين قدموا مع جعفر الطيار من أرض الحبشة». وعن الزهري، أنه سئل عن هذه الآية فقال: «ما زلنا نسمع أنها نزلت في النجاشي وأصحابه».

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ يعني: المتعبدين، وأصحاب الصوامع، ويقال: ﴿قسيسين﴾ علماؤهم ورهبانهم. ويقال: ﴿قسيسين﴾ يعني: صديقين ﴿ورهباناً﴾ يعني: خائفين من الله تعالى، وقال بعض أهل اللغة: القس والقسيس، رؤساء النصارى، والقَسُّ بفتح القاف النميمة.

ثم قال: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني: لا يتعظّمون على الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ يعني: تسيل من الدمع، ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ يقول: مما عرفوا محمداً ﷺ نعته وصفته، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بالقرآن بأنه من الله، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني: المهاجرين والأنصار. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: ﴿مع الشاهدين﴾ «هم أمة محمد ﷺ، يشهدون له بالبلاغ، ويشهدون للرسل أنهم قد بلغوا الرسالة».

ثم قال: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وذلك أنهم لما رجعوا إلى قومهم، قال لهم كفار قومهم:

Marfat.com

تركتم ملة عيسى عليه السلام ويقال: إن كفار مكة عاتبوهم على إيمانهم، وقالوا: لم تركتم دينكم القديم، وأخذتم الدين الحديث؟ فقالوا: ﴿وما لنا لا نؤمن بالله﴾ معناه: وما لنا لا نصدق بالله أن محمداً ﷺ رسوله، والقرآن من عنده، ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ﴾ يعني: وبما جاءنا من الحق، ﴿وَنَطْمَعُ﴾ يقول: نرجو، ﴿أَن يُدْخِلَنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: مع المؤمنين الموحدين في الجنة. فمدحهم الله تعالى، وحكى عن مقالتهم، وأخبر عن ثوابهم في الآخرة. فقال: ﴿فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُوا﴾ من التوحيد، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ﴾ يعني: ثواب الموحدين المطيعين.

وقد احتج بعض الناس بهذه الآية، أن الإيمان هو مجرد القول، لأنه قال: ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ ولكن لا حجة لهم فيها، لأن قولهم كان مع التصديق، وهو قوله تعالى: ﴿مما عرفوا من الحق﴾ والقول بغير التصديق لا يكون إيماناً.

ثم بيّن عقوبة من ثبت على كفره، ولم يؤمن، فقال تعالى: ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: مَنْ مات على ذلك، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ﴾ والجحيم: هو النار الشديدة الوقود. يقال: جحم فلان النار، إذا شدَّد وقودها. ويقال: لعين الأسد جحمة، لشدة توقدها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ الله لَكُمْ﴾ نزلت في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وذلك أنهم سمعوا من النبي ﷺ وصف القيامة يوماً، وخوف النار والحساب، اجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون، فتوافقوا بأن يخصوا أنفسهم ويترهبوا، فنهاهم الله عن ذلك. ونزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ إلى آخرها.

قال: حدثنا الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا أبو القاسم أحمد بن حميد، قال: حدثنا محمد بن الفضل، قال: حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن مُدرك بن قُزعة، عن سعيد بن المسيب، قال: جاء عثمان بن مظعون إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله غلبني حديث النفس، ولا أحب أن أحدث شيئاً حتى أذكر لك، قال ﷺ: «وَمَا تُحَدِّثُكَ نَفْسُكَ يَا عُثْمَانُ»؟ قال: تحدثني أن أختصي. فقال: «مَهلاً يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ إِخْصَاءَ أُمَّتِي الصِّيَامُ» قال: يا رسول الله، إن نفسي تحدثني أن أترهب في رؤوس الجبال. فقال: «مَهلاً يَا عُثْمَانُ فَإِنَّ تَرَهُّبَ أُمَّتِي الجُلُوسُ فِي المَسَاجِدِ لانْتِظَارِ الصَّلَوَاتِ». قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني أن أسيح في الأرض؟. قال: «مَهلاً يَا عُثْمَانُ: فَإِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الغَزْوُ فِي سَبِيلِ الله، وَالحَجُّ وَالعُمْرَةُ». قال: فإن نفسي تحدثني أن أخرج من مالي كله؟ قال: «مَهلاً يَا عُثْمَانُ فَإِنَّ صَدَقَتَكَ يَوماً بِيَوْمٍ،

Marfat.com

وَتَكُفَّ نَفْسَكَ وَعِيَالَكَ، وَتَرْحَمَ المَسَاكِينَ وَاليَتِيمَ، أَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ». فقال: يا رسول الله، فإن نفسي تحدثني أن أطلّق خَوْلة. فقال: «مَهْلاً يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ الهِجْرَةَ فِي أُمَّتِي، مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ الله عليه، أَوْ هَاجَرَ إِليَّ فِي حَيَاتِي، أَوْ زَارَ قَبْرِي بَعْدَ مماتِي، أَوْ مَاتَ وَلَهُ امْرَأَةٌ، أَوِ امْرَأَتَانِ، أَوْ ثَلاثٌ، أَوْ أَرْبَعٌ» قال يا رسول الله فإن نهيتني أن أطلقها، فإن نفسي تحدثني بأن لا أغشاها. قال: «مَهلاً فَإِنَّ الرَّجُلَ المُسْلِمَ إِذَا غَشِيَ أَهْلَهُ، أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ وَقْعَتِهِ تِلْكَ وَلَدٌ، كَانَ لَهُ وَصِيفاً فِي الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ وَقْعَتِهِ تِلْكَ وَلَدٌ فَمَاتَ قَبْلَهُ كَانَ فَرَطاً وَشَفِيعاً يَوْمَ القِيَامَةِ. فَإِنْ عبدٌ مَاتَ بَعْدَهُ كَانَ لَهُ نُوراً يَوْمَ القِيَامَةِ». فقال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن لا آكل اللحم. قال: «مَهلاً يَا عُثْمَانُ، فَإِنِّي أُحِبُّ اللَّحْمَ، وَآكُلُهُ إِذَا وَجَدْتُهُ، وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُطْعِمَنِيهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ لأَطْعَمَنِيهِ». قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن لا أمسّ الطيب. قال: «مَهلاً يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَمَرَنِي بِالطِّيبِ غِبّاً غِبّاً». وقال: «لا تَتْرُكْهُ يومَ الجمعةِ، لا تتركه يَا عُثْمَانُ، ولا تَرْغَبْ عَنْ سُنَّتِي، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَتُوبَ، صَرَفَتِ المَلائِكَةُ وَجْهَهُ عَنْ حَوْضِي يَوْمَ القِيَامَةِ». ونزلت هذه الآية ﴿لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾.

﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ يقول: لا تحرموا حلاله، ﴿إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾. ويقال: إن مُحَرِّم ما أحل الله كمُحِلّ ما حرم الله.

ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حَلاَلاً طَيِّباً﴾ من الطعام والشراب، ﴿وَاتَّقُوا الله﴾ ولا تحرموا ما أحلّ الله لكم، ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا تحرّموا ما أحلّ الله لكم إن كنتم مصدّقين به، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه. ثم أمرهم الله تعالى بأن يكفروا أيمانهم، لأنه لما حرموا الحلال على أنفسهم، كان ذلك يميناً منهم. ولهذا قال أصحابنا: إذا قال الرجل لشيء حلال: هذا الشيء عليّ حرام، يكون ذلك يميناً، فأمرهم الله تعالى بأن يأكلوا، ويحنثوا في أيمانهم، وفي الآية دليل: أن الرجل إذا حلف على شيء والحنث خير له، ينبغي أن يحنث ويكفر بيمينه. وفيها دليل: أن الكفارة بعد الحنث، لأنه أمرهم بالحنث بقوله: ﴿فكلوا﴾ ثم أمرهم بالكفارة بقوله: ﴿لا يؤاخذكم﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

أمرهم بالكفارة وهو قوله تعالى: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ الله بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾. قال ابن عباس: «اللغو أن يحلف الرجل على شيء بالله، وهو يرى أنه صادق، وهو فيه كاذب». وهكذا روي

Marfat.com

عن أبي هريرة أنه كان يقول: «لغو اليمين: أن يحلف الرجل على شيء يظن أنه الذي حلف عليه هو صادق، فإذا هو غير ذلك.» وقال الحسن: «هو الرجل يحلف على الشيء يرى أنه كذلك، وليس هو كذلك». وقال سعيد بن جبير: «الرجل يحلف باليمين التي لا ينبغي أن يحلف بها، يحرم شيئاً هو حلال، فلا يؤاخذه الله بتركه، لكن يؤاخذه الله إن فعل». وقال زيد بن أسلم: «هو قول الرجل: أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا، أو أخرجني الله من مالي وولدي»، وقالت عائشة: «اللغو: هو قول الرجل لا والله، وبلى والله، على شيء لم يعقده قلبه».

ثم قال: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم في رواية حفص ﴿عقَّدتم﴾ بالتشديد، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، في رواية أبي بكر: ﴿عَقَدتم﴾ بالتخفيف، وقرأ ابن عامر: ﴿بما عاقدتم﴾ فمن قرأ: ﴿عاقدتم﴾ فهو من المعاقدة، والمعاقدة تجري بين الاثنين، وهو أن يحلف الرجل لصاحبه بشيء ومن قرأ بالتشديد فهو للتأكيد. ومن قرأ بالتخفيف لأن اليمين تكون مرة واحدة. والتشديد يجري في التكرار والإعادة.

وروى عبد الرزاق عن بكار بن عبد الله قال: سئل وهب بن منبه عن قوله: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ قال: «الأيمان ثلاثة: لغو، وعقد، وصبر. فأما اللغو: فلا والله، وبلى والله، لا يعقد عليه القلب، وأما العقد: فهو أن يحلف الرجل لا يفعله فيفعله، فعليه الكفارة، وأما الصبر: بأن يحلف على مال ليقتطعه بيمينه، فلا كفارة له». وروى حصين بن عبد الرحمن عن أبي مالك الغفاري قال: «الأيمان ثلاثة: يمين تكفر، ويمين لا تكفر، ويمين لا يؤاخذ الله بها صاحبها.» ذكر على نحو ما ذكر محمد في كتاب الإيمان.

ثم بيّن كفارة اليمين فقال تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «الغداء والعشاء». وسئل شريح عن الكفارة فقال: «الخبز والزيت الطيّب والخلّ» فقال السائل: أرأيت إن أطعمت الخبز واللحم؟ قال: «ذلك أرفع طعام أهلك وطعام الناس». وروي عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنهما قالا: «لكل مسكين نصف صاع من حنطة» يعني: إذا أراد أن يدفع إليهم، وإن أراد أن يطعمهم، فالغداء والعشاء.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال مجاهد: «أدناه ثوب وأعلاه ما شئت» وقال إبراهيم النخعي: «لكل مسكين ثوب» وقال الحسن: «ثوبان أبيضان».

ثم قال: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ يعني: يعتق رقبة، ولم يشترط ها هنا المؤمنة، فيجوز الكفارة بالكافرة والمؤمنة، فالرجل بالخيار بين هذه الأشياء الثلاثة، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الطعام ولا الكسوة ولا الرقبة فعليه ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾.

وروى سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح قال: سئل طاوس عن صيام الكفارة، قال:

Marfat.com

«يفرّق». قال له مجاهد: كان عبد الله يقرأ: «متتابعات»، قال طاوس: فهنّ أيضاً متتابعات. وروى مالك عن حميد، عن مجاهد قال: «كان أبي يقرأ: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات» في كفارة اليمين.

ثم قال: ﴿ذلك﴾ يعني: الذي ذكرنا ﴿كفارة أيمانكم﴾ عن الطعام والكسوة والعتق والصوم. ﴿إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم﴾ يعني: ليعلم الرجل ما حلف عليه، فليكفر يمينه إذا حنث، ﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته﴾ يعني: أمره ونهيه، ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي: لكي تشكروا رب هذه النعمة، إذ جعل لكم مخرجاً من أيمانكم بالكفارة، والكفارة في اللغة: التغطية، يعني: يغطي إثمه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ﴾ نزلت هذه الآية في شأن سعد بن أبي وقاص، لأنهم كانوا يشربونها، وكانت حلالاً لهم. فجرى بين سعد وبين رجل من الأنصار افتخار في الأنساب، فاقتتلا، فَشُجّ رأسُ سعدٍ، فدعا عمر بن الخطاب، فقال: «اللهم أرنا رأيك في الخمر، فإنها متلفة للمال، مذهبة للعقول»، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] فقال عمر: «اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً» فنزلت هذه الآية: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ﴾ يعني: حرام، وهو من تزيين الشيطان، ﴿فاجتنبوهُ﴾ يعني: شربها، ولم يقل: فاجتنبوها، لأنه انصرف إلى المعنى، ومعناه: اجتنبوا ما ذكرناه ونهاكم عن ذلك، كقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١] ولم يقل: من ثمرها.

ثم قال تعالى: ﴿إنما يُريدُ الشيطانُ أنْ يُوقعَ بينكُم العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسِرِ ويَصدَّكم عن ذِكرِ الله﴾ يعني: عن طاعة الله، ﴿وعنِ الصَّلاةِ﴾ لأنهم مُنِعوا عن الصلاة إذا كانوا سكارى، ولأنه إذا سكر لا يعقل الطاعة وأداء الصلاة.

ثم قال: ﴿فهل أنتم مُنتهون﴾ يعني: انتهوا عن شربها، فقال عمر: «قد انتهينا يا رب». وعن عطاء بن يسار: أن رجلاً قال لكعب الأحبار: أحُرِّمت الخمرة في التوراة؟. قال: نعم هذه الآية ﴿إنما الخمر والميسر﴾ مكتوبة في التوراة: إنا أنزلنا الحق لنذهب به الباطل، ونبطل به

Marfat.com

اللعب والدفف والمزامير والخمر مرة لشاربها، أقسم الله تعالى بعزته وجلاله، أن من انتهكها في الدنيا، أعطشته يوم القيامة، ومن تركها بعدما حرمتها لأسقينها إياه في حظيرة القدس، قيل: وما حظيرة القدس؟ قال: الله هو القدس، وحظيرته الجنة.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يعني: في تحريم الخمر، **﴿وَاحْذَرُوا﴾** عن شربها، **﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾** يقول: أعرضتم عن طاعة الله وطاعة الرسول **﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾** فهذا تهديد لمن شرب الخمر بعد التحريم، فلما نزلت هذه الآية قال: حُيَيُّ بن أخطب: فما حال من مات منهم وهم يشربونها، فعيّروا بذلك أصحاب رسول الله ﷺ فسأل رسول الله ﷺ أصحابه عن ذلك، فنزلت هذه الآية: **﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾** يعني: شربوا قبل تحريمها.

ويقال: إن بعض الصحابة كانوا في سَفر فشربوا منها بعد التحريم، ولم يعرفوا تحريمها، فلما رجعوا سألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فنزل: ﴿وليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ يعني: شربوا قبل تحريمها، **﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾** الشرك، **﴿وَآمَنُوا﴾** يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى، والقرآن **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا﴾** المعاصي ﴿وآمنوا﴾ يعني: صدقوا تحريمها **﴿ثم اتقوا﴾** شربها **﴿وأحسنوا﴾** العمل وتركوا شربها بعد تحريمها **﴿والله يحب المحسنين﴾** في أفعالهم ويقال: معناه ليس عليهم جناح فيما طعموا قبل تحريمها إذا اجتنبوا شربها بعد تحريمها.

وروى عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: شرب نفر من أهل الشام الخمر وعليهم يومئذٍ معاوية بن أبي سفيان، وقالوا: هي حلال لنا وتأولوا قوله تعالى: **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾** فكتب معاوية في ذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: «أن ابعثهم إليّ، قبل أن يفسدوا من قِبَلك». فلما قدموا على عمر، جمع أصحاب رسول الله ﷺ فقال: ما ترون؟ فقالوا: «إنهم قد افتروا على الله كذباً، وشرعوا في دينه ما لم يأذن به الله، فاضرب أعناقهم»، وعليّ كرّم الله وجهه ساكت فقال: «يا أبا الحسن ما ترى في هؤلاء»؟ قال: «أرى أن تستتيبهم، فإن تابوا فاضربهم ثمانين جلدة، وإن لم يتوبوا فاضرب أعناقهم»، فاستتابهم فتابوا، فضربهم ثمانين جلدة وأرسلهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿يَا أيُّها الذينَ آمَنُوا لَيَبْلُونَّكُمُ الله بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ يعني: ليختبرنّكم الله. والاختبار من الله: هو إظهار ما علم منهم بشيء من الصيد. يعني: ببعض الصيد. فتبعيضه يحتمل أن يكون معناه: ما داموا في الإحرام فيكون ذلك بعض الصيد، ويحتمل أن يكون على معنى التحضيض يحمل ذلك على وجه تبيين جنس من الأجناس كما قال: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] ويحتمل بعض الصيد، يعني: صيد البر دون صيد البحر، ﴿تَنَالُهُ أيْدِيكُمْ﴾ يعني: تأخذونه بأيديكم بغير سلاح، مثل البيض والفراخ، ﴿وَرِمَاحُكُم﴾ يعني: تأخذونه بسلاحكم، وهو الكبار من الصيد، ﴿لِيَعْلَمَ الله مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعني: ليميز الله الذي يخاف من الذي لا يخاف.

ويبيِّن فضل الخائفين. ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذٰلِكَ﴾ يعني: من أخذ الصيد بعد النهي ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: وجيع، يعني: الكفارة والتعزير في الدنيا وفي والآخرة بالعذاب إن مات بغير توبة.

ثم قال: ﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ يعني: وأنتم محرمون ويقال: وأنتم محرمون أو في الحرم. ثم بيّن الكفارة فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ يعني: عليه الفداء مثل ما قتل. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي: ﴿فجزاءٌ مثلُ﴾ بتنوين الهمزة وبضم اللام. وقرأ الباقون: بالضم بغير تنوين وبكسر اللام. فأما من قرأ: بالتنوين، فمعناه: فعليه جزاء، ثم صار المثل نعتاً للجزاء. وأما من قرأ: بغير تنوين فعلى معنى الإضافة إلى الجزاء يعني: عليه جزاء مثل ما قتل من النعم، يشتري بقيمته من النعم ويذبحه. يعني: إذا كان المقتول يوجد بقيمته النعم.

ثم قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنكُمْ﴾ يعني: رجلان مسلمان عدلان ينظران إلى قيمة المقتول، ثم يشتري بقيمته ﴿هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ﴾ يعني: يبلغ بالهدي مكة ويذبحه هناك، ويتصدق بلحمه على الفقراء. ﴿أَوْ كَفَّارَة طَعام مَساكِينَ﴾ يعني: إن شاء يشتري بقيمته طعاماً ويتصدق به، على كل مسكين نصف صاع من حنطة ﴿أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيَاماً﴾ يعني: يصوم مكان كل نصف صاع من حنطة يوماً. قال ابن عباس: «إنما يقوّم لكي يعرف مقدار الصيام من الطعام» فهو بالخيار بين هذه الأشياء الثلاثة: إن شاء أطعم، وإن شاء أهدى، وإن شاء صام. قرأ نافع وابن عامر: ﴿أو كفارة طعام مساكين﴾ بغير تنوين على معنى الإضافة. وقرأ الباقون ﴿كفارة﴾ بالتنوين، ورفع الطعام نعتاً لها.

ثم قال: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أمْرِهِ﴾ يعني: عقوبة ذنبه، لكي يمتنع عن قتل الصيد. ﴿عَفَا الله عَمَّا سَلَفَ﴾ يعني: عما مضى قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد التحريم ﴿فَيَنْتَقِمُ الله مِنْهُ﴾ يعني: يعاقبه الله تعالى، ومع ذلك يجب عليه الكفارة. وقال بعضهم: لا يجب عليه الكفارة إذا قتل مرة أخرى.

Marfat.com

وروى عكرمة عن ابن عباس: أنه سئل عن المحرم يصيب الصيد فيحكم عليه، ثم يصيبه أيضاً قال: «لا يحكم عليه وتلا هذه الآية ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ فذلك إلى الله، إن شاء عفا وإن شاء عاقبه». وعن شريح: أن رجلاً أتاه فسأله أن يحكم عليه فقال له شريح: هل أصبت صيداً قبله؟ قال: لا. قال: لو كنت أصبته قبل ذلك لم أحكم عليك. وقال بعضهم: سواء قتل قبل ذلك أو لم يقتل فهو سواء، لأنه قاتل في المرة الثانية كما هو قاتل في المرة الأولى.

وروي عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم رضي الله عنهم: «أنهم حكموا ولم يسألوه أنك أصبت قبل ذلك أم لا». وروى ابن جريج عن عطاء أنه سئل عن قوله: ﴿عفا الله عما سلف﴾ قال: يعني: ما كان في الجاهلية، ﴿ومن عاد﴾ في الإسلام فينتقم الله منه، ومع ذلك عليه الكفارة، وروى سعيد بن جبير مثله. وقد قال بعض الناس: إنه إذا قتل خطأ فلا تجب عليه الكفارة. وهذا القول ذكر عن طاوس اليماني. وقال غيره: تجب عليه الكفارة. وروى ابن جريج عن عطاء قال: سألته عن قوله: ﴿ومن قتله منكم متعمداً﴾ فلو قتله خطأ أيغرم؟ قال: نعم، يعظم بذلك حرمات الله. ومضت به السنن وعن الحسن قال: يحكم عليه في الخطأ والعمد. وعن إبراهيم النخعي وعن مجاهد مثله. وبهذا القول نأخذ: أن العمد والخطأ سواء، والمرة الأولى والثانية سواء.

ثم قال تعالى: ﴿والله عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ من أهل المعصية ومن آخذ الصيد بعد التحريم. ويقال: ﴿ومن عاد﴾ مستحلاً أو مستخفاً بأمر الله تعالى ﴿فينتقم الله منه﴾ يعني: يعذبه الله تعالى ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ يعذب من عصاه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ﴾ يعني: في الإحرام وغير الإحرام ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وللسَّيَّارَةِ﴾ يعني: للمقيمين والمسافرين، وهي السمكة المالحة. ويقال: ﴿وطعامه﴾ ما نضب الماء عنه فأخذ بغير صيد ميتاً. ويقال: كل ما سقاه الماء فأنبت من الأرض، فهو طعام البحر.

قال الفقيه: حدثنا أبو الفضل بن أبي جعفر. قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي. قال: حدثنا محمد بن خزيمة قال: حدثنا حجاج بن المنهال قال: حدثنا أبو عوانة عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال: «كنت أميراً في البحرين، فسألني أهل البحرين عما يقذف البحر من السمك، فقلت: كلوه. فلما رجعت إلى المدينة سألت عن ذلك عمر بن الخطاب فقال: ما أمرتهم به؟ فقلت: أمرتهم بأكله فقال: لو أمرتهم بغير ذلك لضربتك بالدرة. ثم قرأ عمر: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم﴾ فصيده ما صيد وطعامه: ما رمي به.

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾ يعني: ما دمتم محرمين فلا تأخذوا الصيود ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ فلا تأخذوه في إحرامكم ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجزيكم بأعمالكم.

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ يعني: الحرم آمناً للناس. كان الرجل إذا أصاب ذنباً أو قتل قتيلاً ثم لجأ إلى الحرم آمناً بذلك. ويقال: ﴿قياماً للناس﴾ يعني: قواماً لمعايشهم. قرأ ابن عامر: ﴿قيماً﴾ على وجه المصدر وقرأ الباقون: ﴿قياماً﴾ على وجه الاسم والمصدر. وإنما سميت الكعبة كعبة لارتفاعها، ولهذا سمي الكَعْبان كعباً، ويقال للجارية: إذا نهدت ثدياها: قد كعبت ثدياها وهي كاعب كما قال: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣٣].

ثم قال: ﴿وَالشَّهْرَ الحَرَامَ والهَدْيَ وَالقَلائِدَ﴾ يعني: جعل الشهر الحرام والهديَ والقلائد آمناً للناس وقواماً لمعايشهم، لأنهم كانوا إذا توجهوا إلى مكة، وقلَّدوا الهدي، أمنوا. ويقال: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ يعني: معالم للناس. وقال مقاتل وابن حيان: يعني: علماً لقبلتهم يصلون إليها. وقال سعيد بن جبير: صلاحاً لدينهم. وحرم عليهم الغارة في الشهر الحرام. وأخذ الهدي والقلائد في الشهر الحرام. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي جعل الله من الأمن ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لتعلموا أن الله يعلم صلاح ما في السموات وما في الأرض. ﴿وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من صلاح الخلق ويقال: هو مردود إلى ما أنبأ الله تعالى على لسان نبيه في هذه السورة من أخبار المنافقين، وإظهار أسرارهم، فقال: ذلك الذي ذكر الله تعالى لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم من السر والعلانية.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

ثم قال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ يعني: إذا عاقب فعقوبته شديدة لمن عصاه ﴿وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن أطاعه.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ واللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ يعني: أن الرسول ليس عليه طلب سرائرهم، وإنما عليه بتبليغ الرسالة، والله تعالى هو الذي يعلم سرائرهم.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿**قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**﴾ يعني: لا يستوي الحلال والحرام. قال في رواية الكلبي: نزلت في شأن حَجَّاج اليمامة شريح بن ضبيعة حين أراد المسلمون أخذ ماله، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وأخبرهم أن أخذ ماله حرام. ﴿**وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**﴾ يعني: كثرة مال شريح بن ضبيعة ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ فلا تستحلوا ما حرَّم عليكم ﴿**يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ يا ذوي العقول ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ يعني: تأمنون من عذابه. وروى أسباط عن السدي أنه قال: ﴿الخبيث﴾ هم المشركون ﴿والطيب﴾ هم المؤمنون. وقال الضحاك: ﴿لا يستوي الخبيث والطيّب﴾ يعني: صدقة من حرام لا تصعد إلى الله ولا توضع في خزائنه. وصدقة من حلال تقع في يد الرحمن يعني: يقبلها. ﴿**ولو أعجبك كثرة الخبيث**﴾ يعني: مثقال حبة من صدقة الحلال أرجح عند الله من جبال الدنيا من الحرام.

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾**﴾

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ روي عن أبي هريرة وعبد الله بن عباس وغيرهما أن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال: «**يا أيها الناس كتب عليكم الحج**» فقام رجل فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه. ثم عاد فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَ عليكم، وَلَوْ وَجَبَ مَا استطعْتُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمُوهُ لَكَفَرْتُمْ**» ثم قال: «**إِنَّمَا هِيَ حَجَّةٌ وَاحِدَةٌ - أو قال: مَرَّةٌ وَاحِدَةٌ**». فنزل قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم**﴾ وعن أبي عوانة أنه قال: سألت عكرمة عن قوله: ﴿**لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾ قال: ذلك يوم قام فيهم رسول الله ﷺ فسألوه، فأكثروا عليه فغضب. وقال: «**لا تَسْأَلُونِي عن شَيْءٍ إلاَّ أَخْبَرْتُكُمْ**». فقام رجل، فكره المسلمون يومئذٍ قيامه. فقال: يا رسول الله من أبي؟ فقال: «**حُذَافَةُ**» يعني: رجلاً غير أبيه، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله رضينا بالله رباً، وبك نبياً، فنزلت هذه الآية ﴿**لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾.

وروي في خبر، آخر أن رجلاً سأله فقال: أين أبي؟ فقال: «**في النَّارِ**». **وروي** عن نافع أنه سئل عن هذه الآية فقال: «لم تزل قط كثرةُ السؤال تستثقل».

ثم قال: ﴿**وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ**﴾ يعني: الوقت الذي ينزل جبريل ﴿**تُبْدَ لَكُمْ**﴾ يعني: تظهر لكم. ويقال: فيها تقديم وتأخير يعني: وإن تسألوا عنها تبد لكم، يعني: ينزل القرآن. ثم قال: ﴿**عَفَا الله عَنْهَا**﴾ يعني. عن تلك الأشياء حين لم ينزل فيها القرآن ولم يوجبها عليكم ﴿**والله غَفُورٌ**﴾ ذو التجاوز ﴿**حَلِيمٌ**﴾ حيث لم يعجل عليكم بالعقوبة.

Marfat.com

ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ يعني: عن هذه الأشياء ﴿من قبلكم﴾ حيث سألوا المائدة من عيسى عليه السلام، وغيرهم سألوا أنبيائهم أشياء ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ يعني: صاروا بها كافرين.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ﴾ يعني: ما جعل الله حراماً من بحيرة، كقولهم: إن الله أمركم بتحريمها. ونزلت في مشركي العرب، فكانت الناقة إذا ولدت البطن الخامس، فإن كان الولد الخامس ذكراً ذبحوه للآلهة، وكان لحمه للرجال دون النساء، وإن مات أكله الرجال والنساء. وإن كان الولد الخامس أنثى شقُّوا أذنها وهي البحيرة، ثم لا يُجزّ لها وبر ولا يُذكر عليه اسم الله، وألبانها للرجال دون النساء. فإذا ماتت اشترك فيها الرجال والنساء. ﴿وَلاَ سَائِبَةٍ﴾ وأما السائبة: فهي الأنثى من الأنعام كلها. إذا قدم الرجل من سفره، أو برأ من مرضه، أو بنى بناء، سيّب شيئاً من الأنعام للآلهة، ويخرجها من ملكه، ويسلمها إلى سدنة البيت لآلهتهم، ولا يركبونها، وكان صوفها وأولادها للرجال دون النساء. ﴿وَلاَ وَصِيلَةٍ﴾ وأما الوصيلة: فهي من الغنم إذا ولدت سبعة أبطن. فإن كان الولد السابع جدياً ذبحوه لآلهتهم، وكان لحمه للرجال فقط دون النساء. وإن كانت عناقاً، كانوا يستعملونها ولكن بمنزلة سائر الغنم. وإن كان جدياً وعناقاً، قالوا: إن الأخت قد وصلت ذكراً بأخيها، فحرمتا جميعاً، وكانت المنفعة للرجال دون النساء. وإن ماتا يشترك الرجال والنساء. ﴿وَلاَ حَامٍ﴾ وأما الحام: فهو الفحل من الإبل إذا ركب ولده، قالوا: قد حمى ظهره فيهمل، ولا يحمل، ولا يركب، ولا يمنع من المياه، ولا المراعي، فإذا مات أكله الرجال والنساء. يقولون: هذه الأشياء كلها من أحكام الله تعالى، فنزل قوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ يعني: ما حرّم الله هذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ﴾. وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْرِفُ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَأَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ عَهْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ». قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «عَمْرُو بْنُ لُحَيّ أَخُو بَنِي كَعْبٍ لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَجُرُّ قُصبَهُ فِي النَّارِ يُؤْذِي رِيحُهُ أَهْلَ النَّارِ، وَإِنِّي لأَعْرِفُ مَنْ بَحَّرَ البَحَائِرَ». قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَتَانِ، فَجَدَعَ أُذُنَيْهِمَا، وَحَرَّمَ أَلْبَانَهُمَا، ثُمَّ شَرِبَ أَلْبَانَهُمَا بَعْدَ ذٰلِكَ. فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ وَهُمَا تَعضَّانِهِ بِأَفْوَاهِهِمَا، وَتَخبِطَانِهِ بِأَخْفَافِهِمَا»[١].

---

(١) هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٣٥٢١) و(٤٦٢٣) ومسلم (٢٨٥٦) (٥١) وأحمد ٣٦٦/٢ والبيهقي: ٩/١٠ ـ ١٠. أما رواية زيد بن أسلم فقال السيوطي ٢١٣/٣: أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ يعني: ليس لهم عقل يعقلون به أن الله هو المُحلِّل والمُحَرِّمُ، وليس لغيره أن يحلّ ويحرِّم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

ثم أخبر عن جهلهم فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا إلى مَا أنزلَ الله وإلى الرَّسُول﴾ من تحليل ما حرمتم على أنفسكم، وما بيّن لكم رسوله. ويقال: تعالوا إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﴿قَالُوا حَسْبُنَا ما وجَدْنا عليه آباءنا﴾ من الدين والسنة.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آباؤهم لا يَعْلَمُونَ شيئاً وَلاَ يَهْتَدُون﴾ يعني: أنهم يتبعون آباءهم وإن كان آباؤهم جهالاً، فنهاهم الله تعالى عن التقليد، وأمرهم بالتمسك بالحق وبالحجة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ معناه: الزموا أنفسكم كما تقول: عليك زيداً، معناه: الزم زيداً. معناه: الزموا أمر أنفسكم لا يؤاخذكم الله بذنوب غيركم. ﴿لا يَضُرُّكم﴾ وأصله في اللغة: لا يضرركم. فأدغم أحد الراءين في الأخرى، وضم الثانية لالتقاء الساكنين. وهذا جواب الشرط، وموضعه الجزم.

وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه سئل عن هذه الآية فقال: «إذا رأيتم شُحًا مطاعاً، وهوًى متّبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليكم بخويصة أنفسكم». وروى عمر بن جابر اللخمي عن أبي أمية قال: سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ. فَإِذَا رَأَيْتَ دُنْيا مُؤْثَرَةً، وَشُحّاً مُطاعاً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، فَإِنَّ مِنْ بَعْدِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ المُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِمِثْلِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ كَأَجْرِ خَمْسِينَ عَامِلاً». قالوا: يا رسول الله كأجر خمسين عاملاً منهم قال: «لا بَلْ كَأَجْرِ خَمْسِينَ عَامِلاً مِنْكُمْ»[(١)]. وروي عن أبي بكر الصديق أنه قال: «يا أيها الناس إنكم تتلون هذه الآية على غير تأويلها. إنه كان رجال طعموا طعمة الإسلام، وذاقوا حلاوته، وكانت لهم قرابة من المشركين، فأرادوا أن يذيقوهم حلاوة الإيمان، وأن يدخلوهم في الإسلام. فنزل ﴿عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم﴾. والذي نفس أبي بكر بيده لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليعمنَّكُمُ الله بعذابٍ من عنده».

(١) عزاه السيوطي: ٣/ ٢١٥ إلى الترمذي وصححه وابن ماجه وابن جرير، والبغوي في معجمه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني، وابن مردويه، والحاكم وصحّحه والبيهقي.

Marfat.com

وروي عن أبي العالية أنه قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود، فوقع بين رجلين ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال بعضهم: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف؟ فقال بعضهم: عليك نفسك إن الله تعالى يقول: ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل﴾ يقول: لا يضركم ضلالة من ضلّ ﴿إذا اهْتَدَيْتُم﴾ فقال ابن مسعود: «مه لم يجىء تأويل هذه الآية بعد، فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيعاً، فمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، فإذا اختلفت القلوب والأهواء فعند ذلك جاء تأويلها».

وقوله تعالى: ﴿لا يضركم مَنْ ضَلَّ﴾ يقول: لا يضركم ضلالة من ضلّ **﴿إذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾** إذا ثبتم على الحق **﴿إلى الله﴾** تعالى **﴿مَرْجِعُكُم جَمِيعاً﴾** يوم القيامة **﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** في الدنيا.

وقال في رواية الكلبي نزلت: في المنذر بن عمرو، بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل هجر ليدعوهم إلى الإسلام، فأبوا الإسلام، فوضع عليهم الجزية فقال: **﴿لا يضركم من ضل﴾** من أهل هجر، وأقر بالجزية **﴿إذا اهتديتم إلى الله﴾** يعني: آمنتم بالله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُم﴾ ﴿شهادة﴾: رفع بالابتداء وخبره ﴿اثنان﴾ ومعناه: شهادتكم فيما بينكم حين الوصية اثنان مسلمان عدلان **﴿إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ المَوْتُ﴾** وأراد أن يشهد على وصيته، وكان مقيماً ولم يكن مسافراً، فليُشهد على وصيته اثنين مسلمين **﴿حِينَ الوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ منكم أو آخرانِ مِنْ غَيرِكُمْ إنْ أنْتُمْ ضَرَبْتُمْ في الأرْضِ﴾** يعني: إذا كنتم في السفر ولم تقدروا على مسلمين، فأشهدوا رجلين من غيركم يعني: من غير أهل دينكم. وروى مغيرة عن إبراهيم قال: إذا كان الرجل في سفر فلم يجد مسلمين ليشهدهما على وصيته، فليشهد غير أهل دينه، فإن اتهما حبسا من بعد الصلاة ويغلّظ عليهما في اليمين. وإن شهد رجلان من الورثة بأنهما خانا وكذبا، صدّقا بما قالا، وأخذ من الآخرين يعني: من الشاهدين ما ادعي عليهما.

Marfat.com

وروي عن مجاهد أنه قال: «إذا مات المؤمن في السفر ولا يحضره إلا كافران، أشهدهما على ذلك». فإن رضي ورثته مما قدِما عليه من تركته فذلك، ويحلف الشاهدان أنهما لصادقان، فإن ظهر أنهما خانا، حلف اثنان من الورثة، وأبطلا أيمان الشاهدين.

وروي عن شريح أنه قال: لا تجوز شهادة اليهودي والنصراني إلا في السفر، ولا تجوز في السفر إلا على الوصية، وهكذا قال إبراهيم النخعي، وبه قال ابن أبي ليلى، واحتجوا بظاهر هذه الآية. وقال علماؤنا: لا يجوز شهادة الذمي على المسلم في الوصية ولا في غيرها.

وروي عن عكرمة أنه قال: ﴿أو آخران من غيركم﴾ قال: من غير عشيرتكم. وكذلك قال الحسن: ﴿أو آخران من غيركم﴾ يعني: من غير قبيلتكم، كلهم من أهل الصلاة. قال: ألا ترى إلى قوله: ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة﴾ وقال زيد بن أسلم: كان ذلك في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك كان في أول الإسلام، والأرض أرض الحرب، والناس كلهم كفار إلا رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة.

وروى أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم قال: ﴿أو آخران من غيركم﴾ قال: هي منسوخة وقال الضحاك: نسخت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] ورفع اليمين عن الشهود، وأبطل شهادة أهل الذمة إلا بعضهم على بعض. ويقال: لنزول هذه الآية قصة. وذلك أن ثلاثة نفر خرجوا إلى السفر: تميم الدّاري، وعدي بن زيد، وبُديل بن ورقاء مولى العاص بن وائل السهمي وأبي عمرو بن العاص، فحضر بديل بن ورقاء الوفاة وكان مسلماً، وأوصى إلى تميم الدّاري وإلى عدي بن زيد وكانا نصرانيين، وأمرهما أن يسلّما أمتعته إلى أهله، وكتب أسماء الأمتعة، وأدرجه في ثيابه. فلما قدما المدينة وسلما المتاع إلى أهله، فوجد أهله الكتاب وفيه أسماء الأمتعة، وفيه جام فضة لم يُسلّما إليهم. فخاصمهما المطلب بن أبي وداعة وعمرو بن العاص إلى رسول الله ﷺ. فنزلت الآية: ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ بموت بديل بن ورقاء ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ يعني: صلاة العصر أي وكان النبي ﷺ يقضي بين الناس بعد صلاة العصر. فحلّف الشاهدين، فحلفا أنهما لم يكتما شيئاً، فذلك قوله تعالى: ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ يعني: سافرتم في الأرض، فأصابتكم في السفر مصيبة الموت يعني: موت بديل بن ورقاء، ﴿تحبسونهما﴾ يعني: تقيمونهما ﴿من بعد الصلاة﴾ يعني: صلاة العصر عند منبر النبي ﷺ ﴿فَيُقْسِمَانِ بالله إن ارْتَبْتُمْ﴾ يعني: ظننتم بالشاهدين ريبة أو شككتم في أمرهما ﴿لا نشتري به ثمناً﴾ يعني: باليمين ثمناً يعني: أن الشاهدين يحلفان بالله أنهما لم يشتريا بأيمانهما ثمناً قليلاً من عرض الدنيا.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ يعني: ذا قرابة منّا في الرحم، لأن الميت كان بينه وبينهما قرابة ﴿ولا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ إن سُئلنا عن ذلك. فإن كتمناها يعني: الشهادة: ﴿إِنَّا إِذاً لَمِنَ الآثمين﴾ يعني: الفاجرين.

Marfat.com

ثم وجد الجام بعد ذلك في أيديهما يبيعانه في السوق. وقالا: إنا كنا اشتريناه منه، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فنزل ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً﴾ يعني: خانا وكتما شيئاً من المال ﴿فَآخَرَانِ﴾ من أولياء الميت ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يعني: مقام النصرانيين ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ يعني: يحلف أولياء الميت أن المتاع متاع صاحبنا ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ يعني: يمين المسلمين وشهادتهما أحق يعني: أولى من شهادة الكافرين. ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ في الشهادة والدعوى ﴿إِنَّا إِذاً﴾ اعتدينا فحينئذٍ ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿استَحق﴾ بنصب التاء. وقرأ الباقون: بضم التاء، فمن قرأ بالنصب جعل ﴿الذين﴾ نعتاً للمدّعى عليه ومعناه: فآخران من المستحقين الذين يقومان مقامهما. ومن قرأ بالضم: جعل ﴿الذين﴾ نعتاً للمدعى عليهما. وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر ﴿الأولين﴾. وقرأ الباقون: ﴿الأوليان﴾. فمن قرأ الأولين، يجعله خفضاً لأنه بدل من الذين. فكأنه يقول: من الأولين الذين استحق عليهم. ومن قرأ: ﴿الأوليان﴾ صار رفعاً على البدل مما في ﴿يقومان﴾ المعنى: فليقم ﴿الأوليان﴾ بالميت. وقال القتبي: ﴿الذين استحق عليهم الأوليان﴾ وهما الوليان. يقال: هذا الأولى بفلان. ثم يحذف من الكلام بفلان فيقال: هذا الأولى وهذان الأوليان، كما يقال: هذا الأكبر وهذان الأكبران و ﴿عليهم﴾ ها هنا بمعنى منهم، يعني: استحق منهم كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ٢] يعني: من الناس يستوفون.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾ يعني: ذلك أحرى وأجدر ﴿أن يأتوا بالشهادة﴾. يعني: يقيموا الشهادة ﴿عَلَى وَجْهِهَا﴾ كما كانت. يعني: يقيموا شهادة المدعي مقام شهادة المدعى عليه إذا ظهرت الخيانة، لكي لا يخونا في الشهادة، ويأتيا بالشهادة ﴿على وجهها﴾.

ثم قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: إذا خافا أن ترد اليمين إلى غيرهما، امتنعا عن الكذب. وقد احتج بعض الناس بهذه الآية بأن اليمين ترد على المدعي، ولا حجة له فيه، لأن ردّ اليمين حادثة أخرى، وهو ظهور الخيانة منهما. لأن دعوى الثاني دعوى الشرى، ودعوى الأول دعوى الكتمان.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ ولا تخونوا ﴿واسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به ﴿والله لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ يعني: الخائنين.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ ﴿يوم﴾ صار نصباً، لأن معناه: اتقوا ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُم﴾ يقول: ماذا أجابكم قومكم في التوحيد ﴿قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ من

Marfat.com

هول ذلك اليوم، ومن شدة المسألة، وهي في بعض مواطن يوم القيامة قالوا: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ما كان وما لم يكن.

وروى أسباط عن السدي قال: نزلوا منزلاً ذهبت فيه العقول فلما سئلوا، قالوا: لا علم لنا. ثم نزلوا منزلاً آخر، فشهدوا على قومهم، ويقال: هذا عند زفرة جهنم فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل عند ذلك إلا قال: نفسي نفسي، فعند ذلك قالوا: ﴿لا علم لنا﴾. ويقال: كان ذلك عند أول البعث، ثم يشهدون بعد ذلك بتبليغ الرسالة.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾، بالنبوة وهذا يكون في الآخرة ﴿وعلى والدتِكَ﴾ يعني: النعمة التي أنعم الله عليه في الدنيا قال: ﴿إذ أيدتك بروح القُدُسِ﴾ يعني: اعنتك بجبريل و﴿تُكلِّمُ النَّاسَ في المهْدِ وَكَهلاً﴾ يعني: بعد ثلاثين سنة حين أوحى الله إليه، قال الكلبي: فمكث في رسالته ثلاثين شهراً، ثم رفعه الله ويقال: أوحي إليه وهو ابن ثلاثين سنة، ومكث في الرسالة ثلاث سنين، ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

قال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾ يعني: الخط بالقلم ﴿والحكمة﴾ يعني: الفقه والفهم ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالإنجيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِن الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ بإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ وقال في موضع آخر: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] بلفظ التذكير، لأنه انصرف إلى الطير. وقال ها هنا ﴿فتنفخ فيها﴾ بلفظ التأنيث، لأنه انصرف إلى الهيئة المتخذة. ويقال ﴿فيها﴾: يعني في الطين ﴿فتكون طَيْراً بإذْنِي﴾. قرأ نافع: ﴿طائراً﴾ بالألف. وقرأ الباقون: ﴿طيراً﴾.

﴿وتُبرِىءُ الأكمَهَ والأبرَصَ بإذْنِي وإذْ تخرِجُ المَوْتَى بإذْنِي﴾ يعني: تحيي الموتى بإذني، يعني: أحييته بدعائك. وروي عن وهب بن منبه أنه قال: التقى عيسى ابن مريم عليه السلام وإبليس على عقبة من عقبات بيت المقدس، فقال له إبليس: أنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلم الناس في المهد صبياً، وأنك تحيي الموتى، وتبرىء الأكمه والأبرص؟ فقال عيسى عليه السلام: بل العظمةُ لله بإذنه أحييتُ الموتى، وهو الذي أنطقني. فقال إبليس: أنت إله الأرض. فقال عيسى عليه السلام: بل إله الأرض والسماء واحد. فكان في ذلك حتى جاء جبريل وضربه بجناحه وألقاه في لجج البحار.

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾ إذ هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالعلامات والعجائب ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَروا مِنهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: سحر ظاهر. قرأ حمزة والكسائي: ﴿ساحر﴾ بالألف. وقرأ الباقون: ﴿سحر﴾ فمن قرأ بالألف يعني: هذا رجل ساحر. ومن قرأ بغير ألف يعني: هذا الفعل سحر. والاختلاف في أربع مواضع: هاهنا، وفي سورة يونس، وفي سورة هود، وفي سورة الصف. قرأ حمزة والكسائي في هذا كله: بالألف. وقرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر في هذا كله: بغير ألف. وقرأ عاصم وابن كثير: بغير ألف إلا في سورة يونس.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إلى الحَوارِيِّين﴾ يعني: ألهمتهم وألقيت في قلوبهم. ويقال: أوحيت إلى عيسى ليبلغ الحواريين: ﴿أن آمِنوا بي﴾ يعني: صدقوا بتوحيدي ﴿وَبِرَسُولي﴾ فلما أبلغهم الرسالة ﴿قالُوا آمَنَّا﴾ يقول: صدقنا بهما ﴿وَاشْهَدْ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مقرون. ويقال: هذا معطوف على أول الكلام. ﴿إذ قال الله يا عيسى﴾. وقال له أيضاً: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ يعني: ألهمتهم. وقال مقاتل: يقوم عيسى خطيباً يوم القيامة بهذه الآيات، ويقوم إبليس خطيباً لأهل النار بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قالَ الحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قرأ الكسائي: بالتاء ﴿هل تستطيع ربَّك﴾ وبنصب الباء. وقرأ الباقون: بالياء وبضم الباء. فمن قرأ: بالتاء ﴿هل تستطيع ربك﴾ معناه: هل تستطيع أن تدعو ربك؟ ومن قرأ: بالياء معناه: هل يجيبك ربك؟ ﴿أن يُنزِلُ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ﴾ وذلك أن عيسى كان إذا خرج، اتَّبعه خمسة آلاف أو أقل أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه، وبعضه كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض بهم أو علة، أو كانوا زمنى، أو عمياناً. وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون، وبعضهم نظارة. فخرج إلى موضع، فوقعوا في مفازة ولم يكن معهم نفقة، فجاعوا. فقالوا للحواريين: قولوا لعيسى حتى يدعو الله بأن ينزل علينا مائدة من السماء. فجاءه شمعون، فأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء ف﴿قالَ﴾ عيسى لشمعون: قل لهم ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ويقال: هذا القول قاله للحواريين: قل لهم ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ فلا تسألوا

Marfat.com

لأنفسكم البلاء. فأخبر شمعون بذلك القوم فـ﴿قَالُوا﴾ لشمعون قل له: ﴿نريد أن نأكل منها﴾ يعني المائدة ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ حتى تسكن قلوبنا إلى ما دعوتنا إليه ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ بأنك نبي ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لمن غاب عنا، ولمن بعدنا، فقام عيسى وصلى ركعتين.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

ثم قال: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأولنا وآخرنا﴾ وكان يوم الأحد، فصار ذلك اليوم عيداً لهم. ويقال: ﴿عيداً لنا﴾ يعني: حجة علينا ﴿وآخرنا﴾ يعني: حجة لمن بعدنا ﴿وآية منك﴾ يعني: نزولها علامة منك لنبوّتي ﴿وارزقنا﴾ يعني: وأعطنا المائدة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ من غيرك.

فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: ﴿إني مُنزلها عليكُمْ﴾ ما سألتم من المائدة ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ يعني: بعد نزول المائدة ﴿مِنكُمْ﴾ ويكفر بعيسى عليه السلام بعد أكله من المائدة ﴿فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ يعني: أحداً من الخلق. وقال بعضهم: هذه كلمة تهديد ولم ينزل عليهم المائدة.

ـ **وروي** في بعض التفاسير أنهم قالوا لعيسى: رضينا بما في هذه الآية، فقال عيسى عليه السلام لشمعون وكان أكبر الحواريين: هل معك شيء من الزاد؟ قال: نعم، فجاءه بخمسة أرغفة، وسمكتين صغيرتين، فقطعهما قطعاً صغاراً ثم قال: اجلسوا رفقاء، فقعدوا عشرة عشرة، فألقى عيسى عليه السلام بين يدي كل رفقة قدر ما يحمله بإصبعيه، فجعل الطعام يزيد حتى جاوز ركبهم فشبعوا. وفضل خمسة، ثم عاد من الغد ففعل مثل ما فعل بالأمس[(١)] ـ.

ـ **وروي:** أن الرغيف والسمكتين نزلت من السماء وهم ينظرون إليها. وقيل: كانت مائدة من درّ، أو بلّور، وقيل: عليها الفواكه إلا الخبز واللحم، وكان الجميع خمسة آلاف[(٢)] ـ، وقال عامة المفسرين: إن المائدة قد أنزلت عليهم. وروي عن سلمان الفارسي: أن عيسى عليه السلام قام ولبس جبة من شعر، وقام ووضع يمينه على يساره، وطأطأ رأسه خاشعاً لله تعالى، وبكى حتى سالت الدموع على لحيته وصدره، وهو يدعو ويتضرع، فنزلت مائدة من السماء فوقها منديل والناس ينظرون إليها، وعيسى عليه السلام ينظر ويبكي ويقول: اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة، حتى استقرت المائدة بين يدي عيسى والناس حوله. قال عيسى عليه

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ». (٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

السلام: بسم الله، وكشف المنديل للناس، فإذا فيه سمكة مشوية لا شوك فيها. والوَدَك يسيل منها، والخل عند رأسها، والملح عند ذنبها، وعليها أربعة أرغفة وعليها ألوان البقول إلا الكراث. فقال: كلوا من رزق ربكم، فأكل منها ألف رجل. ويقال: خمسة آلاف رجل، ورجعت المائدة كما كانت. وقال بعضهم: نزلت يوماً واحداً ولم تنزل أكثر من ذلك. وقال بعضهم: ثلاثة أيام، وقال بعضهم: سبعة أيام. وقال بعضهم: أكثر من ذلك. فلما رجعوا عن ذلك الموضع شكوا فيه وكفروا، فمسخهم الله خنازير.

وروي عن ابن عمر أنه قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون».

وروي عن أبي عبد الرحمن السُّلمي قال: «نزلت المائدة وفيها خبز وسمكة». وعن عطية العوفي قال: «كانت سمكة فيها طعم كل شيء».

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم﴾ يعني: يوم القيامة **﴿أأنت قلت للناس اتخذوني﴾** روى أسباط عن السدي قال: لما رفع عيسى، وقالت النصارى ما قالت، وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك، سأله الحق جلَّ وعلى عن قولهم. وقال الضحاك: يدعى بعيسى يوم القيامة، ويدعى بالنصارى، فيقفهم، ويسأله ليفضحهم على رؤوس الناس. وقال الزجاج: هو سؤال التوبيخ للذين ادّعوا عليه، لأنهم مجمعون أنه صادق وأنه لا يكذبهم الصادق عنده، وذلك أوكد في الحجة عليهم وأبلغ في التوبيخ. والتوبيخ: ضرب من العقوبة. ويقال: إن الله تعالى لما قال لعيسى: **﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ الله﴾** أخذته الرِّعدة من هيبة الله تعالى ومن هيبه ذلك القول، حتى سمع صوتا عظيماً في نفسه **﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾** فنزُّه الرب عن ذلك، أن يكون أمرهم بذلك. فقال: **﴿ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليسَ لي بحقٍّ﴾** يقول: ما ينبغي وما يجوز لي أن أقول ما ليس لي بحق. يعني: ليس بعدل أن يعبدوا غيرك **﴿إن كنتُ قُلْتُه﴾** يعني: إن قلت لهم ذلك القول **﴿فَقَدْ عَلِمْتَه﴾** فإنك **﴿تعلم ما في نفسي﴾** يعني: ما كان مني في الدنيا **﴿ولا أعلم ما في نفسك﴾** يعني: ولا أطلع على غيبك وما كان منك.

وقال أهل اللغة: نفس الشيء: جملة الشيء وحقيقته وذاته، فمعناه: تعلم ما في

Marfat.com

ضميري، ولا أعلم ما في حقيقتك وغيبك. ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ما كان وما يكون. وقيل: ﴿تعلم ما في نفسي﴾ التي نسبت إلي، وأمرتني بالتسليم إليك. ﴿ولا أعلم ما في نفسك﴾ التي سلمت إليك، فأنت مالكها بجميع ما كان وما يكون منها، و﴿أنت علام الغيوب﴾ قبل كونها وكون فعلها. قرأ حمزة: ﴿الغيوب﴾ بكسر الغين والباقون: بضمّ الغين ومعناهما واحد. وقرأ نافع وعاصم وابن عامر: ﴿إني منزّلها﴾ بالتشديد. وقرأ الباقون: بالتخفيف. وهما لغتان نَزّل وأنْزَل بمعنى واحد.

ثم قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ يعني: في الدنيا بالتوحيد ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ يعني: وحّدوا الله وأطيعوه ﴿ربي وربكم﴾ يعني: خالقي وخالقكم ﴿وكنت عليهم شهيداً﴾ يعني: على بني إسرائيل، أني: بلغتهم الرسالة. ويقال: ﴿شهيداً﴾ يعني: حفيظاً بما أمرتهم ﴿ما دُمْتُ فيهم﴾ يعني: ما دمت مقيماً في الدنيا بين أظهرهم. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ يعني: رفعتني إلى السماء ﴿كُنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: الحفيظ والشاهد عليهم. ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ من مقالتي ومقالتهم. وما أدري ما أحدثوا بعدي ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ قرأ ابن مسعود: ﴿فإنك أنت الغفور الرحيم﴾ وقرأ غيره: ﴿العزيز الحكيم﴾ فإن قيل: كيف سأل المغفرة للكفار؟ قيل له: لأن عيسى علم أن بعضهم قد تاب ورجع عن ذلك. فقال: ﴿إن تعذبهم﴾ يعني: الذين ماتوا على الكفر، فإنهم عبادك وأنت القادر عليهم ﴿وإن تغفر لهم﴾ يعني: الذين أسلموا ورجعوا عن ذلك. وقال بعضهم: احتمل أنه لم يكن في كتابه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦] فلهذا المعنى دعا لهم، ولكن التأويل الأول أحسن. ويقال: ﴿إن تغفر لهم﴾ يعني: لكذبهم الذي قالوا به عليّ خاصة، لا لشركهم. وهذا التأويل ليس بسديد، والأول أحسن. وروي عن أبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية ذات ليلة، فردّدها حتى أصبح: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم﴾ فإنهم عبادك ـ وقال بعضهم: في الآية تقديم وتأخير، ومعناه: ﴿إن تعذبهم﴾ ﴿فإنك أنت العزيز الحكيم﴾. ﴿وإن تغفر لهم﴾ ﴿فإنهم عبادك﴾[1] ـ

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ قرأ نافع: ﴿هذا يومَ﴾ بالنصب. وقرأ الباقون: بالرفع. فمن قرأ بالنصب فعلى الظرف. أي: قال الله تعالى هذا لعيسى في يوم

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

ينفع الصادقين صدقهم. ومن قرأ: بالرفع فعلى معنى خبر هذا يعني: هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم. ويقال: ينفع النبيين صدقهم بتبليغ الرسالة. ويقال: ينفع المؤمنين إيمانهم ﴿لهم جناتٌ تَجْري من تَحْتِهَا الأنهَارُ﴾ يعني: ثوابهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم﴾ بالطاعة ﴿ورضوا عنه﴾ بالثواب ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ يعني: المؤمنين فازوا بالجنة.

قوله تعالى: ﴿لله ملك السموات والأرض﴾ يعني: خزائن السموات والأرض ﴿وما فيهنّ﴾ من الخلق كلهم عبيده وإماؤه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني: من خلق عيسى من غير بشر والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد.

Marfat.com

سورة الأنعام

مكية إلا ثلاث آيات مدنية وهي مائة وخمس وستون آية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال مقاتل: سورة الأنعام كلها مكية غير قوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: سورة الأنعام كلها مكية غير ست آيات ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ إلى آخر الآيات الثلاث وقوله: ﴿وما قدروا الله حق﴾ . . . وقوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ وقيل: نزلت جملة واحدة، وشيعها سبعون ألف ملك. قال شهر بن حوشب: نزلت الأنعام جملة واحدة، وهي مكية غير آيتين: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ وقال: بعضهم: كلها مكية. وقال كعب الأحبار: مفتاح التوراة قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ وخاتمتها، خاتمة سورة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة هود: ١٢٣].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الحمد لله﴾ حمد الرب نفسه، ودلّ بصنعه على توحيده، ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ يعني: خلق السموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وخلق الأرض وما فيها **﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنورَ﴾** يعني: خلق الليل والنهار. ويقال: الكفر والإسلام. وقال الضحاك: هذه الآية نزلت في شأن المجوس، قالوا: الله خالق النور، والشيطان خالق الظلمة، فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم، ورداً عليهم، فقال: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ يعني: أن الله واحد لا شريك له، وهو الذي خلق السموات والأرض، وهو الذي خلق الظلمات والنور **﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** يعني: المجوس **﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾** يعني: يشركون. ويقال ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ يعني: مشركي مكة ﴿بربهم يعدلون﴾ يعني: يعبدون الأصنام.

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: آدم، وأنتم من ذريته ونسله **﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾** يعني: أجل ابن آدم منذ يوم ولد إلى يوم يموت. **﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾** يعني: البرزخ

(١) في النسخة «أ».

Marfat.com

منذ يموت إلى يوم البعث، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، فهذا قول مقاتل والحسن. وقال عكرمة: ﴿أجلاً﴾ يعني: أجل الدنيا ﴿وأجل مسمى﴾ يعني: أجل الآخرة، وهكذا قال سعيد بن جبير: ويقال ﴿أجلاً﴾ يعني: أجل واحد ﴿وأجل مسمى﴾ يعني: يوم القيامة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ يعني: تشكون في البعث بعد الموت وفي الأجل المسمى.

ثم قال: ﴿وَهُوَ اللهُ في السَّمٰوَاتِ وفي الأَرْضِ﴾ يعني: هو المتفرد بالتدبير في السموات ﴿وفي الأرض﴾ وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] يعني: وهو خالق السموات والأرض. ويقال: هو الذي يوحد ويقر بوحدانيته أهل السموات والأرض. ويقال: عالم بما في السموات وبما في الأرض. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ يعني: يعلم سر أعمالكم ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ يعني علانيتكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشر فيجازيكم بذلك.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

ثم أخبر عن أمر المشركين فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ من آيةٍ من آياتِ رَبِّهِمْ إلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضين﴾ ولم يتفكروا فيها ليعتبروا في توحيد الله تعالى. وذلك أن مشركي مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم علامة، وقالوا: إنا نريد أن تدعو لينشق القمر نصفين لنؤمن بك وبربك، ونصدقك. فدعا رسول الله ﷺ، فانشق القمر نصفين، وذهب أحد النصفين إلى جانب حراء، والآخر إلى جانب آخر وهم ينظرون إليه. وقال ابن مسعود: «أنا رأيت حراء بين فلقتي القمر»، فأعرضوا عنه فلم يؤمنوا. وقالوا: هذا سحر مبين. فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ [القمر: ١، ٢] ونزلت هذه الآية: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ يعني: انشقاق القمر ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾.

يقول الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني: بالقرآن حين جاءهم به محمد ﷺ، واستهزؤوا بالقرآن بأنه ليس من الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ ما كانوا به يستهزئون﴾ يعني: سيعلمون جزاء تكذيبهم واستهزائهم بالقرآن بأنه ليس من الله تعالى، ويقال: يأتيهم أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب حين رأوها معاينة. فهذا وعيد لهم، أنه يصل إليهم العذاب إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

ثم وعظهم ليخافوا ويرجعوا فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ يعني: من قبل كفار مكة ﴿مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ﴾ يعني: مكناهم وأعطيناهم من المال والولد ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن

Marfat.com

﴿لَكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَاراً﴾ يعني: أرسلنا المطر متتابعاً كلما احتاجوا إليه. ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ يعني عذبناهم ﴿بِذُنُوبِهِم﴾ وبتكذيبهم رسلهم ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ يعني: وجعلنا من بعد هلاكهم ﴿قَرْناً آخَرِينَ﴾ قال الزجاج: القرن أهل كل مدة فيها نبي أو فيها طبقة من أهل العلم. كما قال النبي ﷺ: «خَيْرُ الْقُرُونِ أَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ﴾ ذلك أن النضر بن الحارث وعبد الله بن أمية وغيرهما قالوا لرسول الله ﷺ: لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً من السماء. قال تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس﴾ يقول: مكتوباً في صحيفة ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ يقول: عاينوه وأخذوه بأيديهم ما يصدقونه ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يقول الذين كفروا: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ولا يؤمنون به.

ثم قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ من السماء فيكون معه نذيراً. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً﴾ يعني: من السماء ﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ يعني: لهلكوا إذا عاينوا الملك ولم يؤمنوا ولم يصدقوا لنزل العذاب بهم ﴿ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ﴾ يعني: لا ينتظر بهم حتى يعذبوا. ويقال: لو نزل الملك لنزل بإهلاكهم. ويقال: لو أنزلنا ملكاً لا يستطيعون النظر إليه فيموتون.

ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاه مَلَكاً﴾ يعني: لو أنزلنا ملكاً بالنبوة ﴿لَجَعَلْنَاه رَجُلاً﴾ يعني: لأنزلناه على شبه رجل، على صورة آدمي. ألا ترى أنهم حين جاؤوا إلى إبراهيم عليه السلام جاؤوا على صورة الضيفان. وعلى داود عليه السلام مثل الخصمين؟ وكان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ على صورة دحية الكلبي.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُون﴾ يعني: لو نزل الملك على أشباه الآدميين لا يزول عنهم الاشتباه والتلبس، وروى بعضهم عن ابن عامر أنه قرأ: ﴿ما يلبسون﴾ بنصب الباء يعني: جعلنا عليه من الثياب ما يلبسونه على أنفسهم، ظنوا أنه آدمي. والقراءة المعروفة: بالكسر. يقال: لبس يلبس إذا لبس الثوب، ولبس يلبس: إذا خلط الأمر. وقال القتبي: ﴿وللبسنا﴾ يعني: أضللناهم بما ضلوا به من قبل أن يبعث الملك.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد، كما استهزأ بك قومك في أمر

Marfat.com

العذاب ﴿فحاق بالَّذِين﴾ يقول: وجب ونزل بالذين ﴿سَخِرُوا مِنهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهزِئُونَ﴾ بالرسل. ويقال: ﴿فحاق﴾ أي: فرجع. وقال أهل اللغة: الحَيْق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فَعَلَتْهُ نفسُه. كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وقال الضحاك: كان النبي ﷺ جالساً في المسجد الحرام مع المستضعفين من المؤمنين: بلال بن رباح، وصهيب بن سنان، وعمار بن ياسر، وغيرهم من المسلمين، فمر بهم أبو جهل بن هشام في ملأ من قريش وقال: يزعم محمد أن هؤلاء ملوك أهل الجنة، فأنزل الله تعالى على رسوله هذه الآية ليثبِّت بها فؤاده، ويصبِّره على أذاهم فقال: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾ يعني: إن سخر أهل مكة من أصحابك فقد فعل ذلك الجهلة برسلهم، فجعل الله تعالى دائرة السوء على أهل ذلك الاستهزاء.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم أمر المشركين بأن يعتبروا بمن قبلهم، وينظروا إلى آثارهم في الأرض فقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأرْضِ﴾ أي: قلْ لأهل مكة سافروا في الأرض ﴿ثُمّ انظُرُوا﴾ يعني: اعتبروا ﴿كيف كَانَ عاقِبَة﴾ يعني: آخر أمر ﴿الْمُكَذِّبِين﴾ بالرسل والكتب. وقال الحسن: ﴿سِيرُوا في الأرضِ﴾ يعني: اقرؤوا القرآن فانظروا كيف كان عاقبة المتقدمين في العذاب. فقال أهل مكة للنبي ﷺ: إن فعلت هذا الفعل لطلب المال، فاترك هذا الفعل، فإنّا نجمع لك مالاً تصير به أغنى أهل مكة. فنزل: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ والأرضِ﴾ فإن أجابوك وإلا فـ﴿قُلْ لله﴾ يعني: ما في السموات وما في الأرض كلها لله تعالى، يعطي منها من يشاء من عباده.

ثم قال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِه الرَّحْمَة﴾ فلا يعذبكم في الدنيا. وروى عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنهَا وَاحِدَةً فَقَسَمَها بَيْنَ الخَلْقِ فِبِها يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعطِفُ الوُحُوشُ عَلَى أَوْلادِها، وَادَّخَرَ لِنَفْسِهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبادَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ»(١).

ويقال: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ حيث أمهلهم ولم يهلكهم ليرجعوا ويتوبوا.

ثم قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ الْقِيَامَة﴾ يعني: ليجمعنكم يوم القيامة. وهذا كما يقال: جمعت هؤلاء إلى هؤلاء أي: ضممت بينهم في الجمع ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني: في البعث أنه كائن.

ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُون﴾ وقال بعضهم: هذا ابتداء وخبره ﴿لا يؤمنون﴾. وقال بعضهم: هذا بدل من قوله: ﴿ليجمعنكم﴾.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث سلمان (٢٧٥٣) (٢١) وأحمد: ٥/٤٣٩.

Marfat.com

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

ثم عظّم نفسه فقال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ يعني: ما استقر ﴿في اللّيلِ والنّهارِ﴾ من الدواب والطير في البحر والبرّ، فمنها ما يستقر بالليل وينتشر بالنهار، ومنها ما يستقر بالنهار وينتشر الليل.

ثم قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ يعني: ﴿السميع﴾ لمقالتهم، ﴿العليم﴾ بعقوبتهم.

ثمّ قال: ﴿قُلْ أَغَيرَ الله أتّخِذُ وَلِيًا﴾ يعني: ربّاً وذلك أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: إنّ آباءك كانوا على مذهبنا وديننا، وإنما تركت أنت مذهبهم ودينهم للحاجة، فارجع إلى مذهب آبائك حتى نعينك بالمال. فنزل ﴿قل أغير الله أتخذ ولياً﴾ يعني: أعبد رباً ﴿فاطر السّموات والأرض﴾ يعني: خالق السموات والأرض، ويقال: مبتدئهما. ومنه قول النبي ﷺ: **«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»**[1] وإنما أبواه على ابتداء الخلقة، وهو الإقرار بالله حين أخذ عليهم العهد في أصلاب آباءهم. وإنما صار ﴿فاطر﴾ كسراً لأنه من صفة الله تعالى يعني: أغير الله فاطر السموات والأرض. وقال الزجاج: يجوز الضم على معنى: هو فاطر السموات والأرض، ويجوز النصب على معنى: اذكروا فاطر السموات، إلا أن الاختيار الكسر.

ثم قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ يعني: يرزق الخلق ولا يُرزقُ ويقال: هو يرزق ولا يعان على رزق الخلق. وقرأ بعضهم: ﴿وهو يُطعِمُ ولا يَطعَم﴾ بنصب الياء يعني: يرزق ولا يأكل.

ثم قال: ﴿قُلْ إنّي أُمِرْتُ أنْ أكُونَ أوّلَ مَنْ أسْلَمَ﴾ من أهل مكة يعني: أول من أسلم من أهل مكة واستقام على التوحيد ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ يعني: قال لي ربي: لا تكونن من المشركين بقولهم: ارجع إلى دين آبائك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إنّي أخَافُ إنْ عَصَيتُ رَبّي﴾ يعني: إني أعلم إن عصيت ربي فرجعت إلى دين آبائي، وعبدت غيره. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: عذاباً شديداً في يوم القيامة.

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ سوء العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَه﴾ يعني: غفر له وعصمه. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عامر وعاصم في رواية حفص ﴿من يُصرَف عنه﴾ بضم الياء ونصب الراء على معنى

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (١٣٥٨) (١٣٥٩) و(١٣٨٥) و(٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨) وأحمد ٢/ ٣٩٣ والترمذي (٢١٣٨).

Marfat.com

فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿من يَصرف﴾ بنصب الياء ومعناه: من يصرف الله عنه. ولأنه سبق ذكره قوله: ﴿ربي﴾ فانصرف إليه.

ثم قال: ﴿وَذَلِكَ الفوزُ المُبين﴾ يعني: صرف العذاب: هو النجاة الوافرة. وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لا يَنْجُو أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» قالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال: «وَلا أَنَا إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَتِهِ» يعني: أن الخلق كلهم ينجون برحمة الله تعالى.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

ثم خوّفه ليتمسك بدينه فقال تعالى: ﴿وَإنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ﴾ يعني: إن يصبك الله بشدة أو بلاء ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ﴾ يعني: لا يقدر أحد من الآلهة التي يدعونها ولا غيرها كشف الضر إلا الله ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: وإن يصبك بسعة أو صحة الجسم فإنه لا يقدر أحد على دفع ذلك. ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الغنى والفقر والعافية.

ثم قال: ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ﴾ يقول: الغالب والعالي عليهم. ويقال: القادر والمالك عليهم ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ﴾ في أمره ﴿الخَبِيرُ﴾ بأفعال الخلق.

ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكبَرُ شَهَادَةً﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: يا محمد أما وجد الله رسولاً غيرك، وما نرى أحداً من أهل الكتاب يصدقك بما تقول فأرنا من يشهد لك أنك رسوله. فقال الله تعالى: ﴿قل﴾: لأهل مكة ﴿أي شيء أكبر شهادة﴾ يعني: حجة وبرهاناً ويقال: من أكبر شهادة؟ فإن أجابوك وإلا فـ﴿قُلِ الله شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأني رسول الله، والشهيد في اللغة: هو المبيّن، وإنما سمى الشاهد شاهداً لأنه يبيّن دعوى المدعي، بأمر الله نبيه عليه السلام بأن يحتج عليهم بالله الواحد القهار الذي خلق السموات و الأرض، وجعل الظلمات والنور، وخلقهم أطواراً.

ثم قال: ﴿وأُوحِيَ إليّ هَذا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يعني: لأخوفكم بالقرآن يا أهل مكة ﴿وَمَنْ بلَغ﴾ يعني: ومن بلغه القرآن سواكم، فأنا نذير وبشير من بلغه القرآن من الجن والإنس. قال قتادة: قال النبي ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً مِنْ كِتَابِ الله تَعَالَى»، فمن بلغه فكأنما عاين النبيّ ﷺ وكلمه. وقال كعب بن محمد القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما رأى رسول الله ﷺ ثم قرأ:

Marfat.com

﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ وقال مجاهد: ﴿لأنذركم به﴾ يعني: أصحاب محمد ﷺ: ﴿ومن بلغ﴾ يعني: من العجم وغيرهم.

ثم قال: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ من الأصنام. فإن قالوا: نعم ﴿قُلْ لا أَشْهَدُ﴾ بما شهدتم ولكن ﴿قُلْ﴾ أشهد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام والأوثان.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ يعني: التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَه﴾ يعني: محمداً عليه السلام بنعته وصفته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ وقال عبد الله بن سلام: أنا أعرف بالنبي ﷺ مني ولا بني، لأني أشهد أنه رسول الله ﷺ، ولا أشهد لابني، لأني لا أدري ما أحدث النساء بعدي.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: كعب بن الأشرف ومن تابعه ممن طلبوا الرئاسة وآثروا الدنيا على الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ يعني: ممن اختلق على الله كذباً باتخاذ الآلهة وقولهم الشرك ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يعني: بالقرآن أنه ليس من عند الله ﴿إنه لا يُفلح الظَّالِمُونَ﴾ يعني: أنه لا يأمن الكافرون من عذابه. قال في اللغة: ﴿إنه﴾: مرة تكون للإشارة مثل قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨] ومرة تكون للعماد مثل قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ﴿وإنه لا يفلح الظالمون﴾.

قوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني: أين آلهتكم التي تزعمون. يعني: تعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ وأصل الفتنة في اللغة: هو الاختبار. ويقال: فتنت الذهب في النار إذا أدخلته فيها لتعلم جودته. وإنما سمي جوابهم فتنة، لأنهم حين سئلوا، اختبروا بما عندهم بالسؤال فلم يكن الجواب من ذلك الاختبار فتنة إلا هذا القول. ويقال: ثم لم تكن معذرتهم وجوابهم ﴿إِلاَّ أَنْ قالوا والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. قال مجاهد: إن المشركين لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر ذنوبهم يقول بعضهم لبعض: يا ويلكم جئتم بما لا يغفر الله لكم. هلموا الآن فلنكْذِبْ على أنفسنا، ونحلف على ذلك، فحلفوا، فحينئذٍ ختم على أفواههم، فتشهد أيديهم وأرجلهم عليهم.

Marfat.com

قرأ ابن عامر وابن كثير وعاصم في رواية حفص: ﴿ثم لم تَكُنْ فتنتُهم﴾ بالتاء لأن الفتنة مؤنث و﴿فتنتهم﴾ بضم التاء، لأنه اسم تكن والخبر ﴿إلا إن قالوا﴾. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ثم لم يكن﴾ بالياء، لأن الفتنة مؤنثة إلا أن تأنيثه ليس بحقيقي، ولأن الفتنة بمعنى: الإفتان فانصرف إلى المعنى ﴿فتنتهم﴾ بالنصب، فجعلاه خبر تكن، والاسم ما بعده. وقرأ أبو عمرو ونافع وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿ثم لم تكن﴾ بالتاء والنصب. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿والله ربَّنا﴾ بنصب الباء. ومعناه: يا ربنا. وقرأ الباقون: ﴿والله ربنا﴾ بكسر الباء على معنى النعت.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ يعني: كيف صار وبال تكذيبهم على أنفسهم. ويقال: يقول الله تعالى للملائكة: ﴿انظُروا كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: انظروا إليهم كيف يكذبون على أنفسهم ﴿وَضَلَّ عَنهُمْ﴾ يعني: ذهب عنهم. ويقال: اشتغل عنهم الآلهة بأنفسها ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله من الكذب في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنهُم مَن يَستَمِعُ إِلَيكَ﴾ يعني: إلى حديثك وقراءتك. ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ يعني: يستمعون ولا ينفعهم ذلك. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أن يَفقَهُوه﴾ يعني: غطاء مجازاة لكفرهم. ﴿وَفِي آذانِهِم وَقراً﴾ يعني: صمماً وثقلاً لا يفقهون حديثك. وقال قتادة: يسمعونه بآذانهم ولا يفهمون منه شيئاً، كمثل البهيمة التي تسمع القول ولا تدري ما هو.

ثم قال: ﴿وَإِن يَرَوا كلَّ آيَةٍ لا يُؤمِنُوا بِهَا﴾ يعني: انشقاق القمر وغيره ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوكَ يُجادِلُونَك﴾ يعني: يخاصمونك بالباطل، وينكرون أن القرآن من الله تعالى ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذا إلاَّ أساطِيرُ الأَوَّلِين﴾ وذلك أن النضر بن الحارث كان يخبر أهل مكة بسير المتقدمين وبأخبارهم فقالوا له: ما ترى فيما يقول محمد ﷺ قال: لا أفهم مما يقول شيئاً، ولا أدري أنه من أساطير الأولين الذي أخبركم به، مثل حديث رستم واسفنديار. وقال القتبي: ﴿أساطير الأولين﴾ واحدها أسطورة واسطارة، ومعناها: الأباطيل والترهات والبسابس، وهي شيء لا نظام له وليس بشيء. وفي هذا دلالة نبوة محمد ﷺ لأنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم بالسر، فيظهر الله أسرارهم للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنهَوْنَ عَنهُ وَيَنأَوْنَ عَنْهُ﴾ يعني: أهل مكة ينهون الناس عن محمد ﷺ أن يتبعوه، ويتباعدون عنه ويقال: نزل في شأن أبي طالب، كان يقول للنبي ﷺ: «إن قريشاً لن

Marfat.com

يصلوا إليك حتى أوسَّد في التراب، فامضِ يا ابن أخي فما عليك غضاضة» يعني: ذلاً، وكان لا يُسلم لأجل المقالة ﴿وهم ينهون عنه﴾ يعني: أنّ أبا طالب ينهي قريشاً عن إيذائه، وينأى عنه، أي يتباعد عن دينه، وهذا قول الكلبي والضحاك ومقاتل. والقول الأول أيضاً قول الكلبي.

ثم قال: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: وما يهلكون إلا أنفسهم ﴿وما يشعرون﴾ بذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ قال الكلبي: يعني: حبسوا على النار. وقال مقاتل يعني: عرضوا على النار. وقال الضحاك: يعني: جمعوا على أبوابها. ويقال: وقفوا على متن جهنم والنار تحتهم. وروي في الخبر: «أن الناس كلهم وقفوا على متن جهنم» وجهنم كأنها متن إهالة، ثم ينادي مناد خذي أصحابك، ودعي أصحابي».

ثم قال: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ يعني: إلى الدنيا ولم يذكر في الآية الجواب، لأن في الكلام ما دل عليه، فكأنه يقول: ولو ترى يا محمد كفار قريش حين وقفوا على النار، لعجبت من ذلك فقالوا: ﴿يا ليتنا نرد إلى الدنيا﴾. ﴿وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين﴾ أي: مصدّقين. قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿ولا نكذِّبَ﴾ ﴿ونكونَ﴾ كلاهما بالنصب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿ولا نكذبُ﴾ ﴿ونكونُ﴾ كلاهما بالضم على معنى الخبر. ومن قرأ بالنصب فلأنه جواب التمني. وجواب التمني إذا كان بالواو أو بالفاء يكون بالنصب. كقولك: ليتك تصير إلينا ونكرمك. وقرأ بعضهم: ﴿ولا نكذبُ﴾ بالضم و﴿نكونَ﴾ بالنصب في رواية هشام بن عمار عن ابن عامر. وقرأ عبد الله بن مسعود: ﴿فلا نكذب﴾ بالفاء.

يقول الله عز وجل: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ﴾ يعني: ظهر لهم ﴿مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ بألسنتهم. لأن الجوارح تشهد عليهم بالشرك، فحينئذٍ يتمنون الرجعة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ يعني: رجعوا إلى كفرهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم: ﴿ولا نكذب بآيات ربنا﴾ لأنهم قد علموا في الدنيا وعاينوه، وقد عاين إبليس وشاهد، ومع ذلك قد كفر وكذلك هاهنا لو رجعوا لكفروا كما كفروا من قبل، لأنك ترى في الدنيا إنساناً أصابه مرض أو حبس في السجن، أخلص بالتوبة لله تعالى أن لا يرجع إلى الفسق، فإذا برأ من مرضه أو أطلق من الحبس رجع إلى الحال الأول.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ

Marfat.com

أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقَالُوا إن هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنيَا﴾ يعني: ما هي إلا آجالنا تنقضي في الدنيا، فيموت الآباء، ويجيء الأبناء ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت. فيبيّن الله تعالى حالهم يومئذٍ فقال: ﴿وَلَوْ ترى إذْ وُقِفُوا﴾ يعني: عرضوا وسيقوا وحبسوا ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يعني: عند ربهم وعند عذاب ربهم ﴿قَالَ أَلَيسَ هَذَا﴾ يعني: أليس هذا العذاب والبعث ﴿بِالحَق قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أقروا في وقت لا ينفعهم الإقرار ﴿قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ﴾ يعني: يقول لهم الخزنة ﴿فذوقوا العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكفُرون﴾ به وتجحدون.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله﴾ يعني: غبن الذين جحدوا بالله، وبالبعث حين اختاروا العقوبة على الثواب ﴿حَتَّى إذَا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة، ومعناه: أنهم جحدوا وثبتوا على جحودهم حتى إذا جاءتهم القيامة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ يعني: يا ندامتنا وحزينا، والعرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أمر عظيم تقع فيه، جعلته نداء كقوله: ﴿يا حسرتنا﴾ و ﴿يَوَيْلَتَنَا﴾ [الكهف: ٤٩] ويا ندامتنا ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ يعني: ضيعنا وتركنا العمل ﴿فِيهَا﴾ يعني: في الدنيا من عمل الآخرة ﴿وَهُمْ يَحْمِلُون أوْزَارَهُم﴾ يعني: آثامهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ يعني: إنهم يحملون آثامهم.

وروى أسباط عن السدي قال: ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا آتاه ملك قبيح الوجه، أسود اللون، منتن الريح، عليه ثياب دنسة، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك فيقول: كذلك كان عملك قبيحاً. فيقول: ما أنتن ريحك، فيقول: كذلك كان عملك منتناً. فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيكون معه في قبره. فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات، فأنت اليوم تحملني، فيركب على ظهره حتى يدخله النار. قال: وذلك قوله: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ وذلك على سبيل المجاز يعني: يحملون وبال ذلك على ظهورهم وعقوبته. ويقال: أوقرت ظهورهم من الآثام. أي: ثقلت وحملت، وأصل الوزر في اللغة: هو الثقل. ثم قال تعالى: ﴿ألاَ سَاءَ مَا يَزِرُون﴾ يعني: بئس ما يزرونه، يعني: يحملونه.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا إلا لَعِب ولَهْوٌ﴾ يعني: لعب كلعب الصبيان يبنون بنيانهم، ثم يهدمونه، ويلعبون ويلهون به ويبنون ما لا يسكنون ويأملون ما لا يدركون.

Marfat.com

ثم قال: ﴿وللدَّارُ الآخِرَةُ﴾ يعني: الجنة ﴿خَيرٌ للَّذينَ يتَّقُون﴾ الشرك والفواحش ﴿أفلا تعقِلُون﴾ أي أن الآخرة أفضل من الدنيا. قرأ ابن عامر: ﴿وَلَدارُ الآخِرَةِ﴾ بلام واحدة بالتخفيف، وبكسر الآخرة على معنى الإضافة. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿أفلا تعقلون﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، والباقون بالياء على معنى المغايبة.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ روى سفيان عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب: قال أبو جهل للنبي ﷺ: «ما نتهمك، ولكن نتهم الذي جئت به»، فنزلت هذه الآية. وروى أبو معاوية عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ وهو حزين فقال: ما يحزنك؟ قال: «كَذَّبَنِي هٰؤُلاءِ». فقال: «إنهم لا يكذبونك، بل يعلمون أنك صادق» فنزلت هذه الآية: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ من تكذيبهم إياك في العلانية ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ﴾ في السر، ويعلمون أنك صادق. وكانوا يسمونه أميناً قبل أن يوحى إليه، فلما أوحي إليه، كذّبوه، فقال: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ وهم يعلمون أنك صادق، والجحد يكون ممن علم الشيء ثم جحده كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] قرأ نافع والكسائي: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد. فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: أنهم لا يجدونك كاذباً. ومن قرأ بالتشديد فمعناه: أنهم لا ينسبونك إلى الكذب، ولا يكذبونك في السر. وقرأ نافع: ﴿يحزنك﴾ برفع الياء، وكسر الزاي. وقرأ الباقون ﴿ليحزنك﴾ بالنصب ومعناهما واحد.

ثم عزاه ليصبر على أذاهم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: أن قومهم كذبوهم كما كذبك قريش ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وأُوذُوا﴾ يعني: صبروا على تكذيبهم وأذاهم ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ يعني: عذابنا لهلاكهم ﴿وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله﴾ يعني: لا مغير لوعد الله. فهذا وعد من الله تعالى للنبي ﷺ بالنصرة، كما نصر النبيين من قبله.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: من خبر المرسلين، كيف أنجيت المرسلين، وكيف أهلكت قومهم. فلما وعد الله تعالى النصرة للنبي ﷺ تعجّل أصحابه لذلك، فأرادوا أن يعجّل بهلاك الكفار فنزل: ﴿وإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ خاطب النبي ﷺ وأراد

Marfat.com

به قومه فقال: إن عظم عليك إعراضهم عن الإيمان، ولا تصبر على تكذيبهم إياك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ﴾ يعني: إن قدرت أن تطلب سِرْباً في الأرض والنافقاء إحدى جحر اليَربوع ﴿أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ﴾ يعني: مصعداً إلى السماء ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ فافعل ذلك على وجه الإضمار. وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] الآية.

وروى محمد بن المنكدر: أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: «إن الله أمر السماء أن تطيعك، وأمر الأرض أن تطيعك، وأمر الجبال أن تطيعك، فإن أحببت أن ينزل عذاباً عليهم» قال: «يا جبريلُ أوخرُ عن أمتي لعلّ الله يتوبُ عليهم».

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شاءَ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى﴾ يعني: لهداهم إلى الإيمان. ويقال: ولو شاء الله لاضطرهم إلى الهدى كما قال في آية أخرى ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ومعناه: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى قهراً وجبراً، ولكن ما فعل وكلفهم وتركهم باختيارهم.

ثم قال: ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ يعني: بأنه لو شاء لهداهم. وقال الضحاك: يعني القدر خيره وشره من الله تعالى، فلا تجعل معرفة ذلك بعد البيان. وقيل: ﴿فلا تكونَن من الجاهلين﴾ بأنه يؤمن بك البعض وإن لم يؤمن بك البعض، وإنما يؤمن بك الذي وفقه الله تعالى للهدى، وهو أهل لذلك.

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ يعني: يطيعك ويصدِّقك الذين يسمعون منك كلام الهدى والمواعظ. قال الزجاج يعني: يسمع سماعَ قابلٍ. فالذي لا يقبل كأنه أصم، كما قال القائل: أصم عما سواه سميع. ويقال: ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ بأنه يؤمن بك بعضهم، ولن يؤمن بك البعض. وإنما يؤمن بك الذي وفقه الله للهدى وهو أهل لذلك. وقال: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ يعني: يعقلون الموعظة.

ثم قال: ﴿وَالمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ الله﴾ يعني: كفار مكة سماهم الله موتى، لأنه لا منفعة لهم في حياتهم ﴿يبعثهم الله﴾ يعني: يحييهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني: الكفار في الآخرة فينبئهم بأفعالهم، فهذا تهديد لهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ يعني: أن الكفار قالوا: هلاّ نزل عليه ﴿آية من ربه﴾ يعني: علامة لنبوته ﴿قُلْ إِنَّ الله قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آية﴾ كما سألوك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لاَ يَعْلَمُونَ﴾

Marfat.com

بأن الله قادر على أن ينزلها. ويقال: قادر على أن ينزلها، ويقال: ﴿لا يعلمون﴾ ما في نزول الآية، لأنه لو نزلت الآية عليهم فلم يؤمنوا بها لاستوجبوا العذاب.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجناحيه﴾ فذكر الجناحين للتأكيد، لأنه يقال: طار في الأمر إذا أسرع فيه، فإذا ذكر الجناحين صار تأكيداً له. وقرأ بعضهم ﴿ولا طائرٌ﴾ بالضم لأن معناه: وما دابةٌ في الأرض ولا طائرٌ، لأن ﴿من﴾ زيادة، فيكون الطائر عطفاً ورفعاً، وهي قراءة شاذة.

ثم قال: ﴿إلاَّ أممٌ أمثالُكُم﴾ أي في الخلق والموت والبعث تعرف بأسمائهم ﴿ما فرطنا﴾ يقول: ما تركنا ﴿في الكتاب﴾ يعني: في اللوح المحفوظ ﴿من شيء﴾ مما يحتاج إليه في القرآن ﴿ثُمَّ إلى ربِهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني: الدواب والطيور ﴿يحشرون﴾ ثم يصيرون تراباً.

وروى جعفر بن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: «يَحْشُرُ الله تعالى الخلق كلهم يوم القيامة، والبهائم والدواب والطيور وكل شيء، فيبلغ من عدله أن يأخذ للجمَّاء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً»[(١)]. وعن أبي ذر قال: «انتطحت شاتان عند النبيﷺ فقال: «**يا أبا ذرّ هَلْ تَدْرِي فِيمَا انْتَطَحَتَا**»؟ قلت: لا قال: «**لٰكِنَّ الله تَعَالَى يَدْرِي فَسَيَقْضِي بَيْنَهُما**»[(٢)].
وقال بعضهم: هذا على وجه المثل، لأنه لا يجري عليهم القلم، فلا يجوز أن يؤاخذوا به. وقال بعضهم: هذا على سبيل الحقيقة، لأنه يجري عليهم القلم في الأحكام، ولكنْ فيما بينهم يؤاخذون به.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبوا بِآياتِنَا﴾ يعني: بمحمدٍ ﷺ والقرآن ﴿صُمٌّ﴾ عن الخير، فلا يسمعون الهدى ﴿وَبُكْمٌ﴾ يعني: خرس لا يتكلمون بالخير ﴿في الظُّلُماتِ﴾ يعني: في الضلالات ﴿مَنْ يَشاء الله يُضْلِلْهُ﴾ يعني: يخذله فيموت على الكفر ﴿وَمَنْ يَشأ يَجعَلْهُ على صراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: يستنقذه من الكفر فيوفقه للإسلام.

---

(١) عزاه السيوطي ٣/٢٦٧ إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه.
(٢) عزاه السيوطي ٣/٢٦٨ إلى ابن جرير.

Marfat.com

ثم قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ الكاف زيادة في بيان الخطاب ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ يعني: القيامة، ثم رجع إلى عذاب الدنيا فقال: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ أي ليدفع عنكم العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن مع الله آلهة أخرى.

قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ قال أهل اللغة: بل للاستدراك والإيجاب بعد النفي، وإنما تستعمل في موضعين: أحدهما: لتدارك الغلط، والثاني: لترك شيء وأخذ شيء آخر. فهاهنا بيّن أنهم لا يدعون غير الله تعالى، وإنما يدعون الله عنهم ليكشف عنهم العذاب.

ثمّ قال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ وإنما قرن بالاستثناء وبالمشيئة، لأن كشف العذاب فضل الله تعالى، وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء.

ثم قال: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يعني: تتركون دعاء الآلهة عند نزول الشدة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ثم ذكر حال الأمم الماضية لكي يعتبروا، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فكذبوهم على وجه الإضمار ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾ يعني: بالخوف والشدة ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ يعني: الزمانة والفقر وسوء الحال والجوع. وقال الزجاج: البأساء: الجوع، والضراء: النقص في الأموال والأنفس ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يعني: لكي يرجعوا إليه ويؤمنوا به. ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ يقول: فهلا إذا جاءهم عذاباً ﴿تَضَرَّعُوا﴾ أي يرجعوا إلى الله ويؤمنوا به حتى يرفع عنهم العذاب يعني: أنهم لو آمنوا لدفع عنهم العذاب، ولكن أصروا على ذلك، فذاك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: جفت ويبست قلوبهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتهم الأصنام.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ثم قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: الأمم الخالية حين لم يعتبروا بالشدة ولم يرجعوا: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النعم والخصب، ويقال: إن الله تعالى يبتلي العوامّ بالشدة، فإذا أنعم عليهم يكون استدراجاً. وأما الخواص فيبتليهم بالنعمة والرخاء، فيعرفون ويعدّون ذلك بلاء. كما روي في الخبر: «إن الله تعالى أوحى إلى موسى بن عمران: إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً إليك فقل: ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُه» فهؤلاء الذين أرسل عليهم، ابتلاهم الله تعالى بالشدة، فلم يعتبروا فيها ولم يرجعوا، ثمّ فتح عليهم أبواب كل خير عقوبة لهم لكي يعتبروا.

Marfat.com

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا أبو عبيد قال: حدثنا محمد بن حميد عن شهاب بن خراش، عن حرملة، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رَأيتَ الله يُعطِي عَبداً مِنَ الدُّنيا عَلى مَعْصِيَةٍ مِمَّا يُحِبُّ فإنَّمَا ذٰلِكَ مِنهُ اسْتِدرَاجٌ»[1]. ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ الآية. وقال الحسن: والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مُكِر له فيها إلا كان قد نقص عمله وعجز رأيه. وما أمسكها الله تعالى عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص عمله وعجز رأيه. قوله: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ يعني: تركوا ما وعظوا به ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ يعني: أرسلنا عليهم كل خير. ويقال: ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من الرزق قرأ ابن عامر: ﴿فتَّحنا﴾ بالتشديد على المبالغة، والباقون بالتخفيف ﴿حَتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من أنواع الخير فأعجبهم ما هم فيه ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني: أصبناهم بالعذاب فجأة ﴿فَإذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يعني: آيسين من كل خير. وقال مجاهد: الإبلاس: الفضيحة. وقال الفراء: المبلس: المنقطع بالحجة. وقال الزجاج: المبلس: الشديد الحسرة والآيس الحزين. وقال بعضهم: في الآية تقديم وتأخير، ومعناه: فلما فتحنا عليهم أبواب كل شيء، ونسوا ما ذكروا به أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون.

ثم قال عز وجل: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: قُطع أصلهم فلم يبق منهم أحد ﴿وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ على هلاك أعدائه واستئصالهم، ويقال: الحمد لله الذي ينتقم من أعدائه، ولا ينتقم منه أحد. ويقال: هذا تعليم ليحمدوه سبحانه على إهلاك الظالمين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أرأيْتُمْ﴾ أي: قل لأهل مكة ﴿أرأيتم إن أخذَ الله سَمْعَكُمْ﴾ فلم تسمعوا شيئاً ﴿وأبْصارَكُمْ﴾ فلم تبصروا شيئاً ﴿وخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ فلم تعقلوا شيئاً ﴿مَنْ إلَهٌ غيرُ الله يأتيكم به﴾ يعني: هل أحد غير الله يخلقها لكم.

ثم قال: ﴿انظُرْ كَيفَ نُصَرِّفُ الآياتِ﴾ أي: كيف تبين لهم العلامات فيما ذكر من تخويفهم ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يعني: يُعرضون ولا يعتبرون. قرأ نافع: ﴿آرأيتم﴾: بمدّ الألف

(١) عزاه السيوطي: ٣/ ٢٧٠ إلى أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

Marfat.com

بغير همز. وقرأ الكسائي بغير مد ولا همز. وقرأ الباقون: بالهمز، فهي كلها لغات العرب.

ثم قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ يعني: فجأة أو علانية ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: لا يهلك إلا القوم الكافرون.

ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ يعني: ليس لهم أن يقترحوا من أنفسهم، وإنما أرسلهم بتبليغ الرسالة مبشرين بالجنة لمن أطاعه، ومنذرين بالنار لمن عصاه. ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ يعني: صدق بالرسل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ يعني: سلك طريقهم، وأصلح العمل. ويقال: أخلص العمل بعد الإيمان ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني: ﴿لا خوف عليهم﴾ من أهوال القيامة، ﴿ولا هم يحزنون﴾ عند الصراط.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني: يصيبهم العذاب بكفرهم، ولا يعذب أحداً بغير ذنب.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم قال: ﴿قُلْ لا أقولُ لَكُمْ عِندِي خَزائِنُ اللهِ﴾ يعني: مفاتيح الرزق ﴿ولاَ أعلَمُ الغَيْبَ﴾ يعني: متى ينزل العذاب بكم. هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأنعام: ٣٧] ﴿ولا أقولُ لَكُمْ إنّي مَلَكٌ﴾ من السماء، إنما أنا بشر مثلكم ﴿إنْ أتبِعُ﴾ يعني: ما أتبع ﴿إلاَّ مَا يُوحَى إليَّ﴾ من القرآن. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتوي الأعْمَى وَالبَصِيرُ﴾ يعني: الكافر والمؤمن ﴿أفَلاَ تَتفكَّرُونَ﴾ في أمثال القرآن ومواعظه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ يعني: خوّف بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُ[illegible]﴾ يعني: الذين يعلمون ﴿أن يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة. وإنما خصّ بالإنذار الذين يعلمون وإن كان منذراً لجميع الخلق، لأن الحجة عليهم وجبت لاعترافهم بالمعاندة، وهم أهل الكتاب كانوا يقرون بالبعث. ويقال: هم المسلمون يعلمون أنهم يبعثون يوم القيامة ويؤمنون به.

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: يعلمون أنه ليس لهم من دون الله، يعني: من عذاب الله ﴿وَلِيٌّ﴾ في الدنيا ﴿وَلاَ شَفِيعٌ﴾ في الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني: أنذرهم لكي يتقوا المعاصي. ويقال: ﴿لعلهم يتقون﴾ لكي يتقوا ويثبتوا على الإسلام، فإنهم إن لم يثبتوا ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ﴾ روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت هذه الآية فيَّ وفي ستة من أصحاب النبي ﷺ منهم: عبد الله بن مسعود، قالت قريش: تدني هؤلاء السفلة هم الذين يلونك؟ فوقع في قلبه أن يطردهم فنزل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾. وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال: كان رجال يستبقون إلى مجلس النبي ﷺ فيهم بلال وصهيب، فيجيء أشراف من قومه وسادتهم فيجلسون ناحية، فقالوا له: إنّا سادات قومك وأشرافهم فلو أدنيتنا لأسلمنا؟ فهمّ أن يفعل فنزل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية. ويقال: إن أبا جهل وأصحابه احتالوا ليطرد النبي ﷺ أصحابه عن نفسه، فقالوا: إن محمداً يتبعه الموالي والأراذل، فلو طردهم لاتّبعناه. فاستعانوا بعمر، فأخبر عمر بذلك رسول الله ﷺ فهمّ النبيّ عليه السلام بأن يفعل ذلك، فنزل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ يعني: يعبدون ربهم ﴿بالغداة والعشي﴾ يعني: يصلون لله في أول النهار وآخره ﴿يُرِيدُونَ﴾ يعني: يريدون بصلواتهم ﴿وجه الله تعالى ما عليك من حسابهم من شيْءٍ﴾ يعني: ما عليك من عملهم من شيء ﴿وَما مِن حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: الإثم، ويقال: معناه، فما عليك إن لم يسلموا، فليس عليك من أوزارهم شيء. ويقال: يعني به، الضعفة من المسلمين، فلا تطردهم لأنه ليس عليك من حسابهم من شيء، أي: ليس عليك من أرزاقهم شيء لكن أرزاقهم على الله.

ثم قال: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: لو طردتهم من مجلسك فتكون من ﴿الظالمين﴾ أي من الضارين بنفسك. قرأ ابن عامر: ﴿بالغدوة﴾ وقرأ الباقون: ﴿بالغداة﴾ وهما لغتان.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

ثم قال ﴿وَكَذلِكَ فَتَنَّا﴾ يقول: هكذا ابتلينا ﴿بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني: الشريف بالوضيع، والعربي بالمولى، والغني بالفقير ﴿لِيَقولوا أَهَؤُلاء مَنَّ الله عليهِمْ من بيننا﴾ فلم يكن الاختبار لأجل أن يقولوا ذلك، ولكن الاختبار كان سبباً لقولهم، وهذا قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فلم يأخذوه لأجل ذلك، ولكن كان أخذهم سبباً لذلك، فكأنهم أخذوه لأجل ذلك، فكذلك هاهنا كان الاختبار لا لأجل أن يقولوا: أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا، لأنهم كانوا يقولون: لو كان خيراً ما سبقونا إليه. ومعناه: ليظهر الذين يقولون: أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا.

قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ يعني: بالموحدين منكم من غيرهم. قال

Marfat.com

الكلبي: فلما نزلت هذه الآية جاء عمر فاعتذر، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: عمر رضي الله عنه ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ يعني: قبلتُ توبتكم. ويقال: قبل الله عذركم. ويقال: المعنى، ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون﴾ يعني: الضعفة من المسلمين، فابتدىء بالسلام، ﴿فقل سلام عليكم﴾ ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ يعني: أوجب الرحمة وقبول التوبة ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾ يعني: من ركب معصية وهو جاهل بركوبها، وإن كان يعلم أنها معصية ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعد السوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل ﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: متجاوز للذنوب، ﴿رحيم﴾ حين قبل التوبة، ويقال: معناه: من عمل منكم سوءاً ثم تاب يغفر له، فكيف لمن كان قصده الخير، فهو أولى بالرحمة.

وروى سفيان عن مجمع، عن ماهان الحنفي قال: جاء قوم إلى النبي ﷺ قد أصابوا ذنوباً عظاماً، فأعرض عنهم، فنزل: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبكم على نفسه الرحمة﴾ قرأ عاصم وابن عامر ﴿أنه من عمل﴾: بنصب الألف. فإنه غفور بالنصب على معنى البناء. و﴿فإنه﴾ بالكسر على معنى الابتداء. وقرأ الباقون: كلاهما بالكسر على معنى الابتداء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ قال القتبي: يعني: نأتي بها متفرقة، شيئاً بعد شيء، ولا ننزلها جملة واحدة متصلة. وقيل: ﴿نفصل الآيات﴾ يعني: نبين الآيات يعني: القرآن ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ﴾ يعني: طريق المشركين لماذا لا يؤمنون، لأنهم إذا رأوا الضعفاء يسلمون قبلهم امتنعوا. ويقال: ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ يعني: تعرُّفهم. قرأ ابن كثير وأبو عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿ولتستبين﴾ بالتاء و﴿سبيلُ﴾ بالضم، لأن السبيل مؤنث كقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨] ومعناه: ليظهر لكم طريق المشركين. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿وليستبين﴾ بالياء ﴿سبيلُ المجرمين﴾ بالضم لأن السبيل هو الطريق، والطريق يذكر ويؤنث. وقرأ نافع: ﴿ولتستبين﴾ بالتاء ﴿سبيلَ﴾ بالنصب يعني: لتعرف يا محمد طريق المشركين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: الأصنام، ويقال معناه: قل إني نهيت عن طرد الضعفاء عن مجلسي، كما نهيت عن عبادة الأصنام.

ثم قال: ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ يعني: لا أذهب مذهبكم. ويقال: لا أتبع هواكم، يعني: لا أرجع إلى دينكم في بغض الفقراء ومجانبتهم ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً﴾ يعني: إن فعلت ﴿ذلك

Marfat.com

فقد ضللت إذاً﴾ قرأ بعضهم: ﴿ضلِلْت﴾ بالكسر وهو شاذ يعني: ضللت سبيل انهدى ﴿وما أنا مِنَ المُهْتَدِينَ﴾ يعني: لم أكن على الحق.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

ثم قال: ﴿قُلْ إنّي عَلَى بَيّنَةٍ مِنْ رَبّي﴾ يعني: على أمر بيّن. ويقال: على دين من ربي. ﴿وَكَذّبْتُمْ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن. ويقال: بالعذاب. وذلك أن النضر بن الحارث قال: إن كان ما تقوله حقاً فأتنا بعذاب الله، فنزل: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني: العذاب ﴿إن الحُكْمُ إلا للهِ﴾ يعني: ما القضاء في ذلك إلا لله في نزول العذاب ﴿يقُصّ الحقّ﴾ بنزول العذاب. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم: ﴿يقص الحق﴾ بالضاد يعني: يبين الحق. ويقال: يأمر بالحق، وقرأ الباقون: ﴿يقص الحق﴾ من القصص، ولكن لا يكتب بالياء، لأن الياء سقطت في اللفظ لالتقاء الساكنين، ويقوم الكسر مقام الياء كقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] فحذفت الواو. وتفسيره: يقضي قضاء الحق، قال ابن عباس رضي الله عنه: «يعني: يقضي بالحق».

ثم قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ يعني: الحاكمين وقيل: القاضين. **ثم قال**: ﴿قُلْ لَوْ أنّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني: العذاب ﴿لَقُضِيَ الأمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بالعذاب ﴿والله أعْلَمُ بالظّالِمِينَ﴾ يعني: بعقوبة الظالمين، أي: هو أعلم متى ينزل بهم العذاب.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ﴾ يعني: خزائن الأرض والرزق ونزول العذاب. ويقال: عنده الوصلة إلى علم الغيب ﴿لاَ يَعْلَمُهَا إلاّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا في البَرّ والبَحْرِ﴾ يعني: يعلم ما يهلك في برِ أو بحرِ. ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحب والنوى، وما في البحر من الدواب وقوت ما فيها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ يعني: من الشجر ﴿إلاّ يَعْلَمُهَا﴾ يعلم وقت سقوطها، وموضع مسقطها. وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «ليس أحد من خلق الله أكثر من الملائكة، وليس من شجرة تخرج إلا وملك موكل بها». ويقال: إن الإنسان كالشجرة، وأعضاءه كالأغصان، والحركات منه كالأوراق، فهو يعلم حركة بني آدم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ حَبّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرْضِ﴾ يعني: تحت الصخرة التي هي أسفل الأرضين السابعة. ويقال: الحبة التي تحت الأرض التي يخرج منها النبات.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ رطْب﴾ يعني: الماء ﴿وَلاَ يابس﴾ يعني: الحجر، ويقال: ﴿ولا

Marfat.com

رطب﴾: يعني العمران والأمصار والقرى ﴿ولا يابس﴾ يعني: الخراب والبادية ﴿إلاَّ في كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ. ويقال: ﴿ولا رطب ولا يابس﴾ يعني: لا قليل ولا كثير ﴿إلا في كتاب مبين﴾ يعني: في اللوح المحفوظ. ويقال: القرآن قد بيّن فيه كل شيء، بعضه مفسر، وبعضه يعرف بالاستدلال والاستنباط. وقرأ بعضهم: ﴿ولا حبة﴾ ﴿ولا رطب ولا يابس﴾ كل ذلك بالضم على معنى الابتداء وهي قراءة شاذة، والقراءة المعروفة بالكسر لأجل: ﴿من﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوفَّاكُم بِاللَّيلِ﴾ يعني: يقبض أرواحكم في منامكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جرحتُمْ بالنهار﴾ يعني: ما كسبتم من خير أو شر بالنهار ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يعني: يحييكم من النوم في النهار ويرد إليكم أرواحكم ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ يعني: ليتم أجلكم وتأكلون رزقكم إلى آخر العمر. قال بعضهم: إذا نام الإنسان تخرج منه روحه كما روي في الخبر «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**» يعني: الأرواح إذا تعارفت وقعت الألفة بين الأبدان، وإذا لم تتعارف الأرواح تناكرت الأبدان. وقال بعضهم: إن الروح إذا خرجت في المنام من البدن تبقى فيه الحياة، فلهذا تكون فيه الحركة والنفس. وإذا انقضى عمره، خرجت روحه وانقطعت حياته، وصار ميتاً لا يتحرك ولا يتنفس. فإن قيل: لو خرجت روحه، فكيف لا يتوجع لخروجها إذا نام؟ قيل: لأنه يخرج بطيبة نفسه ويعلم أنها تعود، وأما إذا انقطع عمره خرج بالكره، فيتوجع به. وقال بعضهم: لا تخرج منه الروح، ولكن يخرج منه الذهن، وهو الذي يسمى بالفارسية روان. وقال بعضهم: إنما هو ثقل يدخل في نفسه، وهو سبب لراحة البدن وغذائه كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩] أي: راحة الأبدان، أخذمن السبوت. ويقال: هذا أمر لا يعرف حقيقته أحد إلا الله، وهذا أصح الأقاويل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إليه مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني: مصيركم في الآخرة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تعمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فيجازيكم بذلك.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ القاهِرُ فَوْقَ عِبادِه﴾ يعني: القادر والغالب عليهم ﴿وَيُرْسِلُ عليكم حَفَظَةً﴾ والحفظة جمع الحافظ، مثل الكتبة والكاتب. يعني به: الملائكة الموكلين ببني آدم: ملكين بالليل، وملكين بالنهار، ويكتب أحدهما الخير، والآخر الشر. فإذا مشى يكون أحدهما بين يديه، والآخر خلفه. فإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله. كقوله تعالى:

Marfat.com

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨] ويقال: لكل إنسان خمسة من الملائكة: اثنان بالليل، واثنان بالنهار، والخامس لا يفارقه بالليل ولا بالنهار.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يعني: حضر أحدكم الوفاة عند انقضاء أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ يعني: ملك الموت وأعوانه. قرأ حمزة ﴿توفّاه﴾ بلفظ التذكير بالإمالة. وقرأ الباقون: ﴿توفته﴾ بلفظ التأنيث. لأن فعل الجماعة إذا تقدم على الاسم جاز أن يذكر ويؤنث. ﴿وهم لا يفرّطون﴾ يعني: لا يؤخّرون طرفة عين، ويقال: معه سبعون من ملائكة الرحمة وسبعون من ملائكة العذاب، فإذا قبض نفساً مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب، ويصعدون بها إلى السماء. وإذا قبض نفساً كافرة دفعها إلى ملائكة العذاب، فيبشرونها بالعذاب، ويفزعونها، ثم يصعدون بها إلى السماء، ثم ترد إلى سجّين، وروح المؤمن إلى عليين ﴿ثُمَّ رُدُّوا إلى الله مَوْلاهُمُ الحَقِّ﴾ يعني: يرد أمورهم إلى الله تعالى ﴿ألا لَهُ الحُكْمُ﴾ ﴿ألا﴾: كلمة التنبيه ومعناه: اعلموا أن الحكم لله يحكم في خلقه ما يشاء، ويقضي بينهم يوم القيامة ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ﴾ يعني: إذا حاسب فحسابه سريع. ويقال: وهو أحكم الحاكمين، وأعدل القاضين.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٦٤ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ البرّ والبحْر﴾ يعني: من أهوالهما وشدائدهما، والظلمات: كناية عن الأهوال والشدائد ﴿تَدْعُونَهُ تضرُّعاً وخُفيةً﴾ وقال الكلبي: سراً وعلانية. وقال مقاتل: يعني. في خفض وسكون. قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿خِفيَةً﴾ بكسر الخاء، والباقون بالضم، وهما لغتان وكلاهما واحد ﴿لَئِنْ أنجانا مِنْ هَذِه﴾ يعني: من غمّ هذه الأهوال والشدائد ﴿لنكونَنَّ مِنَ الشَّاكِرينَ﴾ يعني: من الموحدين. ﴿قُلِ الله يُنَجيكُمْ منها﴾ يعني: من أهوال البر والبحر ﴿ومِنْ كُلِّ كَرْب﴾ يعني: ينجيكم من كل كرب. يعني: من كل غم وشدة ﴿ثُمَّ أنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ يعني: ترجعون إلى الشرك. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿لئن أنجانا﴾ بالألف يعني: أنجانا الله تعالى. وقرأ الباقون ﴿لأن أنجيتنا﴾ على المخاطبة. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿قل الله ينجّيكم منها﴾ بالتشديد. وقرأ الباقون بالتخفيف، ومعناهما واحد. ويقال: أنجى يُنجي ونجّى يُنجّي.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ على أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني: الحصب

Marfat.com

بالحجارة كما فُعِل بقوم لوط، والغرق كما أرسل على قوم نوح. يعني: إن استكبرتم، وأصررتم، وكذبتم رسلي مثل ما فعل قوم نوح، أو فعلتم مثل ما فعل قوم لوط.

ثم قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: يخسف بكم كما خسف بقارون ومن معه، يعني: إن استكبرتم واغتررتم بالدنيا كما فعل بقارون ومن معه.

ثم قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ أي: يخلطكم يعني: الأهوال المختلفة، كما ألبس بني إسرائيل إن تركتم أمر رسولي، واتبعتم هواكم كما فعل بنو إسرائيل **﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾** يعني يقتل بعضكم بعضاً بالسيف كما فعل بالأمم الخالية، إن فعلتم مثل ما فعلوا. فلما نزلت هذه الآية قال النبي: ﷺ **«يا جِبْرِيلُ ما بَقَاءُ أُمَّتِي عَلَى ذٰلِكَ؟»** قال له جبريل: «إِنَّمَا أنا عَبْدٌ مِثْلُكَ فادْعُ رَبَّكَ وَسَلْهُ لأُمّتِكَ» فقام النبي ﷺ فتوضأ، وأسبغ الوضوء، وصلّى فأحسن الصلاة، ثم دعا فنزل جبريل. فَقَالَ: **«يا جِبْرِيلُ ما بَقَاءُ أُمّتِي إذا كان فِيهِمْ أَهْوَاءَ مُخْتَلِفَةٌ وَيُذِيقُ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ؟»**[(١)] فنزل جبريل بهذه الآية **﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾** [العنكبوت: ١ ـ ٢] الآية وقال النبي ﷺ: **«افْتَرَقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفْتَرِقُ أُمّتِي اثْنَانِ وَسَبْعُونَ فِرْقَةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إلاَّ وَاحِدَةً»**. قالوا: يا رسول الله ما هذه الواحدة؟ قال: **«أَهْلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الَّذِي أنا عَلَيْهِ، وأَصْحَابِي»**. وفي خبر آخر. **«السَّوَادُ الأَعْظَمُ»**[(٢)]. وروى عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾ قال رسول الله ﷺ: **«أَعُوذُ بِوَجْهِ الله»** فلما نزلت ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال: **«هاتان أهون»** ويقال: ﴿عذاباً من فوقكم﴾ يعني: سلطاناً جائراً، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ من سفهائكم يعلون عليكم ﴿أو يلبسكم شيعاً، ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ يعني: تقع العصبية أو الفتنة بين المحلتين أو القريتين.

ثم قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ﴾ يعني: نبيّن الآيات من البلاء والعذاب في القرآن **﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾** يعني: يعقلون ما هم عليه.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

ثمّ قال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ يعني: بالقرآن **﴿وَهُوَ الحَقُّ﴾** يعني: القرآن **﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾** يعني: بحفيظ ومسلط. وهذا قبل الأمر بالقتال. **﴿لِكُلِّ نبأ مُسْتَقَرٌّ﴾** المستقر: هو غاية ينتهي إليها. يقال: لكل قول وفعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه، وما كان منه

---

(١) في تفسير القرطبي: ج/ ١١ ـ ١٢ فنزل جبريل وقال: «يا محمد، إن الله سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو: العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم». وفي الدر المنثور للسيوطي: ٣/ ٢٨٩.

(٢) حديث أبي هريرة: أخرجه أبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجة (٣٩٩١) والترمذي (٢٦٤٠) وأحمد: ٢/ ٣٣٢ والحاكم ١/ ١٢٨.

Marfat.com

في الآخرة ﴿فسوف﴾ يبدو لكم، ﴿وسوف تعلمون﴾ ذلك في الدنيا وفي الآخرة، ويقال: معناه: سوف أؤمر بقتالكم إذا جاء وقته ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في ذلك الوقت.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يعني: يستهزئون بالقرآن ﴿فأعرض عنهُمْ﴾ يعني: قم من عندهم، واترك مجالستهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ يعني: حتى يكون خوضهم واستهزاؤهم في غير القرآن ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾ يقول: إن أنساك ﴿الشيطان﴾ وصية الله تعالى، فجلست معهم فقُمْ ﴿فلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: قم إذا ذكرت، ودع ﴿القوم الظالمين﴾. يعني: المشركين. قرأ ابن عامر: ﴿وإما يُنَسِّيَنَّك الشيطان﴾ بنصب النون، وتشديد السين. وقرأ الباقون: بالتخفيف والجزم. وهما لغتان: نسيته وأنسيته.

ثم قال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يعني: الشرك والاستهزاء ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ يعني: من آثامهم ﴿مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى﴾ يعني: ذكرهم بالقرآن إذا فعلوا ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني: لكي يتقوا الاستهزاء. قال الكلبي: وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله: لئن كنا كلما استهزؤوا بالقرآن، قمنا من عندهم، لا نستطيع أن نجلس في المسجد الحرام، فنزل ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً﴾ قال الضحاك: يعني: كفار قريش نصبوا أصنامهم في المسجد الحرام، وقرطوها بالأقراط، وعلقوا بيض النعام في أعناقها. فنزل ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾ وقال الكلبي: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه لله تعالى، وكل قوم اتخذوا دينهم يعني: عيدهم لهواً ولعباً إلا هذه الأمة، فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة لله، وخصّنا بالصدقة، وهي الجمعة والفطر والأضحى. وقال مقاتل: اتخذوا دينهم الإسلام لعباً يعني: باطلاً ولهواً عنه.

ثم قال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّر بِهِ﴾ يعني: عِظْ وَخَوِّفْ بالقرآن ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ يعني: لكي لا تهلك نفس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعني: بما عملت. ويقال: ﴿أن تبسل نفس﴾ يعني: أن تسلم نفس بذنوبها إلى النار وهذا قول الضحاك. وقال الأخفش: أن ترهن نفس بما عملت.

Marfat.com

ويقال: تحبس. وقال القتبي: أن تسلم إلى الهلكة. ويقال: تخذل ولا تنصر.

ثم قال: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ الله وَلِيٌّ﴾ يعني: إذا وقع في العذاب، لم يكن لها مانع يمنعها من العذاب ﴿وَلاَ شَفِيعٌ﴾ يشفع لها ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ يقول: لو جاءت بعدل نفسها رجلاً مكانها، أو يفتدي بما في الأرض جميعاً ﴿لا يؤخذ منها﴾ يعني: لا يقبل منها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني: أهلكوا. ويقال: أبسلوا بذنوبهم إلى النار ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يعني: ماء حار قد انتهى حرّه ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ الله مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا﴾ قال مقاتل: وذلك أن كفار مكة عذبوا نفراً من المسلمين، وراودوهم على الكفر. قال الله تعالى للمسلمين: قولوا لهم ﴿أندعوا من دون الله﴾ يعني: الأوثان ﴿ما لا ينفعنا﴾ في الآخرة ﴿ولا يضرنا﴾ في الدنيا ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ يعني: نعود ونرجع إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا الله﴾ إلى الإسلام ﴿كَالذي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ في الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ فإنّ مثلنا إن اتبعناكم كمثل الذيّ ﴿استهوته الشياطين﴾ يعني: كمثل رجل كان مع قوم، فضلَّ الطريق، فحيره الشيطان و﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى﴾ يعني: إلى الطريق أن ﴿ائتِنَا﴾ فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم. فذلك مثلنا إن تركنا دين محمد عليه السلام. وقال مجاهد: هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار، يقول: الكافر حيران يدعوه المسلم إلى الهدى فلا يجيب الكافر. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «نزلت الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر، كان أبوه وأمه يدعوانه إلى الإسلام، فأبى أن يأتيهما وهو يدعوهما إلى الشرك، فضرب الله تعالى له المثل بالذي استهوته الشياطين» يعني: أضلته.

﴿قُلْ إنَّ هُدَى الله هو الهُدَى﴾ يعني: دين الله هو الإسلام ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِين﴾ يعني: لنخلص بالعبادة والتوحيد لله تعالى. قرأ حمزة ﴿استهواه﴾ بلفظ التذكير بالإمالة. وقرأ الباقون ﴿استهوته﴾ بلفظ التأنيث، لأن فعل الجماعة مقدم، فيجوز أن يذكر ويؤنث كقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ يعني: وأمرنا بالهدى وبالعمل: يعني: أقيموا الصلاة

Marfat.com

﴿واتَّقُوهُ﴾ يعني: وخدوه. ويقال: أطيعوه ويقال: هذا عطف على قوله: و﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ وإلى إقامة الصلاة. ويقال: معناه، أمرنا بالإسلام، وبإقامة الصلاة.

ثم خوّفهم فقال: ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ فيجازيكم بأعمالكم. ثمّ دلَّ على نفسه بصنعه ليوحّدوه فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ﴾ يعني: للحق وللعبرة ﴿ويوم يَقُولُ﴾ اليوم صار نصباً، لأن معناه: واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً. ويقال: معناه واذكروا يوم يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ يعني: يوم البعث يقول: انتشروا في الأرض فانتشروا كلهم من القبور كقوله: ﴿يخرجون من الأجداث﴾ يعني: من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

ثم قال: ﴿قَوْلُه الحَقُّ﴾ قرأ ابن عامر ﴿فيكون﴾ بالنصب على معنى الجزاء في كل القرآن، إلا في موضعين: هاهنا، وفي آل عمران. وقرأ الباقون: بالرفع على معنى الخبر و﴿قوله﴾: رفع الابتداء وخبره: الحق، يعني: قوله الصدق أنه كائن.

﴿وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ اليوم صار نصباً لنزع الخافض. ومعناه: وله الملك في يوم ينفخ في الصور وهذا كقوله عز وجل: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] وكقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] ويقال: هذا مبين لقوله الأول، ومعناه: يوم يقول ﴿كن فيكون﴾. ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ وروي عن أبي عبيدة أنه قال: معناه: يوم يَنْفُخ الأرواح في الصور. يعني: في الأجسام. وهذا خلاف أقاويل جميع المفسرين، لأنهم كلهم قالوا: هو نفخ إسرافيل في الصور. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَهُ» وفي خبر آخر «وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخَ فِيهِ»(١).

ثم قال: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ﴾ ﴿الغيب﴾: ما غاب عن العباد، ﴿والشهادة﴾: ما علم العباد به، ويقال: السر والعلانية. ويقال ﴿عالم﴾ بما يكون وبما قد كان. ويقال: ﴿عالم﴾ بأمر الآخرة وبأمر الدنيا ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ يعني: ﴿الحكيم﴾ في أمره ﴿الخبير﴾ بأفعال الخلق وبأمر البعث.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ وكان اسم أبيه تارَح بن ناخور بلغة قومه، وبلغة غيرهم كان آزر. وقال السدي: كان اسم أبيه آزر، وهكذا قال الكلبي. وقال بعضهم: لم يكن آزر اسم أبيه، ولكن كان اسم أكبر أصنامهم. فقال أبوه لإبراهيم: ربي آزر، فقال إبراهيم على وجه التعجب: آزر. ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً﴾ وقال مجاهد: آزر ليس اسم أبيه، وإنما هو اسم

(١) حديث أبي سعيد أخرجه الترمذي (٢٤٣١) و(٣٢٤٣) وهو حديث حسن. وأحمد ٣/ ٧، ٧٣.

Marfat.com

صنم. وقال الضحاك عن ابن عباس: «إن في هذه الآية تقديماً فكأنه قال: أتتخذ آزر أصناماً آلهة يعني: أتتخذ الصنم إلهاً». ويقال: آزر بلغتهم المخطىء الضال. ومعناه: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه﴾ يا آزر المخطىء الضال أتتخذ أصناماً آلهة. وقرأ الحسن ويعقوب الحضرمي: ﴿آزر﴾ بالضم، ويكون معناه: وإذ قال إبراهيم لأبيه: يا آزر. والقراءة المعروفة بالنصب، لأنه على ميزان أفعل فلا ينصرف فصار نصباً، في موضع الخفض، ولأنه اسم أعجمي فلا ينصرف.

ثم قال: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: في خطأ وجهل بَيِّنٍ بعبادتكم الأصنام.

ثم قال ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ﴾ والملكوت والملك بمعنى واحد، إلا أن الملكوت أبلغ في الوصف مثل: رَهَبُوت وَرَحَمُوت كما يقال في المثل: الرَهَبُوت خير من الرَحَمُوت يعني: أن تُرهب خير من أن تُرحم. يعني: أن إبراهيم لما برىء من دين أبيه آزر أراه الله ﴿ملكوت السَّمَوَاتِ والأرْضِ﴾ يعني: عجائب السموات والأرض ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ يعني: لكي يكون من الموقنين. والواو زيادة كقوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] يعني: لكي نحمل، وكذلك هاهنا ﴿ليكون من الموقنين﴾ يعني: حتى يثبت على اليقين. قال بعضهم: صارت فرجة في السماء حتى رأى إلى سبع سماوات، وصارت فرجة في الأرض حتى رأى إلى تحت الصخرة. ويقال: حين عرج به إلى السماء، فنظر إلى عجائب السموات. وروي عن عطاء أنه قال: لما رفع إبراهيم في ملكوت السماوات، أشرف على عبد يزني فدعا عليه، فهلك. ثم أشرف على آخر يزني فدعا عليه، فهلك. ثم رأى آخر فأراد أن يدعو عليه، فقال له ربه عز وجل: على رِسْلِك يا إبراهيم، فإنك مستجاب لك، اكْفُفْ دعوتك عن عبادي، فإنَّ عبيدي عندي على ثلاث خلال: إما أن يتوب فأتوب عليه، وإما أن أُخرِج منه ذرية طيبة، وإما أن يتمادى فيما هو فيه، فأنا من ورائه، أي أنا قادر عليه.

وروي عن سلمان الفارسي أنه قال: «لما رأى إبراهيم ملكوت السموات، رأى عَبْداً على فاحشة، فدعا عليه فهلك، ثم رأى آخر على فاحشة، فدعا عليه فهلك، ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه فهلك، فقال الله تعالى: أنْزِلوا عبدي كي لا يهلك عبادي. ويقال: إنه كان يقول: أنا أرحم الخلق، فلما رأى المعصية فدعا عليهم، قال الله تعالى: أنا أرحم بعبادي منك، اهبط لعلّهم يرجعون».

ويقال إن نمروذ بن كنعان قالت له كهنته: يولد في هذه السنة غلام ينازعك في ملكك، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة. ويقال: رأى في المنام أن كبشاً دخل عليه، فنطح سريره بقرنيه، فسأل المعبِّرين فأخبروه، أنه يولد غلام ينازعك في ملكك، فأمر بذبح كل غلام يولد. فحملت أم إبراهيم بإبراهيم، ولم يتبيّن حملها، ولم يعرف أحد أنها حامل، حتى أخذها الطَّلْق، فخرجت إلى جبل من الجبال، ودخلت في غار، فولدت إبراهيم عليه السلام. وخرجت

Marfat.com

ووضعت صخرة على باب الغار، فجاءه جبريل عليه السلام ووضع إبهامه في فمه، وكان يمصه ويخرج منه اللبن، وكان يجعل سبابته في فمه فيمصها ويخرج منها العسل، حتى كبر وأدرك في أيام قليلة. ويقال: إن أمه كانت تختلف إليه وترضعه، حتى أرضعته سنتين، وتحمل إليه الطعام حتى أدرك في المدة التي يدرك فيها الصبيان، فخرج من الغار، فنظر إلى السماء وإلى الأرض وإلى الجبال، فتفكر في نفسه ثم قال: إن لهذه الأشياء خالقاً خلقها، والذي خلق هذه الأشياء هو الذي خلقني، فذلك قوله ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ فكان في ذلك التفكير إذا نظر إلى نجم مضيء وهو المشتري، فرآه أضوأ الكواكب. وقد علم أن الله تعالى أعلى الأشياء ولا يشبهه شيء من خلقه، ورأى الكواكب أعلى الأشياء أحسنها فقال: ﴿هذا ربي﴾ وقال ذلك بغير فكره، فكان ذلك منه زلة.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وقال: هذا بغير فكره، فكان ذلك منه زلة. ويقال: إنما قال ذلك على طريق الاستفهام أهذا ربي؟ ﴿فلمّا أفل﴾ يعني: غاب الكوكب ﴿قَالَ: لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ يعني: لا أحب ربنا يتغير عن حاله ويزول ﴿فلمّا رأى القمر بَازِغاً﴾ يعني: طالعاً. ويقال: كان ذلك في وقت السحر، وكان ذلك في آخر الشهر. فرأى كوكباً يعني: الزهرة حين طلعت، وكان من أضوأ الكواكب. فلما ارتفع وطلع الفجر، نقص ضوؤه ف﴿قال لا أحب الآفلين﴾ يعني: لا أحب ربنا يتغير.

﴿فلما رأى القمر﴾ ورأى ضوءه أكثر من ضوء الكوكب ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ على سبيل الاستفهام ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ يعني: نقص ضوؤه حين أسفر الصبح ﴿قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يعني: لئن لم يحفظ ربي قلبي، لقد كنت اتخذت إلٰهاً ما لم يكن إلهاً ﴿فلمّا رأى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ يعني: طالعة قد ملأت كل شيء ضوءاً ف ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ يعني: أعظم وأكمل ضوءاً وأكثر نوراً ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ يعني: غربت. علم أنه ليس بإلٰه. فجاءته أمه فقال لها: من ربي؟ قالت: أنا. قال: ومن ربك؟ قالت: أبوك. قال: ومن رب أبي؟ قالت: نمروذ بن كنعان. قال: ومن ربه؟ قالت له: اسكت. فقال لها: كيف هو؟ هل يأكل ويشرب وينام؟ قالت: نعم. قال: هذا لا يصلح أن يكون ربًا وإلٰهاً. فرجعت الأم إلى أب إبراهيم فأخبرته بالقصة، فخرج إليه فسأله مثل ذلك، ثم قال له في آخره: تعال حتى نعبد الذي حنفني

Marfat.com

وخلقك وخلق نمروذ. فغضب أبوه، فرجع عنه، ثم دخلت عليه رأفة الوالد لولده، فرجع إليه وقال له: ادخل المِصْر لتكون معنا. فدخل فرأى القوم يعبدون الأصنام، فدعوه إلى عبادة الأصنام فـ﴿قَالَ﴾ لهم حينئذٍ: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فقيل له من تَعْبُد أنت يا إبراهيم؟ فقال أعبد الله الذي خلقني وخلق السموات والأرض. فذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ يعني: أخلصت ديني وعملي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ﴾ يعني: خلق السموات ﴿وَالأَرْضَ حَنِيفاً﴾ يقول: إني وجهت وجهي له مخلصاً مستقيماً ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على دينكم. ويقال: إن قوله ﴿هذا ربي﴾ قال ذلك لقومه على جهة الاستهزاء بهم. كما قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] ويقال: أراد بهذا أن يستدرجهم فيظهر قبح قولهم وفعلهم، وخطأ مذهبهم وجهلهم، لأنهم كانوا يعبدون النجوم والشمس والقمر. فلما رأى الكوكب قال لهم: ﴿هذا ربي﴾. وأظهر لهم أنه يعبد ما يعبدون، فلما غاب الكوكب قال لهم: ﴿لا أحب الآفلين﴾ فأخبرهم بأن الآفل لا يصلح أن يكون إلٰهاً. ثم قال في الشمس والقمر هكذا، كما روي عن عيسى عليه السلام أنه بعث رسولاً إلى ملك أرض الروم، فلما انتهى إليهم، جعل يسجد ويصلي عند الصنم ويريهم أنه يعبد الصنم، وهو يريد عبادة الله تعالى. ثم إن الملك ظهر له عدو، فقالوا لهذا الرسول: أشر علينا بشيء في هذا الأمر. فقال لهم: نتشفع إلى هذا الذي تعبدونه، فجعلوا يسجدون له ويتشفعون إليه، فلا يسمعون منه جواباً. فقالوا: إنه لا ينفعنا شيئاً. قال لهم: لم نعبدُ من لا يدفع عنا ضراً؟ ارجعوا حتى نعبد من ينفعنا. فقالوا له: لمن نعبد؟ قال: لرب السماء. فجعل يدعو ويدعون حتى فرّج الله عنهم، فآمن به بعضهم. وكذلك هاهنا أراد إبراهيم أن يريهم قبح ما يعبدون من دون الله، لعلهم يرجعون، فلما لم يرجعوا قال ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿رأى كوكباً﴾ بكسر الراء والألف، وهي لغة لبعض العرب، والنصب أفصح.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّه قَوْمُهُ﴾ معناه: وحاجّه قومه في الله ويقال: وحاجّه قومه في دين الله، يعني: خاصموه فـ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم ﴿أتحَاجُوني في الله﴾ يعني: أتخاصموني في دين الله ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ لدينه. قرأ نافع وابن عامر ﴿أتحاجُوني﴾ بتشديد الجيم وتخفيف النون. وقرأ الباقون

Marfat.com

بتشديد النون. لأن أصله: أتحاجونني بنونين، فأدغم أحدهما في الآخر. فقال: ﴿أتحاجوني﴾ يعني: أتجادلوني في دين الله ﴿وقد هداني﴾ يعني: بيّن لي الطريق. وكانت خصومتهم أنهم حين سمعوه عاب آلهتهم فقالوا له: أما تخاف أن تُخبلك آلهتنا فتهلك؟ فقال لهم، قوله تعالى: ﴿ولا أخاف ما تشركون﴾ إني لا أخاف ما لا يسمع ولا يبصر. وقال الكلبي ومقاتل: لما خوّفوه بذلك قال لهم: إنما تخافون أنتم إذ سوّيتم بين الذكر والأنثى، والصغير والكبير، أما تخافون من الكبير إذ سويتموه بالصغير؟ فذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَخافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾.

ثمّ قال تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ فأخاف منهم. ويقال: ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ يعني: أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم.

ثمّ قال: ﴿وسع ربي كلّ شيءٍ علماً﴾ يعني: ملأ علم ربي كل شيء علماً، يعني: يعلم السر والعلانية. ﴿أفلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أفلا تتعظون فتؤمنون به؟

قوله تعالى: ﴿وكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ﴾ يعني: من الأصنام ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً﴾ يقول: كتاباً وعذراً وحجة لكم فيه ﴿فأيّ الفريقين أحق بالأمْنِ﴾ من العذاب، الموحد أم المشرك؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، أنا أعبدُ إلهاً واحداً وأنتم تعبدون آلهة شتّى.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال بعضهم: هذا قول الله تعالى لما حكى قول إبراهيم للنبي ﷺ قال له على أثر ذلك ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ يعني: لم يخالطوا تصديقهم بالشرك ولم يعبدوا غيره. ﴿أُولَئِكَ لَهُم الأَمْنُ﴾ من العذاب ﴿وهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ من الضلالة. وقال بعضهم: هذا كله قول إبراهيم لقومه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ، وَأُعْطِيَ فَشَكَرَ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ». قيل له: ما لهم يا رسول الله؟ قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

قال الفقيه: حدّثنا الخليل بن أحمد. قال: حدّثنا الماسرجسي. قال: حدّثنا أبو كرب. قال: حدّثنا ابن إدريس، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود. قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترون إلى قول لقمان لابنه ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]» يعني: إن الظلم هنا أراد به الشرك.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ يعني: أعطيناها إبراهيم على قومه، يعني: وفقناه للحجة فخاصم بها قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ يعني: نرفعُ فضائل من نشاء في الدنيا بالحجة، وفي الآخرة بالدرجات ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أمره ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه من يصلح للنبوة. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي ﴿درجات﴾ بالتنوين وقرأ الباقون ﴿درجات﴾ على معنى الإضافة.

Marfat.com

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

ثم قال: ﴿وَوَهَبْنا لَهُ﴾ يعني: لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال الضحاك: ولدت سارة إسحاق ولها تسعة وتسعون سنة. ولإبراهيم مائة وعشرون سنة، ثم ولد لإسحاق يعقوب ﴿كُلاً هَدَيْنَا﴾ يعني: إسحاق ويعقوب هديناهما بالنبوة والإسلام ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ يعني: هديناه للنبوة والإسلام من قبل إبراهيم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ قال الكلبي: يعني من ذرية نوح. وقال الضحاك: يعني من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُدَ﴾ النبي عليه السلام ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ وهو ابن داود ﴿وَأَيُّوبَ﴾ وهو من ولد عيصو بن إسحاق عليهما السلام ﴿وَيُوسُفَ﴾ وهو ابن يعقوب عليهما السلام ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: نوفيهم أفضل الثواب ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ يعني: من ذرية إبراهيم زكريا عليهما السلام ﴿وَيَحْيَى وعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ عليهم السلام قال الضحاك: كان إلياس من ولد إسماعيل. وذكر عن القتبي: أنه كان من سبط يوشع بن نون ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: من المرسلين.

ثم قال: ﴿وإِسْمَاعِيلَ﴾ وهو من صلب إبراهيم عليهما السلام ﴿والْيَسَعَ﴾ وكان اليسع تلميذ إلياس وكان خليفته من بعده قرأ حمزة والكسائي بلامين ﴿والليسع﴾ مشدداً وسكون الياء. وقرأ الباقون ﴿وليسع﴾ بالتخفيف بلام واحدة. فمن قرأ بالتشديد: فالاسم منه ليسع، ثم أدخلت الألف واللام للتعريف، فصار الليسع. ومن قرأ بالتخفيف: فالاسم منه يسع، ثم أدخلت الألف واللام للتعريف فصار اليسع، وكذا هذا الاختلاف في سورة ﴿ص﴾.

ثم قال: ﴿وَيُونُسَ﴾ عليه السلام وهو ابن متى ﴿وَلُوطاً﴾ عليه السلام ﴿وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ﴾ بالرسالة والنبوة في زمانهم.

ثم ذكر آباءهم فقال: ﴿وَمِنْ آبَائِهِم وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ يعني: واصطفيناهم بالنبوة يعني: آدم ونوحاً وإدريس وهوداً وصالحاً عليهم السلام ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ﴾ يعني: دين الإسلام ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني:

Marfat.com

يكرم بدينه من يشاء من عباده ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ يعني: هؤلاء النبيين ﴿لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا يعني: إنما فضلهم الله بالطاعة.

ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالحُكْمَ﴾ يعني: العلم والفهم والفقه ﴿وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: الأنبياء ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ يعني: ألزمنا بها ﴿قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

قال سعيد بن جبير: هم الأنصار، ويقال ﴿فإن يكفر بها﴾ يعني: بآياتنا ﴿فقد وكلنا بها﴾ يعني: بالإيمان بها ﴿قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ يعني: الأنبياء الذين سبق ذكرهم، ويقال: الملائكة. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ يعني: أمة محمد عليه السلام ﴿فقد وكلنا بها قوماً﴾ يعني: النبيين الذين قصّ الله تعالى عنهم.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ ﴿الذين﴾: الأنبياء عليهم السلام ﴿فَبِهُدَاهُمُ﴾ يعني: بسنتهم وبتوحيدهم ﴿اقْتَدِهْ﴾ على دينهم واستقم واعمل به. وفي هذه الآية دليل أن شرائع المتقدمين واجبة علينا ما لم يظهر نسخها إذا ثبت ذلك في الكتاب، أو ظهر على لسان الرسول ﷺ لأن الله تعالى أمرنا بأن نقتدي بهداهم، واسم الهدى يقع على التوحيد والشرائع، مثل: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢] والكتاب يشتمل على الشرائع وغيرها. قرأ حمزة والكسائي: ﴿فبهداهم اقتده﴾ بالهاء عند الوقف وبغير الهاء عند الوصل، لأن الفاء دخلت فيه عند الوقف لتبين الكسرة في الدال، وعند الوصل تبيّن، فلا يحتاج إلى إدخالها. وقرأ ابن عامر بغير الهاء في الوقف والوصل جميعاً وقرأ الباقون: بالهاء في الوصل والوقف جميعاً لأنها هاء الوقف. مثل قوله: ﴿كتابية﴾ و﴿حسابية﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ يعني: قل للمشركين لا أسألكم على الإيمان والقرآن جعلاً ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني: ما هو، وهو القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: موعظة للعالمين: الإنس والجن.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعني: ما عظموا الله حق عظمته، وما عرفوه حق معرفته. نزلت في مالك بن الضيف، خاصمه عمر في النبي ﷺ أنه مكتوب في التوراة، فغضب وقال: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ وكان رئيس اليهود، فعزلته اليهود عن الرئاسة بهذه الكلمة. قال مقاتل: نزلت هذه الآية بالمدينة، وسائر السور بمكة، ويقال: إن هذه السورة كلها مكية. وكان مالك بن الضيف خرج مع نفر إلى مكة معاندين ليسألوا النبي ﷺ عن أشياء، وقد

Marfat.com

كان اشتغل بالتنعم، وترك العبادة وسمن، فأتى رسول الله ﷺ ذات يوم بمكة، فقال له رسول الله ﷺ: «أنشدكَ الله أتجدُ في التَّوْراةِ أنَّ الله يُبْغِضُ الحَبْرَ السَّمِين»؟ قال: نَعَمْ قال: «فَأنتَ الحَبْرُ السَّمِينُ فَقَدْ سَمِنْتَ مِنْ مأكَلَتِكَ» فضحك القوم، فخجل مالك بن الضيف وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فبلغ ذلك اليهود فأنكروا عليه، فقال: إنه قد أغضبني، فقالوا له: كلما غضبت قلت بغير حق وتركت دينك؟ فأخذوا الرياسة منه وجعلوها إلى كعب بن الأشرف[١] فنزلت هذه الآية ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ حيث جحدوا تنزيله ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ الله عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ﴾ يعني: على رسول من كتاب.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ وهو التوراة ﴿نُوراً﴾ يعني: ضياء ﴿وَهُدًى﴾ يعني: بياناً ﴿لِلنَّاسِ﴾ من الضلالة ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ يقول: تكتبونه في الصحف ﴿تُبْدُونَها﴾ يقول: تظهرونها في الصحف ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ يعني: تكتمون ما فيه صفة محمد ﷺ ونعته، وآية الرجم، وتحريم الخمر. ﴿وَعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُم وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ يعني: علمتم أنتم وآباؤكم في التوراة ما لم تعلموا. ويقال: ﴿علمتم﴾ على لسان محمد ﷺ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلِ الله﴾ أنزله على موسى ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ إن لم يصدقوك ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ يعني: في باطلهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يعني: يلهون ويهزؤون ويفترون. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفونها كثيراً﴾ كل ذلك بالياء على لفظ المغايبة. وقرأ الباقون: بالتاء على معنى المخاطبة، لأن ابتداء الكلام على المخاطبة.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن أنزلناه على محمد ﷺ ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: لمن عمل به، لأن فيه مغفرة للذنوب. وقال الضحاك ﴿مبارك﴾ يعني: القرآن لا يتلى على ذي عاهة إلا برىء، ولا يتلى في بيت إلا خرج منه الشيطان. ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: هو مصدق الذي بين يديه من الكتب ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ولينذر﴾ بالياء يعني: الكتاب، يعني: أنزلناه للإنذار والبركة. وقرأ الباقون: بالتاء يعني: لتنذر به يا محمد ﴿أمّ القرى﴾ يعني: أهل مكة، وهي أصل القرى. وإنما سميت أم القرى: لأن الأرض كلها دُحِيَتْ من تحت الكعبة. ويقال: لأنها مثلث قبلة للناس جميعاً، أي: يؤمونها. ويقال: سميت أم القرى لأنها أعظم القرى شأناً ومنزلة. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: قرى الأرض كلها.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ يعني: بالبعث ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ومن هو في

(١) عزاه السيوطي: ٣/ ٣١٤ إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

Marfat.com

علم الله أنه سيؤمن ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بوضوئها وركوعها وسجودها ومواقيتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِباً﴾ نزلت في مسيلمة الكذاب، زعم أن الله تعالى أوحى إليه، وهو قوله تعالى: ﴿أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء﴾ ﴿ومن قال سأنزلُ مِثْلَ مَا أنزَلَ الله﴾ يعني: عبد الله بن أبي سرح، كان كاتب الوحي، فكان النبي ﷺ إذا أملى عليه ﴿سميعاً عليماً﴾ يكتب عليماً حكيماً، وإذا أملى عليه عليماً حكيماً، كتب هو سميعاً بصيراً وشكّ وقال: إن كان محمد ﷺ يوحى إليه فقد أوحي إليّ، وإن كان ينزل إليه فقد أنزل إليّ مثل ما أنزل إليه، فلحق بالمشركين وكفر. وقال الضحاك: هو مسيلمة الكذاب، كان يقول: بعث محمد ﷺ إلى جسيم الأمور، وبعثت إلى محقرات الأمور. ويقال هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١].

ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إذِ الظَّالِمونَ﴾ يعني: ولو تعلم إذ الكافرون ﴿في غمرات الموت﴾ أي: في نزعات الموت وسكراته. فحذف الجواب، لأن في الكلام دليلاً عليه، ومعناه: لو رأيتهم لرأيتهم في عذاب شديد.

ثم قال: ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ بالضرب. ويقولون: ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ يعني: أرواحكم الخبيثة.

قال: حدثنا الفقيه أبو جعفر. قال: حدثنا أبو القاسم أحمد بن حسين. قال: حدثنا محمد بن سلمة. قال: حدثنا أبو أيوب عن القاسم بن الفضل الحراني عن قتادة، عن أسامة بن زهير، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المُؤمِنَ إذا احتضرَ أتَتْهُ الملائكةُ بحَريرَةٍ فيها مِسْكٌ، ومِنْ ضَبَايِرِ الرَّيْحَانِ، وتَسَلُّ رُوحُهُ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العجين، ويقالُ لها: يا أيَّتُها النَّفسُ المطمئنة اخرُجي رَاضِيةً مَرْضِيَّةً وَمَرْضِياً عَنكِ إلى رَوحِ الله وكرامته، فإذا خرجتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى ذٰلِكَ المِسْكِ والرَّيْحَانِ، وطُوِيَتْ عَلَيهِ الحريرَةُ، وَيُبعثُ بِهَا إلى العليين. وإنَّ الكافِرَ إذَا حُضِرَ أتَتْهُ المَلائِكَةُ بِمِسْحٍ فِيهِ جَمْرَةٌ، فَتُنْتَزَعُ رُوحُهُ انتزاعاً شَديداً ويقالُ لها: أيَّتُها النَّفسُ الخَبِيثَةُ اخرُجي سَاخِطَةً وَمَسْخُوطَةً عليكِ إلى هَوانِ الله وعَذابِهِ، فإذا خرجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى تِلْكَ الجَمْرَةِ وإنَّ لَهَا نَشِيجاً وَيُطوَى عَلَيهَا المِسْحُ، وَيُذْهَبُ بِهَا إلى سجِّين**».

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ يعني: إذا بعثوا يوم القيامة يقال لهم: اليوم تجزون ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ يعني: الهوان ويقال: الشديد ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ﴾ أي: في الدنيا ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ بأن معه شريكاً ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُون﴾ يعني: عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، ولم تقرّوا به.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ يعني: في الآخرة ﴿فرادى﴾ لا ولد لكم ولا مال. الفرادى: جمع فرد، يعني: ليس معكم من دنياكم شيء. ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أوّل مرة﴾ أي: في الدنيا حين ولدتم ﴿وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْنَاكُمْ﴾ يعني: أعطيناكم من المال والولد ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ في الدنيا. ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾ يعني: آلهتكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني: قلتم لي شركاء ولكم شفعاء عند الله تعالى.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ نافع والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿بينَكم﴾ بالنصب وقرأ الباقون ﴿بَيْنُكم﴾ بالضم. فمن قرأ بالضمّ، جعل البَيْن اسماً، يعني: تقطع وصْلتكم ومودتكم. ومن قرأ بالنصب فمعناه: لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم، فيصير نصباً بالظرف كما تقول: أصبحت بينكم، أي فيما بينكم. ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني: اشتغل عنكم ما كنتم تعبدون وتزعمون أنها شفعاؤكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى﴾ يعني: يشق الحبة اليابسة، فيخرج منها ورقاً أخضر. ويقال: ﴿فالق الحب﴾ مثل البر والشعير والذرة والحبوب كلها، ﴿والنوى﴾: كل ثمرة فيها نوى مثل الخوخ والمشمش والغبيراء والإجاص ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ، وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ﴾، وقد ذكرنا تأويله ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ ربكم يعني: هذا الذي يفعل بكم هو الله تعالى وهو الذي يفعل هذه الأشياء ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ يعني: كيف تكفرون، ومن أين تكذبون؟ فذكر عيب آلهتهم.

ثم دلّ على وحدانيته بصنعه قال: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ يعني: خالق الإصباح، الإصباح والصبح واحد ويقال: الإصباح مصدر أصبحَ يُصْبِح إصباحاً، والصُّبح اسم ويقال: ﴿فالق الإصباح﴾ يعني: خالق النهار. ﴿وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً﴾ قرأ أهل الكوفة حمزة والكسائي وعاصم ﴿وجعل الليل﴾ على معنى الخبر، وقرأ الباقون ﴿جاعل الليل﴾ على معنى الإضافة ﴿سكناً﴾ يعني: يسكن فيه الخلق.

ثم قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً﴾ يعني: وجعل الشمس والقمر ﴿حسباناً﴾ يعني: منازلهما بالحساب، لا يجاوزانه إذا انتهيا إلى أقصى منازلهما رجعا، وهذا قول الكلبي. وقال

Marfat.com

مقاتل ﴿حسباناً﴾ يعني: يُعرف بهما عدد السنين والحساب. وقال القتبي: ﴿حسباناً﴾ أي حساباً، يقال: خذ كل شيء بحُسْبانه أي: بحسابه. وقال الكلبي: ويقال للشيء المعلق: حسباناً. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ يقال: هذا فعل ﴿العزيز﴾ في ملكه، ﴿العليم﴾ بخلقه. لا فعل لأصنامكم فيه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ يعني: لتعرفوا بها الطريق. ﴿في ظُلُمَاتِ البَرّ والبَحْرِ﴾ يعني: لتهتدوا بالكواكب في الليالي وتعرفوا بها قبلتكم. ﴿قد فصلْنا الآيَاتِ﴾ يعني: بينَّا العلامات لوحدانية الله تعالى. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وإنما أضاف إلى أهل العلم، لأنهم هم الذين ينتفعون به، فكأنه بيّن لهم. ويقال: ﴿لقوم يعلمون﴾ يعني: يصدقون أنه من الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ يعني: خلقكم ﴿مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ وهو آدم. ﴿فمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ يعني: ﴿مستقرّ﴾ في الرحم، ﴿ومستودع﴾ في الصلب. ويقال: ﴿مستقر﴾ في الصُلب، ﴿ومستودع﴾ في الرحم. ويقال: ﴿مستقر﴾ في الدنيا ﴿ومستودع﴾ في القبر. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ بكسر القاف، وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالنصب فمعناه: فلكم مستقر ولكم مستودع، يعني: موضع قرار وموضع إيداع. ومن قرأ بالكسر، فعلى معنى الفاعل يقال: قَرّ الشيء، واستقر بمعنى واحد يعني: كنتم مستقرين ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ يعني: بيّنا العلامات لمن له عقل وذهن.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَخرَجنا بِهِ﴾ بالمطر ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: معاشاً للخلق من الثمار والحبوب وغير ذلك. ﴿فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خضِراً﴾ خَضِرَ واخْضَرّ بمعنى واحد، الأخضر يعني: النبات الأخضر، وهو أول ما يخرج.

ثم قال: ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَباً مُتَرَاكِباً﴾ يعني: السنبلة قد ركب بعضها بعضاً. ﴿وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا﴾ يعني: أخرجنا بالماء من النخل من طلعها، يعني: من عذوقها وثمرها. ﴿قِنوانٌ دانِيَةٌ﴾ يعني: عُذوقاً متدلية متدانية قريبة، ينالها القائم والقاعد، يعني: من عذوقها عذوق قريبة.

Marfat.com

﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ يعني: يخرج بالماء، ﴿جناتٍ من أعناب﴾ قرأ الأعمش ﴿وجناتٌ﴾ بالضم عطفها على قوله: ﴿قنوان دانية﴾، وقرأ العامة بالكسر ومعناه: وأخرجنا جنات من أعناب. ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ يعني: أخرجنا منه شجر الزيتون. ﴿وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً﴾ يعني: ورقها في المنظر يشبه بعضها بعضاً، ويقال: ثمرتها مشتبهة في المنظر. ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الطعم يعني: بعضها حلو وبعضها حامض.

قوله: ﴿انْظُرُوا إلى ثَمَرِهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿انظروا إلى ثُمُره﴾، بضم الثاء والميم، وقرأ الباقون بالنصب، وكذلك ما بعده. فمن قرأ بالنصب فهو اسم الثمرة، وإنما أراد به الجنس، ومن قرأ بالضم، فهو جمع الثمار. ﴿إذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ يعني: ونضجه، يعني: انظروا إلى نضجه واعتبروا به، واعلموا أن له خالقاً فهو قادر على أن يحييكم بعد الموت، كما أخرج من الأرض اليابسة النبات الأخضر، ومن الشجرة الثمار. ﴿إِنَّ في ذَلِكُمْ لآيَاتٍ﴾ يعني: في اختلاف ألوانه لعلامات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون ويرغبون في الحق.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ﴾ يعني: وضعوا لله شركاء. وقال مقاتل: وذلك أن بني جهينة قالوا: إن صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن بنات الرحمن، وذلك قوله: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾. وقال الكلبي: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾، نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله تعالى وإبليس لعنه الله ولعنهم أخوان. قالوا: إن الله تعالى خالق الناس والدواب، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب كقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾ [الصافات: ١٥٨] قال الزجاج: معناه أطاعوا الجن فيما سوّلت لهم من شركهم، فجعلوهم شركاء الله، وهذا قريب مما قاله الكلبي.

ثم قال: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ يعني: جعلوا لله الذي خلقهم شركاء، ويقال: ﴿وخلقهم﴾ يعني خلق الجن، ويقال: وخلقهم يعني: الذين تكلموا به ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ يعني: وصفوا له البنين والبنات. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: بلا علم تعلمونه، ويقال بلا حجة وبيان. وروى عبد الله بن موسى عن جويرية قال: سمعت رجلاً سأل الحسن عن قوله: ﴿وخرقوا له﴾ قال: كلمة عربية كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول بعض القوم: خرقها والله. وقوله: ﴿وخرقوا له بنين وبنات﴾ يعني: أن اليهود لعنهم الله قالوا: عزيز ابن الله والنصارى

Marfat.com

لعنهم الله قالوا: المسيح ابن الله، وكفار قريش جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[(١)] -.

ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ يعني: تنزيهاً له. ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني: هو أعلى وأجل مما يصف الكفار بأن له ولداً. قرأ نافع ﴿وخرّقوا﴾ بالتشديد على معنى المبالغة.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: خالق السموات والأرض، يعني مبدعهما، وهو أن يبتدىء شيئاً ولم يكن شيئاً. يعني: أنه ابتدعهما ولم يكونا ﴿أنى يكون له وَلَدٌ﴾ قال القتبي: ﴿أنى﴾ على وجهين: يكون بمعنى كيف كقوله ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وكقوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ويكون بمعنى من أين كقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٨] وكقوله: ﴿أنى يكون له ولد﴾ أي من أين يكون له الولد ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ يعني: زوجة. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يعني: الملائكة والجن وعيسى وغيرهم وهم خلقه وعبيده. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مما خلق.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ﴾ يعني: الذي فعل هذا هو ربكم ﴿لا إله إلا هو﴾ يعني: لا خالق غيره. ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ يعني: وحّدوه وأطيعوه. ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ يعني: كفيل بأرزاقهم، ويقال: ﴿وكيل﴾ يعني: حفيظ.

ثم عظّم نفسه فقال: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ قال مقاتل: يعني لا يراه الخلق في الدنيا. وروى الشعبي عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت: «لقد اقْشَعَرَّ قلبي مما قلت وجلدي أين أنت من ثلاثة من حدثك بهن فقد كذب: من حدثك أن النبي ﷺ رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ ومن حدثك أنه قد علم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [سورة لقمان: ٣٤] ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحي فقد كذب. ثم قرأت ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]».

ثم قال: ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ يعني: لا يخفى عليه شيء ولا يفوته. قال الزجاج: في هذه الآية دليل أن الخلق لا يدركون الأبصار، أي لا يعرفون كيف حقيقة البصر، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه، فاعلم أنهم لا يحيطون بعلمه فكيف به؟

ثم قال: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ يعني: ﴿اللطيف﴾ في فعله، ﴿الخبير﴾ بخلقه وبأعمالهم. وقال أبو العالية: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ يعني: في الدنيا، وتدركه أبصار المؤمنين في الآخرة.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن الذي فيه البيان ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ يقول: من صدق بالقرآن وآمن به فثوابه لنفسه، ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها﴾ يعني: من لم يصدق بالقرآن ولم يؤمن بمحمد ﷺ فعليه جزاء العذاب ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ يعني: بمسلط وهذا قبل أن يؤمر بالقتال.

ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ﴾ يعني: نبين لهم الآيات في القرآن في كل وجه. ﴿وَلِيقُولُوا دَرَسْتَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿دَارَسْتَ﴾ يعني: ذاكرت أهل الكتاب. وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي ﴿وليقولوا درست﴾ بغير ألف يعني: قرأت الكتب. ويقال: تعلمت من جبر ويسار، وكانا غلامين بمكة عبرانيين، فقال أهل مكة: إنما يتعلم منهما. وقرأ ابن عامر ﴿دَرَسَتْ﴾ بنصب الراء والسين وسكون التاء يعني: هذا شيء قديم قد خلقت وقرأ بعضهم ﴿دُرِسَتْ﴾ أي قرئت. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ ﴿ليقولوا﴾ بغير واو ﴿درس﴾ بغير تاء يعني: لكي يقولوا دَرَسَ النبي. وكان نزول هذه الآيات سبباً لقولهم هذا، فأضاف قولهم إلى الآيات. ثم قال تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أصحاب محمد ﷺ.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: اعمل بما أنزل إليك من ربك، من أمره ونهيه، وذلك حين دعي إلى ملة آبائه. ثم قال ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ﴾ يعني: لا خالق غيره، اتركهم على ضلالتهم.

ثم قال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ يقول: ولو شاء الله لجعلهم مؤمنين. ويقال: ﴿ولو شاء الله﴾ لأنزل عليهم آية يؤمنون بها ويقال: ﴿لو شاء﴾ لاستأصلهم فقطعهم بسبب شركهم. ﴿وَمَا جعلْناكَ عليهِمْ حفِيظاً﴾ يعني: أن لم يوحدوا ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ يعني: بمسلط.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وذلك أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يذكرون الأصنام بسوء ويذكرون عيبهم، فقال المشركون: لتنتهين عن شتم آلهتنا، أو لنسبن ربكم، فنهى الله تعالى المؤمنين عن شتم آلهتهم عندهم، لأنهم جهلة. ﴿فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً﴾

Marfat.com

يعني: اعتداء ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منهم يعني: بلا علم ويقال: ﴿عَدْوًا﴾ ظلماً، صار نصباً بالمصدر. وفي الآية دليل أن الإنسان إذا أراد أن يأمر بالمعروف فيقع المأمور به في أمر هو شر مما هو فيه من الضرب أو الشتم أو القتل، فإنه ينبغي أن لا يأمر ويتركه على ما هو فيه.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا﴾ يقول: هكذا زينا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ يعني: لكل أهل دين عملهم يعني: ضلالتهم في الدنيا عقوبة ومجازاة لهم ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: فيجازيهم بذلك.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وكان أهل الجاهلية يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك، وكانوا يحلفون بالله تعالى وإذا كانت اليمين بالله يسمونه جهد اليمين، ولما نزل قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ [الشعراء: ٤] قالوا: أنزلها فوالله لنؤمنن بك. وقال المسلمون: أنزلها لكي يؤمنوا فنزل: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ يقول: حلفوا بالله ﴿لئن جاءتهم آيةٌ ليُؤمِنُنَّ بها﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ﴾ إن شاء أنزلها، وإن شاء لم ينزلها.

ثم قال: ﴿وَمَا يُشعِرُكُمْ أنها﴾ يقول: وما يدريكم أنها ﴿إذَا جاءَتْ﴾ يعني: الآية ﴿لا يُؤمِنُونَ﴾ وقال مقاتل: ﴿وما يشعركم﴾ يا أهل مكة أنها إذا جاءتكم لا تؤمنون. وقال الكلبي يعني: ﴿وما يشعركم﴾. أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ﴿إنها﴾ بالكسر على معنى الابتداء، وإنما يتم الكلام عند قوله ﴿وما يشعركم﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾. ويشهد لهذا قراءة عبد الله بن مسعود ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾. وقرأ الباقون ﴿أنها﴾ بالنصب على معنى البناء، وتشهد لها قراءة أُبيّ وما يشعركم لعلها إذا جاءت. وقرأ ابن عامر وحمزة ﴿لا تؤمنون﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، وهذه القراءة توافق لقول مقاتل.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾

ثمّ قال تعالى: ﴿وَنقَلِّبُ أَفئِدَتَهمْ وَأبْصَارَهُم﴾ يعني: نترك قلوبهم وأبصارهم معلقة كما هي، ولا نوفقهم، ﴿كَمَا لَمْ يُؤمِنُوا بِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قبل نزول الآيات، ويقال: عند انشقاق القمر لما لم يعتبروا به ولم يؤمنوا، فعاقبهم الله تعالى، وختم على قلوبهم، فثبتوا على كفرهم.

Marfat.com

﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ يقول: وندعهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ يعني: في ضلال ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يعني: يترددون ويتحيرون فيه. ويقال: ﴿كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ يعني: كما لم يؤمن به أوائلهم من الأمم الخالية لما سألوا الآية من أنبيائهم عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ قال الله تعالى: ﴿ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة﴾ كما سألوا حتى يشهدوا بأنك رسول الله ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ بأنك رسول الله ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿قِبَلاً﴾ بكسر القاف ونصب الباء. وقرأ الباقون بالضم، فمن قرأ بالضم فمعناه: جماعة القبيل، والقبيل: الكفيل. ويقال: ﴿قبلاً﴾ أي أصنافاً من الآدميين ومن الملائكة ومن الوحش. ومن قرأ ﴿قِبَلاً﴾ بالكسر معناه: وحشرنا عليهم كل شيء معاينة فعاينوه. ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وهذا إعلام للنبي ﷺ بأنهم لا يؤمنون كما أعلم نوحاً ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ يعني: إلا من هو أهل لذلك، فوفقه الله تعالى. ويقال: ﴿إلا أن يشاء الله﴾ يقول: قد شاء الله أن لا يؤمنوا حيث خذلهم ولم يوفقهم. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ عن ذلك ويقال: ﴿أكثرهم يجهلون الحق﴾ أنه من الله تعالى. ويقال: ﴿يجهلون﴾ ما في العلامة من وجوب هلاكهم بعد العلامة إن لم يؤمنوا.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً﴾ يعني: أعداء، ومعنى ذلك: كما جعلنا لك ولأمتك أعداء مثل أبي جهل وأصحابه، كذلك جعلنا لكل نبي عدواً ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ﴾ قال مقاتل: وذلك أن إبليس وكل شياطين الإنس وشياطين الجن يضلونهم، فإذا التقى شيطان الجن مع شيطان الإنس قال أحدهما للآخر: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا، فذلك قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُم إِلى بَعْضٍ﴾ يعني: يكلم بعضهم بعضاً بالإضلال. وقال عكرمة: للجن شياطين مثل شياطين الإنس. وروي عن الزبير بن العوام: أن جنياً شكا إليه ما لقي من الشيطان، فعلمه دعاء ليخلص منه فدعا به، ووجه آخر: شياطين الإنس والجن يعني: الشياطين من الإنس والشياطين من الجن، لأن كل عات متمرد فهو شيطان.

وروي عن أبي ذر الغفاري أنه قال دخلت على رسول الله ﷺ وهو في المسجد فأمرني أن أصلي ركعتين فصليت، ثم جلست عنده قال: «يا أَبَا ذَرّ تَعَوَّذْ بِالله مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَشَيَاطِين

Marfat.com

الجن»[1] فقلت يا رسول الله أوَ من الإنس شياطين؟ فقال النبي ﷺ «أوَ ما تقرأ قوله ﴿شياطين الإنس والجن﴾؟». وكذلك مثل هذين القولين في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥،٦].

ثم قال ﴿يوحي بعضهم إلى بعض﴾ يعني: يوسوس بعضهم بعضاً. ﴿زخرف القول غُروراً﴾ يعني: ما زين منه وحسن وموّه، يعني: يزين القول باطلاً، يغرهم بذلك. وأصل الزخرف: الذهب، وسمى الزينة زخرفاً لأن أصل الزينة من الذهب، يعني: أنه يزين لبعض الأعمال، كما يزين بعض الأقوال.

ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ يعني: لو شاء ربك لمنعهم من الوسوسة، ولكن الله يمتحن بما يعلم أنه أبلغ في الحكمة وأجزل في الثواب ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: خلِّ عنهم وما يكذبون من القول والغرور.

ثم قال: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾ يقول: ولتميل إلى ذلك الزخرف والغرور. ﴿أفئدة﴾ أي قلوب ﴿الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ﴾ إلى هذه الزينة والغرور ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ يقول: لكي يقبلوا من الشياطين الزينة والغرور ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ يعني: ليكسبوا ما هم مكتسبون من المعاصي، وليعملوا ما هم عاملون. وقرأ بعضهم ﴿وليرضوه وليقترفوا﴾ بجزم اللام على معنى الأمر، والمراد به: التهديد، كقوله ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] والقراءة المعروفة بكسر اللام، ومعناه: اتركهم ليعملوا ما هم عاملون.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ يعني: أعْبُدُ غير الله؟ ويقال: أأطلب القضاء من غير الله؟ ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ يعني: مبيناً فيه أمره ونهيه بلغة تعرفونها. ويقال: متفرقاً سورة سورة، وآية آية. ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب ﴿يعلمون أنه مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ بالحَقِّ﴾ يعني: القرآن منزل من الله بالعدل. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص ﴿مُنزّل﴾ بتشديد الزاي، وقرأ الباقون بالتخفيف.

(١) عزاه السيوطي: ٣/٣٤٢ إلى أحمد وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ يعني: الشاكين في أنه الحق، وأنه من الله، خاطبه بذلك وأراد به غيره من المؤمنين لكي لا يشكوا فيه.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يقول: وجب قول ربك بأنه ينصر محمداً ﷺ وأن عاقبة الأمر له ﴿صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ يعني: ﴿صدقاً﴾ فيما وعد له من النصرة ﴿وعدلاً﴾ فيما حكم به ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يقول: لا مغيّر لوعده كقوله ﴿لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] ويقال: ﴿لا مبدل لكلماته﴾ يعني: لا ينقض بعضه بعضاً، ولا يشبه كلام البشر. وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ قال: «هُوَ قَوْلُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»(١) ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ ﴿السميع﴾ بما سألوا ﴿العليم﴾ بهم.

ثم قال تعالى: ﴿وإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أهل أرض مكة فيما يدعونه إلى ملة آبائه. ويقال: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض﴾ يعني: الكفار لأن أكثر من في الأرض كانوا كفاراً. ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ يعني: يصرفونك عن دين الله الإسلام ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ يعني: القوم يتبعون أكابرهم بالظن، ويتبعونهم فيما لا يعلمون أنهم على الحق فإن قيل: كيف يعذبون وهم ظانون على غير يقين؟ قيل لهم: لأنهم اقتصروا على الظن والجهل، لأنهم اتبعوا أهواءهم ولم يتفكروا في طلب الحق. ويقال: ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ يعني في أكل الميتة واستحلالها ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يعني: ما هم إلا كاذبون باستحلالهم الميتة وأكلهم، لأنهم كانوا يقولون: ما قُتِل لله فهو أولى بالحل وبأكله مما نذبحه بأيدينا.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ يعني: عن دينه وعن شرائع الإسلام. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ﴾ لدينه. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي ﴿وتمت كلمة ربك﴾ بلفظ الوحدان، وقرأ الباقون ﴿كلمات﴾ بلفظ الجماعة.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح ﴿إِن كُنتُمْ بآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين. فقد بيّن الله تعالى أنه لا يجوز أكل الميتة، وإنما يحل أكل ما ذُبح وذُكر اسْمُ الله عليه.

ثم قال: ﴿وَمَا لَكُم ألاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ يعني: مما ذبح وذكر اسم الله عليه ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم ما حرّم عليكم﴾ يعني: بيّن لكم تحريمه في سورة المائدة وغيره من ﴿مَا حَرَّمَ

(١) عزاه السيوطي: ٣/ ٣٤٥ إلى ابن مردويه وابن النجار.

Marfat.com

عَلَيْكُمْ﴾ يعني: الميتة وغيرها ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يقول: ما اجتهدتم إلى أكل الميتة عند الجوع. قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ﴿فُصل لكم﴾ بضم الفاء ﴿ما حُرم عليكم﴾ بضم الحاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿وقد فصل﴾ بالنصب ﴿وما حرم﴾ بالضم. وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص كلاهما بالنصب، يعني: بيّن الله لكم ما حرم عليكم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يقول: يدعون إلى أكل الميتة بغير علم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ من الحلال إلى الحرام.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وبَاطِنَهُ﴾ يعني: زنى السر والعلانية، لأن أهل الجاهلية كانوا يحرمون الزنى في العلانية ولا يرون به بأساً في السر، فأخبر الله تعالى أن الزنى حرام في السر والعلانية. ويقال: ﴿ظاهر الإثم﴾ هو الزنى ﴿وباطنه﴾: القُبلة واللَّمس والنظر. وقال الضحاك ﴿ظاهر الإثم﴾ الزنى، ﴿وباطنه﴾ نكاح الأمهات والأخوات. وقال قتادة: ﴿ظاهر الإثم وباطنه﴾ يعني: قليله وكثيره. ويقال: ظاهره ارتكاب المعاصي، وباطنه تركُ الفرائض. ويقال: باطنه الرياء في الأعمال. ويقال: الكفر، ويقال: جميع المعاصي. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ﴾ يقول: يعملون الفواحش ويتكلمون بها ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا يَقْتَرِفُونَ﴾ يقول: سيعاقبون بما كانوا يكسبون من الإثم. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي: وإن كثيراً لَيُضلون بأهوائهم بضم الياء، يعني: يضلون الناس. وقرأ الباقون ﴿لَيَضِلُّونَ﴾ بنصب الياء يعني: يَضلون بأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ يعني: ما لم يُذَكَّ ولم يذبح، أو ذبح بغير اسم الله ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ يعني: أكله معصية واستحلاله كفر. ﴿وإِنَّ الشَّياطِين ليوحُون إلى أوْلِيائِهِمْ﴾ يعني: يوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ﴿لِيُجادِلُوكُمْ﴾ يقول: ليخاصموكم في أكل الميتة، وهو قولهم: ما قتله الله فهو أولى أن يؤكل. ـ ويقال: الوحي على ثلاثة أوجه: الإشارة والإلهام والوسوسة[1] ـ وروي عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له: إن المختار يقول: يوحى إليّ فقال: صَدَق ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾.

قال الفقيه: حدثنا أبو الفضل بن أبي جعفر قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: «قال المشركون للمسلمين: ما قتل ربكم ومات فلا تأكلوه، وما

(١) مابين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

قتلتم أنتم وذبحتم فتأكلونه فأوحى الله إلى النبي ﷺ ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾... إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ يعني: في أكل الميتة واستحلالها ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مثلهم. ففي الآية دليل أن من استحل شيئاً مما حرم الله تعالى صار مشركاً.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ يعني: من كان ضالاً كافراً فهديناه إلى الإسلام والتوحيد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يعني: أكرمناه بالمغفرة. ويقال: جعلنا له إيماناً يهتدي به إلى سبيل الخيرات والنجاة، ﴿يمشي به في الناس﴾ يعني: مع المؤمنين. ويقال: أعطيناه نوراً يوم القيامة يمشي به على الصراط مع المؤمنين. ولا يكون حاله ﴿كَمَنْ مَثَلُه في الظُّلُمَاتِ﴾ يعني: كمن قدّر عليه الكفر ونزل في الكفر مخذولاً ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْها﴾ يعني: ليس براجع منها. قال الكلبي: نزلت في عمار بن ياسر يعني: ليس حاله كحال الكفار. وقال مقاتل: يعني به النبي ﷺ ليس مثل أبي جهل بن هشام الذي بقي في الكفر. ويقال: يعني جميع المؤمنين ليس حالهم كحال الكفار. قرأ نافع ﴿أو من كان مَيِّتاً﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف، ومعناهما واحد.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: هكذا يعاقب من اختار الكفر على الإيمان، فيُختم على قلبه مجازاة لكفره.

ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ يعني: جعلنا مجرميها أكابرها، وجبابرتها كما جعلنا في أهل مكة. وهذا معطوف على ما قبله، أي: مثل ذلك جعلنا في كل قرية، كما زين للكافرين ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ يعني: ليتكبروا فيها ويكذّبوا رسلهم ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ يعني: وما يصنعون ذلك ﴿إلاّ بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: إلا على أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن ذلك على أنفسهم.

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا جاءَتْهم آيَةٌ﴾ يعني: الأكابر الذين سبق ذكرهم. ويقال: كفار مكة إذا

Marfat.com

جاءتهم علامة مثل انشقاق القمر وغيره ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ﴾ لك يعني: لن نصدقك ولن نؤمن بالآيات ﴿حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ﴾ أي مثل ما أعطي ﴿رُسُلُ اللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ من الآيات والعلامات. ويقال: لن نصدقك حتى يوحى إلينا كما أوحي إلى الرسل، وذلك أن الوليد بن المغيرة وأبا مسعود الثقفي قالا: لو أراد الله تعالى أن ينزل الوحي لأنزل علينا. قال بعضهم: أرادوا به محمداً ﷺ، وقال بعضهم: أرادوا به جميع الرسل فقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ومن يصلح للنبوة ومن لا يصلح، فخصّ بها محمداً ﷺ ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ يعني: أشركوا ﴿صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ﴾ يعني: مَذَلَّة وهوانٌ عند الله، أي من عند الله العذاب بالمستهزئين ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ يعني: يكذبون بالرسل. قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص ﴿حيث يجعل رسالته﴾ بلفظ الوحدان، وقرأ الباقون ﴿رسالاته﴾ بلفظ الجماع.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ يعني: من يرد الله أن يوفقه للإسلام ويهديه لدينه ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ يقول: يوسّع قلبه ويليّنه لقبول الإسلام، ويدخل فيه نور الإسلام وحلاوته. وقال القتبي: ﴿يشرح صدره﴾ يعني: يفتحه.

قال الفقيه: قال: حدّثنا الخليل بن أحمد حدّثنا الديبلي قال: حدّثنا أبو عبيد الله، عن سفيان، عن خالد بن أبي كريمة، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ قالوا: يا رسول الله. وكيف ذلك؟ قال: «إذا دخلَ النُّورُ في القلبِ انشرحَ وانفسحَ» قالوا: وهل لذلك من علامة يعرف به؟ قال: «نَعَمْ التَّجافي عَنْ دَارِ الغُرُورِ وَالإنَابَةُ إلى دَارِ الخُلُودِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ المَوْتِ»[1].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ أي عن الإسلام ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً﴾ يعني: غير موسع ﴿حَرَجاً﴾ يعني: شاكاً. وقال ابن عباس: «كالشجرة الملتفة بعضها في بعض، لا يجد النور منفذاً ومجازاً». قرأ ابن كثير ﴿ضيقاً﴾ بتخفيف الياء وجزمها. وقرأ الباقون بالتشديد ومعناهما واحد. وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ﴿حرجاً﴾ بكسر الراء، وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالنصب فهو المصدر، ومن قرأ بالكسر فهو النعت.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني: مثله كمثل الذي تكلّف الصعود إلى السماء وهو لا يستطيع، فكذلك قلب الكافر لا يستطيع قبول الإسلام. قرأ ابن كثير ﴿يصْعد﴾ بجزم الصاد بغير تشديد من صَعَد يَصْعَد. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿يَصَّاعد﴾ بالألف مع تشديد الصاد، لأن أصله: يتصاعد، فأدغم التاء في الصاد. وقرأ الباقون: ﴿يصّعّد﴾ بتشديد الصاد والعين بغير ألف، لأن أصله: يتصعّد، فأدغم التاء في الصاد.

---

(١) عزاه السيوطي: ٣/ ٣٥٥ إلى ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردوية والحاكم والبيهقي في الشعب.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ﴾ يعني: العذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن لا يرزقهم حلاوة الإيمان على الذين لا يرغبون في الإيمان. ويقال: الرجس في اللغة، هو اللعنة والعذاب.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾ يعني: هذا التوحيد دين ربك مستقيماً، يعني: قائماً برضاه ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ يعني: بيّنا الآيات في أمر القلوب والهدى والضلالة ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني: يتعظون ويتفكرون في توحيد الله. ويقال: معناه لا عذر لأحد في التخلّف عن الإيمان، لأن الله تعالى قد بيّن طريق الهدى، وقد بيّن العلامات في ذلك لمن كان له عقل وتمييز.

ثم ذكر ما أعدّ الله للمؤمنين في الآخرة فقال: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وهي الجنة وهي دار السلام من الأمراض والآفات والخوف و الهرم وغير ذلك. ويقال: ﴿لهم دار السلام﴾ فالله السلام، والجنة داره، يعني: دار رب العزة التي أعد لأوليائه وهي الجنة ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أي: الله حافظهم وناصرهم في الدنيا. ويقال: ﴿وهو وليهم﴾ في الآخرة بالثواب أي: يجزيهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يقول: واذكر يوم يجمعهم الله ﴿جَمِيعاً﴾ يعني: الجن والإنس. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿يحشرهم﴾ بالياء يعني: أن الله يحشرهم، وقرأ الباقون ﴿نحشرهم﴾ بالنون. ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ﴾ يقول لهم: يا معشر الجن ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنسِ﴾ يعني: قد أضللتم كثيراً من الإنس ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ﴾ الذين أضلوهم ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعني: انتفع بعضنا ببعض، فكان استمتاع الإنس بالجن في الدنيا، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا سافر واحد منهم فأدركه المساء بأرض قفرٍ وخاف بالليل فقال: أعوذ بسيد أهل هذا الوادي من سفهاء قومه، فأمِنَ ولبثَ في جوارهم حتى يصبح. وكان استمتاع الجن بالإنس أن قالوا: لقد سوّدنا الإنس والجن فيزيدون شرفاً في قومهم يعني: فيما بين الجن والإنس.

﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ يعني: الموت الذي جعلته أجلنا في هذه الدنيا، وهذا قول الكلبي. وقال الضحاك: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ يعني: خدع بعضنا بعضاً عن دينك يعني:

Marfat.com

أن الجن قد خدعونا وأضلونا ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ يعني: ما كتبت علينا من الشقاوة ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ يعني: منزلكم وهم الجن والإنس ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين في النار ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾ قال الكلبي: مشيئة الله من كل شيء، ويقال: إلا ما شاء الله البرزخ والقيامة، يعني: قد شاء لهم الخلود فيها. ويقال ﴿إلا ما شاء الله﴾ من إخراج من يخرج منها من أهل التوحيد ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾ يعني: نسلط بعض كفار الجن على كفار الإنس. ويقال: نولي بعض الظالمين على بعض فيهلكه أو يذله. وهذا كلام لتهديد الظالم لكي يمتنع عن ظلمه، لأنه لو لم يمتنع لسلّط الله عليه ظالماً آخر. ويدخل في الآية جميع من يظلم، ومن ظلم في رعيته، أو التاجر يظلم الناس في تجارته، أو السارق وغيرهم. وقال فضيل بن عياض: «إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر فيه متعجباً». وقال ابن عباس: «إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط الله على قوم ولّى أمرهم شرارهم بما كانوا يكسبون»، ثم تلا قوله ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾.

وعن مالك بن دينار قال: «قرأت فيما أنزل الله في بعض الكتب المنزلة أن الله تعالى يقول: إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، ونواصيها بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، ولكن توبوا إليّ أجعلهم عليكم رحمة».

ثم قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: يسلط بعضهم على بعض بأعمالهم الخبيثة.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

ثمّ قال: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنسِ﴾ يقول لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ قال مقاتل: بعث الله تعالى رسلاً من الجن إلى الجن، ومن الإنس إلى الإنس. ويقال: رسل الجن التسعة الذين سمعوا القرآن من رسول الله ﷺ ورجعوا إلى قومهم منذرين، قالوا: يا قومنا أجيبوا داعي الله. ويقال: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ يعني: من الإنس خاصة. وقال ابن عباس: «كانت الرسل تبعث إلى الإنس، وأن محمداً ﷺ بعث إلى الجن والإنس».

ثم قال تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: يقرؤون ويعرضون عليكم ﴿آيَاتِي﴾ يعني: القرآن ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ﴾ يعني: يخوّفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ يعني: يقولون بلى أقررنا أنهم قد بلّغوا وكفرنا بهم، يعني كما قالت الرسل وذلك بعدما شهد عليهم سمعهم وأبصارهم يقول الله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني: ما في الدنيا من زهرتها وزينتها

Marfat.com

﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ في الدنيا. يقول الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: ١٢٨] على وجه التقديم والتأخير.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ يعني: ذلك السؤال والشهادة ويقال ﴿ذلك﴾ يعني: إرسال الرسل إلى الجن والإنس ليعلم ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ يعني: معذب أهل القرى ﴿بظلم﴾ أي بغير ذنب في الدنيا ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ عن الرسل. ويقال: غافلون عن العذاب، لأنه قد بيّن لهم وأخذ عليهم الحجة.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

ثمّ قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ يعني: ولكل واحد من المؤمنين فضائل في الجنة، بعضهم أرفع درجة من بعض، وللكافرين درجات بعضهم أشد عذاباً من بعض. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: لمن ينسى الطاعة من المطيعين، ولا المعصية من العاصين، ويجازي كل نفس بما عملت. قرأ ابن عامر ﴿عما تعملون﴾ على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون: ﴿يعملون﴾ بالياء على معنى المغايبة.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يعني: ﴿الغني﴾ عن عبادة خلقه، ﴿ذو الرحمة﴾ بتأخير العذاب عنهم، ويقال: ﴿ذو الرحمة﴾ يعني: ذو التجاوز عمن تاب ورجع إليه بالتوبة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني: يهلككم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ خلقاً غيركم من بعد هلاككم ﴿ما يشاء﴾ إن يشأ مثلكم، وإن يشأ أطوع منكم. ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ﴾ يقول: كما خلقكم ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ قرناً من بعد قرن، ولكنه لا يهلككم رحمة منه، لكي تراجعوا وتتوبوا إليه.

ثم قال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ﴾ يعني: الوعيد الذي أوعد في الآخرة من العذاب لآتٍ، يقول: لكائن لا خلف فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ يعني: بسابقين الله تعالى بأعمالكم الخبيثة التي يجازيكم بها. هذا قول مقاتل. وقال الكلبي: ﴿بمعجزين﴾ أي: بفائتين أن يدركم. ويقال في اللغة: أعجزني الشيء أي: فاتني وسبقني.

ثم قال: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على موضعكم. يقال: مكان ومكانة، مثل منزل ومنزلة، ومعناه: اعملوا على ما أنتم عليه اليوم. ويقال: ﴿اعملوا﴾ أي: اجتهدوا ما استطعتم ويقال: اعملوا في منازلكم من الخير والشر فإنكم تجزون بها لا محالة. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾

Marfat.com

بما أوحى الله إلي، ويقال: اعملوا بمكاني وأنا عامل بمكانكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ فهذا وعيد من الله تعالى. يقول: نبيّن لكم من تكون له عاقبة الأمور في الدنيا، ومن تكون له الجنة في الآخرة. ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ مخاطباً لرسول الله ﷺ أي: في الآخرة، ولا يأمن المشركون. قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿اعملوا على مكاناتكم﴾ في جميع القرآن بلفظ الجماعة. وقرأ الباقون ﴿مكانتكم﴾. وقرأ حمزة والكسائي ﴿من يكون﴾ بالياء لأنه انصرف إلى المعنى وهو الثواب، والباقون قرؤوا بالتاء لأن لفظ العاقبة لفظ مؤنث.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ﴾ وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: كانوا يسمون لله جزءاً من الحرث، ولأوثانهم جزءاً، فما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله تعالى أخذوه، وما ذهبت به الريح من الجزء الذي سموه لله إلى جزء الأصنام تركوه، وقالوا: إن الله غني عن هذا. وقال السدي: ما خرج من نصيب الأصنام أنفقوه عليها، وما خرج من نصيب الله تصدقوا به، فإذا هلك الذي لشركائهم وكثر الذي لله قالوا: ليس لآلهتنا بدّ من النفقة، فأخذوا الذي لله، وأنفقوه على الأصنام. وإذا هلك الذي لله وكثر الذي للأصنام قالوا: لو شاء الله لأزكى ماله فلا يردُّون عليه شيئاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ﴾ يعني: مما خلق من الحرث والأنعام ﴿نَصِيباً﴾ يعني: جعلوا لله نصيباً، ولشركائهم نصيباً، فاقتصر على المذكور لأن في الكلام دليلاً على المسكوت عنه. ﴿فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ يقول: بقولهم، ولم يأمرهم الله بذلك ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ يعني: للأصنام. ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ﴾ يعني: لأصنامهم ﴿فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ﴾ يقول: فلا يضعون شيئاً في نصيب الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ يقول: يوضع في نصيبهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني: لو كان معه شريك كما يقولون ما عدلوا في القسمة. ويقال: ﴿ساء ما يحكمون﴾ حيث وصفوا لله شريكاً. قرأ الكسائي (بزُعمهم) بضم الزاي، وقرأ الباقون بالنصب، وهما لغتان ومعناهما واحد.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِم شُرَكَاؤُهُم﴾ يعني: زين لهم شركاؤهم وهم الشياطين قتل أولادهم، لأنهم يقتلون أولادهم مخافة الفقر والحمية، ويدفنون بناتهم أحياء، فزين لهم الشيطان ذلك، كما زيّن لهم تحريم الحرث والأنعام. ويقال:

Marfat.com

كان الواحد منهم ينذر أنه إذا ولد له كذا وكذا ولداً يذبح واحداً منهم، كما فعل عبد المطلب، فزين لهم الشيطان قتل أولادهم، فذلك قوله ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾ قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام ﴿وكذلك زُين﴾ بضم الزاي ﴿قتلُ﴾ بضم اللام ﴿أولادَهم﴾ بفتح الدال ﴿شركائِهم﴾ بالخفض. وإنما قرىء ﴿زُيِّنَ﴾ بالضم على فعل ما لم يسم فاعله ومعناه: قتلُ شركائهم على معنى التقديم ومعناه: قتل شركائهم، وهم أولادهم لأن أولادهم شركاؤهم في أموالهم، فصار شركاؤهم نعتاً للأولاد، وصار الأولاد نصباً على وجه التفسير. وقرأ الباقون بالنصب لأنه فعل ماض و﴿قتلَ﴾ بالنصب لأنه مفعول ﴿أولادِ﴾ بالجر لأنهه مضاف إليه. ﴿شركاؤهم﴾ بالضم لأنه جعل الشركاء على وجه الفاعل.

ثم قال تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُم﴾ يعني: ليهلكوهم بذلك ﴿وَلِيَلْبِسُوا﴾ يعني: ليخلطوا وليشبهوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُم﴾ يعني: دين إبراهيم وإسماعيل.

ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ يعني: لو شاء الله لمنعهم من ذلك منع اضطرار وقهرٍ، ولأهلكهم ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: دعهم وما يكذبون بأن الله تعالى أمرهم بذلك، ومعناه: أن الله تعالى مع قدرته عليهم، قد تركهم إلى وقتٍ ﴿فذرهم﴾، فاتركهم أنت أيضاً إلى الوقت الذي تؤمر بقتالهم. ويقال: معناه، دعهم فإنّ لهم موعداً بين يدي الله، فيحاسبهم ويجازيهم بها.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أنعامٌ وَحَرْثٌ﴾ وهي: البحيرة والسائبة والوصيلة والحرث وهو: نوع من الزرع حرموها على النساء. ﴿حِجْرٌ﴾ يعني: حرام، والحجر يكون عبارة عن العقل كقوله: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥] أي: لذي لب وعقل، ويكون عبارة عن الحرام كقوله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] يعني: حراماً محرماً، وكقوله ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨] يعني: حراماً ﴿لاَ يَطْعَمُهَا إلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ من الرجال دون النساء، وهو مالك بن عوف كان يفتيهم بالحل والحرمة، وكان يقول: هذا يجوز وهذا لا يجوز، لأشياء كانوا حرموها برأيهم.

ثم قال ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وهي: الحام من الإبل، كانوا يتركونها ولا يركبونها ﴿وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ يعني: عند الذبح، ويقال: عند الركوب وهي البحيرة

Marfat.com

﴿افْتِرَاءً عليه﴾ يعني: اختلاقاً وكذباً على الله بأنه أمرهم بذلك ﴿سيجزيهم﴾ أي سيعاقبهم ﴿بما كانوا يفترون﴾ أي: بما كانوا يكذبون على الله بأنه أمر بهم ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ قال الكلبي يعني: البحيرة والوصيلة حلال لذكورنا يعنون: ما دامت في الأحياء، وليس للنساء فيه شركة ولا نصيب. فذلك قوله: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ يعني: من هذه الأنعام ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ يعني: الرجال والنساء في أكلها. وقال الضحاك: كانت الناقة إذا ولدت فصيلاً ذكراً حرموا لحم الفصيل ولبن الناقة الفصيل ولبن الناقة[1]. ذكر في أول الكلام ﴿خالصة﴾ لفظ التأنيث، لأنه انصرف إلى المعنى، ومعناه: حمله ما في بطون هذه الأنعام.

ثم قال ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ ذكر بلفظ التذكير، لأنّه انصرف إلى قوله: ﴿ما في بطون﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿وإن تكن﴾ بالتاء على معنى التأنيث ﴿ميتة﴾ بالنصب يعني: وإن تكن الجماعة ميتة، صارت الميتة خبر كان. وقرأ ابن عامر ﴿وإن يكن ميتة﴾ بالضم يعني: وإن كانت ميتة جعلها اسم كان رفعاً. وقرأ ابن كثير ﴿وإن يكن﴾ بالياء ﴿ميتة﴾ بالضم يعني وإن: يكن ما فيه ميتة بلفظ التذكير، وجعل الميتة اسم كان. وقرأ الباقون ﴿وإن يكن ميتة﴾ جعلوا الميتة خبر كان بلفظ التذكير.

ثم قال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ صار نصباً لنزع الخافض يعني: سيعاقبهم بكذبهم ﴿إنه حَكِيمٌ﴾ حيث حكم عليهم بالعذاب ﴿عليم﴾ بهم. وفي الآية دليل أن العالم ينبغي له أن يتعلم قول من خالفه وإن لم يأخذ به حتى يعلم فساد قوله، ويعلم كيف يرد عليه، لأن الله تعالى أعلم النبي ﷺ وأصحابه قول من خالفهم في زمانهم، ليعرفوا فساد قولهم.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ يعنوا: دفنوا بناتهم أحياء وقتلوهن ﴿سفهاً﴾ صار نصباً لنزع الخافض يعني: جهلاً منهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: بغير حجة لهم في قتلهن وهم: ربيعة ومضر، كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحمية. ورويَ عن رسول الله ﷺ أن رجلاً من أصحابه كان لا يزال مغتماً بين يديه، فقال له رسول الله ﷺ «مَا لَكَ تَكُونُ مَحْزُوناً»؟ فقال: يا رسول الله إني قد أذنبت في الجاهلية ذنباً، فأخاف أن لا يغفر لي وإني أسلمت، فقال له: «أَخْبِرْنِي عَنْ ذَنْبِكَ» فقال: يا رسول الله: إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت، فتشفعت إليَّ

(١) تقدّم: أنهم كانوا يحرّمون لحم الفصيل ولبن الناقة على النساء دون الرجال. أمّا إذا وضعت الناقة فصيلاً ميتاً فيشترك الرجال والنساء في لحمه، ولبن الناقة.

Marfat.com

امرأتي بأن أتركها، فتركتها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلت عليّ الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي، فابعثيها معي، فسرت بذلك وزينتها بالثياب والحلي، وأخذت عليّ المواثيق بأن لا أخونها، فذهبت بها إلى رأس بئر، فنظرت إلى البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر، فالتزمت بي وجعلت تبكي وتقول: يا أبت أي شيء تريد أن تفعل بي؟ فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبي لا تضيع أمانة أمي، فجعلتُ مرة أنظر في البئر، ومرة أنظر إليها، وأرحمها حتى غلبني الشيطان، فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة وهي تنادي في البئر يا أبت قتلتني. فمكثت هناك حتى انقطع صوتها، فرجعت، فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال **«لَوْ أُمِرْتُ أَنْ أُعَاقِبَ أَحَداً بِمَا فَعَلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ لَعَاقَبْتُكَ بِمَا فَعَلْتَ»**.

ثم قال تعالى: ﴿وحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ الله﴾ يعني: ما أعطاهم الله ﴿افْتِرَاءً﴾ يعني: كذباً ﴿على الله﴾ بأنه قد حرم ذلك عليهم ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ أي: عن الهدى ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ يعني: وما هم بمهتدين ويقال: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ من قبل فخذلهم الله تعالى بذلك. قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿قَتَّلوا﴾ بالتشديد لتكثير الفعل، والباقون بالتخفيف.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي أنشأ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ يعني: خلق البساتين، والكروم وما يعرش، وهو الذي يبسط مثل القرع ونحو ذلك ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ يعني: كل شجرة قائمة على أصولها ﴿والنَّخْلَ والزَّرْعَ﴾ يعني: خلق النخل والزرع ﴿مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾ يعني: طعمه، منه الحامض والحلو والمر ﴿والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً﴾ يعني: في المنظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ يعني: في الطعم ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ﴾ وإنما ذكر ثمره بلفظ التذكير، لأنه انصرف إلى المعنى، يعني: ثمره الذي ذكرناه ﴿وآتوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يعني: أعطوا زكاته يوم كيله ودفعه. قرأ أبو

Marfat.com

عمرو وعاصم وابن عامر ﴿حَصاده﴾ بنصب الحاء والباقون بالكسر ومعناهما واحد. وروى الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال: «العُشر أو نصف العشر»[1]. وروى سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال. عند الزرع، أي: يعطي القبضة وهو بأطراف الأصابع، ويعطي عند الصرام القبض، ويدعهم يتتبعون آثار الصرام. وعن الربيع بن أنس ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال: «التقاط السنبل». وقال الحسن: «نسختها آية الزكاة». وقال إبراهيم: «نسختها العشر ونصف العشر» وقال الضحاك: «نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن» وهكذا قال عكرمة. وقال سفيان: سألت السدي عن قوله تعالى: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال: «هذه السورة مكية نسختها العشر ونصف العشر، قلت عمن؟ قال عن العلماء». قال الفقيه الذي قال إنه صار منسوخاً يعني: أداؤه يوم الحصاد بغير تقدير صار منسوخاً، ولكن أصل الوجوب لم يصر منسوخاً، وبيّن النبي ﷺ التقدير وهو: العشر ونصف العشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «عمد ثابت بن قيس إلى خمسمائة نخلة فصرمها وقسمها في يوم واحد، فأمسى ولم يكن لأهله شيء فنزل ﴿ولا تسرفوا﴾ ولا تتصدقوا بالكلّ، ولا تمنعوا لعيالكم شيئاً. وروى عبد الرزاق عن ابن جريج قال: جدّ معاذ بن جبل نخله، فلم يزل يتصدق حتى لم يبق منه شيء، فنزل: ﴿ولا تسرفوا﴾ ويقال: ﴿ولا تسرفوا﴾ يعني: ولا تنفقوا في المعصية. قال مجاهد: لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله تعالى ما يكون إسرافاً، ولو أنفقت درهماً في طاعة الشيطان كان إسرافاً. وروي عن معاوية بن أبي سفيان أنه سئل عن قوله: ﴿ولا تسرفوا﴾ قال: الإسراف ما قصّرت عن حق الله. ويقال: ﴿ولا تسرفوا﴾ يقول: لا تشركوا الآلهة في الحرث والأنعام ـ وقد ذكر قوله: ﴿كلوا من ثمره﴾ بلفظ التذكير لأنه انصرف إلى المعنى، يعني: من ثمر ما ذكرنا[2] ـ.

ثم قال: ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ يعني: المشركين الذين يشركون الآلهة في الحرث والأنعام.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ يعني: أنشأ لكم، وخلق لكم من الأنعام حمولة وفرشاً أي: مما يحمله عليه مثل الإبل والبقر، ﴿وفرشاً﴾ مثل الغنم وصغار الإبل. ويقال: الفرش ما لا يطيق الحمل، وهي ما دون الحقاق التي لا تصلح للركوب. ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ أي: من الحرث والأنعام حلالاً طيباً ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، غير ناصح لكم.

---

(١) في جميع الروايات: «العشر ونصف العشر».

(٢) هذه الزيادة في النسخة «ب».

Marfat.com

ثم قال: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ يعني: ثمانية أفراد، يقال لكل فرد معه آخر زوج، أي يقول: خلقت لكم ثمانية أصناف، ويقال: كلوا مما رزقكم الله ثمانية أزواج. نزلت الآية في مالك بن عوف وأصحابه حيث قالوا: ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ ففي هذه الآية دليل إثبات المناظرة في العلم، لأن الله تعالى أمر النبي ﷺ بأن يناظرهم ويبيّن فساد قولهم. وفيها إثبات القول بالنظر والقياس، وفيها دليل: أن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به، ويروى: إذا ورد عليه النقض، لأن الله تعالى أمرهم أن يثبتوا بالمقايسة الصحيحة، وأمرهم بطرد علّتهم، وأمرهم بأن يبيّنوا وجه الحرمة إن كان سبب الحرمة الأنوثة أو الذكورة أو اشتمال الرحم. فإن كان سبب الحرمة الأنوثة، ينبغي أن تكون كل أنثى حراماً لوجود العلة. وإن كان سبب الحرمة الذكورة، ينبغي أن يكون كل ذكر حراماً لوجود العلة، وإن كان محرماً لاشتمال الرحم، وقد حرم الأولاد كلها، ووجبت حرمتها جميعاً لوجود العلة فيها، فبّين انتقاض علتهم وفساد قولهم، وذلك قوله: ﴿ثمانية أزواج﴾ يعني: ثمانية أصناف ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني: الذكر والأنثى: ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ يعني: الذكر والأنثى ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ﴾ يعني: قل لهم من أين جاء هذا التحريم من قبل الذكرين حُرِّمَ أم من قبل الأُنثيين؟ ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثيين﴾ يعني: أم من قبل اشتمال الرحم، لا يشتمل إلا على الذكر والأنثى.

﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ يعني: أخبروني بسبب التحريم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الله حرم ما تقولون ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ﴾ يعني: أين جاء هذا التحريم.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني: إذا لم تقدروا على إثبات تحريم ذلك بالعقل، فهل لكم كتاب يشهد على تحريم هذا؟ فذلك قوله: ﴿أم كنتم شهداء﴾ ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا﴾ يعني: أمركم بذلك التحريم، فسكت مالك بن عوف وتحير، فقال له النبي ﷺ: «مَا لَكَ لاَ تتكلم» فقال: بل تكلم أنت فأسمع، قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ بغير حجة وبيان ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: ليصرف الناس عن حكم الله تعالى بالجهل ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: لا يرشدهم إلى الحجة، ويقال: لا يوفقهم إلى الهدى مجازاة لكفرهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ومن المعز﴾ بنصب العين، وقرأ الباقون بالجزم، ومعناهما واحد.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم

Marfat.com

بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

ثمّ بيّن لهم ما حرّم عليهم فقال الله تعالى: ﴿قُل لاَ أَجِدُ في مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً﴾ يعني: لا أجد فيما أنزل علي من القرآن شيئاً محرماً ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾. يعني: على آكل يأكله ﴿إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾. قرأ ابن عامر: ﴿إلا أن تكون ميتة﴾ بالتاء على لفظ التأنيث، لأن الميتة مؤنث وقرأ ﴿ميتة﴾ بالضم لأنه اسم كان. وقرأ حمزة وابن كثير ﴿إلا أن تكون﴾ بالتاء بلفظ التأنيث ﴿ميتة﴾ بالنصب، فجعل الميتة خبراً لكان، والاسم فيه مضمر. وقرأ الباقون: ﴿إلا أن يكون﴾ بلفظ التذكير ﴿الميتة﴾ بالنصب، وإنما جعلوه مذكراً لأنه انصرف إلى المعنى ومعناه: إلا أن يكون المأكول ميتة ﴿أَوْ دَماً مَسْفُوحاً﴾ يعني: سائلاً جارياً ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِير فَإِنَّه رِجْسٌ﴾ أي: حرام ﴿أَوْ فِسْقاً﴾ يعني: معصية ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ يعني: لغير اسم الله قد ذبح وقال بعضهم: في الآية تقديم وتأخير. ومعناه: إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو فسقاً أهل لغير الله به، فإنه رجس يعني: جميع ما ذكر في الآية هو رجس. ويقال: الرجس هو نعت للحم الخنزير خاصة.

وروى عمر بن دينار عن أبي الشعثاء عن ابن عباس قال: «كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه، وأحلّ حلاله، وحرّم حرامه فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا هذه الآية ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي﴾ الآية يعني: ما لم يبيّن تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الآية. وروى أبو بكر الهذلي عن الحسن أنه قال: «والله لولا حديث سلمة بن المحبق ما لبسنا خفافكم هذه، ولا نعالكم، ولا فراءكم، حتى نعلم ما هي. قال أبوبكر: فذكرت ذلك للزهري، فقال: صدق الحسن ولك عندي أوسع من هذا: حدثني عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس أنه قرأ ﴿قل لا أجد في ما أوحي إلي محرماً﴾ الآية. قال: «إنما حرم من الميتة أكلها وما يؤكل منها، وهو اللحم، أما الجلد والعظم والشّعر والصوف فحلال». قال: وقد احتج بعض الناس بهذه الآية، على أن ما سوى هذه الأشياء التي ذكر في الآية مباح. ولكن نحن نقول: قد حرم أشياء سوى ما ذكر في الآية، وقد بيّن على لسان رسول الله ﷺ من ذلك: «كل ذي ناب من السباع»، «وكل ذي مخلب من الطير». وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَـٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَـٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقد ذكرنا تأويل الآية. ثم قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ يعني: أن هذه الأشياء التي ذكرنا في الآية كانت حراماً في الأصل، وقد حرّم الله أشياء كانت حلالاً في الأصل على اليهود بمعصيتهم. ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ يعني: الإبل والنعامة والبط والأوز. وكل شيء له خفّ وقال القتبي: ﴿كل ذي ظفر﴾

Marfat.com

يعني: كل ذي مخلب من الطيور، وكل ذي حافر من الدواب، وسمي ظفراً على الاستعارة. وقال الكلبي: ﴿كل ذي ظفر﴾ يعني: ليس بمنشق ولا مجتر فهو حرام عليهم ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ يعني: شحوم البطون.

ثم استثنى فقال: ﴿إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ وقال الضحاك: إلا ما كان على اللحوم من الشحوم. وقال الكلبي: يعني: ما تعلق بالظهر من الشحم من الكليتين. ويقال: حرم عليهم الثروب وأحلّ ما سواها. وواحد الثروب: ثرب، وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكرش ﴿أو الحَوَايَا﴾ وهو المباعر واحدتها حويّة ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ مثل الإلية. وروى جويبر عن الضحاك قال: ما التزق بالعظم. ويقال: هو المخ ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ يعني: ذلك التحريم عاقبناهم بشركهم وظلمهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أن هذه الأشياء كانت حلالاً في الأصل، وحرمناها على اليهود بمعصيتهم، لأن اليهود كانوا يقولون: إن هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل.

ثم قال تعالى: ﴿فإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يعني: فيما تقول من التحريم والتحليل ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يعني: رحمته وسعت كل شيء لا يعجل بالعقوبة على من عصاه ﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ يعني: عذابه ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا﴾ يعني: ولا أشرك آباؤنا ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ ولكن شاء لنا ذلك وأمرنا به ويقال: كان مذهبهم مذهب الجبرية.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الأمم الخالية كذبوا رسلهم كما كذبك قومك. وإنما كذبهم الله لأنهم قالوا ذلك على وجه السخرية لا على وجه التحقيق كما قال المنافقون: نشهد أنك لرسول الله، فكذبهم الله في مقالتهم، لأنهم قالوا على وجه السخرية.

ثم قال: ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ يعني: الأمم الخالية أتاهم عذابنا، فهذا تهديد لهم ليعتبروا. ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ يعني: بياناً من الله ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ يعني: فتبيّنوه لنا بتحريم هذه الأشياء التي كانوا يحرمونها.

ثم بيّن الله أنهم قالوا ذلك بغير حجة وبيان فقال الله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ يعني:

Marfat.com

ما تقولون إلا بالظن من غير يقين وعلم ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ يعني: قل لهم ما أنتم إلا تكذبون على الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ يعني: الحجة البالغة الوثيقة، وهو محمد ﷺ والقرآن. فبيّن لهم فيه ما أحلّ لهم وما حرم عليهم ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: لو شاء لوفَّقكم لدينه، وأكرمكم بالهدى لو كنتم أهلاً للإسلام، ولكن لم يوفقهم لأنهم لم يجاهدوا في الله حق جهاده.

ثم قال: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ عليكم ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ على تحريمه ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فأخبر الله أنهم لو شهدوا، كانت شهادتهم باطلة، ولا يجوز قبول شهادتهم، لأنهم يقولون بأهوائهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني: البعث ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يعني يشركون بالله تعالى.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

ثمّ قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: قل لمالك بن عوف وأصحابه الذين يحرمون الأشياء على أنفسهم ﴿تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم﴾ يعني: أبيّن أبيّن لكم ما حرم الله عليكم وما أمركم به ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ يقال: معناه تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، فقد تمّ الكلام.

أتلُ عليكم: ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ يقول: نهاكم عن عقوق الوالدين، وأمركم ببرهما، ويقال: معناه ﴿تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾ ويقال: معناه حرم عليكم أن تشركوا به شيئاً. ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ يعني: أمركم بالإحسان إلى الوالدين ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ يعني: من خشية الفقر ﴿نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يعني: زنى السر والعلانية ﴿ولا تقتلوا النّفس التي حرم اللّهُ إلاّ بِالْحَقِّ﴾ يعني: إلا بالقصاص أو بالرجم أو بترك الإسلام، فإنّ القتل بهذه الأشياء حق

Marfat.com

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ يقول: آمركم به في القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أمر الله بما حرمه في هذه الآيات. وروي عن عبد الله بن مقسم عن ابن عباس قال: «هذه الآيات المحكمات: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ إلى ثلاث آيات»، وقال الربيع بن خثيم لرجل: هل لك في صحيفة عليها خاتم محمد ﷺ؟ ثم قرأ هذه الآيات ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم﴾ ويقال: هذه الآيات هن أم الكتاب، وهن إمام في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ولا يجوز أن يرد عليها النسخ.

ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ يقول: لا تأكلوا مال اليتيم ولا تباشروه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني: إلا بالقيام عليه لإصلاح ماله ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني: احفظوا ماله حتى يبلغ رشده. قال مقاتل: يعني ثماني عشرة سنة. وقال الكلبي: الأشُدُّ ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة. ويقال: حتى يبلغ مبلغ الرجل. ويقال: بلوغ الأشد ما بين ثماني عشرة إلى أربعين سنة.

ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ يعني: أتموا الكيل والميزان عند البيع والشراء ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني: إلا جهدها في العدل، يعني: إذا اجتهد الإنسان في الكيل والوزن، فلو وقعت فيه زيادة قليلة أو نقصان، فإنه لا يؤاخذ به إذا اجتهد جهده.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ يعني: اصدقوا وقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يعني وإن كان الحق على ذي قرابة، فقولوا الحق، ولا تمنعوا الحق ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يقول: أتموا العهود التي بينكم وبين الله تعالى، والعهد الذي بينكم وبين الناس. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ يقول: أمركم به في الكتاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: تتعظون فتمتنعون عما حرم الله عليكم. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿تذكرون﴾ بتخفيف الذال، وقرأ الباقون بالتشديد. لأن أصله تتذكرون. فأدغم إحدى التاءين في الذال.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿وإن هذا﴾ بكسر الألف على معنى الابتداء. وقرأ الباقون بالنصب على معنى البناء. وقرأ ابن عامر ﴿وأنْ هذا﴾ بجزم النون. لأنَّ ﴿أن﴾ إذا خففت منعت عملها. ومعنى الآية: هذا الإسلام ديني الذي ارتضيته طريقاً مستقيماً ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يعني: لا تتبعوا دين اليهودية والنصرانية. ويقال: ﴿هذا صراطي مستقيماً﴾. يعني: طريق السنة والجماعة ﴿فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾ يعني: الأهواء المختلفة. وروي عن عبد الله بن مسعود: «أن النبي ﷺ خطَّ بالأرض خطاً مستقيماً، ثم خطّ بجنبيه خطوطاً، ثم قال: «**هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه، ولا تتبعُوا السُّبل**» يعني: الطريق الذي بجنبي الخط، يعني به: الأهواء المختلفة.

ثم قال: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ يعني: فيضلكم عن دينه ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يعني تجتنبون الأهواء المختلفة.

Marfat.com

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة، ويقال: الألواح التي كتبت له حين انطلق إلى الجبل. ويقال: معناه ثم أتل عليكم ما قال الله تعالى: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾. ويقال: ﴿ثم﴾ بمعنى الواو، يعني: وآتينا موسى الكتاب ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال القتبي: أي تماماً على المحسنين. كما يقول ثلث مالي لمن غزا، أي للغزاة. والمحسنون: هم الأنبياء والمؤمنون. و﴿على﴾ بمعنى اللام، كما نقول في الكلام: أتم الله عليه النعمة، بمعنى: أتم له، قال: ومعنى الآية - والله أعلم - وآتينا موسى الكتاب تماماً على ما أحسن من العلم والحكمة، أي مع ما كان له من العلم والحكمة، وكتب المتقدمين، أعطيناه زيادة على ذلك. ويكون ﴿الذي﴾ بمعنى: ما. قال: ومعنى آخر: آتينا موسى الكتاب تتميماً منا للمحسنين، يعني: الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين. ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ منا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: بياناً لكل شيء. قال: ويجوز معنى آخر: وآتينا موسى الكتاب إتماماً منا للإحسان على من أحسن، تفصيلاً لكل شيء. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني: ونعمة ورحمة من العذاب ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لكي يصدقوا بالبعث.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ يعني: القرآن فيه بركة لمن آمن به، وفيه مغفرة للذنوب. ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ يعني: اقتدوا به. ويقال: اعملوا بما فيه من الأمر والنهي. ﴿واتقوا﴾ يعني: واجتنبوا ولا تتخذوا إماماً غير القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني: لكي تُرحموا ولا تُعذبوا. ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ يعني: أنزلنا هذا القرآن لكي لا تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا يعني: اليهود والنصارى. ويقال: ﴿أن تقولوا﴾ يعني لكراهة أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وذلك أن كفار مكة قالوا. قاتل الله اليهود كيف كذبوا أنبياءهم، والله لو جاءنا نذير أو كتاب لكنا أهدى منهم، فأنزل الله تعالى القرآن حجة عليهم.

ثم قال: ﴿وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ يعني: عن قراءتهم الكتاب لغافلين عما فيه. ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ يعني: لكي لا تقولوا ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ يعني: أصوب

Marfat.com

ديناً منهم ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ﴾ يعني: حجة من ربكم وهو محمد ﷺ والقرآن. وإنما قال: ﴿جاءكم﴾ ولم يقل: جاءتكم، لأنه انصرف إلى المعنى يعني: البيان، ولأن الفعل مقدم. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ بمعنى: ﴿هدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ من العذاب. ويقال: قد جاءكم ما فيه من البيان وقطع الشبهات عنكم.

ثم قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ يعني: لا أحد أظلم وأشد في كفره ممن كذب بآيات الله تعالى ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ يعني: أعرض عن الإيمان بها. ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ يعني: يعرضون ﴿عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ يعني: شدة العذاب بما كانوا يعرضون عن الآيات.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ معناه، أقمت عليهم الحجة فلم يؤمنوا، فماذا ينتظرون؟ فهل ينتظرون ﴿إلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يعني: يأتي أمر ربك بما وعد لهم من العقوبة، ﴿أو يأتي ربك بما وعد لهم﴾ كقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢] ويقال: أويأتي عقوبة ربك وعذابه. وقد ذكر المضاف إليه ويراد به المضاف. كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] يعني: أهل القرية. وكقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] يعني: حب العجل. كذلك هاهنا يأتي أمر ربك يعني: عقوبة ربك وعذاب ربك. ويقال: هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يعني: طلوع الشمس من مغربها ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا﴾ حين طلعت الشمس من مغربها ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أن الكافر إذا آمن في ذلك الوقت لا يقبل إيمانه، لأنها قد ارتفعت الحجّة حين عاينوها، وإنما الإيمان بالغيب.

ثم قال: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ يعني: المسلم الذي يعمل في إيمانه خيراً، فمن كان لم يقبل عمله قبل ذلك، فإنه لا يقبل منه بعد ذلك. ومن كان قُبل منه قبل ذلك فإنه يقبل منه بعد ذلك أيضاً. أو كانت النفس مؤمنة ولم تكن كسبت خيراً قبل ذلك الوقت، لا ينفعها الخير بعد. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد بإسناده عن زر بن حبيش، عن صفوان بن عسال المرادي قال: بينما رسول الله ﷺ في سفر إذ جاء أعرابي فسأله عن أشياء حتى ذكر التوبة فقال النبي ﷺ: «لِلتَّوْبَةِ بَابٌ فِي المَغْرِبِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ عَاماً أَوْ أَرْبَعِينَ عَاماً فَلا يَزَالُ حَتَّى يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ».

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا السراج. قال: حدثنا زياد بن أيوب عن

Marfat.com

يزيد بن هارون، عن سفيان بن الحسين، عن الحكم، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال: كنت رديف رسول الله ﷺ وهو على حمار وعليه بردعة أو قطيفة، فنظر إلى الشمس حين غابت فقال: «**يا أبا ذرّ هَلْ تَدرِي أَيْنَ تَغِيبُ هٰذِهِ**»؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنَّها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ فَتَنْطَلِقُ حَتَّى تَخِرَّ لِرَبِّهَا سَاجِدَةً تَحْتَ العَرْشِ، فإذَا دَنَا خُرُوجُهَا أَذِنَ لَهَا فَخَرَجَتْ. فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُطْلِعَهَا مِنْ مَغْرِبِهَا حَبَسَهَا. فَتَقُولُ: يا رَبِّ إنَّ مَسِيرِي بَعِيدٌ. فَيَقُولُ الله تعالى اطْلعي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ**: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفساً إيمانُها﴾»[1] وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: «لا يقبل الله من كافر عملاً ولا توبة إذا أسلم حين يراها إلا من كان صغيراً يومئذ. فإنه لو أسلم بعد ذلك قُبِلَ ذلك منه»، ومتى كان مؤمناً مذنباً فتاب من الذنب قبلت منه. وروي عن عمران بن حصين أنه قال: «إنما لم وَقت وقت الطلوع حتى تكون صبيحته فيهلك كثير من الناس». فمن أسلم أو تاب في ذلك الوقت وهلك لم يقبل منه، ومن تاب بعد ذلك قبلت منه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلِ انْتَظِرُوا إنَّا مُنْتَظِرون﴾ يعني: انتظروا العذاب فإنا منتظرون بكم حتى ننظر أينا أسعد حالاً. قرأ حمزة والكسائي ﴿إلا أن يأتيهم الملائكة﴾ بالياء بلفظ التذكير، والباقون ﴿إلا أن تأتيهم﴾ بلفظ التأنيث، لأن الفعل مقدم، فيجوز أن يذكر ويؤنث.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فرَّقوا دِينَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿فارقوا دينهم﴾ بالألف يعني: تركوا دينهم الإسلام ودخلوا في اليهودية والنصرانية. وقرأ الباقون ﴿فرقوا دينهم﴾ يعني: آمنوا ببعض الرسل ولم يؤمنوا ببعض ﴿وَكَانُوا شيعاً﴾ يعني: صاروا فرقاً مختلفة. وروي عن أسباط عن السدي أنه قال: ﴿إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ هؤلاء اليهود والنصارى، تركوا دينهم وصاروا فرقاً ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: لم تؤمر بقتالهم، ثم نسخ وأمر بقتالهم في سورة براءة.

وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً﴾: **«إنَّهُمْ الخَوَارِجُ»**[2]. وفي هذه الآية حث للمؤمنين على أن كلمة المؤمنين ينبغي أن تكون واحدة، وأن لا يتفرقوا في الدين، ولا يبتدعوا البدع ما استطاعوا.

ثم قال: ﴿لست منهم في شيء﴾ يقول: إنما عليك تبليغ الرسالة وليس عليك القتال.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٩) والبخاري (٣١٩٩) والترمذي (٢١٨٦) و(٣٢٢٧) وأحمد: ٥/١٧٧.

(٢) عزاه السيوطي: ٣/٤٠٢ إلى عبد بن حميد وابن مردويه بلفظ «هم الحرورية».

Marfat.com

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ﴾ يعني: الحكم إلى الله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي في الدنيا، ويقال: ليس بيدك توبتهم ولا عذابهم، إنما أمرهم إلى الله تعالى بما كانوا يفعلون.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ يعني: من جاء بالإيمان بشهادة أن لا إله إلا الله، فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعني: بالشرك ﴿فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ وهو الخلود في النار، لأن الشرك أعظم الذنوب، والنار أعظم العقوبة فيكون مثله، فذلك قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبإ: ٢٦] يعني: جزاء وافق العمل. ويقرأ فله ﴿عشر﴾ بالتنوين ﴿أمثالُها﴾ بضم اللام، فتكون الأمثال صفة للعشر، وهي قراءة شاذة قرأها الحسن البصري ويعقوب الحضرمي والقراءة المعروفة: ﴿عشر أمثالها﴾ على معنى الإضافة، وتكلموا في المثل، قال بعضهم: إذا عمل العبد عملاً يعطى في الآخرة ثواب عشرة. ويقال: وإنه يكتب للواحدة عشرة. وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ صَاحِبَ الْيَمِينِ أَمِيرٌ عَلَى صَاحِبِ الشِّمالِ. وَإِذا عَمِلَ الْعَبْدُ حَسَنَةً كُتِبَ لَهُ عَشَرَةُ أَمْثَالِهَا. وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً فَأَرَادَ صَاحِبُ الشِّمَالِ أَنْ يَكْتُبَهَا قَالَ لَهُ صَاحِبُ الْيَمِينِ: أَمْسِكْهَا، فَيُمْسِكُ سِتَّ سَاعَاتٍ أَوْ سَبْعَ سَاعَاتٍ. فَإِنِ اسْتَغْفَرَ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ كُتِبَ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ»[١]. ويقال: إن الله تعالى قد وعدّ للواحدة عشراً فهو أعرف بكيفيته. فإن قيل: ذكر هاهنا للواحدة عشرة وذكر في آية أُخرى سبعمائة، وفي آية أُخرى أضعافاً مضاعفة، قيل له: قد تكلم أهل العلم في ذلك، قال بعضهم: يكون للعوام عشرة، والخواص سبعمائة وأكثر إلى ما لا يحصى. وقال بعضهم: العشرة اشترط لسائر الحسنات، والسبعمائة للنفقة في سبيل الله، فالخاص والعام فيه سواء.

وقد جاء في الأثر ما يؤكد القولين فقد روى عطية عن ابن عمر قال: «نزلت هذه الآية في الأعراب ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ قال رجل: ما للمهاجرين يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هو أفضل من ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٤٠] وإذا قال الله لشيء عظيماً فهو عظيم.

وروى همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا يُكْتَبُ لَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها إِلى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ. وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُها يُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِها حَتَّى يَلْقَى اللهَ بِلا ذَنْبٍ»[٢].

---

(١) عزاه السيوطي: ٣/ ٤٠٦ إلى مردويه والطبراني والبيهقي.

(٢) عزاه السيوطي: ٣/ ٤٠ إلى ابن مردويه.

Marfat.com

وروى خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «الأَعْمَالُ سِتَّةٌ فَمُوجِبَتَانِ، وَمِثْلٌ بِمِثْلٍ، وَحَسَنَةٌ بِحَسَنَةٍ، وَحَسَنَةٌ بِعَشْرةٍ، وَحَسَنَةٌ بِسَبْعِمائَةٍ. فَأَمَّا المُوجِبَتَانِ فَمَنْ مَاتَ وَلَمْ يُشْرِكْ بالله شَيْئاً دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بالله دَخَلَ النَّارَ. وَأَمَّا مِثْلٌ بِمِثْلٍ فَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا. وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ حَتَّى تَشْتَهِيَ بِهَا نَفْسُهُ وَيَعْلَمَهَا الله مِنْ قَلْبِهِ كُتِبَ لَهُ حَسَنَة. وَأَمَّا حَسَنَةٌ بِعَشْرةٍ فَمَن عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها. وَأَمَّا حَسَنَةٌ بِسَبْعِمائَةٍ فَالنَّفَقَةُ فِي سَبِيلِ الله»(١). ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ يعني: لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً ولا يزادون على سيئاتهم.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي﴾ وذلك أن أهل مكة قالوا له: من أين لك هذه الفضيلة وأنت بشر مثلنا؟ فإن فعلت لتطلب المال فاترك هذا القول حتى نعطيك من المال ما شئت. فنزل ﴿قل إنني هداني ربي﴾ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: وفقني الله وهداني إلى دين الإسلام، وهو دين لا عوج فيه ﴿دِيناً قِيماً﴾. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ديناً قَيِّماً﴾ بنصب القاف وكسر الياء مشددة. وقرأ الباقون ﴿قِيماً﴾ بكسر القاف ونصب الياء ويكون على معنى المصدر. ومن قرأ بالنصب يكون على معنى النعت ﴿ديناً قَيِّماً﴾ يعني: ديناً عدلاً مستقيماً ﴿مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً﴾ يعني: مستقيماً مخلصاً ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على دينهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي﴾ وأصل النسك: ما يتقرب به، يعني: قل إن صلاتي المفروضة وقرباني وديني ﴿وَمَحْيَايَ﴾ في الدنيا ﴿وَمَمَاتِي﴾ بعد الحياة. ويقال: ﴿ونسكي﴾ يعني: أضحيتي وحجي ﴿لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ في الكتاب ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من أهل مكة. ويقال: أول المسلمين يوم الميثاق. ويقال: ﴿صلاتي﴾ يعني: صلاة العيد ﴿ونسكي﴾ يعني: الأضحية.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال لعائشة رضي الله عنه: «قُومِي إلى أُضْحِيَتِكِ وَاذْبَحِي وَقُولِي: إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ». ويقال: أنا أول المخلصين بالثبات على الإسلام.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ

(١) عزاه السيوطي: ٣/٤٠٧ إلى أحمد والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب.

Marfat.com

﴿ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً﴾ يقول: أعبد وأطلب رباً غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خلقه في السموات والأرض، لأنهم كانوا يقولون له: نحن كفلاء لك بما يصيبك ومن تابعك. فنزل ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْهَا﴾ يعني: إلا لها أو عليها إن كان خيراً فلها، وإن كان شراً فعليها ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني: لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مصيركم في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين، ويبيّن لكم الحق من الباطل بالمعاينة.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾ يعني: سكان الأرض من بعد إهلاك الأمم الخالية، لأن النبي ﷺ خاتم النبيين، وأمته قد خلفوا جميع الأمم. ويقال: ﴿خلائف﴾ يعني: يخلف بعضكم بعضاً ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي فضل بعضكم على بعض في المال والرزق ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾ يعني: ليبتلي الموسر بالغِنَى ويطلب منه الشكر، ويبتلي المُعْسِر بالفاقة ويطلب منه الصبر. ويقال: ﴿ليبلوكم﴾ يعني: بعضكم ببعض كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠] لتصبروا.

ثم خوّفه فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ﴾ كأنه جاء لأن ما هو آتٍ فهو قريب، كما قال: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] ﴿وَإِنَّه لَغَفُورٌ﴾ يعني: لمن أطاعه في فاقة أو غِنى. ويقال: ﴿سريع العقاب﴾ لمن لم يشكر نعمته وكان مصراً على ذلك.

و ﴿إنه لغفور﴾ لمن رجع وتاب ﴿رحيم﴾ بعد التوبة. ويقال: ﴿سريع العقاب﴾ لمن لم يحفظ نفسه فيما أعطاه من فضل الله، وترك حق الله في ذلك ﴿وإنه لغفور﴾ لمن تاب ﴿رحيم﴾ بعد التوبة. قال الفقيه قال: حدثنا أبو الحسين بن حمدان بإسناده إلى أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُنْزِلَت عَلَيَّ سُورَةُ الأَنْعَام جُمْلَةً وَاحِدَةً وَشَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْبِيحِ والتَّحْمِيدِ وَالتَّهْلِيلِ»**[1] قال. وقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الأَنْعَامِ صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ أُولَئِكَ السَّبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ بِعَدَدِ كُلِّ آيَةٍ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ يَوْماً وَلَيْلَةً»**[2] وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) عزاه السيوطي: ٣/ ٢٤٤ إلى أبي الشيخ.

(٢) عزاه السيوطي: ٣/ ٢٤٥ إلى أبي الشيخ وابن مردويه.

Marfat.com

سورة الأعراف

مكية وهي مائتان وست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المص ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿المص﴾ قال ابن عباس يعني: أنا الله أعلم وأفصل معناه: أعلم بأمور الخلق، وأفصل الأحكام والأمور والمقادير، فليس لي شريك في تدبير الخلق. ويقال: معناه أنا الله المصور، ويقال: أنا الله الناصر، ويقال: أنا الله الصادق.

وروى معمر عن قتادة قال: إنه اسم من أسماء القرآن، ويقال هو قسم ﴿كتابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: أن هذا الكتاب أُنزل إليك يا محمد ﴿فلا يكُنْ في صدْرِكَ حرجٌ منهُ﴾ أي: فلا يقعن في قلبك شك منه، يعني: من القرآن أنه من الله تعالى. والخطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره. كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]. ويقال: ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ يعني: فلا يضيقنّ صدرك بتكذيبهم، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] والحرج في اللغة: هو الضيق.

ثم قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ على معنى التقديم يعني: كتاب أنزلناه إليك لتنذر به، يعني: لتخوف بالقرآن أهل مكة ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: عظة للمؤمنين الذين اتبعوك.

ثم قال: ﴿اتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ﴾ يعني: صدِّقوا، وأعملوا بما أنزل على نبيكم محمد ﷺ من القرآن، ويقرأه عليكم ﴿وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: ولا تتّخذوا من دون الله أرباباً، ولا تعبدوا غيره.

ثم أخبر عنهم فقال: ﴿قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿ما﴾: صلة في الكلام ومعناه: قليلاً تتعظون، يعني: أنهم لا يتعظون به شيئاً. قرأ ابن عامر ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ على لفظ المغايبة بالياء. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة بتشديد الذال والكاف، لأن أصله: تتذكرون، فأدغم إحدى التائين في الذال. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال، وإسقاط التشديد للتخفيف.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم

Marfat.com

﴿بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

ثم خوفهم فقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ معناه: وكم من أهل قرية وعظناهم فلم يتعظوا، فأهلكناهم ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ يعني: جاءها عذابنا بعد التكذيب ﴿بَيَاتاً﴾ يعني: ليلاً. سمي الليل بياتاً لأنه يبات فيه كما سمّي البيتُ بيتاً لأنه يُبات فيه ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ يعني: عند القيلولة. فإن لم تتعظوا أنتم، يأتيكم العذاب ليلاً أو نهاراً كما أتاهم.

ثم أخبر عن حال من أتاهم العذاب فقال: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا﴾ يعني: لم يكن قولهم حين جاءهم العذاب، ولم تكن لهم حيلة إلا أنهم تضرعوا وقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ظلمنا أنفسنا بترك طاعة ربنا من التوحيد، يعني: أن قولهم بعدما جاءهم العذاب والهلاك لم ينفعهم، فاعتبروا بهم فإنكم إذا جاءكم العذاب لا ينفعكم التضرع.

ثم أخبرهم حالهم يوم القيامة فقال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: الأمم، هل بلّغكم الرسل ما أرسلوا به إليكم، وماذا أجبتم المرسلين؟ ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تبليغ الرسالة وماذا أجبتم الرسل. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

ثم قال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ يعني: فلنخبرنّهم بما عملوا في الدنيا ببيان وعلم منا ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عمّا بلغت الرسل وعمّا ردَّ عليهم قومُهم. ومعناه: وما كنا نسألهم لنعلم، ولكن سألناهم حجةً عليهم.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ يعني: وزن الأعمال يومئذٍ بالعدل ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الناجون. وتكلموا في وزن الأعمال، قال بعضهم: توزن الصحائف التي كتابها الحفظة في الدنيا. وقال بعضهم: يجعل للأعمال صورة، وتوضع في الميزان، وقال بعضهم: هذا على وجه المثل، وهو كناية عن التعديل، وهو قول المعتزلة. وقال بعضهم: قد ذكر الله تعالى الوزن، فنؤمن به ولا نعرف كيفيته.

وروى بلال الحبشي، عن حذيفة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ جِبْرِيلَ صَاحِبُ المِيزَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَقُولُ لَهُ رَبُّهُ: زِنْ بَيْنَهُمْ فَرُدَّ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلا دِرْهَمَ يَوْمَئِذٍ، وَلا فِضَّةَ، وَلا دِينَارَ، فَيَرُدُّ الظَّالِمُ عَلَى المَظْلُومِ مَا وَجَدَ لَهُ مِنْ حَسَنَةٍ. فَإِنْ لَمْ تُوجَدْ لَهُ حَسَنَةٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ المَظْلُومِ فَيَرُدُّ عَلَى الظَّالِمِ فَيَرْجِعُ الظَّالِمُ وَعَلَيْهِ سَيِّئَاتٌ مِثْلُ الجَبَلِ»(١).

(١) عزاه السيوطي ٣/٤١٨ إلى ابن أبي الدنيا وابن جرير

Marfat.com

وروي عن ابن عباس أنه قال: «توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان. فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة، وتثقل حسناته على سيئاته. وأما الكافر فيؤتى بعمله في أقبح صورة، وتثقل سيئاته على حسناته». وقال بعضهم: لا يوزن عمل الكافر، وإنما توزن الأعمال التي بإزائها حسنات.

ثم قال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني: رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ يعني: غبنوا حظ أنفسهم ﴿بِمَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يعني: بما كانوا يجحدون، بأنه ليس من الله تعالى. وقد ذكر الموازين بلفظ الجمع. قال بعضهم: أراد به جماعة الموزون. وقال بعضهم: أراد به الميزان، لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين والخيوط، فذكر باسم الجماعة.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: مكناكم في الأرض وعمرناكم، فذكر نعم التهديد، ثم ذكر لهم النعم ليستحوا من ربهم ولا يعصوه ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ يعني: الرزق وهو ما يخرج من الأرض، والكروم والثمار والحبوب.

وروى خارجة عن نافع أنه قرأ ﴿معائش﴾ بالهمز لأنه على ميزان فعائل، مثل الكبائر والشعائر. وقرأ الباقون بغير همز، لأن الياء أصلية، وكان على ميزان مفاعل.

ثم قال: ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ يعني: إنكم لا تشكرون هذه النعم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ يعني: خلقنا آدم وأنتم من ذريته، ﴿ثم صورناكم﴾ يعني: ذريته. ويقال: ﴿خلقناكم﴾ يعني: آدم خلقه من تراب ﴿ثم صورناكم﴾ يعني: آدم صوره بعد ما خلقه من طين. ويقال: ﴿خلقناكم﴾ نطفاً في أصلاب الآباء ﴿ثم صورناكم﴾ يعني: في أرحام الأمهات. ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ﴾ على وجه التقديم يعني: وقلنا للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: بمعنى الواو. ويقال: معناه خلقناكم وصورناكم وقلنا

Marfat.com

للملائكة: اسجدوا لآدم، وهي سجدة التحية لا سجدة الطاعة. فالعبادةُ لله تعالى، والتحية لآدم ﴿فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ يعني: لم يسجد مع الملائكة لآدم ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ﴾ يعني: أن تسجد ولا زيادة. ومعناه: ما منعك عن السجود إذ أمرتك بالسجود لآدم ﴿قَالَ﴾ إبليس: إنما لم أسجد لأنّي ﴿أنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طينٍ﴾ يعني: هذا الذي منعني عن السجود. فاشتغل اللعين بالقياس، والقياس في موضع النص باطل. لأنه لما أقرّ بأنه هو الذي خلقه، فقد أقرّ بأن أمرهُ عليه واجب، وعليه أن يأتمر بأمره. ومع ذلك لو كان القياس جائزاً لكان قياسه فاسداً، لأنّ الطين أفضل من النار، لأنّ عامة الثمار والفواكه والحبوب تخرج من الطين، ولأن العمارة من الطين، والنار للخراب.

ثم قال له ربه عز وجل: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ قال مقاتل: يعني: اهبط من الجنة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أنْ تَتَكبرَ فِيهَا﴾ يعني: في الجنة. وقال الكلبي: ﴿فاهبط منها﴾ يعني: اخرج من الأرض والْحَقْ بجزائر البحور، فلا تدخل الأرض إلا كهيئة السارق وعليه الخمار يروغ فيها، ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ يعني: ما ينبغي لك أن تتكبر في هذه الأرض على بني آدم ﴿فَاخْرُجْ إنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يعني: من المهانين المُذلّين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أنْظِرْنِي إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يعني: أجلني إلى يوم البعث، اليوم الذي يخرج الناس من قبورهم. قال ابن عباس: «أراد الخبيث ألا يذوق الموت، فأبى الله تعالى أن يعطيه ذلك». ﴿قَالَ إنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ﴾ يعني: إلى النفخة الأولى، فحينئذٍ تذوق الموت وتصيبه المرارة بعدد الأولين والآخرين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أغْوَيْتَنِي﴾ قال الكلبي: يعني: فكما أضللتني. وقال مقاتل: يعني أما إذا أضللتني. وقال بعضهم: ﴿فبما أغويتني﴾ يعني: فبما دعوتني إلى شيء غويت به. ﴿لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ﴾ يعني: لأقعدن لهم على طريقك المستقيم، وهو دين الإسلام، فأصدّ الناس عن ذلك. ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ﴾ روى أسباط عن السدي قال: ﴿من بين أيديهم﴾ **الدنيا أدعوهم إليها** ﴿ومن خلفهم﴾ **الآخرة أشككهم فيها** ﴿وعن أيمانهم﴾ **قال: الحقّ أشكّكُهم فيه** ﴿وعن شمائلهم﴾ **قال: الباطلُ أخففُهُ عليهم وأرغّبُهُم فيه.**

وقال في رواية الكلبي: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم﴾ **من أمر الآخرة، فأزيّن لهم التكذيب بالبعث، بأنه لا جنة ولا نار،** ﴿ومن خلفهم﴾ **من أمر الدنيا فأزينها في أعينهم وأرغبهم فيها، فلا يعطون حقاً** ﴿وعن أيمانهم﴾ **أي: من قبل دينهم، فإن كانوا على الضلالة زيّنتها لهم، وإن كانوا على الهدى شبّهته عليهم حتى يشكوا فيه ويقال:** ﴿وعن شمائلهم﴾ **من قبل اللذات والشهوات، ويقال:** ﴿وعن أيمانهم﴾ **باليهودية والنصراينة** ﴿وعن شمائلهم﴾ **بالأهواء المختلفة. ويقال: معناه لآتينهم بالإضلال من جميع جهاتهم ويقال:** ﴿عن أيمانهم﴾ **فيما أمروا به** ﴿وعن شمائلهم﴾ **فيما نهوا عنه. ويقال:** ﴿وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ **أي: فيما يعملون، لأنه يقال**

Marfat.com

عملت يداك ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ يعني ذرية آدم عليه السلام لا يكونون شاكرين لنعمتك، ويقال: ﴿شاكرين﴾ يعني: مؤمنين وقال في آية أُخرى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَدْحُوراً﴾ قال الكلبي ومقاتل: يعني اخرج من الجنة ﴿مذؤوما﴾ أي: معيباً، ﴿مدحوراً﴾ يعني: مطروداً. وقال الزجاج: ﴿مذؤوماً﴾ يعني: مذموماً. يقال: ذأمت الرجل وذممته إذا عبته. ﴿مدحوراً﴾ يعني: مبعداً من رحمة الله تعالى ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ يعني: مَنْ أطاعك فيما دعوته إليه. واللام زيادة للتأكيد ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: ممن أطاعك منهم من الجن والإنس، ويكون هذا اللفظ بمعنى القسم والتأكيد: وأنه يفعل ذلك لا محالة.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيا آدمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾ يعني: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴿فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ يعني: من حيث أحببتما موسَّعاً عليكما ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ يعني: ولا تأكلا من هذه الشجرة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: فتصيرا من الضارين بأنفسكما.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ يعني: زيّن لهما الشيطان ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا ما وري عَنْهُمَا مِنْ سَوْءاتِهِمَا﴾ يعني: أراد إبليس بالوسوسة ليظهر ما سُتر من عوراتهما، والسوأة: كناية عن العورة. وذلك أن إبليس لما رأى محسوده في الجنة، ورأى نفسه طريداً لم يصبر، واحتال لإخراجهما فأتاهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ يعني: أنكما لو أكلتما تصيران كالملكين لا تموتان أبداً أو تكونان كالملائكة، وتعلمان الخير والشر. ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾ يعني: إن لم تكونا مَلَكَيْن، فتكونا من الخالدين لا تموتان أبداً. وقرأ بعضهم ﴿مَلِكَيْنِ﴾ بالخفض كما قال: في آية أُخرى ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] وهي قراءة يحيى بن أبي كثير.

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ يعني: حلف لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ بأنها شجرة الخلد، من أكل منها لم يمت. وكان آدم لم يعلم أن أحداً يحلف بالله كاذباً ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾

Marfat.com

يعني: غرّهما بباطل ويقال: زيّن لهما. وأصله في اللغة: من التقريب، يعني: قربهما إلى الشجرة ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ يقول: فلما أكلا من الشجرة ووصل إلى بطونهما، تهافت لباسهما عنهما ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ يقول: ظهرت لهما عوراتهما، وإنما سميت العورة سوأة، لأن كشف العورة قبيح.

قال الفقيه: حدثنا أبو جعفر. قال: حدثنا أبو القاسم أحمد بن حم قد ذكر بإسناده عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ آدَمَ كَانَ رَجُلاً طَوِيلاً، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ كَثِيرٌ شَعْرِ الرَّأْسِ، فلمّا وقَعَ في الخَطِيئَةِ، بَدَتْ لَهُ سَوءته وكَانَ لا يَرَاها قَبْلَ ذَلِكَ، فانْطَلَقَ هَارِباً في الجَنَّةِ، فتعلّقت بِهِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الجَنَّةِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا آدَمُ أَتَفِرُّ مِنِّي؟ قَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي أَسْتَحِي**». وفيه دليل أن ستر العورة كان واجباً من قت آدم عليه السلام لأنه لما كشف عنهما، سترا عوراتهما بالأوراق، فذلك قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ يعني: أقبلا وعمدا على أبدانهما ورقة ورقة ومنه يقال: خصف فعله وهو إطباق طاق على طاق. وأصل الخصف: الضمّ والجمع، يعني: أقبلا وعمدا يلزقان عليهما من ورق الجنة وهو ورق التين، والخصف: إنما هو إلصاق الشيء بالشيء، ولهذا يقال له: خصاف[1].. وقرأ بعضهم ﴿وطفقَا﴾ بالنصب وهما لغتان طَفِقَ يَطْفَقُ وَطَفَقَ يَطْفِقُ ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ يعني: قال ربهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ يعني: عن أكل تلك الشجرة ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا﴾ يعني: ألم أقل لكما ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: إبليس لكما عدوّ ظاهر العداوة.

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ بأكلنا الشجرة، فاغفر لنا وتجاوز عن معصيتنا ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ يعني: إن لم تتجاوز عن ذنوبنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بالعقوبة، فهذه لام القسم، كأنهما قالا: والله لنكونن من الخاسرين إن لم تغفر لنا وترحمنا. وقد ذكر الله تعالى قبول توبتهما في سورة البقرة، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] يعني: قبل توبته. وفي الآية دليل أنّ الله تعالى يعذب عباده إذا أصرُّوا على الذنوب، ويتجاوز عنهم إذا تابوا، لأن إبليس لم يتب، وسأل النظرة، فجعل مأواه جهنم. وتاب آدم ورجع عن ذنبه، فقبل توبته.

قوله: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ يعني: آدم وحواء عليهما السلام وإبليس لعنه الله ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني: إبليس عدو لآدم وحواء.

ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ يعني: منزل وموضع القرار ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ يعني: ومعاش إلى وقت الموت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ يعني: في الأرض تعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ يعني: من الأرض من قبوركم يوم القيامة. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر

---

(١) ساقط في النسخة «أ».

Marfat.com

﴿يَخرُجُونَ﴾ بنصب الياء وضم الراء، وقرأ الباقون ﴿تُخرَجُون﴾ بضم التاء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٢٨) قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ (٣٠)﴾

قوله تعالى: ﴿يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً﴾ يقول: خلقنا لكم الثياب ﴿يُوارِي سَوْءاتِكُمْ﴾ يعني: يستر عوراتكم، ويقال: معناه، أنزلنا عليكم المطر ينبت لكم القطن والكتّان لباساً لكم.

ثمّ قال: ﴿وَرِيشاً﴾ قرأ الحسن البصري: ورياشاً بالألف. وقرأ غيره ﴿وريشاً﴾ بغير ألف وقال القتبي: الريش والرياش ما ظهر من اللباس، وريش الطائر ما ستره الله به. ويقال: الرياش: المال والمعاش. قال الفقيه: حدّثنا محمد بن الفضل. قال: حدّثنا محمد بن جعفر قال: حدّثنا إبراهيم بن يوسف عن أبي أسامة، عن عوف بن أبي جميلة عن معبد الجهني في قوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً﴾ قال: هو ما تلبسون ﴿ورياشاً﴾ قال: المعاش ﴿ولِبَاسُ التقوى﴾ هو الحياء ﴿ذٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني: لباس التقوى وهو الحياء خير من الثياب، لأن الفاجر وإنْ كان حسن الثياب فإنه بادي العورة، ألا ترى إلى قول الشاعر حيث يقول:

حتّى كأنّي أرى مَنْ لا حَياءَ لَهُ ولا أمانَةَ وسطَ القومِ عريَانَا

وقال القتبي: ﴿لباس التقوى﴾ أي: ما ظهر عليه من السكينة والعمل الصالح كما قال: ﴿لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ [النحل: ١١٢] يعني: ما ظهر عليهم من سوء آثارهم ويقال: ﴿لباس التقوى﴾ الإيمان ويقال: العفّة. وتغيُّر حالهم. قرأ نافع والكسائي وابن عامر ﴿لِباس﴾ بالنصب يعني: أنزل لباس التقوى، وقرأ الباقون بالضم على معنى الابتداء. ويقال: فيه مضمر يعني: وهو ﴿لباسُ التقوى﴾ ومعناه: ستر العروة أي: لباسِ المتقين. وقرأ عبد الله بن مسعود ﴿لباس التقوى﴾ خير. وقال مجاهد: كان أناس من العرب يطوفون حول البيت عراة فنزل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءاتِكُمْ وَرِيشاً﴾ يعني: من المال. ويقال: معنى قوله: ﴿ذٰلِك خَيْرٌ﴾ يعني: اللباس خير من تركه، لأنهم كانوا يطوفون عراة.

Marfat.com

قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: من نعم الله على الناس، ويقال: من عجائب الله ودلائله. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني: يتعظون من قوله تعالى.

وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يقول: لا يضلّنّكم الشيطان عن طاعتي فيمنعكم من الجنة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ حين تركا طاعتي وعصيا أمري ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ يعني: لا يفتننكم الشيطان عن دينكم في أمور الثياب فينزعها عنكم، فتبدوا عوراتكم كما فعل بأبويكم، نزع عنهما لباسهما وأظهر عورتهما. وقال بعض الحكماء: إنّ المعصية شؤم تضر بصاحبها فتجعله عرياناً كما فعلت بآدم عليه السلام.

ثمّ قال: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ ـ يعني: كونوا بالحذر منه، فإنه ﴿يراكم هو﴾ أي إبليس وجنوده من الشياطين[1] ـ لأنه يجري من بني آدم مجرى الدم. وذُكر أن إبليس لما لُعِن قال: يا ربِّ إنّك باعث إلى بني آدم رسلاً وكتباً، فما رسلي؟ قال: الكهنة. قال: فما كتابي؟ قال: الوشم. قال: فما قراءتي قال: الشعر، قال: فما مسجدي؟ قال: السوق، قال: فما مؤذني؟ قال: المزامير، قال: فما بيتي؟ قال: الحمام، قال: فما مصائدي؟ قال النساء. قال: فما طعامي؟ قال: كل ما لم يذكر اسم الله عليه، قال: فما شرابي؟ قال: كل مسكر.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: قرناء ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ يعني: لا يصدقون بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ يعني: إنّ المشركين حرموا على أنفسهم أشياء قد أحلها الله لهم، وكانوا يطوفون بالبيت عراة، قالوا: لا نطوف في ثياب قد أذنبنا فيها، وكان رجالهم يطوفون بالبيت بالنهار ونساؤهم يطوفون بالليل، وإذا طافت المرأة بالنهار اتخذت إزاراً من سير، وكانت تبدو عورتها إذا مشت وكانت تقول:

اليومَ يبدُو بعضُه أو كلُّهُ فما بَدَا منْهُ فلا أُحلُّهُ

وإذا قيل لهم: لم فعلتم هكذا؟ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يعني: بتحريم هذه الأشياء، وبالطواف عراة.

قال الله لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ يعني: بالمعاصي ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أتكذبون على الله وتقولون بغير علم وتكذبون على الله؟

ثم بيّن لهم ما أمرهم الله تعالى فيه. فقال عز وجل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل والصواب، وكلمة التوحيد وهي: شهادة أن لا إله إلاّ الله ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يعني: ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ وقل: ﴿أقيموا وجوهكم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يعني: حوّلوا وجوهكم إلى

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

الكعبة عند كل صلاة. وقال الكلبي: يعني إذا حضرت الصلاة وأنتم في مسجد فصلوا فيه، ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي. وإذا لم يكن في مسجد فليأت أي مسجد شاء. وقال مقاتل: يعني ولُوا وجوهكم إلى القبلة في أي مسجد كنتم ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يقول: وحّدوه واعبُدوه بالإخلاص. ويقال: إنّ أهل الجاهلية كانوا يشركون في تلبيتهم، ويقولون: لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فأمرهم أن يدعوه في التلبية مخلصين له الدين.

ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي ليس كما تشركون. فاحتج عليهم بالبعث متصلاً بقوله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿كما بدأكم تعودون﴾ يعني: ليس بعثكم على الله تعالى بأشد من ابتدائكم. وقال الحسن: كما خلقكم ولم تكونوا شيئاً فأحياكم، كذلك يميتكم، ثم يحييكم يوم القيامة. ويقال: ﴿كما بدأكم﴾ يوم الميثاق من التصديق والتكذيب ﴿تعودون﴾ إلى ذلك. حيث قال: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي». ويقال: ﴿كما بدأكم﴾ فخلقكم من تراب تعودون تراباً بعد الموت. وقال ابن عباس: ﴿كما بدأكم﴾ «مؤمناً وكافراً وشقياً وسعيداً، كذلك تموتون عليه وتبعثون عليه».

ثم قال: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ وهم المؤمنون، فعلم الله تعالى منهم الطاعة، وأكرمهم بالمعرفة ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ يعني: وجب عليهم الضلالة، فخذلهم ولم يكرمهم بالتوحيد حيث علم منهم المعصية والكفر.

ثم قال ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: اتخذوهم أولياء وأطاعوهم بالمعصية ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يعني: يظنون أنهم على الهدى. قال الزجاج: فيه دليل أن من لا يعلم أنه كافر وهو كافر يكون كافراً، لأن بعضهم قال: لا يكون كافراً وهو لا يعلم، وذلك القول باطل لأن الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] وقال: ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾.

﴿۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِند كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يعني: البسوا ثيابكم واستروا عوراتكم عند كل صلاة. قال السدي: كان هؤلاء الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون الودك. فقال الله تعالى: ﴿خُذوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلوا واشرَبُوا وَلا تُسرفُوا﴾ في التحريم. ويقال: الإسراف أن يأكل ما لا يحل أكله، أو يأكل مما يحل له أكله فوق الشبع ومقدار الحاجة. وقيل لبعض الأطباء: هل وجدت الطب في كتاب الله تعالى؟ قال: نعم، قد جمع الله تعالى

Marfat.com

الطب كله في هذه الآية ﴿وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: لا تحرموا ما أحل الله لكم، فإنَّ محرِّم ما أحل الله، كمحلّ ما حرم الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ - وهو أنه لمّا نزل قوله: ﴿خذوا زينتكم﴾ لبسوا الثياب وطافوا بالبيت مع الثياب فعيَّرهم المشركون، فنزل قوله تعالى: ﴿قل من حرَّم زينة الله﴾ أي لبس الثياب ﴿التي أخرج لعباده﴾[1] - يعني: خلقها لهم. ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ يعني: الحلال وهو اللحم والشحم والدسم ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال مقاتل: في الآية تقديم، ومعناه: قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا ﴿قُلْ هي لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قرأ نافع: ﴿خالصةٌ﴾، بضم الهاء، وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالنصب، جعلا نصباً للحال، أي في حال الحياة الدنيا ﴿خالصة﴾ أي ثابتة. ومن قرأ بالضم فهو خبر بعد خبر يعني: هي ثابتة لهم خالصة معناه: قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا، يشترك فيها المؤمن والكافر، وهي خالصة للمؤمنين يوم القيامة. وقال القتبي: هذا من الاختصار ومعناه: قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة، وفي الآخرة خالصة.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يعني: هكذا نبيِّنُ العلامات، ويقال: نبيّن الآيات من أمره ونهيه وما يكون في الدنيا والآخرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: يفقهون أمر الله تعالى.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

ثم أخبرهم ما حرّم الله عليهم فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ﴾ يعني: المعاصي. ويقال ﴿الإثم﴾ يعني: الخمر كما قال القائل:

شربْتُ الإثـمَ حتّى ضَلَّ عقلي ... كذاكَ الإثـمُ يذهَبُ بالعُقُولِ

﴿والبَغْيَ﴾ يعني: حرم الاستطالة وظلم الناس ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ يقول: وحرّم أن تشركوا بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ يقول: ما لم ينزل به كتاباً فيه عذركم وحجة لكم ﴿وأن تقولوا على اللهِ﴾ يعني: وحرم عليكم أن تقولوا على الله ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حرم عليكم.

ثم خوفهم فقال عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يعني: لكل أهل دين مهلةٌ للعذاب ﴿فَإِذَا جاء أَجَلُهُمْ﴾ بالعذاب ﴿لاَ يَسْتَأْخِرُون سَاعَةً﴾ بعد الأجل ﴿وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ساعة قبل الأجل.

(١) ما بين معقوفتين ساقط في النسخة «أ».

Marfat.com

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

ثمّ قال الله تعالى: ﴿يا بَنِي آدَمَ إمَّا يأتِيَنَّكُمْ﴾ وأصله: إنْ ما ومعناه: متى ما يأتيكم ﴿رُسُلٌ مِنكُمْ﴾ يعني: من جنسكم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيكُمْ آيَاتِي﴾ يعني: يقرؤون ويعرضون عليكم كتابي ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ يعني: اتقى الشرك وأطاع الرسول وأصلح العمل، ويقال: ﴿فمن اتقى﴾ عما نهى الله عنه ﴿وأصلح﴾ يعني: عمل بما أمر الله به ﴿فلا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنون﴾ يعني: ﴿لا خوف عليهم﴾ من العذاب ﴿ولا هم يحزنون﴾ من فوات الثواب. ويقال: ﴿فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلفوا من الدنيا، ويقال: معناه إمّا يأتينّكم رسل منكم فأيقنتم ﴿فلا خوف عليكم﴾ فيما يستقبلكم.

فذكر الله ثواب من اتقى وأصلح، ثم بيّن عقوبة من لم يتقِ ولم يصلح فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنها﴾ يعني: تعظّموا عن الإيمان، فلم يؤمنوا بالرسل وتكبروا عن الإيمان ﴿أولئكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: دائمون.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ قال الكلبي: فمن أكفر. وقال بعضهم: هذا التفسير خطأ، لأنه لا يصح أن يقال هذا أكفر من هذا، ولكن معناه: ومن أشد في كفره. ويقال: فلا أحد أظلم، ويقال: أيّ ظلم أشنع وأقبح ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ يعني: من اختلق على الله كذباً أي: شركاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يعني: جحد بمحمدٍ وبالقرآن ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: حظهم من العذاب. ويقال ﴿نصيبهم من الكتاب﴾ حظهم مما وعد الله لهم في الكتاب: الإهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة. وقال ابن عباس: هو ما ذكر في موضع آخر ﴿ويومَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾. ويقال: ﴿نصيبهم من الكتاب﴾ أي: ما قضي وقدر عليهم في اللوح المحفوظ من السعادة والشقاوة. ويقال: ﴿نصيبهم﴾ أي: رزقهم وأجلهم في الدنيا ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يعني: أمهلهم حتى يأتيهم ملك الموت وأعوانه عند قبض أرواحهم. ﴿قالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُون من دون الله﴾ يعني: الملائكة يقولون لهم ذلك عند قبض أرواحهم ويقال: تقول ذلك خزنة جهنّم قبل دخولها ﴿أين ما كنتم تدعون﴾ أي تعبدون من الآلهة يمنعونكم من النار ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ يعني: اشتغلوا عنا بأنفسهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ في الدنيا، وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم.

Marfat.com

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم قال: ﴿قَالَ ادخلُوا فِي أُمَم قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: قالت لهم خزنة النار: ادخلوا النار مع أمم قد مضت من قبلكم على مذهبكم ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ في النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ﴾ يعني: النار ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يعني: لعنت الأمة التي دخلت قبلها النار. قال مقاتل: يعني لعنوا أهل ملتهم، فيلعن المشركون المشركين ويلعن النصارى ويلعن اليهود. وقال الكلبي: تدعو على الأمم الذين دخلوا النار قبلهم في النار، يبدأ بالأمم الأولى فالأولى، ويبدأ أولاً بقابيل وولده. ويقال: يبدأ بالأكابر فالأكابر مثل فرعون كما قال في آية أخرى ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩].

﴿حتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً﴾ يعني: اجتمعوا في النار، وأصله: تداركوا يعني: اجتمع القادة والأتباع في النار. وقرأ بعضهم: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكُوا فيها﴾ يعني: دخلوا في إدراكها، كما يقال: أشتى الرجل إذا دخل في الشتاء، وهي قراءة شاذة. ﴿قَالَتْ أُخرَاهُمْ لأُولاَهُمْ﴾ يعني: قالت أواخر الأمم لأولهم. ويقال: قالت الأتباع للقادة والرؤساء ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا﴾ عن الهدى ﴿فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِن النَّارِ﴾ يعني: أعطهم زيادة من العذاب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: على القادة زيادة من العذاب، ولكن لا تعلمون ما عليهم. قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ بالياء يعني: لا يعلم فريق منهم عذاب فريق آخر ﴿وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخرَاهُمْ﴾ يعني: أولاهم دخولاً لآخرهم دخولاً. ويقال: القادة للأتباع ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يعني: في شيء كفرتم كما كفرنا، فنحن وأنتم سواء في الكفر، ضللتم كما ضللنا.

قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ويقال: تقول الخزنة: ﴿فذوقوا العذاب﴾. ويقال: هذا قول بعضهم لبعض ﴿فذوقوا العذاب بِمَا كُنتُم تَكْسِبُونَ﴾ يعني بكفركم في الدنيا وبترككم الإيمان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ

Marfat.com

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ يعني: عن قبولها. ويقال: عن النظر فيها ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ يعني: لأعمال الكافرين أي: ليس لهم عمل صالح تفتح له أبوابَ السماء، ويقال: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا ماتوا. وقال بعضهم: ﴿أبواب السماء﴾ يعني: أبواب الجنة ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ﴾ يعني: لا يدخلون الجنة أبداً، كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة. وروي عن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل. فقال: «زوج الناقة». وقال الضحاك: الجمل الذي له أربع قوائم. وقال بعض الناس: الجمل هو أشتر بالفارسية، وقال الحسن: هو ولد الناقة. وروي عن ابن عباس أنه قرأ ﴿حتى يلج الجُمّل﴾ بضم الجيم وتشديد الميم وهو حبل السفينة. وسئل عكرمة عن قوله تعالى: ﴿حتى يلج الجمل﴾ قيل: وما الجمل؟ قال: الحبل الذي يصعد به النخل. قال سعيد بن جبير: هو حبل السفينة الغليظ. قرأ أبو عمرو ﴿لا تُفتَح﴾ بالتاء بلفظ التأنيث بالتخفيف حمزة والكسائي ﴿لا يفتح﴾ بالياء بلفظ التذكير بالتخفيف. وقرأ الباقون: ﴿لا تفتّح لهم﴾ بالتشديد. فمن قرأ بلفظ التأنيث فلأنها من جماعة الباب. ومن قرأ بالتذكير، فلأن الفعل مقدم. ومن قرأ بالتشديد أراد به تكثير الفتح. ومن قرأ بالتخفيف فلفتح مرة واحدة. وقرأ بعضهم في ﴿سُمّ الخياط﴾ بضم السين وهي قراءة شاذة وهما لغتان قال أبو عبيدة: كل ثقب فهو سم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: هكذا نعاقب المشركين. ثم ذكر ما أوعد لهم في النار فقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ يعني: فراشاً من النار ﴿ومن فوقهم غَوَاشٍ﴾ يعني: تغشاهم النار من فوق رؤوسهم ومعناه: أن من تحتهم ناراً ومن فوقهم ناراً، كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] ويقال: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ يعني: حظهم من جهنم كالمهاد، فأخبر عن ضيق مكانهم في النار ﴿وكذلك نجزي الظَّالِمِينَ﴾ يعني: هكذا نعاقب الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وذلك أن الله تعالى لما أخبر عن حال الذين كذبوا بآياته واستكبروا عن قبولها، أخبر عن حال الذين آمنوا بآياته. فقال: ﴿والذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: صدقوا ﴿وعملوا الصالحات﴾ يعني: الأعمال الصالحة ﴿لا نكلف نفساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ يعني: لا نكلف نفساً بعد الإيمان من الأعمال إلا بقدر طاقتها ﴿أولئك أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: دائمين.

ثم قال عزّ وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ قال بعضهم: يعني: في الدنيا أخرج

Marfat.com

الله تعالى الغل والحسد من قلوبهم، وألف بين قلوبهم كما قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] ويقال: هذا في الجنة يخرج الغل والحسد من قلوبهم. قال ابن عباس: «نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعليّ ونحوهم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تابعهم على سنتهم ومنهاجهم إلى يوم القيامة»[1]. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لعمران بن طلحة بن عبيد الله: «أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] فأنكر عليه بعضهم. فقال عليّ: إن لم نكن نحن فمن هم»؟ يعني: إن الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ لم يكن في قلوبهم من الغل حتى ينزع عنهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يعني: من تحت غرفهم وأشجارهم الأنهار ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ يعني: أكرمنا بهذه الكرامة. ويقال: ﴿الحمد لله﴾ الذي وفقنا للأمر الذي أوجب لنا هذا الثواب وهو الإسلام. ويقال: هدانا لهاتين العينين، وذلك أن أهل الجنة لما انتهوا إلى باب الجنة، فإذا هم بشجرة تنبع من ساقها عينان، فيعمدون إلى إحداهما، فيشربون منها، فيخرج الله تعالى ما كان في أجوافهم من غل وقذر، فذلك قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] ثم يعمدون إلى الأخرى فيغتسلون فيها، فيطيِّبُ الله تعالى أجسادهم من كل درن، وجرت عليهم نضرة ولا تشعث رؤوسهم، ولا تغبر وجوههم، ولا تشحب أجسادهم أبداً، ثم تتلقاهم خزنة الجنة فينادون في التقديم أي: قبل أن يدخلوها ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقالوا بعد ما اغتسلوا من العينين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ يعني: وفقنا حتى اغتسلنا من هاتين العينين. ويقال: لما دخلوا الجنة ونظروا إلى كراماتها قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا﴾ يعني: لهذا الثواب ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ يعني: ما كنا نعرف لولا أن وفقنا الله تعالى. وذلك أنهم علموا أن الله تعالى له عليهم الفضل والمنّ فيما أعطاهم. قرأ ابن عامر ﴿مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بغير واو على الاستئناف. وقرأ الباقون بالواو على معنى العطف.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فصدقناهم ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ التي وعدتم. ـ وقال بعضهم: قبل أن يدخلوها قال لهم خزنة الجنة: تلكم الجنة التي وعدتم[2] ـ ويقال بعد ما دخلوها يقال لهم: إنّ تلكم الجنة يعني: هذه الجنة التي ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ يعني: أنزلتموها بإيمانكم واقتسموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. وهذا كما روي في الخبر أنه يقال لهم يوم القيامة: «جُوزُوا الصِّراطَ بِعَفْوِي، وَادْخُلوا الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَاقْتَسِمُوها بِأَعْمالِكُمْ».

---

(١) عزاه السيوطي: ٣/٤٥٧ إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ما بين معقوفتين ساقط في النسخة «أ».

Marfat.com

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقاً﴾ يعني: ما وعدنا في الدنيا من الثواب وجدناه صدقاً ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حقاً﴾ يعني: صدقاً ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ فاعترفوا على أنفسهم في وقت لا ينفعهم الاعتراف. قرأ الكسائي ﴿قالوا: نَعِمْ﴾ بكسر العين في جميع القرآن. وقرأ الباقون بالنصب. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: نَعَمْ بالنصب، فقال له عمر: «النَّعَم المال، وقل: نَعِمْ» يعني: بالكسر وروى الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال: ما كانت أشياخ قريش إلا يقولون: نَعِمْ فماتت يعني: اللغة ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وذلك أنه ينادي منادٍ بين الجنة والنار تسمعه الخلائق كلهم: إنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ على المحسنين ولعنة الله على الظالمين يعني: عذاب الله على الكافرين ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: يصرفون الناس عن دين الله الإسلام، وهم الرؤساء منهم منعوا أتباعهم عن الإيمان ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يقول: يريدون بملة الإسلام غيراً وزيفاً ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ يعني: كانوا جاحدين بالبعث. قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿أنَّ لَعْنَةَ الله﴾ بتشديد النون ونصب الهاء. وقرأ الباقون ﴿أنْ لَعْنَةُ﴾ بتخفيف أنْ وضم الهاء.

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ يعني: بين أهل الجنة وأهل النار سور ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: «الأعراف سور كعرف الديك». وقال القتبي: الأعراف سور بين الجنة والنار، وسمي بذلك لارتفاعه، وكل مرتفع عند العرب أعراف. وقال السدي: إنما سمّي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس. روي عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: **«هُمْ قَوْمٌ قُتِلُوا في سَبِيلِ الله فِي مَعْصِيةِ آبائِهِمْ، فَمَنَعَهُمْ مِنَ النَّارِ قَتْلُهُمْ فِي سَبِيلِ الله وَمَنَعَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ مَعْصِيةُ آبائهم»**[(١)]. وعن حذيفة بن اليمان أنه قال: «هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم يكن لهم زيادة حسنات يدخلون بها الجنة ولا سيئات فاضلة يدخلون بها النار». وروي عن ابن عباس مثل هذا. وروي عنه أيضاً أنه قال: «هم أولاد الزنى». وروي عن أبي مجلز أنه قال: «هم الملائكة». فبلغ ذلك مجاهداً فقال: كذب أبو مجلز يقول الله تعالى: ﴿وعلى الأعراف رجال﴾ فقال أبو مجلز: لأن الملائكة ليسوا بإناث ولكنهم عباد

---

(١) عزاه السيوطي: ٣/٤٦٥ إلى ابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة.

Marfat.com

الرحمن. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَٰئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ الرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿يعْرِفُونَ كلاً بِسِيمَاهُمْ﴾ يعني: أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة إذا مروا بهم ببياض وجوههم، ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم، والسيماء: هي العلامة ﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم﴾ فإذا مرّت بهم زمرة من أهل الجنة قالوا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿لم يدخلوها﴾ يعني: إن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة ﴿وهم يطمعون﴾ أنْ يَدخلوها. ويقال: إن أهل النار لم يدخلوها إبداً وهم يطمعون. وقال الحسن: واللهِ ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامةٍ يريدهم بها. ويقال: ﴿لم يدخلوها﴾ يعني: أهل الجنة لم يدخلوها حتى يسلم عليهم أهل الأعراف، فانصرفوا وهم يطمعون بدخولها. ويقال: أهل النار لم يدخلوها أبداً وهم يطمعون، وطمعهم أن أفيضوا علينا من الماء.

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ قال: من سرعة ما انصرفوا كأنهم صرفوا، ﴿تلقاء أصحاب النار﴾ يعني: أنهم إذا نظروا قِبَلَ أصحاب النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لاَ تجعلنا مع القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: مع الكافرين في النار.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً﴾ يعني: في النار ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا ما أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا كُنتُم تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني: ما أغنى عنكم ما كنتم تستكبرون عن الإيمان. وقرأ بعضهم ﴿وما كنتم تستكثرون﴾ يعني: تجمعون المال الكثير، وهي قراءة شاذة.

قوله تعالى: ﴿أَهؤلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ يعني: أنّ أهل الأعراف يقولون: يا وليد يا أبا جهل: أهؤلاء؟ يعني: صهيباً وبلالاً والضعفة من المسلمين الذين كنتم تحلفون لا ينالهم الله برحمة، يعني: أنهم لا يدخلون الجنة؟

ثم يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وعن أبي مجلز أنه قال: ﴿وعلى الأعراف رجال﴾ من الملائكة، ﴿نادوا أصحاب الجنة﴾ قبل أن يدخلوها: ﴿سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون دخولها، يعني: أهل الجنة وإذا نظروا إلى أصحاب النار حين مروا بهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً﴾ من المشركين ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يعني: لأهل

Marfat.com

الجنة. قال مقاتل: فأقسم أهل النار أن أصحاب الأعراف داخلون النار معهم، فقالت الملائكة لأهل النار: أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟. ثم تقول الملائكة لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة. ويقال: إن أهل النار يقولون لأصحاب الأعراف: ما أغنى عنكم جمعكم وعملكم، وأنتم والله تكونون معنا في النار ولا تدخلون الجنة! فتقول الملائكة لأهل النار: أهؤلاء الذين أقسمتم يعني: لأصحاب الأعراف لا ينالهم الله برحمته. ثم تقول الملائكة لأصحاب الأعراف: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللهُ﴾ يعني: اسقونا من الماء أو شيئاً من الفواكه وثمار الجنة، فإنّ فينا من معارفكم. فأعلم الله تعالى أن ابن آدم غير مستغن عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب، فأجابهم أهل الجنة: ﴿قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني: الماء والثمار. وروي في الخبر: «أنَّ أبا جهل بن هشام بعث إلى النبي ﷺ يستهزىء به: أطعمني من عنب جنتك أو شيئاً من الفواكه، فقال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: «قُلْ لَهُ: إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الكَافِرِينَ»».

ثم وصفهم فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَهْواً ولَعِباً﴾ يعني: اتخذوا الإسلام باطلاً ودخلوا في غير دين الإسلام. ويقال: اتخذوا عيدهم لهواً وفرحاً. ﴿وغرَّتْهُمُ الْحياةُ الدنيا﴾ يعني: غرّهم ما أصابهم من زينة الدنيا ﴿فالْيوْم نَنساهُمْ﴾ يعني: نتركهم في النار ﴿كما نسوا لقاء يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ يعني: كما تركوا العمل ليومهم هذا. ويقال: كما تركوا الإيمان ليومهم هذا، يعني: أنكروا البعث ﴿وَمَا كَانُوا بآياتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعني: ويجحدون بآياتنا بأنها ليست من الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ يعني: أكرمناهم بالقرآن ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ يعني: بيّنا فيه الآيات، والحلال والحرام ﴿على علم﴾ يعني: بعلم منا ﴿هُدًى﴾ يعني: بياناً من الضلالة، ويقال: جعلناه هادياً. ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني: نعمة ونجاة من العذاب ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لمن آمن وصدق به. يعني: أكرمناهم بهذا الكتاب فلم يؤمنوا ولم يصدقوا. وإنما أضاف إلى المؤمنين لأنهم هم الذين يهتدون به ويستوجبون به الرحمة.

Marfat.com

ثم قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ يعني: ما ينتظرون إلا عاقبة ما وعدهم الله تعالى، في القرآن من العذاب ﴿يوم يأتي تأويله﴾ يعني: عاقبة ما وعدهم الله، وهو يوم القيامة.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ يعني: يقول الذين تركوا العمل والإيمان ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني: في الدنيا ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ وذلك أنهم حين عاينوا العذاب، وذكروا قول الرسل، فندموا على تكذيبهم إياهم. يقولون: ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾. يقول: بأمر وأخبار عن القيامة والبعث فكذبناهم في ذلك ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ لأنهم يرون الشفعاء يشفعون للمؤمنين، فيقال لهم: ليس لكم شفيع. فيقولون: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ يقولون: هل نرد إلى الدنيا فنصدق الرسل ونعمل غير الشرك؟ ﴿فَنَعْمَلَ﴾ صار نصباً لأنه جواب الاستفهام، وجواب الاستفهام إذا كان بالفاء فهو نصب. وكذلك جواب الأمر والنهي.

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: غبنوا حظ أنفسهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: يكذبون بأن الآلهة شفعاؤهم عند الله. وقرىء: ﴿أو نردَّ﴾ بالنصب عطف على ﴿فيشفعوا﴾، أو لأنّ ﴿أو﴾ بمعنى: إلى أنْ. وقرىء ﴿أو نردُّ﴾ بالرفع، والمعنى: هل نردُّ وهو قول الفرّاء، أو عطف على المعنى وهو قول الزجاج أي: هل يشفعُ لنا أحد أو نردُّ وقرأ الحسن: ﴿أو نردُّ﴾ ﴿فنعملُ﴾ برفعهما

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وذلك أن النبي ﷺ لما عيّر المشركين بعبادة آلهتهم، ونزل قوله تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] وقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: من ربك الذي تدعونا إليه؟ وأرادوا أن يتخذوا في اسمه طعناً أو في شيء من أفعاله، فنزلت هذه الآية، فتحيروا وعجزوا عن الجواب. فقال: ﴿إن ربكم الله﴾ يعني: خالقكم ورزاقكم ﴿الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾. قال ابن عباس: «يعني من أيام الآخرة، طول كل يوم ألف سنة». وقال الحسن البصري: «من أيام الدنيا». ويقال: ﴿في ستة أيام﴾ أي: في ست ساعات من ستة أيام من أطول أيام الدنيا، ولو شاء أن يخلقها في ساعة واحدة لخلقها، ولكن علّم عباده التأني والرفق والتدبير في الأمور.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال بعضهم: هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله. وذكر عن يزيد بن هارون أنه سئل عن تأويله، فقال: «تأويله الإيمان به». وذكر أن رجلاً دخل على مالك بن أنس فسأله عن قوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فقال: «الاستواء غير

Marfat.com

مجهول، والكيفية غير معقولة، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً، فأخرجوه». وذكر عن محمد بن جعفر نحو هذا. وقد تأوله بعضهم وقال ﴿ثم﴾ بمعنى الواو، فيكون على معنى الجمع والعطف، لا بمعنى الترتيب والتراخي. ومعنى قوله: ﴿استوى﴾ يعني: استولى، كما يقال: فلان استوى على بلد كذا يعني: استولى عليه، فكذلك هذا معناه: خالق السموات والأرض، ومالك العرش. ويقال: ثم صعد أمره إلى العرش، وهذا معنى قول ابن عباس قال: «صعد على العرش يعني: أمره يعني: قال له: كن فكان»، ويقال: ﴿ثم استوى على العرش﴾ يعني: كان فوق العرش قبل أن يخلق السموات والأرض، ويكون ﴿على﴾ بمعنى العلو والارتفاع، ويقال: ﴿استوى﴾ بمعنى استعلى. وذكر أن أول شيء خلقه الله تعالى القلم ثم اللوح، فأمر القلم بأن يكتب في اللوح ما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم خلق ما شاء، ثم خلق العرش، ثم خلق حملة العرش، ثم خلق السموات والأرض. وإنما خلق العرش لا لحاجة نفسه، ولكن لأجل عباده ليعلموا أين يتوجهون في دعائهم، لكي لا يتحيّروا في دعائهم، كما خلق الكعبة علماً لعبادتهم، ليعلموا إلى أين يتوجهون في العبادة، فكذلك خلق العرش علماً لدعائهم ليعلموا إلى أين يتوجهوا بدعائهم.

ثم قال تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيلَ النَّهارَ﴾ يعني: إن الليل يأتي على النهار فيغطيه، ولم يقل يغشي النهار الليل لأن في الكلام دليلاً عليه. وقد بيّن في آية أخرى ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: ٥] فكذلك هاهنا معناه: يغشي النهار الليلَ ويغشي الليلَ النهارَ، يعني: إذا جاء النهار يذهب بظلمة الليل، وإذا جاء الليل يذهب بنور النهار.

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿يُغَشِّي الليل النهار﴾ بتشديد الشين ونصب الغين. وقرأ الباقون: بجزم الغين مع تخفيف الشين، وهما لغتان غَشَّى ويُغَشِّي وأغشى يُغْشِي.

ثم قال: ﴿يَطْلُبُه حَثِيثاً﴾ يعني: سريعاً في طلبه أبداً ما دامت الدنيا باقية.

ثم قال: ﴿والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مسخَّراتٍ بأمْرِهِ﴾ يعني: جاريات مذللات لبني آدم بأمره.

قرأ ابن عامر ﴿والشَّمسُ والقمرُ والنجومُ﴾ كلها بالضم على معنى الابتداء، وقرأ الباقون بالنصب على معنى العطف أي: ﴿خلقَ الشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره﴾.

ثم قال: ﴿ألاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ ﴿ألا﴾ كلمة التنبيه، يعني: اعلموا أن الخلق لله تعالى، وهو الذي خلق الدنيا والأشياء كلها، وأمره نافذ في خلقه. قال سفيان بن عيينة: الخلق هو الخلائق، والأمر هو القرآن، وهو كلام الله تعالى وليس بمخلوق، ولا هو مباين منه، وتصديقه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ [الطلاق: ٥] ويقال: الأمر هو القضاء.

ثم قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس: «يعني: تعالى الله عما يقول

Marfat.com

الظالمون» ويقال: ﴿تبارك الله﴾ يعني: تفاعل من البركة بمعنى: ذو البركة يعني: البركة كلها من الله تعالى، والبركة فيما يذكر عليه اسم الله رب العالمين، يعني: سيد الخلق أجمعين.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

فلمّا وصف وبالغ في ذلك وأعجزهم، فأمرهم أن يدعوه، فقال عز وجل: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تضرُّعاً وخُفْيَةً﴾ قال الكلبي: يعني: في خفضٍ وسكون. ويقال: ﴿خفية﴾ يعني: اعتقدوا عبادته في أنفسكم لأن الدعاء معناه العبادة. ويقال: علانية وسراً. ويقال: هذا أمر بالدعاء في الأحوال كلها، يعني: ادعوا الذي خلق هذه الأشياء في الأحوال كلها.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾ يعني: أن تدعوا بما لا يحل، أو تدعوا على أحد باللعن والخزي، أو تدعوا عليه بالشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ وذلك أن الله تعالى إذا بعث نبياً فأطاعوه صلحت الأرض وصلح أهلها، وفي المعصية فساد الأرض وفساد أهلها، ويقال: ﴿لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ يعني: لا تجوروا في الأرض فتخرّبوها، لأن الأرض قامت بالعدل. ويقال: لا تخربوا المساجد فتتركوا الجماعة. ﴿وَادْعُوهُ﴾ يعني: اعبدوه ﴿خوفاً وطمعاً﴾ يعني: ﴿خوفاً﴾ من عذابه ﴿وطمعاً﴾ في رحمته. ويقال: ادعوه في حال الخوف والضيق، ويقال: خوفاً عن قطيعته ورجاء في لقائه.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل قريبة. قال بعضهم: لأن البعيد والقريب يصلحان للواحد وللجمع المذكر والمؤنث. كما قال: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] وقال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] وقال بعضهم: تفسير الرحمة هاهنا المطر، فذكر بلفظ التذكير، وقال بعضهم: لأنّ الرحمة بمعنى الغفران والعفو، فانصرف إلى المعنى. ومعناه: المحسنون قريب من الجنة، وهم المؤمنون.

ثم قال عز وجل: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بُشْراً بَيْن يَدَي رحْمَتِهِ﴾ يعني: قدام المطر. قرأ حمزة والكسائي ﴿الريح﴾ بلفظ الوحدان، وقرأ الباقون ﴿الرياح﴾ بلفظ الجماعة، واختار أبو عبيدة: أن كل ما ذكر في القرآن من ذكر الرحمة فهو رياح، وكل ما ذكر فيه ذكر العذاب فهو ريح، واحتج بما روي عن النبيّ ﷺ: أنَّهُ قال إذا هَبَّتِ الرِّيحُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً وَلا تَجْعَلْهَا رِيحاً».

Marfat.com

وقرأ ابن عامر: ﴿نُشْراً﴾ بضم النون وجزم الشين، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع ﴿نُشُراً﴾ بضمتين. وقرأ حمزة والكسائي ﴿نَشْراً﴾ بنصب النون وجزم الشين. وقرأ عاصم ﴿بشراً﴾ بالباء، ويكون من البشارة كما قال في آية أخرى ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

ومن قرأ ﴿نَشْراً﴾ بالنون والنصب، يكون معناه ﴿يرسل الرياح﴾ تَنْشُر السحاب نَشْراً، ومن قرأ ﴿نُشُراً﴾ بضمتين يكون جمع نشور، يقال: ريح نشور، تنشر نشراً السحاب، ورياح نُشُر. ومن قرأ بضمة واحدة، لأنه لما اجتمعت الضمتان حذفت إحداهما للتخفيف.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّى إذا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً﴾ والسحاب: جمع السحابة، يعني: الريح حملت سحاباً ثقالاً من الماء ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ يعني: السحاب تمر بأمر الله تعالى إلى أرض ليس فيها نبات ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ يعني: بالمكان. ويقال: بالسَّحاب ﴿فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يعني: نخرج بالماء من الأرض من ألوانِ الثمرات.

ثمّ قال: ﴿كَذَلِكَ نُخرِجُ الْمَوْتَى﴾ يعني: هكذا نحيي الموتى بالمطر كما أحييت الأرض الميتة بالمطر. وذكر في الخبر: «أنه إذا كان قبل النفخة الأخيرة أمطرت السماء أربعين ليلةً مثل مَني الرجال، فتشرب الأرض، فتنبت الأجساد بذلك الماء، ثم ينفخ في الصور، فإذا هم قيام ينظرون. وفي هذه الآية إثبات القياس وهو ردّ المختلف فيه إلى المتفق عليه، لأنهم كانوا متفقين أن الله تعالى هو الذي ينزل المطر ويخرج النبات من الأرض، فاحتج عليهم لإحيائهم بعد الموت بإحياء الأرض بعد موتها.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: لكي تتعظوا وتعتبروا في البعث أنه كائن.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

ثمّ ضرب مثلاً للمؤمنين والكافرين فقال عز وجل: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ يعني: المكان العذب الزكي اللين من الأرض يخرج نباته إذا أمطرت فينتفع به، كذلك المؤمن يسمع الموعظة فتدخل في قلبه فينتفع بها، وينفعه القرآن كما ينفع المطر البلد الطيب ﴿والَّذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً﴾ يعني: الأرض السبخة لا يخرج نباتها إلا من كد وعناء، فكذلك الكافر لا يسمع الموعظة، ولا يتكلم بالإيمان، ولا يعمل بالطاعة إلا كرهاً لغير وجه الله.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ يعني: هكذا نبيّن الآيات والعلامات والأمثال لمن آمن وشكر رب هذه النعم ووحّده.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى

Marfat.com

ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ يعني: بعثنا نوحاً إلى قومه بالرسالة فأتاهم، ويقال: وجعلنا نوحاً رسولاً إلى قومه. ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: وحّدوا الله وأطيعوه، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني: ليس لكم رب سواه.

قرأ الكسائي ﴿إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾ بكسر الراء. وقرأ الباقون ﴿غَيْرُهُ﴾ بضمّ الراء. فمن قرأ بكسر الراء فلأجل ﴿مِن﴾ وجعله كله كلمة واحدة والغير تابعاً له. ومن قرأ بالضم فمعناه: ما لكم إله غيره، ودخلت ﴿مِن﴾ مؤكدة.

ثم قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو الغرق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهم الرؤساء والأجلة والأشراف، سموا بذلك لأنهم ملئوا بما يحتاج إليه منهم، ويقال: لأنهم ملؤوا الناظر هيبة إذا اجتمعوا في موضع، قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ يعني: في خطأ بيّن. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي الآية بيان أدب للخلق في حسن الجواب والمخاطبة. لأنه ردّ جهلهم بأحسن الجواب، وهذا كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] يعني: السداد من القول.

ثم قال عز وجل: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ يعني: أمنعكم من الفساد وأدعوكم إلى التوحيد وأحذركم من العذاب. وقال أهل اللغة: أنصح لكم، وأنصحكم لغتان بمعنى واحد، كما يقال: شكرت لك وشكرتك.

ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أعلم أنكم إن لم تتوبوا يأتيكم العذاب وأنتم لا تعلمون ذلك، وذلك أن سائر الأنبياء عليهم السلام خوّفوا أممهم بعذاب الأمم السالفة، كما قال شعيب لقومه: ﴿يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٩] وأما قوم نوح فلم يكن بلغهم هلاك أمة قبلهم، فقال لهم نوح: ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ من العذاب الذي ينزل بكم. فقال الكبراء للضعفاء: لا تتبعوه، فإن هذا بشر مثلكم، فأجابهم نوح فقال: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ يعني: ينزل الكتاب والرسالة على رجل منكم تعرفون حليته ونسبه ﴿لينذركم﴾ بالنار ﴿ولتتقوا﴾ الشرك. قال بعضهم: «هذه الواو صلة وهو زيادة في الكلام. ومعناه ﴿لينذركم﴾ لكي تتقوا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني: لكي تطيعوه فترحموا وتنجوا من العذاب. قرأ أبو عمرو

Marfat.com

﴿أبلغكم﴾ بجزم الباء والتخفيف. وقرأ الباقون ﴿أُبلِّغكم﴾ بالتشديد من المبالغة.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: نوحاً ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ يعني: الذين اتبعوه من المؤمنين في السفينة، والفلك: اسم للواحد والجماعة يعني: أنجينا المؤمنين من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ عن نزول العذاب. ويقال ﴿عمين﴾ عن الحق، جعلوا أمره باطلاً وقد بيّن الله تعالى قصته في سورة هود.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا
أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ يعني: أرسلنا إلى عاد نبيهم هوداً، عطفاً على قوله: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. وهود لم يكن أخاهم في الدين ولكن كان من نسبهم. وقال السدي: كانت عاد قوماً من أهل اليمن فأتاهم هود، فدعاهم إلى الإيمان والتوحيد وذكّرهم ووعظهم، فكذبوه. ويقال: عاد اسم ملك ينسب القوم كلهم إليه. ويقال: اسم القرية ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: وحّدوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وقد ذكرناه ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ يعني: الشرك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وقد ذكرناه ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ يعني: جهالة ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ بأنك رسول الله ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ يعني: جهالة ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ يعني: كنت فيكم قبل اليوم أميناً فكيف تتهموني اليوم.

قوله تعالى: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: الرسالة والبيان ﴿على رجل منكم﴾ تعرفون نسبه ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ يعني: خليفة في الأرض بعد هلاك قوم نوح ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ يعني: فضيلة في الطول على

Marfat.com

غيركم. والخلفاء والخلائف: جمع الخليفة.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿بسطة﴾ بالسين. وقرأ حمزة بإشمام الزاي، وقرأ الباقون بالصاد. قال ابن عباس: «كان أطولهم مائة ذراع، وأقصرهم ستين ذراعاً». وروى إبراهيم بن يوسف عن المسيب عن الكلبي قال: كان طول قوم عاد، أطولهم مائة وعشرين ذراعاً، وأقصرهم ثمانين ذراعاً. وقال مقاتل: كان طول كل رجل منهم اثني عشر ذراعاً فذلك قوله ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٨] ويقال: كان بين نوح وبين آدم عشرة آباء كلهم على الإسلام. وكان إدريس جد أبي نوح، ولم يكن بين آدم ونوح نبي مرسل، وكان إدريس نبياً ولم يؤمر بدعوة الخلق، ويقال: أنزل عليه عشرون صحيفة، وقد آمن به كثير من الناس، وكان بين نوح وإبراهيم ألف سنة، ويقال: ألفان وأربعون سنة، وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وكان بين موسى وعيسى ألف سنة. وبين عيسى ومحمد عليه السلام خمسمائة سنة. وكان هود بين نوح وإبراهيم، فلما دعا قومه فكذبوه، أنذرهم بالعذاب، فقال: إن الله تعالى يرسل عليكم الريح فيهلككم بها، فاستهزؤوا به وقالوا: أي ريح تقدر علينا؟ فأمر الله تعالى خازن الريح أن يخرج من الريح العقيم التي هي تحت الأرض مقدار ما يخرج من حلقة الخاتم، كما قال في آية أخرى ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] فجاءتهم وحملت الرجال والدواب كالأوراق في الهواء فأهلكتهم كلهم فلم يبق منهم أحد، كما قال ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥] وذلك بعد ما أنذرهم وأخذ عليهم الحجة وذكرهم نعم الله تعالى في حقّهم، قال لهم: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾ يعني: اشكروا نعمة الله. قال بعضهم: الآلاء اتّصال النعمة، والنعماء دفع البلية. وقال بعضهم على ضد هذا، وقال أكثر المفسرين: الآلاء والنعماء بمعنى واحد ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني: أي: لكي تنجوا من عذابه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ يعني: قالوا له: يا هود أتأمرنا أن نعبد رباً واحداً ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ يعني: نترك عبادة آلهتنا التي كان يعبدها آباؤنا؟ قال لهم هود عليه السلام: إن لم تفعلوا ما آمركم يأتيكم العذاب. قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ يعني: تخوّفنا من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أنك رسول الله.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ يعني: وجب عليكم عذاب وغضب من ربكم ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ يعني: تجعلون قول أنفسكم وقول آبائكم حجة من غير أن تثبت لكم من الله حجّة وقد اتخذتم الأصنام بأيديكم، وسميتموها آلهة ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يقول: ليس لكم عذر وحجة في عبادة الأصنام. ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ أي: الهلاك ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ يعني: الهلاك بكم، لأنهم أرادوا أن يهلكوه.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ يعني: بنعمة منا عليهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: قطع أصلهم واستأصلهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: الذين أهلكهم الله

Marfat.com

تعالى كلهم كانوا كافرين.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ يعني: أرسلنا إلى ثمود نبيهم صالحاً، قال بعضهم: ﴿ثمود﴾ اسم القرية. وقال بعضهم: ﴿ثمود﴾ اسم القبيلة، وأصله في اللغة: الماء القليل. ويقال: بئر كانت بين الشام والحجاز. ويقال: هي عين يخرج منها ماء قليل في تلك الأرض، ويقال لها: أرض الحِجر كما قال في آية أخرى ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠] وقال بعضهم: كان في تلك القرية تسعمائة أهل بيت. وقال بعضهم: ألف وخمسمائة، فدعاهم صالح إلى الله تعالى سنين كثيرة، فكذبوه وأرادوا قتله، فخرجوا إلى عيد لهم، فأتاهم صالح ودعاهم إلى الله تعالى. فقالوا له: إن كنت نبياً فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عَشَراء حتى نؤمن بك ونصدقك، فقام صالح وصلى ركعتين ودعا الله تعالى، فتحركت الصخرة فانصدعت عن ناقة عشراء ذات زغب، فلم يؤمنوا به، فولدت الناقة ولداً. وقال بعضهم: خرج ولدها خلفها من الصخرة، فصارت الناقة بلية ومحنة عليهم، وكانت من أعظم الأشياء، فتأتي مراعيهم فتنفر منها دوابهم، وتأتي العين وتشرب جميع ما فيها من الماء. فجعل صالح الماء قسمة بينهم يوماً للناقة، ويوماً لأهل القرية، فإذا كان اليوم الذي تشرب الناقة لا يحضر أحد العين، وكانوا يحلبونها في ذلك اليوم مقدار ما يكفيهم. وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فاجتمعوا لقتل الناقة، فقال لهم صالح: لا تفعلوا، فإنكم إذا قتلتموها يأتيكم العذاب، فجاؤوا ووقفوا على طريق الناقة، فلما مرت بهم الناقة متوجهة إلى العين رماها واحد منهم يقال له: مصدع بن دَهْر فأصاب السهم رجل الناقة، فلما رجعت الناقة من العين خرج قذار بن سالف وهو أشقى القوم كما قال الله تعالى ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢] فضربها بالسيف ضربة فقتلها، وقسموا لحمها على أهل القرية.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: لما عقرت ثمود الناقة، ذهب فصيلها حتى صعد جبلاً وقال ثلاث مرات: أين أمي، أين أمي، أين أمي؟ فأخبر بذلك صالح، فقال: يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام. فقالوا: وما العلامة في ذلك؟ فقال: أن تصبحوا في اليوم الأول وجوهكم مصفرة، وفي اليوم الثاني: وجوهكم محمرة، وفي اليوم الثالث: وجوهكم مسودة. ثم خرج

Marfat.com

من بين أظهرهم مع من آمن منهم، فأصبحوا في اليوم الأول وجعل بعضهم يقول لبعض: قد اصفر وجهك، وفي اليوم الثاني يقول بعضهم لبعض: قد أحمر وجهك، وفي اليوم الثالث يقول بعضهم لبعض: قد أسود وجهك، فأيقنوا جميعاً الهلاك. فجاء جبريل عليه السلام وصاح بهم صيحة، فماتوا كلهم، ويقال: قد أتتهم النار فأحرقتهم، فذلك قوله: ﴿قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ يعني: وحدوا الله ﴿ما لكم من إله غيره﴾ قد ذكرناه.

ثم قال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول: قد أتيتكم بعلامة نبوتي وهي الناقة، كما قال الله تعالى: ﴿هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ يعني: علامة لنبوتي لكي تعتبروا وتوحّدوا الله ربكم ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ يقول: دعوها ترتع في أرض الحجر ﴿وَلا تَمَسُّوها بِسوءٍ﴾ يقول: لا تعقروها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو ما عذبوا به.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ يعني: من بعد هلاك عاد ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أنزلكم في أرض الحجر ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾ وذلك أنه كانت لهم قصور يسكنون فيها أيام الصيف، وقد اتخذوا بيوتاً في الجبل لأيام الشتاء، فذكرهم الله تعالى نعمته. فقال: واذكروا هذه النعم حيث وفقكم الله حين اتخذتم القصور في سهل الأرض، واتخذتم البيوت في الجبال. ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾ يعني: نعم الله عليكم ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا تعملوا في الأرض بالمعاصي.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ قرأ ابن عامر: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ﴾ بالواو، وقرأ الباقون بغير واو يعني: قال الملأ الذين تكبروا عن الإيمان من قومه وهم القادة ﴿للذين استضعفوا﴾ ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بصالح ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني: أتصدقون صالحاً بأنه مرسل من ربه إليكم ﴿قَالُوا﴾ يعني: المؤمنين ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ يعني: مصدقين به ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني: برسالة صالح.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: عصوا وتركوا أمر ربهم وأبوا عن طاعته في التوحيد، ويقال: فيه تقديم ومعناه: عتوا عن أمر ربهم وعقروا الناقة. وروي عن ابن عباس أنه قال: «إنهم عقروا الناقة ليلة الأربعاء في عشية الثلاثاء، فأهلكهم الله في يوم السبت».

Marfat.com

﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ يعني: بما تخوفنا به من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: إن كنت رسول رب العالمين ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ يعني: الزلزلة ويقال: صيحة جبريل كما قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣] وقيل: الزلزلة ثم أخذتهم الصيحة بعد. ويقال: النار ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ يعني: صاروا في مدينتهم ومنازلهم ميتين لا يتحركون، وأصله: من الجثوم. ويقال: أصابهم العذاب بكورة يوم الأحد.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ فيه تقديم وتأخير يعني: حين كذبوه خرج من بين أظهرهم ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ يعني: دعوتكم إلى التوبة وحذرتكم بالعذاب ﴿وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ يعني: لا تطيعون الداعين. ويقال: إنما قال ذلك بعد هلاكهم على وجه الحزن، أي: قد بلغتكم الرسالة. وروي عن ابن عباس أنه قال: «إن الله تعالى لم يهلك قوماً ما دام الرسول فيهم، فإذا خرج من بين ظهرانيهم أتاهم ما أوعد لهم». وقال في رواية الكلبي: «لما هلك قوم صالح، رجع صالح ومن معه من المؤمنين، فسكنوا ديارهم». وقال في رواية الضحاك: «خرج صالح إلى مكة، فكان هناك حتى قبضه الله تعالى».

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعني: وأرسلنا لوطاً إلى قومه، ويقال: معناه واذكروا لوطاً ﴿إذ قال لقومه أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني: اللواطة ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ يعني: لم يعمل مثل عملكم ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قبلكم ﴿إِنَّكُمْ لتأتون الرِّجال شَهْوَةً مِن دُونِ النِّسَاءِ﴾ يعني: تجامعون الرجال من دون النساء، يعني: إن إتيان الرجال أشهى عندكم من إتيان النساء. وقرأ أبو عمرو ﴿آيِنَّكُمْ﴾ بالمد بغير همز، وقرأ ابن كثير ونافع: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بهمزة واحدة بغير مد. وقرأ الباقون بهمزتين بغير مد، ومعنى ذلك كله واحد، وهو الاستفهام.

ثم قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ يعني: معتدين من الحلال إلى الحرام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وإنما صار الجواب نصباً لأنه خبر كان، والاسم هو ما بعده ﴿إلاَّ أَنْ قَالُوا أَخرِجوهُم مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهمْ أُناسٌ يتطهَّرُونَ﴾ يعني: يتقذرون منا ويتنزهون عن فعلنا ﴿فَأَنْجيناهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني: ابنتيه زعوراء وريثا ﴿إلاَّ امرأتهُ﴾ وهي واعلة ﴿كانت مِن الْغَابِرِينَ﴾ يعني: من الباقين في الهلاك فيمن أهلكوا ﴿وَأَمطرنا عليهم مطراً﴾ يعني: الحجارة ويقال: أمطر للعذاب ومطر للرحمة. ويقال: أمطر ومطر بمعنى واحد ﴿فانظُرْ كيف كان عاقبة

Marfat.com

﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: كيف كان عاقبة أمرهم، وقد بيّن قصته في سورة هود.

وقال مجاهد: «لو أن الذي يعمل عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة في السماء، وبكل قطرة في الأرض، ما زال نجساً إلى يوم القيامة» وقد اختلف الناس في حَدِّه، قال بعضهم: هو كالزاني، فإن كان محصناً رجم، وإن كان غير محصن جُلد. وروي عن الشعبي أنه قال: «يرجم في الأحوال كلها محصناً كان أو غير محصن». وروي عن علي بن أبي طالب: أنه أتي برجل قد عمل ذلك العمل، «فأمر بأن يلقى من أشرف البناء منكوساً، ثم يتبع بالحجارة»، لأن الله تعالى ذكر قتلهم بالحجارة. قال بعضهم: يعزّر ويحبس حتى يظهر توبته ولا يحدّ، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ يعني: أرسلنا إلى أهل مدين نبيّهم شعيباً، ومدين: هو آل مدين، وكان مدين بن إبراهيم خليل الرحمٰن، تزوج ريثاء ابنة لوط، فولدت آل مدين، فتوالدوا وكثروا، ثم صار هو اسماً للمدينة، فسميت المدينة مدين، وسمي أولئك القوم مدين. فكفروا بالله تعالى، ونقصوا الميزان والمكيال في البيع، وأظهروا الخيانة، فبعث الله تعالى إليهم شعيباً. وقال الضحاك: كان شعيب أفضلهم نسباً، وأصدقهم حديثاً، وأحسنهم وجهاً، ويقال: إنه بكى من خشية الله تعالى حتى ذهب بصره وصار أعمى، فدعا قومه إلى الله تعالى و ﴿قَالَ يا قَوْم اعْبُدُوا اللهَ﴾ يعني: وحّدوه وأطيعوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال بعضهم: مجيء شعيب عليه السلام إليهم آية، ولم يكن لشعيب علامة سوى مجيئه وإخباره بأن الله واحد. وقال بعضهم: كانت له علامة، لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا وقد جعل له علامة ليظهر تصديق مقالته، إلا أن الله تعالى لم يبيّن لنا علامته، وقد بيّن علامة بعض الأنبياء، ولم يبيّن علامة الجميع.

ثم قال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يعني: أتموا الكيل والميزان بالعدل ﴿وَلا تبخسُوا النّاسَ أشْيَاءَهُمْ﴾ يقول: ولا تنقصوا الناس حقوقهم في البيع والشراء ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ يعني: لا تعملوا في الأرض بالمعاصي بعد ما بيّن الله تعالى طريق الحق

Marfat.com

وأمركم بالطاعة ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: وفاء الكيل، وترك الفساد في الأرض خير لكم من النقصان والفساد في الأرض، ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: مصدقين بما حرم الله عليكم.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ يعني: لا ترصدوا بكل طريق توعدون أهل الإيمان بالقتل ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ يقول: تمنعون الناس عن دين الله وهو دين الإسلام ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ يعني: شعيباً ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يقول: تريدون بملة الإسلام زيغاً وغيراً. وروي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُون﴾ قال: بكل سبيل حق تصدون أهلها عنها ﴿وتبغونها عوجاً﴾ قال: وتلتمسون لها الزيغ. ويقال: معناه، لا تقعدوا على طريق الناس تخوفون الناس وتخوفون أهل الإيمان بشعيب.

ثم قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ يعني: كنتم قليلاً في العدد، فكثّر عددكم. ويقال: كنتم فقراء فأغناكم وكثر أموالكم ﴿وانْظُرُوا كيف كان عاقبةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: كيف صار آخر أمر المكذبين بالرسل، يعني: الذين قبلهم قوم نوح، وقوم عاد، وقوم هود، وقوم صالح.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ يعني: إن كان جماعة منكم صدقوا بي ﴿وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ يعني: أي لم يصدقوا بي ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا﴾ يعني: حتى تنظروا أنَّ عاقبة المؤمنين تكون أفضل أم عاقبة الكافرين. فذلك قوله: ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ يعني: حتى يقضي الله بين المؤمنين وبين الكافرين ﴿وهُو خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني: أعدل العادلين.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني: الأشراف والرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يعني لتدخلنَّ في ديننا الذي نحن عليه. ويقال: هذا الخطاب لقومه الذين آمنوا، لترجعن إلى ديننا كما كنتم ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يعني: أتجبروننا على ذلك؟ قالوا: نعم، قال لهم

Marfat.com

شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ يقول: قد اختلقنا على الله كذباً، إن دخلنا في دينكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ ويقال: معناه كنا كاذبين مثلكم لو دخلنا في دينكم بعد إذ نجانا الله منها. ويقول: أكرمنا الله تعالى بالإسلام ولم يجعلنا من أهل الكفر، وأنقذنا من ملتكم. ويقال: ﴿بعد إذ﴾ أكرمنا الله بالإسلام ولم يجعلنا من أهل الكفر. **﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾** يعني: ما ينبغي لنا، وما يجوز لنا أن ندخل في ملتكم إلا أن يشاء الله يعني: لا يشاء الله الكفر مثل قولك: لا أكلمك حتى يبيض القار، وحتى يشيب الغراب، وهذا طريق المعتزلة.

ثم قال: ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ يعني: علم ما يكون منا ومن الخلق **﴿على الله توكلنا﴾** يعني: فوضنا أمرنا إلى الله لقولهم: ﴿لنخرجنك يا شعيب﴾ **﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾** يقول: اقض بيننا وبين قومنا بالعدل. وروى قتادة عن ابن عباس قال: «ما كنت أدري ما معنى قوله: ﴿ربنا افتح بيننا﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لعلي بن أبي طالب: تعال أفاتحك، يعني: أحاكمك». وقيل: أخاصمك. وقال القتبي: الفتح أن تفتح شيئاً مغلقاً كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وسمي القضاء فتحاً، لأن القضاء فصل الأمور وفتح لما أشكل منها **﴿وأنت خير الفاتحين﴾** يعني: خير الفاصلين.

قوله تعالى: ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لأن اتبعتم شعيباً﴾ يعني: لئن أطعتم شعيباً في دينه **﴿إنكم إذاً لخاسرون﴾** يعني: جاهلين. فلما وعظهم شعيب ولم يتعظوا، أخبرهم أن العذاب نازل بهم. فلم يصدقوه. فخرج شعيب ومن آمن معه من بين أظهرهم، فأصابهم يعني: أهل القرية حر شديد، فخرجوا من القرية، ودخلوا غيضة كانت عند قريتهم وهي الأيكة كما قال في آية أخرى ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦] فأرسل الله تعالى ناراً فأحرقت الأشجار ومن فيها من الناس. ويقال: أصابتهم الزلزلة، فأتتهم نار فأحرقتهم، فذلك قوله: **﴿فأخذتهم الرجفة﴾** يعني: الزلزلة والحر الشديد، فهلكوا واحترقوا **﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾** يعني: صاروا ميتين.

قوله تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ - يقال: معناه، من كان رآهم بعد إهلاكنا إياهم ظنّ أنه لم يكن هناك أحد، يعني: لم يعيشوا فيها قط[1] - وقال قتادة: ﴿كأن لم يغنوا﴾ يعني: كأن لم يتنعموا ﴿فيها﴾. ويقال: كأن لم يعمروا.

ثم قال: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ يعني: المغبونين في العقوبة، يعني: إنهم كانوا يقولون لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون. فصار الذين كذبوا هم الخاسرون، لا الذين آمنوا به.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط في النسخة «ب».

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿فتولى عنهم﴾ يعني: أعرض عنهم يعني: حين خرج من بين أظهرهم ﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات رَبِّي﴾ في نزول العذاب ﴿ونصحت لكم﴾ وقد ذكرناه ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ يعني: أحزن بعد النصيحة على قوم إن عذبوا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها﴾ ففي الآية مضمر ومعناه: وما أرسلنا في قرية من نبي فكذبوه إلا أخذنا أهلها ﴿بالبأساء والضراء﴾ يعني: عاقبنا أهلها بالخوف والبلاء والقحط والفقر. ويقال: البأساء ما يصيبهم من الشدة في أموالهم، والضراء: ما يصيبهم في أنفسهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، فأدغمت التاء في الضاد، وأقيم التشديد مقامه. ومعناه: لكي يدعوا ربهم ويؤمنوا بالرسل، ويعرفوا ضعف معبودهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ يعني: حولنا مكان الشدة الرخاء، ومكان الجدوبة الخصب، ﴿حَتَّى عَفَوا﴾ - كثروا واستغنوا وكثرة أموالهم، فلم يشكروا الله تعالى. ويقال: ﴿حتى عفوا﴾ أي حتى سرّوا به[1] - ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ يعني: مثل ما أصاب آباءنا مرة يكون الرخاء، ومرة يكون الشدة، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: أتاهم العذاب من حيث لم يعلموا به. ويقال: إن الشدة للعام تكون تنبيهاً وزجراً. والنعمة تكون استدراجاً وأما النعمة للخاص فهي تنبيه، لأنه بعد ذلك عقوبة. كما روي أن الله تعالى قال لموسى «إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً إليك فقل ذنب عجلت عقوبته».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا﴾ يعني: وحدوا الله تعالى واتقوا الشرك ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: أنزلنا عليهم من السماء المطر والرزق والنبات من الأرض ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ الرسل ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ يعني: عاقبناهم ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الشرك. ففي الآية دليل أن الكفاية والسعة في الرزق من السعادة إذا كان المرء شاكراً، وتكون

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

عقوبة له إذا لم يكن شاكراً. لأنه قال في آية أخرى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣] يعني: الغنى يكون وبالاً لمن لم يشكر الله، وعقوبة له.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً﴾ يعني: أن ينزل عليهم عذابنا ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ فتحت الواو لأنها واو العطف، أدخلت عليها ألف الاستفهام. وكذلك ﴿أفأمن﴾ لأنها فاء العطف أدخل عليها ألف الاستفهام. قرأ نافع وابن كثير ﴿أوْ أمن﴾ بجزم الواو لأن أصله أو وأمن، وأو حرف من حروف الشك، فأدغم في حرف النسق ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ يعني: يأتيهم عذابنا نهاراً ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يعني: لاهون عنه.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ يعني: عذاب الله ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ﴾ يعني: عذاب الله ﴿إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يعني: المغبونين بالعقوبة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ﴾ يعني: أو لم يبيّن. قال القتبي: أصل الهدى الإرشاد، كقوله: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي﴾ يعني: يرشدني. ثم يصير الإرشاد على معانٍ منها: إرشاد تبيان، مثل قوله ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ يعني: أو لم يبين لهم. ومنها: إرشادٌ بمعنى بالدعاء كقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] يعني: نبياً يدعوهم وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] يعني: يدعون الخلق. وقرأ بعضهم: ﴿أو لم نهد بالنون﴾ يعني: أو لم نبين لهم الطريق. ومن قرأ بالياء معناه: أو لم يبين الله ﴿للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ يعني: ينزلون الأرض من بعد هلاك أهلها. ويقال أولم نبيّن لأهل مكة هلاك الأمم الخالية، كيف أهلكناهم ولم يقدر معبودهم على نصرتهم؟ ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ يعني: أهلكناهم بذنوبهم كما أهلكنا من كان قبلهم عند التكذيب.

ثم قال: ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ يعني: نختم على قلوبهم بأعمالهم الخبيثة عقوبة لهم ﴿فهم لا يسمعون﴾ الحق ولا يقبلون الموعظة.

قال عز وجل: ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ يعني: تلك القرى التي أهلكنا أهلها، نخبرك في القرآن من حديثها ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ يعني: بالعلامات الواضحة، والبراهين القاطعة، التي لو اعتبروا بها لاهتدوا. ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ يعني: أهل مكة لم يصدقوا بما كذب به الأمم الخالية. وقال مجاهد: فما كانوا ليؤمنوا

Marfat.com

بعد العذاب بما كذبوا من قبل، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقال السدي: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا﴾ يوم الميثاق يعني: فما كانوا ليؤمنوا في دار الدنيا بما كذبوا من قبل يوم الميثاق وأقروا به، وهو قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ثم قال في الدنيا: وما وجدناهم على ذلك الإقرار. ويقال: ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيء الرسل ﴿بما كذبوا من قبل﴾ مجيء الرسل، معناه: أن مجيء الرسل لم ينفعهم. ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ يعني: هكذا يختم الله تعالى ﴿على قلوب الكفرين﴾ مجازاة لكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ ﴿من﴾ زيادة للصلة يعني: ما وجدنا لأكثرهم من وفاء فيما أمروا به، يعني: الذين كذبوا وعذبوا من الأمم الخالية. ويقال: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ لأنهم أقروا يوم الميثاق، ثم نقضوا العهد حيث كفروا، ويقال: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ أي: من قبول العهد الذي عاهدوا على لسان الرسل.

ثم قال: ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ يعني: وقد وجدنا أكثرهم لناقضين العهد، تاركين لما أمروا به.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾ يعني: أرسلنا من بعد الرسل الذين ذكرهم في هذه السورة. ويقال: ثم بعثنا من بعد هلاكهم موسى، وهو موسى بن عمران ﴿بآياتنا﴾ يعني: اليد البيضاء والعصا ﴿إلى فرعون﴾ وهو ملك مصر واسمه: وليد بن مصعب. وروي عن وهب بن منبه أنه قال: كان فرعون في وقت يوسف، فعاش إلى وقت موسى، فبعث الله تعالى إليه موسى ليأخذ عليه العهد والحجة. وأنكر عليه ذلك عامة المفسرين، وقالوا: هو كان غيره، وكان جباراً ظهر بمصر واستولى عليها، فأرسل الله تعالى إليه موسى، فذلك قوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه﴾ يعني: جنوده وأتباعه ﴿فظلموا بها﴾ يعني: جحدوا بالآيات ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ يعني: كيف صار آخر أمر المشركين. وقال ابن عباس: «أول الآيات العصا، فضرب بها موسى باب فرعون، ففزع منها فرعون، فشاب رأسه فاستحيا فخضب رأسه بالسواد، فأول من خضب بالسواد فرعون». قال ابن عباس: «كان طول العصا عشرة أذرع على طول موسى، وكانت من آس الجنة يضرب بها الأرض فيخرج

Marfat.com

النبات، فلما دخل عليه مع هارون ﴿وَقَالَ﴾ له ﴿مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك قال له فرعون: كذبت. قال له موسى: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ قرأ نافع ﴿حقيق﴾ عليّ بالتشديد. وقرأ الباقون بالتخفيف علي. فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: واجب علي أن لا أقول، يعني: واجب بأن أترك القول على الله إلا الحق. ومن قرأ بالتشديد معناه: واجب عليّ ترك القول على الله إلاّ الحق. فلما كذبوه قال: إني لا أقول بغير برهان ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِن رَبِّكُمْ﴾ يعني: جئتكم بعلامة لنبوتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولا تستعبدهم، لأن فرعون كان قد استعبد بني إسرائيل واتخذهم سخرة فـ﴿قَالَ﴾ له فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ يعني: بعلامة لنبوتك ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأنك رسول الله ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ يعني: ألقى موسى عصاه من يده ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ وهي أعظم الحيات، ويقال: الثعبان الحية الذكر الصفراء والشقراء ويقال: صارت حية من أعظم الحيات، رأسها مع شرف قصر فرعون، ففتحت فاها نحو فرعون، وكان فرعون على سريره، فوثب فرعون من سريره وهرب منها، وهرب الناس، وصاحوا إلى موسى، ونادى فرعون: يا موسى خذها عني فأخذها، فإذا هي عصا بيده كما كانت، وجعل الناس يضحكون مما صنع موسى. ومعنى قوله: ﴿ثعبان مبين﴾ يعني: أنها حية تسعى لا لبس فيها. فقال له فرعون: هل معك غير هذا؟ قال: نعم ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ يعني: أخرج يده أخرجها من جيبه، كما قال في آية أخرى ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢] يعني: من غير برص ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ يعني: لها شعاع غلب على نور الشمس. ومعنى قوله: ﴿للناظرين﴾ يعني: يتعجب ويتحير منها الناظرون. ويقال: إن البياض من غير برص، لأن الناس يكرهون النظر إلى الأبرص، فأخبر أن ذلك بياض ينظرون إليه، ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها فصارت كما كانت.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: الأشراف والرؤساء. قال مقاتل: يعني، إن فرعون قال بهذه المقالة فصدقه قومه، كما قال في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] يعني: حاذق بالسحر.

ثم قال قومه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: تصديقاً لقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ

Marfat.com

أَرْضِكُمْ﴾ بسحره يعني: من أرض مصر. فقال لهم فرعون: ﴿فَماذا تَأْمُرُونَ﴾ يعني: ماذا تشيرون في أمره؟ ويقال: إن بعضهم قال لبعض: فماذا تأمرون؟ يعني: ماذا ترون فيه؟ ﴿قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ يعني: احبسهما ولا تقتلهما. وأصله في اللغة: التأخير. يعني: أخّر أمرهما حتى تجتمع السحرة فيغلبوهما، فإنك إن قتلتهما قبل أن يظهر حالهما يظن الناس بأنهما صادقان. فإذا تبين كذبهما عند الناس فاقتلهما حينئذٍ، فذلك قوله: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حاشِرِينَ﴾ يعني: الشرط يحشرون الناس إليك: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي: حاذق بالسحر. قرأ ابن كثير: ﴿أرجئهو﴾ بالهمزة والواو بعد الهاء. وقرأ الكسائي: ﴿أرجهي﴾ بغير همز والياء بعد الهاء، وكذلك نافع في رواية ورش وهكذا قرأ حمزة إلا أنه يكسر الهاء ولا يتبع الياء. وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿أرجئه﴾ بالهمزة والضمة بغير مد وقرأ عاصم بالهمز. وهذه لغات كلها مروية عن العرب. وقرأ حمزة والكسائي ﴿بكل سحّار عليم﴾ على وجه المبالغة في السحر. وقرأ الباقون ﴿بكل ساحر﴾ وهكذا في يونس، واتفقوا في الشعراء.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً﴾ يعني: قالوا لفرعون: أتعطينا جعلاً ومالاً ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ لموسى ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون ﴿نَعَمْ﴾ لكم الجعل ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني: لكم المنزلة سوى العطية، يعني: أنكم تكونوا أول من يدخل علي بالسلام. قرأ أبو عمرو ﴿آينَّ لنا لأجراً﴾ بمد الألف. وقرأ ابن كثير ونافع وحفص ﴿إنّ لنا﴾ بهمزة واحدة بغير ياء. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿أإن لنا﴾ بهمزتين، فلما اجتمعت السحرة ووعدوا للخروج يوماً وأُعلمَ الناس بخروجهم ليجتمعوا عند سحرتهم كما قال في آية أخرى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩] يعني: يوم عيد كان لهم ويقال: يوم النيروز. فلما اجتمعوا قالت السحرة، أي سحرة فرعون لموسى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ يعني: إما أن تطرح عصاك على الأرض وإما أن نكون نحن الملقين قبلك. ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ يعني: السحرة ألقوا الحبال والعصي ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ يعني: أخذوا أعينهم بالسحر ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يعني: طلبوا رهبتهم حتى رهبهم الناس. قال الكلبي: كانت السحرة سبعين فألقوا سبعين عصا وسبعين حبلاً. وقال بعضهم: كانوا اثنين وسبعين حبلاً. وروى أسباط عن السدي قال: قال ابن عباس: «كانوا بضعاً وثلاثين ألفاً». وقال محمد بن إسحاق: كانوا ألف رجل وخمسمائة رجل، ومع كل واحد منهم عصا، وقد كانوا خاطوا الحبال وجعلوها مموهة بالرصاص وحشوها بالزئبق حتى إذا ألقوها تحركت كأنها حيات، لأن الزئبق لا يستقر في مكان واحد، فلما طلعت عليها الشمس صارت شبيهاً بالحيات، فنظر موسى فإذا الوادي قد امتلأ بالحيات، فدخل فيه الخوف، ونظر الناس إلى ذلك فخافوا من كثرة الحيات. فذلك قوله: ﴿واسترهبوهم﴾ يعني: أفزعوهم وأخافوهم ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾

Marfat.com

يعني: بقول عظيم، ويقال: بسحر تام. ويقال: ﴿وجاؤوا بسحر عظيم﴾ يعني: بقول عظيم حتى قالوا ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] ويقال: وجاؤوا بكذب عظيم.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)﴾

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ يعني: اطرح عصاك إلى الأرض، فألقى عصاه من يده فصارت حية أعظم من جميع حياتهم ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ يعني: تلتقم وتأكل جميع ما جاؤوا به من الكذب والسحر. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿تَلْقَفُ﴾ بجزم اللام وتشديد القاف، وقرأ الباقون بنصب اللام وتشديد القاف، ومعناهما واحد.

وقصدت الحية إلى فرعون، فنادى موسى فأخذها، فإذا هي عصا على حالها، فنظر السحرة، فإذا حبالهم وعصيهم قد ذهبت ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ يعني: استبان الحق فظهر أنه ليس بسحر ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر يعني: ذهب وهلك واضمحل ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾ وغلب موسى السحرة عند ذلك ﴿وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ يعني: رجعوا ذليلين. قالوا: لو كان هذا سحراً فأين صارت حبالنا وعصينا، ولو كانت سحراً لبقيت حبالنا وعصينا، وهذا من الله تعالى وليس بسحر، فآمنوا بموسى.

قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ يعني: خروا لله تعالى ساجدين. قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا، كأنهم ألقوا. ويقال: وفقهم الله تعالى للسجدة ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال لهم فرعون: إياي تعنون، فأراد أن يلبس على قومه فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فندم فرعون على ما سألهم، لأن بعض الناس كانوا يظنون عند مقالتهم برب العالمين أنهم أرادوا به فرعون، فلما سألهم فرعون وقالوا: ﴿برب موسى وهارون﴾ ظهر عند جميع الناس أنهم لم يريدوا به فرعون، وإنما أرادوا به الإيمان بموسى وبرب العالمين.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يعني: صدقتم بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ يعني: قبل أن آمركم بالإيمان بموسى. قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير: ﴿آمنتم﴾ بالمدّ. وقرأ الباقون: بغير مدّ بهمزتين، ومعناهما واحد ويكون استفهاماً، إلا عاصم في رواية حفص قرأ آمنتم بهمزة واحدة

Marfat.com

بغير مد على وجه الخبر. ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني: صنع صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في المدينة ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ يعني: إنكم أردتم أن تخرجوا الناس من مصر بسحركم.

ثم قال لهم: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: تعلمون ماذا أفعل بكم ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ﴾ يعني: اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على شاطىء نهر مصر ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ يعني: لا نبالي من فعلك وعقوبتك فإن مرجعنا إلى الله تعالى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾ يعني: وما تعيب علينا، وما تنكر منا ﴿إِلاَّ أَنْ آمَنَّا﴾ بالله، يعني: إلا إيماننا بالله. ويقال: وما نقمتك علينا ولم يكن منّا ذنب ﴿إلا أن آمنا بآياتِ ربنا لَمّا جَاءَتْنَا﴾ يعني: لما ظهر عندنا أنه حق.

ثم سألوا الله تعالى الصبر على ما يصيبهم لكي لا يرجعوا عن دينهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾ يعني: أنزل علينا ﴿صبراً﴾ عند القطع والصلب، ومعناه: ارزقنا الصبر وثبِّتْ قلوبنا حتى لا نرجع كفاراً ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ على دين موسى. وروي عن عبيد الله بن عمير أنه قال: كانت السحرة أول النهار كفاراً سحرة، وآخر النهار شهداء بررة. وقال بعض الحكماء: إن سحرة فرعون كانوا كفروا خمسين سنة، فغفر لهم بإقرار واحد وبسجدة واحدة، فالذي أقر وسجد خمسين سنة فكيف لا يرجو رحمته ومغفرته؟.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أن السحرة قد آمنوا به، فلو تركهما يؤمن بهما جميع أهل مصر، فيفسدوا في الأرض يعني: موسى وقومه، ويغيّروا عليك دينك في أرض مصر ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ وذلك أن فرعون جعل لقومه أصناماً يعبدونها، وكان يقول لهم: هؤلاء أربابكم الصغار، وأنا ربكم الأعلى، فذلك قوله: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ يعني: يدعك ويدع أصنامك التي أمرت بعبادتها. وروي عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ويذرك وآلهتك﴾ يعني: عبادتك وتعبدك. قال ابن عباس: «كان فرعون يُعْبد ولا يَعْبُد. ويقال: معنى قوله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا في الأرض﴾ يعني: يغلبوا عليكم، ويقتلوا أبناءكم، ويستحيوا نساءكم كما فعلتم بهم، كما قال في آية أخرى ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] فقال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ لأنهم قد كانوا تركوا قتل الأبناء، فأمرهم بأن يرجعوا إلى فعل ذلك. قرأ ابن كثير ونافع: ﴿سَنَقْتُلُ﴾ بجزم القاف والتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد على معنى التكثير والمبالغة في القتل.

ثم قال: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ يعني: مسلطون فشكت بنو إسرائيل إلى موسى:

Marfat.com

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

ثم قال: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ﴾ يعني: سلوا الله التوفيق ﴿وَاصْبِرُوا﴾ يعني: اصبروا على أذاهم حتى يأتيكم المخرج ﴿إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني: أرض مصر ينزلها من يشاء من عباده، ويقال: الجنة. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿يورّثها﴾ بالتشديد. وقرأ الباقون بالتخفيف، وهما لغتان: ورَثْتُ وأوْرَثْتُ بمعنى واحد.

ثم قال: ﴿وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي للمتَّقين الذين يعملون في طاعة الله تعالى على نور من الله مخافة عقاب الله، ورجاء ثواب الله تعالى، يعني: آخر الأمر لهم. وروي في الخبر أن مسيلمة الكذاب كتب إلى النبي ﷺ كتاباً من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله أما بعد، فإن الأرض بيني وبينكم نصفان، إلا أن العرب قوم يظلمون الناس، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «مِنْ مُحَمَّد رَسُولِ الله إلى مُسَيلِمَةَ الكَذَّابِ، أمَّا بَعْدُ فَإنَّ الأرْضَ لله يُورِثُها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا﴾ يعني: إن قوم موسى قالوا لموسى: إنهم قد عذبونا قبل أن تأتينا بالرسالة ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ لأن قوم فرعون كانوا يكلفون بني إسرائيل من العمل ما لا يطيقون، وكان آل فرعون لا يعرفون شيئاً من الأعمال، وكانت بنو إسرائيل حذاقاً في الأشياء والأعمال، فكانوا يأمرونهم بالعمل ولا يعطونهم الأجر. ﴿فَقَالَ﴾ لهم موسى ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ يعني: فرعون وقومه ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: يجعلكم سكانها من بعد هلاكهم، يعني: أرض مصر من بعد هلاك فرعون وقومه ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: يبتليكم بالنعمة كما ابتلاكم بالشدة، فيظهر عملكم في حال اليسر والشدة، لأنه قد وعد لهم بقوله تبارك تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. ويقال: ﴿فينظر كيف تعملون﴾ من بعده يعني: من بعد انطلاق موسى إلى الجبل، فعبدوا العجل.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ يعني: بالجوع والقحط ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثمرات لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني: يتعظون ويؤمنون فلم يؤمنوا ولم يتعظوا.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ﴾ يعني: الخير والخصب والرخاء ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾

Marfat.com

يعني: نحن أهل لهذه الحسنة وأحق بها ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعني: القحط والبلاء والشدة ﴿يَطَّيَّرُوا بموسى وَمَنْ مَعَهُ﴾ وأصله يتطيروا فأدغمت التاء في الطاء. كقوله: ﴿يذَّكَّرون﴾ وأصله: يتذكرون يعني: يتشاءمون بموسى ومن معه على دينه.

قال الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ الله﴾ يعني: إن الذي أصابهم من عند الله وبفعلهم. ويقال: إنما الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة، لا ما ينالهم في الدنيا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أنه من الله تعالى ولا يعلمون ما عليهم في الآخرة.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ يقول: متى ما تأتنا، ويقال: كلما تأتنا. وروي عن الخليل أنه قال: ﴿مهما تأتنا﴾ هي متى الشرطية أدخلت معها ما الزائدة كقوله: متى ما تأتني آتك. وما زائدة فكأنه قال: ما تأتنا به. فأبدلوا الهاء من الألف، وهكذا قال الزجاج.

وقوله: ﴿بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ يعني: من آية ﴿لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ يعني: لتأخذ أعيننا بها ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بمصدقين بأنك مبعوث ورسول من الله. فغضب موسى عند ذلك فدعا عليهم، قال الله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ وهو المطر الدائم من السبت إلى السبت، حتى خربت بنيانهم وانقطعت السبل وكادت أن تصير مصر بحراً واحداً، فخافوا الغرق. فاستغاثوا بموسى، فأرسلوا إليه وقالوا: اكشف عنا العذاب نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا موسى ربه، فكشف عنهم المطر، وأرسل الله عليهم الريح فجففت الأرض، فخرج من النبات شيء لم يروا مثله بمصر قط. قالوا: هذا الذي جزعنا منه خير لنا، ولكن لم نشعر به، فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل، فنقضوا العهد وعصوا ربهم، فمكثوا شهراً، فدعا عليهم موسى فأرسل الله تعالى كما قال تعالى: ﴿والجراد﴾ مثل الليل، فكانوا لا يرون الأرض ولا السماء من كثرتها، فأكل كل شيء أنبتته الأرض. فاستغاثوا بموسى وقالوا: يا أيها الساحرُ يعني: يا أيها العالم سل لنا ربك ليكشف عنا العذاب، ونؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل.

Marfat.com

فدعا موسى ربه، فأرسل الله تعالى ريحاً فاحتملت الجراد وألقته في البحر، فلم يبق في أرض مصر جرادة واحدة. فقال لهم فرعون: انظروا هل بقي شيء؟ فنظروا فإذا هو قد بقي لهم بقية من كلئهم وزروعهم ما يكفيهم عامهم ذلك. قالوا: قد بقي لنا ما فيه بلغتنا هذه السنة. فقالوا: يا موسى، لا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل، فمكثوا شهراً ثم دعا عليهم، فأرسل الله تعالى عليهم ﴿القُمَّل﴾ قال قتادة: القمل أولاد الجراد التي لا تطير، وهكذا قال السدي. وذكر عن أبي عبيدة أنه قال: القمل عند العرب الحمنان، وهو ضرب من القردان، فلم يبق من أرض مصر عود أخضر إلا أكلته. وأتاهم منه مثل السيل على وجه الأرض، فأكل كل شيء في أرض مصر من نبات أو ثمر، فصاحوا إلى موسى، وقالوا: ادع لنا ربك هذه المرة يكشف عنا العذاب ونحن نطيعك ونعطيك عهداً وموثقاً لنؤمنن بك، ولنرسلن معك بني إسرائيل. فدعا موسى ربه، فأرسل الله تعالى ريحاً حارة فأحرقته فلم يبق منه شيء، وحملته الريح، فألقته في البحر، فقال لهم موسى: أرسلوا معي بني إسرائيل، فقالوا له: قد ذهبت الأنزال كلها، فأي شيء تفعل بعد هذا؟ فعلى أي شيء نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل؟ اذهب فما استطعت أن تضرَّ بنا فضرّنا فإنا لو نؤمن بك ولن نرسل معك بني إسرائيل. فمكثوا شهراً، فدعا الله تعالى عليهم موسى، فأرسل الله تعالى عليهم ﴿الضفادع﴾ فخرجوا من البحر مثل الليل الدامس، فغشوا أهل مصر، ودخلوا البيوت، ووقع على ثيابهم وفرشهم وسررهم، وكان الرجل منهم يستيقظ في الليل وقد امتلأ فراشه من الضفادع، فكان الرجل يكلم صاحبه يجعل فمه في أذنه ليسمع كلامه من كثرة نقيق الضفادع. فضاق الأمر عليهم، فصاحوا إلى موسى فقالوا: يا موسى، لئن رفعت عنا هذه الضفادع لنؤمنن بك ولنرسلن معك بني إسرائيل. فدعا موسى ربه، فأذهب الله تعالى عنهم الضفادع. فقال لهم موسى: أرسلوا معي بني إسرائيل فقالوا: نعم، اخرج بهم ولا تخرج معهم مواشيهم وأموالهم. فقال لهم موسى: إن الله أمرني أن أخرج بهم ولا أخلف من أموالهم ومواشيهم شيئاً. فقالوا: والله لا نؤمن بك، ولا نرسل معك بني إسرائيل. فمكثوا شهراً، فدعا عليهم، فأرسل الله تعالى عليهم ﴿الدم﴾ فجرت أنهارهم دماً، فلم يكونوا يقدرون على الماء العذب ولا غيره، وبنو إسرائيل في الماء العذب، وكلما دخل رجل من آل فرعون يستقي من أنهار بني إسرائيل ماءً، صار الماء دماً والماء من بين يديه ومن خلفه. فركب فرعون وأشراف أصحابه فأتوا أنهار بني إسرائيل، فإذا هي عذبة صافية. فجعل فرعون يدخل الرجل منهم، فإذا دخل واغترف صار الماء في يده دماً. فمكثوا كذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم، فمات كثير منهم في ذلك، فاستغاثوا بموسى، فقال فرعون: اقسم بإلٰهك يا موسى، لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمننّ بك، ولنرسلن معك بني إسرائيل. فدعا موسى ربه، فأذهب الله تعالى عنهم الدم، وعذب ماؤهم وصفا. فعادوا إلى كفرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾ يعني: متتابعات، قال

Marfat.com

الحسن وسعيد بن جبير وغيرهما: كانوا يعافون بين كل آيتين شهراً، فإذا جاءت الآية، قامت عليهم سبعاً من السبت إلى السبت. وروي عن مجاهد أنه قال: ﴿الطوفان﴾ المطر الكثير، وقوله: ﴿آيات مفصلات﴾ صار نصباً للحال.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ يعني: تعظموا عن الإيمان ﴿وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ يعني: أقاموا على كفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ يعني: وجب عليهم العذاب وحل بهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يعني: سل لنا ربك ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ يعني: بما أمرك ربك أن تدعو الله ويقال: بالعهد الذي سَلْ ربك ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ يعني: رفعت عنا العذاب ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ يعني: لنصدقنك ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾ يعني: العذاب ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾ يعني: إلى وقت الغرق. ويقال: إلى وقت بقية آجالهم ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ يعني: ينقضون العهد الذي عاهدوا عليه مع موسى.

قال الله تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ يعني: في البحر بلسان العبرانية. وذلك أن الله تعالى أمر موسى بأن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ليلاً، فاستعار نسوة بني إسرائيل من نساء آل فرعون حليهن وثيابهن، وقلن: إن لنا خروجاً، فخرج موسى ببني إسرائيل في أول الليل وهم ستمائة ألف من رجل وامرأة وصبي. فذكر ذلك لفرعون، فتهيأ للخروج إليهم، فلما كان وقت الصبح ركب فرعون ومعه ألف ألف ومائتا ألف رجل، فأدركهم حين طلعت الشمس، وانتهى موسى إلى البحر فضرب البحر، فانفلق له اثنا عشر طريقاً. وكانت بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً، فعبر كل سبط في طريق، وأقبل فرعون ومن معه حتى انتهوا إلى حيث عبر موسى، فدخلوا في ذلك الطريق في طلبهم، فلما دخل آخرهم وهمّ أولهم أن يخرج، أمر الله تعالى البحر أن ينطبق عليهم فغرقهم. فذلك قوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: الآيات التسع وهي: اليد، والعصا، والسنون، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ﴿آيات مفصلات﴾ ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ يعني: مُعْرِضين، فلم يتفكروا ولم يعتبروا بها حتى رجع موسى ببني إسرائيل، فسكنوا أرض مصر فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾ يعني: الأرض المقدسة ﴿وَمَغَارِبَهَا﴾ يعني: الأردن وفلسطين. ويقال: ﴿مشارق الأرض﴾ يعني: الشام ﴿ومغاربها﴾ ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعني بالبركة، الماء والثمار الكثيرة.

وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ يقول: وجبت نصرة ربك بالإحسان ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مجاهد: هو ظهور قوم موسى على فرعون، وتمكين الله لهم في الأرض. وقال

Marfat.com

مقاتل: يعني: بالكلمة التي ذكرها في سورة القصص ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥] وقال الكلبي: ﴿وتمت كلمة ربك﴾ يعني: نعمة ربك ﴿الحسنى﴾. يعني: أنهم يجزون الحسنى الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ ولم يدخلوا في دين فرعون. ويقال: ﴿وتمت كلمة ربك﴾ يعني: ما وعدهم الله من إهلاك عدوهم واستخلافهم.

ثم قال: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ يعني: أهلكنا ما كان يصنع فرعون وقومه، وأبطلنا كيده ومكره. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ يعني: أهلكنا ما كانوا يبنون من البيوت والكروم. وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿يَعْرُشُونَ﴾ بضم الراء. وقرأ الباقون بالكسر، ومعناهما واحد.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يقول: مروا على قوم ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ يعني: يعبدون الأصنام ويقومون على عبادتها، وكل من يلازم شيئاً ويواظب عليه يقال: عكفه. ولهذا سمي الملازم للمسجد معتكفاً ﴿قالوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً﴾ قال الجهال من بني إسرائيل لموسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً﴾ تعبده ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ يعني: تكلمتم بغير علم وعقل، وجهلتم الأمر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ يعني: مهلكاً مفسداً ما هم فيه من عبادة الأصنام ﴿وَبَاطِلٌ﴾ يعني: ضلال ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والتبار: الهلاك. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨] أي: هلاكاً.

ثم ﴿قَالَ﴾ تعالى لهم قل ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهاً﴾ يعني: أسوى الله آمركم أن تعبدوا وتتخذوا إلٰهاً ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني: على عالمي زمانكم. يعني: أنه قد أحسن إليكم فلا تعرفون إحسانه، وتطلبون عبادة غيره، وهم الذين كانوا أجابوا السامري حيث دعاهم إلى عبادة العجل بعد انطلاق موسى إلى الجبل.

ثم ذكّرهم النعم فقال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ يعني: اذكروا حيث أنجاكم الله ﴿من آل

Marfat.com

فرعون﴾ وقرأ ابن عامر ﴿وإذ أنجاكم﴾ يعني: اذكروا حيث أنجاكم الله ﴿من آل فرعون﴾ وقرأ الباقون ﴿وإذ أنجيناكم﴾ ومعناه مثل ذلك ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ يعني: يعذبونكم بأشد العذاب ﴿يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ يعني: يستخدمون نساءكم ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ يعني: في الإنجاء نعمة من ربكم عظيم. ويقال: في قتل الأبناء واستخدام النساء بلية من ربكم عظيمة. قرأ نافع ﴿يقتلون أبناءكم﴾ بنصب الياء مع التخفيف. وقرأ الباقون بضم الياء وكسر التاء مع التشديد، على التكثير. وقرأ حمزة والكسائي ﴿يعكفون﴾ بكسر الكاف، وقرأ الباقون بالضم.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ قرأ أبو عمرو ﴿ووعدنا﴾ بغير ألف، والباقون بالألف، ومعناهما واحد. ﴿وأتممناها بعشر﴾ يعني: ثلاثين من ذي القعدة، وعشراً من ذي الحجة. ويقال: ثلاثين من ذي الحجة وعشراً من المحرم، والمناجاة في يوم عاشوراء. وكانت المواعدة ثلاثين يوماً، وأمر بأن يصوم ثلاثين يوماً، فلما صام ثلاثين يوماً، أنكر خلوف فمه فاستاك بعود خرنوب ويقال: بورقة موز، فقالت له الملائكة: كنا نجد من فيك ريح المسك فأفسدته بالسواك، فأمر بأن يصوم عشراً أخر، فصارت الجملة أربعين يوماً، كما قال في آية أخرى ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] يعني: صارت في الجملة أربعين، ولكن مرة ثلاثين يوماً، ومرة عشرة. ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ يعني: ميعاد ربه.

﴿وقال موسى لأخيه هارون﴾ يعني: قال له قبل انطلاقه إلى الجبل: ﴿اخلفني في قومي﴾ يعني: كن خليفتي على قومي ﴿وأصلح﴾ يعني: مرهم بالصلاح. ويقال: وأصلح بينهم، ويقال: ارفق لهم ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ يعني: ولا تتبع طريق العاصين، ولا ترضى به، واتبع سبيل المطيعين. وقال بعض الحكماء: من ها هنا ترك قومه عبادة الله وعبدوا العجل، لأنه سلمهم إلى هارون ولم يسلمهم إلى ربهم. ولهذا لم يستخلف النبي ﷺ بعده، وسلم أمر أمته إلى الله تعالى، فاختار لأمته أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وهو أبو بكر الصديق فأصلح بينهم.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ يعني: لميعادنا لتمام أربعين يوماً. ويقال: ﴿لميقاتنا﴾ يعني: للوقت الذي وقتنا له. ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ فسمع موسى كلام الله تعالى بغير وحي، فاشتاق إلى رؤيته ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ﴿انظر﴾ صار جزماً لأنه جواب الأمر ﴿قَالَ﴾ له ربه: ﴿لَن تَرَانِي﴾ يعني: إنك لن تراني في الدنيا ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ يعني: انظر إلى أعظم جبل بمدين ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ يعني: سوف تقدر أن تراني إن استقر الجبل مكانه. معناه: كما أن الجبل لا يستقر لرؤيتي، فإنك لن تطيق رؤيتي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال الضحاك: ألقى عليه من نوره فاضطرب الجبل من هيبته، يعني: من رهبة الله تعالى. وقال القتبي: ﴿تجلى﴾ أي ظهر وأظهر من أمره ما شاء. يقال: جلوت المرآة والسيف، إذا أبرزته من الصدأ وكشفت عنه. وجلوت العروس، إذا أبرزتها. ﴿فلمّا تجلى ربه للجبل﴾ يعني: جبل زبير ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿دكاء﴾ بالمدّ والهمز يعني: جعله أرضاً دكاء. وقرأ الباقون ﴿دَكًّا﴾ بالتنوين يعني: دَكَّه دَكّاً. قال بعضهم: صار الجبل قطعاً، فصار على ثمان قطع. فوقع ثلاث بمكة وثلاث بالمدينة واثنان بالشام. ويقال: صار ستة فرق. ويقال: صار أربع فرق. ويقال: صار كله رملاً عالجاً. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ﴿جعله دكاً﴾ أي تراباً، وقال القتبي: ﴿جعله دكاً﴾ أي ألصقه بالأرض. ويقال: ناقة دكاء، إذا لم يكن لها سنام. وروي عن وهب بن منبه قال: لما سأل موسى النظر إلى ربه، أمر الله الضباب والصواعق والظلمات والرعد والبرق فهبطن حتى أحطن بالجبل، وأمر الله تعالى ملائكة السموات فهبطوا، وارتعدت فرائص موسى وتغير لونه، فقال له جبريل: اصبر لما سألت ربك، فإنما رأيت قليلاً من كثير، فلما غشي الجبلَ النورُ، خمد كل شيء، وانقطعت أصوات الملائكة، وانهار الجبل من خشية الله تعالى، حتى صار دكاً.

قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ قال مقاتل: يعني ميتاً. كقوله عز وجل: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ [سورة الزمر: ٦٨] يعني: مات. ويقال: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ يعني: مغشياً عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من غشيانه قال مقاتل: رد الله حياته إليه ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ يعني: تنزيهاً لك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من قولي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. روى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: قد كان قبله من المؤمنين، ولكن يقول: أنا أول من آمن به، بأنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. وقال مقاتل: ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ بأنك لا تُرى في الدنيا. ويقال: معناه، تبت إليك بأن لا أسألك بعد هذا سؤالاً محالاً، فاعترف أنه طلب شيئاً في غير حينه وأوانه ووقته. وقال الزجاج: قد قال موسى: ﴿أرني أنظر إليك﴾ يعني: أرني أمراً عظيماً لا يرى مثله في الدنيا مما لا تحتمل عليه نفسي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي: أمر به قال: وهذا خطأ، ولكن لما سمع كلامه قال: يا رب إني سمعت كلامك، وأحب أن أراك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي﴾ يعني: على بني

Marfat.com

إسرائيل، يعني: إني اصطفيتك بنبوتي. قرأ ابن كثير ونافع ﴿برسالتي﴾. وقرأ الباقون: ﴿برسالاتي﴾ بلفظ الجماعة ومعناهما واحد، يعني: اختصصتك بالنبوة. ﴿وبكلامي﴾ يعني: بتكلمي معك من غير وحي ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ يعني: اعمل بما أعطيتك ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لما أعطيتك. وقال القتبي: قوله ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أراد به في زمانه، كقوله ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ روي سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أعطى الله تعالى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد، فيها تبيان لكل شيء وموعظة، قال: التوراة مكتوبة. ويقال: طول الألواح عشرة أذرع فيها[1]: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ من الجهل ﴿وتفصيلا﴾ يعني: بياناً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحلال والحرام.

قال الفقيه: **حدثنا** الفقيه أبو جعفر قال: **حدثنا** إسحاق بن عبد الرحمن القاري قال: **حدثنا** أبو بكر بن أبي العوام. قال: **حدثنا** أبي قال: **حدثنا** يحيى بن سابق، عن خثيمة بن خليفة، عن ربيعة عن أبي جعفر، عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كَانَ فِيمَا أَعْطَى اللهُ مُوسَى فِي الأَلْوَاحِ عَشَرَةُ أَبْوَابٍ: يَا مُوسَى لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً، فَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَتَلْفَحَنَّ وُجُوهَ الْمُشْرِكِينَ النَّارُ، وَاشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ، أَقِكَ الْمَتَالِفَ، وَأُنْسِئُ لَكَ فِي عُمُرِكَ، وَأُحْيِيكَ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَأَقْلِبُكَ إِلَى خَيْرٍ مِنْهَا، وَلَا تَقْتُلِ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمْتُهَا إِلاَّ بِالْحَقِّ، فَتَضِيقَ عَلَيْكَ الأَرْضُ بِرُحْبِهَا، وَالسَّمَاءُ بِأَقْطَارِهَا، وَتَبُوءَ بِسَخَطِي فِي نَارِي، وَلَا تَحْلِفْ بِاسْمِي كَاذِباً فَإِنِّي لَا أُطَهِّرُ وَلَا أُزَكِّي مَنْ لَمْ يُنَزِّهْنِي، وَلَمْ يُعَظِّمْ أَسْمَائِي، وَلَا تَحْسُدِ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ الْحَاسِدَ عَدُوٌّ لِنِعْمَتِي، رَادٌّ لِقَضَائِي، سَاخِطٌ لِقِسْمَتِي الَّتِي أَقْسِمُ بَيْنَ عِبَادِي، وَلَا تَشْهَدْ بِمَا لَمْ يَقَعْ بِسَمْعِكَ وَيَحْفَظْ قَلْبُكَ، فَإِنِّي أُوقِفُ أَهْلَ الشَّهَادَاتِ عَلَى شَهَادَاتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ أَسْأَلُهُمْ عَنْهَا سُؤَالاً حَثِيثاً، وَلَا تَزْنِ، وَلَا تَسْرِقْ، فَأَحْجُبَ عَنْكَ وَجْهِي، وَأُغْلِقَ عَنْكَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ. وَلَا تَذْبَحْ لِغَيْرِي، فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ مِنَ الْقُرْبَانِ إِلاَّ مَا**

---

(١) عزاه السيوطي: ٣/٥٤٩ إلى ابن أبي حاتم.

Marfat.com

ذُكِرَ عليْهِ اسْمِي، وَكَانَ خَالِصاً لِوَجْهِي، وَتَفَرَّغْ لِي يَوْمَ السَّبْتِ وَجَمِيعُ أَهْلِ بَيْتِكَ». فقال النبي ﷺ: «إنَّ الله تعالى جُعِلَ يَوْمُ السَّبْتِ لِمُوسَى عِيداً، وَاخْتَارَ لَنَا يَوْمَ الجُمُعَةِ فَجَعَلَها لنا عِيداً»[١].

قوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ يعني: اعمل بما أمرك الله بجد ومواظبة عليها ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ يعملوا بما فيها من الحلال والحرام. ويقال: مُرْهم بالخير وانههم عن الشر: يعني: اعملوا بالخير وامتنعوا عن الشر. ويقال: اعملوا بأحسن الوجوه وهو أنه لو يكافىء ظالمه منه جاز، ولو تجاوز عنه كان أحسن. وقال الكلبي: كان موسى أشد عبادةً من قومه، فأمر بما لم يؤمروا به، يعني: أمر بأن يعمل بالمواظبة، وأمر قومه بأن يأخذوا بأحسن العمل.

ثم قال: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قال مقاتل: يعني: سنة أهل مصر أي: هلاكهم حين قذفهم البحر، فأراهُم سنة الفاسقين في التقديم. ويقال: جهنم هي دارُ الكافرين. ويقال: إذا سافروا يريهم منازل عاد وثمود. وقال مجاهد: مصيرهم في الآخرة إلى النار.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ يعني: أصرف قلوب الذين يتكبرون عن الإيمان حتى لا يؤمنوا. فأخذتهم بكفرهم ولا أوفقهم بتكذيبهم الأنبياء مجازاة لهم. ويقال: أمنع قلوبهم من التفكر في أمر الدين، وفي خلق السموات والأرض، الذين يتكبرون ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني: يظنون أنهم أفضل الخلق وليسوا كذلك ولهذا قال: ﴿بغير الحق﴾. وقيل: ﴿يتكبرون﴾ يعني: يتعظمون عن الإيمان لكي لا يتفكروا في السماء، ولا يعقلون فيها، ولا يذكرونها. ويقال: سأصرف عن النعماء التي أعطيتها المؤمنين يوم القيامة، أصرفهم عن تلك النعمة ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ يمنعوا منها كي ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ يعني: طريق الحق الإسلام ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يعني: لا يتخذوه ديناً ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ يعني: طريق الضلالة والكفر ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يعني: ديناً ويتبعونه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قال مقاتل: يعني: بآياتنا التسع، وقال الكلبي: يعني: بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ يعني: تاركين لها. قرأ حمزة والكسائي ﴿سبيل الرَّشَدِ﴾ بنصب الراء، والشين، وقرأ الباقون ﴿الرُّشْدِ﴾ بضم الراء وإسكان الشين، وهما لغتان ومعناهما واحد.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ يعني: كذبوا بالبعث بعد الموت ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني: بطلت حسناتهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ يعني: هل يثابون ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: في الدنيا.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا

---

(١) عزاه السيوطي: ٣/٥٥١ إلى ابن مردويه وأبي نعيم.

Marfat.com

﴿يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ﴾ يعني: من بعد انطلاقه إلى الجبل ﴿من حليهم عجلاً جسداً له خوار﴾، وذلك أن موسى عليه السلام لما وعد لقومه ثلاثين يوماً فتأخر عن ذلك، قال السامري لقوم موسى: إنكم أخذتم الحلي من آل فرعون، فعاقبكم الله تعالى بتلك الخيانة، ومنع الله تعالى عنا موسى، فاجمعوا الحلي الذي أخذتم من آل فرعون حتى نحرقها، فلعل الله تعالى يرد علينا موسى. فجمعوا الحلي، وكان السامري صائغاً، فجعل الحلي في النار واتخذ منه عجلاً، وقد كان رأى جبريل على فرس الحياة، فكلما وضع الفرس حافره ظهر النباتُ في موضع حافره. فأخذ كفاً من أثر حافره من التراب، وألقى ذلك التراب في العجل، فصار عجلاً جسداً فذلك قوله: ﴿من حليهم عجلاً جسداً﴾ قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز، إنما معنى الجسد يعني: الجثة فقط. وروي عن ابن عباس: «صار عجلاً له لحم ودم، وله خوار» يعني: صوت ولم يسمع منه إلا صوت واحد. وقال بعضهم: جعله مشتبكاً يدخل فيه الريح، فيسمع منه صوت مثل صوت العجل. فقال لقومه: هذا إلٰهكم وإله موسى، فاغترّ به الجهال من بني إسرائيل وعبدوه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ﴾ يعني: لا يقدر على أن يكلمهم ﴿ولا يهديهم سبيلا﴾ يعني: لا يرشدهم طريقاً ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ يعني: كافرين بعبادتهم إياه. وقرأ حمزة والكسائي ﴿من حِلِيِّهم﴾ بكسر الحاء. وقرأ الباقون ﴿من حُلِيِّهم﴾ بضم الحاء. فمن قرأ بالكسر، فهو اسم لما يتحسّن به من الذهب والفضة. ومن قرأ بالضم، فهو جمع الحَلْي، ويقال: كلاهما جمع الحَلْي، وأصله الضم إلا أن من كسره فلاتباع الكسرة بالكسرة.

قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: ندموا على ما صنعوا. يقال: سقط في يده إذا ندم. وأصله: أن الإنسان إذا ندم جعل يده على رأسه.

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ يعني علموا أنهم ضلوا عن الهدى ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿لئن لم تَرْحَمْنا﴾ بالتاء على معنى المخاطبة ﴿ربَّنا﴾ بالنصب يعني: يا ربنا. وقرأ الباقون ﴿لئن لم يرحمنا ربُّنا﴾ بالياء، معنى الخبر ﴿ربُّنا﴾ بالضم. ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بعد التوبة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني: من المغبونين.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا

Marfat.com

تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ يعني: من الجبل ﴿غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ يعني: حزيناً. والأسف في اللغة: شدة الغضب. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] ويقال: أشد الحزن كقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يعني: بعبادة العجل، يعني: بئس ما فعلتم في غيبتي ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يعني: استعجلتم ميعاد ربكم. ويقال: أعصيتم أمر ربكم. ويقال: معناه ﴿أعجلتم﴾ بالفعل الذي استوجبتم به عقوبة ربكم ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ﴾ من يده. قال الكلبي: انكسرت الألواح وصعد عامة الكلام الذي كان فيها من كلام الله تعالى إلى السماء. وقال بعضهم: هذا الكلام في ظاهره غير سديد، لأن الكلام صفة، والصفة لا تفارق الموصوف، فلا يجوز أن يقال: الكلام يصعد ويذهب، ولكن تأويله: أن الألواح لما انكسرت، ذهب أثر المكتوب منها، وهذا إذا كان من غير الأحكام. وأما الأحكام أيضاً، فلا يجوز أن تذهب عنه، وإنما أراد بذلك حجة عليهم. وروي في الخبر: «أن الله تعالى أخبر موسى أن قومه عبدوا العجل. قال موسى: يا رب من اتخذ لهم العجل؟ قال: السامري. قال: من جعل فيه الروح؟ قال: أنا. قال: فأنت فتنت قومي؟. قال له ربه: تركتهم لمرادهم». وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ». لما أخبر الله موسى بأن قومه قد عبدوا العجل، لم يلق الألواح، فلما عاين ألقى الألواح.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ يعني: أخذ بشعر رأسه ولحيته ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ يعني: قال له هارون: يا ابن أمي لا تأخذ بلحيتي. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص: يا ﴿ابن أمَّ﴾ بنصب الميم، وقرأ الباقون بالكسر، وهكذا في سورة طه. فمن قرأ بالنصب جعله كاسم واحد، كأنه يقول: يا ابن أماه، كما يقال: يا ويلتاه ويا حسرتاه. ومن قرأ بالكسر، فهو على معنى الإضافة إلى نفسه. وكان موسى أخاه لأبيه وأمه، ولكن ذكر الأم ليرقّقه عليه.

قال: ﴿إِنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ يعني: قهروني واستذلوني ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ يعني: هموا بقتلي ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ يعني: لا تفرّح عليّ أعدائي، يعني: الشياطين. ويقال: أصحاب العجل ﴿وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: لا تظنن أني رضيت بما فعلوا. قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ بما فعلتُ بأخي هارون ويقال: لإلقاء الألواح ﴿وَ﴾ اغفر ﴿لأخي﴾ ما كان منه من التقصير في تركهم على عبادة العجل ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ يعني: جنتك ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يعني: أنت أرحم بنا منا بأنفسنا. وقال الحسن: يعني أنت أرحم بنا من الأبوين.

Marfat.com

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ يعني: الذين اتخذوا العجل إلٰهاً ﴿سَينالُهم غضبٌ مِن رَبِّهِمْ﴾ يعني: يصيبهم عذاب من ربهم ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا﴾ وهو ما أمروا بقتل أنفسهم. ويقال: هذا قول الله تعالى للنبي ﷺ يعني: يصيب أولادهم ذلة في الحياة الدنيا، وهي الجزية ﴿وكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ يعني: هكذا نعاقب المكذبين.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ﴾ يعني: الشرك بالله ﴿ثم تابوا﴾ يعني: رجعوا عن الشرك بالله وعن السيئة ﴿وَآمَنُوا﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها﴾ يعني: من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقال: من بعد السيئات، يعني: ﴿لغفور﴾ لذنوبهم ﴿رحيم﴾ بهم بعد التوبة.

ثم رجع إلى قصة موسى وهو قوله تعالى: ﴿ولَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسى الْغَضَبُ أخذ الألواح﴾ يعني: لما سكن عن موسى الغضب. ﴿أخذ الألواح وَفِي نُسْخَتِها﴾ يعني: في بقيتها، فنسخت له الألواح، يعني: وأعيدت له في اللوحين مكان التي انكسرت. ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يعني: فيما بقي منها بياناً من الضلالة، ورحمة من العذاب. ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يعني: يخافون الله ويعلمون له بالغيب. ويقال: ﴿وفي نسختها﴾ يعني: في كتابها هدى من الضلالة ورحمةً من العذاب للذين يخشون ربهم.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿واخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ﴾ أي من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا﴾ يعني: للميقات الذي وقتنا له ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ يعني الزلزلة، تزلزل الجبل بهم فماتوا ﴿قال﴾ موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: من قبل أن يصحبوني ﴿وإيَّايَ﴾ بقتل القبطي ﴿أَتُهْلِكُنا بِمَا فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا﴾ قال الكلبي: ظن موسى أنه إنما أهلكهم باتخاذ بني إسرائيل العجل آلهاً.
وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «انطلق موسى وهارون ومعهما شَبَّر وَشُبير وهما ابنا هارون، حتى انتهوا إلى جبل فيه سرير، فنام عليه هارون فقبض، فرجع موسى إلى

Marfat.com

قومه فقالوا له: أنت قتلته حسداً على خلقه ولينه. فقال: كيف أقتله ومعي ابناه، فاختاروا من شئتم، فاختاروا سبعين، فانتهوا إليه. فقالوا له: من قتلك يا هارون: قال ما قتلني أحد ولكن توفاني الله تعالى. فأخذتهم الرجفة فماتوا كلهم، فقال موسى: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ وإياي. وروي عن ابن عباس أنه قال: «لما انطلق موسى إلى الجبل أمر بأن يختار سبعين رجلاً من قومه، فاختار من كل سبط ستة رجال، فبغلوا اثنين وسبعين، فقال موسى: إني أمرت بسبعين فليرجع اثنان ولهما أجر من حضر، فرجع يوشع بن نون وكالوب بن يوقنا. فذهب موسى مع السبعين إلى الجبل، فلما رجع إليهم موسى من المناجاة قالوا له: إنك قد لقيت ربك فأرنا الله جهرة حتى نراه كما رأيته، فجاءتهم نار فأحرقتهم فماتوا، فقال موسى حين أماتهم الله: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ هذا اليوم ﴿وإياي﴾ معهم، ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ يعني: أتوقعني في ملامة بني إسرائيل وتعييرهم بفعل هؤلاء السفهاء؟ ثم أحياهم الله تعالى.

وروى أسباط عن السدي قال: إن موسى انطلق بسبعين من بني إسرائيل يعتذرون إلى ربهم عن عبادة العجل، وذكر نحو حديث عبد الله بن عباس ثم قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ يعني: بليتك وعذابك. ويقال: عبادة العجل بليتك حيث جعلت الروح فيه ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ يعني: بالفتنة ﴿مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ من الفتنة ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ يعني: حافظنا وناصرنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ يعني: ولا تعذبنا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ يعني: المتجاوزين عن الذنوب.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هذِهِ الدُّنيا حَسَنَةً﴾ يعني: اقضِ لنا وأعطنا في الدنيا العلم والعبادة والنصرة والرزق الحلال الحسن ﴿وَفِي الآخِرَةِ حسنة﴾ يعني: أعطنا في الآخرة حسنة، وهي الجنة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيكَ﴾ يعني: تبنا إليك وأقبلنا إليك، هكذا قال عكرمة ومجاهد وعطاء وقتادة. وأصله في اللغة: الرجوع من الشيء إلى الشيء ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ من عبادي، يعني: هذا عذابي أخصّ به من أشاء من العباد من كان أهلاً لذلك ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيْءٍ﴾ إنْ رحمتهم ويقال: إن الزلزلة والرجفة كانتا عذابي، وأنا أنزلتهما، وأنا أصيب بالعذاب من أشاء، وما سألت من الغفران فمن رحمتي، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ من كان أهلاً لها. ويقال: لكل شيء حظ من رحمتي.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن قتادة والحسن قالا: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ يعني: وسعت في الدنيا البر والفاجر، هي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. ويقال: لما نزلت هذه الآية ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ تطاول إبليس، وقال: أنا من تلك الأشياء، فأكذبه

Marfat.com

الله تعالى وآيسه، فأنزل ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يعني: فسأقضيها وسأوجهها للذين يتقون الشرك ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقالت اليهود والنصارى: نحن آمنا بالآيات وهي التوراة والإنجيل، ونعطي الزكاة، فهذه الرحمة لنا، فأكذبهم الله تعالى فنزل ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ الآية ويقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يعني: طمع كل قوم برحمتي، وأنا أوجبتها للمؤمنين وهم أمة محمد ﷺ الذين يتقون الشرك، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، يعني: يصدقون بمحمد ﷺ والقرآن.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ يعني: محمداً ﷺ الذي لا يكتب ولا يقرأ الكتب. قال الزجاج: ﴿الأُمِّيَّ﴾ الذي هو على خِلْقَةِ أمه، لم يتعلم الكتابة، وهو على جبلته. ويقال: إنما سمِّي محمداً أُمِّياً لأنه كان من أم القرى، وهي مكة.

ثم قال: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ﴾ يعني: يجدون نعته وصفته ﴿مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني: شرائع الإسلام وبالتوحيد ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: عن الشرك وما لا يعرف في الشريعة ولا السنة ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: يرخص لهم الحلالات من اللحوم والشحوم وأشباههما ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ يعني: ويبين لهم الحرام: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والخمر ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ يعني: ثقلهم من العهود. قرأ ابن عامر ﴿آصَارَهُمْ﴾ على معنى الجماعة. وأصل الإصر: الثقل، فسمي العهد إصراً، لأن حفظ العهد يكون ثقيلاً. ويقال: يعني الأمور التي كانت عليهم في الشرائع. ويقال: هو ما عهد عليهم من تحريم الطيبات.

ثم قال: ﴿وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وهي كناية عن أمور شديدة، لأن في الشريعة الأولى، كان الواحد منهم إذا أصابه البول في ثوبه وجب قطعه، وكان عليهم ألا يعملوا في السبت، وغير ذلك من الأعمال الشديدة، فوضع عنهم ذلك.

ثم قال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ يعني: صدقوه وأقروا بنبوته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ يعني: عظموه وشرفوه، ويقال: أعانوه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ بالسيف ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ﴾ يعني: أهل هذه الصفة ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون في الآخرة، وهم في الرحمة التي قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

Marfat.com

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ﴾ يعني: يا أهل مكة، ويقال: هو لجميع الناس ﴿إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ ويقال: إنه أول نداء نادى به في مكة بهذه الآية، وكان من قبل يدعو واحداً واحداً، فلما نزلت هذه الآية، أظهر ونادى في الناس: ﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ من ذلك الرب ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِله إِلاَّ هُوَ﴾ يعني: لا خالق ولا رازق في السماء ولا في الأرض إلا هو ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يعني: يحيي الأموات للبعث، ويميت الأحياء في الدنيا، ويقال: ﴿يحيي﴾ يعني: يخلق الخلق من النطفة، ويميتهم عند انقضاء آجالهم. ﴿فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله﴾ يعني: يصدق بالله ﴿وكلماته﴾ يعني: القرآن قال: السدي ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ يعني: صدق بأن عيسى صار مخلوقاً بكلمة الله ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ من الضلالة.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: جماعة يدعون إلى الحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعني: وبالحق يعملون. وقال بعضهم: يعني به مؤمني أهل الكتاب وهم عبد الله بن سلام وأصحابه. وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٣] الآية. وقال بعضهم: هم قوم من وراء الصين، ما وراء رمل عالج من أمة موسى: وروي عن ابن عباس: أن النبي ﷺ ليلة أسري به إلى البيت المقدس ومعه جبريل، فرفعه إليهم وكلمهم وكلّموه. فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا. قال: فإن هذا محمد النبي الأميّ. قالوا: يا جبريل وقد بعثه الله تعالى؟ قال: نعم، فآمنوا به وصدّقوه، وقالوا: يا رسول الله إن موسى بن عمران أوصانا أن من أدرك ذلك النبي عليه السلام منكم فليقرأ عليه

Marfat.com

السلام مني ومنكم، وورد رسول الله ﷺ على موسى وعليهم السلام، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «ما لِي أَرَى بُيُوتَكُمْ مُسْتَوِيَةً»؟ قالوا: لأنا قوم لا يبغي بعضنا على بعض. قال: «فما لي لا أرى عليها أبواباً»؟ قالوا: إنا لا يضر بعضنا بعضاً. قال: «فَمَا لِي لا أَرَاكُمْ تَضْحَكُونَ»؟ قالوا: ما ضحكنا قط، لأن الله تعالى أخبرنا في كتابه أن جهنم عرضها ما بين الخافقين وقعرها الأرض السفلى، وقد أقسم الله تعالى ليملأنها من الجنّة والناس أجمعين. قال: «فَهَلْ تَبْكُونَ عَلَى المَيِّتِ»؟ قالوا: لا يا رسول الله، كيف نبكي على الميت وكلنا ميت؟ وهو سبيل لا بد منه، والله أعطانا، والله أخذ منا. قال: «فَهَلْ تَمْرَضُونَ»؟ قالوا: يا رسول الله إنما يمرض أهل الذنوب والخطايا، فأما نحن فمعصومون بدعاء نبي الله موسى قال: «فَكَيفَ تَمُوتُونَ إِذَا لَمْ تَمْرَضُوا؟» قالوا: إذا استوفى أحدنا رزقه جاءه ملك الموت فقبض روحه فندفنه حيث يموت. قال: «فَهَلْ تَحْزَنُونَ إِذَا وُلِدَ لأَحَدِكُمْ جَارِيَةٌ»؟ قالوا: لا يا رسول الله ولكنا نصوم لله تعالى شهراً شكراً، فإذا ولد لأحدنا غلام نصوم لله شهرين شكراً. قال: «فَهَلْ فِيكُمْ حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ»؟ قالوا: نعم. قال: «كَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهِنَّ»؟ قالوا: يا رسول الله نمشي عليهن ويمشين علينا، ولا نؤذيهن ولا تؤذينا، هنَّ آمنات منا ونحن آمنون منهن. قال: «فَهَلْ لَكُمْ مَاشِيَةٌ»؟ قالوا: نعم، نجز أصوافها فنتخذ منه الأقنية والأكسية، ونأكل من لحومها الكفاف، وكل أهل القرية فيها شرع، أي سواء ليس أحد أحق به منا. قال: «فَهَلْ تَزِنُونَ أَوْ يُوزَنُ عَلَيْكُمْ»؟ قالوا: لا نزن ولا يوزن علينا ولا نكيل ولا يكال علينا، ولا نشتري ولا نبيع، قال: «فَمِنْ أَيْنَ تَأْكُلُونَ»؟ قالوا: يا رسول الله: نخرج فنزرع، ويرسل الله تعالى السماء علينا فينبته، ثم نخرج إليه فنحصده، ونضعه في أماكن من القرية، فيأخذ أهل القرية الكفاف ويدعون ما سواه. قال: «فَهَلْ تُجَامِعُونَ النِّسَاءَ»؟ قالوا: نعم يا رسول الله، لنا بيوت مظلمة وثياب معلومة، فإذا أردنا أن نجامع النساء لبسنا ثيابنا تلك ودخلنا تلك البيوت، لا يرى الرجل عورة امرأته ولا المرأة عورته. قال: «فَهَلْ فِيكُمْ زِنًى؟» قالوا: لا يا رسول الله، فإن فعل ذلك أحد منا لظننا أن الله تعالى يبعث عليه ناراً فتحرقه أو تُخسَفُ به الأرض، ولكن إذا كان للرجل منا ابنة طلبها رجل منه رجل فيزوجه إياها أراد به الأجر والعفة. قال: «فَهَلْ تَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ»؟ قالوا: لا يا رسول الله، إنما يكنز الذهب والفضة من لا يثق بالله، ومن يرى أن الله تعالى لم يتكفل عنه برزقه، فأما نحن فلا نكنز الذهب والفضة. فأقرأهم رسول الله ﷺ عشر سور من القرآن نزلت بمكة، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، فعلمهم رسول الله ﷺ القرآن وأمرهم بالصلاة والزكاة، ورجع من ليلته. وقال قتادة: قال رسول الله ﷺ: في قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال: «قَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا» ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعني: من هذه الأمة.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ يعني: بني إسرائيل فرقناهم ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾ يعني: جماعة، والأسباط: جمع سبط، والسبط في بني إسرائيل: مثل القبيلة عند العرب

Marfat.com

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ يعني: في التيه ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ إلى قوله: ﴿رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ كل ذلك مذكور في سورة البقرة قرأ أبو عمرو ﴿نَغْفِر لكم﴾ بالنون ﴿خَطَايَاكُمْ﴾. وقرأ ابن عامر ﴿تُغفرُ لكم﴾ بالتاء والضم ﴿خطِيئَتكُمْ﴾ بالرفع وبلفظ الواحد. وقرأ نافع ﴿تُغفرُ﴾ لكم» بالتاء، والضم ﴿خطيئاتُكُمْ﴾ بلفظ الجماعة، وقرأ الباقون ﴿نَغفر لكم﴾ بالنون ﴿خطيئاتِكم﴾ بلفظ الجماعة.

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ واسمها أيلة، وذلك أن اليهود قالوا: نحن من أبناء إبراهيم ﷺ فلا يعذبنا الله تعالى إلا مقدار عبادة العجل، فقال الله تعالى: ﴿واسألهم عن القرية﴾ يعني: أهل القرية التي كانت حاضرة البحر كيف عذبهم الله تعالى بذنوبهم.

ثم أخبر عن ذنوبهم فقال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يعني: أنهم استحلوا الصيد في يوم السبت. وقال: يعتدون في يوم السبت. وأصل الاعتداء: هو الظلم. يقال: عدوت على فلان، إذا ظلمته واعتديت عليه.

ثم قال: ﴿إِذ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾ يعني: يوم استراحتهم شوارع في الماء، وهو جمع الشارع ﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾ يعني: إذا لم يكن يوم السبت ويوم الراحة لا تأتيهم. وقال بعضهم: وإنما تمّ الكلام عند قوله: ﴿تأتيهم﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ يعني: هكذا نختبرهم. وقال بعضهم: إنّما يتم الكلام عند قوله: ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ ﴿كذلك﴾ يعني: لا تأتيهم كما تأتيهم يوم السبت لأن في يوم السبت تأتيهم الحيتان شارعات من أسفل الماء إلى أعلاه، وفي سائر الأيام يأتيهم القليل، ولا يأتيهم كما يأتيهم يوم السبت. ثم ابتداء الكلام فقال: ﴿نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني: نختبرهم بما كانوا يعصون الله تعالى.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنهُمْ﴾ أي عصبة وجماعة منهم، وهي الظلمة للأمة الواعظة ﴿لم تعظون قوماً الله مُهلِكهُمْ﴾ لأن الواعظة وعظوهم عن أخذ الحيتان وخوفوهم، فرد عليهم الظلمة ﴿لم تعظون قوماً الله مُهلِكهُمْ﴾ ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عذاباً شديداً قالوا﴾ قالوا: أي الواعظة ﴿معذرةً إلى ربكُمْ﴾ قرأ عاصم في إحدى الروايتين ﴿مَعْذِرَةً﴾ بالنصب يعني: نعتذر إلى ربكم

Marfat.com

معذرةً. وقرأ الباقون بالضم يعني: هي ﴿معذرةٌ﴾ يعني: لا نَدَع الأمر بالمعروف حتى نكون معذورين عند الله تعالى ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني: ينتهون.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: تركوا ما وعظوا به ﴿أَنجَيْنَا﴾ أي من العذاب ﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: عذبنا الذين تركوا أمر الله ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ يعني: شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني: يعصون ويتركون أمر الله تعالى. وقال ابن عباس: «كان القوم ثلاثة فرق، فرقة: كانوا يصطادون، وفرقة: كانوا ينهون، وفرقة: لم ينهوا ولم يستحلوا» وقالوا للواعظة: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾.

وروى أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال: أتيت ابن عباس وهو يقرأ في المصحف ويبكي، فدنوت منه حتى أخذت بلوحي المصحف وقلت: ما يبكيك؟ قال: تبكيني هذه الأوراق وهو يقرأ سورة الأعراف. وقال: هل تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: إن الله تعالى أسكنها حياً من اليهود، وابتلاهم بحيتان حرمها عليهم يوم السبت وأحلها لهم في سائر الأيام، فإذا كان يوم السبت خرجت إليهم الحيتان، فإذا ذهب السبت غابت في البحر حتى يغوص لها الطالبون. وإن القوم اجتمعوا واختلفوا فيها. فقال فريق منهم: إنّما حرمت عليكم يوم السبت أن تأكلوها فصيدوها يوم السبت، وكلوها في سائر الأيام. وقال الآخرون: بل حرمت عليكم أن تصيدوها أو تنفروها أو تؤذوها، وكانوا ثلاث فرق: فرقة على أيمانهم، وفرقة على شمائلهم، وفرقة على وسطهم. فجعلت الفرقة اليمنى تنهاهم في يوم السبت، وجعلت تقول: الله يحذركم بأس الله. وأما الفرقة اليسرى فأمسكت أيديهم، وكفت ألسنتهم. وأما الفرقة الوسطى فوثبت على السمك تأخذه، وجعلت الفرقة الأخرى التي كفت أيديها، وألسنتها، ولم تتكلم تقول: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ فقال: ﴿الذين ينهون﴾ ﴿معذرة إلى ربكم ولعلكم تتقون﴾ فدخل الذين أصابوا السمك إلى المدينة، وأبى الآخرون أن يدخلوا معهم، فغدا هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا المدينة، فجعلوا ينادون من فيها، فلم يجبهم أحد، فقالوا: لعل الله قد خسف بهم، أو رموا من السماء بحجارة، فارفعوا رجلاً ينظر، فجعلوا رجلاً على سلم فأشرف عليهم، فإذا هم قردة تعاوي ولها أذناب قد غيّر الله تعالى صورتهم بصنيعهم، فصاح إلى القوم فإذا هم قد صاروا قردة، فكسروا الباب، ودخلوا منازلهم، فجعلوا لا يعرفون أنسابهم، فيقولون لهم: ألم ننهكم عن معصية الله تعالى، ونوصيكم؟ فيشيرون برؤوسهم بلى، ودموعهم تسيل على خدودهم، فأخبر الله تعالى أنه أنجى الذين ينهون عن السوء، وأخذ الذين ظلموا، ولا أدري ما صنع بالذين لم ينهوا» وقال عكرمة: «بل أهلكهم الله، لأنه أنجى الذين ينهون عن السوء، وأهلك الفريقين الآخرين، فوهب له ابن عباس بردين بهذا الكلام».

وروي في رواية أُخرى: أنهم كانوا يتّخذون الحظائر والحياض بجنب البحر، ويسيلون الماء فيها يوم السبت من البحر حتى يدخل السمك فيها، ويأخذونه في يوم الأحد، فقالوا: إنا

Marfat.com

نأخذه في يوم الأحد. فلما لم يعذبوا، استحلوا الأخذ في يوم السبت من البحر، وقالوا: إنما حرم الله على آبائنا ولم يحرم علينا. فنهاهم الصلحاء فلم يمتنعوا، فضربوا حائطاً بينهما، وصارت الواعظة في ناحية، والذين استحلوا في ناحية، والحائط بين الفريقين. فأصبحوا في يوم من الأيام ولم يفتح الباب الذي بينهما، فارتقى واحد منهم الحائط، فإذا القوم قد مسخوا قردة. وقال بعضهم: كان القوم أربعة أصناف: صنف يأخذون، وصنف يرضون، وصنف ينهون، وصنف يسكتون، وروى قتادة عن ابن عباس أنه قال: «هم ثلاث فرق فهلك الثاني، ونجا الثالث، والله أعلم ما فعل بالفرقة الثالثة». قرأ نافع ﴿بعذاب بِيس﴾ بكسر الباء بلا همزة، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿بعذاب بَيْأس﴾ بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة. وقرأ الباقون: ﴿بعذاب بئيس﴾ بنصب الباء وكسر الياء والهمزة وسكون الياء وهي اللغة المعروفة، والأولى لغة لبعض العرب.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ يعني: تركوا ما وعظوا به **﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾** يعني: صاغرين مبعدين عن رحمة الله.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ يعني: أعلم ربك، وكل شيء في القرآن تأذن فهو إعلام. ومعناه قال: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ أي ليسلطن ﴿عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: على بني إسرائيل، والذين لا يؤمنون يعني: بمحمد ﷺ ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعني: يعذبهم بالجزية والقتل ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب من أصرّ على كفره ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب من الشرك ﴿رَحِيمٌ﴾ بعد ذلك.

ثم قال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ يعني: وفرقناهم ﴿فِي الأَرْضِ أُمَماً﴾ يعني: فرقاً ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ يعني: المؤمنون وهم مؤمنو أهل الكتاب. ويقال: هم الذين وراء رمل عالج ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ وهم الكفار منهم ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ يعني: اختبرناهم بالخصب والجدوبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من الكفر إلى الإيمان.

ثم قال: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يعني: بعد بني إسرائيل خلف السوء ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ يقول: يستحلون أخذ الحرام من هذه

Marfat.com

الدنيا، وهو الرشوة في الحكم ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ قال مجاهد: يعني: يأخذون ما يجدون حلالاً أو حراماً ويتمنّون المغفرة ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ يعني: وإن يجدوا من الغد مثله يأخذوه. ويقال: معناه أنهم يصرون على الذنوب وأكل الحرام، فإذا أخذوا أول النهار يعودون إليه في آخر النهار ولا يتوبون عنه. ويقال: يطلبون بعلمهم الدنيا. ويقال: يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون: سيغفر لنا هذه المرة. ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ ويقولون مثل ذلك: أي سيغفر لنا لأنا لا نشرك بالله شيئاً. وقال سعيد بن جبير: ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾. يقول: يعملون بالذنوب. ويقولون: سيغفر لنا ما عملنا بالليل كفّر عنا بالنهار، وما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل. ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ يعني: الذنوب.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ يعني: ألم يؤخذ عليهم ميثاقهم في التوراة ﴿أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ يعني: إلا الصدق ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ يعني: قرؤوا ما فيه ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يعني: يتقون الشرك، ويحلون حلاله، ويحرمون حرامه ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أن الآخرة خير من الدنيا. ويقال: ﴿أفلا يعقلون﴾ ما يدرسون من الكتاب. ويقال: ﴿أفلا يعقلون﴾ أن الإصرار على الذنوب ليس من علامة المغفورين؟ قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء على وجه المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء على وجه المغايبة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ يعني: يعملون بالكتاب، يعني: بالتوراة ولا يغيرونها عن مواضعها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ يعني: أتموا الصلاة المفروضة ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يعني: عمل الموحدين وهم الذينَ ﴿يمسكون﴾ بالتخفيف. وقرأ الباقون ﴿يُمَسِّكُون﴾ بالتشديد على معنى المبالغة.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: قلعنا ورفعنا الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّة﴾ كهيئة الغمام ﴿وَظَنُّوا﴾ يعني: أيقنوا سقوطه عليهم ﴿أنه﴾ يعني: الجبل ﴿واقع بهم﴾ ﴿خُذُوا ما آتيناكُم بِقُوَّةٍ﴾ يعني: قيل لهم: اعملوا بما أعطيناكم من التوراة ﴿بقوة﴾ يعني: بجد ومواظبة ﴿وَاذْكُرُوا ما فيه﴾ يعني: اعملوا ما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي، وذلك حين أبوا أن يقبلوا التوراة، فرفع الجبل فوقهم فقبلوها.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ يعني: واذكر يا محمد ﴿إذ أخذ ربك﴾ ويقال: معناه وقد أخذ ﴿ربك من بني آدم﴾ من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال بعضهم: يعني الذرية التي تخرج وقتاً بعد وقت إلى يوم القيامة ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ يعني: إنَّ كل بالغ تشهد له خلقته بأن الله تعالى واحد قال الله تعالى: ﴿شَهِدْنَا﴾ يعني: قال الله تعالى شهدنا ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أي لكيلا تقولوا. ويقال: هذا كراهة أن يقولوا: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ وروي عن ابن عباس أنه قال: «إن الله تعالى مسح على ظهر آدم، فأخرج ذريته من صلبه كهيئة الذر، من هو مولود إلى يوم القيامة. فقال لهم: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ قالوا بلى شهدنا بأنك ربنا» قال بعضهم: هذا التفسير لا يصح، وطعنوا فيه من وجوه. أحدها: أن الرواية لم تصح، لأنها رواية أبي صالح، وأبو صالح ليس ممن يعتمد على روايته، لأنه روي عن الشعبي: أنه كان يمر بأبي صالح ويفرك أذنه ويقول له: «إنك لم تحسن أن تقرأ القرآن، فكيف تفسره»؟ قالوا: ولأن هذا غير محتمل في اللغة، لأنه قال: ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهر آدم. وقالوا: ولأنه لا يجوز من الحكيم أن يخاطب الذر، وإنما يجوز خطاب من هو عاقل، ومن كان مثل الذر فكيف يجوز خطابه؟ وقالوا: ولأنه لا يجوز أن تكون حجة الله بشيء لم يذكر، وإنما تكون الحجة بشيء يكون الإنسان ذاكراً له. قالوا: ولأن الله تعالى قال: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ولم يقل: أحييتنا ثلاث مرات. ولكن الجواب أن يقال: إن الرواية صحيحة، لأن الآثار قد جاءت عن أصحاب رسول الله ﷺ ما لا يجوز دفعه. فمن ذلك ما حدثنا الخليل بن أحمد. قال: حدثنا الماسرجسي. قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم وهو ابن عُلَيَّة عن كلثوم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم﴾ قال: «مسح الله تعالى ظهر آدم، فأخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة». فأخذ ميثاقهم وأشهدهم على أنفسهم ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾.

قال: حدثنا محمد بن داود. قال: حدثنا محمد بن أحمد بأستراباذ. قال: حدثنا أحمد بن زكريا. قال: حدثنا عبد السلام بن صالح، عن جعفر بن سليمان، عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري. قال: «حججنا مع عمر في أول خلافته فوقف على الحجر ثم قال: «إني أعلم أنك حجر لا تضرُ ولا تنفعُ، ولولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ قبّلك ما قبّلْتُك. فقال له عليٌ: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فإنه يضرُ وينفعُ بإذن الله، ولو أنكَ قرأتَ القرآن وعلمْتَ ما فيه ما أنكرْتَ عليّ ما قلتُ. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ فلما أقروا بالعبودية على أنفسهم، كتب الله إقرارهم في رق، ثم دعا هذا الحجر فقال له: افتح قال: فألقمه ذلك الرق، فهو أمين الله في هذا المكان يشهد لمن استلمه ووافاه يوم القيامة، فقال له عمر: لقد جعل الله بين ظهرانيكم من العلم غير قليل».

Marfat.com

وروى ربيع بن أنس عن ابن العالية، عن أبيّ بن كعب في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ الآية. قال: «جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً، ثم صورهم، ثم استنطقهم، ثم قال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ شهدنا بأنك ربنا. قال: فإني أرسل إليكم رسلي، وأنزل عليكم كتبي، فلا تكذّبوا رسلي، وصدّقوا بوعدي، وأخذ عهدهم وميثاقهم، فنظر إليهم آدمُ فرأى منهم الغنيَ والفقيرَ وحسنَ الصورةِ ودونَ ذلك، فقال آدم: ربِّ لو سويت بين عبادك، فقال: إني أحببت أن أشكر، قال: والأنبياء يومئذ مثل السُّرُج فأخذ عليهم ميثاق الرسالة أن يبلّغوها، فهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية.

قال الفقيه: أخبرني الثقة بإسناده عن مالك بن أنس، عن زيد بن أبي أنيسة، أنّ عبد الحميد بن عبد الرحمن عن زيد بن الخطاب، أخبره عن مسلم بن يسار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ أنه سئل عن هذه الآية فقال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هٰؤلاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ. ثُمَّ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هٰؤلاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ**». فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ. وَإِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ النَّارَ**»[1]. وبهذا احتج الجبرية أنه ما يعمل عبد عملاً من خير أو شر إلا ما قدره الله تعالى يوم الميثاق.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «لما خلق الله تعالى آدم أخرج ذريته من ظهره مثل الذرّ، فقال لأصحاب اليمين: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وقال للآخرين: هؤلاء في النار ولا أبالي».

وروى أسباط عن السدي في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية. قال: «لما أخرج الله تعالى آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء، مسح صفحة ظهر آدم اليُمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر فقال: ادخلوا الجنة برحمتي، ومسح صفحة ظهره اليسرى، فأخرج منه ذرية كهيئة الذر سوداً فقال لهم: ادخلوا النار ولا أبالي، فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ثم أخذ منهم الميثاق فقال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ فأجابه طائفة طائعين، وطائفة كارهين. فقال هو والملائكة شهدنا أن يقولوا يوم القيامة: ﴿إنا كنا عن هذا غافلين﴾.

فلما روي فيه من الأخبار من طرق شتى لا يجوز ردّها، ويرجع الطعن إلى أصحاب رسول الله ﷺ. ويجب على الطاعن أن يطعن في فهم نفسه، لا في الصحابة. وهذا كقوله:

---

(١) أخرجه مالك ٢/ ٨٩٩ والترمذي (٣٠٧٥) وأبو داود (٤٠٧٣) وأحمد ١/ ٤٥ والبغوي (٧٧).

Marfat.com

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١] أما الجواب عن قولهم: إنه قال: ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهر آدم، فالمعنى فيه والله أعلم: أنه قد أخرج ذرية آدم الذين هم ولده من صلبه، ثم أخرج من ظهورهم ذريتهم، ثم أخرج من بعدهم حتى أخرج جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة، فأخرج من ظهورهم كل نسمة تخرج من ظهر، فذكر الأخذ من ظهور ذريته، ولم يذكر ظهر آدم، لأن في الكلام دليلاً عليه كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] ولم يذكر فرعون، لأن في الكلام دليلاً عليه.

وأما الجواب عن قولهم: إنه لا يجوز خطاب الذر، فعن هذا القول جوابان. أحدهما: أنه يجوز أن يكونوا كالذر في الصغر، ورزقهم الله تعالى من العقل ما يكونوا به من أهل الخطاب. ألا ترى أن نملة سليمان بن داود عليهما السلام قد تكلمت بكلام العقلاء وفهم ذلك عنها سليمان، وسبّح الطير والجبال مع داود، فكذلك هذا. وجواب آخر: أنهم كانوا كالذر في الازدحام والكثرة، لا في الخلقة والجثة. ولكنهم في الخلقة والجثة مثل خلقتهم اليوم، لأن الذر إذا كثرت وازدحمت لا يعرف عددها، فكذلك ذرية آدم كانوا في الكثرة والازدحام مثل الذر، لا في الخلقة والجثة ولكنهم في الخلقة مثل خلقتهم اليوم.

والجواب عن قولهم: إنه لا تكون الحجة بشيء لم يذكر أن يقال: إن الله تعالى قد أرسل الرسل وأخبرهم بذلك الميثاق، وإذا أخبرهم الرسل بذلك صار حجة عليهم. فإن قيل: إن الرسل وإن أخبروهم، فإذا لم يذكروا ذلك، فكيف يصير حجة عليهم؟ قيل له: وإن لم يذكروا صار قول الثقات حجة عليهم، ألا ترى أن رجلاً لو طلق امرأته وقد نسي، فشهد عليه شاهدان عدلان بأنه قد طلقها قبل غيبته عنها يجب أن يقبل قولهما؟ وكذلك لو صلى فشهد عنده عدلان أنه ترك ركعة من صلاته، وجب عليه أن يأخذ بقولهما وإن كان لا يذكر، فكذلك هٰهنا؟

والجواب عن قولهم: إنه لم يقل أحييتنا ثلاث مرات، لأن الإحياء المعروف مرتان، فذكر الإحياء الذي كان معروفاً عنده.

وقوله تعالى: ﴿شَهِدنا﴾ قال بعضهم: هذا حكاية قول الذرية، ﴿قالوا بلى شهدنا﴾ وتم الكلام. ثم في الآية مضمر ومعناه: أخذنا عليهم الميثاق لكي لا يقولوا يوم القيامة ﴿إنا كنا عن هذا غافلين﴾ ومن قرأ بالتاء فمعناه: أخذنا عليهم الميثاق لكيلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إنا كنا عن هذا غافلين﴾. قال بعضهم: إنما تمّ الكلام عند قوله: ﴿بلى﴾ ثم إنه قال تعالى: ﴿شهدنا﴾ يعني: شهدنا عليكم وأخذنا عليكم الميثاق لكيلا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ ونقضوا العهد ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ لم نعلم به ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني: آباؤنا المشركون. فإن قيل: هل كان إقرارهم إيماناً منهم؟ قيل له: أما المؤمنون فكان إقرارهم إيماناً، وأما الكافرون فلم يكن إقرارهم إيماناً، لأن إقرارهم كان تقية، ولم يكن حقيقة. قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو ﴿ذرياتِهم﴾ بلفظ الجماعة، وقرأ

Marfat.com

الباقون ﴿ذُريتهم﴾ بلفظ الوحدان لأن الذرية قد أضافها إلى الجماعة فاستغنى عن لفظ الجمع. وقرأ أبو عمرو ﴿أن يقولوا﴾ بالياء وكذلك في قوله ﴿أو يقولوا﴾. وقرأ الباقون كلاهما بالتاء على معنى الخطاب.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يعني: هكذا نبيّن الآيات في أمر الميثاق ﴿ولعلّهمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى إقرارهم وإلى التوبة، فالواو الأولى للعطف، وهو قوله ﴿وكذلك﴾ والواو الثانية زيادة للوصل وهو قوله: ﴿ولعلهم يرجعون﴾ أي لكي يرجعوا.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٧٨)﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيهِمْ﴾ يعني: إن لم يرجعوا بذكر الميثاق، ولم يتوبوا، ولم يتعظوا، فاتل عليهم ﴿نَبأَ الَّذِي آتيناهُ﴾ يعني: خبر الذي أعطيناه ﴿آياتنا﴾ يعني: أكرمناه باسم الله الأعظم. ويقال: ﴿آتيناه آياتنا﴾ يعني: الكتاب وهي علم التوراة وغيره ﴿فانسلخ منها﴾ يعني: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها. ويقال: تهاون بها ولم يعرف حقها، ولا حرمتها، وخرج منها ﴿فأتبعَهُ الشَّيطَانُ﴾ يقول: غرّه الشيطان ﴿فكان من الغاوين﴾ يعني: فصار من الضالين. قال بعضهم: هو بلعم بن باعوراء كان عابداً من عباد بني إسرائيل، وكان مستجاب الدعوة، فنزع الله تعالى الإيمان عنه بدعاء موسى عليه السلام، وذلك أن موسى عليه السلام قاتل فرعوناً من الفراعنة، فجمع ذلك الفرعون الكهنة والسحرة، فقال لهم: أعينوني على هؤلاء يعني: على قوم موسى فقالوا له: لن تستطيعهم، ولكن بجوارك رجل منهم، فلو بعثت إليه واستعنت به. فبعث الملك إلى بلعم فلم يجبه، فبعث الملك إلى امرأة بلعم بالهدايا وطلب منها بأن تأمره بأن يجيب الملك، فجاءته امرأته وقالت: نحن في جوار هذا الرجل فلا بد لك من إجابته. فأجابها إلى ذلك، وركب أتاناً له وخرج إليهم، فسار حتى إذا كان في بعض الطريق وقفت أتانه فضربها، فلما ألح عليها كلّمته الأتان وقالت: انظر إلى ما بين يديك، فنظر فإذا هو جبريل قال له جبريل: خرجت مخرجاً ما كان ينبغي لك أن تخرج، فإذا خرجت فقل حقاً قال: فلما قدم عليه أمر له بالذهب والفضة والخدم والفرش فقبل. فقال له: قد دعوتك لتدعو لي على هذا العسكر دعوة. قال: غداً. فلما تلاقى القوم قال بلعم: إن بني إسرائيل أمة موسى ملعون من لعنهم، ومبارك من بارك عليهم. فقالوا له: ما زدتنا إلا خبالاً. قال بلعم: ما استطعت غير ما

Marfat.com

رأيت، ولكني أدلك على أمر إن فعلته فوقعوا به خُذِلوا ونصرت عليهم، تعمد إلى نساء خبيثاتٍ فتجعل عليهم بالحلي والعطر ثم ترسلهن في عسكرهم، فإن وقعوا بهن خذلوا. ففعل ذلك، فما تعرض لهن منهم إلا سفهاؤهم، فخذلوا. فأخبر بذلك موسى، فدعا عليه، فنزع الله منه الإيمان. وقال بعضهم: إنما هو أمية بن أبي الصلت قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يخبر أن نبينا يبعث، وقد أطال زمانه، وكان يُرى أن الوحي ينزل عليه لكثرة علمه، فلما سمع بخروج النبي ﷺ وقصته، كفر حسداً له. وكان النبي ﷺ إذا سمع شعره قال: «**آمن لسانه وكفر قلبه**» فذلك قوله: ﴿أتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ يعني: بالآيات، ويقال: رفعناه في الآخرة بما علمناه من آياتنا ﴿**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ**﴾ يعني: أمية بن أبي الصلت، أو بلعم بن باعوراء، مال إلى الدنيا ورضي بها ﴿**وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾ يعني: هوى نفسه ويقال: عمل بهوى المرأة وترك رضى الله. ويقال: أخذ مسافل الأمور وترك معاليها ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ**﴾ يقول: مثل بلعم كمثل الكلب ﴿**إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ**﴾ يقول: إن طردته يلهث ﴿**أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾ يعني: وإن تركته فهو يلهث. قال القتبي: كل شيء يلهث من إعياء أو عطش ما خلا الكلب، فإنه يلهث في حال الراحة والصحة والمرض، فضرب الله تعالى به مثلاً يعني: كما أن الكلب إن طردته أو تركته يلهث، فكذلك بلعم أو أمية بن أبي الصلت إن وعظته لم يتعظ، وإن تركته لم يعقل. وقال مجاهد: يعني الكفار إن قرىء عليهم الكتاب لم يقبلوا، وإن لم يقرأ عليهم لم يعملوا، فهم أهل مكة. ﴿**ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾ يعني: ذلك صفة الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ والقرآن ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ**﴾ يعني: اقرأ عليهم القرآن ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ يعني: : لكي يتعظوا بأمثال القرآن ويؤمنوا به.

قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً﴾ يعني: بئس مثل ﴿**الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾ يعني: بئس مثل من كان مثل الكلب، وإنما ضرب المثل بالكلب تقبيحاً لمذهبهم. ويقال: ﴿بئس مثل القوم الذين﴾ من كان صفتهم مثل بلعم، وهم أهل مكة ﴿كذبوا بآياتنا﴾ فلم يؤمنوا بها مثل بلعم ﴿**وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ**﴾ يعني: يضرون بأنفسهم.

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ يعني: من يهده الله لدينه فهو المهتدي من الضلالة ﴿**وَمَنْ يُضْلِلْ**﴾ يعني: ومن يضله عن دينه ويخذله ﴿**فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ بالعقوبة.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً﴾ يعني: خلقنا لجهنم كثيراً ﴿**مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ**﴾ فإن قيل: قد قال في آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فأخبر أنه

Marfat.com

خلق الجن والإنس لعبادته، وههنا يقول: خلق بعضهم لجهنم. قيل له: قد خلقهم للأمرين جميعاً، منهم من يصلح لجهنم فخلقه لها، ومنهم من يصلح للعبادة فخلقه لها، ولأن من لا يصلح لشيء لا يخلقه لذلك الشيء. ويقال: معنى قوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ يعني: للأمر والنهي. ويقال: ﴿إلا ليعبدون﴾ يعني: إلا لكي يمكنهم أن ﴿يعبدون﴾، وقد بينت لهم الطريق. ويقال: في هذه الآية تقديم وتأخير، معناه: ولقد ذرأنا جهنم لكثير من الجن والإنس.

ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ يعني: لا يعقلون بها الحق كما قال في آية أخرى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] ثم قال: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ يعني: الهدى ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: الهدى.

ثم ضرب لهم مثلاً آخر فقال: ﴿أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ﴾ فشبههم بالأنعام لقلة رغبتهم وتغافلهم عن الحق، يعني: إنهم كالأنعام في ذهنهم لا في صورهم، لأنه ليس للأنعام همٌّ إلا الأكل والشرب، فهي تسمع ولا تعقل، كذلك الكافر هو غافل عن الأمر والنهي والوعد والوعيد.

ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ يعني: الكفار أخطأ طريقاً من الأنعام، لأن الأنعام إذا عرفت أنها تركت الطريق رجعت إلى الطريق، والكفار لا يرجعون إلى الطريق. ولأن الأنعام تعرف ربها، والكفار لا يعرفون ربهم. ويقال: لمَّا نزلت هذه الآية ﴿أولئك كالأنعام﴾ تضرعت الأنعام إلى ربها، فقالت: يا ربنا شبهت الكفار بنا ونحن لا ننكر وحدانيتك. فأعذر الله تعالى الأنعام، فقال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام لأن الأنعام مطيعة لله تعالى، والكفار غير مطيعين لله تعالى.

ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ يعني: عن أمر الله تعالى وعما ينفعهم. قال الفقيه: **حدثنا** أبو جعفر. قال: **حدثنا** أبو يعقوب إسحاق بن عبد الله القاري. قال: **حدثنا** حازم بن يحيى الحلواني. قال: **حدثنا** الحسين بن الأسود. قال: **حدثنا** أبو أسامة، عن يزيد بن سنان، عن أبي منيب الحمصي عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: **«خَلَقَ اللهُ الجِنَّ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ صِنفاً حَيَّاتٍ وَعَقَارِبَ وَخَشَاشَ الأَرْضِ، وَصِنفاً كَالرِّيحِ فِي الهَوَاءِ، وَصِنفاً عَلَيْهِمُ الثَّوَابُ وَالعِقَابُ، وَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنفاً كَالبَهَائِمِ وَهُمُ الكُفَّارُ، قال الله تعالى:** ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ **وَصِنفاً آخَرَ أَجْسَادُهُم كَأَجْسَادِ بَنِي آدَمَ وَأَرْوَاحُهُم كَأَرْوَاحِ الشَّيَاطِينِ، وَصِنفاً فِي ظِلِّ اللهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ»**[(١)].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وذلك أن رجلاً دعا الله في صلاته، ودعا

---

(١) عزاه السيوطي: ٦١٣/٣ إلى الحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا وأبي يعلى وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ وابن مردويه.

Marfat.com

الرحمٰن، فقال أبو جهل: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ فأنزل الله تعالى ﴿وَلله الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الرحمن الرحيم الملك القدوس ونحوه. فدعا النبي ﷺ الرجل فقال: «ادْعُ الله أَوْ ادْعُ الرَّحْمٰنَ رَغْماً لأَنْفِ الْمُشْرِكِينَ». ويقال: ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ يعني: الصفات العلى ﴿فادعوه بها﴾. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مائَةً إلاَّ وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمِنْ أَسْمَائِهِ عَزَّ وَجَلَّ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ»(١). وقد ذكرنا تفسيرها ومن أسمائه: الأحد: وأصله الوحد بمعنى الواحد، وهو الذي ليس كمثله شيء، ومنها الصمد: وهو السيد الذي صمد إليه كل شيء، أي قصده. ومنها القيوم: وهو البالغ في القيام بكل ما خلق. ومنها الولي: يعني المتولي أمور المؤمنين. ومنها اللطيف: وهو الذي يلطف بالخلق من حيث لا يعلمون، ولا يقدرون ومنها الودود: المحب الشديد المحبة. ومنها الظاهر والباطن: الذي يعلم ما ظهر وما بطن. ومنها البديع: الذي ابتدع الخلق على غير مثال. ومنها القدوس: أي ذو البركة، ويقال: الطاهر ومنها الشهيد: الذي لا يغيب عنه شيء. ومنها الحنان: أي ذو الرحمة والعطف. ومنها المنان: الكثير المنّ على عباده. ومنها الفتاح: يعني الحاكم. ومنها الديان: يعني المجازي. ومنها الرقيب: يعني الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء. ومنها المتين: يعني الشديد القوة على أمره. ومنها الوكيل: الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق. ومنها السبوح: الذي تنزه عن كل سوء، ومنها السلام: يعني الذي سَلِم الخلق من ظلمه. ومنها المؤمن: الذي أمن الخلق من ظلمه. ومنها العزيز المنيع: الذي لا يغلبه شيء. ومنها المهيمن: يعني الشهيد. ومنها الجبار: الذي جبر الخلق على ما أراد. ومنها المتكبر: الذي تكبر عن ظلم العباد. ومنها الباري: يعني الخالق. وسائر الأسماء التي ثبتت عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة. وقال الزجاج: لا ينبغي لأحد أن يدعوه بما لم يصف به نفسه، ولم يسم به نفسه، فيقول: يا جواد ولا ينبغي له أن يقول: يا سخي، لأنه لم يسم به نفسه. وكذلك يقول: يا قوي ولا يقول: يا جلد.

ثم قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قرأ حمزة ﴿يَلْحَدون﴾ بنصب الحاء والياء، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء ﴿يُلْحِدُونَ﴾ فمن قرأ بالنصب فمعناه: وذروا الذين يميلون في أسمائه يعني: يُحَوِّرون ويمارون في أسمائه ويعدلون، فسموا اللات والعزى. ومن قرأ بالضم فمعناه: وذروا الذين يجادلون ويمارون في أسمائه. ويقال: إن الله تعالى قد احتج على الكفار بأربعة أشياء. بالخلق: وهو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن﴾

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه مسلم (٢٦٧٧) (٦) والترمذي (٣٥٠٦) وابن ماجه (٣٨٦٠) وأحمد: ٢/ ٤٢٧ والبغوي (١٢٥٦).

Marfat.com

[الحج: ٧٣] والثاني: في الملك وهو قوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ﴾ [البقرة: ١١٦]. وقال في الأوثان ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ [الزمر: ٤٣] والثالث: في القوة وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] وقال في الأوثان: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥] فوصفهم بالعجز. والرابع: بالأسماء فقال ﴿وَلله الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وقال في الأوثان ﴿وذرُوا الَّذِينَ يُلحدُون فِي أَسْمائِه﴾ ويقال: إن الكفار أرادوا أن يسموا آلهتهم الله، فجرى على لسانهم اللات وقال أهل اللغة: إنما سمي اللات لأنه عنده كان رجل يلتّ السويق، وأرادوا أن يسموا العزيز، فجرى على لسانهم العزّى. وأرادوا أن يسموا منان فجرى على لسانهم مناة، وبقيت تلك الأسماء للأصنام، وأصل الإلحاد: هو الميل، ولهذا سمي اللحد لحداً لأنه في ناحية.

ثم قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: سيثابون ويعاقبون بما كانوا يعملون من الشرك والإلحاد في الأسماء.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقّ﴾ يعني: جماعة، وهم أمة محمد ﷺ ﴿يهدون بالحق﴾ يعني: يدعون إلى الحق ويأمرون بالحق ﴿وبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعني: وبالحق يعملون. وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، قد ذكر الله تعالى هؤلاء الرهط بالخير الجسيم من بني إسرائيل إن آمنوا بك، وجعل لهم أجرين، ولنا أجراً واحداً، وقد صدقناك والرسل والكتب، فنزل: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أمة﴾ يعني: من أمة محمد ﷺ ﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بمحمد ﷺ والقرآن ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ يعني: سنأخذهم بالعذاب ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: من حيث لا يشعرون. وقال الكلبي: يعني نزيّن لهم فنهلكهم من حيث لا يعلمون. يقول: سنأتيهم بالعذاب وهم المستهزئون، فيقتل كل رجل منهم بغير قتلة صاحبه. وقال القتبي: الاستدراج أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً. ويقال:

Marfat.com

استدرج فلان فلاناً يعني: يعرف ما عنده، وأصل هذا من الدرجة، لأن الراقي يرقى درجة درجة، فاستعير من هذا كقوله تعالى ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١] يعني: الملائكة يتابعون بعضهم بعضاً كعرف الفرس. وكقوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] يعني: يمسكون عن العطية. وقال السدي: ﴿سنستدرجهم﴾ يعني: كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها، ثم نأخذهم من حيث لا يعلمون، فذلك الاستدراج.

ثم قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ يعني: وأمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ يعني: عقوبتي شديدة. ويقال: إن صنعي محكم. ويقال: إن أخذي شديد.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ يعني: أهل مكة فيما يأمرهم محمد ﷺ أن يعبدوا خالقهم، ورازقهم، وكاشف الضر عنهم، ولا يعبدوا من لا يقدر على شيء منه، أمثل هذا يكون مجنوناً؟ ويقال: معناه ﴿أو لم يتفكروا﴾ في دلائل النبي ﷺ ومعجزاته ليستدلوا بأنه نبي، وقد تم الكلام.

ثم استأنف فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ ويقال: هذا على وجه البناء، ومعناه: أو لم يتفكروا ليعلموا ﴿ما بصاحبهم من جنة﴾ يعني: جنوناً. ويقال: إن النبي ﷺ صعد ذات ليلة الصفا، فدعا قريشاً إلى عبادة الله تعالى بأسمائهم فرداً فرداً، فقال بعضهم: إن صاحبكم لمجنون. فوعظهم الله تعالى فقال ﴿أو لم يتفكروا﴾ يقول: أو لم يجالسوه ويكلموه هل به من جنون؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: رسولاً نبياً. وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ثم وعظهم ليعتبروا في صنعه فيوحدوه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: في خلق السموات والأرض ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ يعني: في السماء من الشمس والقمر والنجوم، وما خلق الله في الأرض من الجبال والبحار وغير ذلك، فيعتبروا ويؤمنوا بأن الذي خلق الذين ترون، هو ربّ واحد لا شريك له ﴿وَأَنْ عَسَىٰ﴾ يعني: ينظرون في أن عسى ﴿أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: قد دنا هلاكهم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: إن لم يؤمنوا بالقرآن فبأي حديث يؤمنون بعد القرآن. لأن هذا آخر كتاب نزل وليس بعده كتاب منزل.

ثم قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾ يعني: من يخذله الله عن دين الإسلام فلا هادي له إلى الهدى ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني: يتركهم في ضلالتهم يترددون. قرأ أبو عمرو ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياء وضم الراء على معنى الخبر. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ بالنون وضم الراء، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿وَيَذَرْهُمْ﴾ بالياء وجزم الراء، جعلوه جواب الشرط، ومعناه: من يضلل الله يذره.

Marfat.com

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسألُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ يعني: عن قيام الساعة ﴿أيان مُرساها﴾ يعني: متى حينها وقيامها. ويقال: هذا الكلام على الاختصار، ومعناه: أي أوان قيامها.

ثم قال: ﴿قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ يعني: علم قيام الساعة عند ربي، وما لي بها من علم **﴿لا يُجَلِيهَا لِوَقْتِهَا﴾** يعني: لا يكشفها لحينها ﴿إلا هو﴾ يعني: إلا الله تعالى. ويقال: لا يقدر أحد على إظهارها إلا هو. يعني: إلا الله. ويقال: لا يعلم أحد قيامها إلا هو ﴿ثَقُلَتْ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: ثقل علم قيام الساعة على أهل السموات وأهل الأرض. ويقال: ﴿ثقلت﴾ يعني: خفي علمها، وإذا خفي الشيء ثقل علمه. ويقال: معناه ثقل حمل ذكرها لفظاعة شأنها وأمرها.

ثم قال: ﴿لا تَأْتِيكُمْ إلاّ بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة. ثم قال: **﴿يَسألُونَكَ كَأنَّكَ حفِيٌ عَنهَا﴾** قال مقاتل: كأنك استحفيت عنها السؤال حتى علمتها. وقال القتبي: أي: كأنك حفي تطلب علمها. ومنه يقال: تحفى فلان بالقوم، إذا بالغ في البر. ويقال: ﴿كأنك حفي عنها﴾ يعني: كأنك جاهل بها. ويقال: في الآية تقديم ومعناه: يسألونك عنها كأنك عالم بها، قل إنما علمها عند ربي وروى إبراهيم بن يوسف بإسناده أن النبي ﷺ سأله رجل فقال: متى الساعة؟ فقال: **«مَا المَسْؤُولُ عَنهَا بِأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ عَشَرَةٌ يَقْرُبُ فِيهَا المَاحِلُ وَيطْرَفُ فيها الفَاجِرُ وَيَعْجَزُ فِيها المُنْصِفُ وَتَكُونُ الصَّلاةُ مِنّاً والزَّكَاةُ مَغرَماً، وَالأَمَانَةُ مَغنَماً، وَاسْتِطَالَةُ القُرَّاءِ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَكُونُ أَمَارَةُ الصِّبيانِ وَسُلْطَانُ النِّساءِ وَمَشُورَةُ الإمَاءِ»**.

ثم قال: ﴿قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله﴾ يعني: علم قيامها عند الله **﴿وَلَكِنَّ أكثر الناس لا يَعْلَمُونَ﴾** أنها كائنة، ولا يصدقون بها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَراً﴾ قال مقاتل: يعني لا أقدر لنفسي أن أسوق إليها خيراً، أو أدفع عنها ضراً حين ينزل بي، فكيف أملك علم الساعة **﴿إلاّ ما شاء الله﴾** فيصيبني **﴿وَلَوْ كُنتُ أعْلَمُ الغَيْبَ﴾** يعني: غيب النفع والضر إد جاء **﴿لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيرِ وما مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾** يعني: لاستكثرت من النفع وما أصابني الضر. وقال الكلبي: إن أهل مكة قالوا له: ألا يخبرك ربك بالبيع الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه فتربح فيه؟ فنزل قل لهم: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ أي من العمل الصالح ﴿من الخير﴾ للجدوبة والقحط.

Marfat.com

ويقال: لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح. وقال الضحاك: قال ﴿لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً﴾ يعني الغنى والفقر ﴿إلا ما شاء الله﴾ إن شاء أغنى عبده، وإن شاء أفقره ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ يعني: مواضع الكنوز لاستخرجتها ﴿وما مسني السوء﴾ يعني: الفقر ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ يعني: مخوف بالنار ﴿وَبَشِيرٌ﴾ يعني: مبشر بالجنة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بالبعث.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: من نفس آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: خلق من نفس آدم من ضلع من أضلاعه اليسرى زوجته حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ يعني: ليطمئن إليها ويجامعها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ يعني: سكن إليها وجامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾ يعني: خفيف الماء ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ يعني: استمرت بالحمل. يقول: قامت بالحمل وقعدت ولا تدري أهي حبلى أم لا ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ يعني: ثقل الولد في بطنها ﴿دَّعَوا الله رَبَّهُمَا﴾ وذلك أن إبليس أتاها فقال: يا حواء ما هذا الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري. قال: أخاف إنها بهيمة، وإني من الله بمنزلة، فإن دعوت الله فولدت إنساناً صالحاً أتسميه باسمي؟ قالت: نعم. وما اسمك قال: عبد الحارث فكذب، فدعت حواء وآدم، فذلك قوله: ﴿دعوا الله ربهما لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾ يعني: أعطيتنا ولداً سوياً صحيح الجوارح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وهذا قول سعيد بن جبير رواه عن ابن عباس. وروى معمر عن قتادة أنه قال: كان آدم لا يولد له ولد إلا مات، فجاءه الشيطان وقال: إنّ سرّكَ أن يعيش ولدُك فسمه عبد الحارث ففعل، فأشركا في الاسم، ولم يشركا في العبادة. وروي عن السدي أنه قال: كان اسم إبليس هو الحارث يوم لعن، فأراد أن ينسب إليه، فأمرها فسمته عبد الحارث، فعاش بعد ذلك أياماً ثم مات، فذلك قوله: ﴿فلمّا آتاهُمَا﴾ يعني: أعطاهما ﴿صَالِحاً﴾ خلقاً آدمياً سوياً ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ﴿جَعَلا لَهُ شِرْكَاء﴾ بكسر الشين وجزم الراء وقرأ الباقون ﴿شُرَكَاء﴾ بالضم ونصب الراء. فمن قرأ بالكسر فهو على معنى التسمية، وهو اسم يقوم مقام المصدر. ومن قرأ بالضم، فمعناه: ﴿جعلا له شركاء﴾ يعني: الشريك في الاسم. وإنما ذكر الشركاء وأراد به الشريك، يعني: الشيطان. فإن قيل: من قرأ بالكسر كان من حق الكلام أن

Marfat.com

يقول جعلا لغيره شركا، لأنهما لا ينكران أن الأصل لله تعالى. وإنما جعلا لغيره شركاً يعني: نصيباً. قيل له: معناه ﴿جعلا له شركاء﴾ يعني: ذا شِرْك. فذكر الشرك، والمراد به: ذا شرك كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ١٢] يعني: أهل القرية فضرب الله تعالى بهذا مثلاً للكفار يعني: كما أن آدم وحواء أعطاهما الله تعالى ولداً سوياً، جعلا له شركاً في الإسم، فكذلك الكفار خلقهم الله تعالى ورزقهم فأشركوا في عبادته.

ثم نزه نفسه عن الشرك فقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: هو أعلى وأجل من أن يوصف بالشرك.

ثم رجع إلى قصة الكفار فقال الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً﴾ يعني: أيشركون الآلهة مع الله تعالى، وهم كفار مكة، ما لا يخلق شيئاً وهي الآلهة ﴿وهم يخلقون﴾ يعني: ينحتونها ويصنعونها بأيديهم. ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ يعني لا يستطيعون نصراً لمن يعبدها ﴿وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعني: لا يستطيعون أن يمتنعوا مما نزل بهم من العذاب ﴿وإن تدعوهُمْ إلى الْهُدَى﴾ قال الكلبي يعني: الآلهة، إنْ يدعُ المشركون آلهتهم إلى أمر ﴿لا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ يعني: لا يتبعهم آلهتهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ لا يعقلون شيئاً لأنه ليس فيها روح. وقال مقاتل: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ يعني: كفار مكة ﴿لا يتبعوكم﴾ يعني: النبي ﷺ سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون، فلا يؤمنون. قرأ نافع ﴿لا يَتْبَعُوكُمْ﴾ بجزم التاء وقرأ الباقون بالنصب والتشديد وهما لغتان تَبِعْتُه وأَتْبَعْتُهُ ومعناهما واحد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ يعني: تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ يعني: مخلوقين مملوكين أشباهكم وليسوا بآلهة ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنها آلهة.

ثم قال عز وجل: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ يعني: في حوائجكم ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ يعني: يعطون بها، ويمنعون عنكم الضر ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ يعني: عبادتكم ﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: دعاءكم، وقد احتجت المشبهة بهذه الآية: أن من لا تكون له يد ولا رجل لا يصلح أن يكون إلهاً، ولكن لا حجة لهم في ذلك، لأن الله تعالى بيّن ضعف معبودهم وعجزه، وبيّن أنهم اشتغلوا بشيء لا فائدة فيه ولا منفعة لهم في ذلك.

Marfat.com

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد يعني: لكفار مكة ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ يعني: آلهتكم ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ يعني: اعملوا بي ما شئتم ﴿فَلا تُنْظِرُونِ﴾ يعني: لا تمهلون ولا تؤجلون لأنهم خوفوه بآلهتهم. قرأ أبو عمرو ﴿ثم كيدوني﴾ بالياء في حال الوصل وقرأ الباقون بغير الياء.

﴿إِنَّ وَلِيِّـۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

ثمّ قال عز وجل: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ يعني: حافظي وناصري الله الذي نزل الكتاب. يعني: القرآن. ويقال: إن الذي يمنعني منكم الله الذي أنزل جبريل بالكتاب ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ يعني: المؤمنين فيحفظهم ولا يكلهم إلى غيره.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: تعبدون من دون الله ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ يعني: لا يقدرون منعكم ﴿وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعني: يمنعون ممن أذاها، لأن الكفار كانوا يلطخون العسل في فم الأصنام، وكان الذباب يجتمع عليه فلا تقدر دفع الذباب عن نفسها.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا﴾ قال الكلبي: يعني إن دعا المشركون آلهتهم لا يسمعون أي، لا يجيبونهم ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ شيئاً. قال مقاتل: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ يعني: كفار مكة ﴿لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ الهدى.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قال ابن عباس: «يعني خذ ما أعطوك من الصدقة» يعني: ما فضل من الأكل والعيال، ثم نسخ بآية الزكاة وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] يعني: الفضل ﴿وأمر بالعرف﴾ يعني: ادعهم إلى التوحيد ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي من جهل عليك مثل أبي جهل وأصحابه، كل ذلك قبل الأمر بالقتال. ويقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ يعني: اعف عمن ظلمك، واعط من حرمك، وصلْ من قطعك.

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد. قال: حدثنا الديبلي. قال: حدثنا أبو عبد الله وقال: حدثنا سفيان عن أبيّ بن ربيعة أن رسول الله ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأعرض عن الجاهلين﴾ «أسألُ عنها جبريل». فقال جبريل: «حتى أسأل العالِم فيه، فذهب ثم أتاه، فقال: يا محمد إن الله تعالى يأمرك أن تَصِل من قطعك، وتعطي من حرمك،

Marfat.com

وتعفو عن من ظلمك»[1]. وقال القتبي في قول النبي: ﷺ «أوتيتُ جَوامِعَ الكَلِم» فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر في هذه الآية، فكيف جمع له في هذا كل خُلق عظيم، لأن في أخذ العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وصلة الأرحام، وغض البصر، وفي الإعراض عن الجاهلين الحلم، وتنزيه النفس عن مماراة السفيه، وعن منازعة اللجوج، وإنما سمي المعروف معروفاً لأن كل نفس تعرفه، وكل قلب يطمئن إليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطَانِ نَزغٌ﴾ قال مقاتل يعني: وإمَّا يفتِنَّنك الشيطان فتنة في أمر أبي جهل ﴿فاستعذ بالله﴾ قال الكلبي: أي: وإما يصيبنَّكَ ذنب من الشيطان وسوسة، فاستعذ بالله وقال الزجاج: النزغ أدنى حركة، ومعناه: إن أتاك من الشيطان أدنى وسوسة فاستعذ بالله ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: ﴿سميع﴾ لدعائك ﴿عليم﴾ بوسوسة الشيطان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني: اتقوا الشرك والفواحش ﴿إِذا مَسَّهُمْ طائفٌ من الشَّيطَانِ﴾ يعني: ذنب من الشيطان ﴿تَذَكَّرُوا﴾ يعني: عرف المتَّقي منهم أنها معصية ﴿فإذا هم مبصرون﴾ يعني: منتهون عن المعصية. وقال الزجاج: يعني: عرف المتَّقي أنها معصية ﴿تذكّروا﴾ ما أوضح الله لهم من الحجة ﴿فإذا هم مبصرون﴾ يعني: إذا هم على بصيرة. قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿طيف﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف. وروي عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ ﴿إذا مسَّهم طيفٌ﴾، والطيف: الغضب، وعن مجاهد في قوله: ﴿طائف﴾ قال الغضب.

ثم ذكر حال الكفار فقال عز وجل: ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي﴾ يعني: إخوان الشياطين يمدونهم أي: يدعونهم إلى المعصية. ويقال: يلجؤونهم إلى الشرك والضلالة. ﴿ثم لا يقصرون﴾ عنها كما أقصر المسلمون عنها حين أبصروها. قرأ نافع ﴿يُمِدونهم﴾ بضم الياء وكسر الميم، من أَمَدَّ يُمِدُّ. وقرأ الباقون ﴿يَمدونهم﴾ بالنصب من مَدَّ يَمُدُّ. قال بعضهم: هذا عطف على قوله: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا﴾ ﴿وإخوانهم يمدونهم﴾ وقال الزجاج: معناه التقديم. والمعنى: لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي﴾ يعني: الشياطين والغي: الجهل والوقوع في الهلكة.

---

(١) عزاه السيوطي ٣/٦٢٨ إلى ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم. ومن طريق ابن مردويه عن جابر.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ وذلك حين أبطأ عليه جبريل حين سألوه شيئاً ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي: هلاّ أتاهم من تلقاء نفسه؟ وهذا كقوله: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ [يونس: ١٥] ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي﴾ يعني: قل إذا أمرت بأمر فعلت ولا أبتدع ما لم أومر ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ يعني: القرآن بيان من ربكم. وقال بعض أهل اللغة: البصائر في اللغة، طريق الأمر، واحدتها بصيرة. ويقال: طريقة الدين، معناه: ظهور الشيء وبيانه ﴿وهدى ورحمة﴾ يعني: القرآن هدى من الضلالة ويقال: كرامة ورحمة من العذاب، ونعمة لمن آمن به ﴿لقوم يؤمنون﴾ يعني: يصدقون.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ وذلك أن المسلمين كانوا يتكلمون في الصلاة قبل نزول هذه الآية، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالسكوت. وروى عبد الوهاب، عن مجاهد، عن أبي العالية الرياحي قال: كان النبي عليه السلام إذا صلى فقرأ وقرأ الصحابه خلفه حتى نزل ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ فسكت القوم، وقرأ النبي ﷺ وروى قتادة عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ قال: في الصلاة. وروى مغيرة عن إبراهيم مثله، وسئل ابن عباس عن قوله: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ هذا لكل قارىء؟ قال: لا، ولكن هذا في الصلاة المفروضة»، وقال أبو هريرة مثله. وقال مجاهد: وجب الإنصات في موضعين: في الصلاة والإمام يقرأ، وفي الجمعة والإمام يخطب. وعن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم. وقال عطاء والحسن: إن هذا في الصلاة والخطبة. ويقال: ﴿فاستمعوا له وأنصتوا﴾ يعني: اعملوا بما في كتاب الله ولا تجاوزوا عنه إلى غيره ثم قال ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ يعني: لكي ترحموا ولا تعذبوا.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعاً﴾ يقول: اقرأ يا محمد إذا كنت إماماً بنفسك ﴿تضرعاً﴾ يعني: مستكيناً ﴿وَخِيفَةً﴾ يعني: خوفاً من عذابه، وهذا قول مقاتل. وقال الكلبي: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ يعني: سراً ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ يعني: العلانية حتى يسمع من خلفك. وقال الضحاك: معناه، اجهر بالقراءة في الغداة والمغرب والعشاء ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَافِلِينَ﴾ يعني: لا تغفل عن القراءة في الظهر والعصر، فإنك تخفي القراءة فيهما وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال «اذْكُرُوا الله ذِكْراً كَثِيراً خَامِلاً» قيل: وما الذكر الخامل؟ قال: «الذِّكْرُ الخَفِيُّ».

وقوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ يعني: غدوة وعشية. وروى يحيى عن أيوب عن خالد بن

Marfat.com

يزيد عن سعيد بن أبي هلال، عن من سمع عقبة بن عامر قال: «المُسِرُّ بالقراءة كالمسرّ بالصدقة، والمعلن بالقراءة كالمعلن بالصدقة».

ثم قال: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ يعني: عن القراءة في الصلاة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾ وذلك أن كفار مكة ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠] واستكبروا عن السجود فنزل ﴿إن الذين عند ربك﴾ يعني: الملائكة ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ يعني: لا يتعظمون ولا يستنكفون عن طاعته ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ يقول: ويذكرونه ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ يعني: يصلون. وقال أهل اللغة: الآصال جمع أُصُل، والأُصُل جمع الأَصِيل، والآصال جمع الجمع يعني: العشيات والله أعلم بالصواب.

Marfat.com

الفهرس

مدخل إلى التفسير ٣
١ ـ الحاجة إلى التفسير ٣
٢ ـ التفسير لغةً ٤
٣ ـ التفسير اصطلاحاً ٥
٤ ـ التأويل لغةً ٦
٥ ـ التأويل اصطلاحاً ٦
٦ ـ العلوم التي يحتاج إليهاالمفسّر ٨
٧ ـ وجوه التفسير: ما يجوز تفسيره وما
لا يجوز تفسيره ٩
٨ ـ نوعا التفسير ١١
النوع الأول: التفسير المأثور أو النقلي
ومصادره ١١
٩ ـ النوع الثاني: التفسير بالرأي ١٧
١٠ ـ التفسير والإعراب ١٨
١١ ـ التفسير والقراءات ٢١
١٢ ـ الاسرائيليات ٢٤
١٣ ـ تفسير السمرقندي ٢٦
ـ التعريف بالمصنّف وآثاره ٢٧
ـ مؤلفاته ٢٨
ـ وصف المخطوط ٢٩
مقدمة المصنّف ٣٥
تفسير بسم الله الرحمن الرحيم ٢٦

سورة فاتحة الكتاب

الآيات: ١ ـ ٧ .... ٣٩

سورة البقرة

الآيتان: ١ و٢ .... ٤٦
الآية: ٣ .... ٤٨
الآيتان: ٤ و٥ .... ٤٩
الآية: ٦ .... ٥٠
الآية: ٧ .... ٥١
الآية: ٨ .... ٥٢
الآية: ٩ .... ٥٢
الآية: ١٠ .... ٥٣
الآية: ١١ .... ٥٤
الآية: ١٢ .... ٥٤
الآية: ١٣ .... ٥٤
الآية: ١٤ .... ٥٥
الآية: ١٥ .... ٥٦
الآية: ١٦ .... ٥٦
الآية: ١٧ .... ٥٧
الآية: ١٨ .... ٥٧
الآية: ١٩ .... ٥٨
الآية: ٢٠ .... ٥٩
الآية: ٢١ .... ٦٠

Marfat.com

الآية: ٢٢ .... ٦٠
الآية: ٢٣ .... ٦١
الآية: ٢٤ .... ٦٢
الآية: ٢٥ .... ٦٢
الآية: ٢٦ .... ٦٣
الآية: ٢٧ .... ٦٤
الآية: ٢٨ .... ٦٥
الآية: ٢٩ .... ٦٦
الآية: ٣٠ .... ٦٧
الآية: ٣١ .... ٦٨
الآية: ٣٢ .... ٦٩
الآية: ٣٣ .... ٦٩
الآية: ٣٤ .... ٦٩
الآية: ٣٥ .... ٧٠
الآية: ٣٦ .... ٧١
الآية: ٣٧ .... ٧٢
الآية: ٣٨ .... ٧٣
الآية: ٣٩ .... ٧٣
الآيات: ٤٠ ـ ٤٣ .... ٧٣
الآية: ٤٤ .... ٧٥
الآية: ٤٥ .... ٧٦
الآية: ٤٦ .... ٧٦
الآية: ٤٧ .... ٧٦
الآية: ٤٨ .... ٧٧
الآية: ٤٩ .... ٧٧
الآية: ٥٠ .... ٧٨
الآيات: ٥١ ـ ٥٣ .... ٧٨
الآية: ٥٤ .... ٨٠
الآيتان: ٥٥ و٥٦ .... ٨٠
الآية: ٥٧ .... ٨١
الآيات: ٥٨ ـ ٦٠ .... ٨٢
الآية: ٦١ .... ٨٤
الآية: ٦٢ .... ٨٥
الآيتان: ٦٣ و٦٤ .... ٨٦
الآيتان: ٦٥ و٦٦ .... ٨٧
الآيات: ٦٧ ـ ٧١ .... ٨٨
الآيتان: ٧٢ و٧٣ .... ٩١
الآيتان: ٧٤ و٧٥ .... ٩١
الآيات: ٧٦ ـ ٧٨ .... ٩٣
الآية: ٧٩ .... ٩٤
الآية: ٨٠ .... ٩٤
الآيتان: ٨١ و٨٢ .... ٩٥
الآية: ٨٣ .... ٩٥
الآيات: ٨٤ ـ ٨٦ .... ٩٦
الآية: ٨٧ .... ٩٨
الآيات: ٨٨ ـ ٩٠ .... ٩٨
الآية: ٩١ .... ١٠٠
الآية: ٩٢ .... ١٠٠
الآية: ٩٣ .... ١٠٠
الآيات: ٩٤ ـ ٩٦ .... ١٠١

Marfat.com

الآيتان: ٩٧ و٩٨ .... ١٠٢
الآية: ٩٩ .... ١٠٣
الآيتان: ١٠٠ و١٠١ .... ١٠٣
الآية: ١٠٢ .... ١٠٣
الآيتان: ١٠٣ و١٠٤ .... ١٠٧
الآية: ١٠٥ .... ١٠٨
الآية: ١٠٦ .... ١٠٨
الآية: ١٠٧ .... ١٠٩
الآية: ١٠٨ .... ١١٠
الآية: ١٠٩ .... ١١٠
الآية: ١١٠ .... ١١٠
الآيتان: ١١١ و١١٢ .... ١١١
الآية: ١١٣ .... ١١٢
الآية: ١١٤ .... ١١٢
الآية: ١١٥ .... ١١٣
الآيتان: ١١٦ و١١٧ .... ١١٤
الآية: ١١٨ .... ١١٥
الآيتان: ١١٩ و١٢٠ .... ١١٥
الآية: ١٢١ .... ١١٦
الآيتان: ١٢٢ و١٢٣ .... ١١٦
الآية: ١٢٤ .... ١١٧
الآية: ١٢٥ .... ١١٨
الآية: ١٢٦ .... ١١٩
الآيات: ١٢٧ ـ ١٢٩ .... ١١٩
الآية: ١٣٠ .... ١٢١
الآيتان: ١٣١ و١٣٢ .... ١٢١
الآية: ١٣٣ .... ١٢٢
الآية: ١٣٤ .... ١٢٢
الآية: ١٣٥ .... ١٢٣
الآيتان: ١٣٦ و١٣٧ .... ١٢٣
الآية: ١٣٨ .... ١٢٤
الآية: ١٣٩ .... ١٢٥
الآية: ١٤٠ .... ١٢٥
الآية: ١٤١ .... ١٢٥
الآية: ١٤٢ .... ١٢٥
الآية: ١٤٣ .... ١٢٦
الآيتان: ١٤٤ و١٤٥ .... ١٢٧
الآيتان: ١٤٦ و١٤٧ .... ١٢٨
الآية: ١٤٨ .... ١٢٨
الآيتان: ١٤٩ و١٥٠ .... ١٢٩
الآية: ١٥١ .... ١٢٩
الآية: ١٥٢ .... ١٣٠
الآيتان: ١٥٣ و١٥٤ .... ١٣١
الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧ .... ١٣١
الآية: ١٥٨ .... ١٣٢
الآيتان: ١٥٩ و١٦٠ .... ١٣٤
الآيتان: ١٦١ و١٦٢ .... ١٣٤
الآية: ١٦٣ .... ١٣٥
الآية: ١٦٤ .... ١٣٥
الآيات: ١٦٥ ـ ١٦٧ .... ١٣٦

Marfat.com

الآيتان: ١٦٨ و١٦٩ .... ١٣٨
الآية: ١٧٠ .... ١٣٨
الآية: ١٧١ .... ١٣٩
الآيتان: ١٧٢ و١٧٣ .... ١٣٩
الآيات: ١٧٤ ـ ١٧٦ .... ١٤١
الآية: ١٧٧ .... ١٤٢
الآيتان: ١٧٨ و١٧٩ .... ١٤٤
الآيات: ١٨٠ ـ ١٨٢ .... ١٤٥
الآيات: ١٨٣ ـ ١٨٥ .... ١٤٧
الآيتان: ١٨٦ و١٨٧ .... ١٥٠
الآية: ١٨٨ .... ١٥٢
الآية: ١٨٩ .... ١٥٣
الآية: ١٩٠ .... ١٥٣
الآيات: ١٩١ ـ ١٩٤ .... ١٥٤
الآية: ١٩٥ .... ١٥٥
الآية: ١٩٦ .... ١٥٦
الآية: ١٩٧ .... ١٥٨
الآيات: ١٩٨ ـ ٢٠٠ .... ١٥٩
الآيتان: ٢٠١ و٢٠٢ .... ١٦١
الآية: ٢٠٣ .... ١٦١
الآيات: ٢٠٤ ـ ٢٠٦ .... ١٦٢
الآية: ٢٠٧ .... ١٦٣
الآيتان: ٢٠٨ و٢٠٩ .... ١٦٤
الآية: ٢١٠ .... ١٦٤
الآية: ٢١١ .... ١٦٥
الآية: ٢١٢ .... ١٦٥
الآية: ٢١٣ .... ١٦٦
الآية: ٢١٤ .... ١٦٧
الآية: ٢١٥ .... ١٦٧
الآيتان: ٢١٦ و٢١٧ .... ١٦٨
الآية: ٢١٨ .... ١٦٩
الآيتان: ٢١٩ و٢٢٠ .... ١٧٠
الآية: ٢٢١ .... ١٧٢
الآيتان: ٢٢٢ و٢٢٣ .... ١٧٢
الآيات: ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .... ١٧٤
الآيات: ٢٢٨ ـ ٢٣٠ .... ١٧٥
الآيتان: ٢٣١ و٢٣٢ .... ١٧٨
الآية: ٢٣٣ .... ١٧٩
الآية: ٢٣٤ .... ١٨٠
الآية: ٢٣٥ .... ١٨٠
الآيتان: ٢٣٦ و٢٣٧ .... ١٨١
الآيتان: ٢٣٨ و٢٣٩ .... ١٨٢
الآيات: ٢٤٠ ـ ٢٤٢ .... ١٨٤
الآية: ٢٤٣ .... ١٨٥
الآية: ٢٤٤ .... ١٨٥
الآية: ٢٤٥ .... ١٨٦
الآيات: ٢٤٦ ـ ٢٤٨ .... ١٨٧
الآيات: ٢٤٩ ـ ٢٥٢ .... ١٨٩
الآية: ٢٥٣ .... ١٩٢
الآية: ٢٥٤ .... ١٩٣

Marfat.com

الآية: ٢٥٥ .... ١٩٣
الآية: ٢٥٦ .... ١٩٥
الآية: ٢٥٧ .... ١٩٥
الآية: ٢٥٨ .... ١٩٦
الآية: ٢٥٩ .... ١٩٧
الآية: ٢٦٠ .... ١٩٩
الآيتان: ٢٦١ و٢٦٢ .... ٢٠٠
الآية: ٢٦٣ .... ٢٠١
الآية: ٢٦٤ .... ٢٠١
الآية: ٢٦٥ .... ٢٠٢
الآية: ٢٦٦ .... ٢٠٢
الآية: ٢٦٧ .... ٢٠٣
الآية: ٢٦٨ .... ٢٠٣
الآية: ٢٦٩ .... ٢٠٣
الآيتان: ٢٧٠ و٢٧١ .... ٢٠٤
الآيات: ٢٧٢ ـ ٢٧٤ .... ٢٠٥
الآيتان: ٢٧٥ و٢٧٦ .... ٢٠٦
الآيات: ٢٧٧ و٢٨١ .... ٢٠٨
الآيتان: ٢٨٢ و٢٨٣ .... ٢١٠
الآية: ٢٨٤ .... ٢١٢
الآيتان: ٢٨٥ و٢٨٦ .... ٢١٣

سورة آل عمران

الآيتان: ١ و٢ .... ٢١٧
الآيات: ٣ ـ ٥ .... ٢١٧
الآية: ٦ .... ٢١٨
الآيات: ٧ ـ ٩ .... ٢١٩
الآيتان: ١٠ و١١ .... ٢٢٠
الآية: ١٢ .... ٢٢١
الآية: ١٣ .... ٢٢٢
الآيات: ١٤ ـ ١٧ .... ٢٢٣
الآية: ١٨ .... ٢٢٥
الآية: ١٩ .... ٢٢٧
الآية: ٢٠ .... ٢٢٧
الآيتان: ٢١ و٢٢ .... ٢٢٧
الآيتان: ٢٣ و٢٤ .... ٢٢٨
الآية: ٢٥ .... ٢٢٨
الآيتان: ٢٦ و٢٧ .... ٢٢٩
الآية: ٢٨ .... ٢٣٠
الآيتان: ٢٩ و٣٠ .... ٢٣١
الآيتان: ٣١ و٣٢ .... ٢٣١
الآية: ٣٣ .... ٢٣٢
الآيات: ٣٤ ـ ٣٧ .... ٢٣٣
الآية: ٣٨ .... ٢٣٥
الآيتان: ٣٩ و٤٠ .... ٢٣٥
الآية: ٤١ .... ٢٣٦
الآيتان: ٤٢ و٤٣ .... ٢٣٧
الآيات: ٤٤ ـ ٤٦ .... ٢٣٧
الآيتان: ٤٧ و٤٨ .... ٢٣٨
الآيات: ٤٩ ـ ٥١ .... ٢٣٩
الآيتان: ٥٢ و٥٣ .... ٢٤١

Marfat.com

الآية: ٥٤ .... ٢٤٢
الآيات: ٥٥ ـ ٥٧ .... ٢٤٣
الآية: ٥٨ .... ٢٤٤
الآية: ٥٩ .... ٢٤٤
الآيتان: ٦٠ و٦١ .... ٢٤٥
الآيتان: ٦٢ و٦٣ .... ٢٤٥
الآية: ٦٤ .... ٢٤٥
الآيتان: ٦٥ و٦٦ .... ٢٤٦
الآية: ٦٧ .... ٢٤٧
الآية: ٦٨ .... ٢٤٧
الآية: ٦٩ .... ٢٤٧
الآيتان: ٧٠ و٧١ .... ٢٤٧
الآية: ٧٢ .... ٢٤٧
الآيتان: ٧٣ و٧٤ .... ٢٤٨
الآيتان: ٧٥ و٧٦ .... ٢٤٩
الآية: ٧٧ .... ٢٤٩
الآيتان: ٧٩ و٨٠ .... ٢٥٠
الآية: ٨١ .... ٢٥١
الآيتان: ٨٢ و٨٣ .... ٢٥٢
الآية: ٨٤ .... ٢٥٣
الآية: ٨٥ .... ٢٥٣
الآيات: ٨٦ ـ ٩٠ .... ٢٥٣
الآية: ٩١ .... ٢٥٥
الآية: ٩٢ .... ٢٥٥
الآيتان: ٩٤ و٩٥ .... ٢٥٦
الآيتان: ٩٦ و٩٧ .... ٢٥٦
الآيتان: ٩٨ و٩٩ .... ٢٥٨
الآيتان: ١٠٠ و١٠١ .... ٢٥٨
الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٥ .... ٢٥٩
الآيتان: ١٠٦ و١٠٧ .... ٢٦١
الآيتان: ١٠٨ و١٠٩ .... ٢٦٢
الآيتان: ١١٠ و١١١ .... ٢٦٣
الآية: ١١٢ .... ٢٦٤
الآيات ١١٣ ـ ١١٤ .... ٢٦٤
الآيات: ١١٦ و١١٧ .... ٢٦٥
الآيتان: ١١٨ و١١٩ .... ٢٦٦
الآية: ١٢٠ .... ٢٦٧
الآيتان: ١٢١ و١٢٢ .... ٢٦٧
الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٥ .... ٢٦٨
الآية: ١٢٦ .... ٢٦٩
الآية: ١٢٧ .... ٢٦٩
الآية: ١٢٨ .... ٢٧٠
الآية: ١٢٩ .... ٢٧٠
الآيتان: ١٣٠ و١٣١ .... ٢٧٠
الآيتان: ١٣٢ و١٣٣ .... ٢٧١
الآية: ١٣٤ .... ٢٧٢
الآيتان: ١٣٥ و١٣٦ .... ٢٧٣
الآية: ١٣٧ .... ٢٧٣
الآيات: ١٣٨ ـ ١٤٠ .... ٢٧٤
الآية: ١٤١ .... ٢٧٨

Marfat.com

الآيتان: ١٤٢ و١٤٣ ..... ٢٧٨
الآية: ١٤٤ ..... ٢٧٩
الآيات: ١٤٥ ـ ١٤٨ ..... ٢٧٩
الآيتان: ١٤٩ و١٥٠ ..... ٢٨٠
الآية: ١٥١ ..... ٢٨١
الآيات: ١٥٢ ـ ١٥٤ ..... ٢٨١
الآية: ١٥٥ ..... ٢٨٣
الآية: ١٥٦ ..... ٢٨٤
الآيات: ١٥٧ ـ ١٥٩ ..... ٢٨٥
الآية: ١٦٠ ..... ٢٨٥
الآيات: ١٦١ ـ ١٦٣ ..... ٢٨٦
الآية: ١٦٤ ..... ٢٨٧
الآية: ١٦٥ ..... ٢٨٧
الآيات: ١٦٦ ـ ١٦٨ ..... ٢٨٨
الآيات: ١٦٩ ـ ١٧١ ..... ٢٨٩
الآيات: ١٧٢ ـ ١٧٥ ..... ٢٩٠
الآية: ١٧٦ ..... ٢٩١
الآية: ١٧٧ ..... ٢٩٢
الآية: ١٧٨ ..... ٢٩٢
الآية: ١٧٩ ..... ٢٩٢
الآيتان: ١٨٠ و١٨١ ..... ٢٩٣
الآية: ١٨٢ ..... ٢٩٥
الآية: ١٨٣ ..... ٢٩٥
الآية: ١٨٤ ..... ٢٩٥
الآية: ١٨٥ ..... ٢٩٦
الآية: ١٨٦ ..... ٢٩٦
الآية: ١٨٧ ..... ٢٩٧
الآية: ١٨٨ ..... ٢٩٧
الآية: ١٨٩ ..... ٢٩٧
الآيتان: ١٩٠ و١٩١ ..... ٢٩٨
الآيات: ١٩٢ ـ ١٩٥ ..... ٢٩٩
الآيتان: ١٩٦ و١٩٧ ..... ٣٠١
الآية: ١٩٨ ..... ٢٠١
الآية: ١٩٩ ..... ٣٠١
الآية: ٢٠٠ ..... ٣٠٢

سورة النساء

الآية: ١ ..... ٣٠٣
الآية: ٢ ..... ٣٠٤
الآية: ٣ ..... ٣٠٥
الآيتان: ٤ و٥ ..... ٣٠٦
الآية: ٦ ..... ٣٠٧
الآيات: ٧ ـ ٩ ..... ٣٠٨
الآية: ١٠ ..... ٣٠٩
الآية: ١١ ..... ٣١٠
الآيات: ١٢ ـ ١٤ ..... ٣١٢
الآيتان: ١٥ و١٦ ..... ٣١٣
الآيتان: ١٧ و١٨ ..... ٣١٤
الآية: ١٩ ..... ٣١٥
الآيتان: ٢٠ و٢١ ..... ٣١٦
الآيتان: ٢٢ و٢٣ ..... ٣١٧

Marfat.com

الآية: ٢٤ .... ٣١٨
الآية: ٢٥ .... ٣٢٠
الآيات: ٢٦ ـ ٢٨ .... ٣٢٢
الآيات: ٢٩ ـ ٣١ .... ٣٢٣
الآيتان: ٣٢ و٣٣ .... ٣٢٤
الآية: ٣٤ .... ٣٢٥
الآية: ٣٥ .... ٣٢٦
الآية: ٣٦ .... ٣٢٧
الآيتان: ٣٧ و٣٨ .... ٣٢٨
الآيات: ٣٩ ـ ٤٢ .... ٣٢٩
الآية: ٤٣ .... ٣٣١
الآيات: ٤٤ ـ ٤٦ .... ٣٣٢
الآيتان: ٤٧ و٤٨ .... ٣٣٣
الآيتان: ٤٩ و٥٠ .... ٣٣٤
الآيات: ٥١ ـ ٥٥ .... ٣٣٥
الآيتان: ٥٦ و٥٧ .... ٣٣٦
الآية: ٥٨ .... ٣٣٧
الآية: ٥٩ .... ٣٣٨
الآيات: ٦٠ ـ ٦٣ .... ٣٣٩
الآيتان: ٦٤ و٦٥ .... ٣٤٠
الآيات: ٦٦ ـ ٦٨ .... ٣٤١
الآيتان: ٦٩ و٧٠ .... ٣٤١
الآيات: ٧١ ـ ٧٣ .... ٣٤٢
الآيات: ٧٤ ـ ٧٦ .... ٣٤٣
الآية: ٧٧ .... ٣٤٤
الآية: ٧٨ .... ٣٤٥
الآيات: ٧٩ ـ ٨١ .... ٣٤٥
الآيتان: ٨٢ و٨٣ .... ٣٤٦
الآية: ٨٤ .... ٣٤٧
الآية: ٨٥ .... ٣٤٨
الآية: ٨٦ .... ٣٤٨
الآية: ٨٧ .... ٣٤٩
الآيتان: ٨٨ و٨٩ .... ٣٤٩
الآيتان: ٩٠ و٩١ .... ٣٥٠
الآية: ٩٢ .... ٣٥١
الآية: ٩٣ .... ٣٥٣
الآية: ٩٤ .... ٣٥٤
الآيتان: ٩٥ و٩٦ .... ٣٥٥
الآيات: ٩٧ ـ ٩٩ .... ٣٥٦
الآية: ١٠٠ .... ٣٥٧
الآية: ١٠١ .... ٣٥٨
الآيتان: ١٠٢ و١٠٣ .... ٣٥٨
الآية: ١٠٤ .... ٣٦٠
الآيات: ١٠٥ ـ ١٠٩ .... ٣٦٠
الآيات: ١١٠ ـ ١١٣ .... ٣٦٢
الآيتان: ١١٤ و١١٥ .... ٣٦٣
الآيات: ١١٦ ـ ١٢١ .... ٣٦٤
الآيات: ١٢٢ ـ ١٢٤ .... ٣٦٥
الآيتان: ١٢٥ و١٢٦ .... ٣٦٧
الآية: ١٢٧ .... ٣٦٨

Marfat.com

الآية: ١٢٨ .... ٣٦٩
الآيتان: ١٢٩ و١٣٠ .... ٣٦٩
الآيات: ١٣١ ـ ١٣٤ .... ٣٧٠
الآيات: ١٣٥ ـ ١٣٧ .... ٣٧١
الآيتان: ١٣٨ و١٣٩ .... ٣٧٣
الآية: ١٤٠ .... ٣٧٤
الآيات: ١٤١ ـ ١٤٣ .... ٣٧٤
الآية: ١٤٤ .... ٣٧٥
الآيات: ١٤٥ ـ ١٤٧ .... ٣٧٦
الآيتان: ١٤٨ و١٤٩ .... ٣٧٦
الآيات: ١٥٠ ـ ١٥٢ .... ٣٧٧
الآيات: ١٥٣ ـ ١٥٨ .... ٣٧٨
الآيات: ١٥٩ ـ ١٦١ .... ٣٨٠
الآية: ١٦٢ .... ٣٨١
الآيات: ١٦٣ ـ ١٦٦ .... ٣٨٢
الآيات: ١٦٧ ـ ١٦٩ .... ٣٨٣
الآيتان: ١٧٠ و١٧١ .... ٣٨٤
الآيتان: ١٧٢ و١٧٣ .... ٣٨٥
الآيتان: ١٧٤ و١٧٥ .... ٣٨٦
الآية ١٧٦ .... ٣٨٦

سورة المائدة

الآية: ١ .... ٣٨٨
الآية. ٢ .... ٣٨٩
الآية: ٣ .... ٣٩١
الآيتان: ٤ و٥ .... ٣٩٤
الآيتان: ٦ و٧ .... ٣٩٦
الآيات: ٨ ـ ١٠ .... ٣٩٧
الآية: ١١ .... ٣٩٨
الآيتان: ١٢ و١٣ .... ٣٩٩
الآية: ١٤ .... ٤٠١
الآيتان: ١٤ و١٥ .... ٤٠٢
الآية: ١٧ .... ٤٠٣
الآيتان: ١٨ و١٩ .... ٤٠٣
الآيات: ٢٠ ـ ٢٢ .... ٤٠٤
الآيات: ٢٣ ـ ٢٦ .... ٤٠٥
الآيات: ٢٧ ـ ٣١ .... ٤٠٧
الآية: ٣٢ .... ٤٠٩
الآيتان: ٣٣ و٣٤ .... ٤١٠
الآيات: ٣٥ ـ ٣٧ .... ٤١١
الآيتان: ٣٨ و٣٩ .... ٤١٢
الآيتان: ٤٠ و٤١ .... ٤١٣
الآية: ٤٢ .... ٤١٥
الآيتان: ٤٣ و٤٤ .... ٤١٦
الآيات: ٤٥ ـ ٤٧ .... ٤١٧
الآيات: ٤٨ ـ ٥٠ .... ٤١٨
الآيات: ٥١ ـ ٥٣ .... ٤٢٠
الآية: ٥٤ .... ٤٢١
الآيتان: ٥٥ و٥٦ .... ٤٢٣
الآيتان: ٥٧ و٥٨ .... ٤٢٤
الآيات: ٥٩ ـ ٦١ .... ٤٢٥

Marfat.com

الآيتان: ٦٢ و٦٣ .... ٤٢٦
الآية: ٦٤ .... ٤٢٧
الآيتان: ٦٥ و٦٦ .... ٤٢٨
الآية: ٦٧ .... ٤٢٨
الآية: ٦٨ .... ٤٢٩
الآيات: ٦٩ ـ ٧١ .... ٤٣٠
الآيات: ٧٢ ـ ٧٤ .... ٤٣١
الآيات: ٧٥ ـ ٧٧ .... ٤٣٢
الآيات: ٧٨ ـ ٨١ .... ٤٣٣
الآيات: ٨٢ ـ ٨٦ .... ٤٣٤
الآيتان: ٨٧ و٨٨ .... ٤٣٥
الآية: ٨٩ .... ٤٣٦
الآيات: ٩٠ ـ ٩٣ .... ٤٣٨
الآيتان: ٩٤ و٩٥ .... ٤٣٩
الآية: ٩٦ .... ٤١٥
الآية: ٩٧ .... ٤١٥
الآيتان: ٩٨ و٩٩ .... ٤٤٢
الآية: ١٠٠ .... ٤٤٢
الآيتان: ١٠١ و١٠٢ .... ٤٤٣
الآية: ١٠٣ .... ٤٤٤
الآيتان: ١٠٤ و١٠٥ .... ٤٤٥
الآيات: ١٠٦ ـ ١٠٨ .... ٤٤٦
الآية: ١٠٩ .... ٤٤٨
الآية: ١١٠ .... ٤٤٩
الآيات: ١١١ ـ ١١٣ .... ٤٥٠
الآيتان: ١١٤ و١١٥ .... ٤٥١
الآيات: ١١٦ ـ ١١٨ .... ٤٥٢
الآيتان: ١١٩ و١٢٠ .... ٤٥٣

سورة الأنعام

الآيات: ١ ـ ٣ .... ٤٥٥
الآيات: ٤ ـ ٦ .... ٤٥٦
الآيات: ٧ ـ ١٠ .... ٤٥٧
الآيتان: ١١ و١٢ .... ٤٥٨
الآيات: ١٣ ـ ١٦ .... ٤٥٩
الآيات: ١٧ ـ ١٩ .... ٤٦٠
الآيات: ٢٠ ـ ٢٣ .... ٤٦١
الآيات: ٢٤ ـ ٢٦ .... ٤٦٢
الآيتان: ٢٧ و٢٨ .... ٤٦٣
الآية: ٢٩ .... ٤٦٣
الآيتان: ٣٠ و٣١ .... ٤٦٤
الآية: ٣٢ .... ٤٦٤
الآيات: ٣٣ ـ ٣٥ .... ٤٦٥
الآيتان: ٣٦ و٣٧ .... ٤٦٦
الآية: ٣٨ .... ٤٦٧
الآيات: ٣٩ ـ ٤١ .... ٤٦٧
الآيتان: ٤٢ و٤٣ .... ٤٦٨
الآيتان: ٤٤ و٤٥ .... ٤٦٨
الآيات: ٤٦ ـ ٤٩ .... ٤٦٩
الآيات: ٥٠ ـ ٥٢ .... ٣٧٠
الآيتان: ٥٣ و٥٤ .... ٤٧١

Marfat.com

الآيتان: ٥٥ و٥٦ .... ٤٧٢
الآيتان: ٥٧ و٥٨ .... ٤٧٣
الآية: ٥٩ .... ٤٧٣
الآية: ٦٠ .... ٤٧٤
الآيتان: ٦١ و٦٢ .... ٤٧٤
الآيات: ٦٣ ـ ٦٥ .... ٤٧٥
الآيتان: ٦٦ و٦٧ .... ٤٧٦
الآيات: ٦٨ ـ ٧٠ .... ٤٧٧
الآية: ٧١ .... ٤٧٨
الآيتان: ٧٢ و٧٣ .... ٤٧٨
الآيتان: ٧٤ و٧٥ .... ٤٧٩
الآيات: ٧٦ ـ ٧٩ .... ٤٨١
الآيات: ٨٠ ـ ٨٣ .... ٤٨٢
الآيات: ٨٤ ـ ٩٠ .... ٤٨٤
الآية: ٩١ .... ٤٨٥
الآية: ٩٢ .... ٤٨٦
الآيتان: ٩٣ و٩٤ .... ٤٨٧
الآيتان: ٩٥ و٩٦ .... ٤٨٨
الآيتان: ٩٧ و٩٨ .... ٤٨٩
الآية: ٩٩ .... ٤٨٩
الآيات: ١٠٠ ـ ١٠٣ .... ٤٩٠
الآيتان: ١٠٤ و١٠٥ .... ٤٩٢
الآيتان: ١٠٦ و١٠٧ .... ٤٩٢
الآية: ١٠٨ .... ٤٩٢
الآية: ١٠٩ .... ٤٩٣
الآيتان: ١١٠ و١١١ .... ٤٩٣
الآيتان: ١١٢ و١١٣ .... ٤٩٤
الآيات: ١١٤ ـ ١١٧ .... ٤٩٥
الآيتان: ١١٨ و١١٩ .... ٤٩٦
الآيتان: ١٢٠ و١٢١ .... ٤٩٧
الآيتان: ١٢٢ و١٢٣ .... ٤٩٨
الآيتان: ١٢٤ و١٢٥ .... ٤٩٨
الآيات: ١٢٦ ـ ١٢٩ .... ٥٠٠
الآيتان: ١٣٠ و١٣١ .... ٥٠١
الآيات: ١٣٢ ـ ١٣٥ .... ٥٠٢
الآيتان: ١٣٦ و١٣٧ .... ٥٠٣
الآيتان: ١٣٨ و١٣٩ .... ٥٠٤
الآية: ١٤٠ .... ٥٠٥
الآيات: ١٤١ ـ ١٤٤ .... ٥٠٦
الآيات: ١٤٥ ـ ١٤٧ .... ٥٠٩
الآيات: ١٤٨ ـ ١٥٠ .... ٥١٠
الآيات: ١٥١ ـ ١٥٣ .... ٥١١
الآيات: ١٥٤ ـ ١٥٧ .... ٥١٣
الآية: ١٥٨ .... ٥١٤
الآية: ١٥٩ .... ٥١٥
الآية: ١٦٠ .... ٥١٦
الآيات: ١٦١ ـ ١٦٣ .... ٥١٧
الآيتان: ١٦٤ و١٦٥ .... ٥١٨

سورة الأعراف

الآيات: ١ ـ ٣ .... ٥١٩

Marfat.com

الآيات: ٤ ـ ٧ .... ٥٢٠
الآيتان: ٨ و٩ .... ٥٢٠
الآية: ١٠ .... ٥٢١
الآيات: ١١ ـ ١٨ .... ٥٢١
الآيات: ١٩ ـ ٢٥ .... ٥٢٣
الآيات: ٢٦ ـ ٣٠ .... ٥٢٥
الآيتان: ٣١ و٣٢ .... ٥٢٧
الآيتان: ٣٣ و٣٤ .... ٥٢٨
الآيات: ٣٥ ـ ٣٧ .... ٥٢٩
الآيتان: ٣٨ و٣٩ .... ٥٣٠
الآيات: ٤٠ ـ ٤٣ .... ٥٣١
الآيات: ٤٤ ـ ٤٦ .... ٥٣٣
الآيات: ٤٧ ـ ٤٩ .... ٥٣٤
الآيات: ٥٠ ـ ٥٣ .... ٥٣٥
الآية: ٥٤ .... ٥٣٦
الآيات: ٥٥ ـ ٥٧ .... ٥٣٨
الآية: ٥٨ .... ٥٣٩
الآيات: ٥٩ ـ ٦٤ .... ٥٤٠
الآيات: ٦٥ ـ ٧٢ .... ٥٤١
الآيتان: ٧٣ و٧٤ .... ٥٤٣
الآيات: ٧٥ ـ ٧٩ .... ٥٤٤
الآيات: ٨٠ ـ ٨٤ .... ٥٤٥
الآيات: ٨٥ ـ ٨٧ .... ٥٤٦
الآيات: ٨٨ ـ ٩٣ .... ٥٤٧
الآيات: ٩٤ ـ ٩٩ .... ٥٤٩
الآيات: ١٠٠ ـ ١٠٢ .... ٥٥٠
الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٨ .... ٥٥١
الآيات: ١٠٩ ـ ١١٦ .... ٥٥٢
الآيات: ١١٧ ـ ١٢٧ .... ٥٥٤
الآيات: ١٢٨ ـ ١٣١ .... ٥٥٦
الآيات: ١٣٢ ـ ١٣٧ .... ٥٥٧
الآيات: ١٣٨ ـ ١٤١ .... ٥٦٠
الآيات: ١٤٢ ـ ١٤٤ .... ٥٦١
الآيات: ١٤٥ ـ ١٤٧ .... ٥٦٣
الآيتان: ١٤٨ و١٤٩ .... ٥٦٥
الآيتان: ١٥٠ و١٥١ .... ٥٦٦
الآيات: ١٥٢ ـ ١٥٤ .... ٥٦٧
الآية: ١٥٥ .... ٥٦٧
الآية: ١٥٦ .... ٥٦٨
الآية: ١٥٧ .... ٥٦٩
الآية: ١٥٨ .... ٥٧٠
الآيات: ١٥٩ ـ ١٦٢ .... ٥٧٠
الآيات: ١٦٣ ـ ١٦٦ .... ٥٧٢
الآيات: ١٦٧ ـ ١٧٠ .... ٥٧٤
الآية: ١٧١ .... ٥٧٥
الآيات: ١٧٢ ـ ١٧٤ .... ٥٧٥
الآيات: ١٧٥ ـ ١٧٨ .... ٥٧٩
الآية: ١٧٩ .... ٥٨٠
الآية: ١٨٠ .... ٥٨١
الآيات ١٨١ ـ ١٨٦ .... ٥٨٣

Marfat.com

الآيتان: ١٨٧ و١٨٨ .... ٥٨٥
الآيات: ١٨٩ ـ ١٩٣ .... ٥٨٦
الآيتان: ١٩٤ و١٩٥ .... ٥٨٧
الآيات: ١٩٦ ـ ١٩٨ .... ٥٨٨
الآيتان: ١٩٩ و٢٠٠ .... ٥٨٨
الآيات: ٢٠١ ـ ٢٠٣ .... ٥٨٩
الآيات: ٢٠٤ ـ ٢٠٦ .... ٥٩٠

Marfat.com